

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ

بكلية الدراسات الانسانية بجامعة الأزهر

فرع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

ملتن الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية
٤١٥ شارع مصرية

القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

الدولة العثمانية

دولة إسلامية مفترى عليها

تأليف

أستاذ دكتور عبد العزيز محمد الشناوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ

بكلية الدراسات الانسانية بجامعة الأزهر

فرع البنات بالقاهرة

الجزء الأول

مطبعون الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٠٠ شارع

القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٨٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« وقل رب زدنی علما »

الكتاب التالي :

دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا
وموقفها من أهل الذمة .

شعارنا :

القافلة تضيء في مسيرتها ، شوطاً بعد شوط ،
وتترك وراءها العجزة الحقةدة يتكلمون ويتآمرون .
« ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .
صدق الله العظيم .

فهرس الررس الررس

والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى سائر رسله وأنبيائه وأصفياه .

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب ، في دراسة علمية موضوعية محايدة ، تاريخ الدولة العثمانية من بعض جوانبها . وكنت قد تناولت في مؤلف سابق بعض المعالم البارزة في تاريخها السياسي منذ قيامها حتى فتح جزيرة كريت عام ١٦٦٩ (١) . وعلى مبلغ علمي لم تتعرض دولة في العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والتيل منها . وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان ، هما : الاستعمار الأوروبي والصهيونية . واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) ، والتصريحات الرسمية ومن مجموعات الوثائق التي نشرتها بعض الحكومات الأوروبية مجالاً رحيباً لإذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملاً عليها . وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة أو تجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معاً في مؤلفاتهم . واستقرت في أذهان الأجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربي والإسلامي صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقرن ذكرها في أفئدتهم بمظالم وعمى تكلدست على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تصفية وجزافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم وأراضيهم ومخاصيلهم وماشيئهم ، ومن تخلف ، ومن إجراء مذابح عامة ، ومن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية مما أدى إلى نشر الفقر والجهل والمرض . وغفل أولئك المتحاملون عن الخدمات التي أسدتها الدولة لولاياتها العربية بوجه خاص ، وهي خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها . وتناسوا أيضاً أن الدولة العثمانية واجهت أخطاراً دولية جسيمة كانت تهدد

(١) دكتور عبد العزيز عبد الشاربي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . الناشر دار

العالم العربي بأفدح الأخطار . وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية وتسليمهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلائهم على مواقع عسكرية هامة ومحاولاتهم المكرورة دخول البحر الأحمر من منفذه الجنوبي للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة لهدم الكعبة الشريفة ثم موالة الزحف على المدينة المنورة لئيش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالي لشرق الجزيرة العربية هو أول غزو أوروبي عسكري صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربية . وكان شعاره « الصليب أو المدفع » .

لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الإسلامية العثمانية أقاليم شاسعة في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، وهي أقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الإسلام انتصارات خاطفة وباهرة ، وتماقتت في أيديها دول أوروبية عديدة . وامتلات قلوب الحكومات والشعوب الأوروبية فرعاً وهدلاً من هذه الدولة الإسلامية الطارئة عليها في عقر دارها . وتعرضت الدولة في مسيرتها في أوروبا لتكتلات صليبية دولية تنادت إليها البابوية في روما وأسهمت فيها دول أوروبية عديدة . وفي بعض الأحيان تبادلت الدولة مع أعدائها الهزائم والانتصارات . ولم تترك الدول الأوروبية للدولة فرصة لالتقاط أنفاسها . وعلى الرغم من ذلك كانت الدولة تنهض من كبوتها وتعيد بناء قواتها البرية والبحرية وتستأنف مسيرتها المظفرة .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد عايشت الزمان أكثر من ستة قرون فإن إمبراطورية نابليون الأول لم تعمر أكثر من أحد عشر عاماً منذ تنويجه إمبراطوراً (١٨٠٤ - ١٨١٥) ثم انهارت هذه الإمبراطورية إلى مغيب عقب هزيمته في معركة وترلو Waterloo في اليوم الثامن عشر من شهر يوليوي - حزيران - عام ١٨١٥ أمام القائد الإنجليزي ولنجتون والقائد الروسي بلوخر Blucher ، وكذلك الإمبراطورية الثانية La Seconde Empire ، فقد انهارت هي الأخرى ، وأصبحت هباء

منبتاً بعد ثمانية عشر عاماً (١٨٥٢ - ١٨٧٠) عقب هزيمته في معركة سيدان Sedan في اليوم الثاني من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٧٠ . وتسلل نابليون الثالث مع قلة من خلبائه لواداً إلى البحر قاصدين إنجلترا المنفى التقليدي لحكام فرنسا . ومع ذلك حرص المؤرخون الأوروبيون على إحاطة تاريخ هذين العالمين بهالات من المقاسر والمجد في الوقت الذي نعتوا السلطان العثماني بأنه « السلطان المسلم الجاهل المتبربر المستغرق في ملذاته مع حواريه القاتنات » . والحق أن وصف الدولة العثمانية بأنها « دولة إسلامية مفترى عليها » هو أصدق قبلاً من أى وصف آخر .

وإذا كان تاريخ الدولة العثمانية قد تكاثرت حوله الافتراءات والأباطيل ، فليس معنى ذلك أنها كانت مبرأة من المآخذ والعيوب . فلكل دولة مزايا تذكر لها ، ومآخذ تسجل عليها . وليس من الدراسة الموضوعية ولا من الأخلاق إغفال المزايا لأى دولة والاقتصار على تسجيل عيوبها ، بل يجب عرض الجانبين معاً . ولم تغفل هذه الدراسة عن ذكرهما تمثيلاً مع منهاج البحث التاريخي .

وقد شملت هذه الدراسة جوانب مكثفة وعديدة من التاريخ الحديث والمعاصر في الشرق والغرب والتاريخ الإسلامى في العصور الوسطى والنظريات والنظم والعلوم السياسية والقانون الدولى العام والعلاقات الدولية ، فضلاً عن قواعد الشريعة الإسلامية من حيث عمليات الخصماء بنوعها ، وتعدد الزوجات ، واقتناء الجوارى وإنسال سلاطين الدولة العثمانية منهن وتغير الوضع القانونى لهؤلاء الجوارى بعد الإنجاب منهن وأنواع الفرش التى حددتها الشريعة الغراء من فراش قوى وفراش متوسط وفراش ضعيف وما إلى ذلك من دراسات تطلبها معالجة هذه الموضوعات وغيرها .

ومن حقى أن أذكر أنى كتبت معظم فصول هذا الكتاب وأنا اجتاز ظرفاً مصيبة بالغة الخطورة : وكان قيامى بهذا العمل نوعاً من المغامرة بحياتى ، إذ كنت ممنوعاً من بذل أى مجهود عقلى . وكان مطلوباً منى أن أعيش فى حالة استرخاء ذهنى كامل . وكان مما قضى مضجعى أن يدركنى الموت قبل

أن أفرغ من وضع هذا الكتاب . وشاء الله سبحانه وتعالى أن تسعني رحمته ، فأعاني على اجتياز هذه الفترة الصحية العصبية ، وعلى أن أمضى قدماً في استكمال الكتاب . ولهذا استغرق وضع الكتاب وطبعه سنين عددا .

وكانت الخطوة التي وضعتها أول الأمر لهذه الدراسة تشمل ، فيما تشتمل عليه ، سبعة فصول عن الدور الذي قامت به الدولة العثمانية في نشر الإسلام في جنوبي شرق أوروبا ووسطها ، ثم موقف الدولة من أهل الامة ، ولكني زأيت أن أكتفي بهذا القدر من الكتاب ، وأن أفرد لهذين الموضوعين دراسة إضافية ومستقلة ستظهر في قابل الأيام وفي وقت قريب بإذن الله ، لأن مادتها العلمية معتزلة في ذهني . وشرعت فعلا في كتابة بعض فصول الكتاب الجليد .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أ . د

عبد العزيز محمد الشناوى

غرة رجب عام ١٣٩٨
السابع من شهر يونيو - حزيران - عام ١٩٧٨

مصر الجديدة في

الفصل الأول

الدولة العثمانية

بعيدا عن حملات التشهير بها

الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا :

تشغل الدولة العثمانية حيزاً كبيراً للغاية في التاريخ - سواء تاريخ العالم الإسلامي أو تاريخ العالم الأوروبي المسيحي : امتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات هي : آسيا وأوروبا وإفريقية . وغدت دولة آسيوية أوروبية إفريقية . وكانت جيوشها أكثر الجيوش الأوروبية تعداداً وأحسنها تدريباً وأعظمها تسليحاً وأكلها تنظيماً . عبرت جيوشها البحر من الأناضول إلى أوروبا عام ١٣٥٦ على عهد السلطان أورخان ثاني السلاطين العثمانيين ومضت في زحفها تكتسح أقاليم مسيحية أوروبية واستولت على بلاد اليونان بما فيها شبه جزيرة المورة ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والصرب ، والمجر ، وترنسلفانيا ، والبوسنة والمهرسك وألبانيا ، والجبل الأسود . ومضت جيوشها في زحفها حتى بلغت مشارف فيينا عاصمة النمسا في أواسط أوروبا . فكانت الدولة العثمانية هي أول دولة إسلامية في التاريخ الأوروبي تصل بقواتها الجرارة إلى هذه الأراضي الأوروبية . وكان الوجود الإسلامي العثماني - العسكري والسياسي - في هذه الأقاليم الأوروبية حقيقة واقعة لا مراء فيها . وقامت الدولة ببلور هام في نشر الإسلام في أصقاع شتى من هذه الأقاليم الأوروبية . ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الإسلام طوعاً منذ وقت مبكر يرجع إلى حكم عثمان مؤسس الدولة العثمانية . وغدا الإسلام عقيدة دينية رسمية لم (١) .

وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء . فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامي أولاً ، ثم إلى السلطان ثانياً ، ثم إلى الدولة ثالثاً (١) وكانت روح الجهاد الديني غالبية في إسلام العثمانيين . وازدادت قوة وصلابة عندما استقروا في الأناضول على حدود أو على مقربة من الكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك في هذا الإقليم . واحتفظوا بهذه الروح في مسيرتهم الحربية في أوروبا . فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين ، وشعارهم الصيحة للحرب وحمل السلاح . وازدادت الروح الدينية الحربية تأججاً في نفوس العثمانيين عند ما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق ضمت عديد الدول الأوروبية . وكانت البابوية في روما تتنادى إلى هذه التكتلات . وكان الحركة الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر قد انتقلت ميادينها إلى أوروبا . ولكن شتان بين الحركتين : فالصليبيون في أوروبا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة وقفت في وجه الصليبية الأوروبية صفاً كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً . ولم تجد الحركة الصليبية في أوروبا ثغرة تنفذ منها لتفتت وحدة الصف الإسلامي العثماني . فكان النصر حليف القوات الإسلامية العثمانية في معظم المعارك الضارية التي نشبت بين الفريقين . وكانت الدولة العثمانية تروم تحويل « دار الحرب » إلى « دار الإسلام » . وسار في أثر القوات الإسلامية العثمانية القضاة والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة (٢) ، وذهب في أعقابهم أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر . وأسهم الجميع في غرس بذور الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام في أوروبا . وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية العثمانية سواء في الأناضول أو في أوروبا بنشر الإسلام . وقد انتشر انتشاراً سريعاً وواسعاً في بعض الأقاليم ، وانتشر انتشاراً وثيداً في أقاليم أوروبية

Lewis Bernard; The Emergence of Modern Turkey. Second Edition. London, 1968, p. 2. 1

(٢) انظر : هذه الدراسة ص ٢٩٦ - ٤٥٣

أخرى . وغدت العواصم التي اتخذتها الدولة العثمانية تبعاً وهي : قونية ،
بروسة ، وأدرنة ، وإستانبول مدناً إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية
والحياة الإسلامية : وتنافس السلاطين وزوجاتهم وسائر أفراد الأسرة العثمانية
الحاكمة وأثرياء العثمانيين على إقامة المساجد الرائعة والمعاهد والمدارس لتدريس
علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات إسلامية عليا ،
وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم . كما أقاموا العديد من التكايا والأسبلة
والخانقوات (١) والحمامات العامة . وأوقفوا الكثير من الأوقاف الدارة للاتفاق
من ريعها على تلك المؤسسات الدينية والخيرية .

أسماء الدولة العثمانية عبر تاريخها :

وقد عرفت الدولة العثمانية في التاريخ بعدة أسماء . ففي عصورها الأولى
أطلق العثمانيون عليها « دولت عليه » أي الدولة العلية ، ثم أطلقوا عليها
« سلطنت سنیه » أي السلطنة السنیه ، كما أطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها في
أوروبا وآسيا وإفريقية « إمبراطور لق عثمانی » أي الإمبراطورية العثمانية .
وعرفت أيضاً باسم « دولت عثمانی » أي الدولة العثمانية . وارتاح العثمانيون
للإسمين الأخيرين لاحتواء كل منهما على لقب عثمانی (٢) ، إذ كانوا يعزرون
بانتسابهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة ، وهو الذي سميت باسمه الدولة
والأمة ، ويرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم الغازي (٣) والمتكشف في
حياته الخاصة : ويدكرون عنه أنه لم يترك عندما جاز إلى ربه سوى ثوبين
وفرس (٤) . ويتضح من هذا العرض أن استخدام كلمات تركيا وأترك وتركي
وهي مصطلحات وردت من أوروبا بمعنى الدولة العثمانية والعثمانيين والعثماني
بعيد عن الدقة في الصياغة اللفظية حتى أوائل القرن العشرين . أما كلمات

(١) خانقوات أو عواصم . مفردا خانقاه . ومعناها النار التي يتطرق فيها الصوفية
للمادة والذكر وتلاوة الأوراد . والخوانق غير الخوانق التي تنمى المرض المسى اللجبة .

(٢) الصفة من اسم عثمان في اللغة التركية « عثمانل » ، وفي اللغة العربية « عثمان » .

(٣) الغازي كلمة تركية مأخوذة من اللغة العربية بمعنى المحاهد .

(٤) محمد جويل بهيم : فلسفة التاريخ العثماني . أسباب الخطأ الإمبراطورية العثمانية ووزارها .

تركي وأتراك فقد كان العثمانيون يطلقون هاتين اللفظتين على الأجناس التركية المختلفة في نظرهم والتي كانت تقطن في آسيا ، مثل السلاجقة والتركمان والأوزبك (١) Euzbeks فكان العثمانيون يمتسكون بكلمتي « عثماني » و « عثمانيين » لقباً مميزاً لم تعبراً عن اعتزازهم بانتمائهم إلى عثمان الأول من ناحية ، واستعلاء على هذه الأجناس التركية الآسيوية المترربة في نظرهم (٢) Les Barbares asiatiques de race turque من ناحية أخرى .

ومضى العصور والأجيال والأحقاب استخدم العثمانيون حتى أوائل القرن العشرين كلمتي تركي وأتراك في معنى ينبثق عن الاستعلاء الذي كان سمة بارزة في أخلاقهم . فكانوا يطلقون لفظة تركي على الفلاح العثماني الجاهل أو أحد سكان قرى الأناضول بمعنى واحد هو الجلف (٣) تهكماً عليه ، أو تحقيراً له ، أو تحزيرة به . وقد ذهب العثمانيون إلى أبعد من ذلك ، إذ كان لإطلاق كلمة تركي على أحد العثمانيين المقيمين في العاصمة أو في إحدى المدن العثمانية يعتبر إهانة له (٤) ، على الرغم من أن لقبهم كان يطلق عليها في جميع العصور التاريخية اللغة التركية (٥) .

Lavisse Ernest et Rambaud Alfred; Histoire Générale du (١)
Quatrième Siècle à Nos Jours. 12 Tomes. Paris. t. v, 3 ème édition,
1922, p. 886.

Loc. cit.

(٢)

(٣) الجلف بكسر الجيم زسكون اللام . جمعها أجلاف ، عل وزن حل وأعمال . وهي مأخوذة من أجلاف الشاة ، وهي الملوحة بلا رأس ولا قوائم ولا بطن . وكان العرب يطلقون كلمة جلف على الشخص الفظ الثرس غليظ القلب الذي لم يكتسب أخلاق أهل الحضرة في رفقهم ولين طبعهم ودماعة أخلاقهم . فإذا تخلق مثل هذا الشخص بسلوكهم الاجتماعي الممتاز فكأنه نزع جلده وليس فيه .

Lewis Bernard; op. cit., pp. 1--2, f.n. No 1, p. 2.

(٤)

(٥) يخرج بعض المؤرخين عن هذا التسميم ، فيذكرون حين يتكلمون عن اللغة التركية صارة « اللغة التركية العثمانية » .

ويحدد أحد المؤرخين الحرب العثمانية اليونانية التي اشتعلت في عام ١٨٩٧ (١) تاريخياً تغير فيه تفكيراً تاماً مدلول كلمات تركيا وأترك وتركي للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي (٢) ويستند في رأيه إلى قصيدة نظمها الشاعر العثماني محمد أمين بك بمناسبة هذه الحرب جاء فيها .
« بن بر توركم حنم اولو در » (٣) .

ومعناها « أنا تركي ، ديني وحنسي من أعظم الأديان والأجناس » . ولا يمكن الأخذ بهذا التحديد الزمني ، لأن الحالة التي تكلم عنها مينورسكي Minorsky تعد من الحالات النادرة والشخصية . أما التحديد الرسمي والقانوني والدولي لاستخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث فهو عام ١٩٢٣ حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا . وكان الباحث لمصطفى كمال أتاتورك وزعيم الحركة الكيالية وأول رئيس للجمهورية التركية على استخدام تلك الكلمات الثلاث بمعناها الحديث هو الاعتماد بشعبه عن الخط الإسلامي للدولة ونيل تقاليدها وتغيير حياتها الثقافية والاجتماعية وتشريعياتها الإسلامية ونظمها السياسية ، وازدياد الاقتراب من أوروبا في حركة عبور لشعب تركي يجتاز حلود بلاده لاستبدال حضارة أوروبية جديدة بحضارة إسلامية كانت لطبع حياة الدولة وشعبها بطابع إسلامي مسيطر وبارز .

(١) نسي هذه الحرب حرب الثلاثين يوماً ، لأنها استمرت قرابة شهر ، إذ أعلن السلطان عبد الحميد الثاني الحرب في السابع عشر من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٩٧ ، ثم أعلنت الهدنة في التاسع عشر من شهر مايو - آيار - عقب تسخّل الدول الكبرى . وأبرمت معاهدة الأستانة في اليوم الرابع من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٨٩٧ ، ونصت على أن تجلّ القوات العثمانية من إقليم ثيساليا Thessaly معاداة قرية واحدة وبعض مواقع إستراتيجية . واستولت اليونان على هذا الإقليم للمرة الثانية .

انظر أسباب الحرب وملاساتها ونصوص معاهدة الأستانة في :

• Miller W. ; The Ottoman Empire and its Successors 1801—1927.

London, 1927, pp. 435—438.

Minorsky V. ; Encycl. of Islam Art. Turan.

(٢)

Loc. Cit.

(٣)

Lewis B. ; qq. 333—343.

وانظر تفصيلات أرفى عن هذا الموضوع كتبها الأستاذ

نظرة الأوروبيين إلى الدولة العثمانية :

ونظر الأوروبيون إلى الفتوح العثمانية في أوروبا على أنها فتوح إسلامية .
ووقر في أذهانهم أن أى نصر عسكري حققه الدولة العثمانية إنما هو نصر
للإسلام وهزيمة للمسيحية . فباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣
المسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واتخذها عاصمة لدولته . واستبدل اسماً
جديداً هو إستانبول^(١) ، ومعناها دار الإسلام ، باسمها القديم وهو
المسطنطينية . وأطلق على هذا السلطان « محمد أبو الفتوح » أحياناً ، و « محمد
الفتاح » أحياناً أخرى . وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً
خطيراً هو الاستيلاء على روما مقر البابوية . ونزلت القوات الإسلامية العثمانية
في أوترانت *Otranto* في مملكة نابولي عام ١٤٨٠ ، وأمرت أحد عشر
ألفاً من سكانها، واعتزم محمد أبو الفتوح أن يتخذ من أوترانت قاعدة زحف
منها شمالاً في شبه جزيرة إيطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدم الطعام
بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية في روما . ولكن
عاجلته المنية في اليوم الثاني من شهر مايو - آيار - عام ١٤٨١، وتنفست
أوروبا الصعداء حين علمت بوفاته، وأمر البابا أن تقام صلاة الشكر *Te Deum*
ثلاثة أيام . وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان المشرع على بلغراد ثم جزيرة
رودس ، وكانت معقلاً لطائفة فرسان القديس يوحنا ، ثم دخل بودابست
عاصمة المجر . وباسم الإسلام والانتصار للإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة
عرب شمالي إفريقية في الصراع الصليبي الذي احتدم بينهم وبين الإسبانيين
والبرتغاليين الذين أرادوا احتلال هذه الأقاليم وتحويل سكانها إلى المسيحية .

(١) يرد اسمها في صيغ مختلفة هي :

إستانبول (بحرف النون)، إستانبول (بحرف الميم) ، إسلامبول (بحرف الألف واللام) .
وكان يطلق عليها في بعض الأوقات دار الخلافة ، ودار السعادة . وفي القرن التاسع عشر ،
يُرد ذكرها في كثير من فرمانات السلطانية على هذا النحو : الأستانة، وهي كلمة فارسية معناها
العبية . ولا يطلق عليها بعد إعلان النظام الجمهوري في تركيا الحديثة سوى إستانبول . انظر
تحت المصطلحات التركية في نهاية هذه الدراسة .

وبذلك حفظت الدولة العثمانية لشمالي إفريقيا إسلامه وعرويته . وأوغلت الجيوش العثمانية في زحفها على قلب أوروبا حتى بلغت مشارف فيينا . وكانت الأساطيل العثمانية تحمق أعجاداً حربية رائعة ومتلاحقة على التكتلات الصليبية وبخاصة في الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط (١) . وتساعد العداة نتيجة هذا الصراع بين أوروبا المسيحية والدولة الإسلامية العثمانية .

ولذلك لم يكن أمراً عجباً أن الأجيال المتعاقبة من الأوروبيين والتي عاصرت الدولة العثمانية على امتداد تاريخها الحافل قد ربطت في عقولها بين الإسلام والدولة العثمانية . وتنداعت إلى أفئدتهم ذكريات الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام . واعتقدوا أن هذه الدولة هي الرمز الحى للمحمد للإسلام . وبمضى السنوات والأحقاب والأدهار ازداد هذا الربط عمقاً ورسوخاً في أذهانهم . فكان إذا دخل أحد مسيحي أوروبا في الإسلام لم يقل عنه الأوروبيون إنه أصبح مسلماً ، بل قالوا عنه إنه غداً عثمانياً . حتى لو كان هذا التحول قد حدث في فاس أو أصفهان (٢) . وهكذا أصبحت عبارة الدولة العثمانية مرتبطة بالدين الإسلامى بعروة وثقى لا انفصام لها ، مما أدى إلى تصاعد موجات الحقد والعداء بين الغالبية العظمى من الحكومات والشعوب الأوروبية للدولة العثمانية بصفتها دولة إسلامية تحكم شعوباً مسيحية أوروبية .

ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولز Richard Knolles مؤرخ عصر الملكة إليزابيث Elizabeth في إنجلترا (١٥٥٨-١٦٠٣) وصف الشعور الأوروبي العام تجاه الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد أوروبا فكتب هذه الجملة المعبرة « إن الإمبراطورية العثمانية هي مصدر الرعب في العالم » (٣) . ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزوجوا بأنفسهم في الصراع المذهبي

(١) عن نشاط الأسطول العثماني أنظر ص ص ٨٦٦ - ٨٩٨ في الفصل الثامن والعشرين في هذه الدراسة .

Lewis Bernard; op. cit., p. 13.

(٢)

Lewis Bernd; Politics and War. Princeton. Near East Paper. (٣)

Number. Program in Near Eastern Studies. Princeton University. 1975. p. 199.

الدموى الذبح نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذاً تسهوى أفئدة المضطهدين والمعدنين في الأرض الأوروبية يلتمسون في رحابها الأمن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوثر في كتيب نشره في عام ١٥٤١ أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون وأصحاب الأراضي يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك ولا يعيشون في كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة في حكم الفقراء (١) .

أفاقت الحكومات والشعوب الأوروبية التي خضعت للدولة العثمانية لتجد نفسها تخضع لأول مرة في تاريخها لماكم مسلم ، ومن ثم عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامي العثماني من أراضيها ، وأسهمت معها دول أوروبية لم يمتد إليها الحكم العثماني . ولكن جمعت بينها وحدة الهدف في الانتصار للمسيحية والقضاء على الإسلام ودعم مصالحتها الاستعمارية بتوزيع الممتلكات العثمانية أسلاباً بينها . وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية فإن المحالفات الدولية التي واجهتها الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل—وما كان أكثر هذه المحالفات— كانت في لحمتها وسداها محالفات صليبية ضد الإسلام ، أملت روح صليبية ووجهتها روح صليبية . وكانت حكومات بعض الدول الأوروبية منحرض رعايا الدولة العثمانية المسيحيين على الثورة ، وتقدم بالأسلحة والذخائر والأموال لإجراء مذابح عامة بين رعايا الدولة المسلمين أصلاً ورعاياها الذين اعتنقوا الإسلام لنشر الرهبة والذعر بين هؤلاء الأخيرين حتى يرتدوا إلى المسيحية . وكانت هذه الحكومات تبذل لم وعوداً بصفية وبراقة بتعويضهم مالياً وعمرانياً إذا قُضلت أمثال هذه الثورات أو لم تسفر المذابح العامة عن تحقيق أهدافها المرجاة . وأطلقت الحكومات الأوروبية على السلطان العثماني شتى الأوصاف : فهو « رجل أوروبا المريض » حيناً ، و « المريض الذي لا يرجى شفاؤه » حيناً ثانياً ، و « المريض الذي يجب الإجهاز عليه شفقة به ورحمة عليه حتى يستريح ويربح » حيناً ثالثاً .

الدولة العثمانية دولة متوسطة :

تعد للدولة العثمانية دولة متوسطة Un Etat Méditerranéen أي .

من دول البحر المتوسط . وكان يطلق عليه العثمانيون « آق دكيزه » (١) . إذ كانت الدولة تطل على معظم سواحل هذا البحر : الساحل الشرقى بأكمله ، والساحل الجنوبي بطوله ابتداء من مصر حتى الحدود الشرقية لمراكش ، المملكة المغربية حالياً (٢) ، والساحل الشمالى فى ثلثة الشرقى تقريباً حتى البحر الأدرياتي (٣) الذى تطل على مدخله ألبانيا ، ويطلق عليها العثمانيون « أرناؤط لى » ، كما يطل عليه إقليم الجبل الأسود Montenegro ، ويطلق عليه العثمانيون « قره داغ » . وعززت الدولة العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى فى البحر المتوسط باستيلائها على عدد من الجزر الهامة القائمة فى حوضه الشرقى مثل رودس (١٥٢٢) ، وقبرص (١٥٧١) وكريت أو كريد (١٦٦٩) (٤) . وإن كانت قد أخفقت فى الاستيلاء على جزيرة مالطة عام ١٥٦٥ فى أواخر حكم السلطان سليمان المشرع بعد أن تكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الأرواح والسفن والعتاد : وكان فرسان القديس يوحنا قد اتخذوا من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم الصليبي ضد السفن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط . وظلوا بها حتى شهر يونيو - حزيران - ١٧٩٨ عقب استيلاء بونابرت عليها وهوى طريقه إلى مصر على رأس الحملة الفرنسية . ونجحت أيضاً الدولة العثمانية فى الاستيلاء على عدد من جزر البحر الأيونى وبحر

(١) أطلق العرب عدة أسماء محلية مختلفة على البحر المتوسط . وكان من بينها .

بحر الروم أو البحر الرومى على الحوض الشرقى لبحر المتوسط .

بحر الفرنج ، أو بحر الفرنجة ، أو بحر الإفرنجية على حوضه الغربى .

بحر مصر ، أو بحر الإسكندرية فى جزئه الواقع أمام الساحل المصرى .

بحر الشام ، أو البحر الشامى فى جزئه الذى تطل عليه بلاد الشام .

(٢) لم تدخل مراكش فى نطاق الأقاليم التى امتد إليها النفوذ العثمانى فى شمال إفريقيا ، لأن

هذا النفوذ لم يطل أكثر من بضعة شهور فى عام ١٥٥٤ على عهد السلطان سليمان المشرع .

وستعرض لهذا الموضوع فى موطن قادم فى هذه الدراسة (ص ص ٩٣٤ - ٩٣٦) فى ثانيا

الفصل التاسع والعشرين فى الجزء الثانى .

(٣) يطلق عليه أيضاً البحر الإدرىاتى .

(٤) كان العرب يطلقون على جزيرة كريت اسم إتريلتى .

إيجيه (١) . وكانت هذه الجزر أو معظمها جيوباً صليبية بعد انحسار موجة المد الصليبي الأوروبي عن الشرق الإسلامي بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين في بلاد الشام في اليوم الثامن عشر من شهر مايو - أيار - عام ١٢٩١ على عهد السلطان خليل ابن السلطان قلاوون من سلاطين دولة المماليك البحرية : فانخذت الحركة الصليبية من هذه الجزر قواعد عسكرية بحرية تتعرض للسفن الإسلامية ، العثمانية والعربية ، في أعلى البحار وتستولى على شحناتها ، وتأسر كبار ركابها وسيداتها ، وتقذف بالباقيين في أعماق البحر . كما كانت السفن الصليبية من وقت لآخر تقوم بغارات تخريبية مباغتة على موانئ مصر والشام والأناضول . وصحت عزيمة الدولة العثمانية على تصفية هذه الجيوب أو القواعد الصليبية تأميناً لأرواح المسلمين وأموالهم في البحر والبر من شرور الصليبيين . وهكذا سيطرت الدولة العثمانية على ما يمكن أن نسميه جزر وقواعد الخوض الشرقي للبحر المتوسط . كما سيطرت سيطرة كاملة في معظم الأوقات على البحر الأسود . وكان العثمانيون يطلقون عليه « قره ذكيز » . وجاء حين من الدهر نجح العثمانيون في جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة ، ومنعوا خروج السفن الروسية من هذا البحر إلى المياه الدافئة - أي مياه البحر المتوسط - ثم سمحوا ، تحت الضغط الروسي حيناً ، وتحت ضغط الدول الأوروبية الكبرى حيناً آخر ، بمرور السفن عبر مضيق الدردنيل وبحر مرمرة ومضيق البوسفور إلى البحر الأسود والخروج منه تحت قيود معينة . وسنعرض لهذا الموضوع في شيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة (٢) .

الدولة منحوض صراعاً حربياً ضد الدولة الصفوية في فارس :

خاضت الدولة العثمانية صراعاً حربياً ضارياً ضد الدولة الصفوية في فارس . وكان يحكم الأخيرة الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ - ١٥٢٤) ، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية . واتخذ المذهب الشيعي مذهباً رسمياً

(١) كان يطلق على جزائر بحر إيجيه « جزائر بحر سفيد » .

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ١٩٠ - ٢٢٥ .

للدولة (١) . وعمل على نشره في العراق . ونجح في ذلك إلى حد بعيد . ثم حاول نشرها المذهب في الأناضول ، وهي الموطن الأصلي للدولة العثمانية . ولقي المذهب الشيعي استجابة واسعة من رعايا الدولة وبخاصة في شرق الأناضول . واشتهر هؤلاء الشيعة باسم قزل باش (٢) أى أصحاب الرموس الحمراء . فهب السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) لاستئصال الخطر الشيعي الزاحف عليه ، وانتصر على الشاه اسماعيل في موقعة تشالديران في أغسطس - آب - عام ١٥١٤ ودخل في العام التالي تبريز العاصمة ، وهرب الشاه إلى جوف بلاد . واستولى سليم على كثير من بلاد أرمينية الغربية وما بين النهرين وتبليس وديار بكر وجميع الأراضي الجنوبية حتى الرقة والموصل وهبط بالدولة الصفوية إلى دولة من الدرجة الثانية . ثم عاد سليم إلى إستانبول ليعد العدة لصراع حربي ضد أقاليم الشرق العربي الإسلامي .

الدولة تتجه نحو الشرق العربي الإسلامي :

فتح الشام ومصر :

وفي هذا الصراع ضد الأقاليم العربية الإسلامية في الشرق ظهرت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها كدولة من دول البحر الأحمر . ولى سليم وجهه شطر بلاد الشام (٣) وكانت جزءاً من دولة المماليك الشراكسة وانتصر في معركة مرج دابق في أغسطس - آب - ١٥١٦ على السلطان الغوري .

(١) أمر الشاه اسماعيل الصفوي بعد احتلاله العرش الخطباء في أذربيجان أن تكون الخطبة باسم الأئمة الاثني عشر . وأمر المؤذنين أن يضيفوا إلى الأذان صيغة الشيعة وهي « أشهد أن علياً ولي الله » . وأمر الجنود بقتل كل من يمارس ذلك .

(٢) قزل باش كلمتان تركيتان . « قزل » معناها أحمر اللون . و « باش » معناها رأس .

(٣) أطلق فريق من المؤرخين والباحثين المسلمين عبارة « بر الشام » على بلاد الشام ، بينما أطلق فريق آخر منهم عليها « الشام » . وأطلق عليها أقرانهم الأوروبيون كلمة « سوريا » وتكتب أيضاً « سورية » و La Syrie بالفرنسية و Syria بالإنجليزية . بينما تمسك سكانها بأسماء محلية كان بعضها ذا طابع جنتراني ، وكان البعض الآخر ذا طابع طائفي . ولما فتح العثمانيون بلاد الشام قسموها إلى عدة أقسام إدارية أطلقوا على كل قسم اسماً خاصاً كما سنرى في موطن قادم في هذه الدراسة .

وتساقطت في يديه تباعاً المدن الرئيسية : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق . وانساب حنوياً واستولى على فاسطين ودخل مصر حيث انتصر على السلطان طومان باى آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة في معركة الريدانية في يناير - كانون ثان - عام ١٥١٧ ودخل سليم القاهرة في اليوم السادس والعشرين من ذات الشهر . وتم له بعد حين القبض على غريمه طومان باى واقتيد إلى المشنة . وبذلك طويت صفحة دولة المماليك الشراكسة ، وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كفيه .

دخول الحجاز وبعض مناطق في اليمن تحت السيادة العثمانية :

وفي أثناء إقامة السلطان سليم في مصر استقبل وفداً من أعيان الحجاز بعث به الشريف بركات أمير مكة المكرمة . وكان على رأس هذا الوفد ابنه « أبو نعي » وحمل معه رسالة من والده أعان فيها الشريف بركات قبوله دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وأرسل مع ابنه مفاتيح الكعبة الشريفة وبعض مخلقات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وبذلك دخل الحجاز دخولا تلقائياً وسلمياً تحت السيادة العثمانية . ونهج هذا النهج الأمراء المماليك الذين كانوا يحتلون وقتذاك بعض مناطق في اليمن . على هذا النحو دخلت في خلال سنة واحدة (١٥١٦-١٥١٧) أربعة أقاليم إسلامية عربية هامة هي : الشام ، ثم مصر ، ثم الحجاز ، ثم أجزاء من اليمن ، تحت الحكم العثماني ، وزاد عدد رعاياها المسلمين العرب زيادة كبيرة للغاية . وأصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية تقريباً . فصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرقي والغربي ، وتدمع الطابع الإسلامي العثماني للبحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) الذي خلف والده سليم الأول كلا من مصبوع وسواكن عام ١٥٥٧ منتهزاً فرصة اندلاع حرب أهلية في الحبشة . وقد نجحت الدولة في تخفيف الضغط البرتغالي على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية . كما أوقفت الاعتداء البرتغالي إلى حد جعله يعجز عن أن يمد مواقفه إلى داخل البحر الأحمر وإلى الولايات العربية الداخلية ، وحطمت المحاولات التي بلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية منهم ومن الأحباش ضد

القوى العربية الإسلامية في البحر الأحمر وشرق إفريقيا . ولكن إحتقاقاً للحق لم يكن الحجم الضئيل نسبياً من التجارة العالمية الذي استطاع العرب أن يجلبوه إلى الطريقتين التجاريين القديمين - وهما طريق العراق والشام، وطريق البحر الأحمر ومصر - على الرغم من الحصار البرتغالي لم يكن كافياً لأن يعيد الازدهار الاقتصادي الذي عاشه العرب في ظلالة الوارفة من التجارة العالمية قبل وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية . ولكن حسب الدولة العثمانية أنها أضفت الأمن والأمان على البحر الأحمر وجعلته محرراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن البرتغالية، ثم عمدت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر شمالي نجران في اليمن . فكان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في هذا الميناء ثم يعاد شحنها على سفن إسلامية يعمل عليها قباطنة وبحارة مسلمون وتمخر عباب البحر الأحمر وتتردد على نغوره حتى السويس شمالاً . وكانت حجة الدولة أو ذريعتها في هذا المنع أن أهم الأماكن الإسلامية المقدسة في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز . وتطل سواحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر . فيجب أن تكون الملاحة فيه مقصورة على السفن الإسلامية . وظلت الدولة حريصة على تطبيق هذا المبدأ حتى القرن الثامن عشر الميلادي :

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين بعامة والمؤرخين العرب بخاصة كانوا يطلقون على البحر الأحمر بحر الحجاز^(١) قبل أن تصبح الدولة العثمانية صاحبة

(١) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال :

أبو شامة . الروضين في أخبار الدولتين التورية والصلاحية . ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق المرحوم الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الشيال . ج ٢ ص ١٣٠ .

ابن لباس . بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى . ج ٤

ص ١٠٩

انظر بحثاً لدكتور حسين محمد ربيع في :

مجلة كلية العلوم الإجماعية . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

السيادة على معظم الأقاليم التي تطل على ساحليه . وكان مرد هذه التسمية إلى أن البحر الأحمر هو الطريق البحري المؤدى إلى بلاد الحجاز حيث يأتي إليها المسلمون من كل فج عميق لأداء الحج والعمرة ، أو الاعتمار فقط .

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية تضم بين أقاليمها العربية ، منذ حكم السلطان سليم الأول ، الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وعلى رأسها المسجد الحرام حيث الكعبة الشريفة في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي الشريف مثوى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في المدينة المنورة ، فضلاً عن المسجد الأقصى في فلسطين وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) ، مما أضفى على الدولة زعامة دينية في العالم الإسلامي وأضيف إلى ألقاب كل سلطان من سلاطين الدولة العثمانية لقب «حاى حى الحرمين الشريفين» تأكيداً لازعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي السنى . وأوقفت الدولة أوقافاً كثيرة على الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز . وكانت إراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف باسم «حرمين دولابى» (٢) . وجزت العادة في معظم الأوقات على تعيين كبير الأخوات الخصيان السود ناظرأ على أوقاف الحرمين . كما رصدت الدولة أوقافاً على المسجد الأقصى وأقامت أسواراً على طرفيه الجنوبي والشرقى .

١ - الرياض . العدد الأول عام ١٣٩٧ هـ تحت عنوان «بحر الحجاز في الصور الوسطى» . صص ٣٩٩-٤١٦ .

وبما يذكر أيضاً أن البحر الأحمر كان يطلق عليه «بحر القلزم» نسبة لمدينة «القلزم» الواقعة في أقصى الشمال في هذا البحر بالقرب من مدينة السويس . أما اسم «بحر السويس» فكان لا يطلق إلا على خليج السويس . ويرى البعض أن باب المنذب وخليج عدن وخليج بربرة هو نهاية البحر الأحمر من ناحية الجنوب .

(١) يقع المسجد الأقصى في الجزء الجنوبي الشرق من مدينة بيت المقدس القديمة ، وهو يمد المسجد الجامع في بيت المقدس .

(٢) انظر في هذه الدراسة صص ٤٤٥ - ٤٤٦

وكان مما أضيف على الدولة الطابع الديني الإسلامي الراسخ والمتميز أنها كانت حريصة المحرص كله على الالتزام بتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً دقيقاً في تصرفاتها وإقامة الشعائر الإسلامية واحترام التقاليد الدينية ، وأنها أنشأت ، منذ زمن مبكر ، الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وجعلت لها اختصاصات واسعة ورصدت لها موارد مالية ضخمة ، وكان شيخ الإسلام هو الذى يرأس هذه الهيئة ، وكانت تعاونه مجموعات من كبار علماء الدين يشكلون أجهزة فنية متعددة الأسماء والاختصاصات وألحقت بمكتبه . وقد أحاطت الدولة شيخ الإسلام بكل مظاهر الإجلال والتكريم وتبوأ مكاناً علياً . وكان مركزه ينادد مركز الصلوة الأعظم .

أمانات مقدسة :

أهم سلاطين الدولة بمخلفات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والتي كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامة الأخير في مصر كرمز للدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت في خزنة قصر طوب قاني وأطلق عليها « أمانات مقدسة » وهى جملة عربية وضعت في صياغة تركية . وكانت هذه الآثار تضم بردته وعرفت في اللغة التركية « خرقه شريف » . وسجادة صلاة ، والبيرق النبوى - أى العلم النبوى - وقوساً وسهماً ، وحدوة فرس ، وسناً من أسنانه ، وشعيرات من لحيته ، وحجرأ يحمل أثر قدمه ، ومفاتيح الكعبة ، ونسختين من القرآن الكريم يقال لهما كانتا للخليفين عثمان ، وعلى . وضمت إلى هذه المجموعة أسلحة وأدوات وثياب يقال إنها كانت للأنبياء السابقين والخلفاء والصحابة . وخصصت الدولة قوة عسكرية تتكون من أربعين فرداً لحراسة المخلفات النبوية . وكانت هذه القوة هى هيئة الفرقة الخاصة وتسمى « خاص أوطة ليه » وكانت بمثابة حرس شرف لبردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيرها من المخلفات النبوية . وكان يقام في منتصف شهر رمضان من كل عام حفل ديني يطلق عليه « خرقه سعادت » يرتل فيه القرآن الكريم ترتيلاً إلى ما بعد منتصف الليل ، ويحضر

هذا الحفل السلطان وشيخ الاسلام والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وقادة أسلحة الجيش والأسطول وغيرهم. واستهدفت الدولة من إقامة هذا الحفل الديني تعميق الفكرة الدينية الإسلامية في نفوس رعاياها وحملهم على مزيد من الالتصاق بالدين ونشر الجو الديني العابق في شهر رمضان المعظم .

وفتح السلطان سليمان المشرع إقليم العراق عام ١٥٣٤ وامتد النفوذ العثماني إلى الأحساء المطل على الخليج العربي ثم إلى بعض إمارات ومشيخات هذا الخليج ، كما استولى على عدن . ومن ناحية أخرى أنشئت ثلاث نيابات عثمانية في شمالي إفريقية ، هي : الجزائر ثم طرابلس ثم تونس ، وبذلك امتد النفوذ العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط . وعلى هذا النحو اتسع نطاق الوجود العثماني في العالم العربي من الجزائر غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ، ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوباً . وزاد عدد الرعايا العرب في الدولة زيادة كبيرة للغاية بعد أن اتجهت في فتوحاتها نحو العالم العربي وأصبحت ذات صبغة عربية قوية بعد أن كانت ذات طابع أناضولي وأوروبي ، كما أنها غدت تضم - فضلاً عن قلب الإسلام : مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس - العواصم والأمصار الإسلامية العربية الكبرى مثل دمشق عاصمة الدولة الأموية ، وبغداد عاصمة الدولة العباسية التي كانت مركز إشعاع حضارى للعالم ، والقاهرة عاصمة الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتي المماليك حيث قام بها الأزهر الشريف القبلية العلمية الأولى للمسلمين ، والقيروان في تونس ، والكوفة والبصرة ، وكان يطلق عليهما « المصران » (١) .

الدولة محقق نجاحاً دينياً مذهبياً في الأناضول والعالم العربي :

وقد حققت الدولة العثمانية في حربها ضد الدولة الصفوية وفي فتوحاتها في العالم العربي نجاحاً كبيراً من الناحية الدينية المذهبية . فقد استأصلت الشيعة من الأناضول . ومنعت زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي وعلى مصر . أما العراق فكانت له أوضاع خاصة . كان موطن العتبات

(١) بكسر حرف الميم ، وسكون حرف الصاد .

أو المزارات المقدسة ويضم آثار الشيعة. وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح كما ذكرنا في نشر المذهب الشيعى فى ربوع العراق وأصبح الشيعة يشكلون قطعاً رئيسياً من قطاعات السكان، ولم تقاليدهم وعاداتهم ولا يرضون عنها بديلاً، إذ أصبحت جزءاً من عقيدتهم الدينية. ولما فتح السلطان سليمان المشرع العراق ودخل بغداد فى ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٣٤ حيث أقام أربعة أشهر عمل خلالها على إرضاء مشاعر أهل السنة وأهل الشيعة معاً. ورسد أوقافاً ينفق لإرادها على أهل المذهبين. وخرج من بغداد فى رحلة تعرف فيها على قبر أبى حنيفة وأعاد بناء ضريحه. وكان الشيعة من أهل فارس قد دنسوا رفاته وهدموا القبة والضريح. وعلى الرغم من أن السلطان سليمان كان سنياً حنفياً، زار العتبات المقدسة. وكانت المنطقة التى تحيط بكر بلاه تغمرها مياه الفيضان وتصل إلى العتبات المقدسة. فأمر ببناء سور يسمى السليمانية حول المدينة لوقايتها من مياه الفيضان، ثم وسع ترعة الحسينية كى تناسب فيها المياه على مدار السنة فزرعت المنطقة حول العتبات المقدسة بالبساتين وحقول القمح. وزار قبر الإمام على فى النجف. وهكذا التمع السلطان سليمان المشرع تجاه أهل السنة والشيعة سياسة تم عن الحكمة والحصافة ورحابة الأفق العقلى. أما أهل اليمن فقد احتفظوا بمذهبهم الشيعى وهو مذهب الإمامية الزيدية. كما كانت هناك طائفة قليلة العدد نسبياً من الشيعة فى لبنان يطلق عليهم «العلويون». وفيما عدا ذلك كان سكان الولايات الدرزية من أهل السنة.

لم يكن الاحتلال العثمانى للعالم العربى استعماراً تحت ستار الدين :

ومنذ مطلع القرن العشرين ارتفعت أصوات بعض الباحثين وأشباههم ممن ليست لديهم خلفية تاريخية سليمة وعميقة يصفون الاحتلال العثمانى للعالم العربى بأنه كان شراً مستطيراً. وأهل أحدث هذه الأصوات ما كتبه بعض مستشارى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى الميثاق الذى صدر فى الحادى والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٩٦٢، إذ قالوا إن هذا الاحتلال كان استعماراً مقنعاً باسم الدين، والدين منه براء. وهم يجهلون أو يتجاهلون عدة حقائق هامة، منها أن المجتمعات

في العالم العربي وقتئذ كانت مجتمعات دينية إسلامية بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات، وأن الوشيجة الدينية ربطت المسلمين من رعايا الدولة بالسلطان العثماني بعروة وتقى على أساس أن السلطان كان الرئيس الأعلى لأكبر دولة إسلامية في العالم، وأنه بحكم منصبه كان المهيمن على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والتي كان يرأسها شيخ الإسلام - ممتى إستانبول سابقاً - وذلك قبل أن يضيق السلطان على نفسه لقب خليفة في أواخر القرن الثامن عشر لأسباب سياسية استهدف منها إرهاب الدول الأوروبية الطامعة في ممتلكات الدولة، كما أن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأصلاً وعمقاً في نفوس رعايا الدولة من العاطفة الوطنية. وعلى أحسن الفروض كانت العاطفتان الدينية والوطنية ممتزجتين متشابكتين بحيث كان يصعب الفصل بينهما. وكان يتصاعد ذلك الارتباط الوثيق بين الرعايا المسلمين والدولة كلما تعرضت لمزمنة عسكرية من الجيوش الأوروبية فكان هؤلاء الرعايا يزدادون التصاقاً بالدولة العثمانية ويزداد ولاؤهم عمقاً للسلطان العثماني .

ويرجع التصاق الولايات العربية وولاؤها للدولة العثمانية إلى أنها كانت تنظر إلى هذه الدولة على أنها الدعوى الواقي الذي يحميها من شرور أطماع الاستعمار الأوروبي، ويتيح لها في ظل الدولة العثمانية المسلمة قدراً كبيراً من الحرية في الحفاظ على تقاليدها المحلية الموروثة وفي مزاولتها شعائرها الدينية، وفي أن تحيا حياة أفضل - في نظرها على الأقل - فيما لو احتلتها دولة أوروبية مسيحية. وأطلق السكان العرب على القوات العثمانية المرابطة في بلادهم اسم «الحامية العثمانية» بدلا من «جيش الاحتلال العثماني». وعلى هذا النحو نشأت مصالح مشتركة بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية. وكانت هذه المصالح هي الروابط الدينية والمصالح السياسية والحفاظ على التقاليد الإسلامية (١).

وإذا كانت قد قامت في بعض الولايات العربية حوادث تمرد أو عصيان،

(١) دكتور محمد رفعت رمضان . حل بك الكبير . الناشر دار الفكر العربي . القاهرة .

فن الخطأ وصفها بأنها حركات استقلالية أو انفصالية عن الدولة العثمانية ، لأنها كانت حركات تزعمها أصحاب عصبيات أو قواد عسكريون (١) أو زعماء دينيون من أتباع مذاهب دينية إسلامية استهدفوا منها الانفراد بشئون الحكم والإدارة والمال على أن تكون الولاية في الأعم الأغلب في نطاق الدولة العثمانية . ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد على بعض هذه الحركات بشئ قيادتها : حركة على بك الكبير في مصر (٢) ، والزراع بين قبائل الأكراد والباشوات العثمانيين في العراق ، وكذلك الزراع بين الزيدية والدولة العثمانية في اليمن وأسفر في إحدى مراحلها عن عقد اتفاق دحان (٣) .



(١) يستقى من هؤلاء القواد العسكريين قائدان أحدهما جان بردي النزالي نائب الشام فقد أعلن نفسه سنة ١٥٢٠ على عهد السلطان سليمان المشرع سلطاناً على الشام وأمر بأن يذكر اسمه دون سواه في خطبة الجمعة وأن تضرب السكة باسمه على العملات الذهبية والفضية ، وأطلق على نفسه والملك الأشرف أبو الفتوحات « وزينت له دمشق ثلاثة أيام وأوقدت له الشموع أمام الخلات . وقبل له الأمراء الأرض . وقد قتلت قواته في دخول حلب وانتهت حركته بالقتل . وتولى مصرعه وأرسلت رأسه إلى إسطنبول .

انظر :

ابن إياس ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٣٦٧-٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣-٣٧٧ ، ٣٨٤-٣٨٣ .

أما القائد الآخر مهر أحمد باشا ثالث الولاية العثمانية على مصر . تولى منصبه في أغسطس - آب - ١٥٢٤ وسولت له نفسه العصيان على النولة وأمر بأن يضرب باسمه في المساجد وأن تضرب العملة باسمه واستفحلت حركته . وقد تصدى له الإنكشارية وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى إسطنبول . وكانت مدة ولايته ستة أشهر .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني . بحوث الندوة الدولية لألفية القاهرة (٢٧ مارس - آذار - ٥ أبريل - نيسان ١٩٦٩) . مطبعة دار الكتب بالقاهرة . ج ٢ ، ص ١٩٧١ ، ص ٦٦٧ - ٧٢٥ .

(٣) انظر خطاب الإمام يحيى إلى وفد علماء مكة المكرمة بتاريخ ١٨ من شهر شعبان عام ١٣٢٥ الموافق ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٠٧ وقد أعلن فيه ولاءه وخضوعه للسلطان العثماني . ولكنه طالب في ذات الوقت بالاعتراف بوضعه الخاص في اليمن . وانظر أيضاً - لنعرض اتفاق دحان الذي عقد بين الإمام يحيى والواء أحمد عزت باشا في فترة شهر ذي القعدة -

ب وفاة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٦٦ ينتهى العصر الأول من تاريخ الدولة وهو عصرها الذهبي ، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحربية والتوسع الإقليمى المطرد . ويبدأ العصر الثانى وقد تولى فيه الحكم عدد من السلاطين أطلق على عدد كبير منهم « السلاطين التنابهة » (١) Les Sultans Fainéants انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم وانغمسوا فى حياة الخجون مع الخوارى الفاتنات فى الحریم السلطانى . وأصبحت الكلمة العليا فى الدولة لمراكز القوى ، وهى : القبائل الإنكشارية ، والحریم السلطانى ، والأغوات الخصيان . وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث . وكانت معاهدة كارلوفتز Karlovitz (٢٦ من يناير - كانون ثان - عام ١٦٩٩) أول معاهدة تفرض عليها كدولة منهزمة بعد حرب خاضتها وتنازلت فيها عن أقاليم واسعة كانت تحت الحكم العثمانى وتعد جزءاً من دار الإسلام وانتقلت إلى دار الحرب . فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سبيلًا للقرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة . وتعاقب فرض معاهدات جائرة عليها . واستطاع اضمحلالها فترة ناهزت المائة والخمسين عاماً لأنها كانت دولة ذات جذور عميقة ودعائم راسخة بحيث لم يكن من السهل أن تختفى هذه الدولة العملاقة فى سنوات ذات عدد . ويعد مؤتمر برلين الأوروبى (١٨٧٨) هو بداية النهاية بالنسبة لها . إذ تكتلت عليها فى هذا المؤتمر وفى خلال السنوات القليلة التى لحقت بالدول الكبرى مثل روسيا ، والنمسا والمجر ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والكيانات السياسية البلقانية التى كانت خاضعة للدولة ونجحت هذه وتلك فى تمزيق أوصال الدولة . واستطاع السلطان عبد الحميد الثانى فى ظروف متناهية فى ظلامها وقسوتها أن يحافظ على تماسك ما تبقى من الدولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يتمسك بتقاليد وطابعها الإسلامى

= عام ١٣٢٩ الموافق ٢٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١١ فى : دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث . اليمن والإمام يحيى . (١٩٠٤-١٩٤٨) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية . القاهرة ، ١٩٦٣ ، صص ٤٨٩ - ٤٩٧ .
(١) أنظر صص ٦٠٣-٦٠٤ فى هذه الدراسة .

حتى إذا عزله رجال الطغيان العسكري وبعض الصهيونيين عام ١٩٠٩ (١) انفردوا بالحكم وزجوا بالدولة في مغامرات خارجية لتغذية فشلهم في الحكم . وكانت النتيجة أن سقطت الدولة في أعقاب الحرب العالمية الأولى بعقد هدنة مندروس Mudros (٣٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨) ومعاهدة سيفر Sèvres (١٠ من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠) .

مدى نجاح الدولة في نشر الإسلام في أوروبا :

ولم تنجح الدولة العثمانية نجاحاً كلياً في نشر الإسلام بين جميع رعاياها المسيحيين في ولاياتها الأوروبية لأسباب خارجة عن إرادتها . وسنبسط هنا الموضوع في شيء من التفصيل في كتابنا القادم بمشيئة الله وهو « دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا وموقفها من أهل اللمة » . ولكن النجاح « المحدود » الذي حققته الدولة في مجال الدعوة الإسلامية كان من حيث نتائجه وآثاره أكثر بكثير من نجاح الدولة في فتوحاتها العسكرية الإسلامية وفي عثمانة L'Ottomanisation الشعوب المسيحية الأوروبية التي دانت لحكمها (٢) فإن الفتوحات الإسلامية العثمانية قد انحسرت في القرون التالية للقرن السادس عشر حيث بلغت الدولة أقصى اتساعها الإقليمي في هذا القرن : وأصبحت الفتوحات الإسلامية العثمانية تاريخياً روى للأجيال المتعاقبة عن مجد عسكري ذوى : أما العثمنة فكادت تكون معدومة . ولكن تركت الدولة بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوروبا . فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات إسلامية تعيش إلى اليوم على ترقى الأرض الأوروبية التي كانت جزءاً من الممتلكات العثمانية وتشكل على نحو من الأنحاء أقاليم هامة من « دار الإسلام » . ولم ترض هذه الجماعات الإسلامية عن دينها بديلاً . وقاومت شتى أنواع الضغوط التي بلدت لتحويلها إلى المسيحية بعد أن

(١) يُنظر العصلين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين همنان (آراء محايدة في حكم السلطان عبد الحميد الثاني) في الجزء الثاني في هذه الدراسة .

(٢) انظر في هذه الدراسة صص ٣٢١ - ٣٢٧ ، ٤٠٠ - ٣٤٣ .

غاب النفوذ الإسلامي العثماني - العسكري والسياسي - عن هذه الأقاليم ، وجاءت على أنقاضها دول مسيحية ذات حكومات مسرفة في تعصبها تروم القضاء على كل أثر إسلامي تركه العثمانيون وراءهم . ولكن ظل الأثر الحى المبدى الباقي من الحكم العثماني في أوروبا : جماعات إسلامية تعيش إلى الوقت الحاضر في بلغاريا ، ورومانيا ، وألبانيا (١) ، واليونان ، ويوغوسلافيا بما كانت تضمه الدولة الأخيرة قبل إنشائها من أقاليم كانت تسمى الصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك فضلا عن بعض الجزر القائمة في الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبحر إيجه وبحر الأرخيبيل .

ونسوق هنا مثالا يوضح هذه الحقيقة: فقد شهد الأسبوع الأول من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٧٧ أكبر حدث إسلامي ديني وثقافي في أوروبا ، إذ افتتحت لأول مرة كلية للدراسات الإسلامية في يوغوسلافيا حيث يعيش فيها اليوم أربعة ملايين مسلم . وستكون هذه الكلية نواة لجامعة إسلامية تلتحق بالعمل الإسلامي في أوروبا خطوات واسعة . واشترك في افتتاح الكلية ، وقد أقيمت في مدينة سراجيفو Sarajevo عدد كبير من وفود الدول الإسلامية والجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا واشترك مندوب عن الأزهر الشريف تحدث باسم مصر . وتقوم الكلية حالياً بإعداد العلماء والأئمة والوعاظ والمدربين ومن إلهم من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية في أوروبا برطاً للجيل الجديد من مسلمي أوروبا بالإسلام وغرس مبادئه في قلوبهم . وهكذا

(١) أغلقت المساجد وكذلك الكنائس والمعابد اليهودية في ألبانيا منذ أن ساد الحكم الشيوعي هذه البلاد في الستينيات من القرن العشرين . وكان عددها ٢١٦٩ مسجداً وكنيسة وبيعة . وقد تم إلحاقها بزيادة الشعب الألباني كما جاء في البيانات الرسمية . وقد نص الدستور الألباني الشيوعي على تجريم النشاط الدينى أيها كان نوعه . وقامت السلطات الشيوعية في ألبانيا بهم عدد من دور العبادة ، واحتفظت بقلة منها كعلم ثقافية أثرية ، بينما أعادت فتح بقيتها كدور المسارح والسينما أو كساكن أو كمتاحف .

نجد أن المسلمين في يوغوسلافيا - وهم حفدة أولئك الذين اعتنقوا الإسلام لبان الحكم العثماني - عملوا على حفظ التراث الإسلامي ودراسته وتجليته ونشره ، وإيجاد أجيال صاعدة من المسلمين يجمعون إلى الكفاية العلمية والمهنية التي اكتسبوها في المجتمعات الأوروبية الإيمان بالله والثقة في العقيدة والشريعة ويقفون سداً متيناً في وجه الدعوة التي تقوم بها القاديانية والبهائية في أوروبا ، ويصبحون مؤهلين للقيادة والريادة في كل المجالات الروحية والعلمية المهنية (١).

والخلاصة أن الوجود الإسلامي العثماني في أوروبا بصفة خاصة قد أوجد موجات من الذعر بين الحكومات والشعوب الأوروبية من هذه الدولة التي كانت العسكرية الخصبية الأولى البارزة في بنائها والغالبة على تصرفاتها . وصحب هذا الذعر حقد دفين عليها ، ومن ثم نشأت في أوروبا حملات إعلامية للتشهير بها . وبمضى الزمن انتقلت الحملات التشهيرية إلى بلاد الشام بوجه خاص ، إذ كانت بيئة صالحة لنمو هذه الحملات بسبب كثرة التنوع البشري واللغوي والديني بها ، وكثافة عدد البعثات التنصيرية بها واعتمادها على تدخل الحكومات الأوروبية وعلى نظام الامتيازات الأجنبية . وكانت الدولة قد أسهمت بطريق غير مباشر في تعميق حملات التشهير بها ، إذ أبت بصفة عامة على التقسيمات الإدارية التي كانت قائمة أيام دولة المماليك الشراكسة ، كما أبت على العصبية الإقطاعية . وكانت ذات بأس شديد . ولم يكن أفرادها يكونون ولاء أو تقديراً للدولة العثمانية . وردد المؤرخون والباحثون ورجال السياسة العرب حملات التشهير وأضافوا إليها جديداً .

(١) محمود مهلى ، رسالة يمك بها من يوغوسلافيا بعنوان « أربعة ملايين مسلم في يوغوسلافيا » ، ونشرت في جريدة الأهرام ، العدد ٣٢١٩٤ ، الصادر في ١٦ من شهر ذي القعدة ١٣٩٧ الموافق ٢٨ من أكتوبر - تشرين أول - ١٩٧٧ ، ص ١١ ، مجموعة السنة ١٠٢ .

ونرجىء الحديث عن هذه الحملات إلى أرك الجزء الثاني حيث أفردنا لها أربعة فصول (١) بعد أن نبحت أولاً نشأة الدولة وخصائصها العامة وسياستها العليا وهيئاتها الحاكمة ومراكز القوى فيها . فهذه الموضوعات تشكل عناصر أساسية في تاريخ الدولة بما انطوت عليه من مزايا وعيوب ، وما أتاحتها من رغبة في التشهير ، أو انجاه نحو النقد الموضوعى المحايد .



الفصل الثاني

نشأة الدولة العثمانية

أصل الأتراك العثمانيين :

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى و الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية التي كانت ، على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر ، تنزح من مناطق الإستبس في وسط آسيا متجهة غرباً نحو آسيا الصغرى أو الأناضول .

وتتدسس في التاريخ المبكر للعثمانيين روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق . وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة ، فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية : منهم من يلقى عليها ظلالاً كثيفة من التشكك فيها . ومنهم من يعتبرها حقائق لا تشوبها شائبة من ارتياب تأسيساً على أنها دونت بمعرفة أناس عاصروا أحداثها .

وقرر إحدى هذه الروايات أن تلك القبيلة التركية قد أسدت سنة ١٢٣٢ ، في أثناء رحالها في وهاد الأناضول خدمة جليلة لعلاء الدين الأول (١٢١٩-١٢٣٥) سلطان دولة الروم السلاجقة — ويطاق عليها أيضاً دولة الأتراك السلاجقة — فقد حدث أنها شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد الجيشين ليس ندماً للجيش الآخر ، فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذي كاد يلقى هزيمة محققة . وكان انضمام القبيلة إليه سبباً في انتصاره . وبعد المركة كانت مفاجأة سارة للقبيلة التركية حين تبين لها أنها تمخلت لنصرة بني جلدتها ، وهم الأتراك (م ٣ — الدولة العثمانية)

السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغولية من جيش الخان أوكتاي ابن جنكيز خان ، وكان قد عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى .
وتتدرجاً لتدخل القبيلة التركية في المعركة أقمها علاء الدين الأول سلطان دولة الأتراك السلاجقة بقمة مترامية من دولته^(١) التي كانت تمتاز دور الاضمحلال .
وتدل هذه القصة على الطابع الحربى العنيف الذى اتسم به أفراد القبيلة التركية ، فقد خاضوا المعركة لغير مصلحة لهم . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الألمان يعتبرون هذه القصة من قبيل الأساطير التاريخية ، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين الإنجليز أن هذه القصة حقيقية لا مرأ فيها ، ويضيفون تعليقاً عليها بقولهم إن المدافع الحقيقي الذى دفع السلطان علاء الدين الأول إلى منحهم الأرض أنه لم يرحب في قرارة نفسه بهذه القبيلة . فقد أثبتت أنها على حظ موفور من الشجاعة والخبرة الحربية والكمابة القتالية ، ومن ثم فلم يطمئن إليها ، ولذلك لم يرغب في إدماج هذه القبيلة في قزاته وانتهى تفكيره إلى منحها تلك الأراضي .
وبهذا الإجراء يتخلص من هذه القبيلة من ناحية ، ويشغلها بالحرب - ضد الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - المجاورة لها في نيقية من ناحية أخرى .

وفي ذات الوقت ظفر رئيس تلك القبيلة التركية واسمه أرطغرل بلقب « أوج بكى » أى محافظ الحدود . وكان منح هذا اللقب أحراً يتمشى مع أحد التقاليد التي درجت عليها الحكومة المركزية في دولة الأتراك السلاجقة ، وهو منح أى رئيس من رؤساء العشائر بمظم أمراء ، ويلحق به عدد من العشائر الصغرى لقب محافظ الحدود . وكانت دولة الأتراك السلاجقة تحرص أيضاً حرصاً بالغاً على أن تعين من بين رجالها رئيساً أو عدداً من الرؤساء ، يلقب كل منهم لقباً أكثر رفعة هو « أوج أمبرى » أى أمير الحدود .

غير أن أرطغرل رئيس تلك القبيلة التركية كان ذا أطماع سياسية بعيدة ،

(١) كانت هذه البقعة تشمل المنحدرات الشرقية من جبال طومانجى Tomanidji وارسى Erment يقضى فيها أفراد القبيلة فصل الصيف ، وسهول سركوه Soegud يقضون في ريفها فترة الشتاء .

فلم يقطع بهذه المنطقة التي أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقطع باللقب الذي ظن به ، ولم يقطع بمهمة المحافظة على الحدود ، بل شرع يهاجم ، باسم السلطان علاء الدين ، ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية - الدولة البيزنطية - في الأناضول ، ونجح في سياسة التوسع الإقليمي ، فضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة إسكي شهر^(١) . وقد مات أرطغرل عن ثلاثة وتسعين عاماً . وكان قد اتخذ سر كود مقراً له ودفن فيها . وحلّفه في حكم المنطقة سنة ١٢٩٩ ابنه عثمان الذي سميت باسمه الأمة والدولة . وسرعان ما تمت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدتها التاريخ ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً^(٢) .

(١) برد اسم هذه المدينة في بعض المصادر والمراجع التاريخية مكتوباً كلمة واحدة : إسكشهر . وإسكي معناها في اللغة التركية «قديم» وتدخل هذه اللفظة في أسماء الأماكن ، فيقال إسكي شهر بمعنى المدينة القديمة ، وإسكي حصار بمعنى الحصن القديم .
وإسكي شهر تقع في الجزء الغربي من إقليم الأناضول الأوسط ، على نهر يورسوق ، وهو فرع من نهر سفاريا . وتمتد بشهرة واسعة وعريضة عبر عصور التاريخ . وفي الوقت الحاضر تشتهر بأنها مانتى هام للقطيعين المدينيين من إستانبول إلى أنقرة ، ومن إستانبول إلى لولية . كما تشتهر بينايمها الحارة وبالصلصال الذي يوجد بجوارها .

(٢) ظهرت في سنة ١٩٣٥ دراسة جديدة باللغة الفرنسية عن نهضة الدولة العثمانية قام بها الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي أحد كبار المؤرخين الأتراك حمل فيها حملة حديثة أهل آراء المؤرخ الإنجليزي جيبونز Gibbons الذي يسطرها في كتابه تأسيس الإمبراطورية العثمانية *The Foundation of the Ottoman Empire* والذي نشره في سنة ١٩١٦ وخلاصة الدراسة التي انتهى إليها الأستاذ كوبرلي أن الأتراك العثمانيين ينتمون إلى قبيلة وفدت على الأناضول مع السلاجقة الفاتحين . وفي أواخر القرن الثالث عشر كان أرطغرل ثم عثمان من بعده رئيسين لمجموعة صغيرة من عشائر الحدود تنتمي إلى قبيلة قايي ، وكان موطنها إسكي شهر على الحدود التركية البيزنطية . وفي نفس الوقت كان يرباط على حدود الأناضول الفرسة عدد من أمراء الحدود يهيرون على حدود بيزنطة كلما واتهم الفرس ، وما كان أكبرهما ، ويحلمون فيها السلب . وكان من بين أمراء الحدود من استولى على بعض الاستعمارات والمدن ، وسكن استطاع عثمان في مثل هذه المنطقة وبين هذه القوى المتنافسة أن يؤسس كياناً سياسياً مستقلاً تمثل في الدولة العثمانية . وتفرض هذا المؤرخ التركي إلى مدة مسائل عامة ، منها ما هو حائس باعتناق الشافعيين الذين الإسلامى ، أو حاول إرجاعه إلى عصور سابقة على دخولهم إلى آسيا الصغرى . وتبدو في كتابه روح الصلف التركي والرغبة في إبعاد

المثانيون يمتنعون الإسلام :

وعلى عهد الأمير عثمان وفي وقت مبكر تمدد الوضع الديني والمسكري والسياسي للأتراك المثانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامي وتبمه الأتراك المثانيون . وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً ، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام .

هناك رواية مستمدة من التحوليات المثانية القديمة تشير إلى الملابس التي أدت إلى اعتناق عثمان الديانة الإسلامية . تقول هذه الرواية إن الأمير عثمان كان يتردد على منزل أحد العلماء المسلمين التعمقين في الدراسات الدينية ، واسمه الشيخ أده بالي ، وتطلق عليه المراجع العربية « أدب عالي » ، وكان يقم هذا العالم في قرية محاورة لمدينة إسكي شهر . وفي خلال زيارته كان يلح ابنة الفقير واسمها « مال خاتون » فراهحها وطالب يدها من والدها ، ولكنه رفض نظراً لما كان هناك من فارق بينه وبين عثمان من الناحية الاجتماعية ، ولكن عثمان داوم على زيارة

بشكل ماري فيه . ساساً بالمثانيين في هذا الدور المبكر من تاريخهم . ومن ثم كان تعامله الشديد على آراء جيونوز بل وتحرجه . وقد طبع الأصل التركي لهذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٦٢ مقدمة للمؤلف لم تظهر في الكتاب الفرنسي ، كما أضاف إليه زيادات جديدة . وقد تناول الأستاذ الدكتور أحمد السيد سليمان أستاذ الدراسات التركية بكلية الآداب بجامعة القاهرة تعريب للكتاب التركي سنة ١٩٦٥ باسم « قيام الدولة المثانية » ونشره بالقاهرة سنة ١٩٦٧ . ومن الصعب أن نقبل كل الآراء التي تحصلت بنفاعة الدولة المثانية والتي وودت في دراسته لسببين : روح انحصار الشديد ، واعتقاده بأن النتائج التي وصل إليها ليست أحاسنة ، وقد سجل عليه قلته هذه العقيدة المبررة « ومما يمكن من أمر فلا بد أن نتعرف بأن النتائج التي حصلنا عليها ليست كافية لا كماً ولا كماً ، وبأننا لانزال ببيدين من أن نكون قد حللنا لفتر تأخس الإمراطورية المثانية أو حتى أن نكون قد وضحنه بعض الشيء » ص ٧ من النص العربي .

ومما يذكر في هذا الصدد أن عهد فؤاد كورمبلي كان من أحوال مصطفى كمال ، استعان به في دعم فكرة القومية التركية الحديثة عن طريق كتابة التاريخ على النحو الذي أراد مصطفى كمال من تحليه عن المقام الإسلامي كتنفيذ الإجراءات العلمانية . وقد عينه مصطفى كمال وزيراً للخارجية في الثلاثينات من القرن العشرين . ويوجد مجموعته الضخمة من التاريخ التركي أصبح محمد فؤاد كورمبلي يلقب بأستاذ الجبل في تركيا الحديثة .

الشيخ لما لمسه فيه من العلم والفضل ، أو لأنه كان يهد عزاه وسلاوى في التردد على الدار التي تضم الفتاة التي بلغ حبه لها شفاف قلبه . وكان الشيخ لا يرغب أن يستضيف عثمان كلاً زل في رحابه ، وفي إحدى المرات غنا عثمان في منزل الفقيه ورأى في المنام القمر ينبثق هلالاً من صدر هذا الفقيه ، ثم نما وكر في الحجم حتى اكتمل بديراً ، وعندئذ نواري في ظهره . ثم خرجت من ظهره شجرة ضخمة باسقة وارفة الظلال امتدت أعصانها ذات اليمين وذات اليسار وغطت الفيافي والقفار عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس وأطلس . ومن جذور هذه الشجرة انسابت المياه في أنهار الدجلة والفرات والليل والدانوب . ثم هبت فجأة ريح قوية حولت أوراق الشجر إلى نصل سيف باز ، وكان على مقبضه خام مرصع بالياقوت والزمرد ، وقد أمسك عثمان بهما معاً عندما استيقظ من هذا الإغماء ، ولا قص على مضيقه هذه الرؤيا -- وكان علماً بتأويل الأحلام - بشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم ، ووافق على أن يزوجه ابنته . وقام تلميذ للشيخ بعقد قران عثمان . وبعد ما أصبح عثمان أمير قبيلته شيد نكبة لهذا التلميذ أوقف عليها أوقافاً عظيمة من القرى والأرض الزراعية .

ونوجد رواية أخرى سابقة عليها ولكنها قريبة منها ومحققة أيضاً من الحواريات المنيانية القديمة تقول إن أرطغرل - والد عثمان - قضى ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين . وقيل أن ياوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضعه على رء ، فسأله عثمان عن هذا الكتاب فأجابه بأنه القرآن الكريم ، واحتسمر منه عن محتواه ، فقال له صاحب الدار إنه كلام الله أرله لئلا ينسى على لسان محمد صلوات الله عليه . وحل أرطغرل الكتاب وأخذ يقرأه واقفاً حتى الصبح ، ثم نام فوأي وبما يرى المنام كأن ملاكاً يبشره بأنه وذريته سيملكو قديم جيل بعد جيل على مدى القرون والأدهار لقاء احترامه القرآن .

ورى جيرة Giese - وهو أحد المؤرخين الألمان المتخصصين في الدراسات التركية - أو ما يطلق عليها التركيات - أن هاتين الروايتين عمالونان لعدم مشروعية حكم المنيانيين لسائر القبائل التركية بأسيا الصغرى بتدخل إلهي . وقد

حل المؤرخ التركي المعاصر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي حملة عنيفة على هاتين الروايتين (١).

ومهما يسكن من أمر ، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الأتراك السلاجقة في الأناضول - وهي دولة إسلامية - كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتنائهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة . وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دنيوية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان ، وسار عثمان في حكمه على هدى إيمان عميق وبساطة في الدين ، وكان متحمساً لمعنيته الدنيوية ، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين . وكانت العدالة أبرر ما تميز تصرفاته في عصره كان ينضح بالجور والظلم . وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين لا يقل عن الأثر الذي تركه الإسلام في عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون عند ما بث محمد صلوات الله عليه ، فقد هيأ الإسلام للأتراك العثمانيين وحدة العقيدة وعباءة بشعور ديني دافع جماعتهم ضد متحديهم للإسلام . واجتمعت إلى هذه العاطفة الدينية التأجج روح عسكرية طاغية بحيث غدت سمعة بارزة في الأتراك العثمانيين . وقد استمدوا هذه الروح العسكرية من ينشئهم الأصلية في سهول آسيا ، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم ، فلازمتهم طوال تاريخهم الحافل عبر القرون والأدوار .

العثمانيون يطورون أسلوب حياتهم :

ومن ناحية ثانية أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة على وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً مبتدأ على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك . ومن ناحية ثالثة فإن أهم دولتين كانتا في آسيا الصغرى ، وهما الدولة البيزنطية ودولة الأتراك السلاجقة ، كانتا قد وصتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذي

(١) محمد فؤاد كوبرلي : قيام الدولة العثمانية . ترجمة الدكتور أحمد السيد سليمان .

خاضته كل منهما ضد الأخرى ، ونتيجة تمرض الدولة البيزنطية للنزو اللاتيني ، ونتيجة تمرض دولة الأتراك السلاجقة للنزو المنولي . فكان في شبه جزيرة الأناضول فراخ سياسي ، وكانت الأوضاع السياسية مهيأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض الدولتين المتداعيتين ، ومن ناحية رابطة فإن نشأة الإمارة النمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافة العالم المسيحي - وهو ما يسمى دار الحرب - وعلى حافة العالم الإسلامي - وهو ما يسمى دار الإسلام^(١) - قد فرضت عليها سياسة حربية معينة ، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود . والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيباً في عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل ، وأنه لم يكن في استطاعة هذه الإمارات الداخلية أن تتطور وتنمو بنفس السرعة التي تعاورت ونمت بها إمارات الحدود^(٢) . واستطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين ، وقد أبدى علاء الدين كيقباد الثالث سلطان دولة الأتراك السلاجقة تقديره العميق لخدمات عثمان فتحه لقب «عثمان غازي حضر تاري مرزيان عاليجاه عثمان شاه»^(٣) ، أي «حضره عثمان النازي ، حارس الحدود ، العالي الجاه ، عثمان شاه» .

عثمان يعلن استقلاله :

وكان من حظ عثمان أن أغار المنول سنة ١٣٠٠ على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى ، وحدث ما كان متوقماً إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتوفى

(١) يطلع على مثل هذه المواضع في التاريخ الإسلامي لفظ «التنور» .

(٢) من الأمانة التي توضح هذه الظاهرة السياسية أن إمارة كرميان على الرغم من أنها كانت تشكيلاً سياسياً قوياً - عجزت عن التقدم والنمو حين تحولت إلى إمارة داخلية نتيجة لما أحاط بها من قوى سياسية جديدة أقامها قادة من الكرديانيين انقسم ونتيجة أيضاً لتضيق الترمانيين .

(٣) كلمة مرزيان فارسية تتكون من (مرز) ومعناها حديم (بان) ومعناها حارس ، وهكذا يكون معنى الكلمة كلها حارس أو محافظ الحدود . أما (عاليجاه) فكلمة تركية معناها عالي الجاه أو صاحب المقام الرفيع . وأما (شاه) فهي لفظة فارسية ومعناها حامل .

السلطان علاء الدين كيتباز الثالث سنة ١٣٠٧ ، وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً
بغيره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميراً^(١) أسس كل منهم حكومة
مستقلة على أقطاب دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة. وأبدى عثمان اهتماماً
صريحاً بدعم الجيش وتنظيم الحكومة ، وتمتع بشهرة عريضة بين معاصريه من
الأمراء واعتبر عثمان المؤسس الأول للدولة العثمانية . وقد نسبت الدولة والأمة
إليه^(٢) فسميتا باسمه كما سبق أن ذكرنا ويقال إنه اتخذ لنفسه لقب سلطان، بينما
يرى البعض أن ابنه أورخان كان أول من تلقب بهذا اللقب .

الزواج من الأجنبيات :

يقن عثمان أن عشيرته التركية بتعدادها القليل لن تستطيع بمفردها تأسيس
الدولة التي يتطلع إلى تكوينها ممتدة الأطراف مهيبة الجانب . فرسم سياسته على
على أساس مصاهرة الدول أو السكيات السياسية المجاورة أو المتاخمة ، واستقدام
الرقيق بمختلف الوسائل من شتى البلدان ، واستخدام المغامرين الذين تسهّبهم
الشهرة والناهم الكثيرة في ميادين القتال ، فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية
من قبليتها ، ورشح سيدة يونانية مسيحية رائمة الجمال زوجة لابنه أورخان كما
سنرى في موطن قادم . وهكذا زى أن اقتران السلاطين بالأجنبيات رافق نشوء
الإمارة ثم السلطنة .

وقد حمل بعض الباحثين على زواج سلاطين الدولة العثمانية من الأجنبيات ،
واعتبروا هذه الزيجات من أسباب اضمحلال الدولة العثمانية وضعفها . والواقع أن
الزوجة الأجنبية لم تنس قط وطنها الأصل أياً كان : روسيا أو جمهورية البندقية
أو غيرها ، ولم تنس قوميتها السابقة ، فاستملت وضمها في العصر السلطاني بصفتها
باش قادين ، أو كازكي Kaeeki ، أو كازكي قادين Kaeeki Kadim^(٣) .

(١) تذكر بعض المراجع أن عدد هؤلاء الأمراء كان أحد عشر أميراً .

(٢) الصفة من عثمان والفة التركية « عثمانلي » بينما هي في اللغة العربية « عثمانى » .
(٣) باش قادين ، لقب يطلق على السلطنة الأولى وهي والدة أكبر أولاد السلطان .
أما كازكي فلقب يطلق على أمهات أبناء السلطان ، بينما تلقب أمهات بناته كازكي قادين . وكان
السلطان يلتزم بحكم العريضة فلا يمتدى عدد زواجه الأربع و يطلق عليهم « باش قادينر » .

وامتصت اهتماماً حقيقياً بخدمة مصلحة وطنها الأصلي على حساب مصلحة الدولة العثمانية . وسنرى في مواطن كثيرة قادمة في هذه الدراسة أمثلة عديدة لازدواجية الولاء أو بعبارة أكثر دقة تضارب الولاء وتضارب المصالح والمهم أن أولئك الباحثين الذين حلوا على تلك الزيجات ذهبوا إلى أن مساوئها لم تظهر سرياً ، لأن الدولة كانت في عتقوان قوتها . ولما أخذت الدولة في الضعف بدت للميان أخطار هذه الزيجات . وفي هذا الصدد يقول أحد أولئك الباحثين « لاروب في أن الملل الفتاكة التي تسرى إلى الأجسام في مقتبل العمر ، وإبان اشتداد الصحة ، قد لا تظهر علاماتها في عهد الشباب والصحة ، بل يتأخر ظهورها إلى أن تضعف المناعة مدد من السكولة . ومن هذا القبيل ما أصاب الإمبراطورية العثمانية من جراء تهافت السلاطين على الزواج من الأجنبية والتسرى بهن »^(١) ، ثم يعود هذا الباحث إلى التفرقة بين نوعين من الزيجات فيقول « إن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان ، اختاروا الزواج من الأجنبيات لنهاية سياسية ، غير أن الذين أتوا من بعدهم اقتصر غايتهم في هذا الزواج ، على انتقاء الحسنات من الجوارى والسرارى » ويختتم تعليقه قائلاً إن السلاطين العثمانيين قد منوا بحكم الحظيات^(٢) .

عثمان يوسع رقعة بلاده

اتخذ عثمان من ميخائيل ذى اللحية المرفجة Michael Fork Beard — وهو بيزنطى مرتد عن المسيحية — نائباً له في ميسادين الحرب . ومضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وكان مسرح نشاطه الحربى مقصوراً على مقاطعة بيثنيا Bithynia إذ أغرته أطرافها الخالية من وسائل الدفاع الإمبراطورى على شن الإغارات الخاطفة على أراضى الدولة البيزنطية . وقد قام بهذه العمليات الحربية بصفته أميراً في خدمة السلطان السلجوق السلم علاء الدين كيتباز الثالث ، ثم

(١) محمد جميل زهم : فلسفة التاريخ الثمانى . أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ١٩٥٤ ، ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ — ١٤ .

بصفته - بعد سنة ١٣٠٧ م - أميراً مستقلاً بهذه الإمارة تمام الاستقلال ثم سلطاناً عليها .

وعلى هذا النحو مضى عثمان يوسع رقعة بلاده . وفي سنة ١٣٠٨ وبعد وفاة السلطان علاء الدين الثالث استولى عثمان على قلعة عك حصار ، وباستيلائه عليها أطل العثمانيون على اليوسفورة ، لأن هذه القلعة كانت آخر حاجز أمام زحف العثمانيين في شبه الجزيرة الصيقة التي تمتد بين نيقوميديا والبحر الأسود والتي تسكون الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة الأناضول .

وفي نفس السنة سيطر العثمانيون على الطريق المائي الموصل بين القسطنطينية وبروسه بعد أن استولوا على جزيرة كالوليني Katolimni التي تقع في بحر مرمره على مقربة من خليج مودانيا Mudania .

وسقطت في أيدي العثمانيين أيضاً قلعة تريكوكا Tricocca ويطلق عليها العثمانيون هودج حصار ، وكانت هذه القلعة تشرف على المواصلات بين نيقيا ونيقوميديا .

وسمى عثمان وهو على فراش الموت سنة ١٣٢٦ بفتح مدينة بروسه^(١)

(١) يطلق العثمانيون عليها أيضاً بروسه ، وأصبح لها شأن كبير في العالم الإسلامي منذ أن اتخذها أورخان بن عثمان مقراً له وضرب فيها أول سكة فضية لها قيمتها وهي الأتجة سنة ١٣٢٧ (٧٢٧ هـ) . ولما تمت القسطنطينية واتخذها السلطان عهد الثاني حاضرة لدولة صمدت الأوامر إلى سكان بروسه النزوح إلى الناصرة الجديدة . على أن بروسه استفادت من اتساع رقعة الإمبراطورية إذ خدت مركزاً لقيادة الحملات العسكرية في العراق . والأهمية الاقتصادية لمدينة بروسه تفوق أهميتها السياسية في التاريخ العثماني ، فهي من أقرب المراكز الإسلامية إلى العالم المسيحي . وازداد وصول القوافل الحرير الفارسي إلى سوق بروسه ، وتحت هذه القوافل إلى حد ما من أسواقها القديمة مثل طرابزون وحلب . وغدت في سنة ١٤٠٠ مركزاً من أهم المراكز الدولية لتجارة الحرير وصناعته . وتتمتع صناعة الحرير ومهاريه في بروسه من أسباب الازدهار الاقتصادي الذي تمتع به المدينة . وكانت كثرة الخانات - للمراكز والمستودعات التجارية - في المدينة لأن القرن الخامس عشر الميلادي والتاسع الهجري دليلاً مادياً على حجم النشاط التجاري فيها . وروسه عاصمة ولاية خُداوندكار .

Brousse وكان ابنه أورخان على رأس القوات التي زحفت عليها ، وأوصى عثمان بأن تنقل رفاته إلى يروسة في كتيبة القصر التي حولت فوراً إلى مسجد ، وأصبحت يروسة عاصمة جديدة للأتراك العثمانيين في سلسلة العواصم التي انتقلوا إليها عبر تاريخهم . وشيد السلاطين العثمانيون الأوائل في هذه المدينة عدداً من المساجد الرائعة ، نذكر منها على سبيل المثال ثلاثة مساجد ، هي : يشيل جامع ، أولو جامع ، بييلدم .

نخلص من هذا كله إلى أن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت تتاج عدة عوامل ، هي : الروح الدينية الجياشة ، والطبيعة العسكرية العارمة ، والموقع الجغرافي لإمارتهم ، والأوضاع السياسية في المنطقة المحيطة بهم . وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها ، واتسحوا في بقاع آسيا وأوروبا وأفريقيا غزاة فاتحين .

نظرة أوروبا إلى الأتراك العثمانيين :

ومنذ أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٧١١ م واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي لم تتعرض المسيحية لثل هذا الخطر الداهم إلا عندما روعت أوروبا ابتداءً من القرن الخامس عشر بزحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ثم أجهابهم إلى قلب أوروبا . وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك العثمانيون - في تقدير أوروبا - هم الرمز الحلي الجسد للإسلام ، واختلط الأمر على الأوروبيين في ذلك الوقت فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي ، وخالطوا بين العرب والأتراك . وكان هذا الخلط في أذهانهم نتيجة طبيعية . فقد كانت فتوح العثمانيين في البلقان ووسط أوروبا فتوحاً إسلامية ، وباسم الإسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التي كانت قواعد عسكرية صليبية ، أو مابسي بالتميز العسكري الحديث جيواً صليبية . وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني

التسطنطينية ، وباسم الإسلام قاد السلطان سليمان المشرع^(١) ست عشرة حملة عسكرية في جوف أوروبا ووصل بها إلى أسوار فيينا ، وباسم الإسلام والاتصاف بالإسلام تقدم الثمانيون لمساعدة العرب في شمالي أفريقيا في كفاحهم ضد الإسبان ، ودكوا القواعد العسكرية الأوروبية أو الجيوب الصليبية التي أقامها الإسبان على امتداد الساحل الشمالي لأفريقيا لتكون محطات عسكرية صليبية تأوي إليها السفن الإسبانية وغيرها في صراعها ضد القوى الإسلامية. فأمدى الثمانيون خدمات جليلة لعرب شمالي أفريقيا، إذ حفظ الأتراك الثمانيون لهم عربيتهم وإسلامهم. وكان إذا اعتنق أحد المسيحيين الدين الإسلامي قال عنه رفاقه الأوروبيون المسيحيون وعشيرته إنه غدا تركيا، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً حتى إذا كان اعتناقه الإسلام قد حدث في فاس أو أصفهان .

"It is curious that while in Turkey the word Turk almost went out of use, in the West it came to be a synonym for Muslim, and a Western convert to Islam was said to have 'turned Turk', even when the conversion took place in Fez or Isfahan". (2)

وعلى الرغم من أن كلمة تركي كان قد بطل استخدامها في الدولة إلا أن هذه

(١) يطلق جمهور الباحثين على هذا السلطان صفة القانوني ويقولون سليمان القانوني . ولكن كلمة [للمشرع] أكثر دقة من حيث الصياغة الفنية ، لأن هذا السلطان قد أنام الله موهبة عظيمة في وضع التشريعات والتعرض لأدق التفاصيل عند وضع أي تهريم . فلم تكن تشريعاته تعاد صغيرة ولا كبيرة إلا ترضت لها ، فجاءت جامعة مائة . كما أن هناك فرقا بين هذين المصطلحين : المشرع والقانوني يتضح من تقسيم السلطات في الدولة إلى ثلاث سلطات : السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية . ويلاحظ أن أحد الباحثين القدماي قد أطلق من جهالة ودون فهم أو ترو سفة القانوني على سليمان ، وجاء الباحثون بعد ذلك وطبقا لتقليد الأعمى لا تطلقوا عليه سليمان القانوني ، والصحافة به هذه التسمية كما التصقت في أذهان الأجيال المتعاقبة . وجدير بالذكر أن للترجمات الفرنسية والإنجليزية تطلق عليه الصفة الصحيحة وهي المشرع على هذا النحو : Soliman Le Législateur.

Suleyman . The Legislator.

(2) Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey. Second Edition, London, 1968. p. 13.

الكلمة كانت مرادفة لكلمة مسلم في أذهان الأوروبيين الغربيين^(١). وهكذا زالت فكرة العروبة من أذهان الأوروبيين وأكدت، وحلت محلها فكرة الإسلام في عمومه تمثلها قوة الأتراك العثمانيين بعد أن انتقل مشعل الإسلام إلى سواعدهم القوية. ولم تعد العروبة تثير في أوروبا سوى ذكريات بميدة ترجع إلى ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية والفتوح الأولى للمسلمين العرب والحضارة العربية على عهد الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية، وهي ذكريات تصلح لكي تكون موضوعات علمية لدراسات تاريخية مستفيضة بعد أن ازوى العرب من ميادين السياسة الدولية والاقتصاد المالي وظهر عجزهم عن إقامة كيان دولي خاص بهم قائم بذاته يجمع شتاتهم وسط التيارات والمنافسات والمساومات الدولية في مطلع العصور الحديثة^(٢).

وفي ضوء هذا الرأي الذي استقر في أذهان الأوروبيين عن الأتراك العثمانيين اعتسروا أي نصر عسكري تحققه القوات العثمانية سواء في البر أو البحر إنا هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية. وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية إلى الأتراك العثمانيين فإن المحاللات الدولية التي تكونت ضد الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل كانت في مجملها وسدادها محاللات صليبية ضد الإسلام أمثلتها روح صليبية

(١) استشهدت لأول مرة وبصفة رسمية كلمتا تركيا وتركيا لتعبير عن الدولة والمواطن منذ إعلان النظام الجمهوري في تركيا سنة ١٩٢٣.

انظر المرجع السابق ص ٣.

(٢) الدكتور محمد بدیع شريف وزكي الحاسي وأحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية. الناشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، لم تذكر سنة الطبع، ص ١٩٢.

وقد أضاف الدكتور عزت نصر الفصلين اللذين كتبهما في هذا الكتاب وهما الثالث والسادس في كتاب جديد بعنوان «دراسات في تاريخ العرب الحديث» وقد ضم هذا الكتاب، فضلاً عن فصلين الفصلين «دراسات في تاريخ العرب الحديث» : الأول من «التقسيم الإداري السوري في العهد العثماني»، والثانية من «دمشق في منتصف القرن الثامن عشر»، وأضاف إلى هذا الكتاب دراستين جديدتين الأولى حادثة إصلاحية بعنوان «المسألة الجزائرية في السياسة الدولية من تأسيس النيابة إلى حالة سنة ١٨٣٠» والثانية بعنوان «المعالم الرئيسية في تاريخ القضية الفلسطينية».

وقد تولت «دارالنهضة العربية للطباعة والنشر» في بيروت نشر هذا الكتاب سنة ١٩٧٠.

ووجبتها روح صليبية . وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي لم تنته بسقوط عسكاً آخر معقل للصليبيين في يد المسلمين على عهد السلطان خليل بن قلاوون في الثامن عشر من مايو ١٢٩١ ، بل استمرت متجددة متيقظة في نفوس الأوروبيين في العصور الحديثة وإن اختلفت مياديتهم وأشخصياتها والدول التي شاركت فيها والأسلحة التي استخدمت فيها ، واستمرض لهذه النقطه عند السكلام في مواطن قادمة على خصائص الحروب الصليبية في العصور الحديثة . ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الراهمة التي أحرزها الأتراك الشماليون على الأوروبيين قد أضفت عليهم هالة من المجد و أرجاء العالم الإسلامي ، ونظر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل ، ونظروا إلى السلطان العثماني وهو يحوض الحروب تبعاً ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل الربحي في إعادة المجد النابر للإسلام . فسكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية وعاهلها بصنفة خليفة وسلطاناً ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بدى في نفوس الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت المبكر من العصور الحديثة . وكانت الوشيجة الديلية هي التي ربطت بمرور وثقى بين الدولة العثمانية والشعوب الإسلامية سواء التي دانت لحكمها أو ظلت بمنأى عن سيطرتها .

تحامل بعض المؤرخين الأوروبيين :

ويبدى بعض المؤرخين الأوروبيين الأسف العميق لأنه حين استفحل خطر الأتراك العثمانيين على وسط أوروبا في القرن السادس عشر في أثناء حكم السلطان سليمان المشرق كانت أوروبا في شغل شاغل عن هذا الخطر الإسلامي الذي أهدق بها ، وانشغلت على بكرة أيها - أباطرة وملوكا وأمراء وشعوباً - بالصراع الديني المذهبي بين أنصار الكاثوليكية وأنصار الحركة اللوثرية وما تفرع عن الحركة الأخيرة من مذاهب ، فأصبح الأوروبيون في ذلك الوقت المعصيب طرائق قديماً ، واشتغلت بينهم حروب خضبت أرض أوروبا بالدماء . وكان الواجب في نظر هذا الفريق من المؤرخين أن يسفر تساقط خطوط الدفاع الأوروبية في

أيدى العثمانيين عن وقف الصراع الديني المذهبي لتتف الدول الأوروبية كتلة واحدة وى صف واحد كالبنين المرصوص لدرء خطر هذا الملاق التركي الذى دامها . وقد تناسى هذا الفريق من المؤرخين الملتاعين المحزونين أن المشروعات الصايبية كانت فى القرن السادس عشر بالذات هى « المودة » La Mode الشائفة فى السياسة الدولية . وقد تكررت ظاهرة إعلامية فى أثناء الحروب الإيطالية التى نشبت بين فرنسا وإسبانيا واستطالت خساً وستين سنة (١٤٩٤ - ١٥٥٩)^(١) . كان فرنسوا الأول ملك فرنسا وشارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة يتنافسان حيناً ويتاجران حيناً آخر بمشروعات صليبية تستهدف إجلاء العثمانيين عن ممتلكاتهم فى أوروبا وغزو إستانبول وطرد الأتراك العثمانيين منها . وقد شهد القرن السادس عشر محالفات صليبية ضد الدولة العثمانية ، وحسبنا أن نشير إلى واحدة منها على سبيل المثال ، وهى المحالفة التى عقدت فى سنة ١٥٣٨ بين البابوية وإسبانيا وجمهورية البندقية حين تزلت القوات العثمانية فى أوترانت Otrante فى إيطاليا^(٢) . وقد استطاع الأسطول العثمانى تحطيم الأساطيل المتحالفة ضده فى موقعة برهيزا Prèveso جنوب جزيرة كورفو .

نخلص من هذه الإشارة السريعة لتحامل بعض المؤرخين الأوروبيين إلى أن الأتراك العثمانيين واجهوا تسكتلات دولية صليبية فى القرن السادس عشر ، كما واجهوا أمثال هذه التسكتلات من قبل ومن بعد هذا القرن . ولعل رأى الذى يديه معظم المؤرخين الأوروبيين يحنى وراه محاولة للتقليل من شأن الانتصارات

(١) أنظر عرضاً لهذا الحروب الإيطالية فى مختلف مراحلها :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا فى مطلع الصور الحديثة . الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة - مارس ١٣٦ - ٢٩٦ .

(٢) هى مدينة بحرية جنوب إيطاليا ، تقع فى إقليم هرف بهذا الاسم على مقربة من مضيق أوترانت الذى يصل بين البحر الأدرياتيكي والبحر الأيولى ، كما أن إقليم أوترانت يشكل كعب الحذاء الإيطالى .
le talon de la botte italienne.

التي حققها الأتراك العثمانيون براً وبحراً ، أو لتبرير الهزائم التي نزلت بالشعوب الأوروبية ، وهو على أي الحالتين يكشف عن زُعة صليبية لا تزال كاملة مستعرة في نفوس فريق من المؤرخين الأوروبيين في القرن العشرين . وبقدر أسفهم على ما حدث في القرن السادس عشر كان إبتهاجمهم للموقف السلبي الذي اتخذته الأتراك العثمانيون في القرن السابع عشر حين اندلعت في أوروبا حرب دينية طاحنة بين الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية هي حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) ، إذ لم يمتنع الأتراك العثمانيون هذه الفرصة للاقتضاض مرة أخرى على وسط أوروبا ثم التوغل في غربيها ، وكانت الدولة العثمانية تمر في أثناء هذه الحرب بنوبة ضعف أصابتها بالشلل العسكري .

الفصل الثالث

الخصائص العامة

للدولة العثمانية (١)

أولاً : دولة عسكرية

تجمعت في الدولة العثمانية مجموعة فريدة من الخصائص العامة ، نذكر منها ما يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع هذه الدراسة . كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية ، وتيوقراطية un état théocratique أى دينية ، وعلوية ، وذات حكم مطلق ، وطبقية ، وإقطاعية من نوع خاص .

والحق أن العسكرية الصارمة كانت الخليفة الأولى للدولة . وقد طبعت هذه العسكرية أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطابع العسكري العميق . ولم تكن النزعة الحربية لدى العثمانيين نزعة طارئة ، بل كانت نزعة أصيلة استمدوها من ينشئهم الأولى في أواسط آسيا قبل أن يتجهوا إلى آسيا الصغرى . وقد عزز هذه النزعة الحربية الموقع الجغرافي لإماراتهم في شبه جزيرة الأناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية كان بعضها مسيحياً والبعض الآخر إسلامياً . وكانت العلاقات بين العثمانيين وهذه الكيانات السياسية علاقات عدائية في معظم الفترات ، إذ قامت الإمارة العثمانية — كما سبق أن ذكرنا — على سياسة التوسع الإقليمي في شتى الأنحاءات ، ومن ثم اضطفت حياة العثمانيين بالصبغة العسكرية ، وعلى ذلك فإن الحياة العسكرية بكل ما تنطوي عليه من معاني النظام والمرامة والشجاعة واسترخاض الموت والطاعة المياء كانت مصاحبة لنشأة إمارتهم . واستمر العثمانيون هذه الحياة ، فالتصقت بهم والتصقوا بها عبر المصور والأدهار .

كان الشعب العثماني مدرباً للحرب، مطوعاً للسلطين، نظر إلى الحرب على أنها واجبه الأول. واستأثر الجيش بالسكّانة الأولى من عناية السلطين، ولذلك كان الجيش العثماني يتميز بالتنظيم العسكري المصارم والتدريب الدقيق الطويل، والهدوء الوفير وتنوع الأسلحة من مشاة وفرسان ومدفعية. وكان سلاح المدفعية فتاً كبيراً رهيباً كمثل العثمانيين انتصارات ساحقة وخاطفة على أعدائهم، وبخاصة عند ما كان هؤلاء الأعداء يعتمدون اعتماداً أساسياً على سلاح الفرسان.

كان المبدأ الأساسي للدولة العثمانية هو أنها بدأت بإمارة غزاة عمارين، فانتسحت رقعتها وتطورت إلى إمبراطورية شاسعة الأرجاء، ولكنها تلتزم أولاً وقبل كل شيء ببنس المبدأ لا تحيد عنه، وهو أن الدولة قاعدة لجيش يجب أن تسخر البلاد في خدمته، وفي تزويده بالقوى البشرية والمادية، ونشر التعبئة الروحية بين أفرادها، وهذا المبدأ هو الذي دان به الأتراك العثمانيون، وكانوا لا يبيفون عنه حوالاً.

وحيقتان للجيش:

وفضلاً عن ذلك جهات الدولة العثمانية للجيش وظيفتين: الحرب والحكم. فهمى تعتمد على الجيش وقت السلم كما هو عدتها زمن الحرب، وقيل في هذا الصدد إن الجيش العثماني كان بمثابة عملة نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب، ونقشت على الوجه الآخر كلمة الحكم. وفي ضوء هذا الاختصاص التثنائي للجيش العثماني كان العسكريون في الدولة لا يشغلون المناصب العسكرية بحسب، بل كانوا يشغلون أيضاً النالية العظمى من المناصب المدنية القيادية وما دونها ما عدا مناصب القضاء والوظائف الدينية.

وفي ظل هذه النظرة مدت الدولة الاختصاص التثنائي للجيش إلى الولايات العثمانية. وهاتان المهمتان - الحرب والحكم - اللتان جعلتا من اختصاص الجيش العثماني قد ارتبطتا بهنهما ببعض أشد الارتباط. ومن هنا كانت سيطرة الجيش

على أجهزة الحكم وعلى النابلية العظمى من شتى القطاعات ظاهرة واضحة في تاريخ الدولة العثمانية .

يقول المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي Arnold Toynbee إن العثمانيين يستمدون طريقهم في حكم الشعوب التي دانت لهم من واقع البيئة الأولى التي نشأ فيها هؤلاء العثمانيون، وهي بيئة البراري في أواسط آسيا والتي تسمى أيضاً أراضي الإستبس Steppe Land ، فالسلطان العثماني كان يمارس حكم تلك الشعوب كما كان العثماني يمارس رعي الماشية في أراضي الإستبس أو البراري . ويقول هذا المؤرخ إن ممارسة الرعي كانت تتكون من ثلاثة عناصر : الراعي والماشية وكلب الحراسة . فالسلطان - في رأى هذا المؤرخ - هو الراعي ، أما الماشية فهي الشعوب التي خضعت للدولة ، أما كلب الحراسة فهو الجيش العثماني^(١) .

وفي الحروب العديدة المتلاحقة التي خاضها العثمانيون في أوروبا وبخاصة في القرن السادس عشر كان المرابطون العسكريون والسياسيون الأوروبيون يذهلون للمستوى الرفيع الذي بلغه الجيش العثماني تسليحاً وتدريباً وتنظيماً . وقد سجدوا آراءهم عن عظمة الجيش في تقارير بثوا بها إلى حكوماتهم ، وذكرونها على سبيل المثال ما كتبه بوسبيك Busbecq السفير النمساوي في إستانبول عام ١٥٥٤م، وقد هالته الفروق المصاحبة بين الجيش العثماني والقوات المسلحة للدولة الرومانية المقدسة . وقال إن دهشة بالغة تمتريه حين يقصد المقارنات بينهما، ثم يفكر في النتائج التي يسفر عنها الزحف العسكري العثماني على أوروبا فتروعه هذه النتائج . وكان مما قاله إن هاتين الدولتين كانتا تقفان في مواجهة عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما . وفي جانب توجد الدولة العثمانية وهي إمبراطورية عظيمة قوية على درجة كبيرة من الثراء، تحشد جيوشاً جرارة تسودها روح عسكرية عالية . وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والأتقاد والتيقظ ، وفي جانب آخر

(1) Toynbee Arnold J.; A Study of History. London, 1945, Vol- 111. pp. 22-28.

توجد الدولة الرومانية المقدسة ، ويصنف جنودها بالإغراق في الترف والليل إلى المناد والمشاكسة والاستخفاف بالنظام وحب الشهوات من الخساعة والدعارة والنجور والإسراف في الأكل . ويخلص هذا الميموث النمساوى من مقارنته إلى القول بأن العثمانيين قد أعدوا للنزو وتحقيق الانتصارات ، أما جنود الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أعدوا لتقبل الهزائم^(١) . وهذه شهادة لها قيمتها من عدة نواح : لأنها صادرة عن رجل معاصر ، ولا يمكن أن يتصف بالتحيز للعثمانيين ، ولأنه رجل عرف بدراساته العميقة في تاريخ الأتراك العثمانيين ، وهي دراسات تقوم على المشاهدة والاتصالات الشخصية برجال الدولة العثمانية^(٢) .

وهناك أستاذ أمريكي - يسمى ليبيير Lybyer - توفر على دراسة النظم العثمانية يقول إن الجيش العثماني كان يجمع بين أفراد جميعاً شهور الولاء العميق للسلطان . وإذا صدرت الأوامر باستدعاء الجيش لخدمة عسكرية كبرى اجتمع الجيش على بكرة أبيه حول السلطان . وفي مسيرة الجيش وفي مرابطته في المعسكرات وفي خوضه المارك كان كل فرد في فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان أيضاً هو المحور الرئيسي الذي ينظم جميع عمليات التشكيل التي تتم في المركة ، والكل يدين له بالولاء التام جسماً وعقلاً وروحاً .

(1) When I compare the difference between their soldiers and ours I stand amazed to think what will be the event. For on their side there is a mighty strong and wealthy Empire, great armies, experience in war, a veteran soldiery, a long series of victories, patience in toil, concord, discipline, frugality and vigilance. On our side there is public want, private luxury, soldiers refractory, commanders covetous, a contempt of discipline, licentiousness, rashness, drunkenness, gluttony; and what is worst of all, they are used to conquer, we to be conquered. see Hubbard G. E.: The Day of the Crescent, p. 85.

(٢) من مؤلفات هذا السفير النمساوي نذكر :

a) Legationis turcicae epistolae. Leyde, 1633.

b) Opera omnia quae exstant. Bale, 1640.

The Sultan was commander-in-chief of the entire army, standing, feudal, and irregular. When the army was summoned for a great campaign, it gathered about him; on the march and in campaign, every body of troops had its place with reference to him; in formation of battle, he was the central point about which the whole vast display was organized. When the army was assembled, and then only, the Sultan stood forth visibly and palpably as the head and center of the ruling institution and of the Ottoman Nation upon which it rested. His kullar (1) were gathered about him in devotion of body and soul, they were going forth under his leadership against the infidel or the heretic. . . . They marched, encamped and fought under his eye and command, they formed an honored and privileged nucleus in the midst of a vast, loyal, and ambitious national army. (2)

الأسطول:

وعلى الرغم من أن العثمانيين لم يكونوا رجال بحر وكانوا يتهيئون أول الأمر ركوب البحار إلا أنهم سرعان ما أدركوا أهمية السفن الحربية في المحافظة على ممتلكاتهم الجديدة وضم مزيد من الممتلكات، ومن ثم أنشأوا الأسطول البحري لمنازلة الدول التي كانت تعتمد على السلاح البحري مثل الدولة الرومانية الشرقية وجمهورية البندقية وجمهورية جنوة وغيرها. وسنفرد في موطن قادم في هذه الدراسة فصلا للقوات المسلحة العثمانية بتسميتها بالجيش والأسطول.

(١) لفظة Kullar التي وردت في المتن الإنجليزي كلمة تركية هي لولاء، ومعناها عبيد وهي جمع قول Kul أو Koul أي عبد .

(2) Albert Howe Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent. Harvard University Press. 1913. pp. 109-110.

ثانياً : دولة دينية

والدولة العثمانية دولة دينية • ويقصد بهذه العبارة الطابع الديني الإسلامي الذي اتسمت به تشريعاتها ومعظم تصرفاتها •

كان للهيئة الإسلامية في الدولة وضع معترف به ومركز مرموق • وكان يطلق على رئيسها المفتى أو مفتى إستانبول ، ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم شيخ الإسلام • وكانت الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع أو النشاط الديني تخضع لنفوذه • وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطانه ويمتلون على استقلالها كلاً حزبهم أمراً وأندموها على مشروع خطير • كان المفتى يصدر فتوى يميز العزوب التي تخوضها الدولة دفاعاً أو هجوماً ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام التي واجهتها الدولة عبر تاريخها الطويل ، وكانت الدولة تهتم اهتماماً بالتمام بشراء التمتعة الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية وصولاً إلى « تسخين » الجنود روحياً قبل خوض المعارك •

المسجد الكبير :

وكان من مظاهر الطابع الديني الذي اتسمت به الدولة العثمانية العناية الفائقة التي أبدتها السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى التي عدت رمزاً مجسداً للفن المهارى العثماني وما يلمنه من تطور حيث ظهر أثر الفن البيزنطي فيه • ونشير هنا إلى أن السلطان محمد الفاتح لم يفتن بتحويل كاتدرائية القديسة صوفيا إلى مسجد عقب فتح مدينة القسطنطينية ، بل اهتم ببناء مسجد جديد في قلب العاصمة بعد أن أطلق عليها اسم إستانبول • وأقام المسجد الجديد على أنقاض الكنيسة الرسولية التي كانت تستخدم في وقت سابق مدفنًا للأباطرة • وأطلق على هذا المسجد الجديد الجامع الحمدي أو جامع السلطان محمد الفاتح • ولما تولى السلطان سليمان المشرع العرش شرع في سنة ١٥٥٠ — وكانت الدولة قد باتت أوج قوتها — في إنشاء

مسجد عظيم في إستانبول قدر له أن يجذب عظمة النبي المباري الضخم التي عرف بكأثرائية القديسة آيا صوفيا. وغدا جامع سليمان من أجمل وأروع المساجد في الدولة^(١). وازدادت إستانبول بمسجد رائع آخر شيده السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) وتناثرت المساجد الكبرى في المدن العثمانية مثل بروسة وأدرنة وغيرها. ويقول أحد الباحثين إن رصد الإعتمادات المالية الضخمة على تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الديني للسلط على الرطبا العثمانيين. ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تصاقفوا على عرش الدولة. ولم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليها بقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين^(٢).

ولم يكن إهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مقصوراً على الأقاليم التي كانت مهأداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم، بل امتد هذا الإهتمام إلى الولايات الإسلامية. ففي مصر - على سبيل المثال - كان الباشوات العثمانيون يشيدون - بناء على أوامر تصدر لهم في غالب الأحيان من إستانبول - مساجد جديدة لا تزال إلى اليوم تحمل مظاهر العمران في مصر إبان الحكم العثماني. ونذكر من هذه المساجد: مسجد سليمان باشا في القلعة (١٥٢٨)، والمحمودية (١٥٦٧)، وسفان باشا (١٥٧١)، والمسكة صفية (١٦١٠)^(٣). وكان السلاطين يهدون إلى الولاية في مصر بإصلاح

(١) بروكلمان كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس، والأستاذ منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩، ص ٧١-٧٢.

(٢) ٤٢٤ جميل بيهيم: العرب والترك في الصراع بين المشرق والمغرب، الطبعة الوطنية، بيروت، ١٩٥٧، ص ١٢٥.

(٣) أنظر بخصوص المساجد التي شيقت في مصر إبان الحكم العثماني كلام من: حسن عبد الوهاب باشا، تاريخ الساحل الأثري. الناشر وزارة الأوقاف بالقاهرة، مطبعة دار الكتب بجزءان، ١٩٤٦ ح ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٨، ص ٣٠٢ - ٣١١. دكتور عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وقلع إسلامية أخرى، مشروع الألف كتاب. مكتبة تهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٢٤، و ص ٧٩. دكتور عبد الرحمن زكي: موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام. الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٣١٥، و ص ٣١٩.

وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الجامع الأزهر^(١).

التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية :

ووضع الطابع الديني وعمقه في الدولة من حرصها على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً من ناحية، وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى. فمن الناحية الأولى كانت الدولة تؤكد في شتى المناسبات أنها تلتزم التزاماً دقيقاً بمبادئ الشرع. ونذكر هنا على سبيل المثال أنها حين أصدرت قانون نامه الذي وضعه السلطان سليمان المشرف توجت هذا القانون بجملة معبرة وردت في صدره « قانوننامى سلطانى كى شريعى شريفى موافقانى محرر اولوب » أى « القانون نامه السلطانى الذى يتفق مع الشريعة الشريفة »^(٢).

أما من الناحية الثانية وهى المحافظة على التقاليد الإسلامية، فنذكر على سبيل المثال أيضاً أن السلطات الثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان، ولذلك لم يكن يجوز أحد، مهما كان مركزه، وسواء كان مسلماً أو غير مسلم، على أن يأكل أو يشرب في مكان عام في أثناء النهار طوال شهر الصيام. كان ضرب هذا الشخص أو تجريمه من الإجراءات الفورية الراحعة التي تتخذ ضده. وكان التجريم عقوبة مقررة ومعترفاً بها. فكانوا يحلقون نصف لحية المذنب ونصف شاربه، ثم يضعونه على ظهر حمار، ووجهه متجه إلى ذيل الحمار، ويقبض بيده على ذنب الحمار، ويمعمون هذا الشخص بمصارين ذبيحة أى

(١) عبد الجواد صابر لإسماعيل : دور الأزهر في مصر إبان الحكم العثماني رسالة أعدت تحت إشراف لؤلؤف وأجيزت لدرجة الماجستير بقدري جيد جداً في التاريخ الحديث من قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٧٠، ص ٣٣٧ - ٣٤٤ (لم تطبع الرسالة بعد).

(2) Gibb Hamilton and Harold Bowen, Islamic Society and the West. A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East. Volume 1, Part I and Part II. Oxford University Press, 1962. Vol. I Part I, p. 23, fn., 2.

بأممائها ، ويضعون على كتفيه كرشها أو جلدها ، ويطوفون على هذه الصورة
المذكرة الشوارع والطرفات ، ورجال أشداء يصدمونه ويضربونه بالعدال ،
وكانوا يجمعون حوله الصبية يصرخون ليجتمع حوله مزيد من الناس .
وكان التجريس يستخدم إذا كان المفطر مسلماً شاباً قوياً صحيح الجسم .
وكان يطلق أيضاً على هذه العقوبة التشهير . وكان لا بد أن يقب إحدى
هاتين العقوبتين توقيع عقوبة أخرى هي الزج به في الترسيم أى الاعتقال^(١) .
وكانت العقوبة الأخيرة تطبق على المسلم وغير المسلم على حد سواء .

أربع فوائد رسمية لأداء الحج :

تولت الدولة تنظيم الحج إلى الحجاز وأشرفت عليه إشرافاً فعلياً ، واعتبرت
هذا العمل واجباً يقع على عاتقها على الرغم من أن الدولة كانت تمارس الحكم
في نطاق ضيق جداً لم يكن يجاوز بضمة قطاعات ، مثل الإدارة المالية
وتشمل جمع الضرائب من المولدين معتمدة على لللتزمين في الأرياف . وشيوخ
الطوائف في المدن ، ثم المحافظة على الأمن العام ، وتنظيم مرفق القضاء .
فسكانت قلة التدخل الحكومي من أهم ما يمتص به الحكم الممالي^(٢) . وقد
نظرت الدولة إلى الحج على أنه الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي ،
وأن واجب ولى الأمر تيسير الحج أمام الراغبين في أداء هذه الفريضة .

(١) كانت تستخدم في بعض المراجع كلمة « المرقانة » بنفس معنى الترسيم . والرقانة
سجن يوضع فيه المتفولون واقدين صدرت عليهم أحكام قضائية .

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي
إبان الحكم الثنائي . بحث في إحدى وستين صفحة من القطع الكبير لوتش في الندوة الدولية
لتاريخ القاهرة (٢٧ مارس — ٥ أبريل ١٩٦٩) وطبع في الجلد الثاني من بحوث
الندوة ، ص ٦٦٧ — ٢٢٥ .

فأنشأت الآبار على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز وأقامت في البادية حصونا لحراسة الآبار وشجعت على تشييد الخانات^(١)، وأقامت الخانار، وكانت تتحرك كل سنة أربع قوافل حج رئيسية من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة ووفق نظام رتيب وفي رفقة قوة عسكرية يقودها أحد كبار المسكرين يسمى سردار الحج^(٢) . وكانت كل قافلة ترأسها شخصية كبيرة تسمى أمير الحج . وكانت هذه القوافل من حيث الأهمية العددية : قافلة الحج الشامي وتضم حججاج بلاد الشام والحزيرة وكرديستان وأذربيجان والقوقاز والترم والأناضول والبلقان وحجاج إستانبول نفسها ، وكانت أوفر مدن البحر المتوسط سكاناً بعد البندقية . وكان عدد أفراد قافلة الحج الشامي يتراوح في كل عام بين ثلاثين ألفاً وخمسين ألفاً . ثم قافلة الحج المصري

(١) خانات جم خان وهو فندق أو وكالة معدة لاستقبال التجار الأغراب والحجاج وغيرهم من المسافرين . الخانات عبارة عن بناء في وسطه ساحة كبيرة مربعة الشكل تسمى الحوش ، ويحيط بهذا الحوش رواق على الحوائط الأربعة ، والرواق مرتفع على أعمدة . وينزل للمسافرون في الدور العلوي ويسمى الطابق (ومنه ما أتى) ، والطابق مقسم إلى عدد من الغرف تطل على الحوش الذي يتوسط الخان . وفي الدور الأرضي كان يخصص محل لإيواء الجمال والخيول وغيرها من الحيوانات التي يركبها للمسافرون كما كانت توجد في الدور الأرضي محلات أو مخازن تودع فيها بضائع التجار النازلين في الخان وفي القرن السابع عشر أدخل تعديل على تصميم الخان ، فأصبحت الساحة الداخلية — الحوش — أقل مساحة . وكان الحوش يستف بالقباب ، فيتحول إلى مستودع إضافي لتكوين البضائع بأمن من الغلطات الجوية . وكان يوجد بالخان بئر ماء ومبضأة ومسجد . وكان الخان عنصرأ حياً مهماً في حياة المدن في تلك العصور .

انظر سلا من :

جان سونفاجيه : ديه في الشام . حة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ،
تعريب فؤاد أفلام البستاني ، للطبعة السكوتوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٤٧ — ٤٦ .
دكتور سعيد عبد الفتاح عايسور : العصر المماليكي في مصر والشام . القاهرة ،
١٩٦٥ ، ص ٤١١ .

(٢) سردار معناها قائد .

وتضم حجيج مصر وشمال أفريقيا ، ثم قافلة الحج العراق وتضم حججاج العراق وفارس ، ثم قافلة الحج اليمن وتجمع حجيج اليمن والهند وماليزيا وإندونيسيا وغيرها .

تشجيع التصوف :

وكان من مظاهر الاتجاه الديني في سياسة الدولة تشجيع التصوف بين الصائين . وقد تركت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأنبياء . وانتشرت هذه الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً أول الأمر في آسيا الصغرى ، ثم انتقلت إلى معظم أقاليم الدولة . وقيل في هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة الرسميين^(١) . وقد مدت الدولة يد العون للمالئ إلى بعض الطرق الصوفية ، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية الفرعية المذهب وفضلتها على غيرها^(٢) . وكان من أهم الطرق الصوفية : النقشبندية ، والمولوية ، والبكتاشية ، والرفاعية أو الأحمدية ، والخلوتية ، والكازرونية نسبة إلى التصوف الإيراني أبي الإسحاق الكازروني ، ولذا تسمى أيضاً الطريقة الإسحاقية أو المرشدية^(٣) . وقد نجم عن تعدد هذه الطرق الصوفية من ناحية وانتشارها من ناحية أخرى أن بدأ الطابع الديني ملحوظاً بل قوياً في نفوس العثمانيين وامتازت حياتهم الدينية بالحيوية .

(١) بروكلمان كارل: الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ .
(2) Hourani Albert; The Ottoman Background of the Modern Middle East. Essex, England, 1970. p. 8.

(٣) كان أتباع هذه الطريقة يعتقدون يبدأ الدعوة الدينية وعاصمة الكمار . وقد دخلوا شبه جزيرة الأناضول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد الفزو المغول مباشرة ، وازولوا نشاطهم في منطقة الإمارات التي كانت قائمة في غرب الأناضول ، وظفروا بمركز ممتاز في دوائر الحكومة الثانية ، وأثنى السلاطين العثمانيون جانبهم على أتباع هذه الطريقة للاستفادة بهم من إذكاء الروح الدينية الإسلامية في تلك المنطقة الهامسة التي كانت مسرحاً لعمليات حربية متعاقبة خاضها العثمانيون ضد الكيانات المسيحية .

انظر : محمد فوزان كوبر على ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨

نظام الفتوة :

وإلى جانب الطرق الصوفية وجد في الدولة نظام الفتوة الذي كان الطابع الإسلامي للفروسية العربية. وكان هذا النظام موجوداً في الأناضول قبل قيام الدولة العثمانية، ولكنه أخذ مظهراً جديداً على يد الأتراك العثمانيين، وعرف أفراد هذا النظام بعدة أسماء منها آخيان روم، والأخية الفتيان، والآخيات. وكان الاعتقاد السائد بين جمهرة الباحثين إلى عهد قريب أن كلمة آخيان مأخوذة من اللفظة العربية إخوان، وأن مفرد آخيان هو آخى. ولكن فرد المستشرق الفرنسي دني Dony J. أن كلمة آخى جاءت من اللفظة التركية آقى بمعنى الرجل الذي يجمع بين الشهامة والكرم، وأنها ليست مأخوذة من الكلمة العربية آخى^(١). وهذا التفسير أدنى إلى الحقيقة، لأن هاتين الصفتين. وهما الشهامة والكرم - كانتا من أبرز صفات أفراد هذه الجماعة. وقد التقى بهم الرحالة المسلم ابن بطوطة^(٢) في جولاته في الأناضول في أثناء رحلته الأولى التي كانت أطول وأهم رحلاته الثلاث، وقد قضى في رحلته الأولى ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً^(٣). وعاصر اثنين من سلاطين الدولة العثمانية هما عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٦) وابنه أورخان (١٣٢٦ - ١٣٦٠). وقد زار ابن بطوطة بلاد الأناضول في أثناء حكم هذا

(١) محمد فؤاد كوبرلي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، وكنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين وشهرته ابن بطوطة. وقد ولد في طنجة في اليوم السابع عشر من شهر رجب سنة ٧٠٣ هـ الموافق الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٣٠٤ م وجاز إلى ربه في مدينة ناس سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ - ١٣٦٩) م. وكان قد تولى على السابعة والستين من العمر. وفي رواية أخرى أنه تولى سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧) م وله من العمر قرابة أربعة وسبعين عاماً. وكان له وفاته يتولى القضاء في ناس.

(٣) بدأ ابن بطوطة رحلته الأولى من طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من شهر رجب المفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة هـ متصفاً حج بيت الله الحرام وزاره قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام (١٤ يونيو ١٣٢٥ م)، وأتمها في مدينة ناس التي وصل إليها في يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المسكرم من عام خمسين وسبعمائة (١ نوفمبر ١٣٤٩). وقد انتهى من رحلاته الثلاث في سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٤ م).

الابن السلطان أورشان . وقابله وقال عنه إنه أكبر مسالك التركان وأكثرهم مالا وبلاداً وعسكراً ، له من الحصون ما يقارب مائة حصن ، وهو في أكثر أوقاته يتفقدها ، ويقبض بكل حصن أياماً لإصلاح حشونه . وقد أعطى ابن بطوطة صورة واضحة للدولة العثمانية في دور نشأتها ، إذ وصف الإمارات والديارات التركية المتعددة قبل أن يجمعها كلها الأتراك العثمانيون في دولة واحدة^(١) . ومهمنا في هذه الدراسة أن ابن بطوطة خالط الإخوان الأتراك ووقف على نظمهم وزواياهم وأساليبهم في الحياة ، ثم تحدث عنهم في كتابه^(٢) حديثاً شائفاً سافياً تحت اسم الأخية الفتيان^(٣) . وقال إنهم كانوا مثلاً فريداً في الشهامة والكرم وقضاء الحوائج والوقوف في وجه الظلم والاقتصاص من الظلمة ومن لحق بهم من أهل الشر . وكانوا يحملون معهم الأسلحة في حلهم وترحلهم . وذكر أنهم كانوا يتنافسون على استضافة التريب

(١) دكتور محمد عماد العياد: رحلة ابن بطوطة . بحث منشور في «تراث الانسانية» القاهرة ، المجلد الثالث لسنة ١٩٦٥ ، العدد الثاني ، فبراير ١٩٦٥ ، ص ١٠١ — ١١٦ .
(٢) من الجائز أن نطلق كلمة «كتابه» ، لأنه لم يفسح حقاً للكتاب ، فإنه لما انتهى من رحلاته الثلاث ، وكان قد أمضى فيها زهاء ثلاثين سنة ساعداً في الأرض ، سط رحاله في ناس باستدعاء من السلطان أبي عثمان من ملوك بني مرين ليجلس إلى الناس في تلك المدينة يمدحهم عن مشاهداته في البلاد التي زارها . وطلب السلطان من أحد موظفيه وهو محمد بن جزى الكلبي أن يدون أحاديث ابن بطوطة . وقضى في هذا العمل ثلاثة أشهر يستمع إلى الرحلة ويدون ما يقوله . وفرغ من هذا العمل في الثالث من شهر ذي الحجة سنة ست وخمسين وسبعمائة (ديسمبر ١٣٥٥ م) ويلاحظ أن هذا التدوين كان مجرد مسودة لرحلة ، وأعاد صياغتها في «مكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة» (فبراير ١٣٥٦ م) أي أنه أنفق قرابة ثلاثة شهور في تيسير المسودة ووضعها في صورتها النهائية . وأطلق على الكتاب اسم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

(٣) البيهقي (محمد بن هبة بن محمد البيهقي) : المتقى من رحلة ابن بطوطة الطنجي الأندلسي . وهي مخطوطة عنقولة في مكتبة الأزهر برقم ٤٠٦٣ ، وتام في ٧١ ورقة أي ١٤٢ صفحة . وقد رجعا إلى هذه المخطوطة التي تناولت أخبار الأخية الفتيان ص ١٨ — ٢٨ . وقد طُبعت عدة طبعات ومضمرات نقلت عن هذه المخطوطة ورجعنا إلى كتابين آخرين أحدهما : «رحلة ابن بطوطة السبابة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» . ووجدت وصححت على عدة نسخ خطية بمعرفة لجنة من الأدباء سنة ١٩٦١ م — ١٢٨٣ هـ وهو في جزئين يقعان في مجلد واحد ، وقد نشرتها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ص ١٨١ — ٢٠٩ والكتاب الآخر يسمى «رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وأرتريا» للامستاذ محمد الفرغواوي . وتتم هذه الطبعة أيضاً في جزئين في مجلد واحد ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ج ١ ، ع ١٥٦ — ١٦٦ .

الوافد إلى بلدتهم . وكان نظام هذه الجماعة أن ينتخب أهل كل صناعة أو مهنة أو حرفة رئيساً لهم يلتب أخى ، ويشترط أن يكون الرئيس وجماعته من الشبان العزاب المتجردين ، ويقدمون رئيسهم عليهم . ويبقى الرئيس زاوية وداراً للضيافة ويشترك الجميع في نفقاتها وخدماتها ونفقات ضيوفها . ووصف ابن بطوطة زواياهم وقال إنها منتشرة في طول البلاد وعرضها ، وأنها توجد في كل مدينة وبلدة وقرية ، كما توجد في مناطق الحدود . وكانوا يذهبون سوياً إلى المسجد في صلاة الجمعة والميادين وفي المناسبات الدينية الأخرى ، ويحيطون بحاكم الإقليم أو المدينة ، وكل منهم يحمل سلاحه .

وينكر الأستاذ محمد فؤاد كوبرلي - استناداً إلى النقوش وشواهد القبور والوقفيات والمصادر التاريخية - أنهم كانوا جميعاً عزاباً ، ويقرر أن أعداداً كشيبة العدد منهم كانوا متزوجين ، وأنهم كانوا من أرباب الثروات الضخمة والنموذج العريض ، وأن من بينهم من تقلد المناصب الإدارية العليا . وكان لهم أدوار خطيرة في تأسيس الدولة العثمانية وفي إنشاء فرق الإنكشارية في الجيش . وكان السلاطين العثمانيون وكبار الغادة ينزلونهم منازل التكريم^(١) .

وقد اختلط أفراد هذه الطائفة بطوائف الصناع في المدن ، واتصلوا بأصحاب الأراضي في الريف اتصالاً وثيقاً ، ثم انضم إليهم عدد من رجال الدولة في الأناضول ، ومن القضاة والتجار والمشايخ الذين ينتمون إلى طرق صوفية شتى . والتحق هؤلاء وأولئك بزوايا الآخيان . واختلط الأمر على كثير من الباحثين ، فذهب بعضهم إلى أن الآخيان كانوا يشكلون منظمة لأرباب الحرف ، واعتقد البعض الآخر أنهم كانوا إحدى الطرق الصوفية . ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن أفراد طائفة الآخيان قد اصطبغوا بالطابع الصوفي ، ولكنهم لم يشكلوا طريقة صوفية خاصة بهم . وجدير بالذكر أنهم كانوا يمتنقون المذهب السنّي . ولم

(١) محمد فؤاد كوبرلي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٩ - ١٦٢ .

يكن في استطاعتهم اعتناق المذهب الشيعي لأنهم كانوا يخضعون لرقابة الدولة . وكانت السلطات العثمانية متعصبة جد التعصب للمذهب السني وقد زاد تعصبها لهذا المذهب حدة طول راعها مع الدولة الصفوية في فارس .

اختيار اسم إسلامي بدلاً من القسطنطينية :

ومما تجدر الإشارة إليه — ونحن نتكلم عن الطابع الديني للدولة العثمانية — التسمية الإسلامية التي أطلقها السلطان محمد الفاتح على القسطنطينية عقب استيلائه عليها في ٢٩ من مايو ١٤٥٣ ، فقد استبدل بهذا الاسم أسماً جديداً هو إستانبول^(١) ، وهي كلمة تركية معناها دار الإسلام . ولا يخفى المنزى الديني لهذا الاسم الإسلامي الذي أطلقه السلطان على عاصمة دينية وسياسية ظلت قروناً وأعماراً وأدهاراً مقراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية — اليونانية — تهفو إليها قلوب الملايين من أتباع هذه الكنيسة ، كما كانت عاصمة سياسية للدولة الرومانية الشرقية منذ أن أنشئت سنة ٣٣٠ م على يد الإمبراطور قسطنطين^(٢) (٣٣٧ — ٣٦) . وظلت القسطنطينية قلعة حصينة صمدت في وجه المسلمين الأوائل وحالت دون امتداد الفتوح الإسلامية إلى شرق أوروبا حتى جاء الزحف العسكري العثماني بطرق بشدة ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية منذ مطلع القرن الرابع عشر . واستولى العثمانيون على هذه العاصمة التي كانت يونانية الحضارة واللغة والتراث ، أرثوذكسية المذهب الديني . ولم يشأ السلطان محمد الفاتح أن يطلق اسمه أو اسم أحد من أسلافه على هذه المدينة على الرغم من أنه كان يملك القدرة على مثل هذا

(١) تكتب في بعض المراجع إستامبول قارة وإسلامبول قارة أخرى .

(٢) دكتور سهـد عبد الفتاح طاشور : أوروبا العصور الوسطى . جز ١ ، الجزء الأول : التاريخ السياسي ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٥ ، ص ٢٠

التغيير، ولكنه اكتفى بتغيير اسمها وجعله اسماً إسلامياً ، وفتح ونقل عاصمة دولته إليها، وهذان التغييران كانا أبلغ من أى تغيير آخر .

تقليد ديني عند إرتقاء السلاطين العرش :

استن سلاطين الدولة تقليداً دليلاً عقب فتح القسطنطينية وإطلاق الاسم الإسلامى «إستانبول» عليها . كان السلطان محمد الفاتح فى قمة أبتهاجه بهذا النصر العظيم الذى حققه بإستيلائه على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، وتقديراً منه للدور الذى قام به الصحابى أبى أيوب الأنصارى أحد قادة الجيش الأموى الذى زحف على القسطنطينية سنة ٦٧٠م على عهد يزيد بن معاوية لفتحها واستشهاده فى عمليات الحصار وكان كشف موقع قبره على مقربة من أسوار القسطنطينية قبل فتح هذه العاصمة البيزنطية بأيام قد أدى إلى تنجيس الشعور الدينى الإسلامى لدى الجيش العثمانى المهاجم - رأى هذا السلطان أن يشيد مسجداً بالقرب من ضريح الشهيد أبى أيوب الأنصارى ، وازدادن هذا المسجد بالرخام الأبيض . وإلى جانب هذا المسجد ، وفى مقام الشهيد أبى أيوب الذى لا يبدو أن يكون بناءً مريباً بسيطاً تلوه قبة ، كان يقام حفل دينى رسمى عقب إعتلاء كل سلطان جديد العرش . فكان السلطان يذهب فى موكب رسمى حافل إلى هذا المسجد ، ثم يدلف إلى ضريح أبى أيوب الأنصارى . وفى جو دينى عابق كان السلطان الجديد يتسلم من يد شيخ الطريقة المولوية - بيوك چلبى - سيف السلطان عثمان الأول الجدد الكبير للسلطان العثمانيين (٢) .

اهتمام عميق بالحجاز :

ويبرز الطابع الدينى للدولة فى اهتمامها الكبير بإقليم الحجاز منذ أن غدا ولاية عثمانية . فكانت تسمية الحجاز للدولة قد أضفت عليها مركزاً دينياً مرموقاً فى جميع

(١) انظر فصلاى هذه الدراسة بعنوان فتح القسطنطينية .

(٢) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

أرجاء العالم الإسلامى على أساس أن هذه الولاية تضم أم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض. وتجلى هذا الاهتمام فى عدة امتيازات قررها السلطان سليم الأول وهو لا يزال فى القاهرة لولاية الحجاز دون سائر الولايات العثمانية . وسار على هذا النهج السلاطين العثمانيون الذين تربعوا على عرش الدولة من بعده ، وعملوا على دعم هذه الامتيازات بحيث أصبح فى حكم الاستحالة المساس بها . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبى ، فكان الحجاز لا يقدم جزية سنوية للدولة على الرغم من أن السلطان كان يحرص على فرض هذا الالتزام على معظم الولايات العثمانية ، أما ولاية الحجاز فكانت تتلقى كل عام إعانات مالية ضخمة ترصد فى ميزانية الحكومة المصرية ^(١) . وقد أمر السلطان سليم الأول بزيادة الإعانات المالية المخصصة للحجاز ، كما أمر بأن تتحمل الحكومة المصرية هذه الالتزامات القديمة والمستحدثة . وكان يطلق عليها المصطلح التاريخى « الصرة » وترسل مع قافلة الحج للمصرى . وكان إرسال « الصرة » إلى الحجاز يمد من أم واجبات الباشا العثمانى فى مصر ، وبحساب حساباً عسيراً إذا قصر فى إرسالها . وإلى جانب إعفاء الحجاز - كولاية عثمانية - من دفع الجزية للدولة تمتع أهل الحجاز - من قبيل الرعاية لهم - بالإعفاء الضريبى من معظم الضرائب الشخصية والعقارية سوى ضرائب على أصحاب الأغنام والجمال ^(٢) . وتمتع سكان الحجاز أيضاً بالإعفاء من التجنيد أو الخدمة العسكرية ، كما أبت الدولة على الحكم الذاتى

(١) كانت هذه الإعانات تتكون أساساً من حصيلة الأراضى الزراعية وغيرها من المقارات الثابتة التى أوقفها أهل البقل من المسلمين ومصر زلى إلى الله لتصرف على المحرمين المصريين و مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلى الأشراف وغيرهم من سكان مدن الحجاز . وبحساب الأموال السائلة كانت تسحق لى الحجاز كميات من القمح والبنود والأرز .
(٢) انظر كلام من :

حسين ابن محمد نصيف : ماضى الحجاز وحاضره . جدة ١٩٣٤ (١٩٣٠-١٩٣١) ص ٩٤ .
حافظ وهه : جزيرة العرب فى القرن العشرين - الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٨٧ م .
(١٩٦٧) ص ١٥٢ .

الذى كان يتمثل في نظام الشرافة وأقامت بجانبه نظاماً مدنياً . (١)

لقبان ديليان :

اهتم سلاطين الدولة العثمانية اهتماماً عظيماً للناية بإبراز لقبين دينيين من بين ألقابهم العديدة ، إذ كان هذان اللقبان يضيفان على سلاطين آل عثمان صبغة دينية لها بريقها ووزنها في أرجاء العالم الإسلامى . كان أولهما لقب « حى حى الحرمين الشريفين » أو « خادم الحرمين الشريفين » وكان السلطان سليم الأول قد أخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة لينبغ السلطان سليم ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز . وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى . وكان مرد اهتمامهم بهذا اللقب إلى تأكيد زمامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامى ، بعد أن انتصر العثمانيون على الشاه إسماعيل الصفوى في موقعة تشالديران (٢٢ من أغسطس ١٥١٤) ودخلوا تبريز عاصمة فارس التى هبطت إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبعد أن قضى العثمانيون بعد ذلك على دولة المماليك البرجية واستولوا على الشام ثم مصر ، وبعد أن دخل إقليم الحجاز تحت السيادة العثمانية سنة ١٥١٧ وأصبح ولاية عثمانية تضم أهم الأماكن الإسلامية المقدسة يجتمع فوق رؤسها كل عام حشود إسلامية كثيفة العدد يأتى أفرادها من كل فج عميق يؤدون فريضة الحج ويشهدون منافع لهم في بلاد تابعة للدولة العثمانية . ومنذ ذلك الوقت برز في الدولة الطابع الدينى الإسلامى بوضوحاً قوياً للناية ، واشتد هذا الطابع الدينى كلما مضت السنون في القرون التالية .

(١) أنظر كلامن :

ابن سعيد : الثورة العربية الكبرى تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن • ثلاثة أجزاء ، ج ١ ، انفصال بين العرب والتك . القاهرة ، مطابع عيسى البابى الحلبي وشركاه مصر ١٩٣٤ ص ١٠٤ . دكتور سيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ - ١٩٠٩ . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧٠ ،

أما اللقب الديني الآخر الذي اهتم به سلاطين الدولة فهو لقب خليفة ، وقد بدأ اهتمامهم به في القرن الثامن عشر واشتد هذا الاهتمام في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . واتخذوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والسكاننة وسيلة لمقاومة ضغط الدول الأوروبية الاستعمارية عليها ، وبخاصة الدول التي كان لها رعايا مسلمون مثل بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا . وكان السلاطين يهددون بتحريك هؤلاء الرعايا المسلمين ضد حكومات دولهم الأوروبية عن طريق إعلان الجهاد الديني ، وهو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر . وسنعرض لهذه المسألة في موطن قادم عند الكلام عن موضوع « الخلافة العثمانية وعلاقتها بتاريخ أوروبا الحديث » . وحسبنا أن نذكر هنا أنه بالمصاق لقب خليفة بالسلطان العثماني - وهو المصاق متمم هادف - نستطيع أن نقول إنه أصبح لرئيس الدولة العثمانية لقبان : لقب مدني هو السلطان ، و لقب ديني هو الخليفة .

رأى الجبرتي في الدولة العثمانية :

والمؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن حسن الجبرتي - كأحد كبار رجال الفكر الإسلامي - يستهويه الطابع الديني البارز في سياسة الدولة العثمانية ، فيتكلم بإعجاب ، وفي عبارات مسجحة عن اهتمام السلاطين العثمانيين « بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم ، وهابتهم الملوك ، واتعاد لهم المالك والملوك » (١) .

نظام الملل :

والدولة العثمانية دولة دينية لأن رعاياها غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام

(١) الجبرتي الشيخ عبد الرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء ، ج ١ ، ص ٢١ .

الملل ، وهو نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذي يدين به هؤلاء الرعايا . وكان يطلق على كل مذهب ديني « ملة » . وكان لكل ملة رئيس ديني ينظر في المسائل الدينية ؛ ويقوم - مستعيناً ببعض مساعدين من رجال الدين المسيحي - بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بأنباع هذه الملة دون تدخل من جانب الدولة التي تركت لرئيس كل ملة ممارسة هذا الاختصاص . وقد منح نظام الملل الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً . وكان الروم الأرثوذكس - أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية - أم ملة غير إسلامية في الدولة العثمانية . ويترجم تحت هذا الاسم اليونانيون والبلغاريون وسكان البوسنة والمهرسك والجيل الأسود وبعض الألبانيين وغيرهم . وكان مقر رئيس هذه الهيئة في إستانبول ، ويسمى البطريرك ، ويطلق عليه أيضاً بطريرك القنار نسبة إلى حي القنار ، وهو أحد أحياء العاصمة ، وكان يقوم فيه مبنى البطريركية . وكانت تسكن هذا الحي عائلات يونانية عريقة تتمثل فيها أرستقراطية المال والثقافة والمجد الأصيل ، ويسمون « القناريون » Les pbanariotes وكانوا يختلفون عن اليونانيين الموجودين في شبه جزيرة البلقان . ولما كان البطريرك يونانياً ، فقد احتكر اليونانيون عامة السيادة الروحية على الشعوب التي تدين بمذهبهم مثل الصرب والبلغار وغيرهم . وكانت الملة الثانية هي ملة الروم الكاثوليك ، وكانوا أقل شأنًا من الروم الأرثوذكس ، ثم الملة الثالثة وهي ملة الأرمن ، وأخيراً ملة اليهود .

ويتعارض نظام الملل مع فكرة الدولة الحديثة التي تنظر إلى رعاياها على أساس المساواة في الحقوق والواجبات بنقض النظر عن ديانتهم . ولكن كانت الفكرة الدينية موجودة في تلك القرون في كافة أنحاء العالم . ومع ذلك فقد كانت الدولة العثمانية متقدمة عن الدول الأوروبية الماصرة لها ، لأنها كانت تسمح بوجود ديارتين هما المسيحية واليهودية ومذاهب دينية مختلفة وعديدة في بلادها

بجانب الدين الإسلامي . وستتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل عند الكلام على الطابع المالي للدولة .

فقرتان من وثيقتين :

ونقتبس هنا فقرتين جاءتا في وثيقتين من الوثائق الرسمية التي صدرت عن الدولة العثمانية . جاءت الفقرة الأولى في الوثيقة المعروفة باسم خطي شريف ، جلخانة وقد صدرت هذه الوثيقة في سنة ١٨٣٩ وجاء فيها « إن الدولة كانت تراعى الأحكام الشرعية فبلنت قمة المجد . ومنذ مائة وخمسين سنة أهملت الإدارة الشرعية بسبب التوائل وما عرض من حوادث . . . »^(١)

أما الفقرة الثانية فجاءت في الوثيقة المعروفة باسم خطي همايوني . وقد صدرت هذه الوثيقة في سنة ١٨٥٦ وكان مما ورد فيها « لا يخفى أنه منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة في غاية المراعاة الكاملة ، ولذلك كانت قوة سلطنتنا السنية وثبوتها معراحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يمد انقياد ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة . ولهذا تحولت تلك القوة إلى ضعف ، والراحة إلى التعب ، والعمار إلى الدمار . وأية مملكة لا تقوم بحمط القوانين الشرعية تؤول إلى الأضمحلال . . . »^(٢) .

تدل هاتان الفقرتان على الطابع الديني الإسلامي الأصيل في المولة العثمانية . فإن السلطان الذي أسسهما - وهو عبد المجيد الأول (١٨٣٩ - ١٨٦١) - كان يتفق رأياً مع كبار رجال حكومته على أن المجد الذي حققته الدولة

(١) دكتور عبد الكريم فراية : سوريا في القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦) من مطبوعات معهد الدراسات العربية المالية التابع لجامعة الدول العربية - القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٣١ .

في عصورها الذهبية إنما مرده إلى التزامها بمبادئ الشريعة الإسلامية، وأنها إذا كان قد أسابها ومن أو « اضمحلال » خلال القرن التاسع عشر فلاؤها أهملت لسبب أو لآخر تطبيق مبادئ الشريعة . وقد جاءت الفقرة الثمانية أكثر إيضاحاً وتفصيلاً : فهي تقرر أن الدولة التزمت التزاماً دقيقاً بأحكام الشريعة ، وأن حرصها على اتباع أحكام القرآن الكريم قد صاحب نشأة الدولة ، وأن هذا الحرص قد أدى إلى النتائج التالية : قوة الدولة العثمانية ، استقرارها ، راحة الرعايا ورفاهيتهم ، عمران البلاد . ولما باعدت الدولة بينها وبين تطبيق المبادئ الإسلامية تحولت قوة الدولة إلى ضعف ، وراحة السكان إلى متاعب ، كما توقفت مشروعات الإصلاح والتعمير ، وأندثر بعضها . ثم تخلص الفقرة إلى حكم عام شامل تقول فيه إن الدولة التي تبتمد عن الأخذ بمبادئ الشريعة ولا تطبق قوانينها يكون مآلها الاضمحلال . وسنعرض للوثيقين اللتين أشتملتنا على هاتين الفقرتين في الفصل التالي عند الكلام على الخصيصة الثمانية للدولة العثمانية وهي أنها دولة عالمية .

الجامعة الإسلامية :

والدولة العثمانية هي التي احتضنت حركة الجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر ، وهي حركة كان قد نفاذى إليها السيد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧) ، وكانت تدعو إلى وحدة الصف الإسلامى فى عتواء الكبير شعوباً وحكومات . فى مشارق الأرض وفى مشاربها ، والوقوف كالبنيان المرصوص بشد بعضه بعضاً حول الدولة العثمانية بصلتها أكبر دولة إسلامية فى العالم فى ذلك الوقت . ولم تستهدف هذه الحركة التفوق السياسى أو السيطرة على العالم أو سيادة الجنس أو اللغة ، ولكن كان غرضها تخليص العالم الإسلامى مما يؤن منه من سيطرة أجنبية مسيحية ، وتدخل أوروبى ، وأزمات سياسية ، واختناقات مالية ، ونهب ثرواته ، واستغلال شعوبه . ويلاحظ أن حركة الجامعة الإسلامية عاصرت حركتين أخريين فى العالم المسيحى هما : حركة الجامعة الصقلبية وحركة الجامعة الجرمانية فى

أوروبا^(١)، ويلاحظ أيضاً أن حركة الجامعة الإسلامية أعم وأشمل من حركة القومية العربية التي تنادى إليها فريق من القوميين للسيحيين في بلاد الشام رداً على حركة الجامعة الإسلامية. ومهما قيل في بواعث وأهداف حركة الجامعة الإسلامية، فإن الدولة العثمانية باحتضانها هذه الحركة كانت رمزاً حياً مجدداً للتضامن الإسلامي للوقوف في وجه الزحف الأوروبي الاستعماري على العالم الإسلامي.

وقد أفصح أحد الباحثين الأمريكيين — وهو لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard — عن الضرورة الملحة التي كانت تتطلب من المسلمين الاستجابة لحركة الجامعة الإسلامية. فقال إن العالم المسيحي على اختلاف شعوبه تسوده روح صليبية وتصعب ديني عميق. ويريد تحطيم الدولة العثمانية وغيرها من الدول الإسلامية، ويريد أيضاً سحق الإسلام. ومضى يقول إن الدول المسيحية في عدايتها وحقدتها على الدول الإسلامية تلجأ إلى العدوان المسلح ابتغاء إذلال الدول الإسلامية، كما تعمل دائماً على القضاء على كل حركة إصلاحية يحاومها المسلمون في بلادهم. وكان مما جاء في كتابه وهو يبسط آراءه في موقف المسيحيين الغربيين من دول الشرق بعامة والدول الإسلامية بخاصة « العالم النصراني » على اختلاف أعمه وشعوبه، عرفاً وجلسية، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم، وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ». — وعرض في كتابه

(١) كانت حركة الجامعة الصقلية تسعى لقم جميع سفالية أوروبا على اختلاف حضاراتهم ومذاهبهم لتفليس من السيطرة العثمانية والنهوض الألماني، ثم تكوين كتلة حضارية سياسية شرقى أوروبا ووسطها تقوى على مناهضة غرب أوروبا وتسمى لتحقيق آمال الروسيا في الشرق. أما حركة الجامعة الجرمانية فعملت على تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية تعمل أولاً للسيطرة على وسط أوروبا ثم على بقية أجزائها، ووقف سداً متيناً أمام فرنسا من جانب، وأمام الصقلية من جانب آخر، وتفرض رغباتها على اللاتين.

دكتور عبد مصطفى صفوت: الاحتلال الإنجليزي لصر ووقف الدول الكبرى إزاده القاهرة، ١٩٥٢، دار الفكر العربي، ص ١٧ — ١٨.

يقول « والروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمن النار في الزماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك^(١) من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرًا في عناصرها ، متغللا في أحشائها ، ومتشيمًا في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العدا ، والحزد ، والتعصب الدينى المقوت . . . وجميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عدا الإسلام ، وروح هذا العدا متمثلة بجمبع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً » . ويختتم عرض آرائه بقوله « جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً تاماً ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى ، إنما يجب عليه اكتتاف أسباب تقدم الغرب والوقوف على تدوقه وقدرته »^(٢) .

(١) كان بطرس الناسك أحد الدعاة لمسروح الحروب الصليبية أخذ بطوفى أوروبا بعد المجلس العام الذى عقده البابا اربان الثانى Urban II فى كليرمنت Clermont بجنوب فرنسا سنة ١٠٩٥ وناقش ضرورة إنقاذ بيت المقدس من المسلمين . وكان بطرس فى طوانه يمت المسيحيين على عاربه المسلمين . وكان رجلاً طاعناً فى السن ، على حظ موهور من القدرة على الخطابة وكانت فصاحته وحيثته الغربية : يشابه الهللهة ، وبندمية الماريتيين ، وحادره الأعرج ، جعلنا منه شخصية ذات تأثير على جماهير العامة والذمء فى غرب أوروبا ونجح فى جمع حشود آدمية كثيفة العدد من الرعاى وخرىسى السجون والأشقياء والربيق . واصطحب كثير منهم نساءهم وأطفالهم . وانفروا فى طريقهم لى الشرق جراًم منسكرة جعلت سكان المغرب ورعايا الدولة البيزنطية يتورون عليهم ووصلوا لى القسطنطينية . وسارع امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بمساعدتهم على العبور لى آسيا الصغرى رغبة فى التخلص منهم . وكان عددهم ثلاثمائة ألف رجل . مقابلهم الأتراك السلاجقة فى ليليا وأوقموا بهم هزيمة منكرة . ويعتبر بطرس الناسك هو المشول من هذه الحملة الخفء .

انظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح حاشور : الحركة الصليبية . جزءان ، ١٩٦٣ ، الناشر : مكتبة الأجهل للصرىة ، القاهرة . ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٤٠ .

(٢) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى * ترجمة هاجج نوبس . وتطرى الأمير شكيب أرسلان . جزءان ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .

الانحاديون يمسحون بالشمار الديني :

وقد ظل الطابع الديني الإسلامي ملحوظاً في الدولة على الرغم من أن قادة انقلاب سنة ١٩٠٩ - وهم أعضاء جماعة الأتحاد والترقي ومعظمهم من ضباط الجيش - كانوا قد اهتموا عن انعطاف الإسلامى الواضح ، وتخبطوا بين حركة الجامعة العثمانية^(١)، وحركة التتريك^(٢)، والحركة الطورانية^(٣)، وأمعنوا في الأخذ بنظام الحكم المركزي الذى وجدوه قائماً حين جاءوا إلى الحكم ، ثم محاولتهم تحطيم نظام الشرافة في الحجاز . حتى إذا دامهم المدوان الاستعماري الإيطالي على طرابلس الغرب في سنة ١٩١١ عادوا يرفعون شعار الجامعة الإسلامية ابتداء

(١) الجامعة العثمانية تهدف إلى صبح القوميات المختلفة و داخل الدولة بالصفة العثمانية أو ما يسمى عتنة القوميات : فالشكل عثمانيون لا فرق بين عرب وأتراك وأكراد وألبان وأرمن . وتطبيق حركة الجامعة العثمانية يؤدي إلى كبت القوميات الخاضعة للدولة العثمانية وعلها على التخلي عن أمانيتها القومية . ويشبه أحمد المؤرخين حركة الجامعة العثمانية بدينار يتنام على الرمال .

انظر :

Kodourie, Elie; England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire. 1914-1921. London. 1956. p. 59.

(٢) التتريك هو صبح جميع ولايات الدولة بما فيها الولايات العربية بالصفة التركية ورسالة التركية لغرض توحيد المدارس والمحاكم وترجيح مصالح الأتراك بغض النظر عن الأضرار بانزعاج غير الأتراك . وتطبيق سياسة التتريك يؤدي إلى حكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعضر التركي ، وتكون الدولة العثمانية دولة تركية لا عثمانية . وقد تطرب فريق من الأتراك لفصوا إلى إزالة أسماء الخلفاء الراشدين من الجوامع ووضع أسماء السلاطين الشاهين الأوائل عليها مثل سليم وسليمان وغيرهما . وقد ظهرت هذه الحركة عقب الحرب العالمية الأولى .

(٣) الحركة الطورانية تقوم على أن الشعب التركي ينسب إلى أصول طورانية ، وأن السبيل لبعث المجلس التركي يكمن في اتحاده من جديد مع الشعوب التي تحت إايه بصلة القربى من السلاطة الطورانية . وكانت الحركة الطورانية تدعو إلى إحياء أمجاد الأتراك الأوائل وربط الأتراك المعاصرين بقرانهم الحضاري القديم والدعوة إلى تخليص التراث العسكري التركي من المؤثرات المارسية والعربية التي دخلت عليه . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تأسيس الأكاديمية التركية سنة ١٩١٣ وإلى ترجمة القرآن إلى اللغة التركية . وظهرت الدعوة إلى إيشاء لغة جديدة وأدب جديد . وأبقى « اتحاد » بين لسان « أي اللغة الجديدة ، وتبته اتحاد « بين حياة « أي الحياة الجديدة . ولم يلبث أن اندمج هذان الاتحادان في اتحاد واحد . وقد أقيمت

الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية في العالم واستتارة العاطفة الدينية الإسلامية في نفوس هذه الشعوب وحكوماتها وهيئاتها وجمعياتها كي تسارع إلى دعم القوات الثمانيّة - أو المجاهدين كما كان يطلق عليهم - بالمال والأنس والسلاح والمواد التمويلية والمساعدات الطبية لجرحي هؤلاء المجاهدين .

الطابع الديني في الحرب العالمية الأولى :

وفي أقل من ثلاث سنوات برز الطابع الديني الإسلامي للدولة مرة أخرى واضعاً قوياً عقب دخول الدولة الحرب العالمية الأولى في اليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب دولتي الوسط - ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية - ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا^(١) . ولم تسكد تمر ساعات معدودات على دخول

كلمة «طوران» انتشاراً واسعاً في الأوساط الرسمية والعمومية حتى أصبحت محلات الخلاعة والطعام والقتاد تحمل اسم طوران . وتفتي الصحفيون والمثكرون والكتاب ومن ألبهم بطورانيتهم . وقد ظهرت الحركة الطورانية عقب الحرب البلقانية الثانية (١٩١٢-١٩١٣) . وما وجددير بالذكر أن الحركة القومية التركية الحديثة والجمهورية التركية المعاصرة استمدتا الكثير من ساهمة الحركة الطورانية .

انظر كلامن :

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٥١-٥٨ .
تولين على برو : العرب والترك في العهد الدستوري الثاني (١٩٠٨ - ١٩١٤) من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٨٢-٦١٠ .

دكتور فود صالح منسى : حركة البقطة العربية في القرنين الآسيوي . دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٢-١٢٩ .

(١) اشتملت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ من يوليو (تموز) ١٩١٤ حين زحف الجيش النمساوي على بلغراد، وسارعت ألمانيا في ٢ من أغسطس (آب) إلى إعلان الحرب على فرنسا وروسيا ، ودخلت بريطانيا الحرب في منتصف ليلة ٤/٥ أغسطس وتتابع دخول الدول في هذه الحرب . وتظاهرت تركيا وبنزاع بالحيطة ، ولكن كانت كل الدلائل تشير إلى إنها ستمتد إلى الحرب وشيكاً إلى جانب ألمانيا . وكان أنور باشا وزير الحربية التركي قد اقترح في الثاني والعشرين

تركيا الحرب حتى صدرت فتوى من شيخ الإسلام في إستانبول ، ثم لحقت بها فتوى أسدريها السلطان محمدرشاد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) بصفته خليفة ، ثم أعقبها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الكبرى^(١) ، والدراسة التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث توضح عدة حقائق تؤكد رغبة الاتحاديين في إبراز الطابع الديني للدولة ، منها :

أولا : إن هذه الفتاوى الثلاث موجهة إلى جميع المسلمين في بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول « عدوة الإسلام » ، وهى روسيا وبريطانيا وفرنسا أو غيره هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم .

ثانياً : إن الحرب التى تخوضها الدولة هى حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين ، والدفاع عن الدولة ، وأنه قد وضع - بما لا يدع مجالاً للشك - أن النصارى من أعداء الإسلام يستهدون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام ، لأن الدولة العثمانية هى دولة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الإسلام .

ثالثاً : دعوة جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الاتحاد والاشتراك

== من شهر يوليو (توز) ١٩١٤ على البارون فون وانجنهايم Baron von Wangenheim السفير الألمانى فى استانبول عقد معاهدة تحالف مع ألمانيا - وقد وقعت واليوم التانى من أغسطس (آب) ١٩١٤ وافقت الدولتان على أن تظل المعاهدة سرية . وفى ذات اليوم أعلنت الحكومة التركية المنتمية العامة . وتم الاتفاق بين تركيا وألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية على أن تقدم تركيا المساعدة حتى نهاية شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٤ . وفى نفس الوقت كانت البعثة العسكرية الألمانية بأمر مملها لى تركيا واعتبرت مسؤولة عن قيادة الجيش التركى . وكانت هذه البعثة تحت رئاسة الجنرال ليمان فون ساندرز General Liman von Sanders وكان قد شغل منصب المفتش العام للجيش التركى منذ يناير (كانون الثانى) ١٩١٤ .

Hurewitz J.C.; *Diplomacy in the Near and Middle East*. 2 vols. vol I (1535—1914) vol. II (1914—1956) New York, 1956, vol II, pp. 1—2.

(١) جورج أنطوليوس : بقظة العرب - تاريخ حركة العرب القومية ، تقديم دكتور لييه أمين فارس ، وحمرب دكتور ناصر المين الأسد ودكتور إحسان عباس . بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ، الخامس - هار العلم للدارين ، ص ٢٢٢ .

في الدفاع عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة
والقدس الشريف .

رابعاً : إن الجهاد الديني فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر . وعلى المسلمين
أن يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها تلك الفتاوى الشريفة .

خامساً : إن الدولة استهدفت إثارة الشعور الديني في جميع أنحاء العالم الإسلامي
على بريطانيا وحليفاتها .

حرب المنشورات الديلية :

وعكفت الحكومة التركية بالتعاون مع المستشرقين الألمان على طبع تلك
الفتاوى الثلاث مع تعليقات ديلية عليها في كتيبات ومنشورات للتأثير في الجماهير
التي تنتفيق الإسلام . وكتبت بجميع اللغات التي كان يتكلم بها المسلمون في أنحاء
العالم الإسلامي . وهربت إلى مصر والسودان والهند وفارس وأفغانستان ومارشاهما
فصلا عن نيابات شمال أفريقيا . واختلف أسلوب هذه الكتيبات والمنشورات:
كان بعضها يجرس الجلود على الحرب من جيوش بريطانيا وحليفاتها ، وبعضها
يدعو إلى القتل والاعتداءات المرعبة ، وبعضها كان يطلب
من المسلمين الامتناع عن تقديم أية مساعدة للدول عدوة الإسلام حتى حينما
يكونون مرضين لمقوبة الإعدام . ولكن كانت جميع هذه المنشورات تتفق في
إبراز فكرة واحدة ، هي : أن الإسلام معرض للأخطار بسبب أطاع بريطانيا
وحليفاتها ، وأن الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام إنما هو فرض عين على كل
مسلم بالغ قادر .

إنفاذ بعوث دينية إلى العالم الإسلامي :

ومعدت الحكومة التركية إلى إنفاذ بعوث دينية تؤيد بالقول واللسان ماتضمنته
الكتيبات والمنشورات والبلاغات الرسمية كي يكون لها مزيد من التأثير في نفوس

المسلمين . وكان الرسل من شتى الفئات : كان من بينهم وعاظ متجولون ، وعلماء ذوق وثقافة دنيوية ، ومحرضون عمerton ، انتشروا في جميع البلاد التي كان في استطاعتهم التسلل إليها ، فدخلوا الأقاليم الأفريقية التي كانت تحت حكم بريطانيا أو فرنسا أو إيطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر ، كما ركزوا جهودهم على الشعوب الإسلامية من غير الأتراك رغبة في استئثارها إلى نلبية دعوة الجهاد الديني . فدوا نشاطهم الدعائي إلى المهود والأفغان والإيرانيين ، وفي مقدمة هؤلاء العرب تطلب منهم المساعدة إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام وعن الأماكن المقدسة .

تلف الدولة على استصدار إعلان ديني من الشريف الحسين :

وحرصاً على إضفاء مزيد من الطابع الديني على هذه الحرب طلبت الدولة من الشريف الحسين بن علي أمير مكة وشريفها أن يصدر إعلاناً عاماً يوجهه إلى العالم الإسلامي قاطبة يدعو فيه المسلمين إلى الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث التي صدرت عن إستانبول . ولكن الشريف أحجم عن الاستجابة لهذا الطلب . وضغطت عليه الحكومة في إستانبول ضغطاً لا هوادة فيه . وانتهت عليه البرقيات والرسائل من الصلحة : من سعيد حليم باشا الصدر الأعظم ، وأتور باشا وزير الحربية ، وطلمت باشا وزير الداخلية وغيرهم من أعضاء الوزارة ، كما أخذ أحمد جمال باشا القائد العام للجيش الرابع في دمشق^(١) يبحث

(١) توجد هضمتان عسكريتان تحمل كل منهما اسم جمال باشا . أولهما أحد رجال باشا الذي ورد ذكره في المتن . وقد كان وزيراً للبحرية في الوزارة الثانية وعضواً بارزاً في حملة الاتحاد والترقي . ووقع عليه الاختيار ليقود الحملة العسكرية على مصر لإجلاء الإنجليز عنها . وقد منحه من السلطات بحكم القانون العسكري ما أصبح بمنزلة رئيساً للحكومة في بلاد الشام وقائداً عاماً للجيش الرابع . وقد وصل دمشق في الخامس من شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٤ ودخل دمشق في موكب رسمي . واتخذها مقراً لقبائه . وكان لا يشارف زملاءه و أخذ يتجهات الحركة الطورانية ، بل كان يؤمن بالتضامن الإسلامي . واعتزم في أول الأمر كسب الرعايا العرب إلى جانب الدولة واستمالة السليدين إلى المشاركة الفعالة في الجهاد الديني ضد بريطانيا وحليفاتها .

الشريف الحسين على أن يصدر إعلاناً بالجهاد الديني ، وأن يبعث إلى دمشق راية الرسول ساوات الله وسلامه عليه ، وأن يحشد جيشاً من قبائل الحجاز . وهكذا أظهرت الدوائر العليا في الدولة تلميحاً على استصدار إعلان الجهاد الديني من الشريف الحسين وكان مرد هذا التلميح إلى المسكاة الدينية الفريدة التي كان يتبوها الحسين . ويقول أحد الباحثين إن مكاتبه « لاتماثلها مكانة شخص آخر في العالم الإسلامي ، تلك المسكاة التي تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه أيضاً . وبينما كانت سلطة جيرانه^(١) محصورة في نطاق أراضيهم ، فإن سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ، ويمتد صوته إلى الجموع النفيرة من سكان العالم الإسلامي ، فهو حفيد النبي والقيم على الأماكن المقدسة . وهذان الأمران اللذان يستوجبان التبجيل وضعا في منزلة ينفرد بها ولا يطاوله فيها أحد ، بلغت من الرقعة بحيث كان يستطيع أن ينازع سلطان الخليفة نفسه في الشؤون التي تتصل بسلامة المدينتين المقدستين ، فقد كان أمير مكة ، حاضرة الإسلام ومثابته ، ولا يستطيع مسلم مؤمن أن يصم أذنيه عن نداءه ، وخاصة إذا كان مسلماً عربياً . وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يمان للناس أن الأماكن المقدسة في مكة والمدينة معرضة للخطر . وهكذا فإن مؤازرته - في أمر كال دعوة للجهاد - كانت عاملاً مهماً بل عاملاً حاسماً ، ولذلك كان الأتراك يسعون بلهفة إلى الحضور على هذه المؤازرة^(٢) .»

ونضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر هو أن رجال الدولة في إستانبول كانوا

== أما التخصبة العسكرية الأخرى التي تحمل اسم جمال باشا فهي شخصية محمد جمال باشا . وكان معاصراً لسيه ، وكان قائداً للجيش الثامن في خلال هذه الحرب . وكان مركزه مان . وإذا ذكر اسم جمال باشا فيكون المقصود هو أحمد جمال باشا .

(١) نذكر من بين هؤلاء الجيران : ابن سعود في نجد ، الإمام يحيى في اليمن ، وعبد الإدرسي في مصر ، ومبارك آل الصباح في الكويت ، وابن الرشيد في حمر .

(٢) جورج أنطونوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١ .

يدركون جيداً أن الدعوة الوهابية^(١) في شبه الجزيرة العربية، والثورة المهدية في السودان، والمقاومة الإسلامية العنيفة التي لقيها الاستعمار الأوروبي في الجزائر وتونس والمنغرب وطرابلس قد أظهرت أن استخدام الدافع الديني في الدعوة إلى الحرب لا يزال يحتفظ بقوته القديمة ومقدرته على إثارة النفوس ضد الاستعمار المسيحي. ولكن الشريف الحسين كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، إذ كان في مفرق الطرق. فهو يفسر في القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادئة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم العثماني. وكان قد

(١) لا تدل كلمة « الوهابيين » دلالة سميحة على الحركة الإصلاحية التي نادى إليها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩١) في إقليم نجد بشبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي أولى الحركات الإصلاحية التي ظهرت في الدولة العثمانية، وبعبارة أكثر دقة، بين الشعوب العربية الخاضعة للدولة العثمانية، وقد أطلق خصوم هذه الدعوة الإصلاحية عليها اسم « الوهابية » إضماراً لئلا يظنوا أنها لا تصدق أن تكون مذهباً جديداً من المذاهب النبوية. وقد نسب هؤلاء الخصوم مجموعة الآراء التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده، على غرار التسميات التي لحقت بالطرق الصوفية، فهي تشتمق اسمها من اسماء مؤسسيها. أما أنصار الدعوة فيرفضون تسميتها بالوهابية. ويؤثرون أن يسوا أنفسهم أتباعين أو المسلمين تأسيساً على أن حركتهم الإصلاحية تنطلق في الرجوع إلى القرآن والسنة، إلى الإسلام في حالته الأولى، إلى التوحيد. وتمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التي هي في رأيهم ببادئ الإسلام الأولى والصحيحة. وقد حدثت هذه الجدل في الفترة الأولى من تاريخهم التي تميزت بالشدد. أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين، وقد تأكدت هذه التسمية بصفة رسمية وصريحة في القانون الذي صدر عن محكمة العجاز في ٢١ من أغسطس سنة ١٩٢٦ فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب السلفي.

الفرق كما في :

Documentation Française, Notes et études documentaires, no. 1529, 10 septembre, 1951.

Godohot J. E.; Les Constitutions du Proche et du Moyen-Orient. Paris, 1957, pp. 28-42.

دكتور جمال الدين الشيال: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في العراق الإسلامي الحديث. الجزء الأول: الهند والجزيرة العربية. من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية. القاهرة، ١٩٥٧، ص ٥٥ - ٦٦.

دكتور السيد رجب حراز: الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩ ملحق رقم ١.

تلقى في اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩١٤ عرضاً مؤرخاً في ٣١ من أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩١٤ من لورد كيتشنر Kitchener وزير الحربية البريطانى. وكان هذا العرض يتضمن وعداً قاطعاً للحسين بأنه إذا وقف هو وأبناؤه إلى جانب بريطانيا في الحرب ضد تركيا ، فإن الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه في منصب أمير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته ، وأنها تحميه من كل اعتداء خارجى . واختم لورد كيتشنر هذا العرض بتلميح يشير إلى أن الشريف الحسين في حالة مباحته بالخلافة يستطيع أن يطمئن إلى اعتراف بريطانيا به . وكان تلويح بريطانيا بهذه العروض الثرية أحد الأسباب في امتناع الشريف عن إصدار دعوة إلى الجهاد الدينى ، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن مكفون قلبه ، فرد على الطلبات المكرورة التي يمت بها إليه رجالات الحكومة في إستانبول بأنه يؤيد الدعوة إلى الجهاد ويبازكها في صمت ، أما تأييده لها في العلن فأمر يؤدى إلى عواقب وخيمة ، لأنه يخشى أن يعتمد الأسطول البريطانى الموجود في البحر الأحمر إلى فرض الحصار على ميناء جدة وميناء بلبع وسواحل الحجاز الممتدة ، وينقطع وصول المؤن بجزراً ، فيواجه السكان أزمات خانقة في المواد التموينية ، ولا تلبث أن تنقلب إلى جماعة ، وهو أمر يؤدى إلى اشتعال الثورة بين القبائل^(١) .

الحرب النفسية :

كظم رجال الدولة في إستانبول عيظهم ، فهم يريدون أن يؤكدوا صراخاً وتكراراً أن الحرب التي تخوضها الدولة ضد بريطانيا وحليقاتها هي حرب ديلية ، ويريدون أن يمتد المسلمون في مشارق الأرض ومناربها أن الصانين هم حماة الإسلام وحماة الأماكن المقدسة ، وأن أمير مكة وشريفها يؤيد علناً الدعوة إلى الجهاد . فصدرت التعلبات إلى أئمة المساجد في ولايات الشام بأن تتضمن خطاب أيام الجمعة ما يفيد أن الشريف الحسين قد بارك الدعوة إلى الجهاد الدينى . وصدرت التعلبات أيضاً إلى الصحف العربية بأن تقوم بدورها في المجال الإعلامى ، وتشر أن

(١) جورج الطوليبوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٤ - ٢٢٥

وتضع الحقيقة التاريخية بين هذين الرأيين المتعارضين أشد التعارض، ولكل رأى أسانيد وحججه. ومع ذلك فلنشير إلى حقيقتين تفرضان لتسيهما فرساً في هذا المجال . وتمثل الحقيقة الأولى في أن تعطيل الدستور لم ينجم عنه رد فعل لدى الأتراك العثمانيين . ويقول أحد الباحثين تعليقاً على هذه الدليية « إن عمل السلطان هذا لم يولد أى رد فعل في البلاد ، لأن الحياة الدستورية لم تكن عندئذ مدعومة برأى عام واع » ولا بطبقة قوية من المستعدين . بل كان من عمل مدحت باشا مع جماعة محدودة من المنكرين » .^(١) أما الحقيقة الثانية فإن تعطيل الدستور استمر إحدى وثلاثين سنة لم تفتح خلالها أبواب « ضوله بأعجه » التي كان يجتمع فيها النواب . وكانت المحافظة على سلامة المبنى تتطلب فتح فاعاته وأبوابه ونوافذه على فترات استمر مقاربة أو متباعدة لتركيب أنواع جديدة من زجاج الأبواب والنوافذ بدلا من تلك التي محطمت بفعل الرياح والمواسف . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث قط . ويدل التحليل الموضوعى لهاتين الحقيقتين على تأسل روح الحكم المطلق في السلطان عبد الحميد ، فضى يحكم الدولة في غيبة دستور أوقف تنفيذ أحكامه بمحض رغبته ، وأن الأتراك العثمانيين - كقاعدة جماهيرية مريضة - لم يجدوا غضاضة في الخضوع لما ألهه آباؤهم وأجدادهم من حكم مطلق كان يمارسه سلاطين الدولة طوال قرون وعصور وأدهار^(٢) .

(٢) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ .

(١) لم يتج هذا الصفت الذي وان على قلوب الأتراك العثمانيين بعد تعطيل الدستور سنة ١٨٧٨ من وجود قطاعات من ضباط الجيش وللقنصلين الأتراك كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بضرورة قيام حكم دستوري يحمل محل الحكم المطلق الذي يمارسه السلطان عبد الحميد . وكان لهم نشاط واسع أخذ طابع المنعومة مارسوه في الداخل وفي الخارج مثل جنيل سنة ١٨٩٦ وباريس سنة ١٩٠٧ وتكلفت جميعات سياسية سرية في الداخل وعلنية في الخارج . وكان من بين المناضلين أحد رضا - هو الذي انتخب فيها بعد رئيساً لأول مجلس نيابي اجتمع في المفروطة الثانية بعد كفاح واغتراب استمر نحو عشرين سنة . وقد أصدر من باريس جريدة « مشورت » ومنهاها المشورة .

أما الرأي الموضوعى الذى نطرحه فى هذه الدراسة فيتلخص فى أن تعطيل الدستور بمقولة تفرغ الحكومة لمواجهة المشكلات الخارجية لم يمنع وقوع كوارث أليمه حانت بالدولة وأظهرتها بمظهر الدولة التى لاقدرة لها على إدارة شئونها. فكان من بين هذه الكوارث : احتلال بريطانيا جزيرة قبرص (١٨٧٨) واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨١) واحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢) وضم الروملى الشرق إلى بلناريا (١٨٨٥) وفرض الرقابة المالية الدولية على الدولة (١٨٨١) وفرض المراقبة الإدارية على مقدونيا (١٩٠٣)^(١) ، وعلى ذلك فإن العودة السريعة إلى الحكم المطلق لم تكن إلا انمكاساً لزعمة أصيلة فى السلطان عبد الحميد لهذا النوع من أنواع الحكم .

وعلى هذا النحو بدأت التجربة الدستورية فى حياة الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر بالإخفاق .

وتستكر التجربة الدستورية فى العقد الأول من القرن العشرين حين أشقت نشاط جمعية الاتحاد والترقى ، وكانت تضم خليطاً من أجناس وأديان شتى ، ولكن كانت السكينة الغالبة فيها من الأتراك، ويليهم اليهود . وكان الضباط الأتراك هم أصحاب النفوذ فى مجالس الحزب .

وانتهزت هذه الجمعية فرصة فرض نظام الرقابة الدولية على الشئون المالية وأجهزة الأمن فى ثلاث ولايات هى موناستير Monastir ، وقوسوه ، وسلانيك، وهى الولايات التى يطلق عليها اسم جماعى هو مقدونيا Macedonia . وكان قوام هذه الرقابة خمس دول هى بريطانيا وفرنسا والروسيا وإثنا وإيطاليا . ووجدت الجمعية فى هذه الولايات الثلاث مفاخاً صحياً لمباشرة نشاطها من أجل « إصلاح

(١) انظر عرضاً شاملاً لبعض هذه الكوارث فى الفصلين السابع عشر والثامن عشر فى كتاب :

-- Miller, W.; op. cit., Chapter XVII. pp. 399-426.
and Chapter. XVIII. pp. 427-473.

الأحوال العامة في الدولة النمائية وإنهاء الحكم المطلق وإعادة الدستور. وقد نجحت الجمعية في حمل السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان الدستور. وقد تم إعلان هذا الدستور، ويسمى المشروطة الثانية^(١)، في اليوم العاشر من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٠٨. وعلى غرار ما حدث عند إعلان المشروطة الأولى أطلقت المدافع إنهاباً بصدور المشروطة الثانية. وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجتمع في عهد المشروطة الثانية. وتدخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشحيها^(٢). وكانت الدوائر الانتخابية قد حددت تحديداً يحقق مصلحة العنصر التركي على حساب الأجناس الأخرى. وكان العرب يمثلون أغلبية عديدة على الأتراك بنسبة تقارب ثلاثة إلى اثنين^(٣). وجاء تكوين مجلس المبعوثان متعارضاً مع هذه الأغلبية العديدة للعرب^(٤).

(١) لم تكن المشروطة الثانية سوى المشروع الذي كان لدمه منحت باعاً سنة ١٨٧٦ بكل ما كان يحويه من هيوت أصحت في سنة ١٩٠٨ أهدسوا. وأعيدت إليه الحياة بجره فلم. انظر حرساً لأهم مواد، في:

توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠ - ١٠٤.

(٢) انظر سياسة جمعية الاتحاد والترقي في توجيه الانتخابات وجهة تقدم عنصر، في

توفيق على برو، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٤ - ١١٧.

(٣) كان تعداد رعايا الدولة النمائية في سنة ١٩٠٨ باستثناء مصر قد بلغ اثنين ومئتين

مليوناً، من بينهم سبعة ملايين ونصف مليون من الجلس التركي، وثمان مائة ونصف مليون من العرب، والأرمنية ملايين الباقي من اليونانيين والألبانيين والأرمن والأكراد وعناصر أخرى أقل عدداً وأسفر وزناً.

انظر:

جورج انطونوس، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٩ ساهية رقم ١.

(٤) كان عدد النواب الأتراك في مجلس المبعوثان ١٤٢، وعدد النواب العرب ٦٠،

وعدد الألبانيين ٢٥، واليونانيين ٢٤، والأرمن ١٢، واليهود خمسة، والصرب ٣، والأفلاخ واحداً.

انظر:

ساطع المصري، مرجع سبق ذكره، ص ١١٠.

باشا سوره شريه محريمه

فلتمش الشريعة الحمديه :

ولم تسكد تمر تسعة أشهر على عهد المشروطية الثانية حتى اندلعت ثورة عارمة في عاصمة الدولة في اليوم الأخير من شهر مارس (آذار) سنة ١٩٠٩ تطالب بإلغاء المشروطية وإعلان « الشريعة الحمديه » وإسقاط الحكومة القائمة ونقض المجلس النيابي . وضمت هذه الثورة عنصرين هاميين : عنصر ديبى تمثل في الدراويش وأئمة المساجد ومن إليهم من رجال الدين ، وعنصر عسكري تمثل في جنود الحامية العسكرية المرابطة في إستانبول . وقد وقع هؤلاء الجنود تحت تأثير الدراويش الذين نجحوا في إقناعهم على زعم أن المشروطية تخالف الشريعة الإسلامية ، وأن عبد الحميد خليفة المسلمين لا يوافق على المشروطية في تروارة نفسه ، ولكنه أصدرها تحت الضغط والإكراه . وفي هذه الثورة أريقت دماء غريرة وبريتة عند ما غادر الجنود ثكناتهم وحاصروا ضلوه بإغجه ، وهي مقر مجلس المبعوثان ، كما حاصروا الباب العالي ، وقتل الجنود وزير العدلية وأحد الأعضاء الدرب في مجلس المبعوثان ، وقتلوا طائفة من كبار الضباط وصغارهم في ثكناتهم وفي خارجها ، وأرسلوا وفداً إلى السلطان يطالب بتنفيذ رغباتهم .

وأتراح السلطان عبد الحميد لهذه الحركة أو الثورة المضادة . ولقيت مطالب الثوار استجابة فورية منه ، وتألقت وزارة جديدة لتنفيذ هذه المطالب . وقال الثوار : « عند إعلان المشروطية أطلقت المدافع إحدى وعشرين طلقة ، فيجب أن يتم الاحتمال بإعلان الشريعة الحمديه بإطلاق مائة طلقة » . وأخذ جنود الجيش يطرقون الشوارع في إستانبول ، ويطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، ويصيحون بأعلى أصواتهم « باشا سون شريعة محمدية » أى فلتحصيا الشريعة الحمديه ^(١) .

(١) سامع الحمري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ .

: وكانت مكثاب الجيش تسير على هذا النحو مع دوى طليقات الرصاص
وسبىحات التحية من الجماهير . وفي مقدمة كل مجموعة من الجيش - جماعة من
البدرايش حاملين أعلامهم المخطلة الألوان ، ويشيرون الخناس الداكن في الجلود ،
وبردون الهتاف الذي اتخذوه شعاراً لهم وهو : باشا سون شريعة محمدية .

وفي هذه الثورة أبحه الجنود انجهاً خطيراً : تقهروا في غير هراجة الضباط
« المكتبالية » أى الضباط المتخرجين في الماهد العسكرية الحديثة . وكان الجنود
يبحثون عنهم في كل مكان لقتلهم بحجة تطهير الجيش منهم ، وحتى لا يبق في
الجيش سوى الضباط « الألايلية » ، وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين
صفوف الجنود ، بناء على خدماتهم وخبراتهم العملية دون أن يتلقوا تعليماً في الماهد
أو المدارس العسكرية^(١) .

وقد واجهت جمعية الاتحاد والترقي هذه الحركة بممل عسكري سريع
وحامس . فتررت تحريك الجيش الرابع في الولايات الثلاث التي كانت مهد
المشروطية الثانية إلى الآستانة . واستطاع هذا الجيش الذي عرف باسم جيش الحركة
أن يحتل الآستانة . واجتمع أعضاء مجلس البعثان مع أعضاء مجلس الأعيان في
أيا استدانوس - التي أصبح مقراً لجيش الحركة - وعقدوا جلسة رسمية قرروا
فيها خلع السلطان عبد الحميد وتعيين أخيه الأمير محمد رشاد سلطاناً باسم السلطان
محمد الخامس . وكان رجلاً طاعناً في السن بلغ الرابعة والسنتين من العمر ، ارتضى
لنفسه أن يكون دمية يحررها رجال جمعية الاتحاد والترقي أنى شاؤوا .

وانقرض رجال الاتحاد والترقي بحكم الدولة خلال الفترة من سنة ١٩٠٨ أو
سنة ١٩٠٩ على أحسن تقدير حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ إلا في
فترة زمنية صغيرة . وباشروا حكماً مطلقاً على الرغم من وجود دستور ووجود
سلطان يحمل لقب خليفة ووجود مجلسين نيابيين - البعثان والأعيان -

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ - ١١٢ .

وأصرفوا إسرافاً بعيداً في الأخذ بنظام الحكم الاستبدادي. وكان الأتراك العثمانيون المعاصرون. - الذين عاصروا حكم السلطان عبد الحميد وعاشوا الفترة التي حكم فيها رجال الاتحاد والترقي - يترحمون على حكم السلطان عبد الحميد ويذكرون هذا السلطان بالخير الكثير^(١).

والنتيجة التي ننتهي إليها من هذا العرض السريع هي أن الحكم المطلق كان سمة بارزة في الدولة العثمانية ، وأن هذا النوع من أنواع الحكم قد صاحب الدولة في جميع مراحل حياتها : في نشأتها ، وفي مسيرتها ، وفي اتساعها ، وفي عتوان قوتها ، وفي اضمحلالها وضمئها .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ .

الفصل الخامس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٣)

خامسا - دولة طبقية

والدولة العثمانية دولة طبقية ، بمعنى أنها كانت تضم أفراداً من العبيد أو الأرقاء ، وأفراداً من الأحرار . وكانت الهيئة الحاكمة العثمانية بأركانها من أسنن فرد فيها إلى الصدر الأعظم - أي رئيس الوزراء - ما عدا أفراد الأسرة السلطانية - عبيداً للسلطان ، ويطلق عليها جميعاً للمصطلح التركي قولار Kullar أي العبيد . ويطلق على كل فرد في الهيئة الحاكمة لفظ Kul أو Koul أي العبد ، ويقصد به عبد السلطان . وكان هؤلاء الأفراد بوصفهم في أوراق الدولة الرسمية بصفة العبيد^(١) وكانوا لا يمسرون بنضاضة في إلصاق هذه الصفة بهم ، بل كانوا يجد نفوذهم بها .

وكانت الدولة تحصل على هؤلاء العبيد من أودية منابع : أسرى الحروب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة النمان . أما النبع الأول وهو الأمر فقد حصلت الدولة على عدد كبير من الأسرى في الحروب التي خاضتها في أوروبا بوجه خاص . ويصبح هؤلاء الأسرى عبيداً يحكم وقوعهم في الأمر . وسنعود إلى موضوع أسرى

1) D'Obsson, Ignatius Mouradega; Tableau Général de l'Empire Ottoman, 7 vols., Paris, 1788-1824, t. VII, p. 203.

وقد ولد هذا المؤلف في تركيا ، وأقام فيها ردهماً طويلاً من الزمن ، وعسكف على وضع هذا الكتاب من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٨١٨ . وبعد هذا الكتاب بمثابة موسوعة . ولد طبع مطبوعين : طبعة فخرية ، وطبعة هادبة . ونما يذكر أنه توفي قبل أن يتم طبع جميع أجزاء الكتاب ، فلما ابنه بالإشراف على طبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة التي كانت متبقية .

المرب غير المسلمين في موطن قادم في هذه الدراسة . أما المنبع الثاني ، وهو الشراء ، فكان يتم في سوق الرقيق في عاصمة الدولة وفي غيرها من المدن حيث كانت تعرض تماذج بشرية مختلفة ، كان يجسء بها تجار الرقيق عقب جولاتهم في شتى أنحاء أوروبا . أما الهدايا وتمثل المنبع الثالث من منابع العبيد ، فمن المعروف لدى المعاصرين والمراقبين السياسيين والمسكرين وقتذاك إن أحب الهدايا إلى قلوب سلاطين الدولة كانت تتمثل في الشبان الأصحاء الأقوياء . وأخيراً فإن ضريبة النلمان كانت أخصب منابع الأربعة حصيلة . وكانت إحدى الدعائم الرئيسية التي استندت إليها الدولة ، سواء في القوات المسلحة أو في أجهزة الحكم . وبغضى الزمن انحصرت منابع الأربعة في منبئين هما : الأسر ، وضريبة النلمان .

ضريبة النلمان :

هي ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتقدون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إستانبول . وكانت تجمع أبنادهم ، وهم سن غضة ، ونحوهم إلى الدين الإسلامي ، وتنظم لهم دراسات علمية - مدنية وعسكرية - لتجمل منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خدمة الدولة . ويطلق على هذه الضريبة الأدمية المصطلح التاريخي : ديو شيرمة Deuchurmé أى ضريبة النلمان (١) .

كانت الدولة تبث مندوبين إلى المناطق التي تقطنها المائلات المسيحية . ويجمع المندوب بقسيس القرية ويطلب كشيئاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم . ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الأولاد . وكانت الحكومة تحدد لكل مندوب عدد الأولاد الذين يتعين إحضارهم للسلطان . وبشكل المجموع الكلي للأولاد الرقم النهائي للنلمان الذين تحتاج إليهم الدولة في

(١) يعرفها المؤرخون والباحثون في أوروبا وأمريكا
The Tribute Boys أو The Tribute Children

بقرية معينة لإعدادهم سواء للخدمة في القوات المسلحة أو في فاصب الحكومة
زوما إلى ذلك .

كانت الحكومة تمارس جمع الأولاد من الريف في العادة ، وكانت تأخذ أولاد
تلمزارعين ، وتستجيب لدواعي الرحمة ، فلا تأخذ الطفل وحيد والديه ، وكانت
لأناخذ الأطفال الذين في سن الرضاعة ، لأن أمثال هؤلاء الأطفال يشكلون غبناً
، ثقبلا على الموظفين المختصين بتنشئة النلمان ، وكانت الحكومة لأناخذ الأولاد الذين
بمجاوزوا الحلم ، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم
.وعن بيتهم الأولى . ولذلك كان مندوبو الحكومة يأخذون في معظم الأحوال
بالأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة^(١) .ومند أن يتحرك
مندوب الحكومة بمؤلاء النلمان من القرية إلى عاصمة الدولة لتقطع الصلة نهائياً
بينهم وبين ذويهم . وكان الندوب الحكومى يخرج من القرية بمحصيلة مالية وبشرية .
وتتمثل المحصيلة المالية في الرشا التي يحصل عليها من بعض الآباء اللموسرين في سبيل
التناضى عن جمع أولادهم ، وكانت هذه المحصيلة المالية تختلف فلة وكثرة تبمأ
لدرجة ثراء الآباء من ناحية ، ومدى جشم المذوبين من ناحية أخرى . أما المحصيلة
البشرية فتتمثل في أولاد يحصل عليهم لحسابه بطريقة غير قانونية ، وفي بنات
المغائفات ليعمن لمن يهوى جمال القوام وفتنة الوجه وميعة الصبا . وكان الندوب

(١) يقرر بعض المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت تأخذ الأولاد الذين تتراوح أعمارهم
بين اثنتا عشرة والمعين . انظر Lybyer, op. cit. p. 53 ومن الصعب أن نأخذ
بهذا الرأي ، لأن الأولاد في مثل تلك المرحلة المتأخرة لديها في السن يكون في حكم الاستعانة
. عليهم أن يلبسوا .آ يدهم وأمهاتهم وذوى قرابهم وديانهم والوسط الذي ترعرعوا فيه .
وكانت الدولة تحرس حرصاً بالفا على أن ينسى هؤلاء الأولاد ماضيهم . ولذلك كانت تسرع
للمجرد وصولهم إلى العاصمة ل تحويلهم إلى الإسلام ول تدريبهم تدريباً مديباً وعسكرياً ابتغاء
الهدال سثار كميته وسريع من النيمان لدى الأطفال ، فلا يتذكرون شيئاً عن ماضيهم .
وهو أمر لا يتوفر إلا إذا التزموا من أهلهم في سن مبكرة .
وسينظر موضوع تحديد السن التي كان يؤخذ لها النلمان . وضع خلاف بين المؤرخين .
ولسكل فريق أساسيه .

لا يتورع عن عرض هذه الحصيللة البشرية التي جمعها لنفسه لبيهم في سوق الرقيق بالعاصمة أو يطوف بها على كبار الموظفين أو على من يأنس فيهم شغفاً بالجلس ومقدرة على اقتناء الأنسات اللوات .

وفي عاصمة الدولة كان يتحول الأولاد إلى الإسلام ، وتجري لهم جراحة الشنتان *La circoncision* ، ويتلقون أول الأمر تربية دينية ، فيتعلمون مبادئ الدين الإسلامي ، ويحضرون دراسات في اللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ العثماني ، والآنظم المثمانية وما إلى ذلك وفق مناهج وضعت بمسئولية ، واستهدفت نحو كل أثر من آثار أسلافهم وعواطفهم المسيحية الأولى . فينشأون على التمسك بالدين الإسلامي والتعلق بالدولة العثمانية . وكانوا إلى جانب هذه الدراسات المدنية يتلقون تربية عسكرية صارمة بتزاد علماً كلما اشتد ساعدتهم .

وكان هؤلاء الأولاد يقسمون إلى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية وقدراهم العقلية ، فيوضعون في السكان التي يبدو مناسبا لكل منهم ،

المجموعة الأولى : ويعد أفرادها لشغل وظائف النلمان في القصور السلطانية وكانوا في المادة أجمل الأولاد شكلا . وهؤلاء يتلقون نوعاً من التدريب في القصور السلطانية في بروسة ، أو أدنة ، أو غلطة ، أو غاليبول ، كما كانوا يلتحقون بمدارس سلطانية خاصة في قصور إستانبول . وكان يطلق عليهم إيج أو غلانات أي غلمان البلاط (١) ويمدون للخدمة في القصور السلطانية .

المجموعة الثانية : ويعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة . وهؤلاء أيضاً يتلقون تلميحاً عسكرياً ومدنياً خاصاً . وكان بعضهم يصل إلى منصب الصدارة العظمى أي رئاسة الوزارة . وكان يطلق على أفراد المجموعتين الأولى والثانية المصطلح التاريخي أو التركي « أوج أو غلان » ومؤدى هذا النظام أن الدولة العثمانية سمحت طواعية بجمع أطفال مسيحيين من أبناء رعائها ، ثم حولت

١ (١) مفردا إيج أو غلان .

هؤلاء الأبطال إلى الإسلام ودربتهم تدريباً مدنياً وعسكرياً على أرفع المستويات، ولكن جاشتم عبيداً أرقاء وممحت لهم بالزواج من أميرات ومن في مستواهن، وانخفضت من هؤلاء العبيد المسلمين المدربين - وفي وضعهم الجديد الاجتماعي والديني والزمي - حكاماً يشتركون في حكم دولة إسلامية ويمشون في مستوى رفيع ويمجمون بين التراب والجاه والنفوذ.

المجموعة الثالثة : كان بعد أفرادها ليسكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني ، ويطلق على أفراد هذه المجموعة : الإنكشارية . وكان تعدادهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين . وسنرجى الحديث عن أفراد المجموعة الثالثة ، وهم الإنكشارية ، إلى موطن قادم في هذه الدراسة عند شرح تشكيلات الجيش العثماني

امتيازات القولار :

تمتع القولار - وهم العبيد أفراد الهيئة الحاكمة في الدولة - بامتيازات كان من بينها :

أولاً : كان شغل المناسب في الدولة مقصوراً على طبقة القولار ، وكانوا يتدرجون في هذه المناسب إلى أعلاها ، فتمتعوا بمركز اجتماعي ومادي وأدبي مرموق. ولم يكونوا يشعرون - كما سبق أن ذكرنا - بفضاضة أو امتهان من صفة العبد التي تلحق بكل منهم ، بل إنهم كانوا جميعاً يشعرون بفخر وشرف لأنهم عبيد السلطان ، وطريق العبودية هو الذي سما بهم إلى الدرجات العلى في حياتهم الوظيفية

ثانياً : تمتع القولار بالإعفاء الضريبي . وقد دافع الأستاذ الأمريكي اي.بير

Lybyer عن هذا الإعفاء ، قائلاً إنه من المتناقضات أن يقوم السلطان بالإعفاء على هؤلاء الأفراد العبيد إنفاقاً كبيراً يشمل السكن والمأكل والملبس وغير ذلك من وجوه الإنفاق ، ويفدق عليهم في ذات الوقت المرتبات والامتيازات ، ثم يفرض

عليهم ضرائب ، ثم يقول إن السلطان لم يوفر لهم كل ضرورات الحياة فحسب ، بل هيأ لهم — أو لعدد كبير منهم — حياة مترفة حافلة بالكليات بفضل الدخول الضخمة التي كانت الدولة تقدمها لهم تحت مختلف الأسماء . ويخلص من تمليقه إلى القول بأن السلطان كان يريد من العبيد أفراد الهيئة الحاكمة أن يتفرغوا تفرغاً تاماً لخدمة السلطان والدولة ، كل في الموقع الذي يعمل فيه ، وكان لا يريد أن يشقوا أذهانهم بأى تهكير في مسألة طارئة أو خارجة عن صميم عملهم .

وهذا القول هو دفاع واه ، لا يأخذ به أى باحث محابيه ، فلا يعتبر دفع الضرائب لخزانة الدولة أمراً يدعو الفرد إلى الانصراف عن مهام منصبه أو عائلته يشغله عن التفرغ لعمله . والحكومات لا تفتي أصحاب الدخول الكبيرة أو التوسعة من دفع الضرائب ، بل إنها على العكس تتصاعد بنسب الضرائب كلما ازداد حجم الإيراد العام للممولين . وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول إن الإعفاء الضريبي الذي مرتته الدولة لطائفة القولا هو تمييز للظلم الذي أخذت به الدولة ، وأحدث جذوة متقدة من الحقد في نفوس الجماهير الكادحة ، وبخاصة بعد أن مدت الدولة الإعفاء الضريبي إلى الهيئة الحاكمة الأخرى وهي الهيئة الإسلامية .

ثالثاً : الإعفاء من الخوض للقضاء المادى الذى كان يخضع له رعايا الدولة الذين هم خارج نطاق المبيد أفراد الهيئة الحاكمة . وكان القضاء العادى يتمثل فى المحاكم الإسلامية حيث كان القضاء المسلمون يفتلون فى القضايا التى ترفع إلى هذه المحاكم . وشم المبيد أفراد الهيئة الحاكمة بنضاضة بل وكراهية لخضوعهم قضائياً للمعالم الإسلامية المادية ، لأن قضاء هذه المحاكم كانوا يتبعون الهيئة الإسلامية ، وهم بذلك يتمكنون إلى تشكيل طبقى آخر . وكان المبيد يرون أيضاً أن الدراسة التى تلقاها القضاء كانت مقصورة على القانون ، بينما كان تعليم المبيد يشمل الدراسة المدنية والعسكرية . وخرجوا من هذه المغارة إلى أن تعليمهم كان أرقى وأعمق وأكثر تعدداً من دراسة رجال القضاء .

رأى السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) - وكان يعيل إلى السلم - أن يرضى غرور هؤلاء القولا، فقرر إعفاءهم من الخضوع للقضاء العادي، وإنشاء محاكم خاصة بهم تتكون من ضباط منهم، تنظر في القضايا الخاصة هؤلاء العبيد، سواء كانوا من القوات المسلحة، أو من أعضاء البلاط السلطاني، أو من رجال الإدارة. وكان إعفاء القولا من الخضوع للمحاكم العادية تمييزاً جذرياً في النظام القضائي للدولة وإكثاراً من امتيازات العبيد وتعميقاً للفروق بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية. وسرعان ما ظهرت آثار هذا النظام القضائي، مما أدى إلى فصل القولا عن بقية سكان الإمبراطورية، كما أصبح هؤلاء العبيد يكونون قومية قائمة بذاتها، أو كما يقول المؤرخ الأمريكي ليبير «قومية منفصلة» (1) *a separata nationality*.

وعلى الرغم من هذه الامتيازات فقد كان وضع القولا شامكاً دقيقاً، كانوا محرومين من الحقوق المدنية، إذ كانوا يعتبرون ملكاً للسلطان. وفي استطاعته أن يأمر بإعدام من يشاء منهم دون اللجوء إلى إجراءات قضائية، وفي وسعه أيضاً أن يصادر ما يشاء من ثروتهم عقب وفاتهم، بل قبل أن يحتويهم القبر (2). وقد تداسى نفر من الباحثين هذه الصورة القائمة من حياة القولا، واستقرت في أذهانهم الصورة الأخرى الوضيفة، وهي امتيازاتهم. والدراسة الموضوعية تتطلب أن تذكر كلا الجانبين - النام والوضيء - ونخلص إلى أن هذا النظام، على الرغم من المآخذ التي سجلناها عليه، قد أخرج للدولة رجالاً على جانب كبير من الكفاية، ولكنه أوجد بعضى الزمن حتماً طبقياً، وحمل على تفنيت وحدة الصف بين العاملين في خدمة الدولة.

حذف الرعايا المسلمين الأحرار على العبيد:

ذكرنا أن القولا - وهم طبقة العبيد - قد انفصروا قضائياً ومالياً وضربياً

1) Lybyer A.H., op. cit., p 116

2) D'Obseson; op. cit., t., VII, p 148.

واجتماعياً من رعايا الدولة . وأصبح العبيد يشكلون طبقة قائمة بذاتها تتمتع بحقوق وامتيازات لم يتمتع بها سائر رعايا الدولة. وكان هذا الفصل بين العبيد ورعايا الدولة الأحرار في الحقوق والامتيازات من أهم الأسباب التي أدت إلى تدور الرعايا الأحرار من العبيد وتزايد الحقد الطبعي ، مما أدى إلى فصم ما يمكن أن نسميه الوحدة أو الالتصام بين القاعدة الجماهيرية في الدولة وبين الهيئة الحاكمة فيها . وقد أدى هذا الانفصال من ناحية ، والامتيازات التي أعقدت على القولاار من ناحية أخرى ، إلى انهيار هذا النظام ، فلم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان النظام القائم على وجود هيئة حاكمة من العبيد قد تهاوى . إذ انزع المسلمون الأحرار تقريباً كل الوظائف التي كان يحتكرها أفراد طبقة القولاار^(١) . وكانت هذه النهاية أمراً طبيعياً ومتوقفاً ، لأن احتكار العسكريين العبيد لمناصب الدولة العسكرية والمدنية معاً ، وحجب هذه الوظائف عن رعايا الدولة الأحرار ، والحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الاشتراك في شئون الحكم والإدارة وإيجاد فتنة : فتنة ممتازة ومتميزة هي فئة العسكريين أو أهل الثقة ، وفئة مبهمة هي فئة أصحاب التخصصات العلمية الرفيعة ، أو أهل الخبرة ، كل أولئك أدى إلى عدة نتائج ، كان من بينها دمع الحكم العثماني بالطابع العسكري المتعصب ، والحقد الطبعي ، وحرمان البلاد من كفايات كثيرة ، بحيث لم يعد لدى الدولة رصيد من العناصر غير العسكرية تستطيع أن تدفع بها بحجة الإصلاح إلى الأمام . ولم يدرك المسلمون كل هذه العيوب إلا في وقت متأخر^(٢) .

وكان رعايا الدولة المسلمون الذين ولدوا مسلمين من آباء وأمهات مسلمين Moslem born subjects يشعرون بنداحة الظلم الواقع عليهم ، لأنه كان محرماً عليهم الالتئام إلى الهيئة الحاكمة التي احتكرت مناصب الدولة في البلاط السلطاني والحكومة والجيش . وزاد من مرارة هؤلاء المسلمين أن أجدادهم وآبائهم أراقوا

1) Gibb, Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I. Part I, p 46

(٢) دكتور عبد الكريم فراهيه ، مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .

دعاهم فزيرة على ثرى الأراضى التى فتحوها انتصاراً للعقيدة الدينية ، ثم لى حقدتهم
المنت ، فلا تسمح لهم الدولة بتقلد الوظائف ، بينما تفقد الامتيازات إغداً على
أولئك العبيد الحديى عهد بالإسلام ، لأنهم ولدوا جميعاً مسيحيين من آباء
مسيحيين وأمهات مسيحيات . وانتهى الأمر بأن وضت شؤون الدولة فى أيدي
أناس جاءوا إلى الحياة الدنيا مسيحيين ثم أخذتهم الدولة وحتهم على اعتناق
الإسلام ودربتهم على شؤون الحكم والإدارة والحرب وفتحت لهم أبواب الرزق
الوفير على مصارمها .

The Moslem born population came to feel that somewhere there was a great injustice. They whose ancestors had shed their blood for the faith were, in the lands which their fathers had conquered, denied admittance to the class which not only filled most of the offices of army and state but enjoyed high privileges. Some of the conquered inhabitants, infidel-born, might alone become nobles paid by the state rather than contributing to its expenses, not subject to the judges trained from boyhood in the Sacred Law; which their own Mos'em sons were riding excluded from the honored class, were obliged to bear a part in the burdens of the state with small hope of sharing its glory, and were expected to take their chances before the same courts to which Christians and Jews were brought for civil and criminal cases. The very extent of the Kullar made toward the break-down of the system.⁽³⁾

1) Lyppe, A. H., op. cit., p. 117.

وقد أسفر نظام القولار — المبيد — عن وجود طبقتين مسلمتين كانتاها من المبيد أو الأرقاء : طبقة عسكرية تتمثل في فيالق المشاة ، وهم الإنسكشارية ، وطبقة حاكمة تتولى المناصب القيادية في البلاط السلطاني وفي الإدارة وفي حكم الولايات . وقد دربت كل من هاتين الطبقتين للفرض التي خصصت له. فالجرب والحكم في الدولة العثمانية كلاهما علم يحصل عليه بالدراسة والتدريب الأفراد المبيد وهم الهيئة الحاكمة . وبذلك كانت الكفاية هي الميار الأول في الالتحاق بالجيش أو في تقلد المناصب الإدارية الكبرى . ومن هذه الناحية كانت الدولة العثمانية تختلف عن الدول الأوروبية المعاصرة لها . فتد كُن تقلد المناصب الكبرى لهما موصوراً على عرافة الأصل وكرم المحمد ، فلا تشغل في معظم الأحوال إلا طبقاً لنظام الوراثية يتقلدها النبلاء والبارونات والأدواق ومن إليهم من أصحاب الرتب والألقاب الموروثة .

طبقة الأحرار :

وإلى جانب طبقة القولار — الأرقاء أو المبيد — وكان أفرادها يشغلون مناصب قيادية وغير قيادية في العديد من القطاعات الحكومية العسكرية والمدنية ويتمتعون بإعفاءات وامتيازات شتى ، كانت توجد طبقة أخرى من الأحرار يتولى أفرادها وظائف قيادية وغير قيادية في قطاعات حكومية أخرى معينة ذات طابع ديني إسلامي . وينتمي أفراد هذه الطبقة إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *The Religious Islamic Ruling Institution* وهو مصطلح جرت به أفلام الباحثين الأمريكيين والأوروبيين . وكان أفراد هذه الهيئة أحراراً ، بمعنى أنهم لم يكونوا قط عبيداً ، ولم يسلكوا الطريق الذي سار فيه القولار . وكان آباؤهم مسلمين ، وولدوا مسلمين أحراراً ، ونشأوا وترعرعوا أحراراً ، وقلعوا أحراراً . وكانت هذه الهيئة تضم جميع المسلمين في الدولة العثمانية خارج الهيئة الحاكمة التي

كان أفرادها في مستوى أعلى من مستوى السلم المادى ^(١) . وكانوا يقولون مناصب القضاء والإفتاء وإدارة الأوقاف ، وينظرون في جميع المسائل التي تتعلق بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويباشرون مهنة التعليم ويشرفون على المساجد وسائر المنشآت الدينية والمؤسسات الخيرية ، وكان لهم نظام تعليمي خاص يختلف عن النظام التعليمي الذي خضع له القولا ر .

ولذلك كان أمم اختلاف بين الهيئة الإسلامية والهيئة الحاكمة - القولا ر - أن أعضاء الهيئة الإسلامية جاؤوا إلى الحياة من عائلات مسلمة ، وظلوا على الإسلام في شتى مراحل حياتهم ، بينما جاء أعضاء الهيئة الحاكمة من عائلات مسيحية ، ثم جهتهم الدولة طبقاً لنظام ضريبة العنان ، ثم حولتهم إلى الإسلام ، ودوبتهم تدريجياً خاصاً توطئة لشغل وظائف معينة في البلاط السلطاني أو في مناصب إدارية أو مراكز عسكرية .

وكان السلطان على رأس الهيئة الإسلامية، وهو الذي يبين من أعضائها كبار المسلمين في المناصب العليا في الهيئة الإسلامية ، وله الإشراف على دخلها المالي ، ويعين مشرفين يقولون المراقبة على شئونها المالية . وعلى ذلك فالهيئةان الرئيسيتان في الدولة العثمانية ، وهم القولا ر والهيئة الإسلامية الحاكمة ، كانتا تلتقيان في شخص السلطان ، كما كانتا تلتقيان في المستويات الأقل في العلاقات المالية الحكومية وغيرها . ونظراً لأهمية هذا الموضوع على أساس أن الدولة العثمانية كانت ذات طابع ديني إسلامي عميق ، سنفرد في موطن قادم في هذه الدراسة فصلاً مستقلاً عن الهيئة الإسلامية كهيئة حاكمة .

(١) يحدد الأستاذ الأمريكي ليدر مكوين الهيئة الإسلامية ومحتواها في الدولة العثمانية على النحو التالي :

It (The Religious Islamic Ruling Institution of the Ottoman Empire) included all those Mohammedans in the Ottoman Empire, outside of the Ruling Institution, who were in any way lifted above the level of the ordinary believer .

Lybyer A. H., op. cit., p. 199.

(م ٦ - الدولة العثمانية)

الفضل السادس

الخصائص العامة للدولة العثمانية (٤)

سادسا : دولة إقطاعية . من نوع خاص

والدولة العثمانية دولة إقطاعية من نوع خاص . وتمثل طابعها الإقطاعي في نظامين . نظام الإقطاع الحربي من ناحية ، ونظام الالتزام من ناحية أخرى . وسنعرض أولا عرضاً مريئاً للملامح العامة لنظام الإقطاع الحربي ، ثم نستكمل عرض بعض ملامح أخرى لهذا النظام في موطن قادم في هذه الدراسة عدد تناول تشكيلات الجيش العثماني وتكوينها واختصاصاتها .

نظام الإقطاع الحربي :

طبقاً للنظام الإقطاعي الحربي كان السلطان يملك أرضاً زراعية لأفراد من سلاح الفرسان - أو الخيالة بمصطلح ذلك العصر - ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين . وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعات^(١) ، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الإقطاع الحربي اسم السباعية الإقطاعية^(٢)

(١) كان يطلق على هذه الإقطاعات اسم « ديرليكات » أي رزق . وفردتها « ديرليك » . وقد استخدم هذا المصطلح للدلالة على أي مورد رزقي يقدمه السلطان لمن يخدمونه ، سواء كان هذا المورد في صورة أموال سائلة أو على شكل أرض .
(٢) السباعية كلمة تركية مأخوذة من أصل فارسي ومعناها الفرسان . وتكتب في نسخة الفرد سباعي . وتجمع في اللغة التركية سباعيان . وتظهر في المراجع الفرنسية والإنجليزية في عدة صياغات الخطية مختلفة مثل :

Sipah	—	Sipahi	—	Spahi
Spacoillain	—	Spei	—	Spachi

Feudal Spahis . وكان هذا النوع من الفرسان الإقطاعيين^(١) لا يتناولون مرتبات نقدية من الحكومة ، بل كانوا يعتمدون في معيشتهم على المحاصيل الزراعية التي تنقلها لهم الإقطاعيات المنوحة ، ولذلك كانوا يمدون الفلاحين عادة بالماشية والبذور . وفي هذه الحالة كان السباهية الإقطاعيون يستولون على نصف المحصول^(٢) ، كما كانوا يعتمدون على حميه المشور وغيرها من الضرائب المقررة على الفلاحين - الأرض أو المحاصيل - ويقومون بجبايتها منهم لحسابهم . وكانت الإيرادات التي يستولون عليها يطلق عليها المصطلح التركي « مال مقاتلة » بمعنى مال المقاتلة . وهاتان الكلمتان عربيتا الأصل .

وفي مقابل هذه الامتيازات كان على هؤلاء الفرسان الإقطاعيين أن ينضموا للجيش - حالاً تشبكت الدولة في حرب - ومعهم عدد من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان عدد هؤلاء الفرسان الإقطاعيين يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الإقطاع الحربي ومع الإيراد الذي تنله هذه الأرض الإقطاعية .

أنواع الأراضي الإقطاعية :

وكانت الأراضي الإقطاعية على ثلاثة أنواع رئيسية ، هي :

أولاً : إقطاع مساحته صغيرة نسبياً ، ويسمى « تيمار »^(٣) Timar وكان

(١) تقتضي الفقرة في الصياغة القطعية أن تقرأ كلمة « إقطاعيين » بإنفئة فرسان أو سباهية تميزاً لهم عن سائر فرق من فرق الخيالة في الجيش الثابت Standing Army وكان يطلق على هذه الفرق الست : الخيالة التابعة standing Cavalry كانت من يسميها فرقتان اسميان « علوقه جي » أي الرجال الذين يتناولون مرتبات ، وفرقتان تسميان « غرباء » وفرقتان تسميان السعدارات ، بمعنى حملة السلاح أو السيوف . ويستعرض لهذه الفرق الست بالعرض عند الكلام على الجيش المثالي .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. 1, (٢)
Part 1, p. 247.

(٣) تيمار كلمة فارسية أتت منها اليونانيون من اللغة الفارسية ، وهي ترجمة لكلمة pronomia اليونانية ، وهي تعادل في اللغة اللاتينية أفضلة cura ، واهتمت منها curator الإنجليزية، curateur الفرنسية . ومضامناً . ناظر وقت ، أو وصي ، أو وكيل تركي ، أو ولي ، أو قيم .

يطلق على التابع الإقطاعي « تيارحي »^(١) . وينتج هذا التيار على صاحبه إيرادات يبلغ ثلاثة آلاف آقجة، وهي عملة عثمانية من الفضة^(٢) . وكان على التابع الإقطاعي أن يقدم إلى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة بخيولهم وأسلحتهم^(٣) .

ثانياً : إقطاع أكبر مساحة من الإقطاع السابق ، ويسمى « زعامت »^(٤) يمنحه السلطان للفرسان إذا أظهر كفاية قتالية . وكان يطلق على صاحب « الزعامت » اسماً جديداً هو « زعيم » . ويتل هذا الإقطاع على صاحبه دخلاً يصل إلى مائة ألف آقجة . وفي مقابل هذا الدخل الكبير نسبياً كان على الزعيم أن يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان هذا العدد يتحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف آقجة

وكان هذان النوعان من الإقطاع الحربي - تيار وزعامت - يخصصان لنظام التفتيش يقوم به موظفو الحكومة المختصون ، ويسمون « الدفترديرون »^(٥)

(١) كان يطلق أيضاً على صاحب التيار: تيار صاحب، أو أهل تيار، أو تيار اري .
(٢) الآقجة عملة فضية صغيرة الحجم، واسمها بالكامل آقجة عثمانلي. والمقطع الأول من الكلمة « آق » مأخوذ من اللغة التركية ومعناه أبيض، والمقطع الثاني من الكلمة « ج » مأخوذ من اللغة الفارسية وهو تصغير لكلمة أبيض . وكان يطلق على الكلمة في معظم الأحيان عثمانلي . وقد صرحت هذه الصلة على عهد السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦ - ١٣٦٠) وكانت تستخدم في كافة أنحاء الدولة ككلمة رسمية لم يفتقر وزنها أو طرازها حتى نهاية القرن السابع عشر . وكان المؤرخون الأوروبيون عندما يترجمون للعملة العثمانية يذكرون كلمة أسپر Aspre أو أسبور Aspor وهي كلمة يونانية بمعنى أبيض . ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن كلمة آقجة قد استخدمها الأتراك السلاجقة قبل الأتراك العثمانيين وكان وزنها لا يزيد على ربع مثقال من الفضة الخالصة بنسبة ٩٠ ٪ ولم تسكن قبعتها مستقرة .
انظر :

Gibb Hamilton and Harold Bowen. op. cit., Vol 1, Part II, p. 49, f. n. 2

(٣) كان السلاح أول الأمر القوس والنفاس ، ثم تدرج إلى الرمح الضيف والسيف والتصير ، ثم المنصورة المدببة ، والخن الصغير المستدير ، وأخيراً الدرع والقفوذة الفاتكة .
(٤) زعامت اختلفت من الكلمة العربية « زعامت » .
(٥) الدفترديرون مفردهما الدفتردار . والدفترديرون هم ٢٠٠ من كبار رؤساء الموظفين المتخصصين في الشؤون المالية سواء في الحكومة المركزية أو حكومات الولايات العثمانية .

وكانت تربية الخيول والعناية بها وتدريبها تدريباً متواصلًا أموراً تعد في مقدمة واجبات صاحب الإقطاع الحربي . فإذا استبان لوظفي الحكومة في أثناء دوراتهم التفتيشية على الإقطاعات الحربية إهمال أو تراخ من صاحب الإقطاع في تربية الخيول كان هذا الإهمال أو التراخي سبباً كافياً لانزعاج الإقطاع منه .

وكانت الإقطاعات التي من نوع « تيارات » و « زعامات » توجد في ولايات الدولة المحكومة من إستانبول رأساً سواء في أوروبا أو في آسيا . ومع ذلك فلم تطبق الدولة هذا النظام على جميع تلك الولايات ، وكان هذه الإقطاعات لم تكن تخضع تماماً لنظام واحد في جميع المقاطق . ومن الأقاليم التي طبق فيها نظام الإقطاع الحربي : الروملي - بودا - البوسنة - طمسفار^(١) - Temesvar - ديار بكر - أرضروم - دمشق - حلب - بغداد - شهر زور - إيالات الأناضول - جزر الأرخبيل - قرمان - صرعش - سيواس .

وكان أصغر السباهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون اتباع ، راكبين خيولهم ، ويرتدون صدريات من الزرد ومعهم خيامهم .

التليج والترقي :

وكانت الأرض المنوحة سواء كانت « تيارات » أو « زعامات » تتكون في العادة من جزئين هما . الأرض الأصلية ، وتسمى « تليج »^(٢) ، وإضافات تسمى « ترقى »^(٣) وكانت هذه الإضافات تمنح بقصد توفير عشر الشغول التي يدرها « التليج » . وكانت أجزاء الإقطاع المتكونة من هذه الإضافات تسمى

(١) طمسفار أحد أعاليهم البحر . ولد قسم في سنة ١٩١٩ بين يوفوسلانيا ورومانيا .

(٢) تليج لفظاً تركية بمعنى سيف . وكانت الأرض الأصلية من الإقطاع تسمى بهذا

الاسم ، لأن الإبرادات التي يملكها هذه الأرض الأصلية تعتبر كافية لتغطية نفقات المباحي وإعالتهم .

ومن هنا كانت تمد السلاطين بسيف في أثناء الحرب .

(٣) التلمست هذه اللفظة من الكلمة العربية : ترقى .

أيضاً « حصّة »^(١). وكانت الحكومة تلجأ إلى انتزاع هذه الحصص من حوزة إقطاعي وإضافتها إلى إقطاعي آخر. وقد استغلت الحكومة هذه القاعدة لتشجيع كل سباهي على الوفاء بالتزاماته على أكل وجهه ، لأنه يرى رأى العين أن الإقطاعي الذي يظهر تراخياً في عمه تماقيه الحكومة بتجريدته من الحصص وإضافتها إلى إقطاعي آخر . ويمتد هذا الإجراء بمثابة إنذار للإقطاعي المتراخي في عمله . فإذا استمر متكاسلاً لجأت الحكومة إلى إحراء أكثر حزماً وأشد قسوة ، وهو تجريدته من الأرض الأصلية - فليج - بعضه مؤقتة أو دائمة . ولكن ما حدث كان المسكّن تماماً ، فإن التجارية - وهم أدنى درجات السباهية المعادين من أصحاب التيارات - كانوا يطمحون في فجر تاريخ الدولة السبانية إلى الترقى إلى مرتبة « زعيم » أى صاحب « زعامت »^(٢).

ثالثاً : إقطاع أكبر مساحة من النوعين الأولين ويسمى « خاص » . وفضلاً عن مساحته الكبيرة ، وهذه كانت في حد ذاتها ميزة ، كانت له ميزة أخرى تتمثل في عدم خضوعه لتفتيش الدفتردار أو غيره من موظفي الحكومة . وكان هذا الإقطاع « الخاص » يمنح للولاة الذين في الخدمة الحكومية . فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الوفاة أو العزل أو الترقية إلى منصب آخر ، نزع منهم الإقطاع « الخاص » . وجدير بالذكر أن بعض « التيارات » و « الزعامات » كانت تمنح لبعض شاغلي المناصب الكبرى في الدولة ، فكانت تشبه الإقطاع « الخاص » الذي كان يرتبط بالمناصب .

وقد طبقت الدولة النظام الإقطاعي الحرى منذ وقت مبكر جداً يرجع إلى بداية حكم الأتراك السبانيين حين كانوا يشكلون إمارة صغيرة في العمال التورني

(١) جاءت هذه الكلمة من لغة عربية هي « حصّة » بمعنى نصيب الفرد من تقسيم

لإيراد ممتلكات معارضة مثلاً .

2) Gibb Hamilton and Harold Bowden : op. cit., vol I. Part I, p 49

لأسماء العنبري ، ثم توسعت الدولة في تطويق هذا النظام الإقطاعي العنبري . وكان يشترط في الأتباع الإقطاعيين أن تكون أصولهم عثمانيّة بمئة ، فإذا تطرق الشك إلى أن أصولهم غير عثمانيّة سرحوا فوراً وانتزع منهم الإقطاع العنبري وما يستتبعه من امتيازات .

خواص هايون - يورتلقات :

وبجانب هذه الإقطاعات العنبرية كانت بعض الإقطاعات التي من نوع « الخالص » ملكاً خاصاً للسلطان ويطلق عليها « خواص هايون » (١) وكانت أكبر وأهم الإقطاعات جميعاً من حيث المساحة وجودة الأرض ، وكان السلطان يمنع أجزاء منها لبعض أعضاء الأسرة الحاكمة من أميرات وسيدات من حريمه . كما كانت هناك أراض أخرى لها الطابع الاقتصادي العسكري تأسيساً على أن الإيراد الذي تنله هذه الأراضي يخصص لإتقانه على الأغراض العسكرية مثل أفراد حرس الحصون والحاميات المحلية وعلى السلاح البحري في إستانبول . وكانت هذه الأراضي تعرف باسم اليورتلقات (٢) و « الأوجاقلقات » (٣) .

توزيع الإقطاعات العنبرية :

كان نصف الأراضي الإقطاعية في أيدي السباهية ، وتوزع على شتى نئات

(١) سبق أن شرحنا معنى هذه اللفظة في هذه الدراسة ، ص ٩٧ ، حاشية رقم ٤ .

(٢) يورتلقات ومفردهما يوزتلق ، معناها الخيمة ، أو البيت ، أو مسط الرأس ، أو الوطن . والإصابة في نهاية الكلمة ومعنى « لقي » في صيغة المفرد ، ولغات في صيغة الجمع معناها « ملك له » وبذلك يكون المعنى السكك : ملك لبيت أو الخيمة أو مسط الرأس أو لوطن .

(٣) أوجاقلقات كلمة تركية مشتقة من أوجاق بمعنى ولد ، أو ذرية عسكرية . ويستخدمونها الحرفي على هذا النحو : وجاقل أي رجل منتسب إلى فرقة عسكرية . وكان هذا المؤرخ يسميها وجاقلية .

والإضافة الواردة في نهاية هذه الكلمة : أوجاقلقات ومعنى لبات في صيغة الجمع ، بينما لقي في صيغة المفرد ، ومعناها ملك لـ وبذلك يكون معنى الكلمة المذكورة في المتن هو أرس إقطاعية تميم أوجاق أو أرض ملك لفرقة العسكرية .

السكبريين الإقطاعيين . فسكانت الأرض الإقطاعية ذات الدخل في صندق^(١)
عادي توزع على النحو الآتي :

(١) صندق لفظه تركية لها عدة معان : (١) علم أو بندق *une bannière*
(٢) لواء أو فرقة ، أي تشكيل من تشكيلات الجيش *une brigade* قسم إداري كبير
في ولاية يحكمه أحد البسكات *une circonscription territoriale administré*
(٣) *par un bey* الحاكم على هذا القسم الإداري الكبير ، كما كان يطلق على الإقليم الذي
يحكمه صندقية .

وفي تاريخ مصر لبان الحكم العثماني كانت ترد كلمة صندق في أحد معنيين : أولهما مجرد
رتبة أو وظيفة *titre ou fonction* فإذا كان يحمل الرتبة ولا يشغل منصباً ، أطلق عليه
« صندق بطال » وهذا اللفظ مأخوذ من كلمة بطالة أي عدم وجود عمل . وكان الباشا
العثماني في القاهرة يمنح رتبة الصندقية . وكان يصحب منح هذه الرتبة ترقية صاحبها إلى رتبة
بلك . وكان يتم حفل كبير في القلعة يطلق عليه المصطبة واللقطان . أما المعنى الثاني لاستخدام
كلمة صندق فهو أحد أعضاء « هيئة سناجق مصر » أو « جماعت أمراء محافظين
مصر المحروسة » وكان عددهم في معظم الأحيان أربعة وعشرين صديقاً . ويسمى كل منهم
« صديق طيلخانة » وتكتب أحياناً « صديق طيل خانة » أي تدق له الطبول عند مطلع
الشمس وفي فروعها ، وعند مخرجها وذلك تقديراً لملو مركزه وسمو مقامه . وقد احتفظت
حكومة إستانبول لنفسها بحق تعيين أربعة منهم هم سناجق الثنور المهمة الثلاثة وهي
الاسكندرية ، ودمياط والسويس ، وكذلك وكيل الباشا العثماني في القاهرة ويسمى الكتفان .
ويلاحظ أن عدد البسكات الصناجقة في مصر لم يكن دائماً أربعة وعشرين ، فثارة كان يقل
عن هذا الرقم ، وثارة أخرى يجاوزه . وعلى العموم كان البسكات الصناجقة المالكين
يحكمون الأقاليم الإدارية الكبرى الخمسة وهي الغربية ، الوسطية ، الشرقية ، البحرية ،
جرجا ، كما كانوا يعطون مناصب كبرى مثل الدهرادر ، أمير الحج ، أمير الجزيرة الإدارية
أي قائد القوة العسكرية المرافقة لخزينة مصر المرسلة إلى إستانبول ، قيادة الحملات العسكرية
التي ترسل من مصر للانضمام إلى الجيش العثماني في وقت الحرب . ويلاحظ أيضاً أن مصطلح
« صديق طيلخانة » كان متداولاً في مصر في العصر المملوكي قبل العثماني ، إذ أن بعض
الأمراء في دولة المماليك كانوا أمراء طبل خانة أي يتكسبهم مركزهم أن تدق لهم الطبول وغيرها
من الآلات الموسيقية التي تتكون منها طيلخانة السلطان المملوكي .

انظر .

Gaudefroy—Demombynes:

La Syrie à l'Epoque des Momelonkes d'après les Auteurs
Arabes, Paris, 1923, p 38

وتكتب كلمة صندق بحرف الصاد ثارة ، وبحرف السين ثارة أنزى ، كما تكتب
في صيغ مختلفة ، منها :

- ١/٥ مساحة الإقطاع من نوع التيارات
- ١/٦ مساحة الإقطاع من نوع الزمامات .
- ١/٧ مساحة الإقطاع من نوع الخواص .
- ١/٨ مساحة الإقطاع من نوع أوجانقات
- ١/٩ أوقف .

وكان المسكرون الإقطاعيون يتمتعون بحقوق وراثية ، ولذلك ارتبطت مصالحهم ومصالح عائلاتهم بهذا النظام ، ونجم عن تقرير حق الوراثة في الإقطاعات

== سنجق — سنجان — ساجاق
سنجق — سنجانق — ساجاق
ومجموع على النحو التالي .
ساجق — سناجق
سنجق — سناجق

أ انظر

Barbier de Meynard; Dictionnaire turco-français, 2 vols., Paris, 1881-1886, vol. II, p. 63, 100, et 218.

Bocstor; Dictionnaire français-arabe, revu et augmenté par A. Caussein de Perceval. 2 vols., Paris, 1829, vol. I, p. 94.

Bozy; Supplément aux dictionnaires arabes, 2 ème édition : cyde-Paris, 1927, t. I, p. 691, 846.

الجزيري ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦٨ .

حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ ، ص ١٤ ، ص ١٦ ، ص ١٧

أن انتفى احتمال قيام حركات تمرد أو منافسة من جانب أفراد هذه الطبقة للسلطين^(١). وستتناول نظام الوراثة في الإقطاعيات الحربية بشيء من التفصيل في موطن قادم في هذه الدراسة عند الكلام على القوات المسلحة المنيانية .

مزايا الإقطاع الحربي :

من مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقي والرأسي في زراعة مساحات شاسعة من الأراضي داخل الأقاليم المنيانية في أوروبا وفي آسيا . واطمأنت الدولة إلى أن جهوداً صادقة تهذب للهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الأقطاعيين وبين الفلاحين . كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت قبله في بعض الأوقات مائت ألف رجل^(٢) دون تكاليف تذكر ، لأن التابع كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه . وفضلا عن ذلك فقد وفر هذا النظام على الدولة مصرتبات المسكرين سواء في زمن الحرب أو في أوقات السلم . وقد طبق هذا النظام على سلاح الخيالة - سلاح الفرسان - ولم يطبق على سلاح البيادة - سلاح المشاة . وفوق كل هذه المزايا وأهمها نذكر المستوى الحربي السالي الذي كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون . وقد قرر أحد كبار المؤرخين الأتراك وهو أحمد جودت « أن أقوى قوات قتالية في الدولة العلية كانت تتسكون من أصحاب الثيارات والزعامات »^(٣) وتضاف إلى مزايا الإقطاع الحربي مزايا أخرى . فقد ربط المسكرين بالأرض ، وحال دون اعتماد الفتح المنيانية طابع الاحتلال المسكري .

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op. cit., vol. I, Part 1, p 52

2) Loc. cit.

3) op. cit, p. 53, f.n. 1

تلا من أحمد جودت : تاريخي جودت ، ١٢ جزءاً ، إستانبول ، ١٣٠٩ م ، ٥ دوات عليه ان أن جميع قوت مسكريا أرباب تيار وزعامت أبيدي . ج ١ ، ص ٩٠ .

وأخيراً فقد خفف نظام الإقطاع العربي عن الإدارة المالية في الدولة عبء جمع الضرائب من الفلاحين في الأراضي التي طوق عليها هذا النظام .

عيوب الإقطاع العربي :

لم يدخل نظام الإقطاع العربي من عيوب . فإن ارتباط أصحاب التيارات والعامات بالأرض قد جعل بعضهم يتعاس عن مبارحة أراضيهم عند دعوة الحكومة لهم بالالتحاق بالجيش عند نشوب الحرب . فإذا استجابوا للتغير العام وأخذوا أما كتبهم و ساحة القتال ، تحرقوا شوقاً إلى العودة إلى أراضيهم . ولذلك كانت تحرص الحكومة على أن يكون نفوذها عليهم قوياً خشية أن تصبح هذه القوة عديمة الفائدة إذا تراخت قبضة الحكومة عليهم .

كما كان بعض أصحاب الإقطاع العربي يهتمون الران الشاق الطويل سواء لهم شخصياً أو لأتباعهم الأمر الذي كان يؤثر على كفاءتهم القتالية . كما كان البعض الآخر لا يمتنى العناية التامة بتربية الطيور وهي عماد سلاح الخيالة . وى أمثال هذه الحالات كانت الحكومة تتدخل وتترع منهم أراضي الإقطاع وتجروم من امتيازاتهم .

ويؤخذ على نظام الإقطاع العربي أيضاً أنه جعل الفلاحين أداة مسخرة و يد المسكرين في أوقات السلم . كان الأولون ينصرفون إلى فلاحية الأرض واستثمارها تحت إشراف المسكرين الذين كانوا يفوزون بالنظم الأكبر مادياً وأدبياً ، وأصبحوا في وضع يشبه وضع السادة . وبقي الفلاحون في وضع أقل بكثير من وضع المسكرين ، بل إنهم كانوا في حكم الأرقاء . ووه سوء هذه المقارنة بين الإقطاعيين المسكرين والفلاحين يشاوى الرأي الذي يقرره بعض الباحثين بأن الفلاحين والفرسان الإقطاعيين اعتبروا أنفسهم بمعنى الزمن شعباً واحداً مهما

كانت أصولهم الجنسية ، وذلك باستثناء الحالات التي كانت الاختلافات الدبلية
تحويل دون ذلك^(١) .

لم يتسخر العثمانيون الإقطاع الحربي :

وكان أخذ الدولة العثمانية بالنظام الإقطاعي الحربي أمراً طبيعياً ، لأنها
كانت دولة عسكرية بكل ما تحمله هذه العبارة من ممان . وكان الجيش يظفر -
كما سبق أن ذكرنا - بأعظم قسط من اهتمام الدولة وعنايتها ، وفرت له جميع
الإمكانات البشرية والمادية ليفرد أكبر قوة عسكرية ضاربة .

ولم يتسخر الدولة العثمانية نظام الإقطاع الحربي ، فقد كان هذا النظام صفة
بارزة في الدولة السلجوقية التي كانت ذات صبغة حربية ، كما أن مصر قد عرفت
نظام الإقطاع الحربي وبخاصة عندما أدخله السلطان صلاح الدين الأيوبي فيها أيام
الدولة الأيوبية . وكان صلاح الدين قد شاهد ومارس الإقطاع الحربي في الدولة
الزنكية على عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زكي الذي أسس دولته ذات
العاصمتين : حلب والموصل ، وأوغل في حروبه وبلغاً إلى تصميم نظام الإقطاع ،
ودرج على ذلك ابنه نور الدين . وتوطد نظام الإقطاع الحربي في مصر والشام
زمن السلاطين الأيوبيين الذين أودعوا هذا النظام لدولتي المماليك البحرية
والشراكسة . وهكذا نجد أن النظام الاقتصادي العسكري ساد مصر إبان حكم
الدول ذات الطابع الحربي والتي قامت فيها .

كان في مصر زمن صلاح الدين وخلفائه سلاطين الدولة الأيوبية نومان من
الإقطاع : الإقطاع الحربي ، ولم يكن يختلف في أصوله وقواعده ومظاهره عن
الإقطاع السلجوقي ، إذ افترن بما يؤديه صاحب الإقطاع من خدمات حربية و
خضوعه لسيطرة الحكومة المركزية .

^(١) Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., vol 1, Part I
pp. 46-47.

ومن أم هذه الخدمات تقديم عدد معين من الفرسان بخيولهم وسلاحهم إلى الجيش عندما تشتبك الدولة في حرب ما . وأصبحت مصر مقسمة إلى إقطاعات لأبناء البيت السلطاني الأيوبي وإقطاعات لأمرء الأجناد وإقطاعات للعربان . أما النوع الثاني فهو الإقطاع الإداري واختص به الأمرء من الأسرة الأيوبية الحاكمة وكبار الموظفين . وكان السلطان يوصى أرباب الإقطاع الحربي بأن يكونوا دائماً « في التأهب للخدمة كالسهم الموضوع في وتره » وأن يكثروا من الفرسان بزيادة المطاء لهم^(١) . وكان من وجوه النقص الإقطاعي في التنظيم الأيوبي أن اللتطمين كانوا يذهبون إلى إقطاعاتهم للإشراف على جمع المحصول وتخزينه . والتزم السلاطين الأيوبيون بذلك ، فكان إذا خرج أرباب الإقطاع إلى ساحات القتال ثم حلت مواعيد الحصاد ، فإنهم يهودون سراعاً إلى إقطاعاتهم ، بينما تكون العمليات الحربية دائرة في منتهى الفراوة .

ومع ذلك فإن الدولة الأيوبية قد نجحت إلى حد بعيد في حماية الفلاحين الخاضعين للإقطاع الحربي من سادتهم الإقطاعيين المسكرين ، فكانت تحدد الإيجارات والحبوبات التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي ، وتراقب تنفيذ هذه الالتزامات مراقبة دقيقة منعاً لاستغلال المسكرين للفلاحين . ومن هنا انطلقت العبارة المشهورة وهي أن السادة الإقطاعيين المسكرين في العصر الأيوبي كانوا في نعمة محدودة^(٢) .

(١) انظر :

دكتور السيد الباز العريبي : الإقطاع والفرق الأوسط من القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي . حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد الرابع ، يناير ١٩٥٧ .

دكتور حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين . مطبوعات كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

وجرت دولة المماليك الشراكسة^(١) على توزيع الأراضي - وموارد أخرى في بعض فترات الحكم - إقطاعات بين الساطان والأمراء والأجناد . وكانت الأراضي للقطعة ثلاث درجات من حيث الرى والحصوية ووفرة الإنتاج . وأطلق على ديوان الجيش ديوان الإقطاع دلالة على إيصال الدولة في تطبيق نظام الإقطاع الحربى . وكان هذا الديوان يتولى إصدار الوثائق الإقطاعية الأولى ، ثم يقوم ديوان الإنشاء بإعداد الصياغة النهائية للمقطع، ويعرف هذا المستند باسم المنشور، ويسلمه للمقطع، وبذلك يأخذ الإقطاع الصبغة القانونية . وكان يعرف إقطاع السلطان باسم « الخاص السلطانى » أو « بلاد الخاص » أو « الخاص الشريف » تمييزاً له عن « الأملاك السلطانية » للمعمونة بالشريفة ، فالخاص هو الإقطاع الذى يحوزه السلطان بوصفه سلطاناً ، وهو إقطاع استغلال كثيره من الإقطاعات ، فهو يحوزه لكنه لا يملك رقبته ، ولذلك ينقل إلى غيره بزوال السلطنة عنه ، أما الأملاك الشريفة السلطانية فهى التى يشترها السلطان بماله من إيراداته المتنوعة . وكان أولاد السلاطين يحوزون إقطاعات حربية كبيرة وهم لا يزالون صغار السن في بعض الأحيان ، ويحوزون أيضاً الرتب العالية في الجيش المملوكى وكانت أهم فرقة في هذا الجيش من حيث حيازة الإقطاع الحربى هى فرقة أجناد الحلقة . وكانت هذه الفرقة هى الأصل في حيازة الإقطاع الحربى ، وكانت تليها فرقة المماليك السلطانية ثم فرقة أجناد الأمراء^(٢) . وكانت الدولة تمنح إقطاعات للمريان والتركان والأكراد . وكانت

(١) أكثرنا أن تتكلم عن إحدى وثائق المماليك كذالك للإقطاع الحربى المذكور من قبل الاختصار ، وبذلك نكون قد تكلمنا عن الدولة الأيوبية ودولة المماليك الممراكية من ناحية التامع العامة للإقطاع الحربى مما وما وتولى من يد الأصلاح على هذا النظام . ودولة المماليك المصرية إلى دكتور سعيد عبد الواحد عاشور : العصر المماليكى الخ . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٨ - ٣٥٣ ، كتابه الآخر : مصر في عصر دولة المماليك البحرية الناصرة ، ١٩٥٩ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٧ .

(٢) دكتور إبراهيم على طرخان : الإقطاع الإسلامى (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد السادس ، سنة ١٩٥٧) .

والنظر أيضاً لثمن المؤلف : مصر في عصر دولة المماليك الممراكية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢١٥ - ٢٣٩ .

هذه العناصر الثلاثة الأخيرة تُخدم الدولة عن طريق حماية الحدود ورد غارات القبائل التركانية الأخرى المعادية . وكان هؤلاء العربان والتركمان والأكراد سجل خاص في ديوان الجيش تدون فيه جميع البيانات عن إقطاعاتهم الحربية . على هذا النحو كان سلاطين الدولة الأيوبية ودولتي المماليك يقطعون الأمراء أراض زراعية وغيرها لاستغلالها تسمى إقطاعات . وكان كل إقطاع يختلف عن الآخر من حيث حجمه ، أى مساحته ، وموقعه ، وخصوبة تربته مما يؤثر في النهاية على مايلذه من إيراد . وكان صاحب الإقطاع لا يتقاضى عن خدماته في الجيش مرتبات نقدية أو عينية من الدولة ، بل كان يؤدي للدولة ، نظير الإقطاع للمنتوح له ، خدمات حربية ومالية ومدنية . وكان أهمها الخدمات الحربية . فعند ما نشب الحرب كان يتعين على كل مقطاع - أى صاحب إقطاع - أن يقدم إلى الجيش عدداً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم وملازمهم وذخيرتهم . وكان هذا العدد يتناسب مع مساحة الإقطاع ومميزاته^(١) .

وكان السلاطين يمدون إلى حرمان المقطاع من إقطاعه إذا بدا منه تقصير في تربية الخيول أو إعداد الفرسان . وكانت الدولة تلجأ - كإجراء وقائي - إلى تفتيت الإقطاع بحيث لا يكون كتلة إقليمية واحدة خشية أن يستغل بها صاحب الإقطاع أو يزداد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وكان يجوز نقل الإقطاع من شخص إلى آخر .

(١) تمثلت الخدمات لثالية التي كان يؤديها صاحب الإقطاع و أن يؤدي من حصيلة الأموال التي قام بمصابتها لثرامات الدولة ، مثل أداء حزية الجوالي - وهي حزية الرأس المقررة على أهل التمة من اليهود والنصارى الباليين دون النساء والصبية والرحبان والأرقاء والمجانس فضلا عن العبوح والفقراء - وكذلك نصيب الدولة في الأرباح - أي الربح - والفرايج - أي الدجاج . وكان رسم الأرباح يقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم لـديوان الجيش وتسم للمقطع ، وقسم للفزارع وكان رسم الفروج أو الفراريج يقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام : دجاج لدولة ، ودجاج للمعام ، وفلائس بمدار الثلث يسمى أمام التربية أي أجره الربوية ويخص بالفلاح أما الخدمات المدنية التي كانت مفروضة على صاحب الإقطاع فتتجه إلى صيانة المسور ولإمداد الفلاحين بالتقوى والاهتمام بالزراعة بوجه عام .

نظر .

دكتور حسين محمد ربيع النشمي لثالية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ - ٣٩

تلك ملامح سريعة جسداً للنظام الحربى الذى طبقته الدول ذات الطابع الحربى والتي تأسست فى مصر قبل الفتح العثمانى لها ، وهى الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ودولة المماليك الشراكسة . ومن هذه الملامح يتضح أن كلا النظامين الإقطاعيين : العثمانى من ناحية ، والأيوبى والمملوكى من ناحية أخرى يتشابهان فى بعض الجوانب ويختلفان فى جوانب أخرى . ولكن الفكرة الأساسية وراء منح الإقطاع الحربية كانت واحدة فى ذهن ولى الأمر ، وهو السلطان فى هذه الدول الأربع ، وهذه الفكرة هى ضمان حصول الدولة على قوات قتالية بمجرد إعلان التعبئة العامة . أما وجوه الاختلاف فسكانت تنصب على مسائل شكلية فى أثناء التطبيق العملى لهذا النظام فى كل دولة من هذه الدول الأربع .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى أول ما طبقته فى الولاياتين الأصليتين اللتين تعرفان باسم الأناضول^(١) والروملى^(٢) . وتضلى الولاية الأولى الأناضول أو شبه جزيرة الأناضول أو آسيا الصغرى ، وتشمل الثانية بلاد البلقان فى أوروبا . ولما فتحت الدولة معظم الأقاليم العربية فى آسيا وإفريقية فى القرن السادس عشر شرعت فى تطبيق الإقطاع الحربى أو نظام الالتزام أو كليهما مما فى الولايات العربية . ولم يكن هذا التطبيق تطبيقاً حرفياً لما كان عليه العمل فى تسلكها الولاياتين ، لأن القوانين والإجراءات التى صدرت لهما فى القرن الخامس عشر كانت تمكس الأحوال السائدة فى الأناضول وبلاد البلقان وقتذاك . ولذلك يمكن القول إن الدولة العثمانية طبقت النظام الإقطاعى على نحو من الأنحاء فى الولايات العربية .

وستتكم هنا - كثال - عن ثلاثة من الأقاليم العربية التى وقعت تحت السيادة العثمانية وهى مصر وبلاد الشام والعراق

(١) يطلق عليها ن بعض المراجع ليل الأناضول

(٢) يطلق عليها ن بعض المراجع ليل روملى .

نظام الإلتزام :

أما النظام الآخر الذى كان يحمل الكثير من سمات النظام الإقطاعى فهو نظام الإلتزام . وقد طبقته الدولة العثمانية فى الأقاليم أو المناطق التى لم تخضع لنظام الإقطاع العسكرى . وجدير بالذكر أولاً أن الدولة العثمانية لم تبسكو نظام الإلتزام . فقد وجدته معمولاً به فى بعض الأقاليم التى خضعت لها سواء فى الأناضول أو البلقان أو فى شمال العراق . ولما فشل نظام المقاطعات أو الأمانات فى مصر وأسلف تطبيقه عن عيوب كثيرة^(١) ، وأت الدولة أن تستبدل به—هذا

(١) من نظام المقاطعات أو الأمانات انظر كلام من :

Shaw Stanford J., *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt*. (1517-1798) Princeton University Press, Princeton. N J., 1962. p. 27 & pp. 352—362.

Shaw Stanford J.; *The Ottoman Archives as a source for Egyptian History*.

in

Journal of the American Oriental Society vol. 83. (1963), p. 448.

Shaw Stanford J., *Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt* pp. 94—95, 99.

وهو أحد بحثين تقدم بهما ستانفورد شو الأستاذ بجامعة برنستون بالولايات المتحدة إلى مؤتمر دولى عقد فى شهر إبريل ١٩٦٦ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن عن تاريخ مصر الحديثة من الفتح العربى لمصر سنة ١٥١٧ إلى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بل إن بعض البحوث قد امتدت الحقة التاريخية التى تناولتها إلى سنة ١٩٦٢ وشملت نمو الإنتاج الزراعى فى مصر من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٩٦٢ . وكان موضوع البحث الآخر الذى قدمه ستانفورد شو : المصادر التركية عن التاريخ العصرى . وقد حمت البحوث التى ألقيت فى المؤتمر ، وتولى الأستاذ هولت ب . م أستاذ تاريخ العالم العربى فى جامعة لندن لشرح هذه البحوث فى كتاب جعل عنوانه :

Political and Social Changes in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic; edited by P.M. Holt. London, 1968.

Holt P.M.

(م ١٠ — الدولة العثمانية)

النظام نظاماً آخر هو نظام الإلتزام . وسنلم إليماً سريعاً بالملاحح العامة لهذا النظام .

ويعتقضى نظام الإلتزام كات الدولة تعهد - بعد إجراءات معينة - إلى شخص من دوى النفوذ والثراء وى العادة ببجباية الضرائب الربوطة على الأراضى الزراعية والمقررة على الفلاحين فى قرية أو أكثر من قرية لمدة زمنية محددة أول الأمر . وكان يطلق على هذا الشخص المصطلح التاريخى « الملتزم » . وكان عليه ، قبل أن يباشر عمله كملتزم ، أن يدفع ميالاً من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التى يمارس فيها اختصاصاته ، وكانت هذه المنطقة تسمى « دائرة الإلتزام » .

إجراءات الحصول على حق الإلتزام

كانت الحكومة تعطى هذا الحق بطريقة الزاد بين راغى الحصول على حق الإلتزام أو بطريقة الاتفاق . وكان إجراء الزاد هو أكثر الطريقتين تطبيقاً^(١) . وكان تطلق على الزاد لفظة « مزايده »^(٢) .

وكانت جلسات الزاد تعقد فى أوائل شهر نوت من كل سنة ، أى أوائل شهر سبتمبر ، لأن المصريين اعتادوا أن يربطوا كأسلافهم مواسم الزراعة ومواعيد الفيضان ووقت الوفاء بشهور التقويم القبطى لانساق مواعيده ، ولكن

== in

Bulletin of the School of Oriental and African Studies.
University of London. vol. 26, 1, 1963, pp. 185 - 186

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1, Part 2,
p. 21 n.

1) Arminjon Pierre; La Situation Economique et Financière
de L'Egypte Le Soudan Egyptien. Paris, 1911; p. 678

2) Shaw Stanford J ; Landholding etc, op. cit., p. 95.

كانت الحكومة تدعى في وثائق الإلتزام على التاريخ المعجى الموافق للتاريخ القبطى ، لأن سداد المال الميرى كان يتم حسب أشهر التقويم الهجرى^(١) .

وطبقاً لنظام الإلتزام كانت الأرض الزراعية فى القرية تقسم إلى أربعة وعشرين فیراطاً . وهذا التقسيم لاعلاقة له بقراريط الفدان المعروفة . فقد يصل القيراط فى نظام الإلتزام إلى عشرات الأقدنة^(٢) . ومن المعروف أن المزداد يرسو على من يعرض أكبر مبلغ بين المتزايدىن . وعقب سداد المبلغ فى ديوان الروزنامة^(٣) ، يحمل هذا الشخص بصفة رسمية لقب ملتزم ، ويتلقى ثلاثة مستندات رسمية ، أولها « تسميط الإلتزام » ويحدد فيه تحديداً دقيقاً المال الميرى الواجب سداده ، وأمم القرية أو القرى الملتزمة ، وعدد قرايرطها ، ومساحة هذه القرايرط .

(١) إبراهيم الموباسى : الأرس والفلاح فى العصر المئامى . بحث منشور فى « الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور » الناشر : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ ، الفصل السابع ، ص ٢٢٥ — ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) تتكون كلمة روزنامه من جزئين : روز ، وهى كلمة فارسية معناها النهار ونامة بمعنى دفتر الحوادث أى دفتر الحوادث اليومية أو الحساب اليومى ، ثم أصبح معناها الديوان الذى يقوم بتحرير وضبط الحسابات والدفاتر الرسمية . وكان رئيس هذا الديوان يسمى روزنامجى ، وكان فى أول الأمر غنياً يحضر من استانبول لشغل منصبه . وظل منصب الروزنامجى على هذا الوسم إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر حين شمله الأمراء المالبك ذوو الدروز .

عن القسم الأول الخامس بمرح مصطلح الروزنامة ، انظر :

دكتور حسن مئان : تاريخ مصر فى العهد المئامى (١٥١٧ — ١٧٩٨) فى كتاب : المحرر فى التاريخ المصرى تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول سابقاً (جامعة القاهرة) . القاهرة ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م ، ص ٢٣١ — ٢٨٤ انظر ص ٢٦١ ، حاشية رقم ١

وعن القسم الثانى الخامس شخصية الروزنامجى ، انظر : يوسف اللوانى (ابن الوكيل) تحفة الأحياب بمن ملك مصر من الملوك والتواب . مطبوعة مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٣٨ تاريخ ، ص ١٠٣ .

أما المستند الثاني الذى يصدر إلى الملتزم فكان يسمى « التمكن »^(١) وكان بمثابة عقد . ولهذا يطلق عليه بعض الباحثين « عقد الإنزلم » وكان يحمل ختم باشا العثماني والدقردار^(٢) . وتوضح فيه منطقة إلتزامه ومقدار الأموال الأميرية المقررة عليها ، كما يرد في هذا المستند نص صريح موجه إلى الملتزم بضرورة معاملة الفلاحين وسائر الأهالي بالرحمة والعدل^(٣) ، « وأن يكون متساعماً مع الفلاحين ، وألا

(١) التمكن ومعها التمكنات يقول عنها الاسعاذ محمد شفيق فربال إنها من أم مصطلحات العصر العثماني في مصر ، فلا بد من تمكن لديم أو جديد ، والمعنى أو وهمى ، لا كسباب حق أو الانتفاع بحق . ومن أم التمكنات إذ ذاك التناحيط التي يصدرها الباشا للملتزمين ويمكن بواسطتها من حصص التزامهم » .
انظر :

حسين أئدى : ترميم الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أئدى أحد أندية الروزنامة في عهد الحملة الفرنسية . مصر وتعليق الأستاذ محمد شفيق فربال تحت عنوان « مصر عند مفرق الطرق » (١٧٩٨ - ١٨٠٦) للقاله الأولى . مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، ص ١٠٧ - ٧٠ ، حاشية رقم ١

واستخدم في مصر في أثناء الحكم العثماني مصطلح آخر يسمى كذلك بفتح الكاف الأولى وهي كلمة تركية وتجم كدكات ، ومعناها التمكن من مزاوله صناعة ما
انظر المرجع السابق ، ص ٣٦ حاشية رقم (١)

(٢) الدقردار هو رئيس الديوان الدقري . وكان هذا الديوان بمثابة وزارة المالية بالمصطلح الحديث ، كما كان عصب النظام المالى القائم على نظام الإنزلم ، كان يده ديوان الروزنامة . وكان الدقردار عالياً في أوائل العصر العثماني في مصر ، ويختار من بين كبار رجال الخزانة السلطانية المركزية في إستناول ، ويرد ذكره في الأوراق الرسمية بألقب « دقردار أئدى » أو « دقردار خزينة عامرة » . ولما تركت السلطة في يد الأمراء المماليك احتكروا هذا المنصب لأقسام منذ أواخر القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر .

انظر :
دكتورة ليلى عبد العظيم أحمد : الإدارة في مصر في العصر العثماني . رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث من كلية الآداب ، حاسة هي خمس ، سنة ١٩٧٥ - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - ص ٢٨٤ .

(٣) انظر كلا من :
يعقوب أرئين : الأحكام المرعية في شأن الأراضى المصرية . لمرب سميح عمون ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، ص ٤٥ .
محمد الجعبرى وعبد الله خنام : شرح النوائب واللوائح الزراعية . القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٢٨٥ .

يظلم أحداً منهم»^(١). وكان الملتزم يتسلم في ذات الوقت مستنداً يطلق عليه تسمية أو فاميك . ويرد هذا المصطلح في المراجع الفرنسية Vabmik^(٢) . ويكتب هذا المستند على ورقة لا يبدو حجمها راحة اليد . وهذا المستند بمثابة أمر موجه من الحكومة إلى فلاحى منطقة الإلزام تبلغهم بأنهم أصبحوا منذ ذلك الوقت فصاعداً في حوزة الملتزم ، فعليهم أن يلتزموا بطاعته^(٣) .

وفي ذات الوقت كانت تصدر عن ديوان الروزنامة « نذاكر ديوانية » إلى سكان كل قرية يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال البرى الربوط على أراضى القرية وغير ذلك من التزامات مالية ، وذلك من قبيل الرعاية لمصالح الفلاحين فلا يطالبهم الملتزم بأكثر مما هو مقرر عليهم .

فئات الملتزمين :

إذا أخذنا مصر كمثال لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلزام نجد أن الملتزمين كانوا أخلاقاً شتى من المجتمعات التي وجدت في مصر إبان الحكم العثماني . كان من بينهم عسكريون ومدنيون وسيدات . فن العسكريين رجال الأوجاقت أى فرق الحماية العثمانية ، والضباط العثمانيون المتقاعدون ، وهؤلاء كانوا يعضون شهور السنة في التنقل بين القاهرة وإستانبول^(٤) . وكان من بين الملتزمين العسكريين أيضاً أصحاب العصبيات كأمرأه المالك ومن يلتصون إليهم مثل الجلابية ، وهم المالك الذين لم يولدوا في مصر ، بل جلبوا من خارجها ، ويسمون أيضاً الأجلاب . أما الملتزمون المدنيون فكان من بينهم الأشراف وكبار علماء الأزهر ، وفيهم شيخ الأزهر ، وأرباب السجاجيد وهم طائفة تمتع أفرادها بالاحترام العميق من

(١) إبراهيم المولاي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٧

(٢) Arminjon Pierre; op. cit., p. 679.

(٣)

(٤) دكتور أمين مصطفى عثني عبدالله : تاريخ مصر الاقتصادي واللىالى العصر الحديث .

الناتج مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٤ ؛ ص ٣٨١ .

(٥) Shaw Stanford J.; Landholding etc.; op. cit., p. ٧6

المصريين تكريماً لأجدادهم الأولين من كبار الصحابة^(١). وكان من بين المنتزعين المدنيين أيضاً التجار ومشايخ العرب مثل الهوارة وغيرهم ، ثم دخلت النساء ميدان الإنترام في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وطرات على الزيف للمصري هذه الظاهرة الاجتماعية الجديدة ، وهي وجود سيدات ملتزمات إلى جانب المنتزعين ، وازدادت هذه الظاهرة وضوحاً وبروزاً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر^(٢). وكان يطلق على السيدات الملتزمات مصطلح تركي عربى هو

(١) كان أرباب الساجيد ينتمون إلى عدة أسر ، هي أسرة الفيج البسكري وتحتل من أصلاى أن بكر الصديق ، وأسرة الشيخ السادات وتنتمى إلى أسرة طي بن أبى طالب ، وأسرة الشيخ العنانى وتتصل بأفرادها من عمر بن الخطاب ، وأسرة الشيخ الحضري ، وترجع أصولها الأولى إلى الزبير بن العوام .

ولما فتح السلطان سليم الأول مصر اهتم بأمر أرباب الساجيد اهتماماً كبيراً جداً ، ورتب لهم موارد رزق سخية ودائمة ، وأعطاهم بلاداً وكنههم فيها . وكانوا أعضاء في ديوان القاهرة . وكان الباشا العنانى في مصر وكبار موظفي الحكومة يرجعون إلى أرباب الساجيد — وكان معظمهم يجمع إلى شرف المهتم غرارة العلم — فيرجعون إليهم عندما تستغلق عليهم دقائق المسائل الهامة ، ويسترضون بأرائهم . وكانوا يتلقون « القادى » أى الهدايا من الباشا العنانى عند تعيينه في منصبه وقدموا إلى مقر منصبه . وكانوا يصعدون إليه في القامة في أول كل شهر عربى تهنيئاً بحلول الشهر . وكان يقدم لهم في شتى المناسبات على مدار السنة فراوى صدور ، وهو الرداء الرسمى لشاغلي المناصب السكرى والشخصيات الكبيرة .

(٢) يقرر الأستاذ محمد هفني غريال في تعليقه على إجابة حسين أفتدى — وهو أحد أندية ديوان الروزامة التى قال إن الإنترام أصبح « لا حريمات » — أنه يجزم أن هذا الأندى لم يقصد إطلاقاً أن يقول إن المنتزعين في عهده كانوا جميعاً من النساء . . . ولكن الأستاذ غريال يقول في ذات التعليق إنه من الصعوبة تصحیح « ماداً يريد أن يقول » حسين أفتدى .

وقد يكون أحد الأبواب الذى دخلت منه السيدات ميدان الإنترام هو حق التوريث الذى يقرر للمنتزعين في القرن الثامن عشر أو أواخر القرن السابع عشر على حصى العراقاتهم فد أصبح عديد الفرس أمام الزوجات ، فورش عن أزواجهن تصيبهن الفرسى في حصص الإنترام بعد أن أتمت الإجراءات التى كان يتطلباها القانون من حيث تقديم الطلب ودفع الخواص ، وهو الرسم المقرر ، كما سنرى به قليل .

انظر : حسين أفتدى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

خواتين، والحواتين جمع تكسير عربي لسكنة خانون التركية ومنها سيده^(١). وكانت السيدة المنتزعة تطبق عليها ذات الإجراءات التي يخضع لها الرجال المنتزومون فسكانت السيدة تدخل مزاد الإلتزام، فإذا رسا عليها المزاد كان اسمها يدرج في دفاتر الروزنامة. وتبين الماوين لها في منطقة الإلتزام، وتزور المنطقة من حين لآخر لتطمئن على صبر الأمور وكانت تهتد هذا، وتنهز ذلك، وتشهد ضرب الفلاحين الماطلين. وكان المشد^(٢) يسحبهم من شواربهم. وتسلم الأموال فتأخذ نصيبها وتسد لديوان الروزنامة الضرائب المقررة وتسلم المحالصات واستمر المصغر النسائي في نظام الإلتزام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين أننى محمد على نظام الإلتزام كلية في سنة ١٨١٤ بمد أن قرر تقديم تمويضات هزيلة مالية أو عينية للفتنمين والمنتزعات^(٣). ويشير المؤرخ الجبرتي إلى نشاط السيدات المنتزعات في مقاومة محمد على حين قرر إنشاء نظام الإلتزام وقيامهن بمظاهرة إلى الجامع الأزهر حيث طلبن من علمائه تعطيل الدراسة في الأزهر والوقوف بجانبهن في وجه هذا الوالي^(٤).

(١) إبراهيم لولبحى، مرجع ذكره، ص ٢٠٢.

(٢) للشهد هو الشخص المكلف بمسح وإحضار انصلاح الماطل وصربه، ويستمرس له بعد

قيل عبد الكلام على معاوين المنتزوم وأراضي الإلتزام.

(٣) لم يبلغ محمد على نظام الإلتزام في جباية الأموال الأميرية دسة واحدة، بل مر الإلتزام بعدة مراحل بدأت في سنة ١٨٠٩ وانتهت في سنة ١٨١٤. وفي تلك السنة ترك لبرقي من الماتر من أراضي الروسية بصفة ملك منقمة يستقلونها على يدى جبايه دون أن يدفعوا عنها ضرائب، ثم ترد إلى بيت المال عقب وفاتهم. وقرر لبرقي آخر من المنتزعين مماشات سنوية إادية تعادل دخلهم من نظام الإلتزام بناء على تقديرهم. وكانت هذه التقديرات أقل بكثير من البائس، وهو دخلهم الذى كانوا يحصلون عليه، لانهم لم يسكروا بطون وقت تقديرها، الدرص الذى طلبت من أهل هذه التقديرات.

الطري

دكتور محمد هبى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادية في العصور الحديثة. القاهرة،

١٩٤٤، الناشر مكتبة النهضة المصرية، ص ١١٣ - ١١٥.

(٤) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٤ ص ٢٠٤ حوادث اليوم الخامس من شهر ربيع أول سنة ١٢٢٩ الموافق اليوم السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨١٤.

أرباح الملتزم :

كان الملتزم يمتدق في ظل نظام الإلتزام أرباحاً مادية وعينية تنوعت أشكالها وطبيعتها . فهو أولاً يحصل على « الفائض » وهو الفرق بين ما يدممه أو يدمد يدفعه للحكومة^(١) وبين حصيلته ما يجنيه فعلاً من فلاحى القرية أو القرى الواقعة في دائرة الإلتزام . وفضلاً عن هذا « الفائض » كان الملتزم يحتفظ لنفسه بجزء من الأرض يسمى أرض « الوسية »^(٢) وكانت هذه الأرض تبادل من حيث مساحتها عشر مساحة الأراضي التي في أيدي الملاحين والواقعسة في منطقة الإلتزام^(٣) . وكانت أرض الوسية أيضاً معفاة من الضرائب . وهذا الإعفاء الضريبي المترد لأرض الوسية كان إمتيازاً في ذاته ، وأضيف إليه إمتياز آخر ، هو تكليف الملاحين بزراعة هذه الأرض بالجان وفقاً لنظام السخرة . وعلى الرغم من هذين الإمتيازين كان بعض الملتزمين يفضلون تأجير أرض الوسية للملاحين . وقد وجد هذا الفرق من الملتزمين أن تأجير هذه الأرض يحقق لهم كسباً مالياً يفوق الكسب الذى يعود عليهم من زراعتها لحسابهم الخاص^(٤) .

(١) كان الملتزم يتعهد بدمم المال للامرى السنوى على ثلاثة أقساط تسمى :

أ - مال شتوى يطلق عليه ثلث أول

ب - مال شتوى موقوف لى رهن سنوى ، ويطلق عليه ثلث ثان .

ج - مال صيفى ، ويطلق عليه ثلث ثالث .

انظر : ابراهيم المولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦ .

(٢) ترد هذه الألفاظ في بعض المصادر والراجع مكتوبة « الأوسية » وقد أقرنا

استخدام اللفظة الأولى لسهولة وشيوع استخدامها .

Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit, vol, I, (٣) Part 1, p. 261.

Il leur (moultezims) était d'autre part alloué des terres (٤) comprises dans les limites de leur *iltizam*, partie pour leur usage personnel, partie en vue de subvenir aux charges de leurs concessions, telles que les frais d'hôtellerie, l'entretien des mosquées et celui des écoles. Ces terres étaient dites *oussteh*. Les fellahs devaient les cultiver par voie de corvées au profit du moultezim qui trouvait parfois plus rémunérateur de les leur affermer.

voir

Arminjon Pierre; op. cit, p. 679

معاونو الملتزم في أرض الإلتزام :

كان الملتزم يفضل الإقامة في القاهرة ، ولذلك كان لا يذهب إلى منطقة إلتزامه إلا مرات معدودة وعلى فترات متباعدة على مدار السنة ولا يقيم في كل مرة أكثر من أيام قليلة . وكان يستهدف من الزيارة تحقيق مصلحته الشخصية ، فيشرف بنفسه على بيع محصول الوسية . ولذلك كان الملتزم في حاجة إلى أعوان يقيمون ويمولون بصناعة مستديمة في دائرة الإلتزام . وكان من بين أعوان الملتزم :

شيخ البلد :

كان بمثابة وسيط - أو ضابط اتصال بالتعبير الحديث - بين الملتزم وأهل القرية ، يبلغهم أوامر الملتزم ويعرض عليه طلباتهم . وكان يقوم بالإشراف على الأراضي ويراقب تصرفات الأهالي وأبجائهم وتحركاتهم إذا فكروا في ترك الأرض التي يملكون و فلاحتها أو فكروا في الهجرة كلية من القرية . وكانت الحكومة حريصة الحرص كاسه على منع هروبهم أو هجرتهم حتى لا تترك الأراضي الزراعية دون استغلال . وقد تضمن قانون نامه سليمان النص الآتي : « حين يبقى الحقول دون زراعة نتيجة خطأ الزراع ، فعليهم (أى على الكشاف والفتشين ومن إليهم) ألا يدخروا جهداً في ضبط وإحضار هؤلاء الزراع . وبعد أن تتم إعادة كل فلاح إلى قريته ، وبعد توقيع العقوبة عليه ، يقوم الكاشف أو المفتش بإجباره على بذر البذور في حقله »^(١) . وكان على شيخ البلد في ضوء هذا النص وغيره من النصوص^(٢) إبلاغ الملتزم أسماء الفلاحين المعصاة أو المشاغبين .

Gibb Hamilton and Harlod Bowen; op. cit., vol. 1, (١)
Part 1, p. 260.

(٢) « يجهز الفلاحون الذين غادروا قرايم سد تاريخ المتع (المشاي) على العودة إليها معها اتصلا من أعداد » .

الترجم السابق ، نفس الصفحة ، حاشية رقم ٦

وكان شيخ البلد يعين من أهل البلدة، ويختار من بين العائلات العريقة القرية . وكان يعتبر رئيس الموظفين المحليين في القرية ، ويحمل حمل الملتزم في أثناء غيابه ، ولذلك كان يطلق عليه لقب « قاعقام »^(١) . وكان يوفر الأمن للفلاحين الذين يزرعون الأرض في منطقة الإلتزام . ويرتب قوة يطلق على أفرادها الخفر يعمون السرقات ، ويقومون بتلبس الأهلالي عند اقتراب غارات العربان من القرية .

ولم يكن شيخ البلد يمارس سلطته على المزارعين فحسب ، بل على جميع سكان القرية . وكان يتميز بالعلظة والشسونة والفظاظة . ولكن كان الفضل يعود إليه في حفظ تماسك القرية ، ولذلك كان يوصف بأنه حجر الزاوية في مجتمع القرية ، وأصبحت كل قرية وحدة مكتفية بذاتها self contained unit تحكمها التقاليد والعادات والعرف ولا تتأثر بالأحداث الخارجية . وكانت علاقتها بالحكومة تكاد تكون مقصورة على شيخ البلد والملتزم . وتؤدي الضرائب تتدأ وبعياً وعملاً . وكانت كل قرية تضم بجانب المزارعين وأعوان الملتزم إمام المسجد ، والفجار ، والحداد ، والحلاق ، وكانوا يتناولون مرتبات عينية موسمية ، ويلتزمون بأداء الخدمات لسكان القرية .

وكان شيخ البلد يتمتع بعدة إمتيازات مادية : كانت له قطعة أرض معفاة من الضرائب تسمى « طين مسموح بالمال الحر من غير مصروف »^(٢) ، وكان يطلق على هذه الأرض أيضاً « مسموح المشايخ » ، كما كان له خصصات مالية كان يدون مقاديرها وكشوف المصروفات في نظير الخدمات التي يؤديها ، وفي مسايل استضافة أو استقبال الضيوف الذين يقدون إلى القرية — وهم في العادة رجال

(١) قاعقام لقب اسطلاحى يطلق على العادة على كل من يقوم مقام أحدى أثناء غيابه مثل قاعقام الصدر الأعظم أى الوبر الذى يحمل عمل الصدر الأعظم فى أثناء غيابه الأخير فى الحرب ، وقاعقام الباشا أى الفحص الذى يمارس احتصاصات الباشا العثمانى فى مصر عندما يكون مشعب الباشا شاهراً أو فى أثناء الفترة التى تنقضى بين سفر الباشا المقول من مصر وحضور الباشا الجديد ، وقاعقام الملتزم أى وكيل الملتزم .

(٢) حسين أفندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

الحكومة - وأخيراً يتعين على الملتزم أن يقدم إلى شيخ البلد ملابس تسمى الكساوى. وفي مقابل هذه الملابس كان على شيخ البلد أن يقدم للملتزم التقدّم^(١) على فترات متباعدة كل سنتين أو ثلاث سنوات. وكان من حق الملتزم أن يهين أكثر من شيخ بلد إذا كانت مساحة الأرض التابعة له كبيرة. وكان كل شيخ يختص بقربة أو عدة قرى من أرض الإلتزام. وكان أكبر المشايخ سناً يسمى «شيخ المشايخ»^(٢). ويمضى الزمن استئصال نفوذ مشايخ البلد، فنجدوا في القرن الثامن عشر م الحكام الحقيقيين والعليين في الريف الممرى بدلا من الموظفين العثمانيين^(٣).

المباشر :

كان بمثابة وكيل القائم مقام ويباشر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر القائم مقام إلى القاهرة لمقابلة الملتزم. وكان من اختصاصه قيد كل ما يدفعه فلاحو الإلتزام بالتفصيل في سجل خاص به

المشد :

ينفذ أوامر شيخ البلد أو شيخ المشايخ فيقوم بضبط وإحضار الملاحين المتأخرين في سداد الضرائب المستحقة عليهم. وينفذ العقوبات التي يأمر الملتزم بتوقيعها على

(١) مقدمة جمعا تقادم. والتقدم مصطلح قانونى ومصطلح تاريخى. والمصطلح القانونى نوعان لتقدم التسلف والتقدم للكسب، وهو خارج عن موضوع هذه الدراسة. أما المصطلح التاريخى فمناه الهدايا التي تقدم في المناسبات السارة، وهي عادة درج عليها المحتجم في مصر في أثناء الحكم العثماني بوجه خاص. ويكثر الحرث من ترددها عند قدوم الباشا الثاني إلى مصر ليتفقد مهام منصبه، أو عودة أحد كبار الصجاج من الحجارة، أو زواج ابنة شخصية كبيرة، أو إجراء عملية خنث لابن أحد كبار رجال المحتجم في مصر، أو عند زواجه.

(٢) دكتور محمد لطفى لحيطة. مرجع سبق ذكره، ص ١٨.

(٣) Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp. 22-25.

الفلاحين إذا توفقوا عن دفع الضرائب أو امتنعوا عن أداء الأعمال التي يطلب
الملتزم أو شيخ البلد منهم أداءها في أرض الوسية بالبحان ، أو إذا أظهروا تراخياً
في أدائها ، وكان الجلد هو العقوبة الشائعة التي يترصض لها الفلاحون . وكان المشد
يحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع فلاحي منطقسة الإلتزام . وكان يتقاضى أجره
من الملتزم .

الشاهد :

يحفظ بسجلات الأراضي ويدون فيها كافة البيانات التمهيدية عن مساحتها
من حيث عدد الأندنة ، والأحواض ، وأسماء الفلاحين المستثمرين لها ، ومدار
الضرائب المقررة عليها . وكان الشاهد يختار من بين أهل البلدة ، ويعتمد في دخله
على مصدرين : مخصصات يطلق عليها « عوائد من داخل الخرجات »^(١) ،
وعوائد يلتزم الفلاحون بأدائها إليه . وكان يطلق عليه في بعض الأحيان لقب
« المادل »^(٢) ، لإشاعة العطاءينة في قلوب الفلاحين نظراً لأن اختصاصاته تس

(١) الخرجات هي الأموال التي يجمعها الملتزمون ، ولكنها لا تدخل في حساب
أموال السلطان .
الطر :

حسب أندي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩ .

Festèbe le Comte; Mémoire sur les finances de l'Égypte, (٢)
depuis sa Conquête par le Sultan Selym Ier, jusqu'à celle du
Général en chef Bonaparte.

dans:

Description de l'Égypte; ou Recueil des observations et
des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition
de l'armée française. Seconde édition, celle de Panichouche,
Paris, de 1821 à 1829, 26 vols. de texte in 8 o et le même
nombre de planches t. XII, pp. 41—248.

Voir particulièrement les deux sujets suivants :

- a) de l'administration des villages. pp. ٥٦—68.
- b) des perceptions. pp. 68—88.

أوضاع الفلاحين ، إذ كان في مقدوره — إذا لم يكن على مستوى خاق رفيع -
تغليب مصالح فريق من الفلاحين على حساب مصالح فريق آخر منهم .

الصراف :

مهمته جباية الضرائب من الفلاحين طبقاً — من الناحية النظرية —
لتوزيع المدون في سجلات الشاهد. وهو شرط لم يكن يحترم في حالات كثيرة .
وكان من مهام الصراف تسليم ما يجمعه من ضرائب — نقداً أو عيناً — للتلزم .
ومن المعروف أن الضرائب في أي بلد تؤدي نقداً أو عيناً أو مصلداً . والمستوى
الاجتماعي والاقتصادي في البلد هو الذي يحدد نوعية الوسيلة التي تؤدي بها
الضرائب . وكان لكل صراف ضامن كفيل في القاهرة يضمه لدى اللتزم . فإذا
وقع منه أي تصرف غل بالشرف والأمانة فإن الضامن يكون ملزماً بأداء المبالغ
التي استولى عليها بغير حق أو سند من القانون . والصراف يشبه الشاهد من
حيث اعتماده في دخله على ذات المصدرين الماليين .

وكان اللتزم يختار الصراف عادة من الأقباط . وقد تأسل هذا التقليد أو العرف
في الزيف المصري حتى أصبحت النالبة الساحقة من الصيارفة أقباطاً^(١) ، وذلك
لأمانتهم . وحذتهم المسائل الحسابية والمالية وعدم تحيزهم^(٢) . ويؤيد هذا الرأي
أيضاً إستيف Estève مديرخانة الحملة الفرنسية على مصر ثم مدير الشؤون
المالية في أواخر عهد الحملة^(٣) . ويمارسه في هذا الرأي جيرار Girard وهو من

1) Gibb Hamilton and Harold Bowen; op cit., vol. 1,
Part 1, p. 262.

2) Loc. cit., p. 265.

3) Estève Le Comte.,

dans:

Description de l'Egypte; t. XII, Des perceptions. pp. 68-88.

علماء الحملة ومتخصص في شئون الري ودرس ترع مصر^(١) . وهناك رحلة فرانسى يسمى فولني Volney يؤيد رأى جيرار ، ويقول إن الصياغة الأقباط قد استغلوا الأمية التى كانت فاشية بين الملاحين أسوأ استغلال ، إذ كانوا يتشاسون تقديم إيصالات للسلاحين عن الضرائب التى دفعوها ، وكان يطلق على هذه الإيصالات « ورقة التلاق » أى المستند الدال على السداد ، يضطر الفلاحون إلى أداء الضرائب مرتين^(٢) . ويعطى أحد المصريين الذين عاشوا فى العصر العثمانى فى القرن الحادى عشر الهجرى أى القرن السابع عشر الميلادى صوراً قاتمة عن خراب ذمة الصياغة الأقباط وإسرافهم فى ظلم الفلاحين الذين كانت ترتد فرائضهم عند ما يتراعى إلى أسماهم نبأ وصول الصراف إلى القرية . وكان الفلاحون يطلقون على وصوله « نزلة الصراف » ويتسابقون إلى إكرامه وتقديم الأطعمة الفاخرة له ويتنافسون فى التقرب إليه حتى يكف أذاه عنهم^(٣) . ومهما يكن من أمر ، فلم يكن هذا الحكم عاماً ، ولم يشمل جميع الصياغة الأقباط ، بل

1) Girard P.S.; Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte.

dans

Description de l'Egypte; op. cit., t. XVII, pp. 1-436.

Voir spécialement les trois sections suivantes:

Section IV. De l'état des cultivateurs en Egypte. Quelques notions sur l'administration des villages. pp. 37-48

Section VII De l'aménagement des terres dans les différentes provinces de l'Egypte. pp. 133-148.

Section IX. Du droit de propriété et de la perception de l'impôt. pp. 189 - 197.

(٢) فولني ، مرجع سبق ذكره . ص ١٤٥ .

(٣) يوسف بن عبد بن عبد الجواد بن حضر المصري : هو الفحول فى شرح قصيد أبي شادوب . القاهرة ، مطبعة بولاق - القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠) وهو ككتاب بصور بالفسحة الساخرة والسكته اللادعة ما كان عليه الشعب وريف مصر إبان الحكم العثماني من فقر وجهل واضمح . وتوجد عدة نسخ من هذا الكتاب مودعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، وقد رجينا إلى النسخة المحفوظة بها تحت رقم ٢٧٦٣ (أدب) ، ج ١ ، ص ١٨ ، ج ٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

كان كثير منهم مثلاً طيباً للإخلاص والنزاهة والتفانى في الخدمة . ونهوا هذا الفريق من الأعباط مراكز اجتماعية مرموقة ، وجمعوا ثروات ضخمة مبيداً عن وسائل الكسب غير المشروع ، وتمتعوا بنفوذ كبير وبخاصة الذين عملوا مع كبار الملتزمين من الأمراء البسكوات الهاليك .

المساح :

كان يقوم بمسح أرض الالتزام ، وتقدير المساحات البور فيها والمساحات الزراعية^(١) .

معاونة الملتزم في أرض الوسية :

لما كان من بين امتيازات الملتزم الانتفاع بأرض الوسية والتي تشكل - كما سبق أن ذكرنا - عشر مساحة دائرة الالتزام ، كان يعين لها معاونين للإشراف على زراعتها . وكانوا جميعاً يأخذون أجورهم منه . ومن هؤلاء :

الوكيل : يقوم بحفظ الفلأل وغيرها من المحاصيل التي تنتجها أرض الوسية ، ويحتفظ بأدوات الزراعة مثل النوارج والمحاريث والفؤوس وغيرها من الأدوات التي تتعلق بأرض الوسية .

الخلوى : يختص بقياس الأرض الزراعية بعد ريهها وقبل الشروع في زراعتها ، ويفصل في المنازعات التي قد تنار في هذا الشأن ، ويجمع الفلاحين الذين يسخرون في زراعة أرض الوسية .

السكراف : يعنى بالماشية على اختلاف أنواعها والخاصة بالوسية ويقوم بتعليبها أى بملاجهها في ضوء مفاهيم الطب البيطرى في تلك الأزمنة الفائرة إذا أجزى لنا

(١) ابراهيم للرياحى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٩ .

استخدام هذا المصطلح . كما يقوم بتطبيق ماشية الفلاحين التابعين لدائرة الالتزام
خوفاً من انتقال المرض إليها وتأخذه شكل وباء .
السنا : عملاً أزيار الوسية بماء الشرب (١) .

وضع المتزم :

وقد أصبح للمتزم بفضل هذا العدد من الموظفين ، والإختصاصات الواسعة التي
خولها له القانون والرف ، يمارس سلطات واسعة على الفلاحين في القرية أو مجموعة
القرى التي تقع في دائرة الإلتزام . وحلّ المتزم محل السلطات العائنية في مباشرة
اختصاصات الحكومة . وأصبح من حيث الواقع الفعلي هو الشخصية الأولى في

(١) لم تكن المصطلحات التي ذكرناها خاصة بما فوق المتزم سواء في أراضي الإلتزام
أو في أرض الوسية هي المصطلحات الوحيدة المتصلة بنظام التزام الأراضي . فقد كانت هناك
مصطلحات أخرى نذكر منها على سبيل المثال « التذكرة جي » وهو الذي يمرر تقاسيط
الإلتزام ، و « التاريجي » وهو الذي يضع تاريخ كل مستند رسمي ، و « أمين الصناديق »
وهو أمين محفوظات الروزنامة ، و « كاغد أمين » وهو أمين الأوراق الرسمية ، و « المهر دار »
وهو حامل أختام الروزنامة .

وقد يظن البعض أن المصريين في العصر المشائي قد اختلّت أذهانهم بمثل هذه المصطلحات
التقنية والإدارية تنطلق بها ألسنتهم ، وأن هذه الظاهرة قد تسلمت إلى أعماق الريف المصري
بوجه خاص مع نظام الإلتزام . والحق أن ظاهرة المصطلحات الجديدة لم تكن الأولى من نوعها
في مصر إبان الحكم العثماني . فقد شهد - على سبيل المثال - حكم الدولة الأيوبية ودولق
الماليك العربية والممراكية - وهي الدول ذات الإقطاع العسكري - أمثال هذه المصطلحات
التركية وغيرها فند مع سلاطين هذه الدول وعلى سبيل المثال عرف المجتمع في مصر سواء
في الريف أو الحضر في العصر الأيوبي مجموعة من المصطلحات كان بعضها غير مأثوف تطلق
على الجهاز الإقطاعي في الريف المصري وعلى شاغل المناصب في الدواوين الحكومية التي تعرف
على الإيرادات والمصرفات ، مثل الناظر ، شاد الدواوين ، للتوقي ، المعين ، الناسخ ،
العامل ، السكتب ، الجهبذ ، الأمين ، الماسح ، العليل ، الحايز ، الحازن ، الحاضر ، الحارث ،
النائب إلى غير ذلك من مصطلحات .

التقنية والشخصية الثانية في الكاشفية^(١). وظهر اللتزم في غضون القرن الثامن عشر كأنه المالك الحقيقي للأرض التي يمارس فيها حق الإلتزام. وغدا بأجهزته الإدارية والمالية والفنية عبارة عن حكومة داخل الحكومة *Imperium in imperio*

(١) الكاشفية وجمها كاشفيات هي وحدة إدارية صغيرة هي مصر في أثناء الحكم المثنائي وتقابل في الوقت الحاضر (١٩٢٦) «مركز» وجمها «مراكز» في التقسيم الإداري للمحافظات. وقد اشتق منها لفظ كاشف وهو الذي يحكم الكاشفية، أي كان بمثابة مأمور مركز. كما كان الكاشف يتوب من الصنوج الذي كان يحكم الصنوجية، وهي إحدى الأقاليم الإدارية الكبرى في مصر وتقابل إحدى محافظات مصر بالتصميم الحديث. فكان الكاشف يعمل عمل الصنوج في أثناء تميم الأخير عن مقر منصبه وتفضيله قضاء معظم شهور السنة في القاهرة. وكان هناك نوع ثان من الموظفين يحمل كل منهم لقب كاشف. وكان هؤلاء الكاشف هم وكلاء الباشا المثنائي الذين يعرضون على قرى الكاشفيات التي كان دخلها مخصصاً للباشا في أقاليم معينة في مصر.

وبما هو جدير بالذكر أن كثرة من المراجع العربية والفرنسية تذكر كلمة «كشوفية» *kouchoufyeh* بدلا من كاشفية وتجمعها كشوفيات بدلا من كاشفيات. وقد رأينا - أحداً بالأحوط - أن نستقدم لفظة كاشفية وجمها كاشفيات طالما أن مصطلح الكاشفية مأخوذ منه ومنسوب إلى كلمة كاشف.

وكان الكاشف من المسكرين من ذوى الرتب الكبيرة، ويتنوعون إلى إحدى فرق الحماية المثنائية السبع. وكان من عاداتهم في أثناء جولاتهم في مناطق عملهم أن يركب الواحد منهم حواذ، وحوله جنوده يتزعمون الطبول لشمع الرهبة والرعب فيلوب الملاحين، يسارعون إلى تقديم الهدايا إليه على الرض من أن الأوامر كانت تصدر معددة إلى الكاشف بضرورة رعاية الملاحين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم، وببعض الزم تأسلت عادة في الرهب المصري، وهي أنه أصبح من حق الكاشف أن يأخذ من كل قرية كبيرة يمر بها الهدايا الآتية أو التقادم بلفظ ذلك العصر:

عدد	
٣	رهوس من النعم
٣	أرادب من الشعير
١	كيلة من السكر
١	كيلة من البرغل
٥	أرطال من السمى
٥	دجاجات

وضع الفلاح في ظل نظام الإلتزام :

وبعقضى نظام الإلتزام كان المنتزم يوزع الأرض على الفلاحين ، كل على حسب قدرته على الزراعة . وكانت تقسم الأرض من حيث الجودة إلى ثلاثة أنواع : عال ، وسط ، دون . وكان على الفلاحين أن يؤدوا للمنتزم القيمة الإيجارية التى يتفق عليها معهم . وقد أئزنا استخدام عبارة « القيمة الإيجارية » لأنها كانت تصور الأمر الواقع بين المنتزم والفلاحين . وكانت القيمة الإيجارية أعلى بكثير من المال اليرى للقرور على الأرض . والفلاح فى ظل نظام الإلتزام كان لا يملك الأرض التى يزرعها بل يحوزها . وتربياً من هذه القاعدة كان الفلاح لا يملك حق بيع الأرض أو رهنها أو غير ذلك من أشكال التصرفات . فجميع أراضي مصر كانت تعتبر ملكاً لسلطان بحق الفتح طبقاً لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكانت تنص على أنه إذا فتحت بلد عنوة فإنها تكون ملكاً للفاتح . أما إذا فتحت صلحاً فتكون فيةناً للمسلمين ، أى يتفق الفاتحون مع أهل البلاد المفتوحة على مقدار الجزية

== ومن كل قرية صغيرة كان الكاشف يأخذ فى صورة همام:

٢ رأس من القم

٢ أردب من الشهر

٣ أرتال من السم

١ كبة كحك

١ كبة برغل

وكانت تكاليف هذه الهدايا أو التقادم توزع على سكان القرية.

ابراهيم اللوىلى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤

وكان يستخدم فى العصر العثمانى مصطلحان آخران يلتبس فىهما الأمر على بعض الباحثين ، وهما مال الكاشفية ، ويمرى مال الكاشفية . أما مال الكاشفية فعبارة عن فئات الإدارة المحلية فى الأنايب مثل مرتب الكاشف وترسيم الجسور وتطهير النرع ومرتبات المسكر المحليين . وكان أهان القرى يدفعون هذه الرسوم للكاشف أما مبرى مال الكاشفية فهو ما يبدعه كل كاشف للحكومة .

والخراج الذي يدفع للفلاحين دون أن يمسوا الأرض أو يأخذوها منهم عنوة وقهراً^(١).

أرض الأثر:

وكان لبهض فلاحي الإلتزام مساحات زراعية صغيرة يطلق عليها المصطلح التاريخي «أرض الأثر» يقومون بخدمتها وزراعتها والحصول على محصولها، وفي بعض الحالات يحصلون على جزء من هذا المحصول. ولكنهم لا يستطيعون التصرف فيها بالبيع أو الهبة أو التنازل أو الأيجار، ولا تورث لذراريهم من حيث هي أرض، وإنما يتوارثون حق زراعتها والتصرف في المحاصيل التي تلتها. وكان الفلاح يستمر في التمتع بحق الانتفاع بهذه الأرض طالما كان مواظباً على أداء التزاماته المالية نحو الملتزم، وطالما كان مستمراً في زراعتها. وكان الملتزم لا يستطيع طرده من أرضه، إلا إذا توقف عن دفع اللطابوات المقررة عليه أو ثبت عجزه عن فلاحه الأرض^(٢).

والأصل في أرض الأثر أنها كانت ملكاً لعائلات عاشت عليها وانصرفت إلى زراعتها اعتقاً وأجيالاً، ولكن لما تمت عملية مسح الأراضي الزراعية في مصر في أول الحكم العثماني لم تستطع هذه العائلات إثبات ملكيتها للأرض بأى مستند قانوني لطول العهد، ولكنها أثبتت ملكيتها بشهادة الشهود. ووات السلطات العثمانية ترك هذه العائلات تنتفع بملك الأرض باعتبارها أمراً للملكية غير ثابتة بحجة شرعية. ويعلق أحد الباحثين التخصصيين في تاريخ مصر إبان الحكم العثماني بأن هذا التصرف من جانب السلطات العثمانية كان تصرفاً إنسانياً «ويمكن إضافته أيضاً إلى حسفات النظام العثماني في مصر قبل تشويهه، إذ كان في مقدور الحاكم العثماني نزع ملكية مثل هذه الأراضي. ومن حسفاته أيضاً أنه منع الملتزم من طرد الفلاحين من أترهم إن عجزوا عن دفع المال الميري الربوط عليهم. ولكن الملتزم تجاهل هذا النقص أيضاً وراح يعاقب الفلاح الماثل بطرده من أتره

(١) دكتوراة سنية اسمايل كاشف: مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى عام
الدولة الطولونية. القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠، الناشر دار النهضة العربية، ص ٣٩.
Shaw Stanford J., The Financial etc., op. cit., pp.20-21. (٢)

عقاباً له «^(٦) وقد تدخلت السلطات السبانية في مصر لوقف هذا التصرف الجائر الذي كان يصدر عن الملتزم. وأصدر الوالي السباني مسيح باشا فرماناً في سنة ٩٨٥ هـ (١٧٧ / ١٥٧٨ م) بجمع الملتزم من طرد الفلاح من أرض الأثر إذا عجز عن الوفاء بالتزاماته المالية بسبب عدم استطاعته زراعة أثره، كما نص هذا فرمان على إرغام كل من الملتزم والكاشف على مساعدة الفلاح بمده بالبدور اللازمة، على أن يقيد ثمن هذه البدور في سجلات الشاهد لتحصيها من الفلاح بعد بيع محصوله^(٧).

واكتسب الفلاح في القرن الثامن عشر حقاً جديداً - بعد الحق الذي كان قد تقرر له في القرن السابق بتوريث الفلاح حق الانتفاع بأرض الأثر بالشروط المعلومة - وبمقتضى الحق الجديد أصبح للفلاح الحق في أن يؤجر لمدة سنة أو أكثر من سنة أرض الأثر لأي شخص آخر يتفق معه لقاء ثمن معين في مقابل هذا الإيجار أو يرهن جزءاً من أرض الأثر رهناً كان يطلق عليه « الفاروقة »^(٨). أما إذا مات الفلاح دون عقب أو كان ورثته ضعفاء لا يستطيع أحد منهم فلاحه الأرض أو الوفاء بالإلتزامات المفروضة عليها، فإن الأرض ترجع إلى الملتزم الذي يعطيها إلى مزارع آخر طبقاً لقانون « بيت المال » الذي يجعل زراعتها أمراً ضرورياً حتى لا يضر من مالها الذي ينفق منه على عمارة البلاد^(٩).

وقد أطلقت على الأرض التي يعطى للفلاح حق حيازتها والانتفاع بها في الوجه البحري عدة أسماء، مثل: أرض الأثر، أثر الفلاح، الأرض المؤتمرة في

(١) إبراهيم الميمني، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «ناروقة»: عقد يتسلم بمقتضاه الدائن أرض الفلاح المدين ويستقلها الدائن وينتفع بصورتها نظير فائدة دينه حتى يسدد المدين هذا الدين.

(٤) دكتور أمين مصطفى عيسى عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١.

الفلاحين ، الأطميان الأثرية . وقد استهدفت هذه التسميات التمييز بين أرض الفلاحين وهى الأثر ، وأرض الملتزمين وهى الوسية^(١) .

أرض المساحة :

وقد لقي الفلاح في الصعيد الكثير من العنت والتعدت ممّا بسبب الحالة المتغيرة لفيضان النيل كل سنة . إذ كان مقرراً من الناحية النظرية أن الأرض التى تصلها مياه الفيضان هى وحدها التى يدفع الفلاح عنها الضرائب . فإذا جاء الفيضان في إحدى السنوات شهيقاً وتعرضت الأرض الزراعية للشرق ، أو جاء الفيضان طلياً هادراً وتعرضت الأرض للشرق ، كانت هذه الأراضى وتلك تحدد مساحتها بإجراء قياس لها ، وتخصم نسبتها من المجموع الكلى للضرائب المربوطة على القرية ما عدا ضريبة الميرى التى تبقى دون أى تخفيض . ولذلك كان يطلق على الأرض التى يزرعها الفلاح في الوجه القبلى مصطلح آخر هو « أرض المساحة » . أما من الناحية العملية فإن هذه الرحمة بالفلاحين كانت رحمة ظاهرية ، لأنه إذا جاءت السنة التالية رعيده بالنسبة للفيضان ، فإن التخفيض الضريبي عن السنة السابقة كان يضاف إلى ضرائب السنة الجديدة^(٢) .

(١) حسين أئندى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥١ - ٥٢ ، حاشية رقم ١ ، وانظر إحابات حسين أئندى عن التطورات القانونية التى مرت بها أرض الأثر . الباب الحادى عشر ، الأسئلة والأجوبة ص رقم ٧ حق رقم ٥

واحر أيضاً :

دكتورة لى عبد العظيم أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ حاشية رقم ٣ .

Laucet Michel-Ange, Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des provinces de l'Egypte dans les dernières années du gouvernement des Mamlouks.

dans

Description de l'Egypte, op. cit., tome XI, pp. 461-571.

Voir spécialement les trois sujets suivants :

تطور المركز القانوني للمتزم :

وكان الإلتزام يعطى في البداية لمدة سنة واحدة ثم لعدد من السنين ، ثم أصبح يعطى مابقى للمتزم على قيد الحياة ، وتطور الوضع القانوني للمتزم بعد ذلك ، فنتقرر أن يكون حق الإلتزام وراثياً في عقبه إذا كان للمتزم التوفى ورثة قادرين على الوفاء بمسئوليات الإلتزام^(١) . وكان يطلق على حصص الإلتزام التي يموت ملتزموها « بلاد الأموات » . وكان في استطاعة الورثة نقل هذه الحصص إليهم بشرطين ، أولها أن يتقدم أحدهم بطلب إلى ديوان الروزنامة بطلب صدور « تمكين » له أى تجديد تسييط الإلتزام أو عقد الإلتزام . أما ثانياً الشرطين فكان يتمثل في دفع مبلغ من المال يسمى « الحلوان » أو « حلوان بلاد الأموات » وهو بمثابة رسم تسجيل . ويحدد مقدار هذا الحلوان بثلاثة أمثال قاتض المتزم أى ثلاثة أضعاف الدخل السنوي للمتزم التوفى من عملية الإلتزام . أما إذا لم يسكن للمتزم التوفى ورثة قادرين على زراعة الأرض ، فإن هذه الأرض ، وهى بلاد الأموات بمصطلح ذلك العصر^(٢) ، تطرح في الزاد وتمطى للمتزم جديد . ويخلص من هذا المرض إلى أن حصص الإلتزام لم تكن تعود للحكومة ولا يسقط حق المتزم فيها إلا في حالات قليلة ، منها : انقراض ذرية المتزم أو عدم رغبة أحد من ورثته في الاقتناع بالحصصة أو مصادرة

a) Des différentes manières dont les terres sont possédées; des titres de propriété et des impositions principales. pp. 466—476.

b) De l'administration des terres. pp. 476—487.

c) De quelques usages particuliers à la Haute-Egypte. pp. 487—492.

(١) كان يتبع هذا الحق أيضاً اماليك المتزم البيض .

(٢) كان يطلق على مثل هذه الحصص مصطلح آخر هو المحلول ، أو الحصة المحلولة .

انظر كلامي :

دكتور أحمد أحمد المنة . تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد على الكبير ، القاهرة ،

الناسخ دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ٣٠ — ٣٦

Shaw Stanford J. : Landholding etc, op. cit., p. 96.

الحصنة نتيجة وقوع اضطرابات سياسية عميقة وتغير ميزان القوى في البلاد،
فيلجأ الأمراء المنتصرون إلى الانتقام من خصومهم بمصادرة حصص التزامهم .

مزايا نظام الإلتزام :

وإرتاحت الحكومة العثمانية إلى نظام الإلتزام فيما يختص بجمع الأموال
الأميرية ، لأنه يوفر عليها متاعب الاتصال بالفلحين وغيرهم لجباية الضرائب
والرسوم ، وألقت هذا السب على كاهل الملتزمين . كما أن نظام الإلتزام كان يتماشى
مع طبيعة الحكم العثماني للولايات التي خضعت لسيادة الدولة ، إذ كان من أهم
خصائص الحكم العثماني قلة تدخل السلطات العثمانية في حياة الجماهير ، بحيث
كان هذا التدخل في أضيق نطاق ممكن .

وذهب أحد الباحثين الأمر يكتين إلى القول بأن نظام الإلتزام كان مثاليًا
بالنسبة لمصر ، إبان الحكم العثماني في ظل الملايسات التي كانت سائدة قبل القرن
الثامن عشر ، وأضاف إلى ذلك قوله إن هذا النظام أتاح لخزينة الحكومة تدفقًا
مستمرًا من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من النفقات أو التكاليف الإدارية ،
وأعطى للملتزمين مصلحة دأمة ومستمرة في العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض
حتى لا يسرفوا في استغلالها أو إتهالك التربة الزراعية والحوص على عدم إخراج
المزارعين منها ، كما أن نظام الإلتزام أخضع المزارعين لنظام ضريبي منتظم وحال
بينهم وبين التمرض لإجراءات تعسفية^(١) .

والحق أن هذه المزايا كانت تتحقق للسلطان^(٢) والملتزم والفلاح طالما كان

1) Shaw Stanford J ; Landholding etc , op. cit., p. 102

(٢) كان « بدل الإلتزام » - وهو المبلغ الذي يدفعه كل ملزم لخزينة الحكومة
في مقابل شراء حق الإلتزام - يدفع معظمه إلى السلطان كجزء من المال المبرى ، وكان
توجيهه حصيلة بدل الإلتزام إلى خزينة السلطان أمرًا ذا مغزى سياسي وقانوني: فهو يؤكد
السيادة المستمرة للسلطان على مصر ، ويوجد ملكية السلطان التامة على الأرض .

انظر :

الباشا المشائى فى مصر ومعاونوه قادرين على تحقيق تفوق نفوذ الدولة السياسى والحربى فى البلاد . منظام الإلتزام كان نظاماً ملاماً للفلاح الصنير بوجه خاص ويوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار . وكانت تتلاقى مصلحة الفلاح مع مصلحة المتزرم فى عدم إرهاق الفلاح فى العمل فى أرض الوسية طبقاً لنظام السخرة ، وعدم ابتزاز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل ، وفرض ضرائب جزافية عليه ، وصرافة حالة فيضان النيل كل سنة .

تدهور نظام الإلتزام :

تدهور نظام الإلتزام من الناحية التطبيقية فى مصر فى أثناء القرن الثامن عشر وذلك بحكم اللإزمات التى أحاطت بتطبيقه . فقد غدا الأمراء المماليك مراكز القوى السياسية والسكرية والاقتصادية فى مصر وبخاصة فى الفترة من ١٧١١ حتى قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨^(١) . وتركزت حصص الإلتزام ، فى أيديهم وأبدى مماليكهم وزوجاتهم وأولادهم^(٢) . وكانوا يمتهزون كل فرصة لدعم مركزهم الإلتزامى ، فإذا خلت حصة من حصص الإلتزام ، لسبب أو لآخر ، كانوا يمتنون المتزرمين الجدد من بين أتباعهم . وكان ديوان الروزنامة والديوان القفترى يرسخان لرغبة الأمير المملوكى ويتفانلان عن إجراء مزاد بين الراغبين فى الإلتزام . وفى بعض الأحيان كان الأمراء المماليك — أصحاب السلطة الفعلية فى مصر ، ومهمم القفتردار

Holt P.M.; The Pattern of Egyptian Political History (١)
from 1517 to 1798, pp. 86—90.

وعو أحد يمتن تقدم بها هولت أستاذ تاريخ العالم العربى فى جامعة لندن إلى المؤتمر الدولى الذى عقد فى شهر أبريل ١٩٦٥ عن تاريخ مصر الحديثة من القفص المشائى لمصر سنة ١٥١٧ إلى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، الذى سبقت الإشارة إليه . وكان موضوع يمته الآخر « مصر المتناية ١٥١٧ — ١٧٩٨ المصادر التاريخية العربية » . وقد نشر هذان المشائى فى السكتاب القى سم بحوث المؤتمر وسبقت الإشارة إليه . ويهد الأستاذ هولت أحد كبار العلماء المتخصصين فى تاريخ مصر لجان الحكم المشائى . وقد وضع عدة بحوث تناولت هذا المصر بالدراسة التطبيقية الموضوعية .

Shaw Stanford J.; The Financial etc., op. cit., p. 33. (٢)

والروزنامي - يحاولون إشفاء نوع من الشرعية على هذا التمييز التمسقي ، فأطلقوا على هذا الأسلوب في تسيين الملتزمين « المصالحة » وبدعقون مبدلاً من المال يسمى « بدل المصالحة » وهو يقابل « الحلوان »^(١) . وفي أحيان أخرى كانت تحدث مزادات صورية ، أى على الورق ، تسفر عن تسيين الأتباع والمقرين إلى مراكز القوى ، وفي ذات الوقت كانوا يملحون الإعفاء من دفع « الحلوان » ، وفي أحيان ثالثة كان الإلزام يتحول من شخص إلى آخر قسراً على الرغم من أن القانون يمنع هذه القسر منماً بأنساً .

انعكست هذه الأوضاع على حالة الفلاح المصري ، وعانى الكثير من الاستبداد والجور ، سواء من الملتزم وأعوانه ، أو من الأمراء المالك وأتباعهم ، إذ كانوا يقومون على فترات متقاربة بجولات في الريف ينهبون فيها المحاصيل الزراعية والماشية ، كما كانوا يقتحمون بيوت الفلاحين بحثاً عن مذكراتهم ، والويل لكل الويل لمن تلحق به مظنة التراء ، وكان الفلاح يدفع للملتزم أكثر مما هو مقرر عليه رسمياً ، وانتشرت المجامع والأوبئة مثل الطواعين . وكان أشدها فتكاً طاعون إسماعيل بك ، وتأخرت الزراعة وتناقص تعداد الفلاحين وعمدوا إلى ترك الأراضى ، بل والهجرة كلية من القرية والكاشفية . ويدكر ثولوى Volney أنه شاهد المصريين في سوريا سنة ١٧٨٥ أنواعاً وجماعات . وقال إن أزقة سيدا وحيما وسائر مدن وقرى فلسطين كانت تسج بالمصريين . وقد توغل فريق منهم في اتجاه الشمال حتى حلب وديار بكر^(٢) . وقد أفاض الجبرتي في وصف حالة الشقاء التي طاش فيها الفلاحون وغيرهم من الطوائف المنتجة .

Shaw Stanford J., Landholding etc., op. cit., p. 100. (١)

(٢) فولوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧ .

الجوارك ونظام الإلزام .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الإلزام على الجوارك التي كانت قائمة في جميع
موانئ الدولة^(١). وكان يطلق على هذه الموانئ كلمة أساكل^(٢) des échelles

1) Combe Etienne; l'Egypte Ottomane de la conquête par Sélim
(1517) à l'arrivée de Bonaparte (1798). p. 88

dans

Précis de l'Histoire d'Egypte par divers historiens et archéologues. Tome troisième. Imprimé par l'Imprimerie de
l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire 1938,

(٢) أساكل ومعدما أسككة ، اتبعت من الكلمة الإيطالية سكاللا Scala
بمعنى ميناء أو قنطرة . وهي تكتب في المصادر والمراجع العربية التاريخية وأشكال حتى :
في صيغة المرد : أسككالة - سقالة - سقالة - أسككة .

في صيغة الجمع : أسككالات - سقالات - سقالات - أساكل - أساكيل .
وترد أحياناً في بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكار ، وهي مقتبسة من اللغة
الإسبانية ، ومعناها ميناء للمارين أو المارين .
انظر كلامنا :

Recueil des textes du quatorz-ème congrès des Orientalistes.
p. 441

Colin, Notes de dialectologie.

pans

Bulletin de l'Institut français, XX, pp. 51, 68, 73, et 202.

Brunot; Notes lexicologiques, sur le vocabulaire maritime
de Rabat et Salé, Paris, 1920, p. 61.

Barbier de Meynard, op. cit., vol. 1, p. 55.

Boettler, op. cit., vol. 1, pp. 288 - 289.

Dozy; op. cit., t. 1, p. 23, 660 et 839.

المعروف ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٢ ، ج ٤ ، ص ١٢ .

كما كان يطلق على إيرادات الجمارك « محصول أسكدة » . وكانت تباع رسوم كل جرك^(١) إلى الشخص الذي رسو عليه الزاد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة ، ويصبح لقبه الملتزم ، ثم يشرف هذا الملتزم على جباية الرسوم الجركية . وكانت حصيلة الرسوم الجركية تأتي في المرتبة الثانية بعد ضرائب الأراضي الزراعية بالنسبة لإيرادات الحكومة . وكان الملتزم لا يدير الجرك ، بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم موظف يسمى « كرك أهيني » أى أمين جرك . وكان يطلق عليه أحياناً جركى . وكان هذا الجركى في المادة رجلاً يهودياً ، وبخاصة في الجمارك التي تقوم في الوانى الكهبرى ذات النشاط التجارى الكثيف . وكان اسم الجركى في الولايات العربية يذكر مسبوفاً بكلمة « العلم » .

وإذا أخذنا مصر مرة أخرى كمثل لولاية عثمانية طبقت فيها الدولة نظام الإلتزام على جماركها في سائر الوانى سواء كانت الوانى البحرية أو النيلية نجد أنه كان في مصر إبان الحكم العثماني عدة جمارك ، وكان أهمها جرك الإسكندرية ، وكان يقبمه جركان فرعيان في أبى قير ورشيد ، ثم جرك دمياط ، ثم جرك البرلس . وكان نشاط هذه الجمارك منصباً على التجارة الخارجية - استيراداً وتصديراً - مع الدول المتوسطة ، أى الدول التي تقع في حوض البحر المتوسط ، والدول التي تقع فيما وراء هذا البحر . وعلى الرغم من أن حركة التجارة الخارجية كانت و نطاق ضيق في مصر على عهد الحكم العثماني ، فقد كانت لها أهميتها في الحياة الاقتصادية في مصر في ذلك العصر . وكان هناك أيضاً جرك البهار ، وهو يقع على الطريق المحراوى بين القاهرة والسويس ، وكانت تحصل فيه الرسوم الجركية

(١) يذكر بعض المؤرخين أن كلمة جرك أسماها تركيه ، وهى كلمة يونانية Koumerk ، ثم انتقلت إلى اللغة الانجليزية كوميكر كوم Commercium ، وحررت في اللغة العربية إلى جرك ، وهى اللغة التركية إلى كرك .

انظر :

على السلع الواردة من بلاد الحجاز والتي تشحن من ميناء جدة أو ميناء ينبع، ثم البضائع الواردة من ميناء غنا في اليمن . وكان البن أهم السلع الواردة من اليمن ، ثم تجارة الهند التي كان جزء منها يرد إلى مصر في طريقه إلى أوروبا على الرغم من كشف طريق رأس الرجاء الصالح . وأخيراً كان هناك جمرق في ميناء بولاق النهري يقوم بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع التي تنقلها السفن النيلية من بلاد الوجه البحري . وكان لهذا الجمرق جمرق آخر يتبعه ويقع في مصر القديمة - عند ساحل أتر النبي - لاستقبال السفن النيلية القادمة من أقاليم الوجه القبلي وتدفع فيه الرسوم الجمركية ^(١) .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية التي يتم تحصيلها من كل جمرق تخصص لجهة مثل مرتب الباشا العثماني، ضباط الحامية، أي جيش الاحتلال، الصرة وهي الأموال التي ترسل إلى الحجاز في كل سنة مع قافلة الحج المصري، وجزية السلطان . وكان جمرق البهار التزاماً للباشا العثماني ^(٢) . وكان أوجاق الإنكشارية ^(٣) في مصر يلتزم ببعض الجمارك مثل إسكندرية ودمياط وجمرق بولاق وجمرق مصر القديمة، فيدفع مال الميري المقرر على الجمرق ويستولى الأوجاق على الأموال الباقية .

ونظراً للظروف السياسية التي مرت بمصر في العصر العثماني المملوكي لم يطبق نظام الالتزام على الجمارك تطبيقاً سليماً . فقد أسرف المتزعمون وأعوأتهم في ابتزاز الأموال من الشنتلين في تجارة الاستيراد والتصدير . وكانت غالبيتهم من الأجانب مثل البنادقة واليونانيين والفرنسيين وبعض الإنجليز .

Combe Etienne op cit., p. 88.

(١)

(٢) دكتور حسن عثمان : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٠ .

(٣) كان أوجاق الإنكشارية أهم الأوجاقات السبعة التي كانت تتألف منها الحامية العثمانية في مصر . وكان لقائد هذا الأوجاق وهو أغا الإنكشارية - الرياسة العليا في حفظ النظام و مدينة القاهرة وينتسب لهذا الأوجاق عدد من أكر أصحاب المناصب في مصر ، منهم وكيل الباشا - الكتبخنا - وسردار الحج أي قائد القوة العسكرية التي ترافق قافلة الحج المصري ، وسردار الخزينة وهو قائد القوة المرافقة للفتوية المرسله إلى السلطان . وكانت تنقل برأ من القاهرة إلى إستانبول . وكان يطلق على أوجاق الإنكشارية أوجاق السلطان أحياناً ، وأحياناً أخرى أوجاق مستعطفان أي رجال الحفظ .

ولما انفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨ - ١٧٧٣) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق نظام الإلتزام على الجمارك^(١). فأبعد المتزمن اليهود وأحل محلهم سوريين مسيحيين كانوا قد نزحوا من دمشق إلى القاهرة والإسكندرية في مطلع القرن الثامن عشر. وكانوا في أول الأمر قلة عديدة لم يتجاوزوا أفراد ثلاث عائلات. ولكن الأرباح التي حققوها من إلتزام الجمارك بمد إبعاد اليهود ومن نشاطهم التجارى جذبت عائلات سورية مسيحية بلغ عددها خمسين أسرة حتى أفرادها أرباحاً وفيرة^(٢). وبعد وفاة على بك الكبير عادت تطل برأسها عيوب تطبيق نظام إلتزام الجمارك.

ويذكر أحد الرحالة الفرنسيين وهو قولني - وقد زار مصر والشام وقضى فيها ما بين سنتين ١٧٨٣ - ١٧٨٥ - أنه في عهد الحكومة الثنائية التي كان يتولاها في مصر إبراهيم بك ومراد بك، كانت هناك ظاهرة تكررت، وهي أنه كلما احتاج هذان الأميران للموكلين إلى أموال وفيرة تصل قيمتها في كل مرة إلى خمسين ألف ليرة، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ، فلا يتردد الملتزم في أداء ما يطلبان. وارتاح الملتزم إلى أمثال هذه المطالبات، لأن الأميرين إبراهيم بك ومراد بك كانا يطلقان يد الملتزم في رفع الرسوم الجركية بصورة غير رسمية تعويضاً له عن المبالغ التي دفعها. وهكذا كان الملتزم لا يتقيد بالترتبة الجركية. كان يفرض ما شاء له جسعه من رسوم إنشائية لا تغطي المبالغ التي

(١) وما يذكر أن على بك أبى نظام الإلتزام على الأراضى والسابق له مصره دون أى تغيير، واكتفى بأن أبعد عناصر الحماية من ميدات للإلتزام الأراضى إلى حد بعيد ولم يسمح بذلك إلا لمن تأكد من إخلاصهم له. أنظر: دكتور محمد رميت ومضات، مرسم سبق ذكره، ص ٨١.

(٢) تجمعت في أيدي هؤلاء السوريين المسيحيين ثروات ضخمة وراودتهم الآمال في جمع مزيد من الثروات. وأصبحت لهم مطامع يشقى منها أن يصيروا إلى ماصار إليه اليهود. وقد اعتقد الناس أن سعادتهم قد دانت وأذنت، حين حرب رئيسهم أطولون فرعون إلى ليفرنو Livourne في إيطاليا سنة ١٧٨٤ حوفاً من أن يفتضح أمره، وفضل أن يقضى بقية حياته

يدفعها للأمرء المالكين لحسب ، بل لنحقق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو تلاقى أو التهمت مصالح ملتزمي الجمارك مع مصالح الأمرء المالكين ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجمركية كمورد مالى لا يندب معينه . وقد ارتفعت أصوات التجار بالشكوى من تصرفات ملتزمي الجمارك . ووقف قنصل الدول في مصر إلى جانب مواطنيهم التجار . وتظاهر مراد بك برغبته في القضاء على عيوب تطبيق نظام إلزام الجمارك وقرر أن يتفرد هو دون سواء بالإشراف على الجمارك^(١) . وازداد الموقف تدهوراً ، إذ لم يكن هدفه الإصلاح ، وإنما الإستيلاء على حصيلة الرسوم الجمركية دون أن يشاركه فيها زميله في الحكم الأمير المملوك الكبير إبراهيم بك . ومن المعروف أن هذه الحكومة الثنائية ظلت رابضة على قلوب المصريين حتى قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ فصنفت بها .

الإقطاع الحربى والإلزام في بلاد الشام :

وإذا انتقلنا من مصر إلى إقليم عثماني آخر هو بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية المتعددة نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيها نظام الإقطاع الحربى ونظام الإلتزام . وكانت هناك الأراضي العامة ، ويطاق عليها ديموز ، وتمتير مملوكاً للحكومة ، وبعض إقطاعات عسكرية وفقاً للأشواغ الثلاثة المعروفة : تيمار ، زعامت ، خاص ، لحكام الولايات والأقوية والجنود الإقطاعيين ، على أن يقوم الإقطاعيون عند نشوب الحرب بإعداد وتجهيز عدد من الفرسان المحاربين بقناسب مع إيراد الإقطاع الحربى .

١= جو آمن يستتم بثروته الضخمة .
انظر :

فولى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

وتميزت بلاد الشام بوجود عصبيات إقطاعية عملية اختلفت قوة وعدداً ونزاهة وتوقداً . وكانت هذه العصبية على نوعين : عصبية مذهبية كالإسماعيلية ، والنصيرية والدروز والوارنة ، وعصبية عنصرية كالأكراد والتركان والعرب ، وبذلك وجد في بلاد الشام نوعان من الإقطاع : الإقطاع الحكومى والإقطاع الطائفي . وكان الإقطاع الطائفي أرسخ جذوراً من الإقطاع الحكومى ، ولاسيما في لبنان حيث كانت توجد عائلات أرستقراطية من الدروز والوارنة وغيرهم من بيوت العصبية الإقطاعية . ويمرّف زعماء هذه البيوتات بالمشايخ ، ويدبر الشيخ شتون مقاطعة وتربع (أمير الجبل) فوق هذا البناء الإقطاعي والذي له الرياسة العليا على الأمراء والمشايخ والمامة .

وكان نظام الإلتزام في بلاد الشام أشد قسوة على الفلاحين من مثيله في مصر . كان الملتزمون يتمون إلى كبار الإقطاعيين العسكريين أو المشائريين أو رؤساء الطوائف الدينية . كان الملتزمون يجمعون الخراج والأموال السلطانية من الفلاحين ويسددون مقداراً معلوماً للباشا العثماني في دمشق أو الباشا في سيدا بواسطة حاكم الجبل .

وقد أدخلت الدولة على نظام الإلتزام في بلاد الشام في أواخر القرن السابع عشر نظام المالكانة . ويمقتضى هذا النظام كانت الدولة تمنح الملتزمين حق الإلتزام مدى الحياة حتى يستطيعوا تحقيق أرباح معقولة لهم على مدى الأيام . ولكن جاء هذا النظام بنتائج عكسية بالنسبة للفلاحين والدولة - فقد كان الملتزم - وقد استقر وضعه ووسخت أقدامه في دائرة الإلتزام - يعتبر نفسه مالِكاً حقيقياً للأرض ومن عليها يستبد بالفلاحين ويسومهم سوء العذاب ضرباً أو سجناً أو مصادرة لأمرالهم وحاصلاتهم . أما الدولة فقد أصبح من الصعب عليها مواجهة الزيادة في النفقات بموارد مالية ثابتة وقديمة غير قابلة للزيادة . ولذلك لم يكن في مقدورها زيادة الدخل الحكومى من مصادر الإيراد إلا عند

وفاة أحد الملتزمين فتطرح إلزامه في مزاد من جديد وفقاً للأسعار السائدة^(١) .
ومن الخصائص التي تميز بها نظام الإلتزام في بلاد الشام أن السلطات العثمانية
كانت تطلب من الملتزمين أن يمينوا مصرفيين في العاصمة كي يتم دفع الأموال
المطلوبة في المواعيد المحددة والمنصوص عليهم في عقد الإلتزام . وكان المصرفيون
من المسيحيين واليهود ويشكلون طبقة وراثية ممتازة . وكان لابد لكل مصرفي
أن يحصل على براءة موقفة من السلطان بعد أن يدفع مبلغاً باهظاً للسلطان وبعد
أن تتأكد الدولة أنه على حظ موفور من الرأى بحيث يستطيع أن يسدد للخرانة
الأموال المطلوبة من الملتزم حالما يحل موعد سدادها^(٢) . وكان الدافع للدولة
العثمانية على إدخال نظام المصرفيين هو أنها نيتت أن الملتزمين كانوا يسوفون في
أداء إلتزاماتهم المالية أو يتهربون من الوفاء بها . ورضخ الفلاحون لسف الملتزمين ،
وكان لا يحق للفلاح أن ييجأر بالسكرى أو يفا ر قريته وعاش الفلاح حياة الصنك
والسكفاف . وقرر بعض المعاصرين أنه لم يكن يأكل اللحم طوال السنة إلا في
المناسبات كالأعياد وحفلات العرائس^(٣)

وأسرف أصحاب الإقطاع الحربى والملتزمون في طغيانهم والاستهانة بالسلطات
العثمانية . فسكأوا يتفقون مع بعض الولاة على القيام بحركات تمرد ، ولا يؤدون
الخدمات المقررة عليهم للدولة . وواجهت الحكومة العثمانية هذه الانحرافات باتخاذ
بعض التدابير للتخفيف من مساوىء كلا النظامين . كان السلطان سليم الثالث
(١٧٨٩ - ١٨٠٧) يتمتع فرصة وفاة صاحب الإقطاع الحربى أو الملتزم ويستولى
على أراضيه ، وكان يطلق على مثل هذه الأراضى التى يتوفى عنها أصحابها اسم

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ -
١٩١٤) ، دفر المعارف - القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٢ ، حاشية رقم ٢
(٢) للرجع السابق ، ص ١٨٢ ، حاشية رقم ٣ .
(٣) للرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

الأراضي المحولة - ويضمها إلى أراضي الأوقاف العامة لينفق إيرادها على إنشاء المجلس الجديد الذى شرع فى تكوينه بعد إلغاء نظام الانكشافية . وسار على هذه السياسة السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩)

وحدث تحول هام فى نظام الإقطاع ونظام الإلتزام فى بلاد الشام فى أثناء العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣١ - ١٨٣٩) خلال الحكم المصرى لهذه البلاد . فقد كان من الطبيعى - بعد أن نجح محمد على فى إلغاء نظام الإلتزام فى مصر ونجح فى فرص التجنيد العسكرى الإيجابى - أن ينجح هذا النهج بشقيه فى بلاد الشام . فعمد إلى إلغاء الإقطاع الحربى وإلى حل القوات العسكرية الإقطاعية وإلى تجريد السكان من السلاح بالقوة دون تفرقة بين الأشراف والأعيان وبين عامة الشعب . وعمد محمد على أيضاً إلى إدخال نظام التجنيد العسكرى الإيجابى وإلى إلغاء نظام الإقطاع ونظام الإلتزام وإلى منح الفلاحين حق وضع الشكوى على الملتزمين ، وأعلن المساواة بين جميع الطوائف والمذاهب . ولكن لما انتهت فترة الحكم المصرى فى بلاد الشام عادت الأمور إلى أوضاعها السابقة على الرغم من أن الدولة أعلنت فى وثيقتين هامتين صدرت فى سنة ١٨٣٩ ، ١٨٥٩ سبق أن أشرنا إليهما ^(١) وسعمود إليهما بمدحين ، إلغاء نظام الإلتزام وتقرير التجنيد لجميع رعايا الدولة بدون تمييز بسبب الدين أو الجنس أو المذهب .

الإقطاع الحربى والإلتزام فى العراق :

إذا انتقلنا من بلاد الشام إلى إقليم عثماني آخر هو العراق نجد أن الدولة العثمانية طبقت فيه كلا النظامين : الإقطاع العسكرى والإلتزام . ولم ينجح النجاح المرتجى بسبب ضعف الحكم العثماني فى الولايات الأربع التى كان يتألف منها العراق بعد أن استكملت الدولة العثمانية فتحها للبلاد العراقية . وكانت هذه

(١) انظر ص ٩٦ - ٩٨ فى هذا الدراسة .

الولايات هي الموصل^(١) ، وشهر رور (كردستان)^(٢) ، وبنداد^(٣) ، والبصرة^(٤) . وكان ظهور المصيبات المحلية في العراق من الأسباب التي أدت إلى عدم نجاح كلا النظامين ، وكذلك الصدام الذي كان يحدث بين القوات الإقطاعية وقوات الإنكشارية . وكانت الدولة تحشد قوات كثيفة المدد من الإنكشارية في المدن الكبرى في العراق ، وظهور المالك كمصيبة حاكمة في بنداد . وكان من نتائج هذه العوامل مجتمعة أن أصبح فرسان الإقطاع العسكرية - تبار وزعامات - يتهربون من الخدمة العسكرية . وكان من بين الدرائم التي سبقت لتجريد مسلحتهم الملمحة كثيرة الحروب المتعاقبة التي كانت تخوضها الدولة تبعاً سواء فارس في جهتين أو ضد دول أخرى في أوروبا ، فكانت هذه الحروب تجبرهم على الابتعاد فترات طويلة عن إقطاعاتهم ، وكانوا يخشون انخفاض دخلهم من هذه

(١) كانت ولاية الموصل تمتاز عن بقية الولايات العراقية بتطبيق نظام الإقطاع العسكري فيها بكثره لم يهددها إلا الولايات الأخرى في العراق .

الطر .

دكتور عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا . القاهرة ، ١٢٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ، ص ٧

(٧) كانت لمائة شهر زور مليشه بالإمارات والمشار السكرديه السنية . وقد شدت أوزر الدولة لعماليق أنماه المروب المارسية الألمانية . وكان من بين هذه الإمارات : الإمارة الصورانية ، والبدينية ، والبائية . وقد اعترفت الدولة الألمانية بحكم المصيبات المحلية ، واتهم الأملر بأبساد هذه المصيبات بالساطم ولم يدللواي الألماني ساطمات لعلية يمارسها هناك .

(٣) كانت ولاية بنداد أم الولايات العراقية حتى أن ولاية البصرة هبطت إلى مجرد مقاطعة تابعة لبنداد في أوائل القرن الثامن عشر ، كما أصبحت ولاية شهر زور تحت إشراف ولى بنداد .

(٤) لم تطبق الدولة نظام الإقطاع لسكردية في ولاية البصرة ، بل جعل بها الأحباء . وسرعان ما أصبحت الأحباء تحت حكم المشار . أما البصرة فقد تبادل حكمها الولاة العثمانيون وشيوخ المتفق .

الإقطاعات التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم . ويضاف إلى هذه الأسباب سبب آخر هو أن عدداً كبيراً من أصحاب الإقطاعات العسكرية كانوا من غير أهل العراق، إذ كانوا بصفة خاصة من المسكرين الأراك، فكانوا يولون وجوههم شطر إستانبول ، وكانت مشاعرهم مرتبطة بها أكثر من ارتباطها بولايات العراق ، وادلك كان دورهم في تاريخ العراق ضعيف الأثر أو دوراً هامشياً .

ونسئل نظام الإنترزام في العراق - كما نسلل في مصر - إلى مختلف نواحي الدخل الحكومي مثل الأراضي الزراعية أو الجمارك . وكانت المدن والقرى تتمتع بالإنترزام، كما كان شيخ المشربة يلتزم بجمع الأموال الأميرية من أفراد عشيرته^(١) . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر تعرض الاقتصاد الدثاني لهزات عنيفة وتدهورت قيمة العملة المثانية وارتفعت الأسعار . ولجأت الحكومة إلى زيادة الضرائب ، لجأ الملتزمون بدورهم إلى نفس الوسيلة ، وأرهبوا الفلاحين من أمرهم عسراً ، وفرضوا مزيداً من الضرائب والرسوم الجزافية التعسفية . وتكدست الأموال في أيدي الملتزمين ، وظهرت في المجتمع العراقي طبقة جديدة من كبار الملتزمين جمسوا بين الأراء العريض والنفوذ الكبير وأطلق عليهم « أعيان مملكت »^(٢) ، ومارس أفراد هذه الطبقة شبه سيادة إدارية ومالية وقضائية على المناطق التي تولوا أمرها في الوقت الذي كانت في حاجة ماسة إلى مزيد من الأموال للإنتقاا العسكري .

محاولات إلغاء نظام الإنترزام:

ذكرنا أن نظام الإنترزام قد اختل من مصر كاية على يد محمد علي في سنة

(١) دكتور عبد العزيز سليمان نوار ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٠

(٢) أي أعيان البلاد كما يترجمها الأستاذ برنارد لويس .

انظر :

١٨١٤ . ولكن ظل هذا النظام قائماً في سائر أو معظم ولايات الدولة ، ثم صدر في ٣ من نوفمبر (تشرين ثان) ١٨٣٩ « خطي جلخانة » ، وقد تقرر فيه إنشاء نظام الإلتزام . وقد حمل هذا الفرمان السلطاني حملة عنيفة على نظام الإلتزام وأبرز بعض عيوبه ونمته بأنه أداة من أدوات الخراب لأنه عبارة عن تسليم المصالح السياسية والأمور المالية في منطقة ما لإدارة أحد الناس . وقد يسئ هذا الشخص استخدام سلطاته إذا كان رجلاً شريراً ولا ينظر إلا لتحقيق مصالحه . وخلص للرسوم إلى أنه من الضروري أن يحل محل نظام الإلتزام نظام جديد يتقرر بمقتضاها لرض ضريبة على كل مواطن في المجتمع النهائي ، وأن يتحدد مقدار هذه الضريبة في ضوء ثراء اللواتن وإمكانياته ، وبذلك يكون في حكم الاستحالة تحصيل مبالغ من المواطنين أكثر مما هو مقرر عليهم (١) .

وفي شهر ديسمبر (كانون أول) ١٨٣٩ صدر قانون تقرر فيه أن يجمع أحكام الولايات اعتباراً من أول مارس (آذار) ١٨٤٠ الضرائب القانونية فقط

(١) هذا هو النص المرص في الجزء الخامس بنظام الإلتزام وضرورة إلغائه كما ورد من الرسوم السلطاني خطي شريف جلخانة .

“A fatal custom still exists, although it can only have disastrous consequences; it is that of venal concessions, known under the name of *iltizam*.

“Under that name the civil and financial administration of a locality is delivered over to the passions of a single man; that is to say, sometimes to the iron grasp of the most violent and avaricious passions, for if that contractor is not a good man, he will only look to his own advantage.

“It is therefore necessary that henceforth each member of Ottoman Society should be taxed for a quota of a fixed tax according to his fortune and means, and that it should be impossible that anything more could be exacted from him ...”.

وأن يتولى جميعها مدنيون، وأن كل موظف سوف يتقاضى مرتباً معيناً ثابتاً، وأن الترقية في الوظائف الحكومية تقوم على أساس الجدارة والكفاءة^(١). وقد لقيت الإصلاحات التي يصممها خطى جلخانة وبمجموعة القوانين التي أعدت مسدوره معارضة عنيفة من مختلف طوائف الشعب - مسلمين ومسيحيين - وكان أن صدر في مستهل سنة ١٨٤٩ قرار بمنزل مصطفى رشيد باشا رائد الإصلاح العثماني. وتوقف العمل بالنظم الجديدة وعادت الحكومة إلى نظام الإلتزام وإلى الحكم بالمسكربين وسهبت حياة الضرائب الدينين، اعتماد هؤلاء المسكربون مهمة جمع الضرائب في فبراير (شباط) ١٨٤٢. ولما عاد رشيد باشا إلى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦ استعادت حركة الإصلاح نشاطها السابق^(٢).

وصدر في ١٨ من فبراير (شباط) ١٨٥٦ مرسوم سلطاني يعرف باسم خطى هاميون. وقد أكد المرسوم الجديد المبادئ التي وردت من قبل في خطى جلخانة ومنع معاً بآناً تدخل الموظفين وأعضاء المجالس في أن يشتركوا في أي إلتزام كخطوة نحو القضاء على هذا النظام نهائياً.

وعلى الرغم من تلك المحاولات المكرورة فقد ظل نظام الإقطاع الحربي والإلتزام قائمين في عدد من الولايات العثمانية. ففي بلاد الشام باشرت الدولة بعد صدور خطى جلخانة بحصيل الضرائب من الفلاحين واعتمدت على موظفين في خدمتها حلوا محل أصحاب الإقطاع الحربي والمنتزعين. وكان هؤلاء الموظفون يتبعون دفتردارية الولاية وهي الإدارة المالية فيها. ولا يمكن لم يقدر لهذا النظام أن يؤتي ثماره المرجوة لقلّة عدد الموظفين ذوي الأمانة، فعاد نظام الإلتزام مرة أخرى بعد الحد من مساوئته. وأصدرت الدولة في سنة ١٨٥٨ قانون الأراضي

(١) Lewis Bernard, The Emergence etc., op. cit., p. 385

(٢) عدل رشيد باشا من منصب الصدارة العظمى في سنة ١٨٥٢. وقد توفي سنة

١٨٥٨. انظر لحة سريعة عنه في المرجع السابق، ص ١٥٥ - ١٥٦.

العثماني وبمقتضاه قسمت الأراضي في الولايات العثمانية خمسة أقسام هي الأراضي المملوكة ، والأراضي الأميرية . وكانت تعتبر ملكاً لأصحاب الإقطاع الحربي (التيجار - اژامت) وقد أُنيت وأصبح التصرف فيها للدولة لتبيع منها ما تريد لمن تريد ، والأراضي الموقوفة ، والأراضي المتروكة ، والأراضي الموات . وليست هذه الدراسة محالا لشرحها ، ولكن حينما أن نذكر أن إصدار هذا القانون الذي جاءت صياغته في ١٣٢ مادة وخاتمة كان محاولة جادة لسيطرة الدولة على أراضيها^(١) . وفي سنة ١٨٦١ صدر قانون تسجيل الأراضي المعروف باسم الطابو .

أما في العراق فكانت الأراضي في مطلع القرن التاسع عشر تنقسم إلى عدة أنواع منها :

- ١ - أراض عشائرية .
- ٢ - أراض التيجار و اژامت وهي إقطاعات عسكرية .
- ٣ - أراض أميرية ملك الدولة وكانت تشكل معظم مساحة العراق الزروعة .
- ٤ - أراض ملك للأفراد .

وقد عشن نظام الإقطاع العسكري على نحو من الأنحاء في أراضي التيجار و اژامت ، بينما بقي نظام الإلتزام مطبقاً في الأراضي المشاركة والأميرية ، إذ كان الشيخ يسند إليه إلتزام ديرة عشيرته في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية . أما في الأراضي الزراعية مثل منطقة المنتفق فقد طرح إلتزام ديرة المنتفق والزابية منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وكان الشيخ التي يقدم أكبر عرض مالي يحصل على إلتزام الديرة واستمر هذا الأسلوب مقبلاً حتى جاء مدحت باشا إلى العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢) ووضع نظاماً جديداً . فقد قام بتوزيع الأراضي الأميرية على الأهالي بأسما منخفضة تشجيعاً للملكية الفردية . ولكن لم تسفر

(١) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .

هذه المحاولات عن النجاح الذى كان يرجيه لها ، فقد كانت الأموال ووفرة لدى شيوخ المشائر وكبار الموظفين والمثائر والتجار فأقبلوا جميعاً على شراء الأراضي الخصبة ، وظل الفلاح المراق يبيداً عن الملكية الزراعية . ومن ناحية أخرى خصصت ديرة لكل عشيرة يدفع شيخها عنها مبلغاً من المال كان يوضع في المزايدة كل سنة . وظل هذا النظام المالى المشائرى معمولاً به حتى توقف في أواخر القرن التاسع عشر . وفي خلال فترات التحول من نظام الإلتزام إلى نظام الملكية الفردية استطاعت إدارة البلاط السلطاني - الإدارة السنية - أن تستولى على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، ولكنكم - أخصت لاقبود المالية التي فرضت على أراضي السلطان بسبب توقفه عن دفع الديون وبخاصة بعد مرسوم سنة ١٨٨١ ، ثم صدر في سنة ١٨٩٠ فرمان يجعل أراضي الدولة كلها ملكاً للسلطان . وقد ثبت أن هذا فرمان لم يطبق من الناحية الفعلية، وإن ظل قائماً من الناحية النظرية . وظل الأمر على هذا النحو حتى قامت الحرب العالمية الأولى .

ونخلص من هذا المرض إلى أن الصفة الإقطاعية كانت خصيصة بارزة من خصائص الدولة العثمانية وكانت لصيقة بها في معظم مراحل حياتها عبر العصور ، والأدهار .

الفصل السابع

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (١)

من تلك الخصائص العامة الست التي تميزت بها الدولة العثمانية ، كما وضحت في مجالات التطبيق العملي في أرجاء الدولة ، وهي الخصائص العسكرية ، والدينية ، والمالية ، والحكم المطلق ، والبطيئة ، والإقطاعية ، ويمكن أن نستخلص السياسة العليا للدولة في ضوء هذه الخصائص ومن معالم التاريخ العام للإمبراطورية العثمانية خلال المصور المتعاقبة التي عاشتها .

أولاً : أن تكون دولة الإسلام الكبرى :

جهدت الدولة العثمانية من نفسها دولة الإسلام الكبرى بعد أن عقدت لها زعامة العالم الإسلامي منذ أن خاضت بنجاح في أوائل القرن السادس عشر الصراع الحربي ضد الدولة الصفوية في فارس ، ثم نجاحها في القضاء على دولة المماليك الشراكسة في الشام أولاً ، وفي مصر ثانياً ، وبسط سيادتها على إقليم الحجاز ، فدخلت في حوزتها أهم الأماكن للقدسة الإسلامية على الإطلاق ، وهي : الكعبة الشريفة ، في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي ، في المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ، في بيت المقدس ، ثم منيها في سياسة التوسع الإقليمي في البلاد الإسلامية ومنطقة الشرق الأوسط وفي شمال إفريقيا حتى إقليم الجزائر . وقد سبق هذا التوسع في البلاد الإسلامية ثم صحبه ، ولحقه ، توغل الدولة في قلب أوروبا ، وضمها أقاليم أوروبية شاسعة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة إلى

دار الإسلام ونجاحها في انتزاع بعض الجزر في البحر المتوسط والتي كانت تمتد قواعد عسكرية صليبية أو جيوباً صليبية تهدد أمن الدولة في هذا البحر مثل جزيرة رودس ، وقد طردت منها فرسان القديس يوحنا ، ومواجهتها بتكتلات دولية أوروبية صليبية كان بابا روما يرأس بعضها . وكان الجنود المئانيون يحملون السلاح في أيديهم ويحملون العقيدة الدينية في قلوبهم . ونظر العالم في ذلك الوقت إلى الحروب التي كانت تخوضها الدولة ضد الدول المسيحية في أوروبا على أنها حروب مقدسة ^(١) ، وأضفى هذا النشاط على الدولة الطابع الديني .

وتمددت صور هذا الطابع الديني في السياسة العليا للدولة من اتخاذ السلاطين لقب «حامي الحرمين الشريفين» تأكيداً للزعامة الدينية للدولة على العالم الإسلامي، ثم اتخاذ لقب «خليفة» لنفس النرض ، ونجاح الدولة في إدخال تعديل على اتفاقية الأستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨) الخاصة بحرية المرور في قناة السويس كان من شأنه إعفاء السفن الحربية المئانية من القيود المفروضة على سفن الدول المتحاربة إذا كانت الدولة في صدد الدفاع عن ممتلكاتها الإسلامية في الحجاز واليمن . ^(٢) ومن بين هذه الصور أيضاً تيسير أداء فريضة الحج أمام الراغبين فيه ، وتنظيم أربع قوافل رئيسية كل سنة تبدأ مسيرتها من أنحاء الدولة وتنتقل بالحجيج تحت حراسة عسكرية مشددة ، ثم الدعوة إلى حركة الجامعة الإسلامية ، وإنشاء مسكة حديد الحجاز . وقد ظل الطابع الديني الإسلامي غالباً على السياسة العليا للدولة حتى إبان الحرب العالمية الأولى . وهكذا جعلت الدولة المئانية الدين

(١) Lewis Bernard: The Emergence etc., op. cit., p. 26.

(٢) دكتور عبد العزيز محمد الفتاوى :

الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتى قناة السويس وإبريد الجديدة .

بحث منشور في حوليات كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد الثاني والعشرون .

المجلد الأول . سنة ١٩٦٠ ومطبوع سنة ١٩٦٤ ص ١٠٣ - ٩٤ .

من دعائم الدولة ، وعبأت الشهور الديني الجارف في أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية ، وعملت على إعلاء شأن الشريعة الإسلامية ، وأضفت على رجالها الكثير من الرعاية والنفوذ والامتيازات ، وأنشأت هيئة كانت من أقوى الهيئات في الدولة هي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وشجعت التصوف وطوائف الدراويش .

وكان من مبادئ السياسة العليا للدولة في القطاع الديني أيضا منع تسال المذهب الشيعي إلى منطقة الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا . وقد جعل العثمانيون من أنفسهم حماة للمذهب السني في العالم الإسلامي .

ثانياً : جعل البحر الأحمر بجزراً إسلامياً مطلقاً :

جعلت الدولة البحر الأحمر بجزراً إسلامياً مطلقاً في وجه السفن غير الإسلامية . فكان يحرم عليها تجاوز موقع ميناء عفا في اليمن . وكانت أمثال هذه السفن تفرغ حمولتها في هذا الميناء ، ويماد شحنها في سفن إسلامية تبحر بها إلى جدة أو يلبع أو السويس أو غيرها من موانئ البحر الأحمر . وبذلك أغلقت هذا البحر في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي الذي حاول أن يتسلل من باب المدب إلى الأقاليم الإسلامية التي تطل على هذا البحر من شاطئيه . وكان البحر الأحمر لا يزال مطلقاً في جزئه الشمالي ، لأن قناة السويس لم تكن قد أنشئت بعد . ولتلك انصرف اهتمام الدولة إلى مدخله الجنوبي عند باب المدب . وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح في الفصل الأول من هذه الدراسة .

ثالثاً : نشاط حكومي محدود :

انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : الحرب ، والدين ، والحكم على أساس النظام البيروقراطي ، والزراعة . ولم تباشر نشاطاً يذكر في مجالات

الصناعة والتجارة ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين^(١) . ولم تهتم بتحصين المواصلات مثل إنشاء الطرق البرية أو حفر القنوات للملاحة أو إصلاح الموانئ ، كما أنها لم تبد اهتماماً بالنهوض بالتعليم العام بصنفة عامة بين رعايا ولاياتها ، ولم تضع لهم في برامجها رعاية الصحة العامة ، أو ما يسمى الطب الوقائي ، فضلاً عن الطب العلاجي ، وبمباراة أخرى أغفلت الدولة إقامة منشآت ومرافق عامة تسهر على تحسين أوضاع الرعايا الصنانيين من النواحي الاقتصادية والصحية والاجتماعية والثقافية وما إليها . وكانت الدولة العثمانية تسهر في هذا الصدد على النهج الذي كانت تسير عليه الدول الأوروبية ودول الشرق بصفة عامة في تلك العصور قبل أن يشرق عصر النهضة في مطلع العصور الحديثة على دول أوروبا الغربية . ولكن يؤخذ على الدولة العثمانية أنها لم تواءم التطور الذي طرأ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنظم السياسية والإدارية في الدول الأوروبية من حيث نوعية وحجم الخدمات التي تؤديها هذه الدول للجمهور . ولما حاولت الدولة العثمانية الأخذ بهذه الاتجاهات جاءت محاولاتها متأخرة وفي وقت كان الاضمحلال قد دب في أوصالها وبات العلاج متعذراً .

مارست الدولة سلطانها في نطاق ضيق للغاية لم يتجاوز عدة قطاعات ، مثل المحافظة على الأمن الداخلي ، وجمع الضرائب بطريقة غير مباشرة مثل نظام الالتزام في الريف ، ونظام الطوائف في المدن ، ثم تنظيم القضاء . وقد جعلت إجراءاته وأحكامه متمشية مع مبادئ المذهب الحنفي الذي اتخذته الدولة مذهباً رسمياً لها . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنواع القضايا الجنائية والمدنية والأحوال الشخصية ، كما كانت ولاية القضاء الجنائي والمدني تمتد إلى جميع القيمين في الدولة لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عثماني وأجنبي . واستمر

Lewis Bernard; The Emergence etc., op cit., p. 26. (١)

هذا النظام القضائي الشامل تغطي مملكته جميع المقيمين في أنحاء الدولة حتى أخذت الدولة بنظام الامتيازات الأجنبية Capitulations ويستند هذا النظام إلى معاهدات عقدتها الدولة مع الدول الأوروبية واستهدفت تنظيم حياة رعايا هذه الدول المقيمين في أملاك الدولة بحيث جعلت لهم هذه المعاهدات كياناً شبه مستقل عن السلطات العثمانية الحاكمة .

هذا اللطاق الضيق الذي مارست فيه الحكومة العثمانية سلطانها على رعاياها جعل الحكم العثماني سطحياً متحرجاً من أن يتغلغل في حياة الجماهير من ناحية ، كما جعل الجماهير من ناحية أخرى لا تشعر بمحاجتها إلى الاتصال البيوي المباشر بالسلطات العثمانية للتعامل معها . فكان كل فرد يلوذ بشيخ الطائفة التي ينتمي إليها ، وهو رئيس المهنة أو الحرفة التي يزاولها ، ويعرض عليه مشكلاته ليعمل على تسويتها ، سواء بنفسه أو بالاتصال بأولى الأمر . ولذلك قيل إن الفرد في الأقاليم التي دانت للحكم العثماني كان بولد وييشي ويعوت دون أن يشعر في يوم ما بالحاجة إلى مقابلة أحد من الحكام العثمانيين

وبحجم عن ذلك أن الدولة لم تحاول في البلاد التي تتحتها أن تقيم نفوذها على أسس علمية من الاستعمار المنتج ، وهي الأسس التي أرساها الاستعمار الأوروبي بمد ذلك لصالحه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين قبل أن ينقشع من البلاد التي حضنت له سواء في العالم الإسلامي أو في غيره من البلاد الإفريقية والآسيوية . وتأسيساً على هذه الحقيقة كان الحكم العثماني بعيداً عن استغلال الشعوب أو اعتصار مواردها الاقتصادية . كانت إستانبول تستوفى نصيبها من الجزية السنوية المقررة على الولايات العثمانية ، وكانت كل ولاية تنفق الباقي من الموارد المالية الحكومية في داخل الولاية ذاتها . وإذا أخذنا مصر مثالا لولاية عثمانية نجد أنها لم تكن إبان الحكم العثماني

مزرعة لإستانبول، كما كانت في أثناء الحكم الروماني مزرعة لروما تمدها بالحبوب،
أو كما كانت إبان الاحتلال البريطاني مزرعة أقطان تمد المصانع الإنجليزية في
مانشستر وليفربول وغيرها بالقطن لصناعة المنسوجات القطنية .

رابعاً : الاهتمام على المسكرين في الحكم كأهل ثقة :

استخدمت الدولة رجالها المسكرين كأهل ثقة تعلمون إلى ولائهم في تولد
معظم المناصب المدنية في حكومات الأقاليم التي فتحها . وقد سبق أن ذكرنا
أنه كان للجيش العثماني وظيفتان : الحرب والحكم . وقيل في هذا العدد إن
الجيش العثماني كان بمثابة حملة معدنية نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب ،
ونقشت على الوجه الآخر لفظة الحكم . وكان لهذه السياسة - وهي إثارة
العسكريين بالمناصب المدنية القيادية والتوسطة آثار سيئة . كان أولئك
العسكريون على درجة كبيرة من الاستعلاء والغرور والجهل بالمسائل الفنية .
وكان من نتائج هذه السياسة أن حدثت عزة بين الحكام والمحكومين ، واندمت
الثقة بين الطرفين . وانصرف معظم المدنيين من الأركان العثمانيين عن الاشتغال
بالسياسة والحكم ، فلم يكن لدى الدولة رصيد من الكفايات المدنية لاستخدامها
في دفع مجة الإصلاح . ولم يدرك الصالحون إلا في وقت متأخر عواقب هذه
السياسة غير الحكيمة .

خامساً : تجنب إدخال تعديلات جذرية تمس النظم القائمة :

لم تعرض الدولة على الأقاليم التي فتحها تعديلات جسيمة تمس النظم
الأساسية القائمة فيها إلا ما كان يتعارض منها مع سيادة الدولة ، فكانت في هذه
الحالة تدخل تعديلات تمشي أو تتخذ أو تساند « الوجود العثماني » ، وفيما عدا
ذلك تركت رعاياها يمارسون حياتهم وفق الأسلوب الذي ألفوه من قبل محافظين
على لغاتهم وثقافتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، لا يضيرهم إلا الظلم التي كانت

تفها عليهم من الحكام المحليين في عصر انحلال الدولة وتدهور نظمها .
وأكثر من هذا، تركت لبعض العناصر الأصلية نصيباً في حكم البلاد مع وضع
ضمانات تسهل لها الحفاظ على السيادة والسيطرة والحصول على الجزية المقررة .
أما تمويل الشعوب المسيحية في الأقاليم الأوروبية التي فتحها النابليون إلى
الإسلام فقد تأرجحت السياسة العليا للدولة تجاه هذه المسألة . كانت تارة تحمّل
الرعيا المسيحيين على اعتناق الدين الإسلامي ، وتارة أخرى تسكتني بتشجيعهم على
الدخول في الإسلام بمدحهم امتيازات مادية وأدبية ، وتارة ثالثة تقف موقفاً
سلبياً أو حادياً . وستتناول هذه المسألة بشيء من التفصيل في الفصل التاسع
لأنها أكثر التصاقاً بموضوع عثممة الشعوب التي دانت لحكم النابليون .

سادساً : بسط السيادة النابلية على المضائق والبحر الأسود :

مارست الدولة سيادتها على المضائق ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وتعمد
بالمضائق The Straits في تاريخ الدولة النابلية البوسفور وبحر مرمرة
والدردييل ، فهذه كلها في الواقع تشكل مضيقاً طبيعياً واحداً يوصل بين البحر
الأسود وبحر إيجه الذي هو جزء من البحر المتوسط . وليس للبحر الأسود
مخرج آخر غير تلك المضائق الطبيعية ، فالبحر الأسود يتصل بالبحار العامة
والحيطات عن طريق تلك المضائق .

وقامت السياسة العليا للدولة النابلية على ممارسة سيادتها كاملة على المضائق .
واستمدت في هذه الممارسة على القاعدة القانونية التي تقول إنه إذا كان المضيق
واقفاً في أرض دولة واحدة ، وكان اتساعه لا يزيد على ستة أميال فإن مياهه
تعتبر مياهاً إقليمية وتتبع هذه الدولة . وإذا زاد اتساعه على ستة أميال فإنه
لا يدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من
ناحيته ، على أنه يجوز اعتبار المضيق كله في هذه الحالة نادماً للدولة صاحبة

شاطئيه ، إذا كان العرف قد جرى بذلك^(١) . ومارست أيضاً سيادتها على البحر الأسود استناداً إلى أن هذا البحر كان يعتبر جزءاً من أملاك الدولة .

وقد نجحت الدولة العثمانية في فرض سيادتها على البحر الأسود ما بقيت الدولة قوية شاذخة ، فكان لها حرية التصرف كاملة بخصوص الملاحة في البحر الأسود والبرور منه وإليه . وكانت تمتحه لسفن بعض الدول باتفاقات خاصة استثنائية^(٢) .

كانت مسألة المضائق - بوجه خاص - مشكلة دقيقة ، بل كانت صورة حساسة لتركز الدوالة العثمانية من حيث القوة والشموخ ، أو الاضمحلال والضعف . ففي العصور التي كانت هذه الدولة خلالها قوية مهيبة الجانب استطاعت فرض سيادتها على المضائق والبحر الأسود واحترمت الدول هذه السيادة إلى حد أنه إذا أراد الرعايا الروس ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن يتفادوا بضامهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني . وفي العصور التي اضمحلت فيها الدولة ووضع ضعفها تعرضت لضغوط سياسية حيناً وعسكرية أحياناً من الدول الأوروبية التي تسابقت فيما بينها للظفر - في معاهدات سنشير إليها - بحقوق لسفنها التجارية والحربية بالبرور في المضائق وبالملاحة في البحر الأسود في زمن السلم ووقت الحرب . وقد بلغ الهوان بالدولة أنها اعترفت في إحدى المعاهدات بأن الدفاع المسكرى عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين روسيا مما يعد انتهاكاً لسيادة الدولة العثمانية وعملاً بسياستها العليا . وكان هذا الانتهاك هو الدرك الأسفل من الضعف الذي هوت إليه . وكان صرده إلى

(١) الدكتور محمود سامي جيتينه بكه - القانون الدولي العام . القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٣٠ .
(٢) دكتور عبد الله رشوان ، المركز الدولي لفتاة السويس ونظائرها . القاهرة ، ١٩٣٦ - ١٩٥٠ م ، ص ٢٨١ .

المزائم العسكرية التي تماقت عليها والأخطار التي جشمت عليها وضعف شخصية
سلطين الفترة الثانية^(١) ، وهكذا أصبحت «سأة المضايق بمثابة الترمومتر أو
القياس الذي تقاس به قوة الدولة العثمانية أو ضعفها .

واختلعت مسألة المضايق بالسياسة الدولية ، وأصبحت هذه المسألة تشكل
ركناً أساسياً في علاقات الدولة العثمانية بالدول الأوروبية منذ السبعينات من
القرن الثامن عشر ، بل غدت المضايق من أبرز مشكلات السياسة الدولية ،
واحتلت مكان الصدارة في خطط الدول وتمكيز رجال القانون الدولي العام وفي
مؤلفاتهم . وفي القرن التاسع عشر كان يضرب للثل بالمضايق على أنها أم
المشكلات الدولية ، وأنها سبب اضطراب العلاقات الدولية وإزعاج الدول
الأوروبية . وما يذكر في هذا الصدد أن لورد إلنبورج وEllenborough وهو يترش
على مشروع قناة السويس قال في مجلس اللوردات بجملة ٦ من مايو (إيار) سنة
١٨٦١ « إن بوسفوراً واحداً - أي المضايق - كان مبعث متاعب كثيرة لنا . وإني
اعتقد أن هذا المشروع - قناة السويس - الذي نحن بصددده ، إنما هو محاولة لإنشاء
بوسفور آخر ووضعه في أيدي الفرنسيين » .^(٢) وقد رددت الصحافة الإنجليزية
هذا الرأي ، وذهبت إلى أن قناة السويس ليست إلا بوسفوراً فرنسياً^(٣) .
وقد يقال إن مرور السفن الحربية والسفن التجارية مسموح به في قناة السويس
وفق بروتو محددة في اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨)
ومع ذلك فليس في مرور هذه السفن - ساس بسيادة مصر على قناتها وأراضيها .
ولكن حين يصل الأمر إلى أن تعترف الدولة العثمانية بأن الدفاع عن المضايق هو

(١) ستكام في الفصل المباشر عن اثنين أو طائفتين أو مجموعتين من سلطين الدولة ،
١٥ - سلطين الفترة الأولى وسلطين الفترة الثانية .
(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي . قناة السويس والبيارات السياسية التي أحاطت
بهاهاها . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧١ ص ١٤٢ .
(٣) المرجع السابق .

عبء يقع على عاتق هذه الدولة والروسيا معاً، فهذا هو المساس الصريح بسيادة الدولة على المضائق، وهو خروج على السياسة العليا للدولة. ومع ذلك فإن قناة السويس سبق أن تعرضت لمثل هذا الوضع الموهين في معاهدة غير متكافئة (٢٦ من أغسطس - آب - ١٩٣٦) تقرر فيها أن تتولى القوات البريطانية بالاشتراك مع الجيش المصري الدفاع عن القناة وكفالة حرية الملاحة فيها وسلامتها التامة، وأن ترابط القوات البريطانية في منطقة القناة ومناطق أخرى، وأن يظل هذا الوضع دائماً وما يستتبعه من استمرار الاحتلال البريطاني حتى تتفق بريطانيا ومصر على أن الجيش المصري أصبح في حالة يستطاع أن يكفل بمفرده الدفاع عن القناة وحماية أمنها.

* * *

الفصل الثامن

السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٢)

سيادة الدولة على المضائق والبحر الأسود بين المعاهدات الثنائية والجماعية والتطبيق العملي

تكلمنا في الفصل السابق عن حرص الدولة العثمانية على بسط سيادتها على منطقة المضائق والبحر الأسود ، واعتبار هذه السيادة عنصراً جوهرياً من عناصر السياسة العليا للدولة . ونمر في هذا الفصل مروراً سريعاً على أهم المعاهدات التي ورد فيها ذكر لهذا الموضوع ، والتي أبرمتها الدولة بحريتها واختيارها مع غيرها من الدول ، أو التي فرضت عليها فرضاً في أعقاب هزائم عسكرية نزلت بها ^(١) . وبمعنى آخر ، سواء كانت هذه المعاهدات التزاماً بسيادتها العليا أو خروجاً عليها ، وسواء كانت معاهدات ثنائية *traités bilatérales* أو معاهدات جماعية *traités collectifs* ونستق المادة العلمية لهذه الدراسة الوثائقية من واقع نصوص هذه المعاهدات . كما نشير إشارة عابرة إلى بعض الأحداث العسكرية الهامة التي تبرزت لها منطقة المضائق من جانب بعض الدول الأوروبية الكبرى ، ومدى مساهمة الأتراك العثمانيين واستبسالهم في الحفاظ على سيادة دولتهم على هذه البحبات .

(١) تجلّت آراء فقهاء القانون الدولي العام فيما يقرب من بعض المعاهدات من عنصر الإكراه القوي هو أحد عيوب الرضا ، وهي الخطأ ، والتدليس ، والتبني ، والإكراه . وبذلك تفرق بينهم على أن الإكراه يبطل للمادة بطلاناً نسبياً .

(١) معاهدة بلجراد ١٧٣٩ :

لما بدت في الأفق السياسي نذر اضمحلال الدولة العثمانية حاولت روسيا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر إنعاش وجود عسكري بحري لها على الساحل الشمالي للبحر الأسود كقائمة لخطوات تالية نحو بسط سيطرتها العسكرية على منطقة المضائق وعمكين سفنها الحربية والتجارية من عبور البوسنور والدرديبل وقت السلم وضمن الحرب دون أية قيود أو شروط أو عوائق انطلاقاً إلى الوصول إلى البحار الفاتحة . وكانت الوسيلة لتحقيق أهدافها القريبة والبعيدة هي السيطرة على مصاب بعض الأنهار التي تصب في الساحل الشمالي للبحر الأسود مثل نهر دنيستر Danister ، بيج Bug ، دنيبر Dnieper ، دن Don ، كوبان Kuban ، واشتملت في سنة ١٧٣٥ الحرب بين الدولتين . وأختفت روسيا في تحقيق أهدافها ، وعقدت معاهدة بلجراد في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر - أيلول - ١٧٣٩ ، وتقرر فيها الاحتفاظ بالحدود القديمة للدولتين كما حددها المعاهدات المعقودة من قبل بينهما (المادة ٢) ، كما تقرر هدم قلعة آزوف Azov ، وأن تترك الأرض المقامة عليها هذه القلعة في داخل الحدود التي رسمتها معاهدة سنة ١٧٠٠ ، وأن تستخدم كحاجز بين الدولتين . وسمحت المعاهدة كتعويض للروسيا بأن تبني قلعة جديدة على مقربة من الجزيرة الواقعة في نهر دون بالقرب من آزوف ، وأن يسمح للدولة العثمانية بإقامة قلعة بالقرب من آزوف ، كما تقرر عدم السماح للروسيا ببناء أو إبقاء أساطيل لها أو سفن أخرى في البحر الأسود (المادة ٣) ، كما قررت المعاهدة أن يمارس رعايا روسيا نشاطهم التجاري في البحر الأسود على سفن تركية (المادة ٩)^(١) .

(١) محمد التيس الرسمى والسكامل لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit. , vol. I. pp 47-51

ولقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إسطنبول في ٢٨ من ديسمبر -

كانون أول - سنة ١٧٣٩

وقد استمرت معاهدة باجراد سارية المفعول مدة تزيد على ربع قرن . وكانت خلالها أساس العلاقات بين الدولة العثمانية والروسيا ، إلى أن عقدت بين الدولتين معاهدة خطيرة هي كتشك كيفارجى .

(ب) معاهدة كتشك كيفارجى ١٧٧٤ :

جاءت معاهدة كتشك كيفارجى^(١) Kuuk Kaynarca ضربة قاسمة للسياسة العليا للدولة العثمانية فيما يخص بسيادتها على البحر الأسود والمضائق . عقدت هذه المعاهدة في اليوم الحادى والمشرين من شهر يوليو - تموز - سنة ١٧٧٤ . بعد حرب دامية استطاعت ست سنوات بين الدولة العثمانية والروسيا مغت فيها القوات المسلحة العثمانية بهزائم ألمية . وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية ممتدة إلى بحيرة عثمانية روسية بعد أن تقرر للروسيا الحق في إنشاء عدة قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل هذا البحر ، وبذلك أصبحت الروسيا إحدى دول البحر الأسود المعترف بها ، كما تقرر لها الحق في أن تستخدم سفنها التجارية المضائق للخروج من هذا البحر إلى البحار السامة والدخول منها إليه .

وتمت في معاهدة كتشك كيفارجى النصوص التي وردت بها خاصة بمسألتين : أولهما ، الحقوق الملاحية التي تقرر للروسيا في البحر الأسود والمضائق . وثانيتهما ، الوجود العسكري البحري والبرى الذى تقرر لها في البحر الأسود أما عن المسألة الأولى فقد تقرر أن تكون الملاحة في هذا البحر حرة ومفتوحة وغير مقيدة بشروط للسفن الروسية التجارية ، والتي يصبح لها الحق في حرية المرور في المضائق بين البحر الأسود والبحر المتوسط وحرية دخول الثغور والموانئ .

(١) كتشك كيفارجى اسم قرية صغيرة تقع على الضفة اليسى لنهر الدانوب بالقرب من سيلستريا Silistra .

الواقعة على سواحل البحر الأسود . كما قررت المعاهدة أن تسمح الدولة العثمانية للرعايا الروس بممارسة التجارة في جميع ولايات الدولة في البر والبحر وفي نهر الدانوب ، وأن يطبق السلطان العثماني على هؤلاء الرعايا نظام الامتيازات الأجنبية Capitulations الذي سبق له أن منحه لرعايا الدول الأكثر رعاية مثل بريطانيا وفرنسا ، وأن يكون للرعايا الروس الحق في استيراد وتمديد جميع أنواع البضائع وتفريغ شحنات سفنهم في كل تفود وموانئ البحر الأسود وفي سائر البحار الأخرى ، وأن تكون إستانبول من بين التفود التي يسمح للسفنهم بدخولها والمرابطة فيها لتفريغ شحناتها وشحن حمولات جديدة منها ، وذلك بمد دفع الرسوم المقررة (المادة ١١) .

أما السأله الثانية فقد قررت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة روسيا بصورة كاملة ودأعة ولا تقبل نقاشاً عدة قواعد ومواقع ، نذكر منها :

(أ) قلعة كيبيرن Kinburn التي تقع عند مصب نهر دنيبر Dniپر ، وأن يباحق بها القسم الواقع على طول الشاطئ الأيسر لهذا النهر وازواية التي تشكل الإقليم الصحراوي المحصور بين نهر دنيبر ونهر بوج Bug (المادة ١٨) .

(ب) قلعة جنيكال Jonical وقلعة كيرتش Kertach الواقعتين في شبه جزيرة القرم ، وأن تمتد هذه السيطرة إلى جميع موانئها والمنشآت القائمة فيها ، فضلاً عن جميع أجزائها وأقسامها التي تحيط بها القلعة ، ويحدها خط يبدأ من البحر الأسود وينتهي الحدود القديمة لقلعة كيرتش إلى مكان يسمى بوجاك Bugak ، ومن بوجاك يتجه الخط مستقيماً نحو الشمال إلى بحر آزوف (المادة ١٩) .

(ج) مدينة آزوف Azow بمنطقتها وحدودها التي وضعت سنة ١٧٠٠ (المادة ٢٠) .

وقد فاقت معاهدة كيتشك كينارجي جميع المعاهدات السابقة التي عقدت بين

الدولتين ، كما شكلت هذه المعاهدة نموذج العلاقات الثنائية الروسية إلى قيام الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ . كما أن الشروط المهيمنة التي فرضت على الدولة الثمانية في تلك المعاهدة قد أثارت مزيداً من الأطماع التوسعية ، كما أنها أوجدت مشكلات استعصى حلها في العلاقات بين الدولتين وفرضت ندمها فرضاً في مجال السياسة الدولية حتى منتصف القرن العشرين^(١) .

(ج) تعهد عثمانى للنمسا ١٧٨٤ :

وحصلت النمسا على حق الملاحة الحرة غير التقيده بشروط لسفنها التجارية في البحر الأسود و عبور هذه السفن المضائق . وقد حصلت عليها في وثيقة يطلق عليها *Senet* بمعنى « تعهد » أصدرها حاكم باشا الصدر الأعظم في اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير - شباط - سنة ١٧٨٤^(٢) .

(د) معاهدة تحالف دفاعي بين الدولة العثمانية والروسيا (١٧٩٨) .

ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ عقدت الدولة العثمانية مع الروسيا معاهدة تحالف دفاعي في إستانبول في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٧٩٨^(٣) .

وكانت مدة هذا التحالف الدفاعي ثمان سنوات . وفي مواد سرية مفصلة

(١) تعهد النمسا لفرنسا سنة ١٧٩٨ : Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. I, pp54-61

وقد استبعد الأستاذ هورويتز منها المادة (١٦) والفقرة الأولى من المادة (٢٤) بقوله أنهما تخصان البلقان .
وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٢٤ من يناير - كانون

نيسان - سنة ١٧٧٥

Noradounghian Gabriel; Recueil d'actes internationaux de (٢)
l'Empire Ottoman. 4 vols. Paris, 1897. Vol 1., pp. 379-386

(٣) تذكر بعض المراجع أن هذه المعاهدة قد عقدت في ٣٠ من يناير - كانون ثان - ١٧٩٩

شهدت فيها روسيا بأن عمدة الدولة العثمانية بائنتى عشرة قطعة حربية، وإذا تطلب تطور الحوادث الحربية تميز القوات العثمانية فإنها تمددها بقوات برية يتراوح عددها بين خمسة وسبعين ألفاً وبين ثمانين ألف جندي روسي . وفى مقابل هذه المساعدات العسكرية الروسية شهدت الدولة العثمانية « هذه المرة فقط » بمنح روسيا الحق فى أن تمر سفنها الحربية فى المضائق مروراً حراً^(١) .

وقد عقدت هذه المعاهدة على عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) والقيصر بول الأول (١٧٩٦ - ١٨٠١) . ويقول أحد المؤرخين الأمريكيين تعليقاً على سماح الدولة العثمانية للسفن الحربية الروسية بعبور المضائق إن بول الأول قيصر روسيا استطاع أن يعتمد الطرف الرفيع المدب لسيفه فى باب السلطان بمقدمة معاهدة التحالف الدفاعى مع السلطان سليم الثالث . ويمضى متهاكماً ليقول إن الفضل فى عقد هذه المعاهدة يرجح إلى نابليون وحملته على مصر^(٢) . والحق أن تصرف السلطان سليم الثالث كان خروجاً على السياسة العليا التى سار عليها أسلافه . وكانت تموزه رباطة الجأش ، إذ كان مترجعاً إلى أبعد حدود الاتزجاج بسبب احتلال فرنسا لمصر . وكان أول احتلال عسكري أووونى مسيحي لولاية عثمانية إسلامية فى التاريخ الحديث .

(هـ) «تحرير» عثمانى لبريطانيا (١٧٩٩):

ولم نكد تمر بضعة أشهر على عقد هذه المعاهدة حتى أصدر السلطان سليم الثالث مذكرة رسمية يطلق عليها «تحرير» ومؤرخة فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٧٩٩ منع فيها بريطانيا حرية الملاحة فى البحر الأسود لسفنها التجارية وكذلك حق عبور هذه السفن المضائق^(٣) .

(١) نصرت المواد الملتنة فى معاهدة التحالف العثمانى الروسى و :

Noradounghian G. ; op. cit., Vol 2, pp. 24-27

والمواد المرفقة فى Hurewitz J.C. ; op. cit. vol. 1, p. 65

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, p 72 (٢)

rtalet E., Turkey Treaties. p. 270 (٣)

ويلاحظ أن هذا الإذن كان مقصوراً على السفن التجارية، ولم يشمل السفن الحربية على الرغم من أن بريطانيا كانت تعتبر الدولة البحرية الأولى في غرب أوروبا.

(و) معاهدة سلام بين الدولة النمانية وفرنسا (١٨٠٢) :

ولما عاد السلام إلى أوروبا مؤثناً عقب عقد صلح Amiens بين فرنسا وبريطانيا في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٢ استطاعت فرنسا أن تعيد علاقاتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة النمانية ، فسقطت معها معاهدة سلام Treaty of Peace في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيو - حزيران - سنة ١٨٠٢ ، وكان أهم ما جاء فيها خاصاً بموضوع المضايق أن الدولة النمانية منحت فرنسا لأول مرة الحق في أن تأسس سفنها التجارية والتي تحمل العلم الفرنسي حق عبور المضايق والملاحة في البحر الأسود ودون أن تقام في وجهها عوائق ، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة معاملة السفن التجارية التي تبصر في البحر الأسود والتي تنجم الدول الأخرى (المادة ٢)^(١)

(ز) تجديد معاهدة التحالف الدفاعي بين الدولة النمانية وروسيا (١٨٠٥) :

استطاعت روسيا في سنة ١٨٠٥ أن تجدد معاهدة التحالف الدفاعي مع الدولة النمانية والتي كانت قد عقدت ككامر بنا في سنة ١٧٩٨ . وقد تقرر تجديدها لمدة تسع سنوات بتأييد الحكومة البريطانية . وفي ظل هذا التجديد نجحت روسيا في أن تتفرد من الباب العالي امتيازات أشد خطراً من أية امتيازات سابقة منحها الباب العالي لروسيا . فقد اعترفت الدولة النمانية في المعاهدة المجددة

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة و :

Hurewitz J.C. : op. cit., vol. I, pp. 71-72

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في باريس في ٨ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٠٢ .

التي أبرمت في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٠٥، بأن الدفاع عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة تقع من حيث المبدأ على عاتق الدولة المئانية والروسية .

اشتملت المعاهدة على جزئين: جزء معلن في أربع عشرة مادة، وجزء سرى يقع في تسع مواد . والجزء الأخير هو الذى يدخل في نطاق هذه الدراسة . نصت المادة الأولى في فقرتها الأخيرة على أن يسمح السلطان المئانى للسفن الحربية الروسية وناقلات الجنود بعبور المضائق زمن الحرب . وجاء في المادة الرابعة أن يقصر الروسيا قدر قدر باسمه واسم خلفائه من بعده سلامة الجزر الأيونية والقدود عنها من كل اعتداء خارحى . ولما كان الموقف السياسى و شبه الجزيرة الإيطالية يجعل من الضرورى استمرار الاحتلال الروسى للجزر الأيونية، فإن هذا الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التى دعت إليه لاثزال قائمة . وتهدت الحكومة المئانية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية عبر المضائق من أجل خدمة وتأمين القوات الروسية التى تحتل الجزر الأيونية ، ثم جاءت المادة السابعة في الملحق السرى أخطر اللواد على الإطلاق إذ نصت على أن الدولتين المئانية والروسية، وقد قررتا إغلاق البحر الأسود بحيث لا يسمح بأن تمر عبر المضائق السفن الحربية التابعة للدول الأخرى، فإن كل محاولة من جانب دولة أخرى مهما كانت لانتهاك هذا القرار يمتبر عملاً عدائياً موجهاً للدولتين المئانية والروسية . وعلى ذلك فهما يتمدان باستخدام كل قواهما البحرية في وجه كل سفينة حربية وكل سفينة تحمل مواداً حربية تحاول دخول البحر الأسود .

The Two Contracting Parties, having agreed on the closure of the Black Sea, declare that any attempt by any Power whatsoever to violate it shall be considered a hostile act against them. Consequently, they pledge to oppose with all

their naval forces the entrance into that sea of every vessel of war and every ship carrying military stores⁽¹⁾.

ويلاحظ أن النسخة الروسية لهذه الماهدة حامت مختلفة عن النسخة التركية. وقد نشر الأستاذ هيورويتز Hurewitz باللغة الإنجليزية كلا النصين عن النسخة التركية والنسخة الروسية التي نشرها هنا مترجمة أولاً إلى اللغة العربية بتصريف « إن الطرفين الساميين المتصادمين يوافقان على أن يكون البحر الأسود بحراً مغلقاً ، ولا يسمحان بأن تظهر في مياهه أية سفينة حربية أو أية سفينة مسلحة لأية دولة مهما كانت . وإذا حاولت أية سفينة أن تظهر مسلحة في داخل هذا البحر ، فالطرفان الساميان المتصادمان يعتبران مثل هذه المحاولة باعتماداً ، ويتمين عليهما مقاومتها بكل قواهما البحرية . ويعبران هذه المقاومة هي الوسيلة الوحيدة التي تسكفل أمنهما للقبائل والمشارك ، ومن المفهوم أن المرور الحر في المضائق سوف يستمر بالنسبة للسفن الحربية الروسية والنقل الحربي الروسي . ويجب في كل الأحوال على الباب السالي أن يقدم إلى حضرة صاحب الجلالة إمبراطور جميع الروس كل المساعدات والتسهيلات التي قد يحتاج إليها » .

The Two High Contracting Parties agree to consider the Black Sea as closed and not to permit the appearance therein of any flag or armed vessel of any Power whatsoever, and if any should attempt to appear therein arms, the Two High Contracting Parties undertake to regard such an attempt as a *casus foederis* and to oppose it with their naval forces, as being the only means of assuring their mutual tranquillity ; it is understood that the free passage through the canal of Constantinople will continue in effect for the vessels of war and military transports of His Imperial Majesty of All the Russias, to which in each instance the Sublime Porte will furnish every assistance and grant every facility that may be required.⁽²⁾

(١) تجد النص الرسمي لهذه الماهدة أعوادها المعلقة وموادها السرية في :

Hurewitz, J. C., op. cit., vol. 1., pp 72-77

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه الماهدة في استانبول في ٢٩ من ديسمبر/ كانون أول - سنة ١٨٠٥ .

Loc. cit., p. 76. f. 1

(٢)

التطورات الدولية ساعدت الدولة على إنهاء المعاهدة الجائرة :

كان تقرير هذا المبدأ - الدفاع المشترك عن المضائق - في مقدمة الأخطاء المصارخة التي سقط فيها السلطان سليم الثالث ودليلاً على حقنه السياسي . فلم يحدث من قبل أن منع سلطان عثمانى لروسيا هذا الحق الذي يشكل خروجاً تاماً على السياسة العليا للدولة . وقد خفف من خطورة هذه المعاهدة غير المتكافئة أن التغييرات السريعة التي طرأت على الموقف العسكري والسياسي في أوروبا في سنة ١٨٠٦ قد عجلت بإنهاء العمل بتلك المعاهدة، وأطاحت بهرى التحالف الثلاثي بين الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا ، كما أدت إلى تدهور الدردنيل والبوسفور لاقتحام من جانب الأسطول البريطاني .

انتصارات نابليون العسكرية :

أحرز نابليون انتصارات عسكرية رائعة على النمسا في موقعة أولم ULM في ٢٠ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٥ ودخل فيينا في ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - ثم انتصر انتصاراً ساحقاً على القوات النمساوية والروسية في موقعة أوسترليتز Austerlitz أو موقعة الأباطرة الثلاثة في ١٣ من ديسمبر - كانون أول . وقد تقهقر فيصير روسيا إلى بلاده، وأكره إمبراطور النمسا على التوقيع على معاهدة برسبرج Pressberg في ٢٦ من ديسمبر - كانون أول - وتنازل فيها لفرنسا عن أقاليم أوروبية هامة^(١)، كما كان لهذه المعاهدة نتائج بالغة الأهمية، وجاء في

(١) يكلف من شروط هذه المعاهدة تنازل النمسا لفرنسا عن البندقية ، وفلاشيا ، وأوكرانيا ، والتجول .

أعقابها أحداث خليعة^(١). واتصر نابلون أيضاً على روسيا في موقعة بينا Jona في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٦ ، ودخل برلين في ٢٧ من ذات الشهر . وأصدر مراسيم برلين في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ وهي المراسيم التي اشتهرت باسم النظام القاري Le Blocus Continental ، وبها أعلن نابلون حصار الجزر البريطانية وحرّم على جميع الدول الأوروبية الخاضعة أو الموالية له فتح موانئها للتجارة معها . وبمقتضى هذه المراسيم تكون السفن البريطانية التي تدخل موانئ فرنسا أو موانئ حليفتها عرضة للمصادرة . وكان لهذه الانتصارات الحربية من حيث حجمها ومن حيث أهمية مواقع الأقاليم التي استولى عليها نابلون ما جعل نفوذه يعلو علواً كبيراً عصف مبدأ التوازن الدولي في القارة الأوروبية .

أسداء الانتصارات في إستانبول:

وكان لانتصارات نابلون العسكرية والسياسية أسداؤها في إستانبول إذ غداً للنفوذ الفرنسي في دوائر الباب العالي للصدارة والتغلب على نفوذ سائر الدول الكبرى . وتضائل نفوذ روسيا في العاصمة العثمانية إلى حد بعيد حتى لم يمد للاتصالات إيتالينسكي Italsnsky السفير الروسي وزن كبير في حوار الباب العالي . وأخذت هذه الدوائر تدقق حتى روسيا في مرور قواتها في البوسفور والدرديل

(١) كان من بين نتائجها وأحداثها اللاحقة اعتراف النمسا في ١٢ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٦ بآعاد الراي Confédération du Rhin الذي تكون من بافاريا ، وورتمبرج Wurttemberg ، وبادن Baden ، وغان ولايات أخرى ، وكبير سفاري الإمبراطورية الألمانية (أمير كارل دالرش) ، ووسع هذا الاتحاد تحت حاية فرنسا - ومن نتائج للماهدة أيضا إجبار إمبراطور النمسا في ٦ من أغسطس - آب - سنة ١٨٠٦ على التخلي عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك زال إلى غير رجعة هج هذه الدولة الكبيرة .

انظر تفصيلات وافية من للوقت الدول في أوروبا في سنتي ١٨٠٦، ١٨٠٧ م : دكتور محمد مؤاد عسكري: الصراع بين البورجوازية والإقطاع (١٧٨٩ - ١٨٤٨) مجلدات، الماهر دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، المجلد الثاني ، الفصل الثالث ، ص ١٠٥ - ٦٨ .

بعد أن بسملت فرنسا سيطرتها على إيطاليا وبعد أن أصبح نفوذ روسيا في الجزر الأيونية سراباً . وقد ذهب الباب العالي في موقفه العدائي من روسيا إلى حد أنه ألقى في شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٦ جميع الامتيازات التي كانت ممنوحة أو مقررة من قبل للبحارة الروس . وتدخل شارل أرثوت Charles Arbutnot السفير البريطاني لتأييد زميله السفير الروسي . ولكن كان النفوذ البريطاني في إستانبول قد تضائل بل وصل إلى الحضيض ، وطلب السفير البريطاني من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضائق لتسانده في اتصالاته مع دوائر الباب العالي . وكان الجنرال سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسي قد وصل في ١٠ من أغسطس - آب - عام ١٨٠٦ إلى إستانبول حيث ظفر باستقبال رسمي حافل غير مسبوق بمثال . واستبان للسفير البريطاني المكافئ العاليه التي يتبوأها سرياً السفير الفرنسي في دوائر الباب العالي ، فكتب إلى حكومته في ١٥ من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٦ يقول إذا لم تتحرك بريطانيا بأساطيلها فإن الفرنسيين سيقومون بتمزيق الاستحكامات العسكرية في المضائق ، ويكون هذا العمل موجهاً ضد بريطانيا . وقد تحققت تلبؤات السفير البريطاني في الأيام القليلة التالية . فقد قدم السفير الفرنسي مذكرة في ١٦ من سبتمبر - أيلول - إلى الباب العالي طلب فيها إغلاق البوسفور والدرديل في وجه السفن الحربية الروسية ، وقرر فيها أن عدم الاستجابة لهذا الطلب يكون عملاً عدائياً موجهاً ضد فرنسا . وفي هذه الحالة فإن القوات الفرنسية الزاحفة الجرداء ، والرابطة في إيطاليا ، سوف تجتاز الأقاليم الثمانية لمهاجمة الروس . وقال إن كل تحالف جديد أو استمرار العمل بتحالف قديم بين الدولة الثمانية وبين أعداء فرنسا مثل بريطانيا والروسيا لن يكون نقضاً صريحاً لمبدأ الحياد ، ولكنه بهد إسهاماً إيجابياً واضحاً من جانب الدولة الثمانية في الحرب التي تشنها بريطانيا وروسيا على فرنسا .

وأكد السفير الفرنسي في مذكرته أن الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة إلى اتخاذ إجراءات تتمشى مع مصالحها ومع كرامتها، وأن القوات الفرنسية الكثيفة للرابطة في ملاشيا - وهي قوات مقصودتها أساساً للدفاع عن الإمبراطورية العثمانية ضد أطماع بريطانيا والروسيا - ستوجه إلى أغراض تتعارض تماماً مع جذورها مع الفرض الأول الذي من أجله أرسلت إلى ملاشيا .

الدولة تتسوخ مهادتها مع روسيا وبريطانيا:

وصل التفويض الفرنسي في إستانبول إلى الأوج حين أقدمت الحكومة العثمانية بإبرادتها المفردة وفي يوم واحد هو ١٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ على فسخ معاهدة التحالف الدفاعي المجددة بينها وبين روسيا في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٥، فكانت هذه المعاهدة الجائرة ظلت نافذة بعد تجديدها ثلاثة عشر شهراً واحداً وعشرين يوماً . كما أقدمت الدولة العثمانية في ذات اليوم وإبرادتها المفردة على فسخ معاهدة التحالف الدفاعي الموقعة بينها وبين بريطانيا في الخامس من يناير - كانون ثان - سنة ١٧٩٩ .

ومن المبادئ المجمع عليها في القانون الدولي العام أن فسخ المعاهدة بالإرادة الانفرادية لإحدى الدول الأطراف فيها أمر غير جائز طالما أن المعاهدة لا تتحول أطرافها هذا التصرف تأسيساً على أنه يؤدي إلى زوال الاستقرار في العلاقات الدولية، ويعمل الدول في حل من تنفيذ التزاماتها الدولية متى شاءت، ويسلب المهادتات قدسيته، ويعمل بقاءها أو انقضاءها متوقفاً على السلطة التحكيمية الانفرادية للدول الأطراف فيها. ومن ناحية أخرى فإن الدولة التي تتسوخ المعاهدة بإرادتها الانفرادية تستند عادة إما إلى حق الضرورة، وإما إلى خرق الطرف الآخر لأحكام المعاهدة، والنتيجة العملية لفسخ المعاهدة تقتضى الإرادة الانفرادية هي أن ينهى الأمر إلى الخروج من دائرة القانون إلى دائرة السياسة والأمر الواقع *le fait accompli* ويؤدي في

غالبية الأحيان إلى تغلب الدولة التي تتوفر لها أسباب القوة المادية^(١) . ويبدو من العلاقات التي أحاطت بهذا الإجراء أن الدولة العثمانية قد أقدمت على نسخ معاهدتها مع روسيا وبريطانيا بتشجيع من فرنسا وشموراً منها بأن أحكام هاتين المعاهدتين تتعارض مع سياستها العليا في بسط سيادتها كاملة على الضائق والبحر الأسود .

وكان هذا الإجراء الدبلوماسي اللزدوج من جانب الدولة العثمانية مقدمة لقطع العلاقات بينها وبين كل من روسيا وبريطانيا وقيام الحرب . ونفسلاً نبحت دبلوماسية نابليون في أن تبحر الدولة العثمانية إلى الحرب ضد روسيا في عام ١٨٠٦ وسند بريطانيا في عام ١٨٠٧ :

بريطانيا رسل أسطولاً يقتحم الضائق:

على أن الحكومة البريطانية أقدمت قبيل قطع العلاقات مع الدولة العثمانية وقبيل مفاداة السفير البريطانى والرايا البريطانيين إستاقبول على عدة إجراءات ردت بها على الدولة العثمانية وعلى نابليون . كانت الوزارة القائمة فى الحكم هى وزارة جرنفيل Greenvile ، وقد جاءت إلى الحكم فى شهر فبراير - شباط - عام ١٨٠٦ خلفاً لوزارة ولييم بت Pitt ، وواجهت الموقف الدولى المضطرب والشائك . وأصدر وندهام Windham W. وزير الحربية فيها مذكرة مؤرخة فى ٢١ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٦ واعتبرها سرية للغاية إلى الجنرال بوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية فى جزيرة صقلية ، وكان مما جاء فيها « إن بعض التصرفات التى صدرت عن الباب العالى أحياناً جعلت اتحاد إجراءات سرية وحاسمة تجاه الحكومة العثمانية أمراً ضرورياً لا غناء عنه . ولذلك فقد كلفت بإبلاغكم أن أوامر قد صدرت إلى لورد نائب الأدميرال كولينجود Vice-Admiral lord Collingwood لإرسال قوة كافية من سفن حاضرة صاحب الجلالة ، تحت قيادة ضباط ذوى مقدرة وتجارب ، وإعطائهم تمهينات بأن

(١) ج. كيزور حامد سلطان : القانون الدولى العام فى وقت السلم . العاجرة ، ١٩٦٢

يتقدموا دون إضاعة لحظة واحدة من الوقت إلى مضائق إستانبول حيث يتخذون موضعاً يتبع للأسطول ممارسة أعمال عدائية ضد إستانبول في حالة فشل الماسي التي كاف محتر آرثنوت Mr. Arbutnot (السفير البريطاني) للقيام بها لدى الحكومة العثمانية^(١).

وقد وقع الاختيار على أحد كبار ضباط البحرية وهو نائب أمير البحر سير جون دكورت Vice - Admiral Sir John T. Duckworth لتسيادة الأسطول للتوجه إلى الدردنيل والبوسفور . وعهد إليه أن يلتقي الأسطول صراسية في مياه البوسفور تجاه العاصمة في مظاهرة عسكرية بحرية تأييداً لموقف السفير البريطاني في إستانبول، وأن يقدم إلى الحكومة العثمانية مذكرة بمطالب الحكومة البريطانية ، ومن بينها أن يقطع الباب العالي علاقته مع الحكومة الفرنسية ، وما يترتب على هذا القطع من مطالبة السفير الفرنسي بمغادرة إستانبول، وأن يتبع الباب العالي خطة سياسية جديدة تقوم على التعاون ودعم العلاقات بين الحكومتين البريطانية والعثمانية ، أي أن الحكومة البريطانية أرادت إجراء ما يسمى «مفاوضات مسلحة» armed negotiations مع الباب العالي لفرض مطالبها عليه . فإذا رفض الباب العالي الأخذ بما جاء في المذكرة البريطانية ، اعتبر هذا الرفض دليلاً على أن الحكومة العثمانية ماضية في تعاونها مع باريس ومصممة على موقفها العدائي من بريطانيا . وفي هذه الحالة يقوم دكورت قائد الأسطول بتبليغ هذا الرفض إلى الجنرال فوكس Fox القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية ، فيسارع الأخير إلى إرسال جزء من قواته إلى الإسكندرية لاحتلالها كي تتخذ بريطانيا من الإسكندرية نقطة ارتكاز لتحركات القوات البريطانية في الحوض الشرق البحر المتوسط ضد فرنسا ضد الدولة العثمانية^(١) . وكانت بريطانيا تعتقد أن نابليون يماود الكرة

Douin G. et Mme Fawtier E. G.; L'Angleterre et L'Egypte. (١)
La Campagne de 1807. Le Caire, 1928; doc. No. 1, pp. 1-2

لتحقيق أحلامه في الشرق وتنفيذ أطاعه في تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية، كما كانت تعتقد أنها ارتكبت خطأ عسكرياً وسياسياً فاحشاً حين وافقت على الجلاء عن مصر تنفيذاً لصلح أميان Amiens (٢٧ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٢) وقد تم الجلاء في مارس ١٨٠٣ ثم استؤثفت الحرب بين بريطانيا وفرنسا بعد ذلك بشهرين. فكان ذلك الإجراء الحربى البريطانى ذو الشقين - انتقام المنايق لتقديم المطالب البريطانية كي يأخذها الباب العالى أو احتلال الإسكندرية، يقوم على استخدام الضغط ووسائل التخويف مع الحكومة العثمانية لجلها على نصم عرى «التحالف» مع فرنسا^(١). وقد عبرت وزارة الحرب البريطانية عن أهدانها من هذه الإجراءات العسكرية بأنها «أرادت إكراه الباب العالى على التناقص من نفوذ فرنسا وجمه على إعادة علاقته مع بريطانيا المظلمى والروسيا».

“... to compel the Porte to shake off the influence of France and to return to her connexion with Great Britain and Russia”.^(٢)

الأسطول البريطانى يقتحم المنايق:

تمسكن دكوث من عبور المردنيل وبحر مرمرة والبوسفور دون عناء، ورسا بأسطوله أمام إستانبول في ١٩ من فبراير - شباط - سنة ١٨٠٧ كما سبق أن ذكرنا. ويلاحظ أن هذه هى المرة الوحيدة التى دخل فيها الأسطول البريطانى منطقة المنايق

(١) دكتور محمد مؤاد شكرى: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١ ثلاثة أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٢) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.; op. cit. وثيقة رقم ٥٤، ص ٦٦ - ٦٨، مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ من لورد كاتلرليه وزير الحرب البريطانية إلى جنرال هوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية.

(م ١٤ - الدولة العثمانية)

وهو في حالة « غير سلم » ، وسنرى بعد قليل أنه محجز عن افتتاح مصيق الدردينيل سنة ١٩١٥ في أثناء الحرب المالية الأولى ، بعد هذا الحادث بأكثر من قرن من الزمان . ولا بلغ الأسطول مياه العاصمة كان شارل أربنتوت Charles Arbutnot السفير البريطاني قد غادرها ومعه جميع الرعايا البريطانيين ، كما رحل عنها من قبله إيتالينسكي Italinsky السفير الروسي . وقدّم قائد الأسطول البريطاني إلى الباب العالي مذكرة حكومته . وكان موقف الباب العالي ضيقاً حرجاً . ولم يكن حرج مركز الحكومة النمانية راجعاً إلى أنها تفضل إحدى هاتين الدولتين العملاقتين على الأخرى . وهذا هو خطأ المراجع الفرنسية . وكانت تود لو تركها لشأنها الإنجليز والفرنسيون معاً . ولكن كان الطرفان يضغطان عليها ضغطاً لا هوادة فيه وكان عليها أن تفكر ملياً في تقدير الموقف السياسي والعسكري ، وهل خطر الإنجليز أكثر من خطر الفرنسيين أو العكس . وصدت الحكومة النمانية إلى أسلوبها الدبلوماسي المألوف وهو التسوية . ولم يكن في مقدورها طرد الجنرال سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى ، لأن شخصيته كانت قوية ، ولأن نابليون في الغارة الأوروبية كان طاغياً ، وبخاصة بعد أن مد السيطرة الفرنسية إلى أقاليم في شرق أوروبا على مقربة من الممتلكات النمانية هناك . وانتهت الحكومة النمانية رأياً إلى أن فرنسا أشد خطراً عليها من خطر بريطانيا

ورأى قائد الأسطول أن الحكومة النمانية لا ترد على مطالبه ، وأدرك أن هذا الصمت هو رفض للمطالب البريطانية ، ثم كان ما هو أشد خطراً . إذ لاحظ أن أعمال التحصينات العسكرية على ضفاف البوسفور والدردينيل قائمة على قدم وساق ، وأن السفير الفرنسى يشرف عليها بشخصه ، فمسكر دكورت في الخروج من منطقة المضائق والدودة من حيث أتى قبل أن يتحرج مركزه وينلق الطريق على الأسطول . وكان تقدير دكورت للموقف الحربى سليماً ، فما كاد يتحرك للخروج من منطقة المضائق في طريقه إلى البحر المتوسط حتى ألفت مدنية

السواحل قذائفها على الأسطول وأسيبت بعض وحداته بمطب ، ولكنهما لم تنرق^(١) . وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ بمد أن استغلال مكثه و متعلقة المضائق نحواً من اثني عشر يوماً . وقد جاء في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ وضعها وزير الحربية البريطانية أن دكورت وجد نفسه مضطراً إلى الانسحاب بأسطوله من مياه البوسفور دون أن يحقق شيئاً ضد إستانبول . وعندئذ شرع دكورت ينفذ الشطر الثاني من خطة الحكومة البريطانية وهي إبلاغ الجنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية في جزيرة صقلية رفض الحكومة الثمانية الاستجابة للطالب البريطانية فيباد فوراً بإرسال حملة إلى مصر تحتل مدينة الإسكندرية . ويقع في خطأ المؤرخ الفرنسي الكبير إدوارد دريو Ed. Driault مدير معهد الدراسات النابوليونية في باريس حين يذكر أن بريطانيا لم تحتل الإسكندرية إلا بعد أن عجزت عن احتلال إستانبول ، وأنها أرادت أن تموض فشلها الحربي في مياه البوسفور بنجاح عسكري على ضفاف النيل^(٢) .

وقد جرد القائد العام للقوات البريطانية في صقلية حملة قوامها زهاء خمسة آلاف جندي^(٣) بقيادة فريزر Major-General Mackenzie Fraser ولم يكن جميع جنود الحملة من الإنجليز ، بل كان من بينهم عدد كبير من الجنود المرتزقة من الإيطاليين دخلوا خدمة الإنجليز^(٤) . وكانت لدى قائد الحملة أوامر صريحة بأن هدف الحملة هو احتلال الإسكندرية دون غيرها من البلاد المصرية^(٥)

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.; op. cit. doc. no. 24, 7th March, 1807. Duckworth to Fox.

(٢) Driault Ed; La Politique Orientale de Napoléon. Paris

(٣) Douin G. et Mme Fawtier-Jones E.C.; op. cit.,

وثيقة رقم ٧ ، ص ٦ .

(٤) الوثائق رقم ٩ ، ١٧ ، ٢٠ و المرجع السابق .

(٥) الوثائق رقم ١ ، ٧ ، ٩ ، ٣١ ، ٣٧ و المرجع السابق .

ولو كان الإنجليز يريدون احتلال مصر لما كان هذا العدد الضئيل يكفي لاحتلال البلاد، لأنهم كانوا قد مروا بتجربتين خلال سنوات قليلة سابقة^(١). ولما بانت الحملة الإسكندرية^(٢) في ٦ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ استولت على ثلاث قطع بحرية عثمانية كانت راسية في الميناء النهرى^(٣). وقد سلم المدينة إلى الإنجليز حاكمها أمين أغا ويسمى أيضاً أمين قبطان الكريتلى^(٤) بعد أن تمت شروط التسليم^(٥). واحتل الإنجليز الميناء والمدينة وقلاعها وضواحيها^(٦) وحققوا الهدف الأساسى للحملة .

(١) كانت التجربة الأولى عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ وكانت تتكون من ٢٥ ألف جندي ولم يكن هذا العدد كافياً لسط السيطرة الفرنسية التامة على مصر. وكانت التجربة الثانية عندما قرر الإنجليز الإسهام في إخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ وكان منهم ١٢ ألف جندي كما كان معهم جيش شتافي .

(٢) لم تكن الإسكندرية حتى سنة ١٨٠٧ تتبع إدارياً حكومة القاهرة ، بل كان يحكمها أحد السكرين وبهم مباحرة قبودن باشا ، أى قائد عام الأسطول الشتافي إلى إستانبول . وما يذكر أن أحمد حورشيد باشا - وهو آخر وال شتاف على مصر قبل عهد علي كان في أول أمره حاكماً على الإسكندرية ثم رقى والياً على مصر . وكان من نتائج احتلال الإنجليز للإسكندرية سنة ١٨٠٧ أن أصبحت الإسكندرية تابعة لحكومة القاهرة لإدارياً ، فكان عهد علي هو المستفيد الوحيد من حملة فريزر .

(٣) وثيقة رقم ٣١ مؤرخة في ٢٣ مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ في المرجع المذكور في الماشية رقم ١ ص ٢١١ -

(٤) يلاحظ أن قائد البحارة البحرية العثمانية التي كانت راسية في الإسكندرية واسمها صالحت للإنجليز كان يسمى صالح أغا قومندان البحرية .

(٥) نشر دوان بالقاهرة الإيطالية شروط التسليم ، الوثيقة رقم ٢٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ من المرجع السابق ، ونشرها مدرسة الأستاذ الدكتور محمد مؤلف شكري ، ج ٧ ، ص ٦٠٥ - ٦٠٦ ، ونشر الجبتي صورة من شروط التسليم كما صرحت لأهل القاهرة في ذلك الوقت . (الجبتي ج ٤ ، ص ٤٥ - ٤٦ حوادث محرم سنة ١٢٢٢ .

(٦) تضاربت الأقوال حول تاريخ تسليم الإسكندرية للإنجليز فنذكر هذه التواريخ ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ من مارس - آذار - ١٨٠٧ . لكن البلاغ الرسمى الذى أذاعته قيادة الحملة جاء فيه أن الاحتلال قد تم في يوم ١٦ مارس - آذار .

أظهر الوثيقة رقم ٢٦ ، ص ٢٢ - ٢٣ من :

وليست هذه الدراسة بحالا ابعدت الأسباب التي حملت قائد الحملة على مد العمليات الحربية إلى رشيد . وكان يزعم بعدها بعد ذلك إلى دمياط أيضاً^(١) .

(١) كان القنصل العام لبريطانيا في الإسكندرية - وهو الليجور ميسيت Major Misset رجلاً عسكرياً على درجة كبيرة من الخن والنفور والجهالة بالأسائل العسكرية . وكان من أنصار صم مصر لفر بريطانيا . وتمددت رسائله إلى الحكومة البريطانية في . المدة من سنة ١٨٠٣ إلى أوائل سنة ١٨٠٧ يطالبها باحتلال مصر . وأما بلقت الحملة الإسكندرية اعتقد لحقه أن هذه القوة البريطانية الضعيفة المدد تكفي لاحتلال مصر كلها . ولم يسكن بمر يومان على احتلال الإسكندرية حتى أرسل القنصل العام إلى مرزور يصف له خطورة الموقف المتدهور والحالة نظراً لقله المواد الغذائية في الإسكندرية مما يبرهن حياه الجنود للقط ، وذكر له أنه استطاع بمعبودة مبيير كمية من الأجوم تكفي لتزويد جنود الحملة يوماً واحداً ، كما مررت ذات المذكرة أنه استولى على جزء من القمح المخصص لاستهلاك سكان المدينة ، وأوضح له أن علاج النوب يتطلب ضرورة احتلال رشيد وارحمانية ودمياط وترك حاميات بريطانيا فيها . ولما انس القنصل العام من جانب قائد الحملة تردداً في تميمه اقتراحه ، أتب القنصل وقتاً من أعيان الإسكندرية لمقابلة مرزور وأوصحوه له القلق الذي يساورهم من نقص المواد الغذائية في المدينة . وذكروا له أنها تحصل على حاجاتها من داخل البلاد عن طريق الرحمانية ورشيد وانضم مرزور بهذه الأسانيد ، ووجد للضرورة الحربية قوة برية من الحملة وجهها إلى رشيد ولبقت البحرية ولقى مصرعه الميجور جنرال وشوب General Wanchope Major قائد القوة الإنجليزية ، كما قبضت أربعمائة جندي بريطاني . (٣١ من مارس - آذار - ١٨٠٧) ووصف مرزور حربه الإنجليزية في رشيد بأنها صعبة قاسية جدا وفيه متوقعة a very heavy and unexpected stroke upon us وأرسل قوة ثانية استهدفت عدة أغراض منها : الفرض التمويج ، التارابزعة رشيد ، والحفاظ على سمعة بريطانيا العسكرية ، وعهد تقيادها إلى الجنرال ستبولارت Stewart وألبت هزيمة منسكرة في معركة الحناد (٢١ من أبريل - نيسان - ١٨٠٧) وتراوح عدد القتلى والجرحى بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ وخرج مركز الإنجليز ، والقوة المتبقية لديهم لا يجاوز عددها ثلاثة آلاف ، أو لم يد لهم في مصر سدق أو طيب وتمدد على بريطانيا لإرسال نعدات لهم . فاستقر رأى قائد الحملة على تركيز كل قوائمه في الإسكندرية . ولم يشكر عمد على في مهاجمة الإنجليز . وقد ألقى كل من قائد الحملة والقنصل العام مسئولية الهزيمة في رشيد والحناد على الأمر ، وببدالا الاتهامات . وفي سياق الدفاع عن نفسه قال القنصل العام إن العالم يستعجب الدهشة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروي .

“... the world will be astonished to hear that such a town as Rosetta could not be taken by an European army.

وقد تم جلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في ١٩ من سبتمبر - أيلول - ١٨٠٧ وعادت إلى قواعدها في جزيرة سفلية .

بريطانيا تصرف النظر عن إعادة اقتحام المضائق :

تولى وزارة الحربية البريطانية لورد كاسلريه Castlereagh و ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٨٠٧ حاناً لوند هام Windham . وقد انتقد الوزير الجديد الأسلوب الذى اتبمه سافه و تنفيذ عملية اقتحام البودنيل والبوسفور وإرسال جيش لاحتلال الإسكندرية . وقد وضع مذكرة سرية مؤرخة في ٨ من مايو - أيار - سنة ١٨٠٧ بعث بها إلى جنرال فوكس القائد العام للقوات البريطانية و جزيرة صقاية استهلها بمرض الملاريا التى أحاطت بحملة دكورث إلى منطقة المضائق . وقال إنه من الواضح أن الأتراك العثمانيين قد قاموا بتعزيز الاستحكامات الدفاعية على سواحل منطقة المضائق منذ مدة طويلة سبقت إرسال حملة دكورث ، وقد قاموا بهذه التعزيزات العسكرية تحت إشراف الخبراء الفرنسيين ، كما أن العثمانيين استطاعوا حشد قوات كبيرة للدفاع عن إستانبول مما يجعل أية عملية حربية أخرى عديمة الجدوى إلا إذا استطاعت بريطانيا حشد قوات تفوقها عدداً وعدة وبشرط ألا يؤثر حشدها على سلامة جزيرة صقلية . وذهب وزير الحربية إلى أن مثل هذه القوات المطلوبة من حيث حجمها تفوق الإمكانيات المتاحة لبريطانيا في البحر المتوسط حتى لو انضمت القوات الروسية الرابطة في جزيرة كورفو إلى القوات البريطانية . وتأسيساً على هذه الحقائق استمر رأى الحكومة البريطانية على صرف النظر عن إرسال حملة أخرى إلى المضائق ، وقررت تشديد الحصار على موانئ الإمبراطورية العثمانية وتنسيق الخناق على تجارتها حتى تنود الحكومة العثمانية إلى صوابها وتستأنف علاقتها الطيبية مع بريطانيا^(١) .

(١) Douin G. et Mme Fawtier-Jones. E.C.; op. cit.

رأى الخبراء العسكريين في حملة دكوث :

و في تقرير نشر لأول مرة في سنتي ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ ^(١) جاء فيه أن وجه الغرابة في حملة دكوث إلى منطقتي المضائق أنها لم تسكن مصحوبة بقوات برية . وأن الجيش البريطاني الذي أرسل إلى الإسكندرية لاحتلالها كان يجب توجيهه أصلاً وأساساً مع الأسطول البريطاني إلى منطقة المضائق وإستانبول بدلا من الإسكندرية ، وأن هذا هو وجه الخطأ الذي وقع فيه المخططون لحملة دكوث . فإن وجود جيش مع الأسطول كان يسدى أجل الخدمات للحملة البريطانية ، لأن الجيش كان في استطاعته احتلال بعض النقاط أو المراكز الإستراتيجية في منطقة المضائق بحيث تؤمن هذه المراكز انسحاب الأسطول ، كما أن وجود جيش بريطاني كان يضمن مزيداً من الأهمية والتأثير حين ظهر الأسطول في مياه البوسفور تجاه إستانبول وبخاصة أن المفاوضات التي كان مزمعاً إجراؤها كانت مفاوضات مسلحة . وجدير بالذكر أن هذا الرأي الذي ورد في ذلك التقرير قد سبق أن أفصح عنه لوود كاسلبريه وزير الحربية البريطانية في مذكرة سرية مؤرخة في ٢٥ من أبريل - نيسان - سنة ١٨٠٧ والتي سبق أن أشرنا إليها .

تقسيم منطقة المضائق يحيط مشروع اقتسام الدولة :

من المشروعات التي فسرها نابليون عقب انتصاره على قوات روسيا وبروسيا في موقعة فريدلاند (Friedland) ١٤ من شهر يونيو - حزيران -

(١) عنوان هذا التقرير :

Notes on an Expedition to Alexandria in the Year 1807.

وقد نشر في United Service Journal ويتضح من دراسة هذا التقرير أن واضعه ، الذي لم يكشف عن شخصيته واكتفى باسم عام هو مايلز Miles ، كان معاصراً لأحداث حملة دكوث وأنه كُتِبَ في موضوعية وحيدة ودقة .

وقد أعاد نشر هذا التقرير الضال المؤرخ الفرنسي دوان ورميلته مدام فولير جونسون كتابها

L'Angleterre et l'Egypte, op. cit., pp. 183-235.

١٨٠٧) إعداد حملة برية فرنسية روسية مشتركة لتزو الهند . وسواء كان هذا المشروع يستهدف حقيقة غزو الهند أو كان مشروعاً خيالياً أراد به نابليون إرهاب بريطانيا لإجبارها على قبول السلم في أوروبا وفق الأوضاع التي أراد فرضها ، فقد اقترن هذا المشروع بمشروع آخر يرمي إلى تقسيم أملاك الدولة النمانية بين الدول الأوروبية الكبرى . وقد عرض فكرة هذا المشروع هاردنبرج Hardenbourg وزير خارجية بروسيا على كل من نابليون وقبصر روسيا إسكندر الأول . وكان الباعث له على تقديم هذا المشروع أن تعال بلاده - بروسيا - حظاً مضافاً من المكاسب والمزايا : فهي تستولى على نصيب من ممتلكات الدولة النمانية^(١) وفي ذات الوقت يشغل نابليون وقته وجهده في هذا المشروع فيبتعد عن مسرح الأحداث السياسية والمكترية في غرب أوروبا بعامة وبروسيا بخاصة .

ولم يرفض نابليون مشروع اقتسام ولايات الدولة النمانية لأول وهلة ، ولم يقبله لأول وهلة ، وهذا دائماً شأن الرجل السياسي الحصيف وشأن الرجل العسكري المتزن . وقد عهد إلى سفيره لدى قبصر روسيا بمناقشة موضوع اقتسام أملاك الدولة النمانية في حالة موافقة القيصر على مشاركة فرنسا في تسيير حملة برية مشتركة ضد بريطانيا إلى الهند . وقد وافق القيصر على اقتراح نابليون بخصوص الحملة المشتركة ، وكان قد تلقى خطاباً في فبراير - شباط - ١٨٠٨ أوضح فيه نابليون أهداف الحملة ومساها وقرائدها ، ثم انتقل القيصر والسفير الفرنسي لمناقشة الموضوع الثاني . ولكن لم تسكد تبدأ مناقشة التفاسيل حتى تصد الاتفاق

(١) جاء مشروع تقسيم أملاك الدولة النمانية عام ١٨٠٨ على النحو التالي :

روسيا : بافاريا - ولاشيا - مولدانيا - إستونيا مع البوسفور والدردييل
فرنسا : بلاد اليونان وجرر الأوشيل
النمسا : البوسنة والمهرسك وسائر أنحاء الصرب
بروسيا : سكسونيا
ملك سكسونيا : يستولى على بولندا بعد إعادة تكوينها ،

حول مسألة المضائق . فقد تمسك القيصر بأن تؤول إلى بلاده منطقة المضائق ،
بينما أمر السفير الفرنسي على أن تكون منطقة المضائق من نصيب بلاده .
ولما وصلت المناقشة إلى طريق مسدود اقترح السفير الفرنسي حلاً وسطاً من
وحدة نظره ، وهو أن تستولى روسيا على مدينة إستانبول والبوسفور الذي تطل
مياهه على العاصمة ويبدى ذات الوقت المخرج من البحر الأسود وأن تستولى
فرنسا على الدردنيل الذي يؤدي إلى البحر المتوسط . ومن المعروف أنه يقع على
مقربة من الدردنيل في هذا البحر مجموعة من الجزر ذات أهمية إستراتيجية بالغة
تجمل منها قواعد عسكرية من الطراز الأول . وقد رفض هذا الاقتراح ووصفه بأنه
غير عملي . وكان مما قاله إن أياً من البوسفور والدردنيل لا قيمة له بدون الآخر .
وكانت مسألة ملكية المضائق هي الصخرة التي تحطم عليها مشروع انضمام أملاك
الدولة العثمانية في عام ١٨٠٨^(١) .

(ح) معاهدة الدردنيل بين الدولة العثمانية وبريطانيا (١٨٠٩) :

كان صلح تلسيت Tilsit الذي أمضيت شروطه في السابع من يوليو - تموز -
سنة ١٨٠٧ بين نابليون وإسكندر الأول قيصر روسيا قد أطاح بالتقارب
البريطاني الروسي ، ومهد الطريق لقيام تقارب بين الدولة العثمانية وبريطانيا .
ومن ثم عقدت بين هاتين الدولتين في الخامس من شهر يناير - كانون ثان -
سنة ١٨٠٩ معاهدة الدردنيل ، أطلق عليها أيضاً معاهدة للسلام والتجارة
والتحالف السري Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance
وقد قررت هذه المعاهدة إعادة مريان المعاهدات والاتفاقيات التي سبق عقدها بين
الدولتين فيما يخص نظام الامتيازات الأجنبية والتجارة في البحر الأسود ،
واعتبار هذه المعاهدات والاتفاقيات سارية منذ إبرامها ، وكأنها لم تتعرض لفترة

توقف أو تعطيل أو الإناء (المادة ٤) ، كما نصت هذه المعاهدة على منع السفن الحربية في وقت السلم وزمن الحرب من عبور المضائق والدخول في البحر الأسود . وبذلك أصبحت بريطانيا أول دولة أوروبية تتمتع بحق الباب العالي في غلق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية في جميع الأوقات « بشرط أن تراعى كل دولة في المستقبل هذا النظام القديم في الإمبراطورية العثمانية »^(١) . وبذلك أكدت معاهدة الحدود نيل ركناً وثيسياً من أركان السياسة العليا للدولة العثمانية كانت تتمسك به في عصور قوتها .

(ط) معاهدة أدرنة بين الدولة العثمانية والروسيا ١٨٢٩ :

وتطورت الثورة التي قام بها الشعب اليوناني طلباً للاستقلال تطوراً أدى إلى نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا في السادس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ وانتهت بإبرام معاهدة أدرنة في الرابع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، ونصت على أن يكون للسفن الروسية التجارية من أي حجم الحق في المرور عبر المضائق وفي الملاحة في البحر الأسود وفي التمتع بحرية التجارة فيه ، كما تقرر هذا الحق بالنسبة للدول الأخرى التي تكون في حالة سلم مع الدولة العثمانية . ونصت المعاهدة أيضاً على أن تصبح ولاية الأقالق والبشدان - رومانيا حالياً - مستقلتين في إدارتهما الداخلية تحت حماية الروسيا^(٢) . وكان هذا النص تدعيماً لمركز الروسيا في البحر الأسود

(١) نجد النص الرسمي والكمال لهذه المعاهدة في :

Hurewitz, J.C.; op. cit., t, I, pp, 81-84.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إسطنبول في ٢٧ من يوليو - تموز - سنة ١٨٠٩ .

(٢) أصبحت الرابطة الوحيدة التي تربط هاتان الولايتان بالدولة العثمانية تنحصر في حق السلطان في تعيين أسراء الموسدار Hospodars المالكين ، ول دفع الحزبة السنوية لهاب العالي .

كإحدى دول هذا البحر، ونجم عن هذا النص أن تقلصت السيادة العثمانية عن جميع مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود^(١) مما يمد خروجاً على السياسة العليا للدولة .

(ي) معاهدة تجارة وملاحة بين الدولة العثمانية والولايات المتحدة

الأمريكية (١٨٣٠) :

وفي غمار أطماع بعض الدول وتطلعات البعض الآخر عقدت الدولة العثمانية مع الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارة وملاحة *Treaty of Commerce and Navigation* في السابع من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٠ تقرر فيها معاملة سفن الولايات المتحدة معاملة سفن الدول الأكثر رعاية وذلك بمنحها الحق في عبور المضائق والدخول إلى البحر الأسود والخروج منه سواء كانت هذه السفن محملة أو غير محملة^(٢) .

(ك) معاهدة هنكار إسكلسي بين الدولة العثمانية والروسيا (١٨٣٣) .

وعلى أثر الانتصارات التي حققها الجيش المصري على الجيش العثماني في حرب الشام الأولى عقدت الدولة العثمانية في الثامن من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٣٣ مع روسيا معاهدة تحالف دفاعي هي معاهدة هنكار إسكلسي *Hunkar Iskelesi* وكان النص الرسمي لهذه المعاهدة قد وضع باللغتين الفرنسية وحوال كل فريق يد ذلك في ترجمته لمراد المعاهدة أن يسرها طبقاً لمصاحته ،

(١) Miller, W.; op. cit., pp. 130—131.

(٢) نجد النص الرسمي والسكامل لهذه المعاهدة في:

Harewitz, J.C.; op. cit., t. I., pp. 102—106.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة في إستانبول في ٥ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٣٦ .

ونشأت عن ذلك ثلاثة تسعيرات مختلفة يطلق عليها ثلاث مدارس. ولن نخوض فيها في هذه الدراسة. وقد تقرو أن تكون مدة النجاة الدقاعى ثمانى سنوات . وقد أُلحقت بالماهدة مادة سرية نصت على أن يلقى السلطان المضايق في وجه أية سفينة حربية أجنبية ما عدا السفن الروسية الحربية التي يسكون لها وحدها دون سواها من السفن الأجنبية حتى عبور المضائق (١) . وقد أنشأت هذه الماهدة للروسيا مركزاً ممتازاً في الدولة العثمانية وعصفت بالسياسة العليا للدولة . ودخلت وحدات من الأسطول الروسى إلى البوسفور في شهر فبراير - شباط - عام ١٨٣٣ ثم قدمت حملة روسية بحرية وبرية إلى البوسفور وأذنت حكومة السلطان للقوات البرية في أن تمسك على الساحل الآسيوى بحجة حماية السلطان من واليه الشائر محمد على باشا . وكان عام ١٨٣٣ سنة مهمة لأن روسيا سيطرت فيها للمرة الأولى والأخيرة على إستانبول وعلى المضائق العثمانية . وإذا كان خطر محمد على قد ذهب إلى حين ، فقد ظل خطر الروس قابساً في منطقة المضائق عاصماً بالسياسة العليا للدولة .

وقد نظرت كل من بريطانيا وفرنسا إلى الماهدة على أنها أداة تمجيد من الدولة العثمانية دولة تسير في ركاب روسيا ، ولتلك بادرتا في السادس والعشرين من شهر أغسطس - آب - سنة ١٨٣٣ إلى الاحتجاج رسمياً لدى الباب العالي على عقد هذه الماهدة (٢) .

(١) محمد النور الرسمى لهذه الماهدة في

Hurewitz J.C., op. cit., vol. pp.105-106

وقد تم تبادل وثائق التصديق عليها في إستانبول في ٢٠ من أغسطس - آب - ١٨٣٣

Op. cit., p. 106.

(٢)

Miller W.: op. cit., pp. 147-148 .

(ل) معاهدة لندن بين الدولة العثمانية وأربع دول أوروبية (١٨٤٠) :

ون معاهدة لندن التي أبرمت في الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٤٠ بين الدولة العثمانية وبريطانيا والروسيا وبروسيا والنمسا لتسوية المسألة المصرية وإنهاء النزاع بين السلطان ومحمد علي - وقد انضمت فرنسا إلى هذه المعاهدة في الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ فأصبحت معاهدة جماعية سداسية - وردت في أكثر من موضع نصوص صريحة على أن الباب العالي يلتزم التزاماً دقيقاً بمنع السفن الحربية الأجنبية من المرور في المضائق . وجاء في هذه المعاهدة أنه إذا أتم محمد علي والى مصر على توجيه قوائمه البرية والبحرية للزحف على إستانبول ، فإن الدول الأطراف في المعاهدة توافق - بناء على الطلب العرشي الذي يصدر عن السلطان - على الاستجابة لطلبه وتتخذ الإجراءات لحماية عرشه عن طريق التعاون الذي يتم بموافقة مشتركة من الدول الموقعة على المعاهدة ، وبذلك تصبح المضائق وكذلك باقي الأراضي العثمانية في مأمن من كل اعتداء . كما تقرر أن تظل قوات الدول المتعاقدة مرابطة في مواقعها طالما كان وجودها أمراً يطلبه السلطان العثماني . وحين يرى الأخير أن وجود تلك القوات أصبح أمراً غير ضروري ، فلها أن تنسحب في وقت واحد وتعود إلى مواقعها الأصلية سواء في البحر الأسود أو البحر المتوسط (مادة ٣)

وورد في المعاهدة أيضاً أن التعاون المشترك بين الدول الموقعة عليها والمهدف إلى وضع المضائق وإستانبول في مأمن من العدوان المصري ، يعد إجراء عسكرياً استثنائياً اتخذ في هذه الحالة الوحيدة بناء على طلب صريح من السلطان للدفاع عنه . ومن المتفق عليه أن مثل هذا الإجراء لا ينتهض بأية درجة وعلى أي نحو من النظم الذي درج عليه الحكم في جميع الأوقات في الإمبراطورية العثمانية ، وبمقتضاه كانت تمنع السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق . ونصت المعاهدة على أنه فيما يتعلق بالحالة المشار إليها وهي مرابطة قوات الدول الموقعة عليها ، في المضائق ،

فإن السلطان يملن قراره الثابت بأن يلتزم في المستقبل بهذا البدأ الذي أرسيت قواعده إرساء لا يتنبر كنظام قديم سار عليه الحكم في الإمبراطورية العثمانية . وطالما كان الباب المالى فى حالة سلم ، فإنه لا يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق وعبورها . ومن ناحية أخرى فإن أباطرة وملك الدول الموقعة على المعاهدة يتعهدون باحترام قرار السلطان والالتزام بهذا البدأ (المادة الرابعة)

والحق بالمعاهدة بروتوكول جاء فيه أن السلطان مع التزامه بمنع جميع السفن الحربية الأجنبية من عبور المضائق فى جميع الأوقات فإنه يحتفظ لنفسه بالحق فى إصدار تصاريح بالمرور عبر التددنيل والبوسفور للسفن الحربية الخفيفة الموضوعة فى خدمة السفارات والتوصلات التابعة للدول الصديقة (١) .

ووقت بريطانيا والنمسا والروسيا وروسيا فى السابع عشر من سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٤٠ بروتوكولا أطلق عليه بروتوكول انتفاء المرض Self-Denying Protocol الحق بمعاهدة لندن وقررت فى هذه الدول الأربع - إذ لم تكن فرنسا قد انضمت بعد إلى المعاهدة - ألا يسمى أى منها للحصول على أراض أو الاستئثار بنفوذ أو الظفر بامتيازات تجارية لرعاياها لم تحصل عليها كل دولة أخرى على قدم المساواة (٢) .

(م) اتفاقية المضائق (١٨٤١) :

كان انضمام فرنسا فى الخامس عشر من شهر مارس - آذار - سنة ١٨٤١ إلى معاهدة لندن المبرمة فى الخامس عشر من شهر يوليو - تموز - من السنة السابقة كديلا

(١) عهد التص الرسمى لهذه المعاهدة فى :

Harewitz, J.C.; op. cit. vol. I, pp. 116-119.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى لندن فى ١٧ سبتمبر - أيلول - ١٨٤٠ .

(٢) Thomas Erskine Holland, The European Concert (٢) in the Eastern Question, Oxford, 1885, p. 97

بعودة وحدة الصف إلى الدول الأوروبية الكبرى فيما يختص بمسوية المسألة الشرقية. فلما انتهت الأزمة الشمانية المصرية توصلت الدول الكبرى الست - وهي الدولة الثانية وبريطانيا وفرنسا والروسيا والنمسا وروسيا - إلى عقد اتفاقية جماعية في الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٤١ ومن ثم أطلق عليها إتفاقية لندن بخصوص المضائق *Convention of London regarding the Straits* وقد أرسيت هذه الاتفاقية نظاماً للمضائق ظل معمولاً به بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤. وتقع الاتفاقية - في ثلاث مواد - نصت الأولى على أن السلطان ، من ناحية ، يمان تصميمه الثابت على أن يلتزم في المستقبل بالهدأ الذي أرسيت قواعده من قبل ولم يتغير كنظام قديم في حكم الإمبراطورية ، وبمقتضاه حرم في جميع الأوقات على كل السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية دخول المضائق ، وأنه طالما كان الباب العالي في حالة سلم ، فإن السلطان لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق . ومن ناحية أخرى يمان أباطرة وملوك الدول الموقعة على الاتفاقية أنهم يتعهدون باحترام تصميم السلطان وبالالتزام هذا المبدأ . واحتفظ السلطان لنفسه في المادة الثانية بحق منع تراخيص بمرور السفن الحربية الخفيفة التي سوف تستخدم ، وفقاً للعادة المتبعة ، في خدمة السفارات والتوصلات التابعة للدول الأجنبية . والتزم السلطان في المادة الثالثة بتبليغ هذه الاتفاقية إلى جميع الدول التي تربطه بها علاقات صداقة يدعواهم إلى الموافقة عليها^(١) . وكانت هذه الاتفاقية الدولية الجماعية تسمى نصاً

(١) نجد النص الرسمي لهذه الإتفاقية و

Hurewitz, J.C.; op. cit., p. t I, p. 123

انظر أيضاً كلاس :

Gorainow, S.; Le Bosphore, chap. 10.

Phillipson, C. and Buxton N.; The Bosphorus, part 2, chap 4.

Webster, C.; The Foreign Policy of Palmerston (1830—1841), vol 2, pp, 768—767.

Mischef, P.H.; La Mer Moire, chap. 5

Shotwell, J.T. and Deek F.; Turkey at the Straits. chap 4

وروحاً مع السياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على المضائق .
واكتسبت الدولة العثمانية قوة دولية بـإشتراك خمس دول أوروبية كبرى معها في
تقرير حق الباب العالي في غلق المضائق في وجه السفن الحربية الأجنبية . وتعتبر
هذه الاتفاقية نصراً للدبلوماسية البريطانية ، لأنها — أى الاتفاقية — قد أدت
ضمناً مهادنة هفكار أسكلسي التي كانت تمنع روسيا امتيازاً عسكرياً خطيراً
انفردت به دون سائر الدول ، فوكلت هذه الاتفاقية الجمعية سداً متيناً في وجه
الأطباع الروسية التي كانت ترى إلى تحقيق نوع من السيطرة العسكرية على
المضائق والاستيلاء على إستانبول في نهاية المطاف ، سواء بالاشتراك مع الدولة
العثمانية في الدفاع عن المضائق أو بعبور أسطوطها الحربي البوسفور والدردنيل .

(ن) معاهدة بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا لتقديم مساعدات

حربية دفاعاً عن المضائق (١٨٥٤) :

ولما اندلعت حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا في سنة ١٨٥٣
استطاع الأسطول الروسي في ٣٠ من نوفمبر — تشرين ثان — سنة ١٨٥٣
تدمير قوة بحرية عثمانية كانت راسية تجاه سينوب Sinope — وهي ميناء عثماني
على الساحل الجنوبي لبحر الأسود — وأتارت هذه الكارثة حاصلة من السخط
في أوساط الرأي العام في إنجلترا ضد روسيا ، وأطلق الشعب الإنجليزي على
هذه الواقعة : مذبحه سينوب Massacre of Sinope ، وقامت مظاهرات
في إستانبول تطالب بالتأمر من روسيا . وكانت الحكومتان البريطانية والفرنسية

قد أمرنا في ٤ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عندما تدهور الموقف بين الدولة العثمانية والروسيا - الأسطولين البريطاني والفرنسي بالتحرك نحو خليج بيزيكا Baskia خضارج الدردنيسل ليكونا على مقربة من مسرح الأحداث . وأذنت الحكومة العثمانية للأسطولين في اجتياز منطقة المضائق بصفتها قوات حليفة تنفخ إلى جانب الدولة ضد الروسيا والتي كانت قد قامت بعدوان على بعض ممتلكاتها واحتلت ولايتي الدانوب -الأفلاق والبغدان - وأظهر الشعب التركي العثماني مظاهر الإتهاج بوصول وحدات من الأسطولين البريطاني والفرنسي واستقبلهما على ضفاف البوسفور استقبالا حماسيا . وترتب على معركة سينوب أن دخل الأسطولان البريطاني والفرنسي البحر الأسود في ٤ من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٥٤ (١) واشتعلت الحرب في شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٤ بين الروسيا من ناحية والدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا ثم مملكة صربيا أو بيدمتن فيما بعد من ناحية أخرى (٢) .

وفي الثاني عشر من شهر مارس عام ١٨٥٤ عقدت معاهدة ثلاثية قامت على تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا أطلق عليها معاهدة من أجل المساعدة العسكرية للباب العالي. Treaty of Military Aid to the Sublime Porte. جاء فيها أن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا قد استجابا لطلب السلطان

(١) تذكر بعض المراجع أن الأسطولين البريطاني والفرنسي دخلوا البحر الأسود في نهاية أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٥٣ .

(٢) انظر تفاصيل الاتصالات الدبلوماسية المكتشفة بين الدول الكبرى ، ثم المذكرة المشهورة التي حررت باسم القطر الأربع ، وهي المذكرة التي وجهت دبلوماسية حرب القرم . وكان من بين هذه النقاط وأهمها النقطة الثالثة وهي إعادة النظر في اتفاقية المضائق لعام ١٨٤١ من أجل حفظ وتحقيق توازن القوى في أوروبا ولتحد من تفوق الروسيا البحرية في البحر الأسود . ثم اجتماع مؤتمر فيينا في ١٥ من مارس - آذار - عام ١٨٥٥ في أثناء الحرب . انظر هذه التفصيلات وغيرها في كل من :

Miller W. ; op. cit., pp. 199-242.

دكتور محمد مصطفى صفوت ؛ المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ - ٤٩ .

(م ١٥ - الدولة العثمانية)

مساعدته لصعد العدوان الروسي الذى هدد سلامة الإمبراطورية العثمانية ،
وأنها قد أمرا قواتها البحرية بالتقدم نحو إستانبول ، وقواتها البرية
للدفاع عن الأراضي العثمانية في أوروبا وفي آسيا ضد هذا العدوان (المادة
الأولى) . وقررت المعاهدة أنه حالما يحقق هدف المعاهدة بإنزال الخزيمة
بالقوات الروسية وعقد الصلح ، فإن ملكة بريطانيا وإمبراطور فرنسا يتخذان
التدابير للانسحاب الفوري ، لقواتها البحرية والبرية التي اشتركت في الحرب .
وحددت المعاهدة بجلاء القوات البريطانية والفرنسية فترة أربعين يوماً أو
أقل من ذلك إذا كان ممكناً من تاريخ التصديق على معاهدة الصلح مع
الروسيا (١).

(س) معاهدة باريس ١٨٥٦ ومشكلة المضائق والبحر الأسود :

أسفرت حرب القرم بعد سقوط سياستبول في ٨ من سبتمبر - أيلول -
١٨٥٥ في بيد الخلفاء ، وكانت ملكة سربينيا قد انضمت إليهم ، عن معاهدة
باريس في الثلاثين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٥٦ . وبهنا في هذه
الدراسة المواد المتعلقة بالمضائق والبحر الأسود .

أكدت معاهدة باريس المبدأ التقليدي ، وهو منع السفن الحربية الأجنبية
من المرور في المضائق . وقالت إن اللولة العثمانية لا تُعيد عن هذا المبدأ ،
وإن اتفاقية المضائق التي عقدت في ١٣ من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٤١
والتي تؤكد هذا المبدأ تقرها الدول الموقعة على معاهدة باريس وتعتبرها
من ملاحق هذه المعاهدة ، ولها نفس القوة والمشروعية ، وإنها تشكل جزءاً
لا يتصل عن المعاهدة (المادة العاشرة) . وهكذا أكدت معاهدة باريس
الرياسة العليا للدولة العثمانية فيما يخص المضائق . وكانت المادة العاشرة من
تلك المعاهدة نصراً للدولة .

(١) محمد الصن الرسمى لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op cit , vol 1 ; pp 144—145

وعد تم تبادل وتائق التصديق على المعاهدة في إستانبول في الثامن من شهر مايو - آيار
عام ١٨٥٤ .

وقررت المعاهدة أيضاً أن يكون البحر الأسود بحراً محايداً في مياهه وموانئه ومنزوحاً للدفن التجارية التابعة لجميع دول العالم ، ولكن تظل مياهه وموانئه رسمياً وإلى الأبد منطقة محرمة على السفن الحربية سواء سفن الدول التي لها سواحل تطل عليه أو لا تطل عليه ذباً عدا استثناءين وردا في المادتين رقم ١٤ و رقم ١٩ من معاهدة باريس (المادة الحادية عشرة) . ونصت المعاهدة على الاتهام عوائق أمام التجارة في موانئ ومياه البحر الأسود وعلى ألا توضع هذه الموانئ والمياه إلا للوائح الصحية والعادات ونظم الشرطة التي توضع بروح تستهدف نمو المعاملات التجارية ، ولكن يتوفر الأمان المطلوب أمام المصالح التجارية والبحرية لكل الدول ، تسمح الدولة العثمانية والروسيا بتعيين قناصل للدول الأجنبية في الموانئ الواقعة على سواحل البحر الأسود في النطاق الذي تجيزه قواعد القانون الدولي العام (المادة الثانية عشرة) . وقالت معاهدة باريس أيضاً إن إنشاء ترسانات بحرية حربية على سواحل البحر الأسود أو الإبقاء على الموجود منها يصبح أمراً لا مبرر له تأسيساً على حيطة البحر الأسود . وبناء على ذلك تتعهد الدولة العثمانية والروسيا بعدم إنشاء أو إبقاء أية ترسانات بحرية عسكرية على سواحل هذا البحر (المادة الثالثة عشرة)^(١) وهكذا حافظت معاهدة باريس إلى حد كبير على السياسة العليا للدولة العثمانية حين جمعت البحر الأسود منطقة محرمة على السفن الحربية التابعة لجميع الدول بما فيها الروسيا .

(ع) اتفاقية جماعية خاصة بالمضايق عام ١٨٥٦ :

وفي ذات اليوم التي أبرمت فيه معاهدة باريس (٣٠ مارس - آذار - عام ١٨٥٦) عقدت اتفاقية خاصة بالمضايق وقعتها جميع الدول الأطراف في معاهدة باريس ، وجاء فيها أن السلطان يعلن عن عزمه الثابت على التمسك في قابل الأيام بالمبدأ الذي أرسيت قواعده وهو مبدأ غير قابل للتغيير ، وهو مبدأ خاص بالنظام الذي جرى عليه العمل في حكم الإمبراطورية

(١) تجد النص الرسمي لهذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, pp. 153—156

وقد تم تبادل وناثق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٧ من أبريل - نيسان - ١٨٥٦

العثمانية ، وبمقتضاه منعت في جميع الأوقات السفن الحربية التابعة للدول الأجنبية من عبور المضائق ، وأنه طالما كان الباب العالى في حالة سلم فإنه لن يسمح لأية سفينة حربية أجنبية بدخول المضائق . ومن ناحية أخرى فإن جميع الدول الموقعة على معاهدة باريس تتعهد باحترام هذا القرار من جانب السلطان وبالالتزام بهذا المبدأ (المادة الأولى) . وقد استبقى السلطان في هذه الاتفاقية حقه الاستثنائي القديم في السماح بمرور المراكب الحربية الخفيفة الموضوعة في خدمة السفارات والتفصليات (المادة الثانية) . واستحدثت الاتفاقية استثناء آخر خاصاً بالسفن الحربية الأجنبية التابعة للدول الموقعة على معاهدة باريس والسماح لكل منها بالمرابطة في مصاب نهر الدانوب في البحر الأسود ضماناً لتنفيذ اللوائح الموضوعة لكفالة حرية الملاحة في هذا النهر بحيث لا يزيد عدد هذه السفن عن اثنين لكل دولة (المادة الثالثة) (١) وقد ألحقت هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس .

(ف) اتفاقية ثنائية بين الدولة العثمانية والروسيا تحدد القوات البحرية لكل منهما في البحر الأسود (١٨٥٦) .

وعقدت في ذات اليوم أيضا اتفاقية ثنائية بين الدولتين العثمانية والروسية تحدد القوات البحرية التي تحتفظ بها كل منهما في البحر الأسود لمدة سواحلها المطلة عليه بحيث لا تتجاوز أية دولة منهما العدد المقرر للسفن الخفيفة وقوتها وحجمها وحولتها وعدد أفرادها . وهي تفاصيل حددتها المادة الثانية من الاتفاقية (٢) . وقد تقرر إلحاق هذه الاتفاقية بمعاهدة باريس على أن تكون لهذه الاتفاقية نفس القوة ونفس المشروعية وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من المعاهدة . وتأسيساً على هذا الوضع القانوني لهذه الاتفاقية الثنائية العثمانية الروسية ، تقرر عدم إلغائها أو تعديلها بدون موافقة الدول الأطراف في معاهدة باريس (المادة الرابعة عشرة) .

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. 1, p. 156

Loc. cit.

(٢)

(ص) معاهدة جماعية لضمان تنفيذ أحكام معاهدة باريس ١٨٥٦

ورغبة في إضفاء مزيد من الضمانات لتنفيذ أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ، ورغبة في تبديد كل أمل قد راود روسيا في تعديل أو إلغاء أو تجاهل المواد الخاصة بالمضايق وتحميد البحر الأسود ، وقعت الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا والنمسا معاهدة في الخامس عشر من شهر أبريل - نيسان - سنة ١٨٥٦ جاء فيها أن الدول الثلاث تضمن استقلال وسلامة الإمبراطورية العثمانية ، وأن كل إخلال بأية مادة من مواد معاهدة باريس يكون سبباً للحرب *Casus Belli* . وفي هذه الحال تتفق الدول الثلاث مع الدولة العثمانية على الإجراءات التي ترى هذه الدول الأربع أنها ضرورية لاستخدام قواتها البرية والبحرية (١) .

(ق) معاهدة لندن (١٨٧١) لتعديل أحكام معاهدة باريس بخصوص

المضايق والبحر الأسود .

وقد تحققت مخاوف الدول الكبرى من نيات روسيا نحو مسألة المضايق والبحر الأسود . فقد انتهز إسكندر الثاني قيصر روسيا (١٨٥٥ - ١٨٨١) فرصة اندلاع الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا ، وتحرك دبلوماسياً ، وطالب الدول الكبرى بتعديل النصوص التي وردت في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ والخاصة بمسألة المضايق والبحر الأسود . وكان هذا القيصر يعتبر ماورد بشأن هذه المسألة في تلك المعاهدة وصمة عار في تاريخ بلاده . واختار لتحركة الدبلوماسية وقتاً عصيباً ، إذ كانت الأعصاب مشدودة لتطور الموقف العسكري والديبلوماسي في أوروبا وعجز فرنسا الجريحة وقتذاك عن الانضمام إلى بريطانيا أو غيرها من الدول في وجه روسيا . فتقدم إلى الدول الكبرى الموقعة على معاهدة باريس بمذكرة مؤرخة في ٣١ من أكتوبر

(١) تمهيد نص هذه المعاهدة في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., tl. I., p. 156

وقد تم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة في باريس في ٢٩ أبريل - نيسان - ١٨٥٦ .

تشرين أول - ١٨٧٠ وأردفها بأخرى مؤرخة في أول نوفمبر- تشرين ثان- ١٨٧٠ (١) قرر فيها أن معاهدة باريس قد وضعت الروسية في مركز مسمى بالنسبة لبقية الدول الأطراف في هذه المعاهدة ، وهو الملك يرى نفسه مضطراً لأن يميز لنفسه أن يعلن أن الاتفاقية التي تمهد عدد وحجم ونوعية السفن الحربية التي يكون للدولة العثمانية وللروسيا الحق في الاحتفاظ بها في البحر الأسود - وهى الاتفاقية الملحقه بمعاهدة باريس والتي أشرنا إليها من قبل تحت بند ف - أصبحت غير ذات موضوع . وكان لهذا التصرف الروسى وقع مسمى للغاية في الدوائر البريطانية التي اعتبرت تصرف القيصر إهداراً لمبدأ احترام المعاهدات الدولية . وعلا انفرادياً من جانبه . وتدخل بسببها المستشار الألماني ، واقترح عقد مؤتمر دولي لإعادة النظر في النصوص الخاصة بمسألة المضائق والبحر الأسود . وكان بسببها يريد مكافأة روسيا لأنها التزمت الخديفة في أثناء الحرب السبعينية بين فرنسا وبروسيا . وانصاعت بريطانيا لرأى المستشار الألماني (٢) . وعقد مؤتمر في لندن في المدة من ١٧ يناير - كانون ثان - إلى ١٣ مارس - آذار - سنة ١٨٧١ أسفر عن عقد معاهدة جماعية من الدول الكبرى في الثالث عشر من شهر مارس - آذار ١٨٧١ عرفت باسم معاهدة لندن . وتقرر فيها إلغاء النصوص الخاصة بمجرى البحر الأسود والمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ والتي سبق أن بسطنا مضمونها عند التمرس لمعاهدة باريس ، كما ألغيت الاتفاقية الخاصة بتحديد القوات البحرية للدولتين في البحر الأسود . وحلت النصوص الآتية محل المواد المغااة والاتفاقية الثنائية المغااة .

تقرر في معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ أن يظل نافلاً مبدأ خلق المضائق على النحو الذى كان مقرراً في الاتفاقية المنصلة والمعودة في ٣٠ مارس - آذار - ١٨٥٦ ، وتحويل السلطان العثمانى الحق في فتح المضائق في أوقات السلم أمام السفن الحربية التابعة للدول الصديقة والمحايدة في حالة إذا رأى الباب

Sir Edward Hertslet ; Map of Europe, vol. 3 pp. 1892—1897 (١)

Shotwell J.T. and Deak . ; Turkey at the Straits, chap. 6 (٢)

العالي أن مرور مثل هذه السفن في المضائق أمر يضمن تنفيذ أحكام معاهدة باريس (المادة ٢)، كما نصت المعاهدة على أن يظل البحر الأسود بحراً مفتوحاً أمام التجارة البحرية لجميع الشعوب (المادة ٣)، وقررت المعاهدة أن الدول الأطراف فيها تجدد وتؤكد كل الشروط الواردة في معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ من مارس - آذار - ١٨٥٦ وكذلك ملاحقتها التي لم يمسسها إلغاء أو تعديل في المعاهدة الجديدة ١ (المادة) .

(ر) معاهدة برلين (١٨٧٨) .

أيدت معاهدة برلين التي عقدت في الثالث عشر من شهر يوليو - تموز - سنة ١٨٧٨ النصوص التي لم تتعرض للإلغاء أو التعديل في معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ وفي معاهدة لندن لسنة ١٨٧١ (٢) وعلى ذلك لم تأت معاهدة برلين بمجديد على نظام عبور السفن التجارية والحربية والملاحة في البحر الأسود . وظلت أحكام معاهدة باريس لسنة ١٨٥٦ ومعاهدة لندن لسنة ١٨٧١ تحكم نظام العبور والملاحة . وسارت الأمور سيراً عادياً حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، فلم تقع سوى مخالفات قليلة للنظم المقررة حين مرت في المضائق سفن روسية في أثناء الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ ، وكانت في طريقها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط لتجتاز قناة السويس . وكانت هذه السفن الروسية تحمل العلم التجارى الروسى على الرغم من أنها كانت تحمل قوات وذخائر وأسلحة (٣) . وحدث أيضاً أن قامت السلطات العثمانية ببث الألغام في مياه المضائق في أثناء الغزو الإيطالى لولايى برقة وطرابلس في سنة ١٩١١ فتعطل المرور في المضائق . وكان سندها في ممارسة

(١) تجدد نص المعاهدة في :

Hurewitz J.C., op. cit. t.I. pp 173-174

وقد تم تبادل وثائق الصديق على الماهدة في لندن في ١٥ مايو - آيار - سنة

١٨٧١ .

(٢) دكتور محمود سالى جنيته ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٢ .

هذا الإجراء الحربى حتى الدفاع عن النفس ورغبتها فى الحيلولة دون مرور السفن الحربية الإيطالية فى منطقة المضائق (١) .

الروسيا تسمى إلى احتلال المضائق :

حاولت الروسية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضعة أشهر خلق حالة دولية خطيرة تتيح لها احتلال البوسفور والدردينيل . وفى ٢١ من فبراير شباط - سنة ١٩١٤ عقد اجتماع هام للغاية فى سان بطرسبرج برئاسة قيصر الروسية حضره قادة الجيش والأسطول وكبار رجال السياسة لبحث مشكلة المضائق (٢) . وانتهوا فى هذا الاجتماع إلى أنه يجدر بالحكومة الروسية أن تتخذ الإجراءات لضمان سيطرتها العسكرية على البوسفور والدردينيل ، وألا يكون أسلوبها فى العمل لبلوغ هذه الغاية هو طريق الصراع الحربى المخل للمحور بينها وبين الدولة العثمانية ، وإنما يتعين عليها إثارة أزمة سياسية مع الأتراك والهوى لتتصعيد هذه الأزمة حتى تنقلب إلى حرب أوروبية تتخذها الروسية ذريعة لإرسال قواتها المسلحة لاحتلال البوسفور والدردينيل فى وقت مبكر بحيث يكون فى يدها زمام المبادرة ووضع الأتراك والدول الأوروبية أمام الأمر الواقع . وكان هناك رأى يقول إنه يجب بصفة مؤقتة خلق جو سياسى موات للقيام بأى عمل يودى إلى احتلال المضائق .

وقد كتب السفير الفرنسى فى إستانبول إلى حكومته يقول إن قيصر روسيا يرى أنه يجب إعادة فتح المضائق حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة (٣) . وكان قيصر روسيا يعلق أغذب الآمال على فرنسا فى مساعدته على الوصول إلى اتفاق وثيق مع بريطانيا . ومن المعروف أن هذه الدول الثلاث : بريطانيا وفرنسا والروسيا كانت تؤلف فيما بينها

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

Montgelas M., The Case for the Central Powers. 1925, (٢)
pp. 94-95

Documents Diplomatiques Français. (1871-1914). (٣)
3ème Serie ; vol. X, p. 200 .

الرفاق الثلاثي في مواجهة التحالف الثلاثي الذي كان قوامه ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وقد حال دون تنفيذ المخطط الروسي لاحتلال البوسفور والدرديل سير إدوارد جراي Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية الذي لم يكن يفكر في ذلك الوقت في استخدام القوة في أي مكان أو في عقد اتفاق جديد مع روسيا يزيد الموقف الدولي حساسية . وكان شديد الإيمان بفكرته في عقد مؤتمر أوروبي لتسوية المشكلات الدولية . فهذه الطريقة هي المثل في حل الأزمات ، واعتقد أنها هي التي أبعدت شبح الحرب عن أوروبا في سنة ١٩١٣ (١) .

بريطانيا توافق على استيلاء روسيا على إستانبول والمضائق :

في أثناء حملة اللردنيل في سنة ١٩١٥ ، وستكلم عنها في الفقرة التالية ، رأت بريطانيا أن تقدم وعداً لروسيا ، بصفتها حليفة لها في الحرب العالمية الأولى ، بالموافقة على استيلائها على مدينة إستانبول والساحل الأوروبي لمنطقة المضائق ومجموعات من الجزائر المتناثرة في هذه المنطقة . وجاء ذلك الوعد وهذه الموافقة في اتفاق عرف باسم اتفاق إستانبول بين روسيا وبريطانيا وفرنسا (٤ من مارس - آذار - أبريل - نيسان - ١٩١٥) ولم يأخذ هذا الاتفاق من الناحية الشكلية الصيغة المتعارف عليها للمعاهدة ، بل هو يتدرج تحت النوع الذي يعرف في القانون الدولي العام باسم الاتفاقات الدولية في الشكل المبسط (٢) *Traités en forme simplifiée* وقد جاء هذا الاتفاق في صورة مذكرات متبادلة بين سان بطرسبرج ولندن

(١) Grant A.J. and Harold Temperley ; op. cit., p. 382.

(٢) يقصد بها الاتفاقات الدولية التي تمتد بين دولتين أو أكثر في صورة تبادل مذكرات يسجل فيها ما تم الاتفاق عليه من غير حاجة إلى إجراء التصديق عليها أو للاستثناء من تدخل رئيس الدولة في إبرامها . وهذه الوسيلة فيها السرعة والتبسيط وتلجأ إليها مختلف الدول لإبرام الاتفاقات .

وباريس خلال فترة امتدت خمسة أسابيع . وقام ديمترييفتش سازونوف Dmitriyevich Sazonov وزير الخارجية الروسية بوضع الصياغة اللفظية للمذكرات المتبادلة ، واشترك معه السفيران البريطاني والفرنسي في سان بطرسبرج في المدة من ١٩ من فبراير - شباط - إلى ٤ من مارس - آذار - سنة ١٩١٥ وبجمل فيها رغبات الحكومة القيصرية . وكانت تنحصر في ضم لإستانبول والمضائق عند انتهاء الحرب العالمية بانتصار بريطانيا وحليفاتها وإبرام ما سمي اتفاق الانتصار Entente Victory وقد جاء في المذكرة الروسية ما يلي :

« إن مجرى الحوادث الأخيرة جعل حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور تقولا يعتقد أن مسألتى إستانبول والمضائق يجب أن تحلأ بصمة نهائية طبقاً للأمانى الروسية .

« وإن أية تسوية تكون ناقصة وقاصرة وغير مستقرة إذا لم تدمج في الإمبراطورية الروسية كل من مدينة إستانبول والماحل الغربى البوسفور وبحر مرمره والدرديل وكذلك ترابجا الجنوبية .

« وإن المصالح الخاصة بفرنسا وبريطانيا العظمى في الإقليم المذكور أعلاه ستحترم بدقة زائدة

« وإن الحكومة الإمبراطورية يحبوها الأمل في أن الحكومتين الحليفتين سوف تقبلان بعطف الاعتبارات السابقة » . ومضت المذكرة الروسية تؤكد لحكومتى فرنسا وبريطانيا قيام تفاهم مماثل من جانبها من أجل تحقيق خطط قد قضعها الحكومات الثلاث بالنسبة لأقاليم أخرى من أقاليم الإمبراطورية العثمانية أو أقاليم أخرى في جهات أخرى في العالم . وجاء الرد بموافقة الحكومتين الفرنسية والبريطانية على المذكرة الروسية (١) .

(١) بلغ عدد المذكرات التي تبودلت بين سان بطرسبرج وباريس ولندن ثسع مذكرات وعجدها بصا في

وبلاحظ أن بريطانيا بموافقتها على أن تأخذ روسيا كلا من إستانبول والمضائق عند تصفية الإمبراطورية العثمانية قد أقنعت على تغيير جلدى فى سياستها الخارجية . فقد وقفت بريطانيا فى وجه روسيا أكثر من قرنين تحول دون استيلائها على إستانبول ومنطقة المضائق . وكان الدافع لبريطانيا على هذا التغيير الجوهري هو رغبتها فى شد أزر روسيا ورفع روحها المعنوية بعد الهزائم المذكورة التى أنزلتها بها القوات الألمانية فى تاننبرج Tannenberg (٢٥-٣١ من أغسطس-آب سنة ١٩١٤) ثم عند البحيرات الماسورية Masurian Lakes (٨-١٥ سبتمبر-أيلول سنة ١٩١٤) . وكانت هاتان الموقعتان من أعظم المعارك التى انتصرت فيها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وتجلت فيها العبقرية العسكرية الألمانية بفضل القائد الألمانى الفذ المعجوز هندنبرج Hindenburg ورئيس أركانها لودندورف Lodendorf . وهكذا كانت رغبة بريطانيا فى تشجيع روسيا على مواصلة الحرب وعدم إلقاء السلاح هى السبب الأول فى عقد اتفاق إستانبول . كما كانت هذه الرغبة ذاتها فى مقدمة أسباب حملة الدردنيل .

حملة الدردنيل سنة ١٩١٥ :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى مطلع شهر أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ ودخلتها الدولة التركية (العثمانية) فى الخامس من شهر نوفمبر - تشرين ثان - فى ذات السنة إلى جانب دولتى الوسط - ألمانيا والنمسا والمجر - قامت السلطات التركية ببث حقول خفية من الألغام البحرية فى مياه المضائق .

= وهذا الاتفاق غير الاعااق المعروف باسم سايكس بيكو والمعقود بين بريطانيا وفرنسا والروسيا فى المدة من ٢٦ أبريل - نيسان - إلى ٢٣ أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩١٦ وأعلن أيضاً صورة مذكرات مبادك يبلغ مئداك إحاى حصرة مذكورة وتحدد فيها مطالب روسيا فى الأقاليم العثمانية الواحدة فى المنطقة الشمالية الشرقية من الأناضول . وكان من بين الجهات التى نصت عليها أرضروم ، وطرابزون ، وفاد ، وبطليس إلى نقطة تحدد فيما بعد على ساحل البحر الأسود عربى طرابزون ، تم معظم إقليم كردستان . واستفهام الحكومة الروسية بمخوفاتها فيما يختص بالملاحه البحرية الكبرى فى البحر الأسود وأيدت رغبتها فى بحث هذا الموضوع بطريقة ودية فيما بعد بمعرفة حكومات الأطراف المختصة .

وكانت الشائعات قد استفاضت بقرب هجوم بريطانيا وحليفاتها على الدردنيل والبوسفور واحتلال إستانبول . ولم تلبث أن تحققت هذه الشائعات في ذات الشهر الذي دخلت فيه تركيا الحرب .

بواعث حملة الدردنيل :

في الحرب العالمية الأولى وفي مستهل دورها الثاني (سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٤ - مارس - آذار - سنة ١٩١٨) (١)، وبينما كان موقف روسيا الحربى يزداد خطورة ، رأت بريطانيا إرسال حملة تحتل الدردنيل والبوسفور لتفتح الطريق أمام الأساطيل البريطانية والفرنسية إلى البحر الأسود ، لأن منطقة المضائق كانت تفصل بريطانيا وفرنسا عن روسيا وتحول دون إمدادها بالذخائر والأسلحة التى كانت فى ميسس الحاجة إليها ، لأن روسيا كانت قد استنفدت احتياطياتها من الذخائر ، ولم يكن فى متدورها أن تلبى سوى ثلث حاجياتها اليومية من الذخائر التى تنتجها مصانعها من الذخائر ، على الرغم من أنها كانت تملك قوات لا حصر لها من الرجال . وكانت بريطانيا تخشى أن تضطر روسيا إلى الخروج من الحرب لنتقص الذخائر لديها . فإذا نجحت بريطانيا وحليفاتها فى بسط سيطرتها العسكرية على الدردنيل والبوسفور كان فى استطاعتها إرسال الذخائر والأسلحة والذخائر البحرية فى جميع فصول السنة إلى روسيا لشدة أزر القنرات الروسية وهى تعاني أشد العناء من الحصار الألماني ، كما ترفع الروح المعنوية لدى الشعب الروسى ، وكانت بريطانيا قد وعدت روسيا بإستانبول عروس البوسفور هدية لها . ولذلك علقت

(١) اتفق العسكريون رأياً على تقسم هذه الحرب إلى ثلاثة أدوار :

الدور الأول : من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ إلى سبتمبر - أيلول - من ذات السنة ، ووقع فيه الهجوم الألمان الذى أوقف عند حد نهر الماردن ، وأعطى بريطانيا الفرصة لتنظيم المقاومة .
الدور الثانى : من سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ إلى مارس - آذار - ١٩١٨ ويسمى حرب الخنادق ، ولم يسفر عن نتيجة حاسمة .

الدور الثالث : وهو أحداث سنة ١٩١٨ وقد بدأ بهجوم ألمانيا وانتهى بارتدادها على وحليفاتها فى كل الميادين .

الروسيا أعذب الآمال على حملة الدردنيل ، لأن أي كسب عسكري محرزها قواتها يتضائل أمام استيلائها على هذه العاصمة العتيقة . وكان استيلائها عليها يعد تعويضاً عن خسائرها الفادحة في البحيرات الماسورية وفي بولندا وفي غاليسيا . يضاف إلى هذه الاعتبارات أن نجاح حملة الدردنيل يجعل في متناول بريطانيا وحليفاتها المحاصيل الوفيرة من القمح وغيره من مواد التزوين التي تنتجها الأقاليم الجنوبية في روسيا . وكان رسو أسطول بريطاني في مياه الدردنيل والبوسفور كفيلاً بشطر الجيش التركي شطرين وفتح الطريق إلى نهر الدانوب . وكانت بريطانيا وحليفاتها ترجو أيضاً أن تكون حملة الدردنيل حافزاً لليونان ورومانيا على الانضمام إلى المعسكر البريطاني وإلحاق الهزيمة بلغاريا وتشجيع العرب على القيام بثورة ضد الأتراك مما يؤدي في النهاية إلى تعظيم الدولة العثمانية تحطيماً تاماً .

هذه بإنجاز شديد بواعث الحملة العسكرية التي أطلق عليها حملة الدردنيل وقد اختلطت فيها البواعث العسكرية والديبلوماسية .

فشل القتحام مضيق الدردنيل بحرياً :

في أوائل شهر نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ اقتربت بضع مدمرات بريطانية من مياه الدردنيل وألقت قنابلها على بعض الاستحكامات العسكرية الألمانية المقامة في هذه المنطقة . وقيل إن هذا الإجراء الحربي كان بمثابة جس النبض لمعرفة مدى استعداد الأتراك للدفاع عن منطقة المضائق . ومن المعروف أن مضيق الدردنيل هو أول مضيق تقابله السفن القادمة من البحر المتوسط والمنتجهة إلى البحر الأسود ، فكان عليها أن تعبر الدردنيل ، ثم بحر مرمره ، ثم البوسفور ، ثم تدلف إلى البحر الأسود . ومهما يكن من أمر ، فقد وقف الأتراك موقفاً سليماً من هذه الحركة الاستطلاعية التي قام بها الأسطول البريطاني . وقد تكون هذه العملية أمراً مقصوداً أريد به استتراج الأسطول إلى داخل مضيق الدردنيل حتى يسهل ضربه وتحطيمه من الضفتين . وقد عادت هذه الحركة الاستطلاعية بالفرر على بريطانيا بقدر ما عادت به من النفع على الدولة العثمانية . كانت مثل هذه الحملة تتطلب الدرية التامة حتى

يتوفر لها عنصر المفاجأة . وهو عنصر هام في إحراز النصر . ولكن الأثرak
علموا بما لا يدع مجالاً للشك أن بريطانيا وحليفاتها تعزّم اقتحام الدردنيل
كقائمة لاحتلال بقية منطقة المضائق ، ومن ثم استعدوا استعداداً واسعاً لصد
هذا الغزو .

كانت نتيجة الحركة الاستطلاعية مشجعة لبريطانيا على المضي في إنفاذ
الحملة البحرية . فوجهت قوات عظيمة من الأسطول إلى الدردنيل في يناير -
كانون ثان - سنة ١٩١٥ منذ انقضاء شهرين أو أكثر من شهرين من الحركة
الاستطلاعية . وكانت الحملة تتطلب أيضاً سرعة التنفيذ بجانب السرعة التامة .
وانضج أن هذين العنصرين لم يكونا متوفرين . واستؤنف الضرب مرة ثانية
في أواخر فبراير - شباط - . وفي ١٨ من مارس - آذار - قام الأسطول البريطاني
باقتحام مضيق الدردنيل ، ولكن أخفق الأسطول إنخفاقاً ذريعاً ، إذ أصيب
بأضرار جسيمة بسبب انفجار حقل خفي من الألغام في مياه الدردنيل . وكان
لهذا الإنخفاق أصداء واسعة وبعيدة في أرجاء العالم سواء في دوائر بريطانيا
وحليفاتها أو في دوائر معسكر دول الوسط . ولم يحاول بريطانيا اقتحام
الدردنيل بحرية مرة ثانية ، وهو أمر انتقده الخبراء البحريون بعد ذلك .

إنخفاق اقتحام منطقة الدردنيل برياً :

وأمام هذا الفشل البحري المتلاحق الذي منى به الأسطول البريطاني في
اقتحام مضيق الدردنيل ، رأت بريطانيا وحليفاتها تعزيز الهجوم البحري على
الدردنيل بهجوم بري . على أن يكون دور القوات البرية هو اللور الأساسي ،
وأن يكون دور الأسطول مقصوراً على إمداد القوات البرية بما تحتاج إليه من
مواد تموينية وأسلحة وذخائر ومساعدتها في النزول إلى البر وحماية النقط أو
المواقع البرية التي تنزل فيها . وكانت القوات البريطانية البرية يتألف معظمها
من جنود استراليين ونيوزيلنديين ، وكان معروفاً عنهم أنهم محاربون ذوو
بأس شديد . وكانت هذه القوات بقيادة سير إيان هاملتون Sir Ian Hamilton ،
كما عززت بقوة برية فرنسية يقودها الجنرال جورو G. Gouraud
وصالت القوات البرية في شهر أبريل - نيسان - ١٩١٥ ، ووقع اختيارها

على بعض نقاط قليلة في شبه جزيرة غاليبولى للنزول فيها . ولما تكامل عددها بدأ نزولها تحت نار حاصدة في ٢٥ من ذات الشهر بعد أن أضعفت وقتاً طويلاً وثميناً . كان نزولها في شبه جزيرة غاليبولى سبباً في إطلاق بعض المراجع على هذه الحملة اسم حملة شبه جزيرة غاليبولى ولكن الاسم الغالب عليها هو حملة الدردنيل ، لأن الاسم الأخير يشمل هجوم القوات البرية والبحرية على منطقة المضائق . ويقرر الخبراء العسكريون أن القيادة البريطانية الفرنسية قد أخطأت في اختيار المناطق التي نزلت فيها ، لأن أرض هذه المناطق تنحدر تدريجياً نحو ساحل البحر مما كفل للأتراك المدافعين عنها مواقع صالحة لاصطياد المهاجمين البريطانيين والفرنسيين بمجرد محاولتهم التقدم من الداخل نحو الداخل . وكان الأتراك والألمان قد أكملوا استعداداتهم لمواجهة نزول البريطانيين والفرنسيين . وقد لقيت القوات البرية المهاجمة صلابة وشدة وبسالة من الأتراك .

وبينا كان القتال يدور في ضراوة بالغة أحرز الجنود المهاجمون نصراً محلياً في السادس من شهر أغسطس سآب— بعد أن وصلتهم إمدادات كبيرة ، ونجحوا في النزول في خليج سولفا Sulva حيث أخذوا الأتراك على غرة . وكان في مقدور ستوب فورد Stopford قائد الفرقة المهاجمة أن يتخذ من هذا الموقع نقطة انطلاق وينتشر في شبه جزيرة غاليبولى وينتزع تل أنافورتا Anafarta الذى كان مفتاح الموقف . ولكنه تباطأ في التحرك بقواته نحو ثمان وأربعين ساعة استطاع خلالها إنقاذ الموقف ضابط تركى شاب هو مصطفى كمال بك — كمال أتاتورك رئيس جمهورية تركيا فيما بعد (١٨٨١— ١٩٣٨) فقد عين قائداً للكتيبة رقم ١٩ وكانت لا تزال في دور التشكيل في تكيرداج Takirdag على الساحل الأوروبى لبحر مرمرة . وخف على رأس هذه الكتيبة إلى شبه جزيرة غاليبولى . واستطاع إجلاء المهاجمين عن هذا الموقع . وكان نجاح الجنود الأتراك البواسل في صد المهاجمين وإجلائهم عن موقعهم يعد أحد الانتصارات القليلة والرائعة التي أحرزها الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى (١) . وقد أنقذ هذا النجاح إستانبول من خطر الغزو

الأجنبي . وفي ذات الوقت كان فشل القوات البريطانية والفرنسية في الاحتفاظ بالموقع قمة المأساة بالنسبة لهم وكان نصرهم مؤقتاً .

ومما هو جدير بالذكر أن القيادة الألمانية العليا قررت اتيام بغزو الصرب والجبل الأسود وفتح الطريق إلى تركيا لإمدادها مباشرة بالأسلحة والذخائر والرجال والأموال . ونجحت ألمانيا في تنفيذ هذا المخطط في شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ .

ورأت بريطانيا وفرنسا سحب قواتهما من شبه الجزيرة بعد أن فقدتا الأمل في الاستيلاء على منطقة المضائق . وبدأت عمليات الانسحاب في ١٨ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٥ حتى ٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩١٦ بعد أن كلفت الحملة بريطانيا وحليقاتها مائة وعشرين ألفاً من القتلى والجرحى ، وأخفقت حملة الدردنيل في تحقيق هدفها الرئيسي وهو الاستيلاء على المضائق . وكان الفشل مزدوجاً : في الهجوم البحري على الدردنيل وفي الهجوم البري على شبه جزيرة غاليبولي لتتقدم منها قوات بريطانيا وحليقاتها لاحتلال المضائق والاستيلاء على إستانبول .

وهكذا حققت الدولة العثمانية نصراً باهراً في الدفاع عن منطقة المضائق والحفاظ على سيادة الدولة على هذه المنطقة الحساسة . وكان في مقدمة أسباب هذا الانتصار الرائع الأسابب الذي اتبعه الأتراك في استئراج وحدات الأسطول البريطاني إلى مياه مضيق الدردنيل واصطيادها بسهولة وسط حقل خفي من الألغام البحرية ، ثم الصلابة التي أبدتها الجنود الأتراك في دفاعهم عن اللمار . وهى بسالة أذهلت الأعداء كما أذهلت الأصدقاء ، واستعادت الدولة العثمانية سمعتها الحربية القديمة كلولة حربية من الطراز الأول ، ووقفت شامخة في وجه أكبر وأقوى دول العالم في ذلك الوقت .

لقد أرادت بريطانيا وفرنسا والروسيا أن تكون حملة الدردنيل الضربة الكبرى التي توجهها هذه الدول الثلاث إلى الإمبراطورية العثمانية لتضم ظهرها عقاباً لها على انضمامها إلى ألمانيا . فلم تكدم أيام ذات عدد على دخولها الحرب .

في الخامس من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٤ حتى أرسلت بريطانيا بعض المدرعات إلى مياه الدردنيل في حركة إستطلاعية لكشف قدرة الاستحكامات التركية على المقاومة وكقائمة لإرسال الحملة البحرية الكبرى والتي باءت بالفشل واقرنت بحسائر فادحة في القتل والجرحى . ومما زاد في فداحة الهزيمة وسدة وقعها في الدوائر البريطانية بوجه خاص أن انسحاب الحملة تم في وقت كان شديد الإظلام بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها . كانت سنة ١٩١٥ تلتفت أنفاسها الأخيرة وكانت المزامم والكوارث تحيط بهذه الدول : أيدت الصرب والجبل الأسود ، ولانضمت بلغاريا إلى النمسا ، وحاققت بالروسيا هزائم تبديد كل أمل لها بعدها في الانتصار ، وعجزت إيطاليا عن إحراز أى نجاح حقيقى ، وهوت إلى الحضيض سمعة الأسطول البريطانى بعد فشله في حملة الدردنيل وإخفاقه في الوصول إلى إستانبول . ولانتهت الحرب العالمية الأولى دون أن تنجح في اقتحام المضائق قوات عدائية سواء كانت بريطانية أو فرنسية أو روسية . أو أية جنسية أخرى .



الفصل التاسع

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (٣)

هنريetta في الحرب العالمية الأولى

أطاحت بسيادتها على المضائق والبحر الأسود

هدنة مدروس واحتلال المضائق وإستانبول :

عرض وتحليل ونقد :

جاز إلى ربه السلطان محمد الخامس في الثالث من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩١٨ على أثر إصابته بإنفلونزا لم تمهله سوى أيام ذات عدد ، فكانت وفاته شبه فجائية . وتولى العرش بعده أخوه وحيد الدين أفندي باسم السلطان محمد السادس ، وهو في الثامنة والخمسين من عمره . وكان الموقف الحربى عصبياً للغاية بالنسبة لألمانيا والنمسا والمجر وتركيا وبلغاريا . كان الأتراك قد فقدوا الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربي الآسيوى : الحجاز ، العراق ، شرق الأردن ، فلسطين ، الشام ، فضلا عن الهزائم والخسائر التي نزلت بهم في الميادين الأخرى . وفي شهر أكتوبر - تشرين أول - استقال جميع وزراء جماعة الاتحاد والترقي نتيجة فشل سياستهم الداخلية والخارجية والحربية ، ثم فر كبارهم إلى خارج البلاد حيث لقوا حتفهم تباعاً . وكان الرأي السائد في الدوائر العالمية وقتذاك أن ألمانيا وحليفاتها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من طلب الصلح . ورأى السلطان الجديد إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ووقع اختياره على رجل عسكري هو الجنرال أحمد عزت باشا وعينه صديراً أعظم وعهد إليه الاتصال ببريطانيا ابتغاء عقد هدنة . وسرعان ما شكلت الحكومة وفداً برئاسة رموف بك وزير البحرية لعقد

الهدنة . وهكذا كانت تركيا أسبق من ألمانيا في عقد هدنة مع أعدائها بأحد عشر يوماً (١) . فقد أبرمت هدنة منفصلة مع تركيا في اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ سميت هدنة مدروس Mudros نسبة إلى ميناء يحمل هذا الاسم في جزيرة لمنوس (٢) Lemnos حيث كانت ترسو في هذا الميناء باخرة إنجليزية اسمها أجاممنون Agamemnon ، وقد دارت على ظهرها مفاوضات الهدنة . ولم يتفرق إجراؤها أكثر من أسبوع . وقد وقعت عليها بريطانيا عن نفسها ونيابة عن حليفاتها . وقد نصت هدنة مدروس على المبادئ العامة الآتية فيما يختص بمسألة المضائق :

أولاً : فتح الدردنيل والبوسفور وتأمين الدخول إلى البحر الأسود والخروج منه .

ثانياً : قيام بريطانيا وحليفاتها باحتلال القلاع والاستحكامات القائمة في منطقتي الدردنيل والبوسفور .

ثالثاً : تعهد السلطات التركية بالكشف عن مواقع الألغام وغيرها من المنفجرات في المياه التركية بما فيها مياه الدردنيل والبوسفور والبحر الأسود - للسلطات البريطانية وسلطات الدول الحليفة لها (٣) .

وبعد أن تم التوقيع على الهدنة قدم أحمد عزت باشا الصدر الأعظم استقالته من منصبه على أساس أنه أنجز المهمة التي عهد بها إليه السلطان . وخلفه أحمد توفيق باشا . وكان هناك إعتباران ملحوظان في إختياره لمنصب الصدارة العظمى . أولها أنه كان سفيراً لبلادته في لندن ، واكتسب تقدير

(١) طلب لودندورف القائد الألماني للبدان التبري الهدنة رسمياً في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من عام ١٩١٨ على أساس الأربعة عشر شرطاً التي أعلنها ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كستور للتسوية .

(٢) جزيرة لمنوس إحدى جزر بحر الأرجيل .

(٣) تجد النص الرسمي الكامل لهدنة مدروس في :

الدوائر العليا في بلاط سان جيمس في هذه العاصمة . وكان الأمل معقوداً عليه أن يكون موضع ثقة بريطانيا في هذه المرحلة الدقيقة التي كانت تتطلع فيها تركيا إلى إعادة علاقاتها مع بريطانيا إلى سيرتها الأولى ، وثانيهما أن أحد توفيق باشا سبق له أن تولى منصب الصدارة العظمى .

وأهم ما يلاحظ على هدنة مندروس أن بريطانيا حققت فيها ما عجزت عن تحقيقه في ساحات القتال في أثناء الحرب العالمية الأولى . فقد أمأت شروطها على تركيا . وكان من بينها فتح اللردنيل والبوسفور وتأمين دخول البحر الأسود والخروج منه ، كما قررت لنفسها حق احتلال المواقع ذات الأهمية الإستراتيجية في منطقة المضائق إلى غير ذلك . وكانت هذه الشروط الخاصة باللردنيل والبوسفور والبحر الأسود نذيراً بمبادئ وقواعد جائرة تستند إلى مبدأ القوة وتتضمنها معاهدة الصلح التي سوف تضمها بريطانيا وحليفاتها وتفرضها على تركيا . وقد جاء في أعقاب هدنة مندروس تنفيذ عملي لما تضمنته من مبادئ واتجاهات . فقبل أن ينقضى أسبوعان على إبرام الهدنة حتى كانت الأساطيل الحربية لبريطانيا وحليفاتها تتخذ طريقها إلى منطقة المضائق من البحر المتوسط . واجتازت ستون قطعة حربية مضيق اللردنيل ثم بحر مرمرة ثم البوسفور . والتزمت مدفعية السواحل التركية الصمت العميق إزاء هذه المظاهرة البحرية العدائية . وفي ١٣ من نوفمبر - تشرين ثان - أُلقت بعض هذه القطع الحربية مراسيها في ميناء إستانبول . وفي ٨ من ديسمبر - كانون أول - كان قد استكمل في إستانبول إنشاء إدارة عسكرية دولية من بريطانيا وحليفاتها ، واحتلت القوات الأجنبية المتحالفة شتى أحياء العاصمة ، وفرضت رقابة عسكرية صارمة على الميناء ، وأخضعت لهذه الرقابة أيضاً قوات الشرطة وقوات الأمن الداخلي - الجندرية - وكذلك المرافق العامة حتى على خطوط الترام وعرباتها .

إستانبول تشهد مسرحية هزلية :

وتعرضت إستانبول لمسرحية هزلية كشفت عن شماعة السكان اليونانيين في العاصمة بهزيمة الأتراك من ناحية ، وتفاهة بعض العسكريين من ناحية

أخرى . ففي الثامن من فبراير - شباط - سنة ١٩١٩ دخل إستانبول القائد الفرنسي الجنرال فرانسيه دسبري General Franchet d'Espérey ممتطيًا صهوة جواد أبيض أهدها إليه السكان اليونانيون في إستانبول . وكانت حججهم في تقديم هذا النوع من الهدية أن السلطان محمد الفاتح حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام دخلها لأول مرة راكباً حصاناً أبيض اللون (١) ، فأراد هؤلاء اليونانيون أن يكون احتفالهم بدخول قوات بريطانيا وحليفاتها عاصمة الأتراك وعلان ابتهاجهم بهذه المناسبة التاريخية على غرار ما حدث من أربعائة وست وستين سنة خلت . ولم يلبث أن أعلن البطريرك اليوناني في إستانبول استقلال «الرعايا» اليونانيين عن الحكومة التركية ، وقطع في ٩ من مايو - آيار - ١٩١٩ علاقاته مع الباب العالي . وتناسى البطريرك والرعايا اليونانيون ما كانوا يظفرون به من معاملة كريمة وممتازة في ظل الحكم العثماني .

وفي ذات الوقت تقريباً كانت القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية قد احتلت عدة مواقع في منطقة المضائق . وكان الأسطول البريطاني يربط في بحر مرمره وفي مياه البوسفور تجاه العاصمة . فكان احتلال بريطانيا وحليفاتها لمنطقة المضائق احتلالاً بحرياً وبرياً .

والحق أن هذنة مدروس وما ترتب عليها من أحداث مباشرة وسريعة كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة العثمانية ، وإنتهاكاً لسيادتها على منطقة المضائق ، وإنتقاصاً من استقلالها ، ونذيراً بشروط قاسية تمليها بريطانيا وحليفاتها في معاهدة الصلح التي سوف تفرضها على الدولة ، وهي معاهدة سيفر .

معاهدة سيفر :

عرض وتحليل ونقد :

كانت بريطانيا وفرنسا قد فرغتا في ٢٦ (٢) من شهر أبريل-نيسان-

Lewis Bernard; The Emergence etc, op. cit., p. 240. (١)

(١) كانت هاتان الدولتان قد فرغتا في اليوم السابق - ٢٥ من أبريل نيسان - من تسوية مسألة الانتداب على الأقاليم العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية في الشرق العربي الآسيوي .

١٩٢٠ من إقرار معاهدة الصلح مع تركيا في إجتماع المجلس الأعلى في سان ريمو San Remo ، وهي بلدة إيطالية على ساحل الريفييرا . واتضح أن الهدف من هذه المعاهدة هو تصفية الإمبراطورية العثمانية أو كما يقول ذوو الوراثة في النكتة دفن رجل أوروبا المريض الذى طال مرضه وطال احتضاره أكثر من اللازم وقد سلمت هذه المعاهدة للوفد التركى في باريس في ١١ من مايو - آيار- وكان هذا الوفد يمثل السلطان العثمانى محمد السادس ووزراءه ، ولكنه لم يوقع عليها إلا مكرهاً في ١٠ من أغسطس - آب - ١٩٢٠ أى بعد إنقضاء ثلاثة أشهر . وقد تم التوقيع في مدينة سيفر Sèvres وهي مدينة فرنسية على نهر السين تشتهر بوجود مصنع فرنسى للأواني الخزفية المتناهية في جلالها ودقتها . وقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا والمملكة الحبيبة بن علي في الحجاز التوقيع عليها . وما هو جدير بالذكر أنه بعد أن تم توقيع معاهدة سيفر ، تبلى إلى مصنع الخزف الضابط مصطنع كمال ونسفه .

ويلاحظ أن معاهدة سيفر قد عقدت مع الدولة التركية The Turkish State ، وتفهم من بين ثنايا المطور على أنها امتداد للدولة العثمانية مصغرة . ولذلك جاء في بعض موادها ذكر للسلطان على أنه رأس الدولة ، وجاء ذكر لإستانبول (القسطنطينية) على أنها العاصمة ، ونص فيها على أن حقوق الحكومة التركية على إستانبول لا تمس ، وأن مقر السلطان والحكومة التركية هو إستانبول بصفتها عاصمة الدولة التركية .

وقد تعرضت معاهدة سيفر لأثارة المضايق في المواد من ٣٧ إلى ٤٠ فنصت المادة (٣٧) على أن الملاحه في المضايق ، وتشمل على سبيل التحديد الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور ، تكون في المستقبل مفتوحة في وقت السلم وزمن الحرب لكل سفينة تجارية أو حربية ، وللملاحه الجوية العسكرية والتجارية دون أى تمييز بين الدول . ولا تكون مياه هذه المضايق عرضة للحصار ولا يباشر فيها أى حق حربى أو أى عمل عدائى إلا تنفيذاً لقرار يصدر عن مجلس عصبة الأمم .

ونصت المادة (٣٨) على أن الحكومة التركية تقرر أنه بات من الضرورى

اتخاذ مزيد من الاجراءات لضمان حرية الملاحة المنصوص عليها في المادة السابقة . وبناء على ذلك ، فبني تعهد إلى لجنة تسمى لجنة المضايق بمراقبة حركة الملاحة في مياه المضايق . وتعهد الحكومة اليونانية أيضاً إلى هذه اللجنة ببدأت التفويض وتتعهد بأن تقدم لها في جميع الأحوال نفس التسهيلات ، على أن تمارس هذه المراقبة باسم الحكومتين التركية واليونانية ووفقاً للطريقة المنصوص عليها في المادتين التاليتين .

وقررت المادة (٣٩) أن سلطنة لجنة المضايق تعتمد على كافة المياه المحصورة بين مصب البحر المتوسط في اللوردليل وبين مصب البحر الأسود في البوسفور ، كما تمتد إلى مسافة ثلاثة أميال فيا وراء كل من هذين المصبين ، ويجوز أن تمارس هذه السلطة على الماحل إلى الحد الذي يكون ضرورياً لتنفيذ الشروط الواردة في هذا القسم من المعاهدة الخاص بمسألة المضايق .

وتعرضت المادة (٤٠) لطريقة تشكيل لجنة المضايق وطريقة التصويت . فقررت أنها تنظم عشرة أعضاء يمثل كل عضو دولة واحدة . وهذه الدول هي الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، إيطاليا ، اليابان ، روسيا ، اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، تركيا . وشملت المادة تحفظات على عضوية بعض هذه الدول ، فقالت إن روسيا ، بلغاريا ، وتركيا لا يسمح لها بالانضمام إلى لجنة المضايق إلا إذا دخلت في عصبة الأمم . أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد ترك أمر عضويتها إلى رغبة حكومة واشنطن ، فقالت « إذا أرادت ومتى أرادت هذه الحكومة أن تسهم في أعمال لجنة المضايق » . ونصت نفس المادة على أن يكون للممثل كل من أمريكا ، بريطانيا ، وفرنسا وإيطاليا ، واليابان ، والروسيا صويتان . أما ممثلو اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وتركيا فيكون لكل منهم صوت واحد . وأخيراً نصت المادة على أن يمثل كل دولة غير قابل للعزل إلا بمعرفة حكومته (١) .

(١) تعهد النص الرسمي الكامل لمعاهدة سيفر في .

وقد جاءت معاهدة سيفر بمجموعة من المبادئ والقواعد العامة يمكن إدراجها تحت ثلاثة أنواع ، النوع الأول كان معروفاً ومعمولاً به من قبل ومعتزاً به في الأسرة الدولية بحيث غدا من المبادئ العامة في القانون الدولي العام ، النوع الثاني فيتطوى على شلوذ وخروج على قواعد القانون الدولي العام ، النوع الثالث فيتمثل في مبادئ العمل على إشفاء الأحقاد بدلا من العمل على إلزتها ، وإثثار مبادئ الاستعمار على مبادئ العدالة والحرية .

أما النوع الأول فيتمثل في تقرير حرية المرور في الدردنيل والبوسفور لجميع السفن التجارية والحرية في جميع الأوقات دون تمييز بين جنسية السفن مع تحريم فرض الحصار على المضائق أو ممارسة أى حق حربي أو عمل عدائي إلا إذا كان الإتيان يمثل هذا العمل تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . وهذا المبدأ العام مقرر في إتفاقية الآستانة المعقودة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ والخاصة بتنظيم حرية مرور السفن في قناة السويس . كما أنه مقرر في كل من معاهدة هاى - بونسفوت (١) - Hay Pauncefote في المادة الثالثة البند الأول والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩٠١ والخاصة بقناة بناما التي كان مزعماً حضرها - وقد افتتحت هذه القناة لملاحة في ١٥ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٤ - وفي معاهدة هاى - بونو فاريللا (٢) - Hay Bunau Varilla في المادة الثامنة عشرة والمبرمة في ١٨ من نوفمبر - تشرين ثان - ١٩٠٣ والخاصة بقناة بناما أيضاً . فهذا المبدأ العام كان معمولاً به في قناة السويس ومقررًا للتطبيق عند افتتاح قناة بناما . غير أن معاهدة سيفر أجازت ممارسة الأعمال العدائية في منطقة المضائق إذا كانت هذه الأعمال تنفيذاً لقرار صادر عن مجلس عصبة الأمم . ومثل هذه الإباحة غير موجودة في إتفاقيات قناة السويس وبناما . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن عصبة الأمم لم تكن قد رأت النور في سنة ١٨٨٨ أو سنة ١٩٠١ أو

(١) كان هاى وزير الخارجية الأمريكية ، وبونسفوت جوليان هو السفير البريطاني في واشنطن .

(٢) بونو فاريللا هو ممثل بناما في واشنطن .

سنة ١٩٠٣ ، كما يلاحظ أيضاً أن معاهدة سيفر قد أجازت الملاحة الجوية التجارية والعسكرية لجميع الدول فوق منطقة المضائق بينما جاءت اتفاقيات قناتي السويس وبناما خالية من مثل هذه الإباحة . وقد تداركت بريطانيا هذا الأمر بعد ذلك ، فنصت عليه في معاهدة ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ بالنسبة للطيران البريطاني . أما قناة بناما فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستأثر بالنفوذ عليها استناداً إلى اتفاقيات عقدها مع الدولة صاحبة الإقليم وهي بناما التي سامت لها بهذا المركز الانفرادي المتميز وقنعت بالاحتفاظ بسيادة اسمية وأعطت الولايات المتحدة حق ممارسة جميع المظاهر العملية لهذه السيادة الفعلية .

أما النوع الثاني الذي جاءت به معاهدة سيفر فينطوى على مبدأ جائز وشاذ ، إذ جعلت في الدولة العثمانية سيادة مزدوجة إحداهما للحكومة التركية والأخرى للحكومة اليونانية . وجعلت المعاهدة هاتين الحكومتين هما مصدر التفويض للرقابة الدولية على تنظيم حرية مرور السفن في الدردنيل واليوسفور . وكانت هذه الرقابة الدولية ممثلة في لجنة المضائق . فأصبحت هذه اللجنة تستمد وجودها وكيانها وسلطاتها واختصاصاتها من الحكومتين معاً . وجعلت المعاهدة الحكومة اليونانية شريكة لصاحب الإقليم الأصلي في إصدار تفويض لهذه اللجنة في قيامها ومباشرة عملها . وهذا هو وجه الشلوذ في معاهدة سيفر ، ولا يجد الباحث تفسيراً أو تبريراً لهذا الشلوذ سوى رغبة بريطانيا في إذلال الشعب التركي عقب هزيمته عقاباً له على انضمامه إلى ألمانيا . وقد تجلّت روح الانتقام في كافة المعاهدات التي فرضتها بريطانيا وحليفاتها على الدول المهزومة مثل معاهدة فرساي Versailles مع ألمانيا في ٢٨ من يونيو - حزيران - سنة ١٩١٩ ، ومعاهدة سان جرمان (١)

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم سان جرمان ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد المكان المقصود . ويقصد سان جرمان في هذه الدراسة Saint-Germain-en-Laye وهي مدينة وعاصمة مقاطعة سين واوزا Seine-et-Ois وعلى مقربة من فرساي ضاحية باريس .

St. Germain مع النمسا في ١٠ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ ،
ومعاهدة نويلى^(١) Neuilly في ٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩
مع بلغاريا ، ومعاهدة تريانو^(٢) Trianon في ٤ من يونيو - حزيران - سنة
١٩٢٠ مع المجر .

وهناك تقرير آخر هو أن اليونان كانت قد احتلت أزمير في ١٥ من
مايو - آيار - سنة ١٩١٩ وسعت منذ ذلك الوقت نحو توسيع منطقة احتلالها .
واعتمدت بريطانيا أن الاحتلال اليوناني لأزمير سيطول أمده وسيتمتع
مدها . وتناست بريطانيا أن الأتراك وهم من أشد المخاربين صلابة وبسالة
واسترخاءاً للموت لن يقبلوا هذه الأوضاع ، ومن ثم أقبلت بريطانيا على
بجاملة اليونانيين . ولا ننسى أنهم كانوا حلفاءها في الحرب العالمية الأولى .
ومن ثم جاء هذا الشذوذ في المبادئ التي انطوت عليها معاهدة سيفر .

والمبدأ الثالث الذي جاءت به معاهدة سيفر فيما يختص بمسألة الدردنيل
والبوسفور هو فرض رقابة دولية لضمان حرية مرور السفن في منطقة
المضائق . وقد أخذت هذه الرقابة الدولية شكل لجنة أطلق عليها لجنة
المضائق The Straits Commission وقوامها عشرة أعضاء يمثلون عشر دول
أوروبية وآسيوية وأمريكية ، ولم تكن إفريقية ممثلة بأية دولة في اللجنة .
ويلاحظ أن تمثيل الدول لم يكن على قدم المساواة ، فبعض الدول كان
لممثلها صوتان ، وللبعض الآخر صوت واحد ، كما أن عضوية بعض الدول
في لجنة المضائق كانت مقيدة بشرط حتى هو قبول هذا الفريق من الدول
في عصبة الأمم .

(١) توجد في فرنسا عدة أماكن تحمل اسم نويلى ، ولذلك يذكر بعدها اسم آخر يحدد
المكان المقصود . ويقصد بكلمة نويلى في هذه الدراسة Neuilly sur Seine وهو اسم مدينة
هي حاضرة مقاطعة السين وتقع على نهر السين ، وعلى مقربة من غابة بولونو Bois de Boulogne
وغلف سان دني سانت دني Saint Denis

(٢) تريانو اسم يطلق على قصرين صغيرين في متزهات فرساي ، يطلق على القصر الأول
تريانو الكبير Le Grand Trianon وقد شيده الملك لويس الرابع عشر ، ويطلق على القصر
الثاني تريانو الصغير Le Petit Trianon وقد بناه الملك لويس الخامس عشر .

وكانت لجنة المضايق تشبه إلى حد ما لجنة القناصل التي نصت عليها المادة الثامنة من اتفاقية ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - ١٨٨٨ الخاصة بقناة السويس مع فروق هامة هي أن اتفاقية القناة قد حددت تحديداً دقيقاً اختصاصات لجنة القناصل وميزت بين الاجتماعات الطارئة والاجتماعات الدورية التي تعقدتها مرة كل سنة ، وطريقة مواجهة الأحداث التي تهدد سلامة القناة أو حرية المرور بها ، ورياسة اللجنة في كل نوع من نوعي اجتماعاتها . أما لجنة المضايق فإن معاهدة سيفر لم تعرض لمثل هذه التفاصيل الهامة والضرورية . ولذلك كان الغموض يحيط باللجنة من يمين وشمال .

ومما هو جدير بالذكر أن بريطانيا سبق لها أن عارضت معارضة عنيفة للغاية فرض رقابة دولية على حرية مرور السفن في قناة السويس ، وذلك في أثناء الجلسات التي عقدتها لجنة باريس الدولية في الفترة من ٣٠ من مارس - آذار - إلى ١٣ من يونيو - حزيران - سنة ١٨٨٥ لوضع مشروع اتفاقية قناة السويس . ووقفت بريطانيا في وجه الدول الأوروبية الكبرى وهي فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، النمسا والمجر ، الدولة العثمانية . وقد شكلت هذه الدول كتلاً دولياً في اللجنة ضد بريطانيا نكابة فيها لاحتلالها مصر . وتأرجح موقف إيطاليا بين الطرفين المتصارعين . ولما وجدت بريطانيا إصراراً من الدول الكبرى على قيام الرقابة الدولية على قناة السويس عملت بكل ثقلها على التخفيف من قيود هذه الرقابة . ومع ذلك فلما تقررت الرقابة الدولية في شكل لجنة تتكون من وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدين في مصر استغلت بريطانيا نفوذها المتفوق الانفرادي في مصر بسبب احتلالها مصر وعملت على منع اجتماعات لجنة القناصل سواء الاجتماعات الطارئة أو الاجتماعات الدورية منعاً باتاً سواء على عهد الاحتلال أو الحماية أو الاستقلال الشكلي فضلاً عن الجهود اللاحقة (١) وهكذا فإن بريطانيا ، لمصلحتها الخاصة ، عارضت

(١) أنظر بخصوص هذا الموضوع :

في سنة ١٨٨٥ قيام رقابة دولية على قناة السويس ؛ وفرضت في سنة ١٩٢٠ رقابة دولية على منطقة المضائق نكابة في تركيا ، ورغبة في دعم موقفها الاستعماري في منطقة الشرق الأدنى .

لم تكن الحكومة التركية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وعقد هدنة مدروس في وضع عسكري أو سياسي يسمح لها بالاعتراض على ماجاء في معاهدة سيفر سواء فيما يختص بمسألة الدردنيل والبوسفور أو بالمسائل الأخرى التي تعرضت لها المعاهدة ، فالمتنصر وهو في قمة الانتصار ونشوة الابهج يشترط ويملي شروطه ويفرض إرادته على الدولة المهزومة . وقد قيل في هذا الصدد « ويل للمظلوم » وهي عبارة تصدق على الحاضر كما صدقت على الماضي . ويعلق أحد كبار المؤرخين الإنجليز على معاهدة سيفر بقوله إنها كانت في مرادها وأحكامها وشروطها أكثر قسوة على تركيا من شروط معاهدة قرساي التي فرضت على ألمانيا^(١)، مع أن الدولتين - ألمانيا وتركيا - كانتا حليفين وهزمتا في حرب واحدة على يد دول واحدة . وقد قضت معاهدة سيفر على تركيا كدولة أوربية من الناحية العملية^(٢).

تجميد معاهدة سيفر :

كان السلطان محمد السادس ووزراؤه يعيشون في إستانبول تحت تهديد الأسطول البريطاني ، وقد أتى مراسيه في مياه البوسفور ، بينما كانت قوات

- دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : تكتل الدول لتحويل قناة السويس ، نكابة في بريطانيا .

بحث منشور في جزيين في حريات كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

الجزء الأول ، المجلد الثالث والمترون - الجزء الأول - مايو ١٩٦١ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، صص ١١ - ١٥٤ .

الجزء الثاني ، المجلد الثالث والمترون - الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٦١ مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، صص ١ - ٤٧ .

(١) Lewis Bernard ; The Emergence etc., op. cit., p. 247.

(٢) Miller W. ; op. cit., p. 451.

بريطانيا وحليفاتها تحتل إستانبول وكانت قد أقيمت فيها - كما سبق أن ذكرنا - إدارة عسكرية تمثل دول المعسكر الغربي التي أقامت رقابة صارمة على شتى مرافق العاصمة . وفي جو الهزيمة الكئيب أرغم السلطان ووزراؤه على التوقيع على معاهدة سيفر ، ووقفت الغالبية الساحقة من الشعب التركي ضد المعاهدة الجائرة ، واعتبرت يوم التوقيع عليها يوم حداد عام في أرجاء تركيا .

وقد اعتقد البعض أن موافقة السلطان على المعاهدة هي بادرة طيبة لتنفيذها . ولكن مرعان ماتكشفت عدة عوامل جعلت تنفيذ شروطها أمراً متعلراً إن لم يكن مستحيلاً . لقد رفضت الولايات المتحدة ويوغوسلافيا وحسين بن علي ملك الحجاز هذه المعاهدة كما ذكرنا . وكانت اليونان قد خرجت بمكاسب إقليمية وسياسية هائلة ، ولكنها لم تقنع بها ، وأرادت مزيداً من مكاسب أخرى على حساب تركيا لتكون دولة تضم - فيما تشمل عليه - النصف الغربي من الأناضول ، ثم تصاعدت بطلبتها ففرضت على بريطانيا وحليفاتها أن تسمح لها باحتلال إستانبول مما زاد الموقف في تركيا اشتعالاً . غير أن العامل الحاسم في تدهور الموقف بالنسبة لبريطانيا وحليفاتها كان الشعب التركي . فقد أوى الاستسلام وهاله أن تتمزق بلاده على هذا النحو المزمى تحتلها القوات البريطانية والفرنسية والإيطالية والفرنسية والإيطالية واليونانية ، وهو الذي خاض أشد الحروب حولاً وكون إمبراطورية امتدت في ثلاث قارات . فنار على الأوضاع التي جاءت بها معاهدة سيفر . وقاد مصطفى كمال حركة ثورية واتخذ من الأناضول ، وهي منطقة منيعة محصنة بالهضاب الوعرة الجرداء ، مركزاً لحركته الثورية وألب الجيش للسرود والمقاومة ، وتحدى الدول التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى وفرضت معاهدة سيفر على بلاده فرضاً .

رأى مصطفى كمال في الموقف بعد هزيمة بلاده :

نعى مصطفى كمال على رجال الاتحاد والترقي سياستهم التي جعلت تركيا نواكب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وتعرض للأهيار السريع . وقد أرجع

التدهور الذي أصاب الدولة قبل الحرب إلى عوامل عديدة ومتشابهة : زجت بنفسها في حبال اللول الأوروبية الكبرى ، وخضعت لتهديتها ، وظلت متخلفة فلم تدابير ركب الحضارة ، وبدنت جهودها في حكم شعوب غير تركية . وإذا كانت بريطانيا وحليفاتها قد احتلت في تلك الحرب العراق وفلسطين وسوريا ، ومن قبل الحرب تونس ومصر وليبيا وغيرها فإنه يقبل سلخ هذه الولايات وغيرها من الأقاليم غير التركية التي كانت خاضعة للدولة . ولكن لا بد في مقابل هذه التضحيات من الاحتفاظ بالأناضول بصفته الموطن الأصلي للأتراك وإقليم تراقيا الشرقية وإستانبول ، والحفاظ على الاستقلال التام للشعب التركي وسلامة أراضيه ، وسيادة الدولة على جميع بقاع الوطن التركي بما فيه منطقة المضائق . وكان شعاره تركيا للأتراك (١) Turkey for the Turks وتطلب تنفيذ هذه المبادئ التحرر من الحكم الأجنبي في جميع صورته وأشكاله ومظاهره .

ولن نعرض لتاريخ تركيا في الفترة من توقيع هدنة مدروس (سنة ١٩١٨) إلى إبرام معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) إلا بالقدر الذي يتصل بموضوع المضائق والبحر الأسود والقدر الذي جعل بريطانيا وحليفاتها تغير سياستها تغييراً جذوياً تجاه تركيا المهزومة ، فتقرر إلغاء معاهدة سيفر ووضع معاهدة جديدة هي معاهدة لوزان تبعاً. منها معظم الشروط الجائرة التي جاءت بها المعاهدة الأولى . وعلى سبيل المثال تقرر إبعاد اليونان من الأشر الك مع تركيا في عمل من صميم سيادة الدولة على منطقة المضائق ، كما تقرر إعادة إقليم تراقيا الشرقية إلى تركيا . وكانت اليونان قد ظفرت بهذا الإقليم في معاهدة سيفر . مما يدل على أن لبريطانيا مصالح دائمة ولكن ليس لها أصدقاء دائمون .

نزاح ثلاث مشكلات :

واجه مصطفى كمال موقفاً مظلماً كثيف الإغلام . كان جيش يوناني قد نزل في أزمير في ١٥ من مايو - آيار - سنة ١٩١٩ تحت حماية ثلاثة

أساطيل هي الأساطيل البريطانية والفرنسية والأمريكية . واحتل اليونانيون الميناء والمدينة والمنطقة المحيطة بها واتخذوها مقعاً إستراتيجياً للتوسع في داخل الأناضول في اتجاه الشرق . وقيل في تفسير أو تبرير اشتراك أساطيل ثلاث دول كبرى في إنزال القوات اليونانية إن بريطانيا وحليفاتها أرادت قطع خط الرجعة على إيطاليا التي طالبت بتنفيذ ادعاءاتها في منطقة الأناضول بما فيها أزمير وجزر الدوديكانيز ووجهات أخرى في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . وكانت هذه الادعاءات موضوع اتفاقات عقدت في أثناء الحرب العالمية الأولى : منها اتفاق لندن السري المعقود بين دول الوفاق الثلاثي وإيطاليا في ٢٦ من أبريل - نيسان - ١٩١٥^(١) . وكان إبرام هذا الاتفاق هو ثمن بخروج إيطاليا على حليفيتها دولي الوسط وإعلانها الحرب على النمسا في ٢٣ من مايو - آيار - سنة ١٩١٥^(١) ، ثم الاتفاقية الثلاثية المعروفة باسم سان جان دي مورين Saint-Jean de Maurienne المبرمة بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية (١٩ أبريل - نيسان - ٢٦ من سبتمبر - أيلول - ١٩١٧) وقد اجتمع رؤساء الوزارات البريطانية والفرنسية والإيطالية في عربة قطار وقف بهم في محطة سان جان دي مورين ، وهي قرية جبلية صغيرة على الحدود الفرنسية الإيطالية^(٢) . وقد أقرت اليونانيون في نزولهم أزمير الكثير من ضروب

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1920, Misc. No. 7. Cmd, 671.

تحت عنوان :

Secret (London) Agreement : The Entente
Powers and Italy. 26 April, 1915.

(٢) تجد نص هذه الاتفاقية في :

Hurewitz J.C. ; op. cit., vol. II, pp 23—25

تحت عنوان :

Tripartite Saint-Jean de Maurienne
Agreement for the Partition of the
Ottoman Empire : Britain, France, and
Italy. (19 April-26 September 1917).

الوحشية وجرائم الحرب . وقد ألهب الاحتلال اليوناني لأزمير مشاعر الأتراك ، واعتبروه إذلالاً لهم ، وأزكى في نفوسهم تصميماً على طردهم ، إذ كانوا يحتقرون اليونانيين على أساس أنهم شعب خضع للأتراك أعصراً وأدهاراً وأحقاباً . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز لو أن الإيطاليين قد احتلوا أزمير ما أثار احتلالهم هذه الموجدة العارمة التي أثارها الاحتلال اليوناني في نفوس الأتراك (١) . ويضيف إلى ذلك قوله إن منظر الرواية اليونانية المزحاة وهي تخفق فوق أصقاع من الأناضول كان يعد من جانب كل تركي وطى إهانة لا تغتفر . وكان مما أثار مخبط الأتراك التصريحات المكرورة التي كان يعلنها اليونانيون من وقت لآخر ، وهي أن احتلالهم أزمير ومنطقتها ليس احتلالاً مؤقتاً ينحسر بعد فترة ، إنما هو عملية ضم نهائي ، وسياتبع مدهاه ليشمل الأناضول لتكوين إمبراطورية هيلينية كبرى ، بركة وبحرية ، وتمتد في آسيا وفي أوروبا ، وتشمل السواحل الشرقية والغربية لبحر إيجه فضلاً عن منطقتي المضائق . وكان اليونانيون يعتمدون في تحقيق هذه المشروعات على تأييد بريطانيا . وكان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ضالماً معهم ، ويشعر بكرهية شديدة نحو الأتراك ، ويتمنى لو استطاع اليونانيون سحقهم نهائياً وأن يتموا العمل الذي قام به الجنرال مود Maudo في العراق والجنرال اللبي Allenbey في فلسطين عند ما نجحوا في طرد الأتراك وإنهاء الحكم التركي في هذين الإقليمين . ولذلك كانت اليونان الدولة البلقانية المدللة لدى بريطانيا وقفت إلى جانبها تؤيد الوجود العسكري اليوناني في منطقتي أزمير . كانت اليونان قد ظفرت من بلغاريا - بمقتضى معاهدة نوبلي Nelly (٢٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩١٩) - بإقليم تراقيا الغربية ، وظفرت من تركيا - بمقتضى معاهدة سيفر (١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠) بإقليم تراقيا الشرقية ، فأصبحت اليونان على مسافة بضعة أميال من إستانبول ، وراودتها أعذب الآمال في الاستيلاء على العاصمة التركية المتيدة . وكانت تركيا قد تخلت لليونان بمقتضى معاهدة

سيقر أيضاً عن كل حقوقها على إمبروس Imbros وهي جزيرة في بحر إيجه على مقربة من الدردنيل ، وعلى تينيدوس Tenedos وهي جزيرة في نفس المنطقة على ساحل الأناضول. وكان الوجود العسكري اليوناني في هاتين الجزيرتين يمثل خطراً مزدوجاً ، فهو ، من ناحية ، يدعم مركز اليونان في لجنة المضايق وفي مباشرة سلطاتها على تنظيم حرية مرور السفن في الدردنيل والبوسفور ، وبالتالي التحكم في الإشراف على حركة الملاحة في البحر الأسود باعتبار اليونان إحدى الدولتين اللتين تستمد منها لجنة المضايق شرعيتها ووجودها واختصاصاتها ، ومن ناحية أخرى فإن وجود اليونان في تلك الجزيرتين وعلى مقربة من أزمير مما يدعم السيطرة العسكرية لليونان على الساحل الغربي للأناضول . وبلا حظ أنه كان ليونانيين نشاط واسع في الأناضول حيث انتشروا في هضابها ومدن ساحلها الغربي المطل على بحر إيجه وكانوا يبلغون في تقدير البعض ما يوتراً ، وفي تقدير البعض الآخر نصف مليون . وكان من بينهم التجار وزراع التبغ والكروم وصناع الطنافس إلى جانب رجال المال وأصحاب المصارف المالية .

وكان فزيليوس Venizelos رئيس الوزارة اليونانية ، والزعيم السياسي الكبير ، والكريتي المولد ، قد وضغ مشروع إنشاء إمبراطورية شاسعة الأرجاء على أنقاض الدولة العثمانية التي تداعت ، وتحمل الإمبراطورية الهيلينية المرتجاة محل هذه الدولة في الإشراف على مرور السفن في منطقة المضايق وتكون لها الكلمة المدسوعة في تنظيم حركة وحرية الملاحة في البحر الأسود . وأخذ فزيليوس على عاتقه تنفيذ معاهدة سيفر بمساعدة قرض من بريطانيا .

فالاتلال اليوناني كان يمثل إحدى المشكلات التي واجهها مصطفى كمال . وكانت هناك مشكلة الاتلال الدولي لإستانبول ومنطقة المضايق . وتمثل هذا الاتلال ، كما سبق أن ذكرنا ، في قوات بريطانية وفرنسية وإيطالية . وتنبثق عن هذه المشكلة مشكلة إشراك اليونان مع تركيا كدولتين تستمد لجنة المضايق منها أساس وجودها ، ثم الإشراف الدولي على تنظيم حرية (م ١٧ - الدولة العثمانية)

لمرور في المضايق على النحو الذي جاءت به معاهدة سيفر . وكانت هناك مشكلة ثالثة تظل برأسها وتقرض نفسها فرضاً على قيادة الثورة الكيالية ، وهي مشكلة السلطان محمد السادس وأعضاء حكومته في إستانبول . وكانوا يشكلون في مجموعهم أداة طيعة لينة في يد بريطانيا يأتمرون بأوامرها وتستخدمهم أداة لضرب الثورة . وقد تطلبت المشكلة الثالثة يقظة دائمة ودبلوماسية مرنة وقدرة على التحرك السريع لمواجهة أى إجراء يتخذه السلطان وحكومته لوأد الثورة الكيالية وهي في مهادها الأولى أو العصف بها حين يكتمل نموها ويشد ساعدها .

مؤتمر أرضروم :

كانت المجموعات الأولى للمقاومة الشعبية قد تكونت في ديسمبر - كانون أول - ١٩١٨ عقب التوقيع على هدنة مندروس . وأطلق عليها جمعيات الدفاع عن الحقوق - مدافعي حقوق - وقد ظهرت طلائع هذه الجمعيات في تراقيا وأزمير وبعض جهات في الأناضول . ووجهت نشاطها ضد اليونانيين بوجه خاص . ثم تكونت في مدينة أرضروم (١) في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩١٩ جمعية الدفاع عن حقوق شرقي الأناضول . ودعت إلى عقد مؤتمر اجتماع في ذات المدينة في ٢٣ من يوليو - تموز - سنة ١٩١٩ وحضره مندوبون عن الأقاليم في شرقي الأناضول ، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمؤتمر في اليوم الأول الذي اجتمع فيه ، وقد استمرت اجتماعاته حتى ١٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩١٩ ، وكان أهم إنجاز قام به المؤتمر هو وضع مشروع التصريح الذي عرف فيما بعد باسم الميثاق الوطني أو ملي ميثاق .

(١) يطلق على هذه المدينة أيضاً اسم أرزن الروم - يمتح الألب وسكون الراء وضع الزاي - وهي قسبة ولاية أرمنية التركية . وكانت هذه المدينة من أهم الحصون الواقعة على الحدود الشرقية للدولة . وكان الفرس ينتزعون هذه المدينة من الأتراك ، ولكن كان الأبخيريون ينجسون دائماً في استعادتها . وتشغل المدينة حيزاً كبيراً في تاريخ الدولة العثمانية .

مؤتمر سيواس :

وفي ٤ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩١٩ عقد المؤتمر الثاني في مدينة سيواس^(١) وكان يفوق مؤتمر أرضروم من حيث الأهمية ، وحضره مندوبون من جميع أنحاء البلاد . وانتخب مرة أخرى مصطفى كمال رئيساً له ، وأيد المؤتمر قرارات مؤتمر أرضروم ، وكان من بينها المحافظة على سلامة أراضي النوبة ، والاستمساك باستقلال الشعب ، ومباشرة العمل المسلح عند الضرورة ضد الدول التي تحتل البلاد . وكان اهتمام المؤتمر موجهاً بوجه خاص إلى إتاحة جو إعلامي مناسب لإذاعة قرارات مؤتمر أرضروم وكسب التأييد الشعبي لها في جميع أنحاء تركيا . وفي هذا المؤتمر تغير اسم جمعية الدفاع عن حقوق شرق الأناضول إلى اسم أكثر شمولاً هو « جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والرومل » « أناضولو وروملي مدافعي حقوق جمعيتي » مع تشكيل لجنة دائمة من بعض أعضاء المؤتمر يرأسها مصطفى كمال . وأصبحت هذه اللجنة هي رائدة الكفاح الوطني وأداته .

إثارة الأكراد على الكمايين :

وقد ردت حكومة إستانبول بتشجيع من بريطانيا على نشاط الكمايين ، فأثارت قبائل الأكراد الضاربة في شرقي الأناضول ضد حركة مصطفى كمال . ولم تسفر هذه المحاولة عن نتائج ذات بال ، بل جاءت بنتيجة عكسية ، إذ كانت من العوامل التي أدت إلى سرعة قطع العلاقات بين حكومة إستانبول والكمايين . ويلاحظ أن مصطفى كمال ظل حريصاً معظم الوقت على ألا يبدو بمظهر الثائر على الحكومة الشرعية في إستانبول . ولما أصدر السلطان « إرادة » بزمه من منصبه كقنصل عام للجيش الثالث - وكان مقر قيادته في سامسون على ساحل البحر الأسود شمالي الأناضول - امتثل لهذه « الإرادة » وكف عن لبس الزي العسكري وارتدى الملابس المدنية .

(٢) سيواس مدينة تقع في شمال الأناضول .

برلمان إستانبول يتعاطف مع الكالمين :

اكتسبت حركة مصطفى كمال أنصاراً لها في طول البلاد وعرضها :
وتحمس لها الكثيرون من سكان إستانبول مقر حكومة السلطان .
ولما أجريت انتخابات جديدة في ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩
للبرلمان العثماني الذي اجتمع في إستانبول في ١٢ من يناير - كانون ثان -
سنة ١٩٢٠ فاز بالأغلبية فيه أنصار مصطفى كمال والمتعاطفون مع حركته .
ولم يلبث أن أقر البرلمان الجديد - بعد مضي أسبوعين - صياغة الميثاق
الوطني في ضوء قرارات مؤتمر أرضروم وسبواص (١) . وقد جاء في صياغة
هذا الميثاق موافقة البرلمان على أن تدلخ من جسم الدولة العثمانية الولايات غير
التركية التي كانت خاضعة لها . ولكن تمسك المجلس في مقابل هذه «التضحيات»
بعدة مطالب منها : الحفاظ على الأناضول متحرراً من كل نفوذ أجنبي
بصفة هذا الإقليم هو الموطن الأصلي للأتراك العثمانيين ، وعلى إقليم ترابيا
الشرقية ، وعلى بقاء إستانبول في نطاق الدولة التركية تأسيساً على أن هذه
المدينة هي « مركز خلافة الإسلام وعاصمة السلطنة ، ومقر الحكومة »
وأن يكون بحر مرمرة بمنأى عن كل خطر أجنبي . ومعنى هذه الفقرة
تحرير منطقة المضائق من الوجود العسكري لدول المعسكر الغربي . وجاء
في الميثاق أيضاً أن تركيا تقبل فتح البوسفور والدردنيل لمرور التجارة
العالمية مع ضرورة إسماهما في النظام الذي يوضع لمرور التجارة العالمية (٢) .
ويلاحظ أنه لم يرد نص في الميثاق لمرور السفن الحربية سواء للدول

(١) لم تطل الحياة لهذا البرلمان ، فقد عقد آخر جلسة له في ١٨ من مارس - آذار - سنة
١٩٢٠ حيث أصدر قراراً بالإجتماع بالاحتجاج على القبض على بعض أعضائه ، ثم قرر تأجيل
اجتماعاته إلى أجل غير مسمى .

ويبدو أن السلطان ساهم إقرار البرلمان صياغة الميثاق الوطني ، فأصدر في ١١ من أبريل
- نيسان - ١٩٢٠ قراراً بحل البرلمان وقد وُضع هذا القرار نهاية للحياة النيابية في إستانبول

Toynbee Arnold J. ; The Western Question in Greece (٢)
and Turkey. London., 1922, pp. 209—210.

الصديقية أو الدول العنوة أو في وقت السلم أو زمن الحرب . وقال الميثاق إن هذه المبادئ هي التي تكفل قيام سلام عادل ودائم .

تعزير الاحتلال الأجنبي لإستانبول سنة ١٩٢٠ :

نشط أنصار مصطفي كمال في إستانبول وساعدوا الحركة الثورية قولا وعملا ، فأخلوا بهاجون مستودعات الأسلحة والذخائر التابعة لقوات بريطانية وحليفاتها ، ويرسلون مايسوثولون عليه إلى الأناضول كغنائم حرب . واتخذت بريطانيا وحليفاتها لإجراءات مضادة وسريعة . حامت شكوكها حول على رضا باشا الصدر الأعظم وأهمته بأنه ضالع مع الكمالين ، وطلبت سلطات الاحتلال من السلطان إقالته من منصبه . والحق أن على رضا باشا لم يكن مؤيداً للكاليين قلباً وقالباً ، ولكنه كان متعاطفاً معهم . واستجاب السلطان لطلب سلطات الاحتلال بصورة أو أخرى . فاستقال الصدر الأعظم في ٢٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ وكان خروجه من رئاسة الوزارة أقرب إلى الإقالة منها إلى الاستقالة ؛ وعين مكانه صالح باشا وزير البحرية في ٨ من ذات الشهر . وقرر المجلس الأعلى للقوات المتحالفة في ذات اليوم تعزير قوات الاحتلال في إستانبول . ودخلت في ١٦ من مارس - آذار - قوات بريطانية رابطة في شتى أحياء العاصمة إلى جانب القوات السابقة . وأمر الجنرال ولسن Wilson القائد العام للقوات المتحالفة بالقبض على المشتبه في أنهم من أنصار الكاليين ، ثم أمر بنفيهم إلى مالطة . وبلغ عددهم ١٥٠ كان من بينهم عدد من النواب . ولم يطلق سراحهم إلا في سنة ١٩٢١ في مقابل الإفراج عن ضباط بريطانيين اختطفهم الكاليون في الأناضول واحتفظوا بهم كرهائن حتى تفرج الحكومة البريطانية عن الوطنيين المعتقلين في مالطة .

المجلس الوطني الكبير :

دعا مصطفي كمال في ١٩ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ ، وهو اليوم التالي لتأجيل اجتماعات برلمان إستانبول ، إلى إجراء انتخابات تجرى في مدة وجيزة لمعد مؤتمر طوارئ يجتمع في أنقرة حيث كانت اللجنة الدائمة قد

اخذتها متراً لها منذ ٢٧ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩١٩ . وقد قدر لهذه المدينة الجبلية الصغيرة في الأناضول أن تصبح مقراً لحركة المقاومة الوطنية ثم تلدو عاصمة لجمهورية تركيا . واجتمع في ٢٣ من إبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ في أنقرة ماعرف باسم المجلس الوطني الكبير . وكان مؤلفاً من ٢٧٠ عضواً أضيف إليهم ثمانون كانوا قد غادروا إستانبول في يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ وحاول أعضاء المجلس إلى ذلك الوقت الوقت الإبقاء على علاقات ودية مع السلطان وألا يتخللوا مظهر الثوار . وفي ضوء هذه المحاولة أعلن الأعضاء ولاهم محمد وحيد الدين بصفته سلطاناً للإمبراطورية وخليفة للإسلام وأعربوا عن رغبتهم في « إنقاذه من أيدي الأعداء » .

الصراع السافر بين السلطان والكماليين :

جاءت هذه المحاولة بنتيجة عكسية ، إذ ظن السلطان أنها دليل الضعف ، فخاض صراعاً عنيفاً سافراً ضد الكماليين ، كان من مظاهر هذا الصراع :

(١) عين السلطان في ٥ من إبريل - نيسان - سنة ١٩٢٠ داماد(١) فريد باشا صديقاً عظيماً . وكان معروفاً بعلائقه الشديد للكماليين .

(ب) استصدر السلطان من شيخ الإسلام - مفتي إستانبول سابقاً - واسمه دري زاده عبد الله أفندي - فتوى تبرح قتل العصاة بناء على أوامر الخليفة . ويعتبر دري زاده عبد الله أفندي قتلهم فرض عين على كل مسلم بالغ قادر .

(ج) أصدر الصدر الأعظم إعلاناً دمج فيه بالبطلان الانتخابات التي دعا إليها مصطفى كمال ، واتهم الأعضاء بأنهم منافقون مخادعون ، وأنهم لا يمثلون الشعب التركي .

(د) أنشأت الحكومة في ١٧ من إبريل - نيسان - قوات عسكرية أطلقت عليها قوات نظامية - قوة انضباطية - لمحاربة الكماليين .

(١) كلمة تركية . ماها صهر

(٥) صدرت في ١١ من مايو - آيار - أحكام غيايية من محاكم عسكرية في إستانبول بإعدام مصطفى كمال ورفاقه .
وهكذا استخدم السلطان وأعضاء حكومته جميع ما في جعبتهم من أسلحة دينية وعسكرية وقضائية وسياسية للقضاء على القوة الجديدة التي ظهرت ونمت سريعاً في الأناضول .

وقد رد الكاليون على السلطان وحكومته رداً عملياً بنفس الأسلحة وكان من بينها :

(١) في ليلة ٣ - ٤ مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ عين المجلس الوطني الكبير مجلس وزراء في أنقرة .

(ب) في ٥ من مايو - آيار - أصدر مفتى أنقرة واسمه بوركشفي زاده محمد رفعت أفندي فتوى وقع عليها ١٥٢ مفتياً في الأناضول جاء فيها أن الفتوى الصادرة من شيخ الإسلام فتوى باطلة تأسيساً على أنها صدرت تحت الضغط الأجنبي . ودعت الفتوى المسلمين « لتحرير خليفتهم من الأسر » .

(ج) أعلن المجلس الوطني الكبير أن داماد فريد باشا خائن^(١).

ويلاحظ أن قرارات الكاليين جاءت ماسة بثلاث شخصيات كانت أكبر الشخصيات على الإطلاق التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية عبر تاريخها الطويل ، وكانت محل التبجيل العميق من الجماهير التركية ورعايا الدولة المسلمين ، ونعني بهذه الشخصيات : البطلان ، وشيخ الإسلام ، والصدر الأعظم . ولذلك لم يكن استقبال الشعب لهذه القرارات فاتراً فحسب ، بل قامت مظاهرات احتجاجاً عليها . وكانت حكومة إستانبول تشجع هذه المظاهرات .

معاهدة سيفر تخدّم الكاليين في وقت عصباب :

اكفهر الجو الدياسي أمام الكاليين ، ولكنها كانت أزمة عابرة ، وبدأ الموقف يتحول لصالحهم . كان الوفد التركي الذي يمثل حكومة السلطان لدى

مؤتمر الصلح قد وقع في ١٠ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٥ على معاهدة سيفر. وقد أثار هذا الحادث موجة عارمة من السخط على المعاهدة وعلى الموقعين عليها. ونظرت الجماهير إلى السلطان وحكومته على أنهم رمز للهزيمة والتفريط في حقوق البلاد. وسمت مكانة الكمالين. وكان نجاحهم في محاربة اليونانيين قد ربط بين الكمالين والقضية الوطنية، وجعل معارضة الحركة الكيالية - بدلا من تأييدها - بمثابة خيانة للوطن.

حكومتان في تركيا :

ونجم عن ثورة مصطفى كمال أن وجدت في تركيا حكومتان في وقت واحد : حكومة في إستانبول لا حول لها ولا قوة ، رأسها السلطان محمد السادس وهو حاكم شرعي^(١) de jure يستمد وجوده من حق توارث العرش العثماني ، وحكومة في أنقرة ذات سلطات واسعة متعددة رأسها مصطفى كمال وهو حاكم فعلي^(٢) de facto أى حاكم يستند في ممارسة سلطاته إلى الأمر

(١) مصطلح قانوني معناه يستند إلى القانون والحق Le droit

(٢) مصطلح قانوني معناه يستند إلى الأمر الواقع Le fait

وفي الدلائل الدولة يستخدم هذان المصطلحان عند التفرقة بين نوعين من اعتراف الدول بدولة جديدة ناشئة أو بحكومة حديثة قامت بانقلاب في دولة قديمة قائمة وأدى إلى قيام نظام جديد nouveau régime للحكم فيها ، فيقال الاعتراف القانوني de jure أو Reconnaissance de droit وهو الاعتراف الصريح المباشر ، والاعتراف بالواقع de facto أو Reconnaissance de fait ويكون هذا الاعتراف عن طريق إنشاء علاقات مع الدولة الجديدة دون التعرض بصفة رسمية لموضوع وجودها القانوني. وهذا ما حدث فعلا لحكومة أنقرة فقد اعترف بها بعض الدول مثل الاتحاد السوفيتي وفرنسا وفارس وأفغانستان في الوقت الذي كانت لاتزال سيطرة إستانبول قائمة برياسة السلطان محمد السادس ومعه أجهزة الحكم مثل الصدر الأعظم ومفتي إستانبول والوزراء. ومرد التفرقة في الاعتراف إلى حيلة الدبلوماسيين حتى لا يؤخذ عليهم التسرع في الاعتراف نهائياً بدولة ناشئة إذا كانت ظروف قيامها تتطلب التريث في الاعتراف بها من ناحية ، وحتى لا تتأخر ممارستها لنشاطها الخارجي حين استقرار وضعها تماماً من ناحية أخرى ، تعتمد الدول على الاعتراف بواقع وجودها أولا حتى يستقر لها الأمر =

الواقع . وكانت توجد إلى سنوات ذات عدد في التاريخ المعاصر حالة مماثلة للحكومة المزدوجة في دولة واحدة هي الصين (١).

== تختصر لما اعترافها القانوني . وللتفرقة بين الاعتراف بالواقع والاعتراف القانوني، ورن في المجال الدبلوماسي ، ولكن لا أثر هذه التفرقة في المحيط القانوني ، فالاعتراف ، سواء كان اعترافاً قانونياً أو اعترافاً بالواقع ، ترتب عليه ذات الآثار بالنسبة للدولة الصادر منها والدولة الصادر إليها . وجدير بالذكر أن فقهاء القانون الدولي يفرقون بين الاعتراف بالنولة ، ومحل صدوره ظهور دولة جديدة ، والاعتراف بحكومة جديدة أقامت نظام حكم جديد في دولة قديمة قائمة ، مع مراعاة هذا المبدأ الأساسي الذي لا يفتل نقاشاً ، وهو أن لكل دولة مطلق الحرية في أن تتخذ نظام الحكم الذي يترادى لها ، دون أن يكون للدول الأخرى سلطان عليها في هذا الأمر ، وإلا كان ذلك تدخلاً في شؤونها الخاصة . ويكفي من أجل الاعتراف بالحكومة الجديدة أن يثبت أنها تمارس شؤون الحكم فعلاً داخل الدولة ، وأن في استطاعتها وفي نيّتها الوفاء بالتزاماتها الدولية .

دكتور حل صادق أبو هيف : القانون الدولي العام . الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية ، الطبعة الرابعة ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٩ - ١٧٢ .

(١) بدأت المشكلة في سنة ١٩٤٩ على أثر انتصار قوات ماوتسي تونغ الشيوعية على قوات حكومة تشانج كاي شيك الوطنية ، واستيلاء الأولى على مقاليد الحكم في الصين وتطبيق النظام الاشتراكي في أرجاء البلاد ، والتجاه الثانية إلى جزيرة فرموزا وإقامة الحكم فيها باسم الصين الوطنية. وبذلك أصبح في الصين حكومتان في وقت واحد : حكومة جديدة يرأسها ماوتسي تونغ هي حكومة الصين الشعبية ونسيطر على كل أقاليم الصين في آسيا بمساحتها الشاسعة وما يزيد على ٧٥٠ مليون نسمة . والحكومة القديمة برياسة تشانج كاي شيك ، واتصرت سلطانها على جزيرة فرموزا والجزر الصغيرة المجاورة لها ، وتمدادها لا يزيد كثيراً على ستة ملايين نسمة . واضطرت بعض الدول بحكومة بكين ، بينها رفضت الدول الأخرى الاعتراف بها . وتجمد الوضع على هذا النحو زهاء ٢٢ سنة . وزاده حدة مشكلة عضوية الصين في الأمم المتحدة ، لأن الصين إحدى الدول الخمس التي تتمتع بالعضوية الدائمة في مجلس الأمن . وكان مقضى المنطق القانوني لهذا التطور أن تحمل الصين الشعبية محل الصين الوطنية في عضوية الأمم المتحدة ، وما يترتب على ذلك من حق العضوية الدائمة في مجلس الأمن ، لأن الفقرة الأولى من المادة ٢٣ من الميثاق عند ما أشارت إلى الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن ذكرت الصين مجردة من كل وصف . ويلاحظ أن منظمة الأمم المتحدة قد نشأت قبل قيام الثورة الاشتراكية في الصين . وقد وقعت دول الغرب وتكتلت لمنع الصين الشعبية من عضوية الأمم المتحدة . وانتهى هذا الصراع في الدورة السادسة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة، إذ وافقت بجملة ٢٥ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٧١ على إحلال الصين الشعبية محل الصين الوطنية .

من أسباب نجاح الثورة الكمالية :

كانت محاربة اليونانيين هي المشكلة الأولى التي فرضت نفسها على الكماليين ، واحتلت مكان الصدارة في خططهم اعتقاداً منهم أن لإجلاء اليونانيين عن أزمير وطردهم من الأناضول هما مفتاح جميع المشكلات التي سوف تتوارى أو تخف حدتها تلقائياً ، الأمر الذي يؤدي في نهاية الكفاح إلى إلغاء معاهدة سيفر .

كان اليونانيون عند نزولهم أزمير سنة ١٩١٩ أكثر عدداً وعدة ، وأنزلوا بالأتراك هزمًا متتالية واستولوا على بروسة وتوغاوا في الأناضول . ولكن بدأ الموقف مع بداية سنة ١٩٢١ يتطور تطوراً سريعاً لصالح الكماليين . وكان هناك عاملان حاسمان في هذا التطور : أولهما شجاعة الأتراك كشعب محارب من الطراز الأول عقد العزم على إنزال الراية اليونانية المزودة في عينه والتي كانت تحفق عالية فوق أزمير وبقاع أخرى في الأناضول وثرافية وغيرها . وثانيهما تصدع الجبهة الداخلية في اليونان ، فقد انتزع الموت فجأة إسكندر ملك اليونان الشاب على أثر عضة قود أليف . وفي أعقاب هذا الحادث جرت انتخابات عامة أسفرت عن تنحية فنزياوس عن رئاسة الوزارة في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ ومغادرته البلاد (١) . وتعرض

= انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد سرحان : التنظيم الدول . الناشر مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٤ .

وما هو جدير بالذكر أن الزعيم ماوتسي تونج وافاه الأجل في الساعة الواحدة والنقطة العاشرة من صباح الخميس ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩٧٦ بتوقيت بكين (في الساعة الثامنة والنقطة العاشرة من مساء الأربعاء ٨ من شهر سبتمبر - أيلول - بتوقيت القاهرة) عن ٨٢ عاماً ، وكان آخر حملته النصر الذي قاد مسيرة الصين الطويلة من عالم التخلف والفقير لتصبح واحدة من قوى العالم الأساسية في التاريخ المعاصر .

(١) أنظر أسباب صدوف الشعب اليوناني عن فنزيلوس في

العرش اليوناني لخرات عنيفة في تلك الفترة. حين أحد كبار ضباط البحرية اليونانية وصياً على العرش (١) ثم حلت مكانه بعد شهر وبعض شهور المالكة الوالدة أولجا (٢) Olga ، ثم أجرى استفتاء عام جادت نتيجته لمصلحة قسطنطين الملك الأسبق، وكان قد أقضى عن العرش سنة ١٩١٧ بولوه الصارخة تجاه ألمانيا ، فعاد إلى العرش في ٥ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ ومعه حاشيته الألمانية ، وامتنعت دول المعسكر الغربي فترة طويلة عن الاعتراف به. والحق أن إقصاء فنزيلوبس عن الحكم قد حرم اليونان من حلف بريطانيا وبعض قطاعات الرأي العام بها ، كما ضيع عليها فرصة الاستيلاء على الأناضول أو نصفه الغربي على الأقل نظراً لما كان يتمتع به هذا الزعيم السياسي من تقدير عميق من رجال السياسة في أوروبا للخدمات الجليلة التي أسداها للمعسكر الغربي، وما كان يتحلى به من عقلية رحبية الآفاق ودهاء وبهد نظر وقيادة حكيمة .

كان الملك قسطنطين مغامراً متهوراً ، بينما كان فنزيلوبس حذراً يتجنب التوغل داخل الأناضول بعيداً عن الساحل لمهاجمة الكمالين . وقد صمم الملك على أن يرحل على أنقرة وينطلق في المضارب الصحيرية الجرداء المحيطة بهذه المدينة أملاً في فرض شروطه على الكمالين من مرتفعات الأناضول . وكان الدافع له على هذه الخطوة الحربية حرصه على عرشه وتحقيق مصلحة أمرته . وكان يأمل في أن يجد من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية عوناً مادياً وتأييداً أديباً يكفلان له النجاح . وتوقع الخبراء العسكريون في أوروبا

(١) كان هذا الضابط البحري هو الأدميرال كونتوريوتس Admiral Kountouriotis وقد ظل وصياً على العرش في الفترة من ٢ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٠ حتى ١٦ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ ، ثم عين وصياً على العرش مرة أخرى في الفترة من ٢٠ ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٣ حتى ٢٥ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ تاريخ إعلان قيام الجمهورية الهلينية ، وانتخب رئيساً للجمهورية في ١٤ من أبريل - نيسان - سنة ١٩٢٤ وأعيد انتخابه في ٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٦ .

(٢) ظلت الملكة الوالدة وصية على العرش في الفترة من ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٠ حتى ٤ من ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٠ .

وقتل ذلك فشاها في الوصول إلى مشارف أنقره . وكان من تصرفاته التي اتسمت بالحماقة ومجملت عليه أنه طرد من الخدمة عدداً لا يستهان به من ضباط الجيش بحجة أنهم من أنصار فنزيلوس مما أدى إلى حرمان الجيش من كفاءات عالية في وقت عصيب كان يتطلب حشد جميع الجهود والارتفاع بالمستوى القتالي ليستطيع الجيش الصمود أمام الكاليين .^١

الانتصارات الأولى للثورة على اليونانيين :

أتاح هذا التصنع في الجبهة الداخلية اليونانية فرصة مواتية أمام الكاليين لإزالة ضربات موجعة باليونانيين . ففي ١٠ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢١ تصدت قوة تركية بقيادة عصمت لليونانيين في واد قريب من إينونو . ودارت معركة استمرت يومى ٣١ مارس - آذار - وأول أبريل - نيسان - وردت اليونانيين على أعقابهم خامسين . ولقى عصمت تقديراً عميقاً . أطلق عليه عصمت إينونو تمجيداً لبطولته في إيقاع الهزيمة باليونانيين ، كما رقى إلى رتبة عميد . ولم يلبث أن قام اليونانيون بزحف جديد بدأ في يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ والتقوا بالكاليين عند نهر سقارية حيث نشبت معركة كبرى . وكان مصطفي كمال يقود القوات التركية ، وأحرزت إنتصاراً رائعاً وانسحب اليونانيون مرة أخرى في اتجاه الغرب . وفي غمرة الابتهاج بهذا الانتصار أصدر المجلس الوطني الكبير قراراً بمنح مصطفي كمال لقب « غازى » ومعناه في اللغة التركية « الظافر في حرب مقدسة » . وكان لانتصار الكاليين في سقارية أصداء بعيدة : اعترف بهم دولياً كقوة عسكرية وسياسية لها وزنها في تركيا ، بينما اعترف البعض بهم كحكومة قائمة على أساس من الأمر الواقع *de facto* في تركيا .

اليونانيون يسعون لانتصار رحيص :

وقد سعى اليونانيون وسط هذه الهزائم التي نزلت بهم إلى إحراز نصر رحيص . ففضلت الوزارة اليونانية الائتلافية بملكرة في يونيو - حزيران - سنة ١٩٢٢ إلى بريطانيا وحليفاتها طالبت فيها بأن تسمح هذه الدول الحليفة

لقوات اليونانية باحتلال إستانبول . وجاء في المذكرة أن احتلالها والاستيلاء عليها دو الذى يودى - في نظر الوزارة اليونانية - إلى استيئاب السلام في لمنطقة . ومن المعروف - كما ذكرنا - أن القوات التابعة لبريطانيا وحيلفاتها كانت تحتل إستانبول . ومعنى المذكرة اليونانية أن تحتل القوات المتحالفة من موافعها وتغادر العاصمة التركية لاحتلها القوات اليونانية دون أن تطلق طلقة رصاص واحدة . وقد رفضت المذكرة جميع الدول عدا بريطانيا التي تأرجحت في موقفها . وهددت تلك الدول بأنها سوف تستخدم القوة إذا حاولت اليونان تنفيذ مشروعها . وكان مرد هذا الرفض إلى أن دول المعسكر الغربى كانت تعلم علماً يقينياً أن الاحتلال اليونانى لإستانبول سيؤدى إلى تصعيد الموقف في المنطقة تصعيداً خطيراً . وإذا كان الكماليون قد نظروا إلى احتلال اليونانيين لأزمير على أنه إهانة لاتطاق ، فإنهم سينظرون إلى احتلال اليونانيين لإستانبول عاصمة الإمبراطورية على أنه كارثة وطنية تضاعف أمامها جميع الكوارث . وسيجتاحون الملاح في وجه اليونانيين في إستانبول الأمر الذى يودى إلى إشمال حرب في العاصمة ومنطقتها مما يعرض السن في عبورها البوسفور لشتى الأخطار .

الكماليون يتفقون مع الروس على مستقبل البحر الأسود والمضائق :

وكما كانت سنة ١٩٢١ هى سنة الانتصارات العسكرية التي حققها الكماليون ، فقد كانت أيضا سنة انتصارات دبلوماسية حقةقوها في المحالات الدولية . فقد رأوا دعماً للحركة الكالية إنشاء علاقات صداقة مع عدد من الدول . وسرعان ما حدث لقاء سياسى ودبلوماسى مع حكومة موسكو . استغلت الحكومة الأخيرة الصعوبات التي كانت تواجهها الحركة الكالية ، إذ كانت بريطانيا تؤيد قلباً وقالباً اليونانيين واحتلالهم أزمير ، وتساند استمرار الاحتلال الفرنسى والإيطالى لمناطق هامة في الأناضول ، ومن ثم سعى النظام السياسى الجديد في روسيا ليكتسب تأييداً شعبياً واسماً ضد بريطانيا وحيلفاتها التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الأولى ، أملاً في احتضان الشعوب المقهورة ، والظاهر بمساعدتها ضد قاهرها من الدول

الأوروبية . عملت الحكومة الاشتراكية في موسكو على إنشاء علاقات دبلوماسية مع أنقرة منذ ٢٤ من أغسطس - آب - سنة ١٩٢٠ . وقد وصل إلى موسكو في ٨ من نوفمبر - تشرين ثان - أول مبعوث دبلوماسي تركي يمثل الحركة الكيالية ليشغل منصبه . وتوصلت الحكومتان إلى عقد معاهدة في موسكو في ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢١ أطلق عليها معاهدة الصداقة بين تركيا والروسيا . وأطلق على تركيا في هذه المعاهدة اسم حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا ، كما أطلق على روسيا اسم الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية (١) R. S. F. S. R.

وقد جاء في مقدمة المعاهدة أو الديباجة Le Préambule - وفقاً للمصطلح القانوني - أن هاتين الحكومتين تشتركان في دعم مبادئ حرية الشعوب وفي تأييد حق كل أمة في تقرير مصيرها ، وقضمانا في اعتبارهما الكفاح المشترك الذي تخوضه كل منهما ضد الاستعمار ، وتذكران أن الصعاب التي تواجهها إحدى الحكومتين تنعكس على الحكومة الأخرى مما يجعل مركزها أكثر سوءاً . وجاء أيضاً في مقدمة المعاهدة أن تلكما الحكومتين تحلوهما رغبة في إنشاء علاقات صداقة دائمة تقوم على المصالح المشتركة ، وأنهما قررتا عقد اتفاق يؤكد علاقات المودة والصداقة بين البلدين .

اشتملت أحكام المعاهدة Le Dispositif على ست عشرة مادة . وقد جاءت المادة الأولى من المعاهدة بعدة مبادئ هامة استهدفت دعم مركز الثورة الكيالية في مواجهة بريطانيا وحليفاتها وفي مواجهة حكومة السلطان في إستانبول . ومن بين هذه المبادئ رفض حكومة موسكو الاعتراف بمعاهدة سيفر التي فرضت على تركيا في السنة السابقة (١٠ من أغسطس - آب - عام ١٩٢٠) ، وفي ذات الوقت وفي نفس المادة اعترفت

(١) تمثل هذه الحروف ، الاسم الرسمي لروسيا في ذلك الوقت (سنة ١٩٢١)

Russian Socialist Federal Soviet Republic

ويرمز إلى اسمها حالياً (سنة ١٩٧٧) بالحروف التالية U.S.S.R. أي اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتختصر هذه الحروف عادة إلى حرفين هما : Soviet Union S.U. أي الاتحاد السوفيتي .

موسكو بالميثاق الوطني التركي ، وأعدت تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا . نصت هذه المادة على أن الطرفين المتعاقدين قد اتفقا على رفض الاعتراف بأية معاهدة سلام أو أى اتفاق دولى آخر يفرض على الطرف الآخر ضد رغبته . وخلصت من هذا المبدأ العام إلى القول بأن الحكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية توافق على عدم الاعتراف بأى اتفاق دولى يخص تركيا ولم توافق عليه الحكومة الوطنية فى تركيا والتي تتمثل فى ذلك الوقت فى المجلس الوطنى الكبير . ومضت المادة الأولى من المعاهدة تقرر أن تعبير تركيا فى هذه المعاهدة يعنى الأقاليم التى حددها الميثاق الوطنى المؤرخ فى ٢٨ من يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٠ والذى صدر عن مجلس النواب العثمانى فى إستانبول وأبلغ فى ذلك الوقت إلى الصحافة وإلى جميع الحكومات الأجنبية . وأخيراً تناولت المادة الأولى تخطيط الحدود الشمالية الشرقية لتركيا .

ونصت المادة الثانية على أن تتنازل تركيا لـجورجيا عن حق السيادة على مدينة وثغر باطوم على البحر الأسود وأن يمارس سكانها قسماً وافرأ من الحكم الذاتى يضمن لكل طائفة حقوقها الثقافية والدينية، ويسمح لهم بوضع القوانين الزراعية طبقاً لرغبات هؤلاء اله كان . ولكن تقرر منح تركيا حق المرور الحافى لجميع الصادرات والواردات التركية فى ثغر باطوم بدون دفع ضرائب أو رسوم جمركية وبدون معوقات أو تأخير ، كما تقرر حق تركيا فى استخدام ثغر باطوم بدون مصاريف خصوصية .

وتعرضت المادة الخامسة لموضوع مرور السفن عبر المضائق والوضع السياسى للبحر الأسود ، فجاءت صياغتها على النحو التالى :

« من أجل ضمان فتح المضائق لتجارة جميع الشعوب، يوافق الطرفان المتعاقدان على أن يعهدا بوضع الصياغة النهائية لاتفاق دولى خاص بالبحر الأسود إلى مؤتمر يتكون من مندوبين يمثلون الدول الساحلية (لهذا البحر) بشرط ألا يكون من طبيعة قرارات هذا المؤتمر المساس بالسيادة الكاملة لتركيا وبسلامة إستانبول عاصمتها » .

In order to assure the opening of the Straits to the commerce of all nations, the Contracting Parties agree to entrust the final elaboration of an international agreement concerning the Black Sea to a conference composed of delegates of the littoral States, on condition that the decisions of the abovementioned conference shall not be of such a nature as to diminish the full sovereignty of Turkey or the security of Constantinople, her capital.

ويلاحظ على هذه المادة أنها جاءت مترتبة وانطوت على مبادئ عامة ، دون أن تتعرض لأية تفصيلات ، فهي تقرر حرية المرور لجميع السفن التجارية في الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور ، وأعفت ذكر السفن الحربية سواء السفن التابعة لتركيا أو روسيا ، وسواء السفن التابعة للدول الأخرى . وكان هذا الإغفال متعمداً . كما صحت تلك المادة عزم الحكومتين على عقد مؤتمر يمثل تركيا وروسيا وبلغاريا ورومانيا بصفتها دولاً تطل على الأسود لتقرير الوضع السياسى لهذا البحر فيما عدا ثغر باطوم على النحو الذى أشارت إليه المادة الثانية كما سبق أن ذكرنا . واحتاطت المادة الخامسة بالنصر على عدم المساس بالسيادة الكاملة لتركيا ، وعلى بقاء إستانبول عاصمة لتركيا وعلى المحافظة على سلامتها أى تحريرها وتحرير مياها الإقليمية من القوات الأجنبية .

وجاء فى المادة السادسة أن الطرفين المتعاقدين يوافقان على أن المعاهدات التى أبرمت إلى ذلك الوقت بين الحكومتين لا تتمشى مع مصالحهما المشتركة . وعلى ذلك فقد اتفقا على اعتبار هذه المعاهدات ملغاة . كما نصت ذات المادة على موافقة حكومة موسكو على إعفاء ذمة الحكومة التركية من جميع ديونها والتزاماتها المالية التى تقرر فى معاهدات سبق أن عقدت بين تركيا والحكومة القيصرية السابقة .

وجاء فى المادة السابعة أن الحكومة الاشتراكية فى موسكو توافق على إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا^(١) نأسيماً على أن هذا النظام لا يتمشى

(١) كانت معاهدة سيفر قد أعادت هذا النظام إلى تركيا ، على الرغم من أن الحكومة الثمانية كانت قد أرسلت منشوراً إلى الدول الأجنبية مؤرخاً فى ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٩١٤ تطلبها بإلغاء هذا النظام اعتباراً من أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٤ .

مع الممارسة الكاملة لحقوق السيادة ومع التقدم الوطنى فى أى بلد . وقد تناولت المواد من ٨ إلى ١٦ فى تلك المعاهدة مسائل لا تدخل فى نطاق هذه الدراسة^(١) .

مزيد من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية :

حققت الحركة الكيالية مزيداً من الانتصارات العسكرية والدبلوماسية. كانت القوات الإيطالية والفرنسية تحتل مناطق هامة فى جنوبى الأناضول مما يجعل نفوذ تركيا فى شمالى الحوض الشرقى للبحر المتوسط سراباً . مضت قوات الاحتلال الإيطالية والفرنسية توطد مواقعها ولا تبغى الجلاء عنها . وخاض الكماليون حرب استنزاف ضارية. ورأت إيطاليا مصعب قواتها من الأناضول، وتم جلاؤها فى ٥ من شهر يوليو - تموز - سنة ١٩٢١ فكانت إيطاليا أول دولة تجلو عن الأناضول . ولكنها احتفظت بجزر الدوديكانيز أما فرنسا فقد استمرت تحتل مناطق هامة فى جنوبى الأناضول ، وشدد الكماليون ضغطهم على القوات الفرنسية وجأوا إلى حرب العصابات وأززلوا خصائر فادحة متعاقبة بالقوات الفرنسية وبخاصة فى كيليكيا Cilicie - وهى منطقة جبلية تقع فى إقليم طوروس ، فى جنوب شرقى الأناضول وشمالى سوريا - وعلى الرغم من الهدنة المؤقتة التى عقدت فى ٣٠ من شهر

(١) تجد النص الرسمى والكامل لهذه المعاهدة فى كل من :

British and Foreign State Papers, Vol. 118, pp 990-996.
Survey of International Affairs, 1920-1923, pp 361-376.

وانظر أيضاً كلاماً من :

Dennis A.L.P.; Foreign Policies of Soviet Russia, chaps. 9,10.
Fischer L., Soviets in World Affairs, Vol I, Chap. 12.

وانظر كذلك مقالاً بمنوان :

Les Relations Russo-Turques depuis l'avènement du Bolchevisme

فى مجلة

Revue du Monde Musulman, No. 25 (Decembre, 1922) pp. 181-206.

وقد تم تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة فى مدينة قارس فى ١٣ من شهر سبتمبر -

أيلول - سنة ١٩٢١ .

مايو - آيار - سنة ١٩٢٠ فقد استمرت العمليات الحربية بين الكمالين والفرنسيين تنور في عنف بالغ . ورجحت كفة الكمالين ، واضطرت فرنسا إلى إعادة تقدير الموقف الحربى والسياسى فى منطقة الشرق الأدنى كلها ، ومن ثم قررت فى مارس - آذار - سنة ١٩٢١ الاعتراف بالحكومة الكمالية *de facto* ، ولم تمض ستة أشهر حتى قررت الجلاء عن منطقة كيليكيا كى تنفرغ لتركيز جهودها على سوريا ولبنان . وقد عقد اتفاق *accord* فى مدينة أنقرة فى ٢٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ عرف باسم اتفاق فرانكلين بويو *Henri Franklin - Bouillon* وهو الملتوب الفرنسى الذى وقع على الاتفاق^(١). وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق لم يتعرض لمشكلة مرور السفن التجارية والحربية فى المضائق ولا لتقرير السيادة التركية على منطقة المضائق إلا أنه تناول مسائل بالغة الأهمية . فقد قرر لإنهاء حالة الحرب بين الكمالين والفرنسيين، وجلاء القوات الفرنسية كلية عن منطقة كيليكيا ، وأعاد تخطيط الحدود بين تركيا وسوريا على نحو أفضل من الحدود التى قررتها معاهدة سيهر من وجهة المصالح التركية ، واستولى الكماليون على كميات وفيرة من الذخائر والأسلحة كانت فى مستودعات الجيش الفرنسى فى كيليكيا ، واستعادوا الأسرى الذين كانوا فى أيدي الفرنسيين^(٢). واستطاع الكماليون تعزيز قواتهم التى كانت تحارب فرنسا وتوجيهها إلى تصفية الاحتلال اليونانى وطرد اليونانيين كلية من

(١) كان الملتوب التركى هو يوسف كمال بك وزير خارجية الحكومة الوطنية فى أنقرة .

(٢) تجد النص الرسمى الكامل لهذا الاتفاق فى :

League of Nations. Treaty Series, No 1284, Vol. 54 (1926-27), pp. 178-193.

وانظر أيضاً كلام من :

Temperley H.W.V., History of the Paris Peace Conference, Vol. VI pp. 33-35.

Cumming H.H., Franco British Rivalry in the Post-War Near East, chapter XII.

Vere-Hodge E.R., Turkish Foreign Policy, 1918-1948, pp. 33-37.

وقد أقرت الحكومة الفرنسية هذا الاتفاق ودخل فى دور التنفيذ ابتداء من ٢٨ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢١ .

الأناضول . ويعد هذا الاتفاق أول اتفاق يعقد بين الحكومة الكمالية في أنقرة وبين دولة أوروبية غربية . وقد كشف هذا الاتفاق عن عمق الاختلاف بين السياسة الفرنسية والسياسة البريطانية تجاه المشكلات الخاصة بتصفية ممتلكات الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأدنى .

كان من نتائج المعاهدة التركية الروسية والاتفاق التركي الفرنسي (١) وانسحاب القوات الإيطالية والفرنسية من الأناضول أن تدعم مركز الكماليين سواء في الداخل تجاه حكومة السلطان ، أو في الخارج تجاه اليونان وبريطانيا . وحصل الكماليون على كميات وفيرة إضافية من الأسلحة . وكان على اليونانيين أن يواجهوا بمفردهم الموقف الحربى أمام الكماليين دون الاعتماد على مساعدات أجنبية .

الكماليون يحرزون انتصاراً حاسماً على اليونانيين بطردهم من الأناضول :

في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - سنة ١٩٢٢ كان اللقاء الحاسم في حرب التحرير التي خاضها الكماليون ضد اليونانيين في الأناضول ، فقد أحرزوا انتصاراً ساحقاً على اليونانيين في دمليينار Dumlupinar وساقوا اليونانيين أمامهم حتى دخلوا أزمير في ٩ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وأشعلوا النيران في جميع الأحياء اليونانية في المدينة وذبحوا جميع من صادفهم من الجيش اليونانى . وأنقذت سفن بريطانيا وحليفاتها جموعاً كثيفة العدد من المسيحيين هاموا على وجوههم فراراً من الكماليين . ولم يضع هذا الانتصار الساحق نهاية للحكم اليونانى في الأناضول فحسب ، بل كان من نتائجه أنه وضع نهاية لمقام اليونانيين في هذا الإقليم ، لأن مصطلقى كمال لم يقنع بطرد أو ذبح جميع الجنود اليونانيين فقط ، بل طرد كل يونانى كان يقطن الأناضول ، خشية أن يقوم بقايا اليونانيين في الأناضول بتكوين طابور خامس أو تشكيل جيوب يونانية قد تنقلب على الكماليين في قابل الأيام . وطارت أحلام اليونانيين في إنشاء دولة لهم في الأناضول . واشتد ضغط

(١) نجحت حكومة أنقرة أيضاً في عقد معاهدات صداقة مع جمهورية القوقاز وفارس وأفغانستان . وكان إبرام هذه المعاهدات دعماً سياسياً وأديبياً كبيراً للحركة الكمالية .

اليونانيين على مليكهم قسطنطين ، واعتبروه المستول الأول عن هذه الكارثة التي أرجعوا إلى سوء تدبيره واندفاعه في توغله في هضاب الأناضول بعيداً عن الداحل ، واستقروا رأياً على أن « وجوده على العرش قد حرم أصدقاء اليونان الأقوياء من مساعدتها » (١). وفي ذات الشهر أكره على التنازل عن العرش ، وكتب وثيقة التنازل عن العرش بالقلم الرصاص في ٢٧ من شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ وغادر البلاد إلى بالرمو Palermo في جزيرة صقلية. ولم تطل به الحياة فقد وافاه الأجل في ١١ من شهر يناير - كانون ثان - سنة ١٩٢٣ .

أثر تغيير وزارى في بريطانيا على الكمالين :

استعد مصطفي كمال لمواصلة الصراع الحربى في تركيا الأوروبية لطرده اليونانيين من تراقيا الشرقية . وكان عليه في هذه المرحلة أن يعبر الدردنيل ، وكانت تحتله قوات تابعة لبريطانيا وظل البريطانيون في مواقعهم لا ينفون عنها حولاً. ولاح أن صداماً مملحاً وشيك الوقوع بين الكمالين والبريطانيين أمر لامفر منه . فترئس الوزارة البريطانية لويد جورج ، متعاطف مع اليونانيين كما ذكرنا ، وقد صرح بأنه سيدافع عن « حرية المضائق » وأنه سيقف في وجه هجوم الكمالين ويمنعهم من العبور إلى أوروبا . وهو تهديد سافر أزعج أقطاب حزب المحافظين وخشوا اندلاع حرب جديدة في منطقة الشرق الأدنى The Near East كما كانت تسمى في ذلك الوقت . وخشوا أن تمتد هيب هذه الحرب إلى أوروبا ، ففقدوا اجتماعاً في مقر حزبهم في أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ وقرروا الانسحاب من الوزارة الائتلافية ، واضطر لويد جورج إلى تقديم استقالة الوزارة . وجاءت إلى الحكم وزارة المحافظين برياسة ستانلى بلوين Stanley Baldwin . عقب انتخابات عامة وتخلص الكمالون من خصم قوى حينئذ كان يضم الكراهية للأتراك بصفة عامة .

الفصل العاشر

السياسة العليا للدولة العثمانية

في ضوء خصائصها العامة (٤)

الكاليون بمحسون عسار سيغر

تراجع بريطانيا وحليفاتها :

لم نجد معاهدة سيغر من ينفذها ، أو كما يقول أحد قدامى المؤرخين الإنجليز المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية إن إكراه تركيا على تنفيذ معاهدة سيغر لم يكن أمراً سهلاً^(١). وقد أدركت الدوائر السياسية في دول المعسكر الغربي أن الموقف في تركيا يزداد تفاقماً يوماً بعد يوم بسبب إصرار الكاليين على التخلص من الوجود العسكري اليوناني في الأراضي التركية ، وعلى تحريد اليونان من حقوقها في السيادة على المضائق ، وهي الحقوق التي جاءت بها معاهدة سيغر ، وعلى إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذي أعادته هذه المعاهدة وغير ذلك من ماخذ . وانتهت تلك الدوائر رأياً إلى أن إلغاء معاهدة سيغر أمر لا مفر منه لاستقرار الأمور في المنطقة ، وأنه يتعين في ضوء هذا الرأي وضع معاهدة سلم جديدة . ثم جاء انتصار الكاليين على اليونانيين ودخولهم أزمير في ٩ من سبتمبر - أيلول - سنة ١٩٢٢ معززاً هذا الرأي لدى بريطانيا وحليفاتها . وتتابعت الأحداث مراراً ، ففي ١١ من أكتوبر - تشرين أول - عقدت هدنة في مودانيا Mudanya تقرر فيها موافقة بريطانيا وحليفاتها على أن تسترد تركيا سيادتها على إستانبول والمضائق وتراقيا الشرقية^(٢) . وقد احتلت الإقليم الأخير فوراً قوة من الجندرمة

Müller W: op. cit., p. 542.

(١)

Lewis Bernard; op. cit., p. 254.

(٢)

التركية قوامها ثمانية آلاف جندي . وعلق تسلم تركيا بقية الأقاليم حتى يتم التوقيع على معاهدة سلام جديدة. وإذا كانت دول المعسكر الغربي قد ارتضت عقد الهدنة، فقد اتفق اليونانيون سياسة أسيادهم، فأبرموا هدنة مع الكالبيين في ١٤ من أكتوبر - تشرين أول - أي بعد مضي يومين من الهدنة الأولى . ثم اجتازت رفعت باشا البوسفور ودخلت إستانبول في رفقة لجنة تمثل المجلس الوطني الكبير ، وكان ذلك في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ .

وكورقة أخيرة في يد الاستعمار حاولت بريطانيا وحليفاتها أن تستغل وجود حكومتين في تركيا لتضرب وقت الحاجة إحداهما بالأخرى، أو تتخذ من إحداهما أداة للضغط على الأخرى . فوجهت دول المعسكر الغربي في ٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٢ الدعوة إلى كل من الحكومة السلطانية في إستانبول والحكومة الكالبية في أنقرة لحضور مؤتمر يعقد في لوزان ، وهي مدينة في سويسرا تقع شمالي بحيرة جنيف ، لوضع معاهدة جديدة لإقرار السلام بدلا من معاهدة سيفر التي اتضح استحالة تنفيذها . وقد أجابت الحكومة الكالبية بأنها وحدها ودون سواها الحكومة الشرعية التي تمثل تركيا . وكان توجيه دعوة مزدوجة إلى الحكومتين في تركيا دافعا لمصطفى كمال على اتخاذ إجراء سريع لحسم هذا الموضوع الخطير ، وهو ازدواج الحكومة في تركيا . ولكي يضع مصطفى كمال العالم كله أمام الأمر الواقع ، استصدر في أول نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ من المجلس الوطني الكبير في أنقرة قراراً بإلغاء نظام السالطنة ، ونص في القرار على أن يكون هذا الإلغاء بأثر رجعي يرجع إلى ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ أي قبل تاريخ صدور القرار بستين ونصف سنة . وكان الهدف من إرجاع إلغاء السلطنة إلى هذا التاريخ (١) هو بطلان جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي ارتبطت بها السلطان وحكومته واعتبار معاهدة سيفر باطلة ، ويذهب الوفد الكالبي إلى لوزان وهو مطلق اليدين غير مقيد

(١) يرجع اختيار هذا التاريخ وهو ١٦ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٠ إلى أنه في هذا اليوم دخلت قوات بريطانية جديدة الأسياء التركية في إستانبول لتتبرهن قوات الاحتلال فيها .

بأية قيود جاءت بها معاهدة سيفر. واستصدر مصطفى كمال من المجلس الوطني الكبير في ذات اليوم قراراً بالإبقاء على نظام الخلافة وأن تظل قائمة في البيت العثماني بشرط أن تستند كمنظّم إلى الدولة التركية ، وأن يختار المجلس الوطني من بين أعضاء البيت العثماني خليفة يكون في عمله وفي خلقه أكثرهم جدارة بهذا المنصب وأكثرهم ملائمة له . وبعد ثلاثة أيام أعلن المؤتمر أن حكومة السلطان في إستانبول قد فقدت أسباب وجودها *raison d'être* وأصبح لا وجود لها. وهرب السلطان محمد السادس في ١٧ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ على ظهر طراد إنجليزي أبحر به إلى مالطة. وعلى هذا النحو المزمى كانت نهاية آخر سلاطين الدولة العثمانية الذين حكموا إمبراطورية كانت من أعظم الإمبراطوريات العالمية . وباحتفاء محمد السادس من الحياة السياسية كان الطريق مهدداً أمام المجلس الوطني الكبير، فانتخب في ١٩ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٩٢٢ أميراً عثمانياً هو عبد الحميد خليفة للمسلمين لا سلطاناً . ولم يقدر له أن يظل في منصب الخلافة أكثر من عام وبعض عام ، ثم أخرج لإخراجاً غير كريم مع جميع أفراد أسرته من الأراضي التركية في فجر اليوم الرابع من شهر مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ ، فجاءت نهاية آخر خليفة عثمان على غرار نهاية آخر سلطان عثمان (١) .

مؤتمر لوزان (١٩٢٢ - ١٩٢٣) :

ذهب الوفد التركي إلى لوزان يمثل حكومة واحدة . وكانت الشروط أو ورقة العمل التي حملها معه هي التي كانت قد تحددت في الميثاق الوطني قبل

(١) أصدر المجلس الوطني الكبير في ٣ من مارس - آذار - سنة ١٩٢٤ قراراً بزل الخليفة عبد الحميد ، وإلغاء نظام الخلافة ، ونفى جميع أعضاء البيت العثماني من الأراضي التركية. واتخذت الحكومة إجراءات أمن متددة خشية أن تقوم مظاهرات احتجاجاً على طرد الخليفة . وتم نقله - في فجر اليوم التالي لصدر القرار - في عربته أقتله إلى محطة سكة حديد صغيرة تقوم خارج إستانبول ، وتم وضعه في قطار الشرق السريع . ويلاحظ أنه لم يستقل القطار من المحطة الحديدية الرئيسية وهي محطة ثركس . ولما استيقظ الشعب في الصباح وجد أن جميع إجراءات ترحيل الخليفة وأسرته قد تمت دون أن تتاح له الفرصة لإلقاء نظرة أخيرة على خليفة المسلمين (السابق) .

ذلك بنحو ثلاث سنوات . وتمسك الوفد التركي بالمحافظة على إستانبول
وضرورة إسهام تركيا فى النظام الذى يوضع لتنظيم مرور السفن فى المضائق
وللملاحة فى البحر الأسود وإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية إلى غير ذلك

مقترحات أمريكية تتعارض مع السياسة العليا للدولة العثمانية :

حين استفاضت الأنباء بعزم بريطانيا وحليفاتها على إجراء مفاوضات
فى لوزان لوضع تسوية جديدة مع تركيا فى صورة معاهدة محل معاهدة
سيشر أدلت بدلوها اللواتر المعنية فى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية .
وقد وضعت هذه الهيئات ثلاث مذكرات تناولت فيها عدداً من المسائل
السياسية والاقتصادية فى منطقة الشرق الأدنى ، وطالمت بريطانيا وفرنسا
وإيطاليا بمراعاة المصالح الأمريكية عند بحث هذه المسائل وعند وضع
الصياغة النهائية لأحكام المعاهدة الجديدة مع تركيا. وأوضحت أن الولايات
المتحدة حريصة على حماية المصالح الأمريكية فى هذه المنطقة .

وكان من بين هذه الموضوعات موضوع مرور السفن فى المضائق
التركية وتحديد المركز القانونى للبحر الأسود . وأوضحت رغبتها فى تقرير
مبدأ حرية مرور السفن التجارية والحربية فى الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور .
وقت السلم وزمن الحرب بدون أدنى تمييز بين جنسية السفن . وشرحت
الوسائل التى تراها كفيلة بتقرير هذا المبدأ من ناحية ، وضمان تنفيذه تنفيذاً
سليماً من ناحية ثانية . وفيما يتصل بموضوع البحر الأسود أرادت أن تجرده
من صفته القديمة التى لازمته حين كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها وهى
أنه كان بحيرة عثمانية تخص الدولة العثمانية بمفردها أو تخص الدولة العثمانية
والروسياً معاً . وأضفت على هذا البحر طابع البحر العام ووصفته بأنه جزء
من طريق تجارى هام من الطرق البحرية العالمية ، وتعتمد عليه فى حياتها
الاقتصادية الدول المطلة عليه ودول وسط أوروبا والتى يجرى فى أراضيها نهر
الدانوب الذى يصب فى البحر الأسود . وخلصت الحكومة الأمريكية من
هذا رأى إلى أن البحر الأسود والمضائق تعتبر المنفذ البحرى أو عنق

الزجاجة الذى تمر منه تجارة روسيا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر ،
ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وبلغاريا . .
ونعرض موجزاً لهذه المذكرات الثلاث .

أولاً : مذكرة الحكومة الأمريكية :

أرسلت الحكومة الأمريكية مذكرة مؤرخة فى ٣٠ من شهر أكتوبر -
تشرين أول - عام ١٩٢٢ إلى كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تبدي فيها
رغبتها فى أن تشارك كمرقب فى أعمال المؤتمر المقترح عقده . وجاء فى هذه
المذكرة أن الولايات المتحدة لم تكن فى حالة حرب ضد تركيا ، ولم تكن
أحد الأطراف فى هدنة ملروس Mudros التى وقعت فى ٣٠ من شهر
أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩١٨ مع تركيا ، وهى لا ترغب فى أن
تسهم فى مفاوضات السلام النهائية ، ولا أن تأخذ على عاتقها مسئولية
التعديلات السياسية والإقليمية التى سوف تتقرر . ومضت الحكومة الأمريكية
تقول لإنها بينما هى تصر على هذا التحفظ فى صدد مراحل معينة فى تسوية
مشكلات الشرق الأدنى ، فإنها لا ترغب فى أن يستقر فى الأذهان أنها تنظر
إلى مصالحها نظرة تقل عن نظرة الدول الأخرى إلى مصالحها ، أو أنها
لا تتمسك بالحقوق المشتركة التى تتمتع بها دول أخرى ، أو أنها لا تكثرت
بالفرض التجارية المناسبة ، أو أن المشروعات الإنسانية القائمة فى منطقة
الشرق الأدنى أمر لا يعنها .

واستعرضت الحكومة الأمريكية فى مذكرتها ما أسميته شروط المساهمة
الأمريكية فى مؤتمر لوزان Conditions of American Participation
in the Lausanne Conference وأوضحت طبيعة المصالح الأمريكية التى
ترغب فى حمايتها وبالتالي فى أن تكون موضع اعتبار المؤتمر . وكان عدد هذه
المصالح سبعة (١) ، كان من بينها وضع ضمانات لممارسة حرية مرور السفن

(١) كانت هذه المصالح حسب ترتيب ورودها فى مذكرة الحكومة الأمريكية :

١ - الإبقاء على نظام الامتيازات الأجنبية فى تركيا على أساس ضرورته لحماية المصالح غير
الإسلامية .

في المضايق . واستطردت المذكرة فقترت أن هذا الموجز يصلح لتوضيح المصالح الأمريكية . ومن أجل حماية هذه المصالح ، ومن أجل تبادل وجهات النظر بسهولة ، ومنعاً لأى سوء فهم ، فإن حكومة الولايات المتحدة على استعداد لإيفاد مراقبين إلى المؤتمر المقترح عقده إذا رأت الدول المعنية أن هذا الإجراء مناسب لها . وأضافت المذكرة إلى ذلك أن المراقبين الأمريكيين لن يشتركوأ في مفاوضات معاهدة السلام ، بل ستكون مهمتهم مقصورة على شرح وجهات نظر الحكومة الأمريكية بطريقة أكثر فاعلية من وضع مذكرات ، ويكون في استطاعتهم تزويد الحكومة بموقف الدول الأخرى من المسائل ذات المصالح المشتركة والتي سوف تعرض على بساط البحث .

وحملت الحكومة الأمريكية في مذكرتها على المعاهدات والاتفاقيات السرية ، وقالت إنها لا تقرر هذا الأسلوب في العلاقات الدولية . وإن الاتفاقات التي سبق أن عقدت لتقسيم الأقاليم العثمانية إلى مناطق نفوذ تجارى واقتصادى تتعارض مع مبدأ تكافؤ الفرص . وأعربت عن رغبتها في أن تكف الدول المتحالفة عن تنفيذ مثل هذه الاتفاقيات السابقة . وختمت مذكرتها بقولها إن الولايات المتحدة الأمريكية لا ترغب في أن تتصرف تصرفاً يعرقل الجهود التي تبذلها الدول المتحالفة للوصول إلى السلام ، وليست لها مطالب تؤدي إلى صدام مع مصالح الدول الأخرى ، وهي لا تريد أن تميز نفسها أوعاياها بامتيازات لا تتمتع بها الدول الأخرى . ولكنها تريد توفير الحماية لمواطنيها الذين يرغبون في المضي في عملهم الإنسانى الذى حملوه على عاتقهم جيلا بعد

(ب) حماية المؤسسات الخيرية والتعليمية والدينية وذلك بتقرير ضمانات مناسبة .

(ج) تكافؤ الفرص أمام الجميع فيما يتصل بالشرومات التجارية بعدم منح امتيازات خاصة أو تمييز البعض على البعض .

(د) تعويض الخسائر التي وقعت على الأمريكيين في تركيا نتيجة أعمال تصفية وغير قانونية .

(هـ) وضع شروط مناسبة لحماية الأقليات .

(و) وضع ضمانات لكفالة حرية المرور في المضايق .

(ز) إتاحة فرص معقولة للبحث عن الآثار وإجراء الدراسات .

جيل في الشرق الأدنى وأصبح في ذلك الوقت أكثر ضرورة عن ذي قبل . وكان هذا العمل الإنساني يشمل البحث عن الآثار ، وإجراء الدراسات ، واستئناف المؤسسات التعليمية والتنصيرية والخيرية نشاطها السابق (١) .

ثانيا : مذكرة وزير الخارجية الأمريكية :

وفي مذكرة سرية ومنفصلة عن المذكرة السابقة ومؤرخة في ذات اليوم (٣٠ من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٢) بعث بها شارل ليفانز هيوز Charles Evans Hughs وزير الخارجية الأمريكية إلى سفراء الولايات المتحدة في لندن وباريس وروما ، قال إن الحكومة الأمريكية لن توقع على معاهدة السلام المزمع عقدها مع تركيا ، ولن تشترك في المؤتمر المقترح اجتماعه لإجراء مفاوضات لإبرام هذه المعاهدة ، وإن هذا الامتناع المزدوج مرده إلى أن الولايات المتحدة لم تكن في حالة حرب ضد تركيا ، ومع ذلك فإنه في حكم الاستحالة من الناحية العملية أن يمضى « الحلفاء » في إجراء مفاوضات بدون أن يتناولوا مسائل تهم الحكومة الأمريكية . وإذا تركت الحكومة الحلفاء يقومون بإجراء المفاوضات وإبرام المعاهدة مع الأتراك بدون أية محاولة منها لعرض وجهات نظرها أو الحصول على ضمانات لحماية المصالح الأمريكية ، فإن مثل هذا الموقف السلبي يضع الحكومة الأمريكية أمام الأمر الواقع في موضوع العلاقات بين الحلفاء والأتراك . وخلص وزير الخارجية إلى القول بأن رأى وزارة الخارجية قد استقر على وضع مذكرة توضح طبيعة ومجال ومدى المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأدنى كى يسترشد بها المتفاوضون عند تناول الموضوعات التي لها علاقة بهذه المصالح ، ثم استعرض المصالح التي ترغب الحكومة في حمايتها ، وهي : (١) نظام الامتيازات الأجنبية في تركيا وانتهى رأياً إلى ضرورة الإبقاء عليه . وسرد الأسباب التي تحمل الحكومة الأمريكية على المطالبة باستمرار هذا النظام .

(١) انظر نص المذكرة بعنوان :

U.S. Aide Mémoire to Britain, France and Italy, 30 October, 1922.
in

Hurewitz J.C.; op. cit., Vol:2, pp. 114-115.

(٢) حماية المؤسسات الأمريكية في تركيا سواء المؤسسات التعليمية أو الخيرية أو الدينية ، وإعادة فتح المؤسسات الأمريكية التي أغلقتها حكومة تركيا منذ عام ١٩١٤ ، وإنشاء مدارس جديدة ، واستخدام اللغة الإنجليزية فيها ، ومنح المؤسسات الأمريكية الإعفاءات الضريبية والجمركية وغيرها من الامتيازات الممنوحة لمثيلاتها المؤسسات التركية (٣) حماية المصالح الأمريكية التجارية وإلغاء نظام مناطق النفوذ ، وانهاج سياسة الباب المفتوح ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، واتباع نظام ضريبي موحد (٤) التعويض عن الخسائر التي نزلت بالأمريكيين منذ عام ١٩١٤ (٥) حماية الأقليات . واهتمت المذكورة بالأقليات المسيحية دون غيرها وبخاصة بالمسيحيين في إستانبول وبالمسيحيين المبعثرين في آسيا الصغرى وبالأرمن (٦) حرية المرور في المضائق، وقالت وزارة الخارجية إن هذه المسألة لها شطران ، يتمثل الشطر الأول في حرية المرور وقت السلم ، والشطر الثاني في حرية المرور زمن الحرب . ولا تميل الحكومة الأمريكية إلى أن تزج بنفسها في الشطر الثاني حتى لا تلتزم باتخاذ سياسة معينة تجاه مرور السفن زمن الحرب ، وبخاصة إذا كانت تركيا أو الدول الكبرى في أوروبا دولاً متحاربة . أما بخصوص تنظيم مرور السفن وقت السلم ، فإن المصلحة الجلية للولايات المتحدة أن تحصل على تأكيدات فعالة وقوية بأن تظل المضائق مفتوحة في وقت السلم للسفن التجارية والحربية لتعبير المضائق وتمضى إلى إستانبول والبحر الأسود ، فهذا البحر هو طريق للتجارة ويجب ألا يكون تحت الرقابة الانفرادية لتركيا والروسيا . .

وانتقلت مذكرة وزير الخارجية الأمريكية في فقرتها السابقة إلى موضوع لجنة الرقابة الدولية على الدين العثماني العام، وطالبت بمزيد من الاهتمام بالمسائل المالية والتجارية . وفي الفقرة الثامنة والأخيرة أشارت إلى موضوع المؤسسات الأمريكية التي تتقوم بالتقيب عن الآثار في الأراضي التركية وضرورة توفير الجلو المناسب لها كي تمضى في أعمالها الكشفية وفي إجراء الدراسات .

وفي نهاية المذكرة قال وزير الخارجية إنه ليس من الطبيعي ولا من المرغوب فيه أن تسهم حكومة الولايات المتحدة في مؤتمر السلام أو تعقد

نفسها في مفاوضات تناول مسائل سياسية لم تشارك في وضعها أو التخطيط لها ، إلا أنه من الضروري أن تكون وزارة الخارجية على علم تام بالموضوعات التي تناولها المفاوضات وكيفية معالجتها ، والوزارة حريصة على حماية المصالح الأمريكية ، وهي على استعداد لأن تلتقى بكل ثقلها ونفوذها للحصول على ضمانات خاصة بحرية الملاحة في المضائق وحماية الأقليات . وإن الولايات المتحدة كدولة مستقلة تحافظ على سلامة موقفها، وهي لم تزج بنفسها في غمار المنافسات الدولية التي جعلت من الشرق الأدنى في معظم الأحيان مسرحاً للحروب^(١).

ثالثاً : مذكرة البحرية الأمريكية :

ولم يقف الأمر بالسياسة الأمريكية تجاه موضوع المضائق عند هاتين المذكرتين ، بل تدخل أيضاً مجلس البحرية الأمريكية العام ، ووضع مذكرة في ١٠ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ تناول فيها توصيات سياسية بخصوص البحر الأسود والمضائق التركية . وجاء في هذه المذكرة أن الدردنيل طريق عام ذو أهمية عظمى أوجدته الطبيعة ، وهو يؤدي من ناحيته الشمالية إلى البحر الأسود الذي تطل عليه تركيا والروسيا ، ورومانيا وبلغاريا ، وبعض دول صغرى أخرى، وتصب فيه مياه خمسة أنهار كبرى . وتأسيساً على هذه الحقائق فإن هذا البحر لا ينحصر دولة واحدة كما كان الأمر من قبل . وكان واضعوا المذكرة يقصدون تركيا بهذه الدولة الواحدة . ثم مضت المذكرة تقول إن البحر الأسود ينحصر العالم كله كجزء من طريق تجاري . فأية محاولة لغلق هذا البحر أو إعاقه وصول التجارة المنقولة بجرأ إلى البحر الأسود هي عمل تخريبي يتعارض مع المصالح العالمية ويهدد اضطراباً في العلاقات الدولية يؤدي إلى تجدد الحرب .

(١) انظر لى المذكرة بمنوان :

Secretary Hughes' Instructions to U.S. Ambassadors at
London, Paris and Rome, 30 October, 1922.

in

Hurewitz J.C., op. cit., Vol. 2, pp. 115-117 .

وقالت المذكورة إن الروسيا - وهى من أكبر دول العالم - تصدر فى الأوقات العادية نصف محاصيلها عن طريق البحر الأسود . وليس أمام الروسيا مخرج بحرى آخر يمكن أن يقارن فى أهميته بطريق الدردنيل، وسوف تزداد أهمية هذا المخرج البحرى زيادة كبيرة بالنسبة للروسيا تبعاً لزيادة الكثافة السكانية فيها ، وتبعاً لتحسين وسائل النقل الداخلى فى المناطق الروسية . فإذا حيل بين دولة كبرى مثل الروسيا وبين استخدام البحر الأسود بمنع سفنها من عبور الدردنيل ومنعها من الانطلاق إلى المحيطات والبحار ، فإن هذا العمل ، وهو حجز الأسطول التجارى فى مياه البحر الأسود ، لا يحتمل فى طياته عناصر الاستقرار والدوام لأية تسوية تتناول مشكلة المضائق التركية .

ومضت مذكرة البحرية الأمريكية تقول إن شطراً كبيراً من تجارة النمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا ينقل عن طريق نهر الدانوب إلى البحر الأسود حيث يعاد شحنها فى سفن كبرى تعبر الدردنيل إلى البحار العامة . فهذه التجارة تحتاج بلورها إلى حرية المرور عبر المضائق ، وعلى ذلك فإن تقرير مبدأ حرية مرور السفن فى كلا الاتجاهين عبر الدردنيل ضرورة لا جدال فيها . وقد وافقت الدول ومن بينها تركيا على مبدأ حرية المرور عبر الدردنيل للسفن التجارية التابعة لجميع الشعوب .

واستدركت المذكورة فقالت إن التجارب فى بقاع كثيرة فى العالم قد دلت على أن قبول مبدأ ما لا يكون دائماً كافياً لضمان تطبيقه تطبيقاً محايداً ، ولا يكفى أن تعلن الدول موافقتها على قبول مبدأ عام ، بل يجب أن تكون هذه الموافقة مقرونة بتنفيذ أو تطبيق هذا المبدأ . فالموافقة على مبدأ معين وتنفيذ هذا المبدأ عمليتان مرتبطتان بعضهما ببعض بعروة وثقى لا انفصام لها . وكل عملية منهما لا تفل أهمية عن الأخرى، وإلى أن تستقر الأمور فى منطقة الشرق الأدنى ، فإن خير وسيلة لضمان تكافؤ الفرص هى لإسهام الدول المعنية إسهاماً يقوم على قدم المساواة فى الرقابة على حرية المرور فى المضائق .

وانتقلت مذكرة مجلس البحرية العام إلى موضوع المصالح الأمريكية

في المضايق فقالت إن تقرير حرية مرور السفن في اللوردنيل لا يعد في حد ذاته عملاً كافياً حتى يضمن للسفن الأمريكية نفس الفرص التي تتمتع بها السفن التجارية التابعة لدول أخرى. فلا بد أن تضمن الحكومة الأمريكية ، عن طريق اتفاقات ، المساواة في الحقوق وفي الامتيازات التي تتمتع بها الدول الأجنبية في كل ما يتصل بالعمليات التجارية والبحرية . وذكرت المذكورة على سبيل المثال لا الحصر بعض هذه الحقوق والامتيازات ، فقالت إن السفن التجارية في حاجة إلى استخدام أجهزة ترديد الصوت ، والأسلاك البحرية الغليظة « الكابلات » ، والانتفاع بالأرصدة في موانئ المضايق ، والصنادل ، وخدمات الإرشاد ، والرسو ، والسحب ، والقطر ، وتسهيلات التفتيش على السفن . فإذا لم تكن هناك معاملة واحدة لجميع السفن في مثل هذه المسائل وغيرها ، فإن السفن الأمريكية تجد في أثناء عبورها وتواجدها في منطقة المضايق إعاقة تجعلها في مركز أقل من مركز السفن التابعة لدول أخرى .

ووجهت المذكورة النظر إلى حقيقة كانت تعلق عليها حكومة الولايات المتحدة آمالاً كباراً ، وهي حالة ازدهار التجارة بزيادة حجمها تزايداً جديداً وكبيراً في جميع الأقاليم المطلة على البحر الأسود والأقاليم التي تجرى في أراضيها أنهار تصب في هذا البحر . وقد جاء هذا الازدهار التجاري نتيجة للأحوال السياسية والاقتصادية التي سادت في تلك الأقاليم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وقد تولدت عن هذا النشاط الاقتصادي الضخم المكثف مجالات واسعة للمشروعات التجارية الدارة . وقالت المذكورة إن الخطوات التي تتخذ والترتيبات التي توضع في ذلك الوقت قد تؤثر تأثيراً عميقاً على الحياة التجارية للولايات المتحدة في قابل الأيام . وخلصت البحرية الأمريكية إلى القول بأنها لا تتطلب بحقوق خاصة بها ، ولكنها تطالب ، بل تصر على أن تكون لها حقوق مساوية لحقوق الدول الأخرى . وهو مطلب يابئق عن رغبة الولايات المتحدة في تحقيق عدالة مطلقة وكاملة في محيط العلاقات الدولية .

وحاولت مذكرة البحرية الأمريكية أن تعالج مشكلة حرية مرور السفن الحربية في المضائق ، فقالت إن هذه المشكلة أكثر تعقيداً من مسألة عبور السفن التجارية ، وهي لا تتيح فرصاً لوضع تسوية دائمة لها مثل الفرص التي تتيحها مسألة السفن التجارية . وقالت إن هناك مبدأ عاماً يجب أن يوضع في الاعتبار ، وهو أن أية حقوق للملاحة في المضائق تمنح للدول بعيدة عن البحر الأسود يجب أن يمنح مثلها للدول المطلة على هذا البحر .

وخلصت البحرية الأمريكية إلى أن الحل الطبيعي هو تقرير الحرية التامة للملاحة عبر المضائق للسفن الحربية أيضاً ، وسأقت عديد الأمثلة الافتراضية التي تساند هذا الرأي ، كما أنها انتهت رأياً إلى أن هذا الحل يعد الحل الأمثل للمصالح الأمريكية وللنفوذ الأمريكي في شئون العالم .

واستطردت مذكرة البحرية الأمريكية فقالت إنه ليس هناك مجال للمقارنة بين مركز كل من المضائق التركية ، وقناة بناما ، ولذلك يجب الفصل بينهما . فالأثنان مختلفان بعضهما عن بعض اختلافاً جلياً ومن عدة وجوه . فتاريخ المضائق التركية مليء بعدم الاستقرار والمصالح المتضاربة ومعاملة السفن معاملة تقوم على التمييز بينها ، وجعل حق مرور السفن في الدردنيل مقصوراً على سفن دولة واحدة ، بالإضافة إلى أن المضائق التركية طريق مائي طبيعي بينما قناة بناما مر مائي صناعي . وتقتضى العدالة ألا تكون هذه المضائق تحت سيطرة دولة واحدة تنصرف فيها كما نشاء ، بل يجب أن تكون طريقاً عالمياً . وفضلاً عن ذلك فإن كل حل تم الوصول إليه واستهدف فرض رقابة على هذه المضائق لمصلحة دولة واحدة ضد دول أخرى كان بمثابة تسوية تقوم على الاستغزاز والتحرش وإثارة الحقد، وأدى إلى الاضطراب في العلاقات الدولية. ولذلك لم تم إطلاقاً تسوية مسألة المضائق ، لأن جميع التسويات التي تمت كانت تتسم بطابع التحيز للدولة التي كانت تتمتع بالقسط الأوفى من السيطرة والقوة في ذلك الوقت .

وخاضت مذكرة البحرية الأمريكية في مجموعة من التنبؤات والافتراضات تم في مجموعها عن اتجاه السياسة الأمريكية تجاه مشكلة المضائق ، فقالت إذا

فرضت رقابة على حرية مرور السفن في المضائق وأزيلت الاستحكامات القائمة في منطقتها فإن تلك الرقابة سوف تقع على عاتق الأسطول البريطاني بسبب شدة بأسه ويطشه . وإذا جردت من السلاح والتحصينات كل من ميتلين Mitylene و لمنوس Lemnos ، وإمبروس Imbros وساموتراكي Samothraki فإن هذا التجريد يتمشى مع الرقابة المستقبلية على المضائق ، وتمارسها القوات البحرية بدلاً من الاستحكامات الثابتة . وراحت المذكرة تؤكد مرة أخرى قيام رقابة بريطانية على المضائق تأسيساً على أن الأسطول البريطاني في ذلك الوقت - سنة ١٩٢٢ - بقواعده المتناثرة هو أقوى الأساطيل . وذهبت المذكرة إلى القول بأنه ليس هناك على الأرجح معاهدة أو قانون يمنع الحصر البحري في زمن الحرب إذا كانت الدولة التي تمارس هذا الحصر ذات بأس شديد في البحر .

وناقشت المذكرة كيفية قيام الرقابة على المضائق ، وناقشت ثلاثة آراء : رقابة انفرادية من جانب تركيا ، ورقابة انفرادية تختص بها دولة أجنبية واحدة ، ورقابة دولية جماعية . فقالت عن الرأي الأول إن التجارب قد دلت على أن قيام تركيا بممارسة الرقابة على المضائق لم يتسم بسياسة محايدة ولا ثابتة ، وإن تركيا كانت لا محالة تتأثر بالضغط الخارجي . وإذا وضعت الرقابة في يد دولة أجنبية واحدة فمن المتوقع ألا تفعل هذه الدولة أكثر من محاباة سفنها وتجارتها بغير وجه حق على حساب سفن وتجارة الدول الأخرى . بقى الرأي الثالث فقالت إن فرض رقابة دولية جماعية على المضائق في الظروف القائمة وقتذاك لن يكون محل اعتراض من جانب الأمرة الدولية على عكس إذا ما تقرر قيام رقابة انفرادية من جانب تركيا .

وأخيراً ألخص المجلس العام للبحرية الأمريكية هذه المذكرة الضافية بقوله إن المصالح الأمريكية في منطقة المضائق تتطلب إدراج المبادئ التالية في المعاهدة المقترح عقدها مع تركيا .

أولاً : إذا أنشئت لجنة دولية للرقابة على المضائق فيجب أن تكون

(م ١٩ - الدولة العثمانية)

الولايات المتحدة ممثلة في هذه اللجنة وفي جميع المواقع والمراكز التابعة لهذه اللجنة ، وتكون على قدم المساواة مع أية دولة أجنبية أخرى .

ثانياً : إن المضائق - وهي تشمل الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن التجارية التابعة لجميع الدول بدون تمييز أو تفضيل .

ثالثاً : يكون للولايات المتحدة ومواطنيها ذات الحقوق والامتيازات في مياه المضائق والمياه المتاخمة كما هي ممنوحة في الماضي والحاضر أو تمنح مستقبلاً لأية دولة أجنبية أخرى أو لمواطنيها . وجاء ذكر تلك الحقوق وهذه الامتيازات على النحو الذي ورد في ميثاق الملتكزة وأشرنا إليه .

رابعاً : إن المضائق-بأجزائها الثلاثة المعروفة - يجب أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة أمام السفن الحربية التابعة لجميع الدول .

خامساً : عدم مباشرة أى حق حربي وأى عمل عدائي في داخل المضائق التي تشمل الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبوسفور .

سادساً : لإزالة جميع التحصينات التي تسيطر على مياه المضائق ، ولا يسمح بإقامة تحصينات جديدة(١) .

تحليل الموقف الأمريكي من مشكلة المضائق والبحر الأسود :

من هذه الملتكزات الأمريكية الثلاث يتضح موقف الولايات المتحدة بوجه عام من مشكلة المضائق والبحر الأسود . ويمكن إيجاز هذا الموقف في عدة نقاط ، منها : أن المضائق طريق عالمي للتجارة فلا تخضع للسيطرة

(١) أنظر نص المذكرة بمتوان :

Policy Recommendations on the Turkish Straits by the General Board of the U.S. Navy, 10 November 1922.

in

Hjwrewitz J-C; op. cit, volz, pp. 117-119.

الانفرادية لتركيا ، تقرير حرية الملاحة عبر المضائق في وقت السلم وزمن الحرب للسفن التجارية والحربية التابعة لجميع الدول دون تمييز بجنسيتها ، تجريد منطقة المضائق وعدد من الجزر في بحر إيجه من الاستحكامات العسكرية وعدم السماح بإقامة منشآت عسكرية جديدة بها تمشياً مع حرية المرور عبر المضائق ، إنشاء رقابة جماعية في شكل لجنة دولية لضمان تنفيذ مبدأ حرية مرور السفن بكافة أنواعها في جميع الأوقات . أما البحر الأسود فهو - في نظر الولايات المتحدة - لا يخص تركيا وخدها أو روسيا بمفردها ، بل هو بحر عالمي مفتوح لجميع الدول والشعوب ، يمر منه شطر لا يستهان به من تجارة روسيا ودول وسط أوروبا - وتستحسن تجريده من القواعد البحرية العسكرية وتعد محاولة إغلاقه عملاً تخريبياً .

هذه المبادئ تعصف بالسياسة العليا للدولة للعثمانية وتسلب حقها في ضمان تنفيذ مبدأ حرية المرور عبر المضائق التي هي جزء من الإقليم التركي ، وتحويل هذا الحق للجنة دولية . فالولايات المتحدة تضع مصالحها التجارية في منطقة الشرق الأدنى فوق كل اعتبار ، وهي لا تبدي مثل هذا الاهتمام بمصالحها الإستراتيجية في تلك المنطقة ، إذ لم تكن قد تكونت لها في ذلك الوقت مصالح من هذا النوع ، ولم تكن قد احتضنت الحركة الصهيونية الاحتضان السافر الذي ظهرت به فيما بعد . ولم تكن قد وقفت موقفاً غير ودي من حكومة موسكو السوفيتية R.S.F.S.R. بل على العكس أظهرت مذكرة المجلس العام للبحرية الأمريكية تحمساً لرعاية المصالح الروسية الاقتصادية بتوفير السبل لنقل محاصيلها عبر البحر الأسود والمضائق. وإن كان وزير الخارجية الأمريكية قد أشار في مذكرته إشارة لها مدلولها في هذا الوقت المبكر من تاريخ العلاقات الأمريكية السوفيتية إذ قال ، وهو يتناول موضوع الأقليات المسيحية في تركيا ، إنه من الممكن عند عودة الأوضاع الأكثر استقراراً في روسيا أن توافق الحكومة الروسية على منح أكراد تركيا ملجأ في القوقاز يقيمون فيه .

تلك هي المقترحات الأمريكية وضعت قبل أن يعقد مؤتمر لوزان جلساته بأيام قلائل . وهي مقترحات لها أهميتها من النواحي الأكاديمية والعلمية والتاريخية.

جلسات عمل مؤتمر لوزان :

عقد مؤتمر لوزان جلساته على فترتين . بدأت الفترة الأولى في ٢٠ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٢ ، وقسمت أعماله بين ثلاث لجان :
اختصت اللجنة الأولى بمشكلة نظام المرور في المضائق والملاحة في البحر الأسود والقضايا العسكرية ومشكلة الأقليات والمشكلات الإقليمية. واختصت اللجنة الثانية بقضايا الأجانب في تركيا. واختصت الثالثة بالقضايا الاقتصادية والمالية . وقد استمرت اجتماعات المؤتمر حتى ٤ من فبراير - شباط - ١٩٢٣ حين انفض بسبب رفض الحكومة التركية قبول مشروع معاهدة الصلح . ورفض المجلس الوطني الكبير في ٦ مارس - آذار - ١٩٢٣ مشروع معاهدة الصالح بخالفته الميثاق الوطني ، ولكنه حول الحكومة التركية إعادة فتح باب المفاوضات مع بريطانيا وحليفاتها . وفي ٨ مارس - آذار - ١٩٢٣ أرسل عصمت باشا وزير الخارجية التركية ورئيس الوفد التركي إلى المؤتمر رسالة ومعها اقتراحات تركية إلى الدول الأعضاء في المؤتمر . وقد وافقت هذه الدول على بحث المقترحات التركية . وفي ٢٣ أبريل - نيسان - ١٩٢٣ استأنف مؤتمر لوزان عقد جلساته، وبذلك بدأت الفترة الثانية واستمرت حتى ٢٤ من يوليو - تموز - سنة ١٩٢٣ حيث تم في هذا اليوم التوقيع على المعاهدة التي حملت اسم معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ . وتتميز من بين جميع معاهدات الصلح التي أبرمت لتسوية مشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى بأنها المعاهدة الوحيدة التي عقدت نتيجة مفاوضات مضنية للغاية اشترك فيها الأطراف المعنيون لتحل محل معاهدة جائرة وضعها المنتصرون ، واستطاع المنهزم بالدبلوماسية المرنه حيناً ، والدبلوماسية ذات العصا الغليظة حيناً آخر أن يحمل المنتصرين على إلغائها . وقد وقع على معاهدة لوزان ثمان دول ، هي : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، واليابان ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وتركيا .

معاهدة لوزان تفرد اتفاقية خاصة بالمضائق :

لم تتعرض معاهدة لوزان لسألة مرور السفن في المضائق ، ولكن

سجلت تنازل تركيا عن حقوقها في مصر والسودان وجزيرة قبرص لبريطانيا ، وتنازلها لإيطاليا عن حقوقها في ليبيا وفي ثلاث عشرة جزيرة كانت تحتها إيطاليا وقتذاك ، كما سجلت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية وتفقر إخلاء إستانبول من القوات الأجنبية وإعادة تراقيا الشرقية بما فيها أدرنة إلى تركيا ، وكذلك منطقة كراجاتش Karagatch في تراقيا الغربية . واستردت تركيا جزءاً لا يستهان به من أملاكها في أوروبا ، كما تقرر إعادة الجزء الغربي من الأناضول وسائر المراكز التي كانت تحتها اليونان في هذا الإقليم إلى تركيا . وقد تناولت المعاهدة العديد من المسائل التي لاتدخل في نطاق دراستنا .

وتقدراً من الدول الأطراف في معاهدة لوزان لموضوع المضائق أقرت اتفاقية خاصة بهذه المسألة وأرفقتها بالمعاهدة ، وأصبحت جزءاً منها وأطلقت عليها اتفاقية نظام المضائق Convention on the regime of the Straits وتقع في ثمان عشرة مادة وجاءت بعدة مبادئ ، نذكر منها :

أولاً : مرور السفن في المضائق :

نصت المعاهدة في مادتها الأولى على تقرير مبدأ حرية المرور وحرية الملاحة بحراً وجواً في منطقة المضائق . وقالت إن المضائق اسم عام يشمل على وجه التحديد مضيق الدردنيل ، وبحر مرمرة ، ومضيق البوسفور ، ونصت المادة الثانية على أن حرية المرور وحرية الملاحة تشمل السفن التجارية والبحرية والطائرات التجارية والبحرية في زمن السلم ووقت الحرب . ثم وضعت تفاصيل حرية المرور أدمجتها في ملحق يتبع المادة الثانية وأطلقت عليه قواعد مرور السفن التجارية والطائرات التجارية والسفن البحرية والطائرات البحرية . وتناولت في القسم الأول من هذا الملحق السفن التجارية وقالت إنها تشمل أيضاً سفن المستشفيات واليخوت^(١) ومراكب الصيد والطيران غير الحربي . وقالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

(١) يخوت جمع يخت yacht ، وهي سفينة السياحة الخاصة .

الحالة الأولى: وقت السلم فتتقرر حرية تامة للملاحة والمرور نهائياً وللبلا لجميع السفن بدون تمييز بين جنسياتها . ويصرف النظر عن نوعية الشحنات التي تحملها وبدون دفع رسوم سوى الرسوم المقررة للإرشاد والإضاءة والجبر والقطر وما إليها ، وذلك بدون الإضرار بالحقوق التي تمارسها في هذا الصدد الشركات التي تعمل في وقت إبرام المعاهدة بموجب امتيازات منحها لها الحكومة التركية .

الحالة الثانية : زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة : فتتقرر الحرية التامة للملاحة والمرور على النحو الذي جاء في الحالة الأولى ، مع مراعاة أن حقوق وواجبات تركيا ككلولة محايدة لا تجيز لها أن تتخذ أية اجراءات من شأنها تعتبر تدخلا في الملاحة عبر المضائق التي تكون مياهها وأجوارها حرة تماماً وقت الحرب التي تتخذ فيها تركيا موقف الحياد .

الحالة الثالثة: زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها : فتتقرر حرية الملاحة للسفن المحايدة وللطيران غير الحربي التابع للدول المحايدة بشرط ألا تقدم أمثال هذه السفن والطائرات مساعدات للعدو ، وبوجه خاص لا تنقل قوات أو بضائع ممنوعة أو رعايا الدول المتحاربة . ويكون لتركيا الحق في زيارة وتفتيش أمثال هذه السفن والطائرات . ولهذا الغرض يجب على الطائرات أن تهبط على الأرض أو على البحر في مساحات تحددها وتمدها تركيا لهذا الغرض . ومن المنفق عليه أيضاً ألا تمس حقوق تركيا في تطبيق الاجراءات المقررة في القانون الدولي العام على سفن الأعداء . ولتركيا السلطة التامة في اتخاذ أمثال هذه الاجراءات حين ترى أنه من الضروري منع سفن الأعداء من استخدام المضائق ، على ألا يكون من طبيعة هذه الاجراءات منع سفن الدول المحايدة من المرور في المضائق ، وتوافق تركيا على أن تمد أمثال هذه السفن بالتعليقات الضرورية أو تزودها بالمرشدين لعبور المضائق .

وتناولت اتفاقية المرور في القسم الثاني من الملحق موضوع السفن الحربية . وقالت إنها تشمل أيضاً السفن المعاونة للأساطيل والسفن الناقلة للجنود والطائرات الحربية والطائرات الحاملة ذخائر أو أسلحة أو قوات . وعلى

غرار القسم الأول قالت إن هناك ثلاث حالات يتم فيها مرور هذا النوع من السفن والطائرات .

الحالة الأولى : وقت السلم.فتتحرر حرية كاملة لمرورها نهاراً وليلاً بدون تمييز بين جنسياتها ، ولكنها تخضع للقيود التالية بالنسبة لقوتها الكلية . فيكون الحد الأعلى للقوة التي تستطيع أية دولة أن تمررها عبر المضائق للدخول البحر الأسود لا تتجاوز أقوى أسطول للدول الساحلية الواقعة على البحر الأسود والتي تكون موجودة في هذا البحر في وقت مرور هذه القوة . وتقرر أيضاً أن تحتفظ الدول لنفسها دائماً بالحق في أن ترسل إلى البحر الأسود في جميع الأوقات وفي كل الظروف قوة لا تتجاوز ثلاث سفن لا تزيد حمولة الواحدة منها عن عشرة الآف طن . وجاءت فقرة أخيرة تقرر عدم مسئولية تركيا فيما يخص بعدد السفن الحربية التي تعبر المضائق .

الحالة الثانية: زمن الحرب إذا كانت تركيا دولة محايدة . فتتحرر الحرية الكاملة للمرور نهاراً وليلاً بدون تمييز بين جنسياتها مع مراعاة القيود المذكورة في الحالة السابقة، ومع ذلك فإن هذه القيود لا تطبق على أية دولة متحاربة تطبيقاً يضر بحقوقها الحربية في البحر الأسود ، كما أن حقوق تركيا وواجباتها كدولة محايدة لا تميز لها اتخاذ أية إجراءات من شأنها تعتبر تدخلاً في الملاحة عبر المضائق التي تظل جميع مياهها وأجوائها حرة تماماً في زمن الحرب طالما كانت تركيا دولة محايدة كما يحدث تماماً وقت السلم . وتقرر أيضاً منع السفن الحربية والطيران الحربي التابع للدول المتحاربة من مباشرة أية عملية من عمليات الأسر أو مباشرة حق الزيارة والتفتيش أو القيام بأي عمل عدائي آخر في المضائق .

الحالة الثالثة : زمن الحرب إذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فيها. فتتحرر الحرية الكاملة لمرور السفن الحربية المتحاربة مع مراعاة تطبيق القيود المنصوص عليها في الحالة الأولى في هذا القسم (القسم الثاني) . ونص على أن الاجراءات التي تتخذها تركيا لمنع سفن وطائرات الأعداء من استخدام

المضايق لا يكون من شأنها منع المرور الحر للسفن المحايدة والطيران المحايد . وعلى تركيا أن تزود أمثال هذه السفن والطائرات بالتعليقات الضرورية أو بالمرشدين للغرض المذكور . ويقوم الطيران الحربى التابع للدول المحايدة بالمرور الجوى فوق المضائق على مسؤوليته ويخضع للتفتيش عن طابعه . ولهذا الغرض فإن على أمثال هذه الطائرات أن تهبط على الأرض أو فى البحر فى المساحات التى تحددها وتعددها تركيا لهذا الغرض .

وقد تعرضت الاتفاقية فى ذات الملحق التابع للمادة الثانية لغواصات الدول التى فى حالة سلم مع تركيا ، فنصت على أن يكون عبورها المضائق وهى فوق سطح الماء . كما تناولت مسائل تنظيمية خاصة بمرور السفن الحربية وضرورة إخطار الحكومة التركية بوصولها وعددها ، وضرورة مرورها فى أقصر وقت ، وتحريم مرابطنها داخل المضائق إلا فى حالتين : هما إصابة السفينة بعمق أو اضطراب البحر واشتداد عواصفه .

والمحوظة التى نخرج بها من الدراسة التحليلية لهذا الجزء من الاتفاقية هى أنه لم يشمل التفاصيل الدقيقة عن تنظيم مرور السفن بنوعها التجارية والحربية فى المضائق على عكس ما جاء فى اتفاقية الآستانة (٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨) الخاصة بتنظيم مرور السفن فى قناة السويس . فقد تضمنت هذه الاتفاقية أدق التفاصيل عن هذا الموضوع . ونلتكر على سبيل المثال تقييد تموم السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة (المادة الرابعة فقرة ٢ من اتفاقية الآستانة) ، منع السفن الحربية المتحاربة من إنزال وشحن القوات والمهمات الحربية (المادة الخامسة) ، مرور الغنائم (١) (المادة السادسة) .

ثانيا : لجنة المضائق :

نصت اتفاقية المضائق على إنشاء لجنة دولية يطلق عليها لجنة المضائق

(١) يقصد بالغنائم Les Prises السفن الحربية أو التجارية المنزوعة التى تمر فى المضائق وهى هذه الصفة ، أى تكون فى حوزة السفينة القائمة عليها ، على أن يكون اغتنامها قد تم خارج منطقتى المضائق ، إذ لا يجوز داخل هذه المنطقة القبض على السفن المعادية واغتنامها ، لأن حق الاغتنام من المرفوق الحربية التى حرمت الاتفاقية مباشرتها فى هذه المنطقة .

تمتص بالإشراف على حرية المرور في المضائق ، ويكون مقرها إستانبول ، وتكون لتركيا دون سواها من الدول رئاسة هذه اللجنة ، بمعنى أن تكون رياستها ذات صفة دائمة . وأن تشمل عضوية اللجنة : فرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، بلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والاتحاد الأوثيقي ، ويوغوسلافيا .^(١) وقد روعي في اختيار هذه الدول لعضوية اللجنة أنها الدول الأطراف في معاهدة لوزان . ونص على ألا تبدأ أى منها في مباشرة عملها في لجنة المضائق إلا من تاريخ تصديقها على المعاهدة . وورد في ذات المادة أنه إذا انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى المعاهدة فيكون لها الحق في عضوية اللجنة . وبنفس هذه الشروط تقرر أن أية دولة مستقلة تطل على البحر الأسود ولم يرد ذكرها في الاتفاقية وتنضم إليها يكون لها نفس الحق (المادة ١٢) .

وتباشر لجنة المضائق عملها تحت رعاية عصابة الأمم ، وتكون مسئولة أمامها ، وعليها أن ترفع إلى العصابة تقريراً سنوياً تعرض فيه نشاطها وتذكر كل المعلومات التي تكون ذات قيمة ونفع لصالح التجارة والملاحة . وعلى اللجنة - تمكيناً لها من تحقيق هذا الهدف - أن تكون على اتصال بمصالح الحكومة التركية المختصة بالملاحة عبر المضائق (المادة ١٥) .

لجنة المضائق ولجنة الدانوب :

ومما هو جدير بالذكر أن لجنة المضائق الدولية لم تكن شيئاً جديداً على المجتمع الدولي في ذلك الوقت . فقد سبق لهذا المجتمع أن عرف هيئات ذات

(١) جاءت الصياغة الفنية في المعاهدة لاسم يوغوسلافيا على هذا النحو :

The Serb - Croat - Slovene State

أي الدولة الصربية الكرواتية السلوفينية .

ويطلق عليها حالياً (سنة ١٩٧٧) اسم اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية . وتتكون من ست جمهوريات ومن خمس قوميات هي الصرب - كرواتيا - سلوفينا - الجبل الأسود - مقدونيا . وفيها ثلاث لغات : الصربية ، والكرواتية ، والسلوفينية . وفيها أربع ديانات : الإسلام ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والمسيحية الكاثوليكية ، واليهودية . وهي جارة لسبع دول .

طابع دولي واختصاصات واسعة مثل لجنة الدانوب الأوروبية التي تكونت لتنظيم حرية الملاحة في نهر الدانوب والإشراف عليها والقيام بأعمال الصيانة والتحسين وتطهير قاع النهر من العوائق لمواجهة الاحتياجات الدولية للملاحة الحرة (١). وتقرر أن يكون لهذه اللجنة شخصية متميزة ذات طبيعة دولية . وأن تتمتع بالحصانة ، ولا تستطيع دولة محاربة أن تحدد من نفوذ هذه اللجنة ، وأن يكون جميع موظفيها ومكاتبها والأشغال التي تقوم بها على طول النهر بمنأى عن العمليات الحربية ، وأن يكون للجنة علمها ، وكأنها دولة ، ولها الحق في رفعه على سفنها ومكاتبها ومبانيها الرسمية ، ويكون لها ميزانية تتألف من حصيلة رسوم المرور ، وتنفق منها على شتى أوجه نشاطها . وقد أبيحت الملاحة البريئة في نهر الدانوب لسفن المتحاربين . ونص على حياد هذا النهر مع تحريم إقامة تحصينات أو منشآت عسكرية على ضفتيه . ومع ذلك فإن المضائق التركية لا يمكن أن يقام بينها وبين نهر الدانوب الذي يجري في أراضي عدة دول . ولا يعد إنشاء لجنة الدانوب مبرراً لإنشاء لجنة المضائق

(١) أنشئت هذه اللجنة بمقتضى معاهدة أبرمت في عام ١٨١٦ في ضوء القواعد التي كان قد قررها مؤتمر فيينا في سنة ١٨١٥ بشأن الملاحة في الأنهار الدولية . ثم تعرضت هذه اللجنة للتعديل من حيث تشكيلها واختصاصاتها في معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ، ثم في معاهدة جالاتز Galatz في ٢ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٦٥ ، وفي مؤتمر برلين لسنة ١٨٧٨ أدخلت تعديلات جديدة على اختصاصات اللجنة ، ثم أبرم اتفاق لندن في ١٠ من مارس - آذار - عام ١٨٨٣ منحت اللجنة بمقتضاه اختصاصات قضائية ، وجعلت منقطة نفوذها تمتد من « جالاتز » إلى « برايلا » Braila . وفي معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وضعت نصوص استهدفت توسيع اختصاصات لجنة الدانوب وزادت من سلطاتها .

أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : تكتل الدول لتحويل قناة السويس نكايه في بريطانيا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، صص ٦٨ - ١١٤ وبين في هذه الصفحات من المناقشات الضافية التي خاضها أعضاء لجنة باريس الدولية عام ١٨٨٥ أوضاع لجنة الدانوب .

وانظر أيضا :

دكتور مصطفى الحفناوي : قناة السويس ومشكلاتها للماصرة . ج ٣ ، القاهرة ، سنة

الدولية . وإذا كان القانون الدولي العام يعترف بحرية الملاحة في المضائق ، إلا أنه لا يمنحها لإشراف لجنة دولية تقيم في إقليم الدولة التي تخترق المضائق أراضيها .

مقارنة بين لجنة المضائق ولجنة القناصل في مصر :

وسمع المجتمع الدولي بعد ذلك عن تكوين لجنة دولية في مصر هي لجنة قناصل الدول لمراقبة تنفيذ اتفاقية الآستانة المبرمة في ٢٩ من أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٨٨٨ الخاصة بتنظيم حرية المرور في قناة السويس . والرقابة نوع من الضمان لتنفيذ المعاهدات . وفي اتفاقية المضائق وفي اتفاقية قناة السويس استقر رأى الدول على أن تكون الرقابة على تنفيذها ذات طابع دولي . ومن ثم جاءت اتفاقية قناة السويس بلجنة القناصل وجاءت اتفاقية المضائق بلجنة المضائق . ولما كانت لجنة القناصل تتعلق بقناة السويس التي هي مر مائي تمر في مصر التي كانت تحت السيادة العثمانية في ذلك الوقت طبقاً لقواعد القانون الدولي العام ، فسنعرض مقارنة سريعة جداً بين هاتين اللجنتين حتى تتضح في الأذهان صورة عن هذه الهيئات التي صنعها الاستعمار . ثم فرضها على الدولة العثمانية وعلى بعض أقاليمها في عصر الاضمحلال ضارباً عرض الحائط بالسياسة الدبلوماسية العليا للدولة العثمانية واحترام سيادتها على أراضيها .

كانت لجنة القناصل تتكون من تسعة أعضاء يمثلون فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإسبانيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وهولندا ، والروسيا ، وتركيا . وكان هؤلاء الأعضاء جميعاً ، باستثناء تركيا ، هم قناصل الدول الأطراف في اتفاقية الآستانة أو طبقاً للنص الوارد فيها « وكلاء الدول الموقعة على الاتفاقية والمعتمدون بمصر » ولذلك لم يكونوا متفرغين لعملهم في اللجنة .

أما لجنة المضائق فكانت - وفقاً للتعديل الذي جاءت به معاهدة لوزان - تتكون من عشرة أعضاء يمثلون تركيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، وبلغاريا ، واليونان ، ورومانيا ، والروسيا ، ويوغوسلافيا .

وتركت الاتفاقية الباب مفتوحاً لانضمام الولايات المتحدة الأمريكية إليها ، وكذلك أية دول مستقلة تطل على البحر الأسود لم يرد ذكرها من بين اسماء الدول الأعضاء .

وقد نص في اتفاقية القناة على أن تعقد لجنة القناصل نوعين من الاجتماعات : اجتماعات طارئة في كل حالة تهدد فيها سلامة القناة أو حرية المرور بها . وتعقد هذه الاجتماعات بناء على دعوته ثلاثة من أولئك القناصل ، وتكون تحت رئاسة عميدهم على أن يكون بطبيعة الحال من يمثل الدول الأطراف في الاتفاقية ، وإلا كانت الرئاسة لأعلام درجة أو أقدمهم في المنصب أو أكبرهم سناً طبقاً للعرف البائد في تعيين عميد السلك السياسي أو القنصل في عاصمة كل دولة . ويكون الهدف من الاجتماعات الطارئة هو إجراء التحقيقات اللازمة ، ثم قيامهم بإبلاغ الحكومة المصرية بالخطر الذي يتبينونه حتى تتخذ هذه الحكومة الاجراءات التي تكفل حماية القناة وحرية استخدامها .

أما النوع الثاني من الاجتماعات فهو الاجتماعات التي تعقد مرة كل سنة للتحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية . وأضاف النص أنه يجوز أن يشارك في الاجتماعات السنوية مندوب يمثل الحكومة المصرية . وتعقد الاجتماعات السنوية برئاسة مندوب خاص تعينه الحكومة العثمانية لهذا الغرض . وفي حالة غيابيه يحل محله في الرئاسة مندوب الحكومة المصرية . أما لجنة المضايق فجعلت رئاسة اجتماعاتها لمنسوب تركيا بصفة دائمة . ويكون الهدف من الاجتماعات السنوية للجنة القناصل هو التحقق من سلامة تنفيذ الاتفاقية في السنة السابقة على الاجتماع . وعلى اللجنة أن تطلب إلغاء كل عمل أو فريق كل حشد ، على أحد جانبي القناة ، يمكن أن يكون الغرض منه أو يؤدي إلى المساس بحرية الملاحة وسلامتها التامة . ويرى أحد أساتذة القانون أن الهدف من الاجتماعات السنوية هو المحافظة على ديمومة مهمة لجنة القناصل والتنبيه إلى قيامها حتى لا يأتي عليها مرور الزمان ويعطوياً في زوايا النسيان . فقد تسير الأمور بشكل طبيعي لسنوات كثيرة مما لا يتطلب عقد اجتماعات

طارئة ، فيكون في الاجتماعات السنوية ما ينبه إلى وجود رقابة ، ولو شكلية ، على تنفيذ الاتفاقية يتولاها ممثلو الدول الموقعة عليها^(١) . وعلى مبلغ علمنا لم تعقد لجنة القناصل أى اجتماع طارئ أو دورى ، لأن بريطانيا كانت تعارض إنشاء هذه اللجنة من حيث المبدأ خشية أن تعصف اللجنة بالنفوذ البريطانى الانفرادى المتفوق فى منطقة القناة المستند إلى الاحتلال السكرى ، فبقيت لجنة القناصل مجرد نص قانونى ميت لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ الفعلى . أما لجنة المضايق فقد ظلت تمارس اختصاصاتها إلى أن استطاعت الحكومة التركية التخلص من أحكام اتفاقية المضايق ، وعقدت اتفاقية مونترية فى ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وتسلمت اختصاصات اللجنة وأعدت محصين المضايق وتولت بنفسها مهام الدفاع عنها .

ثالثاً : تجريد منطقة المضايق من السلاح :

ونصت الاتفاقية على تجريد الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق من السلاح ، وأن يمتد هذا التجريد ليشمل جميع الجزر الموجودة فى بحر مرمرة وعدة جزر فى بحر إيجه . واستثنيت من نزع السلاح بعض جزر صغيرة تركية ويونانية . وقد حددت المادة الرابعة من الاتفاقية تحديداً دقيقة المناطق التى يزرع سلاحها^(٢) . كما جاء فى الاتفاقية أن هذه المناطق تجرد من السلاح والتحصينات العسكرية تجريداً تاماً ، فينقل من جميع أرجائها سلاح المدفعية والسلاح الجوى الحربى والقواعد البحرية وألا ترابط فيها قوات مسلحة ، ويسمح فقط بوجود قوات الشرطة والجنדרمة للمحافظة على الأمن العام . وذهبت الاتفاقية إلى أبعد من ذلك فحددت الأسلحة التى

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٦ .

(٢) بالإضافة إلى الساحل الأوروبى والساحل الآسيوى لمنطقة المضايق وكذلك الجزر ، جردت من السلاح منطقة برية شاسعة تشمل الجزء الشرقى من إقليم تراقيا الشرقية وقد استردت تركيا هذا الإقليم بمقتضى معاهدة لوزان . وشمل التجريد من السلاح أيضاً جزءاً من الأراضى اليونانية .

تزود بها هذه القوات ، فقالت إنها المسدسات والسيوف والبنادق وأربعة مدافع من طراز لويس . ولا تحتفظ هذه القوات بأى سلاح أو عتاد أو أدوات حربية من سلاح المنفعية في الجيش التركي . أما المياه الإقليمية للمناطق والجزر المتروعة السلاح فيسمح بوجود غواصات فيها بعد أن تنزع منها الآلات وأدوات الحرب بحيث تغدو هذه الغواصات في وضعها الجديدي مجرد سفن عادية (المادة ٨) .

نتائج نزع السلاح من منطقة المضائق :

كان تجريد المضائق والجزر من السلاح وما ترتب عليه من آثار سجلت في صلب المعاهدة هو أسوأ ما جاءت به معاهدة لوزان بخصوص موضوع المضائق ، فقد كانت عصفاً بالسياسة العليا للدولة ، وانتهت كآلسيادتها وانتراعاً لحق مقدس لها هو الدفاع عن أراضيها . ولم يكن في مقدور الوفد التركي وهو يمثل دولة هزمت في الحرب العالمية الأولى ويتفاوض مع دول أوروية كبرى خرجت منها منتصرة أن يستخلص لبلاده أكثر مما حصل عليه . وقد اتبع الوفد التركي في مفاوضات لوزان ما يسمى «الدبلوماسية المرنة» . فقد حصل على مكاسب كبيرة وضخمة لا شك فيها. وحسبه أن معاهدة لوزان قد سجلت عار معاهدة سيشر. وكان إصرار الدول الأطراف في معاهدة لوزان على ضمان حرية المرور في المضائق هو الذي اتخذ ذريعة لنزع سلاح هذه المنطقة . ومع ذلك فقد حاولت هذه الدول استرضاء تركيا أو تعويضها عن تجريد هذه المنطقة من السلاح ، فتعهدت الدول الكبرى منها بضمان سلامة المضائق والمناطق المجاورة لها من كل اعتداء ، وما قد يتطلبه هذا الضمان من التدخل الحربي لأربع دول كبرى دفاعاً عن الأراضي التركية ، مما يجعل المضائق منطقة مشحولة بحماية دولية . وقد جاءت المادة (١٨) من اتفاقية المضائق على النحو التالي :

« إن الدول السامية المتعاقدة ، وهي ترغب في أن تؤكد أن نزع سلاح المضائق والمناطق المجاورة لها لن يشكل خطراً

خاضراً (١) على الأمن الحربى لتركيا ، وأن أى عمل حربى لن يعرض للخطر حرية المضايق أو سلامة المناطق المحررة من السلاح ، فقد انفتحت على الآتى :

« إذا تعرضت للخطر حرية الملاحة فى المضايق أو سلامة المناطق المزروعة السلاح نتيجة الإخلال بتنفيذ المواد الخاصة بحرية المرور ، أو نتيجة هجوم مفاجيء ، أو بعض أعمال حربية ، أو تهديد بالحرب ، فإن الدول السامية المتعاقدة ، وبخاصة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واليابان ، تعمل معاً ، لمواجهة مثل هذا الإخلال ، أو الهجوم ، أو أى عمل حربى آخر ، أو التهديد بالحرب بجميع الوسائل التى يقررها مجلس عصبة الأمم لهذا الغرض .

« وحالما ينهى الظرف الذى تتطلب اتخاذ الإجراء المتصوص عليه فى الفقرة السابقة ، ينفذ تنفيذاً دقيقاً النظام الموضوع للمضايق وفقاً لنصوص هذه الاتفاقية » (٢) .

تقييم معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضايق :

كان لإلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة بديلة لها هى معاهدة لوزان انتصاراً للقومية التركية . فقد استطاع مصطفى كمال أن يتحدى بريطانيا

(١) غير قابل للتبرير أو المنع un danger injustifiable

(٢) تجد النص الرسمى الكامل لمعاهدة لوزان فى :

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Treaty Series No.16, Cmd. 1929.

Great Britain, Parliamentary Papers, 1923, Turkey No. 1. Cmd, 1814, "Lusanne Conference on Near Eastern Affairs, 1922-1923" (Proceedings) .

وقد دخلت المعاهدة دور التنفيذ اعتباراً من اليوم السادس من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٤ بعد أن أودع فى باريس العدد المطلوب من تصديقات الدول الأطراف فى المعاهدة .

وبما هو جدير بالذكر أن حكومة موسكو وقعت على اتفاقية المضايق فى الرابع عشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ ، ثم امتنعت عن التصديق عليها .

وحليفاتها ، وأن يحملها على إلغاء معاهدة فرضتها على بلاده وهي في حالة الهزيمة والانكسار . والمعنى الهام الذي انطوى عليه عقد معاهدة لوزان هو إعادة إنشاء سيادة تركية كاملة على معظم الأقاليم التي تتكون منها في الوقت الحاضر جمهورية تركيا (١) ، كما قررت المعاهدة إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية الذي كان يعد انتقاصاً لسيادة الدولة في المجالات التشريعية والقضائية والتنفيذية والاقتصادية . ولذلك كان إلغاء الامتيازات الأجنبية استكمالاً لسيادة الدولة .

ومن بين جميع الدول التي لقيت الهزيمة في الحرب العالمية الأولى كانت تركيا هي الدولة الوحيدة التي نجحت ، بصلاية أبنائها واستسلام في الكفاح وتمسكهم باستقلال بلادهم ، في أن تستبدل معاهدة جديدة بمعاهدة ظالمة غير متكافئة . وتعد معاهدة لوزان في مجموعها اعترافاً دولياً بالمطالب التركية القومية كما وردت في الميثاق الوطني . ويرى بعض المؤرخين العرب أن معاهدة لوزان تعد من وجوه عديدة خاتمة فصول المألة الشرقية ، لأنه كان واضحاً أن بريطانيا وحليفاتها المتصرة الاستعمارية حاولت في معاهدة سيئر تصفية الإمبراطورية العثمانية تصفية نهائية وتصفية المسألة الشرقية معها ، لولا نهضة تركيا الحديثة الكفالية وقيامها من أنقاص الموت والدمار . فاضطرت الدول الحليفة - وقد انشقت فيما بينها في سياستها نحو تركيا - إلى عقد مؤتمر لوزان ، وفيه نالت تركيا الحديثة امتيازات كثيرة واعترف بكيانها دولة مستقلة واستطاعت فيما بعد التخلص من قيود معاهدة لوزان (٢) .

وإذا كانت اتفاقية المضايق قد قررت تجريد منطقة المضايق من السلاح ، إلا أنها حافظت على إبقاء هذه المنطقة جزءاً لا يتجزأ من الوطن التركي ، وعلى إبقاء إستانبول داخل نطاق الوطن التركي . وكانت اليونان حريصة

Lewis Bernard; op. cit, p. 254.

(١)

(٢) دكتور فاضل حسين : مؤتمر لوزان وآثاره في البلاد العربية . من مطبوعات معهد الدراسات العربية المالية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٦٦

الحرص كله على ضم هذه العاصمة إليها . وكانت اتفاقية المضايق خطوة نحو استكمال سيادة الدولة عليها بإقامة التحصينات العسكرية فيها وبقيام القوات المسلحة التركية بالدفاع عنها ، وهو ما تقرر في اتفاقية مونترية Moustroux المبرمة في ٢٠ من شهر يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ ، واشتركت في التوقيع عليها عشر دول كما سنشير إليها إشارة سريعة في موطن قريب في نهاية هذا الفصل . ويمكن تشبيه معاهدة لوزان وملحقها اتفاقية المضايق بالمعاهدة البريطانية المصرية التي عقبت في ٢٦ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٣٦ فقد كانت هذه المعاهدة خطوة نحو الاستقلال التام الذي تمحق بعقد اتفاقية الجلاء في ١٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٥٤ واستعادت مصر سيادتها التامة على منطقة القناة وحققها الكامل في إقامة الاستحكامات العسكرية على ضفتي قناة السويس وانفرادها بالدفاع عنها وحماية أمنها .

وإذا كانت اتفاقية المضايق قد قررت حرية المرور في المضايق للسفن الحربية والتجارية في وقت السلم وزمن الحرب ، إلا أنها جاءت بأحكام كانت تقضيها المصلحة العليا لتركيا ، وهي تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

لقد جاءت معاهدة لوزان بما سبق أن جاءت به معاهدة سيفر فيما يتصل بالرقابة على المضايق . ولكنها جاءت بهذه الرقابة مخففة بأن جعلت لتركيا الرياسة الدائمة للجنة المضايق ، وهبطت باليونان خضوعاً حادياً في لجنة المضايق فأقصتها عن مركزها الممتاز كصدر - مع تركيا - لسلطات واختصاصات لجنة المضايق ، كما سبق أن ذكرنا ، وقضت على التمايز بين أعضاء اللجنة فجعلت لكل عضو صوتاً واحداً بصرف النظر عما إذا كان العضو يمثل دولة كبرى أو وسطى أو صغيرة . وقد حاول باحثان اشتركا في مؤلف واحد إعطاء صورة عامة عن معاهدة لوزان وماجاءت به من مبادئ ، فقالا إن هلسه المعاهدة قد أنشأت نظاماً لمرور السفن في المضايق والرقابة الدولية على هذا المرور . وهذا النظام عبارة عن موامعة بين مصالح الدول المطلة على البحر الأسود وبخاصة مصالح روسيا التي (م ٢٠ - الدولة العثمانية)

كانت تتطلع إلى معاملة تميزها عن غيرها من الدول وبين دول المعسكر الغربي وبخاصة بريطانيا التي كانت تطمع في تقرير حرية تامة للسفن في عبورها المضائق (١).

ونخلص من هذا التقييم لمعاهدة لوزان أنها كانت عصباً بالسياسة العليا للدولة وانتقاصاً لسيادتها على جزء من أراضيها على الرغم من أنها كانت تفضل من عدة وجوه معاهدة سيفر .

وقد أصدر مجلس النواب التركي (٢) قراراً في ٢٣ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ بالموافقة على معاهدة لوزان . وكان هذا المجلس قد أصدر قبل ذلك بعدة أيام قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية . (٣) وفي ٢ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ تم جلاء آخر قوات الاحتلال من إسطنبول ، وقد دخلتها في اليوم السادس من ذات الشهر القوات التركية تحت قيادة شكرى نايلي . ومن المصادفات العجيبة أنه في هذا اليوم كان الداماد فريد باشا الصدر الأعظم السابق وانضم للدود المصطفى كمال ورفاقه وأحد أقطاب حكومة السلطان محمد السادس يلفظ أنفاسه الأخيرة في مدينة نيس بجنوبي فرنسا .

(١) Shotwell J. T. and Deak F. : Turkey at the Straits. p. 117.

(٢) كان المجلس الوطني الكبير قد حل نفسه في ١٦ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٣ استعداداً لإجراء انتخابات جديدة جاءت بمجلس نواب يتكون من ٢٨٦ عضواً . وبدأ المجلس جلساته في ١١ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ .

(٣) لما كانت جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميل قد نجحت في تحقيق أهدافها في أثناء الكفاح من أجل تحرير الوطن التركي ، رأى مصطفى كمال تحويل هذه الجمعية إلى حزب سياسي حقيق يخضع للتنظيم الحزبي . وقد أصدر مصطفى كمال في ٦ من شهر ديسمبر - كانون أول - سنة ١٩٢٢ أول بيان للصحافة من تأسيس حزب جديد يسمى حزب الشعب . وطلب من المثقفين في تركيا موافقة بأرائهم بالكتابة إليه شخصياً . وقد اجتمع حزب الشعب في ٩ من شهر أغسطس - آب - عام ١٩٢٣ - أي قبل اجتماع مجلس النواب يومين - واتخذ قراراً بانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية وقد اتخذ هذا الحزب في نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٢٤ اسماً آخر هو حزب الشعب الجمهوري تأكيداً في أذهان الشعب لنظام الجمهوري . وتشير الراجع الأجنبية إلى اسم الحزب مختصراً على هذا النحو The R.P.P. أي The Republican People's Party.

إستانبول تفقد مركزها كعاصمة :

غدت إستانبول ، بعد تجريدنا من السلاح طبقاً لاتفاقية المضايق ، مدينة مكشوفة معرضة للهجوم عليها براً وبحراً . ورأى مصطفى كمال نقل العاصمة إلى أنقرة وهي المدينة التي تقع في قلب الأناضول ، الوطن التركي الأصيل ، وتتمتع بحصانة طبيعية تجعلها بمنأى عن هجوم الأعداء ، ومقبرة لهم إذا حاولوا اجتياز الجبال والمضاب المحيطة بها للوصول إليها أو الاقتراب منها . وقد اتخذ مجلس النواب التركي في ١٣ من شهر أكتوبر - تشرين أول - سنة ١٩٢٣ قراره بنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة (١) . وكان نقل العاصمة ضربة عنيفة لإستانبول ، فقد حرمت من مركز ظلت تشغله أربعائة وسعين سنة كعاصمة لإمبراطورية إسلامية وعاصمة من أكبر عواصم العالم وكبرى عواصم الشرق على الإطلاق .

ويرى أحد كبار المؤرخين الإنجليز أن هذا الإجراء كان بمثابة عملية قطع أو فصل لماضى الدولة العثمانية عن حاضر تركيا . ويرر نقل العاصمة بأنه كان نتيجة منطقية لإلغاء نظام السلطنة ، فقد ذهب السلطان ، ولم تعد إستانبول في ظل الأوضاع الجديدة مكاناً صحيحاً لتكون مقراً لحكومة الثوار الذين أطاحوا بالسلطان العثماني . ويمضى هذا المؤرخ قيقول إن الماضى الحافل بالأعجاد عالق بالأذهان : القصور الرائعة والمساجد الفخمة والمباني العظيمة التي تزخر بها إستانبول ، وضاحتها بيرا Pera موطن السفارات الدبلوماسية وموتل الجاليات الأجنبية والتجارة من مختلف الجنسيات ، كل أولئك كان مرتبطاً أشد الارتباط بالماضى في الواقع الملموس ومستقراً في أذهان الشعب التركي . فلم تكن إستانبول صالحة لتكون مركزاً لتركيا الحديثة التي أراد مصطفى كمال أن يقيمها ، ومن ثم اختيرت مدينة أخرى لتكون عاصمة جديدة كى تكون رمزاً يجسد التغيرات التي أراد إدخالها . فالنولة الجديدة

(١) كان حزب الشعب قد وافق في ٩ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٩٢٣ ، بناء على اقتراح عصمت باشا ، باخذ أنقرة عاصمة للنولة الجديدة بدلاً من إستانبول . وبعد أربعة أيام وافق مجلس النواب على هذا التصديق .

لم تستند إلى أسرة حاكمة ، ولم تقم على إمبراطورية ، ولا على عقيدة Faith ، وإنما قامت على الشعب التركي ، ومن ثم كانت عاصمة هذه النولة في قلب الوطن التركي (١) . وهذا الرأي يحمل في معظم عناصره طابع التبرير أكثر مما يحمل من طابع التفسير ، لأن التصرفات الأولى لمصطفى كمال كانت تم عن اتجاهه إلى الأناضول بصفهها الوطن التركي الأصيل يتخذ منها مهاداً لحركته الثورية . ففي الأناضول تكونت في شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٨ المجموعات الأولى للمقاومة . وفي الأناضول اجتمع مؤتمر أرضروم ثم مؤتمر سيواس في ٢٣ من شهر يوليو - تموز - وفي ٤ من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٩١٩ على التوالي : ووقع اختيار مصطفى كمال في وقت مبكر على أنقرة ، وكانت وقتذاك قرية جبلية صغيرة ، واتخذ منها منذ اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٩١٩ مقراً للجنة الدائمة المنبثقة عن «جمعية الدفاع عن حقوق الأناضول والروميلي» وهي اللجنة التي كانت بمثابة مركز قيادة الثورة ، وكان مصطفى كمال رئيساً للجمعية واللجنة معاً . وفي أنقرة اجتمع المجلس الوطني الكبير في ٢٣ من شهر أبريل - نيسان - عام ١٩٢٠ واتخذها مقراً رسمياً دائماً للمجلس . وفي أنقرة تكون أول مجلس وزراء شكلته قيادة الثورة في ليلة ٣ - ٤ من شهر مايو - آيار - عام ١٩٢٠ . وكانت حكومة أنقرة هي التي عقدت اتفاقيات دولية مع كل من الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية R. S. F. S. R وجمهورية فرنسا ومعااهدات صداقة مع كل من جورجيا وفارس وأفغانستان . وأصبحت أنقرة مقرونة في أذهان الرأي العام التركي والرأي العام الألماني باسم الثورة الجمالية التي نجحت في تحرير الوطن من دنس الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي واليوناني . كما أن رجال حكومة أنقرة هم الذين قاموا بإجراء مفاوضات لوزان التي انتهت بعقد المعاهدة . فكل هذه شواهد أو دلائل تم عن اتجاه مصطفى كمال لنقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة . أما الرأي

الذى يذهب إليه الأستاذ لويس برنارد بأن جمهورية تركيا لم تقم على أساس أسرة حاكمة ، فإن إستانبول لم تكن مسقط رعوس السلاطين الأوائل ولم تكن مرتعاً لصباهم . وإذا كانت إستانبول تزخر بالقصور والمساجد وغيرها من المنشآت التى تعد من روائع الفن المعمارى ومظهراً مجسداً للحضارة العثمانية ، فإن جمهورية تركيا هى امتداد للدولة العثمانية ، وهى دولة ذات ماض حافل بالأجداد . والاثنتان - السلطنة والجمهورية - تطاولان الزمان وجوداً .

والواقع أنه كانت هناك ثلاثة بوعث أملت على مصطنق كمال نقل العاصمة من إستانبول .

أولاً : كانت إستانبول فى متناول قذائف الأساطيل البحرية للأعداء ، كما كان يسهل حصارها برياً ومهاجمتها على عكس أنقرة .

ثانياً : كانت إستانبول تعج بالجاليات الأجنبية وبخاصة الجالية اليونانية ، وكانت كثيفة العدد يقيم أفرادها فى حى الفنار . وكان هذا الحى لا يزال مقرراً للبطريرك اليونانى ومقرراً للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . وما هو جدير بالذكر أن أعضاء الوفد التركى فى مفاوضات لوزان نقل مقر البطريرك والكنيسة خارج إستانبول . ولم يجدوا استجابة لطلبهم (١) .

ثالثاً : كانت إستانبول فى نظر مصطنق كمال مقرراً لعلماء الدين وأنصار السلطنة . وكان يخشى أن يقوموا بحركات مضادة تهدد النظام الجمهورى الوليد . أما أنقرة فكانت مدينة ثورية لحماً ودماً .

ومع ذلك فعلى الرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على حرمان إستانبول من مركزها كعاصمة للدولة ، فإنها لا تزال أكبر مدن تركيا من حيث الكثافة السكانية ، فطبقاً لتعداد سنة ١٩٧٥ بلغ عدد سكان جمهورية تركيا زهاء ٤١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة موزعة على ٦٧ مقاطعة . وبلغ عدد سكان

• Miller W., op.cit., 536-557.

إستانبول أربعة ملايين نسمة ، بينما بلغ تعداد العاصمة الجديدة ، أنقرة ، زهاء مليون ونصف مليون نسمة ، تليها مدن أزمير ، وأضنا ، ويسكي شهر ، وبورصة (بروسه) ، وسيسون ، وقيسرى ، وغازي عتات ، وسيواس ، وديار بكر . فضلا عن كنوزها وثراوتها الفنية التي تتمثل في قصورها التاريخية ومساجدها ومبانيها ومتاحفها .

مقارنة بين معاهدتي سيفر ولوزان فيما يختص بالمضايق :

يلاحظ أن هاتين المعاهدتين قد قررتا إنشاء لجنة المضايق . وقد قامت هذه اللجنة في المعاهدتين على تأكيد مبدأ الإشراف الدولي على تنظيم مرور السفن والطائرات في منطقة المضايق . ولكن جاءت معاهدة لوزان بعدة مبادئ كانت في مصلحة تركيا . كان أول هذه المبادئ أنها استبعدت اليونان كدولة تشارك تركيا في السيادة على منطقة المضايق التي هي جزء من الوطن التركي ، وهو مبدأ خطير كانت قد استحدثته معاهدة سيفر حين نصت على أن لجنة المضايق تستمد من تركيا ومن اليونان مصدر وجودها وسلطانها واختصاصاتها ، وبعبارة أخرى كانت تركيا واليونان شريكتين في مصدر السيادة . ثم جاءت معاهدة لوزان فجعلت تركيا الدولة الوحيدة التي تستند إليها لجنة المضايق في وجودها ، وأصبحت اليونان عضواً عادياً في لجنة المضايق . كما قررت معاهدة لوزان انفراد تركيا بالرياسة الدائمة للجنة المضايق ، وشجبت لوزان التمايز بين أعضاء اللجنة الذي جادت به معاهدة سيفر التي جعلت لبعض أعضاء اللجنة صوتين لكل منهم وجعلت لبعض الآخر صوتاً واحداً . وكانت تركيا من الفريق الثاني ذي الصوت الواحد . فساوت معاهدة لوزان بين مندوبي جميع الدول الكبرى والصغرى بأن جعلت لكل مندوب دولة صوتاً واحداً . ولم يرد في معاهدة لوزان الشرط الخمي الذي جاءت به معاهدة سيفر وهو أن تكون الدول الممتلة في لجنة المضايق أعضاء في عصبة الأمم بحيث لا تباشر عملها في اللجنة إلا بعد قبولها في عصبة الأمم . وكان المقصود بهذه الدول وقتئذك روسيا وتركيا وبلغاريا . أما معاهدة لوزان فقد قررت أن يكون تصديق كل دولة على المعاهدة هو

شرط ممارستها لعضويتها في نشاط اللجنة ، وهو شرط أدنى إلى العدالة والاعتدال . لأنه قد تقوم عقبات تحول دون انضمام الدولة إلى عصابة الأمم ، بينما التصديق على المعاهدة هو عمل تمارسه الدولة بمحض رغبتها وإرادتها ولا يتطلب إصداره موافقة دول أو هيئات أجنبية (١) .

(١) التصديق La Ratification هو قبول المعاهدة رسمياً من السلطة التي تمك حقد المعاهدات نيابة عن الدولة . وهذه السلطة هي إما رئيس الدولة منفرداً ، وإما رئيس الدولة مشتركاً مع السلطة التشريعية ، وذلك تبعاً للنظام الدستوري المعمول به في كل دولة من الدول الأطراف في المعاهدة من حيث السلطات التي تمنحها الدساتير لرؤساء الدول في شأن إبرام المعاهدات والتصديق لإجراء واجب لنفاذ المعاهدة في الدائرة الدولية يؤيد ضرورته القانون الدولي الوضع وكذلك العرف المتواتر بين الدول .

وقد اعتمد فقهاء القانون الدولي العام في ضرورة التصديق على المعاهدات حل عدة أسانيد ، منها خطورة الالتزامات الدولية المنصوص عليها في المعاهدات ، وإثاحة الفرصة لحكومة كل دولة من الدول الأطراف فيها وللهيئات النيابية فيها لإعادة النظر في المعاهدة قبل أن تصبح ملزمة لها بصفة نهائية ، فقد ترى فيما اتفق عليه متبويها تنازلاً مع مصالحها أو انتقاماً من حقوقها أو قد تلمأ ظروف تدعوها إلى الدول مما كانت تراه من قبل فتستع عن التصديق . وهذا الانتع تسقط المعاهدة تلقائياً بالنسبة لها . وأخيراً فإن من بين أسانيد التصديق الرغبة في تقاض ما يحصل التملل به من أضرار بما التوقيع بمقولة تجاوز المفاوضين لسلطاتهم .

ويلاحظ أنه لا يترتب على رفض الدولة التصديق على المعاهدة أية مسؤولية دولية ، ولكن لا يلحق المعاهدة في هذه الحال وصف النفاذ . فالصديق لا يعتبر مجرد إجازة للمعاهدة ، بل هو الإعلان الحقيقي لإرادة الدولة في الالتزام بأحكام المعاهدة ، وهو الذي يحدد اللحظة التي تصبح فيها المعاهدة ملزمة .

وهناك اجراء شكل يستكمل به اجراء التصديق ، ويسمى تبادل وثائق التصديق أو إيداعها . فلكي يتج التصديق آثاره القانونية في الدائرة الدولية يجب أن تسل به الدول الأخرى الأطراف في المعاهدة . ويتحقق هذا التلم ، في حالة المعاهدات الثنائية ؛ من طريق تبادل الوثائق التي تعده التصديق . أما في حالة المعاهدات الجماعية فيتم من طريق إيداعها لدى حكومة دولة معينة ، هي في العادة صاحبة الدولة التي تم التوقيع في إقليمها . وتبادل وثائق التصديق أو إيداعها هو الإجراء الذي تدخل به المعاهدة في دور التنفيذ الدولي .

أنظر كلا من :

دكتور حامد سلطان ، مرجع سبق ذكره ، صص ٢١٤ - ٢٢٥

دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولي العام . دراسة لقوانينه الأصولية ولأحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٢٦ .

فضل الثورة الكمالية في تحسين وضع المضايق :

كان إلغاء معاهدة سيفر وإبرام معاهدة لوزان وما نجم عنها من تحسين الوضع السياسي نسبياً لمنطقة المضايق ثمرة من ثمار الثورة الكمالية. ولا جدال في أن نجاح هذه الثورة كان مرده إلى القيادة الحكيمة التي اتسم بها مصطفى كمال ، فلم يلجأ إلى إجراءات تعسفية من اعتقال المواطنين بالآلاف وتعليبهم وإهدار كرامتهم بل وأدميتهم ومصادرة أموالهم وتقديمهم إلى محاكمات صورية تصدر فيها أحكام بالإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة بناء على أوامر مسبقة . وكان حريصاً منذ بدء الثورة على إنشاء مجلس نيابي وفر له الاستقرار الزمني والحماية الدستورية ، فاستطاع أن يقدم للجمعية التركي الكثير من الخدمات . وكان رفاق مصطفى كمال متلاحقاً في النزاهة والأخلاق والبعد عن استغلال النفوذ والإثراء غير المشروع وهتك الأعراض وما إلى ذلك . ولم يشكل هؤلاء الرفاق والأعوان ، كما فعل غيرهم في دول أخرى ، مراكز قوى حتى أصبح كل منهم يمسى الأيام حكومة داخل الحكومة *imperium in imperio* . وتحضرنا في هذه المناسبة جملة معبرة حكيمة ذكرها نيقولا ميكائيل وهو يتكلم عن الأمير . وكان يقصد بالأمير في هذه الجملة الحاكم أياً كان لقبه : إمبراطوراً أو ملكاً ، أو أميراً . وقد جاء فيها أن رجحان عقل الأمير وكفايته يقاسان بصفات الأفراد الذين يحيطون به والذين اختارهم لمعاونته في شؤون الحكم . فإذا كانوا على حظ موفور من الأمانة والكفاية والخلق كان ذلك دليلاً ساطعاً على سكمة الأمير ، وإلا كان الرأي في الأمير على عكس ما تقدم (١) .

موقف موحد لبريطانيا وحليفاتها من تركيا وألمانيا فيما يختص بالمرات
المالية :

من المواقف السياسية والعسكرية الجسدية بالملاحظة أن بريطانيا

(١) انظر عرضاً لحياة ميكائيل وآرائه السياسية في كتابنا :

أوروبا في مطلع العصور الحديثة . الطبعة الثالثة ١٩٧٧ ، الفصل الثاني وعنوانه :

ثلاثة من أهلام الفكر الأوروبي الحديث في مطلع عصر النهضة . الجزء الخاص بميكائيل ،

وحليفاتها وقفت موقفاً موحداً من تركيا وألمانيا فيما يختص بالممرات المائية التي في أراضي كل منهما . ولذلك كان موقف هذه الدول من المضائق التركية مشابهاً إلى حد كبير لموقفها من قناة كييل La Canal de Kiel وهذه القناة تصل بحر الشمال ببحر البلطيق عبر الأراضي الألمانية (١) . وقامت ألمانيا بحفرها دون أى تدخل أجنبي وافتتحت للملاحة سنة ١٨٩٦ ، وكانت تسمى أيضاً قناة غليوم نسبة إلى غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا وقتئذ (١٨٨٨ - ١٩١٩) . وكان الهدف من إنشائها حربياً أكثر منه تجارياً ، واعتبرت طريقاً ألمانياً بحتاً في صميم الأراضي الألمانية . وكانت ألمانيا تمارس على هذه القناة جميع حقوق الملكية والسيادة والإدارة والاستغلال . ولم توضع اتفاقية دولية تقيد سلطة ألمانيا عليها ، فكان لها مطلق الحرية في تكييف مركز هذه القناة ، وفي أن تمنع مرور أية سفينة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى ولقيت فيها ألمانيا المزمعة . وكان من الطبيعي أن يكون لقناة كييل نصيب ملحوظ في أحكام معاهدة فرساي التي فرضت على ألمانيا . فقد نصت على تجريد هذه القناة ومدخلها من الملاح وتخطيم التحصينات العسكرية التي كانت موجودة فيها وتحريم إقامة تحصينات جديدة (المادة ١٩٥) ، وهذه المادة تشبه ما تقرر في اتفاقية المضائق من نزع سلاح منطقة المضائق ، كما أدرجت في ذات المعاهدة أحكاماً تضيّق على قناة كييل صيغة دولية نسبية . وجاءت هذه الأحكام في سبع مواد (من ٣٨٠ إلى ٣٨٦) . وهنما في هذه الدراسة بوجه خاص المادة ٣٨٠ فقد نصت على أن « تكون قناة كييل ومناقلها حرة ومفتوحة دائماً على قدم المساواة التامة للسفن الحربية والتجارية لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا » . ويتفق هذا النص مع ماورد في اتفاقية المضائق حين نصت على أنه في زمن الحرب وإذا كانت تركيا إحدى الدول المتحاربة فبكون المرور عبر المضائق مقصوراً على سفن الدول المحايدة ، بمعنى تحريم مرور السفن الحربية والتجارية التابعة لدولة أو دول في حالة حرب مع تركيا .

(١) تبدأ القناة من ميناء كييل الحربى على بحر البلطيق إلى مصب نهر الإلب Eibe على بحر الشمال .

وقررت معاهدة فرساي في المادة ٣٨١ تطبيق مبدأ المساواة على السفن التي تستخدم قناة كيبل تطبيقاً دقيقاً بالنص على أن حق المرور بالشكل الذي تقرّر لجميع الدول التي في حالة سلم مع ألمانيا يجب أن تتمتع به هذه الدول وكل ما يتبعها من أشخاص وأموال وسفن ومراكب على قدم المساواة التامة دون تمييز بينها وبين رعايا وأموال وسفن ومراكب ألمانيا أو الدولة الأولى بالرعاية . « وألا تعوق مرور الأشخاص والسفن والمراكب عواتق أخرى إلا ما كان نتيجة النصوص الخاصة بالشرطة أو الرسوم أو التدابير الصحية أو الهجرة أو المهاجرة ، وكذلك النصوص الخاصة باستيراد أو تصدير البضائع المنوعة ، ويجب أن تكون هذه القيود مناسبة وتطبق على وجه التساوي وألا تعوق الحركة دون مبرر » . وفي اتفاقية المضائق نصوص مشابهة إلى حد كبير وتهدف عدم التمييز بين جنسيات السفن على النحو الذي مررنا وعدم السماح لتركيا - كدولة محايدة أو محاربة - بالتخاذ أية إجراءات تعتبر تدخلا في الملاحة عبر المضائق أمام سفن الدول المحايدة .

وجاءت المادة ٣٨٢ خاصة بتنظيم الرسوم وتحديد أنواعها ، فقررت ألا يفرض على السفن سوى الرسوم التي تغطى على وجه عادل نفقات صيانة وتنظيم الملاحة أو تحسين القناة أو مداخلها ، وأن يكون تقدير الرسوم على نحو لا يحتم فحص حوالة السفينة بالتفصيل حتى لا يتعطل مرور السفن . ونظامت المادة ٣٨٣ مسألة البضائع المارة Transit وجعلت إنزال وشحن البضائع وركوب المسافرين ونزولهم بالقناة مقصوراً على الموانئ التي تحددها ألمانيا . وعادت المادة ٣٨٤ إلى موضوع الرسوم فقررت عدم جواز جباية أى رسم في القناة وفي مداخلها غير ماورد ذكره في هذه النصوص .

وقررت المادة ٣٨٥ أنه « يتعين على ألمانيا أن تتخذ الاجراءات المناسبة لإزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحة ، وأن تكفل توافر شروط صلاحية الملاحة . ولا يجوز لها إقامة أشغال من طبيعتها عرقلة الملاحة بالقناة أو مداخلها » . ويفسر أحد اساتذة القانون المصريين الفقرة الأولى من هذه

المادة بأنها تعطي ألمانيا مهمة الدفاع عن قناتها واتخاذ سائر التدابير اللازمة لسلامة الملاحه بها وطمأنينتها على الدوام^(١). والواقع أن نص هذه الفقرة يكتنفه الغموض فهو لا يشير صراحة إلى تحويل ألمانيا حق الدفاع عن القناة لأن عبارة « إزالة العوائق والأخطار التي تهدد الملاحه » عبارة عامة .

وحددت المادة ٣٨٦ جهات الاختصاص للفصل في المنازعات التي تنشأ نتيجة مخالفة أحكام المواد التي قررتها معاهدة فرساي فيما يختص بقناة كييل أو نتيجة الخلاف على تفسير هذه المواد ، فأجازت للدولة صاحبة الشأن أن تلجأ إلى « جهة القضاء التي تقيمها لهذا الغرض عصبة الأمم » ووجهة القضاء هذه ليست إلا محكمة العدل الدولية الدائمة . كما نصت ذات المادة على أنه « لتفادى عرض المسائل القليلة الأهمية على عصبة الأمم تقيم ألمانيا في كييل سلطة محلية تحاط بالمنازعات في مرحلتها الأولى ، ولها حق إعطاء الرضية الممكنة للشكاوى التي يقلمها المندوبون القنصليون للدول المختصة » أي تقيم ألمانيا في ميناء كييل محكمة محلية أو لجنة قضائية أو ماأشبهه كدرجة أولى من درجات التقاضي تنظر في المخالفات البسيطة وتقدم عنها الرضية الممكنة لتفانص الدول التي تقع المخالفات في مواجهة ما يتبعها من سفن أو رعايا أو ممتلكات^(٢) .

ومن مجموعة هذه المواد التي جاءت بها معاهدة فرساي يتضح أن قناة كييل خرجت من النطاق الوطني البحث بعد أن كانت تعتبر في ظله قناة داخلية تحت السلطان الكامل لألمانيا ، فأصبحت لها صفة دولية وتقررت حرية مرور جميع السفن التجارية والحربية على قدم المدهاواة لجميع الشعوب التي في حالة سلم مع ألمانيا . وهذا الوضع السابق والوضع اللاحق لقناة كييل عقب معاهدة فرساي يشبهان الوضع الذي آلت إليه المضائق التركية عقب معاهدة لوزان .

(١) دكتور عبد الله رشوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٠ .

استمرت نصوص معاهدة فرساي نافذة إلى أن أعلنت ألمانيا في ١٤ من نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٩٣٦ إلغاء هذه المعاهدة وتحللها من أحكامها ومنها ما يتعلق بقناة كييل . ولم يحتج على هذا الإلغاء من الدول الأطراف في المعاهدة سوى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا (١) . واستردت ألمانيا سلطاتها المطلقة على القناة وأخضعها إخضاعاً تاماً لمصالحها .

ومرة أخرى يجيء التوقيت واحداً بالنسبة للمضايق التركية وقناة كييل . فقد استطاعت الحكومة التركية بالطرق القانونية الشرعية التي تتمثل في الدبلوماسية المرنة والمصاهرة واستغلال تطور الظروف الدولية - إلغاء النصوص الجائرة التي جاءت في اتفاقية المضايق وعقدت معاهدة جديدة هي معاهدة مونتره في ٢٠ من يوليو - تموز - عام ١٩٣٦ وسعروض لها يعد قليل .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ منعت ألمانيا أعداءها من المرور في قناة كييل . ولما خرجت من هذه الحرب منهزمة واحتلت الدول المتحالمة الأربع الكبرى الأراضي الألمانية كان نصيب بريطانيا احتلال المنطقة التي تقع فيها قناة كييل فعادت الملاحة في القناة حرة للجميع دون أن تنتظر بريطانيا إبرام معاهدة دولية لتوضيح المركز القانوني لقناة كييل ، وبذلك كانت حرية المرور في قناة كييل تسبند إلى الأمر الواقع ، بعد أن طويت معاهدة فرساي . ومرة أخرى طلبت حكومة موسكو في عام ١٩٤٥ - بعد الحرب العالمية الثانية - وضع نظام جديد للمضايق التركية .

اتفاقية مونتره سنة ١٩٣٦ :

اشتهد مساعد الجمهورية التركية في المجال الدولي . وكانت قد ضاقت ذرعاً بالأحكام الجائرة المتصلة بموضوع المضايق والتي جاءت بها معاهدة لوزان ، وبخاصة تجريد منطقة المضايق وجزرها من السلاح وقيام اللجنة الدولية -

لجنة المضايق - بالإشراف على حرية المرور في المضايق . وأرادت أن تتخلص من هذه القيود لتتولى الدفاع بنفسها عن المضايق وإلغاء لجنة المضايق تأكيداً لسيادة الدولة على هذه المناطق التي هي جزء من الوطن التركي . ومنذ سنة ١٩٣٣ قامت الحكومة التركية بانصالات دبلوماسية مع الدول ابتغاء تعديل أحكام معاهدة لوزان فيما يخص بموضوع المضايق . وجاء اضطراب العلاقات الدولية في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ عاملاً ساعداً على تحقيق مطالبها . فقد جاء الغزو الإيطالي للحبشة في هاتين السنتين نذيراً بزيادة الخطر الفاشستي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وأحدث بدوره تقارباً بين تركيا وبريطانيا . وعقد مؤتمر في مونتريه Montreux بسويسرا في الفترة من ٢٢ يونيو - حزيران - إلى ٢٠ يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ اشتركت فيه عشر دول ، هي : أستراليا وبلجارية وفرنسا واليونان واليابان ورومانيا والاتحاد السوفيتي ويوغوسلافيا فضلاً عن بريطانيا و تركيا . وقد أسفر هذا المؤتمر عن عقد اتفاقية مونتريه في ٢٠ من يوليو - تموز - سنة ١٩٣٦ .

وقد استردت تركيا بمقتضى الاتفاقية الجديدة حقها في تحصين منطقة المضايق . ولم تتوان في مباشرة هذا الحق استكمالاً لسيادتها على هذه المنطقة والتي كانت قد سلبت جزءاً منها معاهدة لوزان . كما استردت حقها في الدفاع عن هذه المنطقة التي غدا شأنها شأن سائر أجزاء الوطن التركي .

كما حولتها اتفاقية مونتريه اختصاصات اللجنة الدولية ، وعدلت لصالح الحكومة التركية شروط مرور السفن التجارية والحربية سواء في وقت السلم أو زمن الحرب . ولن نتعرض لتفاصيل هذه الاتفاقية لأنها تتصل بتاريخ جمهورية تركيا ، ولا نريد التوسع في تاريخ هذه الفترة .

(١) تجد نص هذه الاتفاقية في كل من :

Actes de la Conférence de Montreux concernant le régime de détroits. Liège, 1936.

Survey of International Affairs, 1936, pp. 584-651.

المذكرة السوفيتية سنة ١٩٤٦ :

ولنفس السبب لن نتعرض لتفاصيل المذكرة الدوفيتية التي قدمتها حكومة الاتحاد السوفيتي في ٧ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٦ إلى حكومات تركيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وطلبت فيها تعديل أحكام اتفاقية مونترية تأسيساً على أن اتفاقية مونترية لم تحقق سلامة دول البحر الأسود، ولم تضمن عدم استخدام المضايق لأغراض معادية لهذه الدول ، إذ دخلت ، في خلال الحرب العالمية الثانية ، بعض السفن المعادية التابعة لدول المحور ، البحر الأسود ، عبر المضايق وبأشرت نشاطاً معادياً للاتحاد السوفيتي ، وتأسيساً على أن الدول الكبرى كانت قد وافقت في مؤتمر بوتسدام - ضاحية برلين - والذى عقد في الفترة من ١٧ من يوليو - تموز إلى ٢ من أغسطس - آب - سنة ١٩٤٥ عقب تسليم ألمانيا على ما رأته الحكومة السوفيتية من ضرورة وضع نظام جديد للمضايق يتناسب مع مركزها الجديد بعد أن خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية . وكانت المذكرة السوفيتية قد طالبت بمخسة مبادئ تكون أساساً لتعديل اتفاقية مونترية (١) . وكانت هذه المبادئ هي :

١ - تظل المضايق مفتوحة دائماً لمرور السفن التجارية التابعة لجميع الدول .

٢ - تظل المضايق مفتوحة دائماً لمرور السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود .

٣ - عدم السماح بمرور السفن الحربية التابعة لدول من غير دول البحر الأسود إلا في أحوال خاصة محددة .

٤ - تقع مسؤولية تحديد نظام للمضايق - وهي الطريق الوحيد للبحر الأسود - على عاتق تركيا وبقية دول البحر الأسود .

(١) دكتور عبد الله رتوان ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨٦ - ٣٨٧

٥ - تتعاون تركيا والاتحاد السوفيتي - باعتبارهما أكثر الدول مصلحة وأقلها على ضمان حرية الملاحة وسلامة المضائق في تنظيم الدفاع عن المضائق ومنع الدول الأخرى من استخدامها في أغراض معادية لدول البحر الأسود (١).

وقد أظهرت تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا ميلا إلى قبول المطالب أو المبادئ الثلاثة الأولى . ولكنها عارضت المبدأين الرابع والخامس . ورأت تركيا في المبدأ الخامس مساساً بسيادتها لأنه يؤدي إلى إثراء الاتحاد السوفيتي معها في الدفاع عن منطقة المضائق ، وهي جزء من الوطن التركي ، وتعتبر هذه المشاركة مساساً بالسياسة العليا للدولة . واقترحت الولايات المتحدة أن تتولى هيئة الأمم المتحدة الإشراف على الملاحة عبر المضائق (٢) .

من هذا العرض لتاريخ البحر الأسود ومنطقة المضائق لسلسلة الاتفاقات والمعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية أو فرضت عليها نجد أن الدولة كانت تمارس سيادتها على اللردنيل وبحر مرمرة والبوسفور والبحر الأسود في معظم عصور تاريخها ما بقيت الدولة قوية مهيبية الجانب . وكانت هذه الممارسة الفعلية إحدى الدعائم الأساسية التي قامت عليها سياستها العليا . كان البحر الأسود بحيرة عثمانية داخلية . وكانت منطقة المضائق بوجه خاص ذات صبغة عثمانية بحتة ، فلم تكن الدولة بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ تسمح لأية سفينة حربية أجنبية بعبور المضائق في أوقات السلم فضلا عن زمن الحرب . أما السفن التجارية فكان اجتيازها المضائق متوقفاً على إرادة السلطان العثماني وحده . ثم أخذت تفقد تدريجياً هذه الصبغة العثمانية البحتة وتوجه نحو الدولية نتيجة عدة عوامل ، منها نجاح روسيا في غزو شبه جزيرة القرم في القرن الثامن عشر ، دخول الدولة في دور الاضمحلال ، وأطماع الدول

(١) دكتور مصطفى الحفناوي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٦٢٨ - ٦٣٩ .

(٢) المرجعان السابقان . وانظر نصوص المذكرات المتبادلة بين حكومات موسكو وأنقرة

رواشنجن في كتاب الدكتور الحفناوي ص ٦٢٨-٦٤٥ .

الأوروبية الكبرى فيها ، وكانت روسيا ثم النمسا في مقدمة هذه الدول ثم تبعهما كل من بريطانيا وفرنسا ، وازدياد حدة التنافس الاستعماري الأوروبي ورغبة الدول في الاستئثار بالمناطق الحساسة في الدولة ، وكان من بينها منطقة المضائق ، وازدياد أهمية الملاحة البحرية العالمية ، والنمو المطرد في حجم وعدد الأساطيل التجارية والمحربية لدول العالم ، والتحسن المستمر في بناء واستخدام هذين النوعين من الأساطيل ، وتشعب مصالح الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية . وكانت الدولة العثمانية في أدوار اضمحلالها تواجه حيناً ضعفاً من دولة واحدة مثل روسيا ، وأحياناً تواجه تكتلاً من الدول الأوروبية الكبرى لفرض أنظمة معينة على منطقة المضائق كان فيها مساهم بسيادة الدولة وتجريد لها من سلطاتها على المضائق .



الفصل الحادي عشر

السياسة العليا للدولة العثمانية في ضوء خصائصها العامة (٥)

علم صبيغ الشعوب بالصيغة العثمانية :

لم تحاول الدولة عثمينة الشعوب التي دانت لحكمها سواء الشعوب الأوروبية أو الشعوب الإسلامية. ونقصد بالعثمنة L'Ottomanisation صيغ هذه الشعوب بالصيغة العثمانية أو ربطها برباط الحضارة العثمانية ، وهي حضارة ، مهما تهجم عليها بعض الباحثين ، فكانت حضارة قائمة فعلا واستقت مقوماتها وعناصرها من منابع متعددة كما سنوضح ذلك في كتاب قادم نفرده للنظم العثمانية . والحق أن السياسة العليا للدولة العثمانية اتسمت بالسلبية حيال عثمينة شعوبها . وكان مرد هذه السلبية إلى عاملين . كان العامل الأول هو سطحية الحكم العثماني بحيث مارست الدولة نفوذها في نطاق ضيق للغاية . وقد سبق أن شرحنا هذا العامل في فصل سابق . أما العامل الثاني فكان الاستعلاء الذي كان من السمات البارزة في الخلق العثماني . وقد اشترك في هذا الاستعلاء السلاطين والأتراك العثمانيون على سواء .

وقد بلغ الاستعلاء بالسلاطين حداً جعلهم يترفعون عن مخاطبة أباطرة أوروبا وملوكها بألقابهم المتعارفة في محيط العلاقات الدولية . كانوا يعتبرون الدول الأوروبية في حداد الإمارات أو الولايات ، ويعتبرون الأباطرة والملوك غير نظراء لهم . كانت صياغة الاتفاقات التي يعقدها السلاطين مع ملوك الدول الأوروبية تتم عن استعلاء بالغ على هؤلاء الملوك . وفي إتفاقيات الهدنة بين الدولة العثمانية والنمسا ترد هذه الديباجة ومنحت هذه الهدنة عن تفضل من السلطان أبدى الانتصار إلى ملك النمسا المغلوب دوماً . كان

السلطان العثماني إذا ما وعد أحد ملوك أوروبا بالمساعدة بأبي تسجيل هذا الوعد كتابة ، بل يكتفى به مجردا . وقد ظل سلاطين الدولة العثمانية أمداً طويلاً يرفضون تعيين سفراء للدولة لدى الدول الأوروبية اعتقاداً منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، وأن على رجال الدول التي تحتاج إليهم أن يحضروا إلى إسطنبول باعتبارها عاصمة العالم كله . كان على سفراء الدول أن يقدموا كل سنة هدايا ثمينة على سبيل الجزية . أما البعثات السياسية التي يوفدها ملوك أوروبا إلى السلاطين من وقت إلى آخر فكان على أعضاء البعثات أن يرفعوا إلى القصر هدايا ثمينة رمزاً لعلو مركز السلطان بالنسبة لأولئك الملوك^(١). واستمر هذا التقليد المسمى « التقدمة » معمولا به حتى أُلغاه السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) . كانت مقابلة السفراء والبعوثين السياسيين للسلاطين تتم وسط مراسم وتقاليد مزرية بكرامة أولئك السفراء . وقد قضت على معظم هذه التقاليد معاهدة ستيفناتوروك، ويطلق عليها البعض من قبيل الاختصار معاهدة توروك Torok (١١ من نوفمبر - تشرين ثان - سنة ١٦٠٦) التي عقدت بين الدولة العثمانية والنمسا ووضعت نهاية رسمية وشكلية لحرب استطالت ثلاث عشرة سنة تحت حكم ثلاثة سلاطين تعاقبوا على عرش الدولة^(٢).

واستعلاء السلاطين كان نزعة أصيلة في نفوسهم اشترك معهم فيها الأتراك العثمانيون كشعب نظر إلى الحرب على أنها مهنته الأولى ، ونظر إلى أصوله الجنسية الأولى على أنها أنقى وأرق من الأصول الجنسية للشعوب الأخرى ، فكان حفيظاً على هذه الأصول ، ضيقاً بالزواج من غير التركيبات العثمانيات . ونظر إلى الشعوب الأوروبية المسيحية نظرة ازدراء ، ونظر إلى الشعوب الإسلامية نظرة استعلاء .

(١) محمد جميل بيهم . فلسفة التاريخ العثماني . كيف نشأت وارتقت السلطة العثمانية وإلى أي حد بلغت عظمتها . بيروت ، ١٩٢٥ ، انظر فيه : مظاهر المنظمة في التقاليد والمعاملات ص ص ٢٩١ - ٢٩٥ .

(٢) كان من بين أحكام هذه المعاهدة إلغاء السيادة العثمانية على إقليم ترانسلفانيا ، وقيام العلاقات بين الدولة العثمانية والنمسا على قدم المساواة .

سياسة الدولة تجاه الولايات الأوروبية المسيحية :

وقد أدى هذا الاستعلاء في خلق العثمانيين إلى نتيجة طبيعية هي عزلة اجتماعية عاش فيها العثمانيون بعيدين عن الشعوب الأوروبية التي خضعت لهم. وكان العثمانيون أقلية عديدة بالنسبة للسكان أصحاب البلاد الأصليين . وقد أدت هذه العزلة الاجتماعية بلورها إلى نتيجة أخرى هي علم الزواج بين الأتراك العثمانيين وبين سكان البلاد الأوروبية المفتوحة. ويلاحظ أن الإسلام يبيح زواج المسلمين من الكنائيات ، ولكن الأتراك أو الغالبية الساحقة جداً منهم لم يقبلوا على الزواج منهم . وكان موقفهم من المسيحيات شبيهاً بموقفهم من المسلمات في الولايات الإسلامية . وقد أصبحت هذه الظاهرة وهي عدم الاتصال الجنسي الشرعي بين الفريقين تقليداً حرص عليه العثمانيون وارتاحوا إليه ارضاء للزعة الاستعمارية التي كانت تغمر نفوسهم ، وبالتالي لم يحدث ما يمكن أن نطلق عليه « تترك جنسى » للشعوب الأوروبية التي دانت لهم . وكان عدم نشر اللغة التركية بين هذه الشعوب هو الحصيلة النهائية للاستعلاء والازدراء والعزلة الاجتماعية وعدم الزواج وعدم الانصهار وعدم الامتزاج بين الفريقين ، لأن الدولة لم تعمل على توفير الجو الصحى لانتشار اللغة التركية، فظلت الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين عاقفة على لغاتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وديانها في الأعم الأغلب وغير ذلك من مقومات حضارتها . ومن هنا كان الأثر الحضارى للعثمانيين في تلك الشعوب الأوروبية قليلاً للغاية ، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية لا تدبر لم ثقافياً أو حضارياً. يقول المؤرخ الإنجليزي فيشر Fisher H. A. « إن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوروبية وزناً ، ولم يدركوا قيمتها يوماً من الأيام ، ولذا عاش العثماني غريباً أجنبياً في أوروبا ، لانصيب له في تقاليدها ، ولا يتمتع تفكيره في لزوميات الحكم الإمبراطورى مبادئه الأوليغاركية - أى حكومة الأقلية - الاستثنائية ، وهي المبادئ التي

تعتمد على الرقيق ، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لاتصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية » (١) .

وإلى جانب انعدام وحدة اللغة ووحدة الفكر ووحدة الثقافة بين الحاكمين والمحكومين لم تكن هناك وحدة في الطقوس أو الأعياد أو التقاليد أو المثل أو غير ذلك من مظاهر الوحدة الاجتماعية ،^٢ وبعبارة أخرى لم تكن هناك عناصر حضارية واحدة تربط بين العثمانيين وبين تلك الشعوب الأوروبية . وكانت نتيجة ذلك أن الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين لم تتجاوب بشعور واحد مشترك بالولاء للسلطان العثماني .

والحق أن « الوجود » العثماني في أوروبا قد عجز عن أن ينبت جنوراً تمده بالعناصر التي تحفظ عليه حياته حين بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة . فلما زال هذا « الوجود » العثماني من أوروبا لم يخلف من بعده أثراً ذا بال سوى بصمات باهتة في بعض الأقاليم البلقانية . ومضت الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في البلاد الأوروبية التي دانت لحكم العثمانيين في مسارها العادي دون أن تشعر الجماهير أن زوال هذا السيد التركي المسلم الوافد عليها ، قد أعاق استئناف مسيرتها ، أو أن اختفائه قد أدى إلى تغييرات جلية في حياتها ، سوى تخلصها من حكم إسلامي كانت تنظر إليه شذراً ويضيق صدرها به .

سياسة الدولة تجاه الولايات الإسلامية :

كانت سلبية العثمانيين في البلاد الإسلامية التي استولوا عليها تضارع سلبيتهم في الأقاليم الأوروبية التي دانت لهم . فلم يحاولوا صيغ الولايات الإسلامية بالصيغة العثمانية . إوكانت تلك السلبية ترجع إلى ذات السنين أو العاملين اللذين تكلمنا عنها ونحن نعرض السياسة العليا للدولة تجاه ممتلكاتها الأوروبية ، وهما سطحية الحكم العثماني والاستعلاء . وقد حال هذا

(١) فيشر هيرت : تاريخ أوروبا في المصور الوسطى . ترجمة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة وزميله . قسبان . دار المعارف . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، القسم الثاني .

الاستعلاء الذي تعددت مظاهره دون قيام تقارب بين الحكام والمحكومين وجعل العثمانيين يعيشون بمنأى عن الشعوب الإسلامية ، ولولا الوشيجة الدينية التي كانت تربط بين الفريقين بعروة وثقى ، ولولا المذهب السنّي الذي كان يوحد بينهما لكان التباعد بينهما تاماً . ولكن المجتمعات في ذلك الوقت كانت مجتمعات دينية إسلامية . وكان الدين عاملاً هاماً في تكوين عواطف الجماهير ، وبالتالي في التخفيف من حدة هذا التباعد بين العرب والأتراك العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول في أثناء إقامته في القاهرة والتي امتدت زهاء ثمانية أشهر بعد دخوله العاصمة في اليوم الثالث من شهر محرم سنة ٩٢٣ حتى مغادرته لها في اليوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٢٣ (٢٦ يناير - كانون ثان) إلى ١٠ سبتمبر - أيلول - ١٥١٧ - في طريقه برآ إلى إستانبول - قد ترامت إلى مسامحة أن الأتراك العثمانيين قد أقبلوا على الزواج من أرامل المماليك الذين لقوا حتفهم في المعارك الرهيبة التي دارت بين الأتراك العثمانيين والقوات المملوكية . فأصدر أمراً إلى العثمانيين بالكف عن الزواج ممنهن ، كما أصدر أمراً عاماً إلى جميع قضاة مصر - ولم يكن النظام العثماني قد نقل بعد في مرفق القضاء - بأن يمتنعوا عن عقد مثل هذه الزيجات (١) . فانصرف الأتراك العثمانيون إلى الزواج من المصريات . واثارت ثائرة السلطان سليم الأول ، وأصدر أمراً توعد فيه بالشتق كل عثماني تسول له نفسه الزواج من مصرية . يقول ابن لباس - وكان لا يزال معاصراً لهذه الأحداث . « وفي يوم الأربعاء الرابع من هذا الشهر (جمادى الآخرة سنة ٩٢٣) (٢٤ يونيو - حزيران - ١٥١٧) ونادى السلطان في عسكره أن كل من كان متزوجاً بأمرأة من نساء أهل مصر يطلقها ، وإلا يشق من غير معاودة ، فمنهم من طلق زوجته ، ومنهم من أبقاها في عصمته (٢) . ومنذ ذلك الوقت غدا عدم زواج الأتراك العثمانيين بالمصريات وغيرهن من سيدات الشعوب الإسلامية التي خضعت لهم تقليداً حرص عليه

(١) ابن لباس، مصدر سبق ذكره، تحقيق ونشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

العثمانيون وارتاحوا له بمضى الزمن إرضاء للزعة الاستعمالية التي كانت تغمر نفوسهم .

وعلى غرار ما حدث في الولايات العثمانية في أوروبا انتهجت الدولة العثمانية نفس السياسة في الولايات الإسلامية من حيث عدم الاندماج وعدم الانصهار بين الأتراك العثمانيين وأهالي الولايات الإسلامية. ولم يحدث تريك جنسى لهذه الشعوب الإسلامية . وانكشئت اللغة التركية على نفسها في مصر وفي غيرها من الولايات الإسلامية. فلم تكن تستخدم إلا في دواوين الحكومة - وكانت قليلة العدد - ولا يتحدث بها إلا الأتراك العثمانيون فيما بينهم ، وكانوا قلة بالنسبة لتعداد السكان . وكانت السلطات العثمانية تعتمد إلى ترجمة القرارات الهامة والأوامر الحكومية إلى اللغة العربية ، وتتل في المساجد الكبرى وفي الأسواق والقياس وغيرها من أماكن التجمعات الجماهيرية، أو يطوف بها المشاعلة كرجال إعلام^(١). وهكذا تعددت مظاهر العزلة الاجتماعية بين الفريقين . وقنعت الدولة بالجزية السنوية ترسل إليها من كل ولاية ماعدا إقليم الحجاز^(٢) وبذكر اسم السلطان مقلداً بالدعاء له على منابر المساجد في

(١) المشاعلة مصطلح تاريخي له حدة مدلولات في العصر العثماني :

أولاً : الرجال الذين يطوفون الشوارع والحارات يذيعون الأوامر والأخبار الحكومية الهامة . وكان يطوف في معظم الأحيان أربعة من المشاعلة سماً ينادي اثنان منهم باللغة التركية واثنان باللغة العربية ، وفي بعض الأحيان كان يطوف اثنان فقط من المشاعلة سماً أحدهما ينادي باللغة التركية ، والآخر باللغة العربية . وكان المشاعلة يسيرون في العادة ليل يحملون المشاعل. ومن هنا جاءت تسميتهم المشاعلة . وكانوا يسمون أيضاً القسوة نسبة إلى القسوة .

ثانياً : السبابة والجلادون وهم الذين يتفلقون أحكام الشق والجلد. وجرت العادة على أن يكون المشاعل الذي يقوم بهذه المهمة يهودياً عثمانياً أو مسيحياً عثمانياً .

ثالثاً : المشتغلون بالحرف الذهبية مثل نزع الأبار والحمامات والمباري

ابن لياس ، مصدر سبق ذكره ، ج ٥ ص ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ،

٣٦٢ - ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ .

(١) كان من بين الامتيازات المقررة لهذه الولاية إعفاؤها من أداء الجزية ، وأن ترسل إليها كل عام الإيرادات المالية والعينية التي تغلها الأوقات المرصودة على الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة والأحزاب والتغابن على خدمة الأماكن المقدسة هناك وعلى الفقراء المقيمين في هذه البقاع . ولما جاء السلطان سليم الأول إلى مصر أمر بالإبقاء على هذا الامتياز بشقيه : الإعفاء من أداء الجزية وتقديم إيرادات الأوقاف مع تمزيقها .

خطب أيام الجمعة والأعياد ، وبالعملة تضرب باسمه ، ويوال عثماني نائباً عن السلطان في كل ولاية وهو يحمل رتبة الباشوية أو البكوية ، ويحمل ثلاثة أطواخ أو طوخي^(١)، وبقوة عسكرية عثمانية ترابط في البلاد ويطلق عليها أهل الولاية اسم « الحامية العثمانية » . وكان حصاد هذه السياسة أن احتفظت الشعوب الإسلامية وهي في ظل الحكم العثماني بلغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها وغيرها من عناصر حضارتها . وكانت من أهم المقومات التي استندت إليها حركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر .

ومن الملاحظات ذات المغزى العميق والتي ذكرها نابليون الأول في مذكراته التي أملاها وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة على الجنرال برتران Bertrand قوله إنه لما جاء إلى مصر قائداً عاماً للحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وجد أن المصريين لا يتكلمون اللغة التركية ، وأنهم يجملونها ، وأن هذه اللغة كانت غريبة عليهم كما كانت اللغة الفرنسية غريبة عليهم سواء بسواء^(٢) .

دراسة مقارنة بين الفتح العثماني والفتوح الإسلامية العربية :

يجرنا هذا الموضوع إلى عقد دراسة مقارنة بين حركة الفتح العثمانية وحركة الفتح الإسلامية العربية التي قامت بها حكومة الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة ، ثم حكومة الأمويين في دمشق ، ثم حكومة العباسيين في بغداد . فإلى جانب السلبية المطلقة التي اتسمت بها سياسة الدولة العثمانية من حيث عدم محاولة عثمانة الشعوب الأوروبية والإسلامية التي دانت لها ، نجد السياسة الإيجابية النشطة في السياسة العليا للدولة الإسلامية - من حيث تنفيذاً ومتابعة - لتعريب الشعوب التي فتحت بلادها في العراق والشام

(١) سنرخص لشرح هذا اللفظ في ص ٣٦٤-٣٦٦ في الفصل الثاني عشر منه الكلام على الوزراء .

(٢) Napoléon Ier, Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte (٢)

et de Syrie (1798- 1799.) Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte Héléne et publiés par Général Bertrand. Paris, 1847 2 vols. t II. 151.

ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا وغيرها^(١)، ثم اتخذ الوسائل السلمية لنشر الإسلام نشرًا هادئًا بعيداً في معظم الحالات عن العنف أو الإكراه .

الفروق بين الفتوح العثمانية والفتوح الإسلامية العربية :

أولاً : إن الفتوح الإسلامية العربية والفتوح العثمانية قامت بها دولتان إسلاميتان ابتغت كل منهما على نحو من الأنحاء نشر الإسلام في الاتجاهات التي رسمتها ظروف كل منهما . وقد كان واضحاً وملحوظاً وبارزاً أن نشر الإسلام كان هدفاً رئيسياً من فترحاتهما . وفي حالة الدولة العثمانية نجد أن فترحاتها في الأقاليم المسيحية قد تمت باسم الإسلام . وكانت الدولة العثمانية عقب نجاحها في فتح إقليم ميسية هام أو مدينة مسيحية ذات أهمية كبرى تبعث الرسل إلى حكام العالم الإسلامي وإلى الشعوب الإسلامية تترف إليهم وإلها أبناء الانتصارات الحربية في تلك الأقاليم . ونذكر على سبيل المثال ما فعله في هذا الصدد السلطان محمد الثاني حين فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ وحول اسم العاصمة إلى إستانبول ومعناها دار الإسلام . وجاء إلى القاهرة مبعوث من لدن السلطان العثماني^(٢) في تلك السنة^(٣) لإبلاغ إينال سلطان دولة المماليك الشراكسة الحاكم وقتذاك (١٤٥٣ - ١٤٦٠) أنباء هذا الانتصار الإسلامي الحربي الخطير . فأمر السلطان إينال

(١) يستثنى من هذه القاعدة من قواعد الحكم الإسلامي خارج الجزيرة العربية : بلاد فارس التي قبلت الإسلام ديناً ، ولكنها احتفظت بصفتها الفارسية لأسباب ليست هذه الدراسة مجالاً لشرحها .

(٢) يطلق ابن أبياس عليه المصطلح التاريخي ، فيقول « وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان » ويطلق حل القسطنطينية اسم القسطنطينية المظى .

ابن أبياس : نشر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى بتمان صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع النعور من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢ (١٤٥٣ - ١٤٦٨) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٥ .

(٣) بلغ القاهرة في يوم السبت ٢٢ من شوال ٨٥٧ (٢٧ من أكتوبر - تشرين أول - ١٤٥٣) ، وأقام في القاهرة شهراً وغادرها يوم السبت ١٢٢ من ذي القعدة ٨٥٧ (٢٤ من شهر نوفمبر - تشرين ثان - ١٤٥٣) .

بإقامة الزينات في الأسواق والطرق ولإيقاد الشموع في الشوارع وعلى المآذن،
ودق الباشائر السلطانية في القلعة عدة أيام (١).

ثانياً : إن القوات الإسلامية العربية فتحت أقاليم لم يكن سكانها يتكلمون
اللغة العربية . وفتحت القوات العثمانية بلاداً لم يكن أهلها يتحدثون اللغة
التركية . فوقف كل من الدولة الإسلامية العربية والدولة العثمانية كان متشابهاً
من هذه الناحية .

ثالثاً : إن القوات الإسلامية العربية كانت تمارس عملياتها الحربية
في بلاد لم يكن أهلها يدينون بالإسلام . أما القوات العثمانية فمارست نشاطها
الحربي في ميدانين متباينين أشد التباين : الأقاليم المسيحية في الأناضول
والأقاليم الأوروبية في البلقان وشرقي أوروبا ووسطها. وكان سكانها لا يعتقدون
بطبيعة الحال الدين الإسلامي . وفي ذات الوقت غزت بلاداً إسلامية كان أهلها
يدينون بالإسلام . وكانوا يعتقدون المذهب السنّي فيما عدا بلاد الدولة
الصفوية في فارس . وكان العثمانيون قد أقاموا من أنفسهم حماة للمذهب
السنّي في العالم الإسلامي . وفي الميدان الأخير كانت الدولة العثمانية تخارب
في جو صهي ، وفي يدها ورقة رابحة . ومع ذلك فلم تقم - أو لم تحاول -
التغلغل في حياة الشعوب الإسلامية ابتغاء صبغها بالصبغة العثمانية . أما
الفاطمون المسلمون العرب فقد واجهوا في صدر الإسلام الموقف الشائك
الصعب بسياسة مرسومة لتعريب الشعوب التي دانت لهم وتشجيعها على
اعتناق الإسلام طوعاً عملاً بالآية القرآنية الكريمة « لإكراه في الدين »
وتابعوا في إصرار تنفيذ هذه السياسة العليا المزدوجة .

اندفع المسلمون العرب في موجات بشرية متلاحقة من قلب الجزيرة

(١) أبو الحسن : جمال الدين بن يوسف بن تيمر بردى : التجوم الزاهرة في ملوك
مصر والقاهرة من ص ٤٣٦ - ٤٣٨ .
الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين الماليك في مصر . مرجع سبق ذكره ،
مجلة الجمعية التاريخية المصرية . المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو - آيار - ١٩٥١ ، ص ص
١٩٧ - ٢٢٨ .

العربية إلى خارجها في أعقاب الفتوح الإسلامية لينتسروا فوق الرقعة الفسيحة الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ثم استداروا مهاجرين حتى مصب نهر السنغال في الوقت الذي عبرت فيه بعض البطون العربية إلى إسبانيا واستقرت فيها وصبغتها بالصبغة الإسلامية العربية التي ظلت تلازمها أحقاباً وأدهاراً وأعصراً .

وطبقاً للمخطط الإسلامي العربي وضعت الدولة الإسلامية العربية أول الأمر قيوداً على اختلاط الجنود بأهالي البلاد الأصليين ، فأقامت لهم مهاجر ، كانت عبارة عن مدن جديدة أو معسكرات في البصرة والكوفة في العراق ، وفي بعض الأجناد في بلاد الشام ، وفي القسطنطينية في مصر ، وفي القيروان في تونس ، وفي بعض المراكز العسكرية في بلاد المغرب الأقصى . وكانت السياسة العليا للدولة الإسلامية في أول عهدها هي الإصعاد على العنصر العربي وحده في الفتوح الإسلامية ، فالعرب هم عدة الحرب ، وهم وقود الجهاد . ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يظل العنصر العربي محتفظاً بامتيازاته العسكرية كاملة ، وأن تظل شعلة الحماسة فيه متقدة لا تحبو . ولذلك حيل بين الأجناد العرب وبين الاشتغال بالزراعة . وكانت الدولة لا تجند في الجيش إلا العرب وتعين لهم الأرزاق والأعطيات للإنفاق على عائلاتهم . ولكن بمرور الوقت لم تستطع الدولة المضى في هذه السياسة بسبب زيادة الأعباء المالية على بيت المال ، ولأن الأوضاع الإسلامية العربية في البلاد المفتوحة كانت قد استقرت إلى حد بعيد . فبدأت الدولة الإسلامية في العصر الأموي ترفع تدريجياً هذه القيود عن الجنود العرب المدونين ، فانطلقوا إلى حيازة الأرض والاشتغال بالزراعة إلى جانب حصولهم على العطاء من بيت المال . وعلى ذلك غادر هذا الفريق من الجنود العرب مراكز تجمعاتهم في المعسكرات والمدن الكبرى وأقاموا في المناطق الزراعية وبعثوا إلى ذويهم في الجزيرة العربية يطلبون منهم التقدوم إلى موطنهم الجديد (١) .

(١) دكتور حسن أحمد محمود : المجتمع العربي . القاهرة ، ١٩٦٠ ، الباب الثالث .

تكوين المجتمع العربي . ص ١٥ - ٤٣ .

فحدث نوع من الاقتراب بين العرب والمهاجرين وبين أهالى البلاد المقيمين في تلك المنطقة . واشتد هذا الاقتراب في القرن الثاني الهجرى ومطلع القرن الثالث (الثامن الميلادى وبعض التاسع) حين ألغت الدولة الامتيازات التى كانت تعطى للعسكريين وفرضت عليهم الضرائب أسوة بغيرهم . وقد أدت هذه الإجراءات في النهاية إلى انسياح العرب في المناطق الزراعية واشتغالهم بالزراعة واختلاطهم بالسكان الأصليين والتزاوج معهم مما أدى إلى نتائج خطيرة من حيث التكوين الإثنوجرافى للدرارى هؤلاء السكان ونتائج أخرى خطيرة دينية ولغوية ، كان لها آثارها البعيدة في الأقاليم التى فتحها العرب .

الارتياح :

غير أن المسامحة العرب لم يتقيدوا تماماً أول الأمر بهذا المخطط الذى كان أحد أركان السياسة العليا للدولة الإسلامية ، فقد بدأت طلائع الاقتراب بينهم وبين أهالى البلاد في زمن مبكر جداً يرجع إلى أول عهد الفتح الإسلامية الكبرى . وكان الارتياح هو أحد المسارب الأولى التى لجأ إليها الجنود العرب في البلاد التى فتحوها . ففي مصر على سبيل المثال كان الولى يأذن لهم عند حلول فصل الربيع بمغادرة تجمعاتهم في مدينة الفسطاط والتحرك داخل البلاد للإصابة من خيراتهما ، فينطلقون يصطادون ، ويشربون اللبن الذى يقدمه المصريون إليهم ، ويأكلون الخراف التى يحصلون عليها منهم ، ويطلقون خيولهم ترعى في حقول البرسيم لتسمن وتقوى ، وليس يخاف أن سلاح الفرسان كان يشكل القوة الرئيسية في الجيش الإسلامى العربى . وأطلق على هذه العملية نظام الارتياح ، لأنها تم إذا أقبل فصل الربيع وتستمر طيلة شهور الربيع الثلاثة ، حتى إذا جاء الصيف عادت القبائل العربية إلى الفسطاط . وكان الارتياح نوعاً من العطلة والاستجمام من مشاق القتال . ولكنه لم يكن يتم كيفما اتفق ، بل وضع له منذ اللحظة الأولى نظام مرسوم ، فكان يراعى أن ترتب كل قبيلة في مكان مخصص لها يسمى المرتب لاي تغير كل سنة . ويلاحظ أن الجيش الإسلامى العربى كان منظماً على أساس قبلى ، بمعنى أنه كان يراعى في تكوين الكتيبة أن تكون من أفراد

قبيلة واحدة ، فإذا لم يتوافر العدد المطلوب كان يتكامل عددها من أفراد قبيلة أخرى متقاربة . وعلى الرغم من أنه كان يترك للكثيبة اختيار المنطقة التي تفضل الارتباع فيها ، سواء في الدلتا أو في الصعيد ، فإن الوالى كان يصدر أمراً كتابياً يحدد فيه القرية التي تذهب إليها الكثيبة وكميات اللبن التي يسمح لها بالحصول عليها من المصريين . وكان عمرو بن العاص والى مصر يوصى جنوده عند حلول موسم الارتباع بأن يحسنوا معاملة الأقباط عند ما يتصلون بهم في فترة الارتباع . وكان يصدر أوامر صريحة ومشددة بأن يكفوا أيديهم عن أموال الأقباط . وكانت من أهم مناطق الارتباع - أو المرتبعات كما تسمى - منوف ، الحوف الشرقى ، منف ، الفيوم ، الهنسا ، أهانسيا ، وهى مناطق تتمتع بخصوبة أرضها إلى جانب متاخمتها للصحراء حيث كان يتهياً للجند العرب عديد الفرص للصيد وتدريب الخيول مع الإقامة في جو قريب من جو البادية . ويلاحظ أيضاً أن المرتبعات كانت تتركز حول القسطنطينية أو على مقربة منها (١).

وكان نظام الارتباع بمثابة هجرة داخلية تتجدد كل سنة وتتحرك من التجمعات العسكرية الإسلامية العربية وتتغلغل في أعماق الريف المصرى وتتهيأ عديد الفرص للاتصال المباشر بين العرب الفاتحين وأهالى البلاد . وكان الارتباع هو أقدم أشكال الاتصال بين العرب وسكان البلاد، ويعد اللبنة الأولى في تعريب المصريين . وليس أدل على ذلك من أن قبائل بعينها انتهى بها الأمر إلى اتخاذ مرتبعتها أماكن للإقامة الدائمة بعد أن تركت القسطنطينية نهائياً .

الرباط :

لم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة التي اقترَب بها الجند المسلمون العرب من سكان البلاد واختلطوا بهم . فقد كانت هناك وسيلة ثانية هى

(١) دكتور عبد الله غورشيد البرى : القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى لهجرة. الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، صص ٤٥-٤٩ .

الرباط^(١) . ونعني بهذا المصطلح العسكرى العربى مرابطة جزء من القوات الإسلامية العربية في الثغور والسواحل بصفة دائمة . فقد تطلبت المحافظة على وضع مصر كجزء من دولة الإسلام توزيع قوات الجيش الإسلامى العربى بين القسطنطينية والإسكندرية وسائر الثغور والسواحل المصرية مثل رشيد والبرلس ودعياط وأشتوم والعريش وغيرها . وكان يطلق على هذه المناطق العسكرية اسم المواجيز^(٢) . ولم تكن هذه القوات تقيم في معسكرات خاصة بها أو في مدن مقلولة ومخصصة لها مثل القسطنطينية ، ولكنها كانت تقيم في مساكن الأهليين العادية .

وكان عمرو بن العاص هو الذى وضع التنظيم الأساسى للرباط بعد أن فرغ من العمليات التى انتهت بفتح مصر ، فخصص ربع قواته للرباطة في الإسكندرية وحدها، والربع الآخر للرباطة في سائر السواحل المصرية ، أما النصف الباقى فقد استبقاه في القسطنطينية . وبمضى السنين تزايد عدد القوات الإسلامية في مصر نبلت القوة المرابطة في الإسكندرية وحدها سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) على عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان اثني عشر ألفاً ، أى ما يساوى عدد الجيش الذى فتح مصر كلها سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . وكانت القوات المرابطة يستبدل بها غيرها مرة كل ستة شهور صيفاً وشتاءً^(٣) . ولا ريب أن إقامة أفراد هذه القوات بين أهالى البلاد أدت إلى اقترابهم منهم ثم اختلاطهم معهم . وإذا كانت حركة الارتياح لم تمتد إلى ثغور مصر لبعدها من جهة ، ولعدم صلاحيتها لأنها ليست ريفاً من جهة أخرى ، إلا أن

(١) الرباط تجمع ربط بضم كل من الراء والباء .

(٢) المواجيز جمع ماخوذ ، وهو الموقع الذى يكون بين القوم وبين حلوهم ، وهو مصطلح يستعمله أهل الشام ومعناه الخلود .
أنظر :

دكتورة سيدة إسمايل كاشف : مصر في فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، الطبعة الثانية ، الناشر دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٧١ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) دكتور عبد الله غوريشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، صص ٤٩ - ٥٠ .

مرابطة هذه الأعداد الهائلة من القوات العربية في الثغور منذ الأيام الأولى للفتح وأسلوب استيطانها كانا كما أثرهما في تعريب هذه الثغور ، فالرباط قام تقريباً بذات الدور الذى أداه الارتباع .

الليوانات :

كانت اتفاقيات الصلح تنص على تحويل العرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم . وتستمر هذه الضيافة ثلاثة أيام كان على المصريين خلالها القيام بجميع واجبات الضيافة نحو العرب (١) . وقد نظمت مسألة الضيافة ، فكان أهالى كل قرية يخرجون من زمامها الذى سيقدر الخراج على أساسه عدداً من الأقدنة ينفق ريعها على المرافق العامة مثل الكنائس والحمامات والمعديات والضيافة المسلمين (٢) والعبارة الأخيرة تشمل موظفى الولاية وأفراد الجيش العربى . وكان المسلمون ينزلون فى الليوان أو الإيوان ، وهو المضيقة أو قاعة الاجتماعات التى لاتزال تحيط بالكنيسة فى كثير من قرى الصعيد والدلتا (٣) . ويلاحظ أن رصد اعتمادات مالية للإلتفاق على الضيوف المسلمين دليل على أن هذه الضيافة كانت ظاهرة عامة مألوفة فى المجتمع المصرى فى ذلك الوقت . وسواء كان العربى ينزل ضيفاً على المصرى فى بيته الخاص أو فى المضيقة العامة فقد كانت هذه الضيافة نوعاً من أنواع الاتصال كان لها أثرها فى حلوث التقارب ثم الاختلاط بين العرب والمصريين (٤) .

وعلى ذلك لم يكن اختلاط العرب بالمصريين مقصوداً على المدن وحدها وإنما امتد إلى جوف الريف . ويقول أحد الباحثين الفرنسيين إن العرب هم

(١) ابن عبد الحكم : عبدالرحمن بن هيدانق ، قرح مصر وأخبارها ، ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) دكتور عبد الله خورشيد البرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

(٤) نفس المرجع السابق ونفس الصحتين .

الذين اختلطوا بالمصريين أكثر من اختلاط المصريين بالعرب^(١). والحق أن عمليات الاختلاط قامت من الجانبين : العرب الوافدين والمصريين المقيمين في بلادهم . فكانت هذه العمليات في واقع الأمر قوة استقطاب ضخمة ذات محورين : فالعرب استقطبوا المصريين جنسياً ولغوياً ودينياً وثقافياً . والمصريون استقطبوا العرب اجتماعياً ثم حضارياً أول الأمر . وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دماء المصريين دون أن يتعرضوا للفناء أو التلاشي^(٢) . وظاهرة تعريب مصر ظاهرة نادرة بخارقة ، فصر الفرعونية التي سيطرت على مناطق كثيرة في الشرق الأوسط ونجحت في تصدير حضارتها المادية لم تستطع أن تمتد لغتها خارج حدودها ، في حين أن العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ولم يكن لهم في ذلك الوقت رصيد من الحضارة المادية خارج نطاق الدين واللغة استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حينئذ ذهاباً . أما الأتراك العثمانيون فقد أخفقوا في نشر اللغة التركية حتى على الشعوب التي خضعت لهم عسكرياً وسياسياً^(٣) . وما ينطبق على مصر ينطبق على سائر الأقاليم التي فتحها المسلمون العرب باستثناء فارس ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد نجح العرب في فارس دينياً وأخفقوا لغوياً .

ومع ذلك فهناك اتجاه بن فريقين من المؤرخين المحدثين لا يخلو من رأى سديد، يقول إنه بجانب الأجناد العرب الذين وقع عليهم عبء الفتوح الإسلامية والاشتغال بالسياسة والإدارة ، وفدت قبائل عربية في خلال الخمسين سنة الأولى من تاريخ الإسلام إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من أجزاء الدولة الإسلامية حيث انتشر عشرات الألوف

Chantre E., Recherches Anthropologiques dans l'Afrique (١)

Orientale, Egypte, 1904, pp. 302 - 303

(٢) محمد العزب موسى : وحلة تاريخ مصر المشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

بيروت آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) دكتور جمال حمدان : شخصية مصر . دراسة في عبقرية المكان . الناشر دار الهلال ،

القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٢ .

من أفراد هذه القبائل . وكانت الأرض واسعة وفي رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين . وإذا كان عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين قد حرم على جنود العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف إلى مطلب آخر من مطالب الحياة ، إلا أن هذا المنع لم يمتد إلى العرب عامة ، لأنه من غير الطبيعي ومن غير المقبول أن يحرم عمر العمل على عربي عادي هاجر بنفسه وأهله إلى بلد تكسر ليرتق ويعيش . والعرب الذين انتشروا في أجزاء دولة الإسلام لم يكونوا جميعاً جنوداً مدونين . وكانت النتيجة أن وجدت في مصر والعراق والشام وغيرها من بقاع دولة الإسلام جماعات عربية مدنية هي التي اشتغلت بالزراعة والصرع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر . وهذه الجماعات هي ^١ انبثت من أول الأمر بين الأهلين في كل ناحية واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في عمليتي التعريب ونشر الإسلام . وجدير بالذكر أن هؤلاء العرب سواء الذين اشتغلوا بالعلم أو بطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عربيتهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربي ، وتزاجروا معهم ، وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية . فأولاد العرب خرجوا إلى الحياة عرباً مسلمين تكلموا العربية ، وكل منهم كان لا يزال في المهد صبيّاً ، ومن ثم زاد تعدادهم . وكانت لهم امتيازات مادية ومعنوية بحكم الدين والأصل واللغة ، وكانت هذه الامتيازات مما حجب إلى الناس الانتداب إليهم ودخول الإسلام واتخاذ أسماء عربية ، بل اصطناع أنساب عربية (١) .

وكانت أمام العرب المدنيين الذين وفدوا من الجزيرة العربية إلى أجزاء دولة الإسلام عديد الفرص للاتصال بأهالي البلاد اتصلاً مباشراً ، إذ كان هؤلاء العرب ، ومعظمهم من العرب البجائية ، ذوي خبرة بالأعمال الزراعية وصناعة المنسوجات وبناء السفن وغير ذلك من ضرور النشاط الصناعي

(١) انظر بحثاً عميقاً وشافياً للأستاذ الدكتور حسين مؤنس بمنوان « تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون » في المجلد الثاني من تاريخ الحضارة المصرية. نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي (بلون تاريخ الطبع) ٤ ص ٣٢٣ - ٤١٧ .

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب التصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار^(١) . فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چاندارلى^(٢) Gandarlı تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب^(٣) . وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا-يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر في منصب رئيسى في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساورته المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك في قيام تواطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطى ، واتهم بالخيانة العظمى وأعدمه في ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين في هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) برد اسم هذه الأسرة في المراجع الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة منها : Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

- أ - قره خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨) .
- ب - ابنه على ، وقد عين على عهد السلطان أبى يزيد الأول (١٣٨٨ - ١٤٠٣) .
- ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين على عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) .
والسلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١)
- د - ابنه خليل ، وقد عين على عهد السلطان مراد الثانى والسلطان محمد الثانى (١٤٥١ - ١٤٨١)

(م - ٢٤ الدولة العثمانية)

المنصب مقصوراً على التولار أى طبقة العبيد . وفعلًا عين في منصب الوزير الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصدر العظام والوزراء يعينون من الموظفين العبيد(٢) .

وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزيرلى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تبعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى البروتوكول العثمانى ، فيسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة - هو الوزير الثانى عادة - ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال «قائمقام» ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال «السرदार» . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152.

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٣) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً بتعيين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) .

الفائح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمنى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجرة عثرة في سبيل تحقيق مزامعتهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والدسائس التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألقى نظام وزراء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالى :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١) (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شامعاً فخماً يقيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمه وحرسه في أحد أجنحته ، ويخصص باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقرراً لديوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى « دفتردار قابيسى » أى « بوابة الدفتردار » وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سنرى في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالى من الصدور العظام . وغدا اسم هذا المبنى « باشى قابيسى » ، أى بوابة الباشا ، « وبابى عالى » ، أى بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالى (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذى أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالى ، وأنه ضاف مرتبات أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .

أنظر :

محمد جميل بهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، مرسع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٢) يرى هامر أنه من المحتمل أن مصطلح بابى عالى كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمي للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porto Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السياسى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فعندما الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شؤون الدولة ، الداخلىة والخارجية ، المدنية والعسكرية .

المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السياسى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وفض مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلدز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شؤون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأتوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (١)

1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلىة فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحرم والبلاط الداخلى . وكان لا يسمح لأحد بدخول جناح الحرم إلا للسلطان والمحضيان والنسوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الحاشية يقومون على خدمة السلطان لنقص شعره وتقليم أظفاره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جميعاً الباشا جوقة دار ، أى رئيس الخدم المحضوسين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفرق بين « مابين » قصر يلدز ومابين صائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدهم بالخدم المحضوسين للسلطين .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الديوان الإمبراطوري (الهمايوني)

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهمايوني (١) Le Divan Houmatoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتحتل عن رئاسة الديوان للصدر الأعظم . فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون - فضلاً عن رئيسه الصدر الأعظم - من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أي أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقتطع على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تسيير دفة أمور الدولة نلم أولاً لإماماً سريعاً بشاغلي المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشايجي باشي ، الجاوش باشي ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، دفتر أمينى .

الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان الرئيس أفندي في العصر

(١) همايون كلمة فارسية معناها الحرفى مبارك ، مقدس ، حسن الخط. وتستخدم بمعنى ملكي أو سلطانى أو إمبراطورى . وتأسيساً على ذلك فإن عبارة الديوان الهمايونى معناها الديوان السلطانى أو الديوان الإمبراطورى .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للنشأى باشى أو الكاخيا بك أو الجاوش باشى أو الدفردار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى الحالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية . الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية . وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة و خزينة عامرة » .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل العلم والقابجى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إعانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقي . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikçi يرأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى بيليك قلمى Beylik Kalemى أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين - غير بيليك قلمى - لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى «تحويل» وهو اسم يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى « رعوس » وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطي لحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم لاسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرعوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكرات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التي قد تطرأ والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التي يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسه دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية معنى كيس النقود . وكان للرئيس أفندى « كيسه دار » مستقل وخاص به^(١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيايكجى .

رابعاً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والمذكرات التي يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلطان . وكانت

هذه المحررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى في هذه المهمة موظف آخر يسمى « أملجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الأملجى بمثابة مساعد للرئيس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص في عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت في أول الأمر في نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يميلى رغبته ، فإذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتئذك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان انزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحييت مسائل السياسة الخارجية تبعاً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة الملوكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية في إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار في إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقل

والبراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحدث . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالي وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتي الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات تختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندى سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين - ويطلق عليه ديوان ترجماني أى مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصلر الأعظم أو الرئيس أفندى للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتعمق في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهي سعى السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندى ليبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندى . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندى el Reis effendi وكان هذا الرئيس أفندى في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصلر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

النشائي باشي :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشائي يرفع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25—27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معقد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات الذهبية أو الفضية التي تسك على عهده في الضربخانه ، أى دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورخان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشائجي إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشائجي مقروناً بكلمة الباشي فيقال النشائجي باشي ، ولكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي (١). وكان للنشائجي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبدليل أن شاغلي بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الرئيس أفندي ، وكاخيا بك لم يحصل أى منها على مقعد في الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الاسامي للنشائجي كان ختم الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يختتمها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسابقتها للقوانين المعمول بها ، وتفزع عن الاختصاص الأخير حق هام هو لإجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين والوائح حديثة الصدور (٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح النشائجي يشبه إلى حد ما « الملقى » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشائجي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشائجي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تلقى أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرماني » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1,

(٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشائجي في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ القانون المعدل في « الدفترخانة » أي دار السجلات كان النشائجي يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرمانى » كاستند لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل في قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - النشائجية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التي تقدم لهم لكي يخدموا بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشائجي أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والمهمة التي أعطيت للنشائجي تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة التولار - العبيد - في شغل منصب النشائجي . ويقول ليبير الأمريكي تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التي جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهيئة الحاكمة هي التي جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشائجي (٢) .

وكان النشائجي يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الرئيس أفندى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيسها « الدفتر أمينى » ، أى أمين السجل . وكانت تحفظ في تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشائجي يعتبر في السلم الوظيفي نداءً لمدير الإدارة المسالية - الدفتردار - ويظل في هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشائجي إلى الوزارة أو إلى الرتبة التي تليها مباشرة وهي رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكلربكى الروملى . وقد أخذ مركز النشائجي في الأفول في الوقت الذى ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)
p. 126.

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 186.

الريس أفندى . ومرد هذا القول إلى سببين : أولها ازواء السلطان في أجنحة الحرمين . فأضعف احتجابه الصلة التي كانت تربط السلطان بالنشائي . وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم تحل محلها عنها للريس أفندى الذي قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي له ، وارتفع شأنه وسلطته عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينا هبط مركز النشائي هبوطاً شديداً .

الجاوش باشي :

الجاوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشي يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات ، ويحضرون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، ألحق الجاوش باشي وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشي صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقي إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., vol. VII, p. 159 et suiv.

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بوون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم الدفراء له (٢).

وفى ظل الوضع الجديد للهيكمل العام للإدارة المركزية فى الدولة محاولات رياسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غذا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى رأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فيعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر أغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى محتصاً بمنع الجرائم أو المحافظة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I., Part I. (١)
p. 118, fn. no.2.

Lybyer A.H.; op. cit, p. 183. (٢)

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبهم حتى ينظر في المهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبى .

وكان الجاوش باشى ، في النطاق القضائى الذى كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكرجية . ويقصد بالتذكرة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكرجى» أى التذكرجى الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكرجى» أى التذكرجى الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذى يتخذه الأخير في كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة الفظية للأوامر التى كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفى لهذين الموظفين ، جاء في القانون نامه الذى صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يتمتعان بالأسبقية على كتبة الرئيس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشى قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكرى والطابع القضائى . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكريين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً في شتى مجالات الإدارة المركزية .

كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم في المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أى عبيد السلطان - سواء في خدمة القصور أو في الجيش (١) . وكان كاخيا بك الصدر الأعظم في الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أفندمز » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال القلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الداخلية والحربية كان لا يسمح له بأجازة فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى يقومون بالأجازة ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات فورية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات فجائية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبى وهو السكرتير الخاص للصدر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفاتى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وافر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الامتيازات التى يتمتع بها كبار موظفى الدولة . وأخيراً كان للكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتبى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر « قره قولاق » أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خضوعه للصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبى والتشرىفاتى كانوا يتناولون الطعام يوماً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

(١) يصفه ليير بأنه السكرتير الخاص للصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ،
بينما يقول عنه بيرون إنه السكرتير العام للصدر الأعظم .

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

(٢)

وكان الكاخيا بك والمكتوبى والتشريفى تسمى يعتمدون فى دخلهم على التصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١) . كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم . وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة . وحاول كثيرون ممن شغلوا هذا المنصب فى الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة فى أثناء توليهم هذا المنصب .

الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يارسها فى النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية فى مصر إبان الحكم العثمانى عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفترى فى مصر . وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المسالية للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه . وأطلق عليه الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى فى القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية البحر ومنطقة الدانوب (٣) . ولما فقدت الدولة إقليم البحر فى أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردار لى الخاصة بالبحر ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش دفتردار - يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٨ ، سائفة رقم ٢ فى هذه الدراسة .

D'Ohsson Ignatius Mouradega ; op. cit. ; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

في شمالى العراق والشام . فإن هذه الحركات لم تستهدف الانفصال عن الدولة والاستقلال بحكم بعض الأقاليم الإسلامية ، وإنما كانت في لحمتها وسداها تهدف إلى الأفراد بحكم الولاية مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية . وإذا أخذنا حركة على بك الكبير في مصر كمثل لهذا النوع من الحركات ، نجد أنه شل نفوذ « بيوك ديوان » أى الديوان الكبير وهو ديوان مصر أو « ديوان محروست مصر » كما تسميه الوثائق ، كما شل نفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، ثم تخلص من الباشا العثماني في سنة ١٧٦٨ (١) كما امتنع في ذات السنة عن إرسال الجزية إلى السلطان (٢) .

وإذا كان على بك الكبير قد اتمس مساعدات عسكرية من كاترين الثانية قيصرية روسيا دعماً لحركته فإنه لم يجرؤ على إعلان استقلاله بمصر استقلالاً تاماً . لقد سلك على بك بعد انفراده بحكم مصر عملة فضية ثم أخرى ذهبية تحمل كل منهما على أحد وجهيها اسم مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ - ١٧٧٤) ، وتحمل على الوجه الآخر اسمه بطريقة ملتوية (٣) ، كما أمر بضرب إمام مسجد الداودية في القاهرة لأنه دعا في خطبته في أحد أيام الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (وكان يقع في الفترة من ٢٩ ديسمبر - كانون أول - ١٧٦٩ حتى ٢٧ يناير - كانون ثان - ١٧٧٠) للسلطان ثم دعا لعلى بك الكبير . فأظهر الأخير امتعاضاً من تصرف الخطيب ، وكان يريد أن يكون دعاه الخطيب مقصوداً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة (٤) .

(١) الجبرتي ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ص ٢٢٤ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ، ص ٢١٨ ، وهو يترجم للأمبر قاسم بك أبي سيف في وفيات

١٢١٧ هـ .

(٣) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٢-٦٤ .

(٤) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : صور لن دور الأزهر في مقاومة الاحتلال

الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر - مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ - ٦٣ وحاشية

رقم ١ ، ص ٦٢ .

(٢ - ٢٣ الدولة العثمانية)

ويلاحظ أيضا أنه لم يكن هناك أى تجاوب بين زعماء مثل هذه الحركات وبين الجماهير أى القاعدة الشعبية العريضة التى بقيت على ولائها للسلطان . وهكذا شددت العاطفة الدينية للرعايا المسلمين إلى السلطان وأوجدت نوعاً من التماسك بين الدولة وولاياتها الإسلامية . وكان هذا التماسك يزداد قوة وصلابة كلما أوغلت الدول الأوروبية فى أطماعها الاستعمارية . كانت رواسب الحروب الصليبية لازال عالقة فى أذهان المسلمين . وكان المسلمون لا يعرفون عن أوروبا إلا وجهها القبيح الذى يتمثل فى الحروب الصليبية وفى أطماعها الاستعمارية . ورأى الرعايا المسلمون فى السلطان الرمز الحى المحسد لمجد الإسلام والذى يقف على رأس دولة عسكرية دينية مترامية الأطراف فى أوروبا وآسيا وإفريقية بحيث غدت بحق دولة الإسلام الكبرى . ورأى المسلمون فى السلطان أيضا السياج القوى الذى يحمى بلادهم من الزحف الأوروبى الاستعمارى . ومن ثم أخذت الشعوب الإسلامية التى امتدت إليها الفتوحات العثمانية تتقبل السيادة العثمانية على بلادها . ونجحت الدولة فى حماية الشرق الإسلامى من هذا الزحف ما بقيت الدولة قوية مهيبية الجانب . وارتاح السلطان لوضعه السياسى والدينى فى الدولة ، وعمل على دعمه فى أذهان المسلمين وفى أوروبا على السواء ، وكان أن بعث سلاطين الدولة لقب « خليفة » ليظهروا أن للسلطان نفوذاً روحياً على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

(ب) نفوذ السلطان على الطوائف غير الإسلامية :

لم ينعم السلطان العثمانى بطبيعة الحال بمثل هذا النفوذ الروحى سواء على الأقليات المسيحية واليهودية فى العالم الإسلامى الخاضع له أو بين سكان القسم الأوروبى المسيحى . من أملاك الدولة ، على الرغم من التدابير التى كان يتخذها السلطان عند تعيين الرومساء الروحانيين للطوائف غير الإسلامية . كان البطريرك اليونانى يتلقى من السلطان فرمان تعيينه فى منصبه . وكان هذا البطريرك يعتبر أكبر رئيس روحي غير مسلم فى الدولة . وكان يتبعه الروم الميحيون الأرثوذكس ، وله مكانة مرموقة فى نفوسهم وتنفوذ إليه أفئدتهم . ومع ذلك

كان هذا البطريرك في خدمة الدولة نظرياً . وكان يرد في فرمان تعيينه نص يوجب على الأساقفة ومن إليهم من رجال الإكلروس التابعين للكنيسة الشرقية وكذلك أتباعها طاعة البطريرك طاعة تامة في نطاق الاختصاصات المخولة له . وكان السلطان يصدر فرمانات أخرى بتعيين الرومساء الدينيين لرحايا الدولة المسيحيين الذين يدينون بمذاهب أخرى ، وكذلك لاختصاصات اليهود . وكانت تدرج في جميع تلك فرمانات نصوص توجب طاعة كل طائفة لرئيسها الروحي في المسائل الدينية دون غيرها ، وأخيراً فالامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب في البوالة العثمانية اعتمدت على منح صدرت عن السلطان أو تطبيقاً للمعاهدات التي أبرمتها الدول الأجنبية مع السلطان .

ومع ذلك فقد كان تاريخ الدولة العثمانية يموج بحركات انفصالية في عهد اضمحلالها وتدهورها ، أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الولايات الأوروبية المسيحية مثل اليونان والصرب وولابتي الأناضول والبغدان ، ويطلق عليهما أيضاً مولدافيا وولاشيا ، وهما - رومانيا حالياً - وبلغاريا والبوسنة والمهرسك - يوغوسلافيا حالياً - وغيرها . كان الرعايا المسيحيون في أوروبا بوجه خاص ينتظرون شذراً إلى تعيينهم لحاكم مسلم هو سلطان الدولة العثمانية . واستهدفت حركاتهم استقلال بلادهم عن الدولة . وكان مرد هذه الحركات إلى نمو الروح القومية وتأصل الزعة الدينية بينهم ، وكانت بعض الدول الأوروبية الكبرى مثل روسيا والنمسا أول الأمر تغذي هذه الحركات الانفصالية بين الشعوب المسيحية الخاضعة للدولة وتسوق لها شتى اللرائع سواء اختلاف الدين ، فلا يجوز في تقدير هذه الدول أو الشعوب أن تخضع لشعوب مسيحية لحاكم مهام ، أو أن هذه الشعوب ذات ماضٍ حضارى مجيد ينفوق حضارة العثمانيين . ولذلك ينطبق على حركات القسم الأوروبي صفة الثورات أو الحركات الاستقلالية أو الحركات التحررية أو الحركات الانفصالية (١) .

نخلص من هذا العرض إلى أن نفوذ السلطان العثماني في الولايات الإسلامية كان قوياً ، وأن مركزه كان مدعماً بسبب العاطفة الدينية الإسلامية أولاً وبسبب

المصالح المشتركة بين الطرفين ثانياً ، والملك لم تر الشعوب الإسلامية في الاحتلال العثماني لبلادها نوعاً من الاستعمار الأجنبي بالمعنى المعروف في العصر الحديث . وقد أطلقت هذه الشعوب اسم الحماية العثمانية على جيش الاحتلال العثماني المرابط في بلادها ، بينما رأت الشعوب المسيحية في الاحتلال العثماني لبلادها استعماراً كريهاً بسبب اختلاف الجنس والدين واللغة وما إلى ذلك ، ورأت أنه يتعين عليها السعي لإنهاء هذا الاحتلال والتحرر من التبعية لحاكم مسلم . ويقرر أستاذان إنجليزيان كبيران أن الدين كان عاملاً قوياً من العوامل التي أثارت الاضطرابات في وجه السلطان من جانب الصربيين وأهالي الجبل الأسود والبلغار والألبان المسيحيين والمقلونين . وعلى الرغم من أن هذه الشعوب كانت تضم أعداداً كبيرة من المسلمين ، فإن المسيحية كانت هي الغالبة بمذهبها الأرثوذكسي بين أكثرية هذه الشعوب . وكان قيعر روسيا هو الرئيس الرسمي للكنيسة الأرثوذكسية . وما برح الدين يتخذ في شبه جزيرة البلقان طابعاً سياسياً عنيفاً (١) وبمعنى آخر كان نفوذ السلطان في الولايات الإسلامية يستند في المقام الأول إلى الوشيجة الدينية والمصلحة السياسية ، بينما كان نفوذ السلطان في الولايات الأوروبية المسيحية يستند فيما يستند إليه إلى القوة العسكرية والثقل السياسي في مجال السياسة الدولية ، ثم في عصور الاضمحلال إلى قرارات المؤتمرات الدولية التي توالى عقدها في العواصم الأوروبية لبحث ما عرف باسم « المسألة الشرقية » دعماً لمركز الدولة أو تقسيماً لملكاتها أسلاباً فيما بين الدول الأوروبية . وكان من بين هذه المؤتمرات مؤتمر لندن (١٨٣١) ، ومؤتمر باريس (١٨٥٦) ، ومؤتمر برلين (١٨٧٨) ، ومؤتمر لندن (١٩١٣) .

٢ - القولاار

القولاار هم طبقة العبيد رفعهم الدولة مكاناً علياً ، فشكلوا شتى المناصب الحكومية من أدناها إلى أعلاها حتى منصب الصدارة العظمى أى رئاسة الوزارة ، ولم تستثنى الدولة من هذه المناصب سوى وظائف القطاع الديني أو ما عرف باسم « الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة » . وقد جاء هؤلاء العبيد إلى الحياة أطفالاً

(1) Grant and Temperley ; op. cit., p. 211.

مسيحيين من آباء مسيحيين وأمهات مسيحيات ، ثم انتزعتهم الدولة ، وهم في سن غضبة من عائلاتهم وأبعدتهم عن الجور العائلي وحوّلهم إلى الإسلام وأعدت لفريق منهم دراسات دينية ومدنية ، كما نظمت لفريق آخر دراسات دينية وعسكرية لتتخلّصهم في نهاية المطاف أدوات للحكم والحرب ، وأضفت عليهم السوالة الكبر من الرعاية المادية والأدبية وأعدت عليهم الامتيازات في شتى صورها وأشكالها بحيث أصبحوا طبقة متميزة في المجتمع العثماني . وقد تكلمنا في موطن سابق في هذه الدراسة عن دور النولة في تنشئة هذا الفريق من العبيد في القطار المدني(١) . ونشير هنا إلى بعض المناصب القيادية المدنية التي تولاها القولاّر فأصبحوا يشكلون إحدى الهيئات الحاكمة في الدولة .

الصدر الأعظم ووزراء القبة

(صدر أعظمى وقبة وزير لرى)

الإسلام ونظام الوزارة :

عرف العالم الإسلامى نظام الوزارة قبل قيام الدولة العثمانية . ولكن لم تأخذ وظيفة الوزير مكانها ضمن وظائف الدولة الإسلامية على عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو الخلفاء الراشدين أو الأمويين . ولكنها أنشئت أيام الدولة العباسية . وقد نقلها الخلفاء العباسيون عن الفرس ، ورسخ نظام الوزير كأساس للإدارة العباسية . ويلاحظ أنه ورد في القرآن الكريم ذكر الوزير مرتين : المرة الأولى على لسان موسى عليه السلام « واجعل لى وزيراً من أهلى ، هرون أسمى ، أشد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » (٢) . والمرة الثانية « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أئناه هرون وزيراً » (٣) .

البرهانجى :

وكان لمنصب الوزير عند أول عهد النولة العثمانية بهذا المنصب أهمية

(١) انظر ص ص ١٢٠-١٢٨ في هذه الدراسة .

(٢) سورة طه ، الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية رقم ٣٥ .

وخطورته . فقد كان بمثابة المستشار الأول للسلطان . وفي عهد البلاطين العثمانيين الأوائل لم يكن يطلق على صاحب هذا المنصب لقب وزير ، بل كان يسمى *بيرقان* (١) *Pervane* أو *بيرقاني* *Pervaneci* وهو مصطلح فارسي اقتبسه العثمانيون من سلاجقة قونية (٢) ، ومدلول هذا المصطلح قائد ، أو مفتش ، أو صاحب رتبة صدرت بها براءة ملكية أو براءة سلطانية . وكان للبيرقان حق التصرف في نطاق السلطات الواسعة المخولة له من لدن السلطان . ولذلك كان يعتبر البيرقان وزير تفويض ولم يكن وزير تنفيذ (٣) . ويرجع السبب في ذلك إلى أن البلاطين العثمانيين الأوائل كانوا منصرفين إلى العمليات الحربية التي لم تكن تتوقف أو تهدأ ابتغاء توسيع رقعة الدولة فتركوا للبيرقان سلطات متعددة وواسعة مارسها نيابة عن السلطان . ويستثنى من هذا الحكم العام وزراء ثلاثة سلاطين هم محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وسليم الأول وهو بأوز سليم (١٥١٢ - ١٥٢٠) ، وسليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . فقد كانوا على خط موفور من الحيوية والنشاط والقدرات العقلية واستطاعوا أن يجمعوا بين القيام بأعباء الحكم وقيادة الجيوش . ومن ثم كان الوزراء الأول والوزراء على عهدهم وزراء تنفيذ . وظلوا على هذه الصفة حتى السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان حين تزوج روكسلانه *Roxelana* الروسية وأحبها حباً بلغ

(١) Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., Vol. I. Part 1, p. 108.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة وزير .

(٣) اتفق فقهاء المسلمين على تقسيم الوزراء إلى نوعين . فالنوع الأول هم وزراء تنفيذ حين يكون ولي الأمر - خليفة كان أو سلطاناً أو ملكاً - منصرفاً إلى تصريف أمور الدولة بنفسه مستعيناً بالوزراء لتنفيذ أوامره . أما النوع الثاني فهم وزراء التفويض حين يكون ولي الأمر منصرفاً إلى حرب خارجية ، أو متنبهاً عن الدولة يؤدي فريضة الحج مثلا ، أو كان ضميماً أو مشغولاً بملذاته ، أو لغير ذلك من الأسباب التامة أو الشخصية فيترك أمور الدولة بتصريف فيها الوزير كما يريد ، أو على أحسن الفروض يتصرف في التعلق الذي يفرضه له ولي الأمر .
أنظر :

الماوردي (على بن محمد بن حبيب المصري البغدادي) ، أدب الوزير المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك ، ١٩٢٩ . وهذا الكتاب من كتب النظم تناول المؤلف فيه نظام الوزارة من النواحي التنظيمية وأرسى قواعدها . واستقى مادته العلمية من الأحداث التاريخية ، وحدد الشروط التي يجب توافرها في كل من يشغل كل نوع من نوعي الوزارة وواجباته ومسئورته .

شغاف قلبه ، وأصبح لا يطبق عنها بعداً ، فانزوى عن الحياة العامة وغدا وزيره الأول وزير تفويض . ومنذ ذلك الوقت وطوال حكم خلفائه سلاطين الفترة الثانية إلا في حالات نادرة كان الوزراء على اختلاف درجاتهم وزراء تفويض .

إنشاء منصب الوزير الأول (الصدر الأعظم)

ولما اتسعت الدولة اتساعاً إقليمياً سريعاً ومداهلاً ، ازدادت أهمية مركز الوزير ، وتضاعفت اختصاصاته ، وسيطر على إدارات الحكومة ، وأنشئ منصب الوزير الأول .

ولما جمعت قوانين الدولة على عهد السلطان محمد الفاتح وأدخلت عليها تعديلات وإضافات شتى أصبح مجموعها يشكل القانون الأساسى للدولة والمعروف باسم قانون نامه . وقد حددت في هذا القانون نامه مراكز موظفى الدولة المختلفين واختصاصاتهم تحديداً دقيقاً ، فأشير إلى الوزير الأول على أنه « الوكيل المطلق » وهو مصطلح مقتبس من اللغة العربية بمعنى « الوكيل المطلق » أو الممثل المطلق للسلطان The Sultan's absolute representatitive . وأبطل استخدام لفظة پيرفان أو پرفانجى ، ثم استبدلت الدولة بهذا اللفظ مصطلحاً جديداً هو « أولو وزير » Ulu Vezir أى الوزير الأول أو « وزيرى أعظم » Veziri A'zam أى الوزير الأعظم . وبذلك عادت الدولة العناية إلى التقليد الإسلامى باستخدام لفظة الوزير ، ولكنها أضافت كلمة أعظم تمييزاً له عن اللقب الذى كانت الدولة قد منحته بالفعل لعدد من الأفراد على أساس أن لقب وزير كان شعاراً لرتبة . وكان هؤلاء الأفراد الأخيرون الذين يحملون لقب وزير هم فى العادة حكام الولايات الكبرى مثل مصر . فكان السلطان يمنحهم اللقب ويخولهم سلطات واسعة يستطيعون بمقتضاها إصدار فرمانات « حماية » لها قوة القانون دون الحاجة إلى الرجوع إلى إستانبول لاستصدار فرمانات سلطانية إلا فى المسائل التى تقتضى طبيعتها عرضها على السلطان أو الوزير الأول الذى أصبح لقبه فى عهد سلاطين الفترة الثانية الصدر الأعظم ، ومعنى هذا المصطلح التاريخى أعظم كبار الموظفين ؛

الصدر الأعظم في قانون نامه :

وقد رفع السلطان محمد الفاتح الوزير الأول - أو الصدر الأعظم كما لقب فيما بعد - مقاماً علياً في الدولة . فقد جاء في القانون الأساسي للدولة العثمانية والمسمى قانون نامه مانصه « لتعلم أولاً أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء والأمراء . إنه أعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحية المطلقة في إدارة شئون الدولة . أما التسييم على أملاكه فهو الدقتردار . غير أن الصدر الأعظم هو رئيسه . وللصدر الأعظم في حركاته وسكناته ، وفي قيامه وقعوده ، حق التقدم على جميع موظفي الدولة » (١) فكان لهذا القانون قد وضع الصدر الأعظم في المكان الثاني بعد السلطان مباشرة ، أو كما يقول المؤرخ الفرنسي رامبو غدا الصدر الأعظم نائب السلطان أو نائب الإمبراطور (٢) . أما المستشرق الألماني بروكلمان فيقول إن قانون نامه قد جعل الصدر الأعظم وصياً فعلياً على الإمبراطورية ، مطلق الصلاحية ، يسيطر على فروع الإدارة كلها ، ويفصل في جميع شئون الدولة ، وفي مسائل الموت والحياة أيضاً ، منفرداً مطلق السلطة (٣) .

الصدر الأعظم والخاتم السلطاني :

على أن أعظم امتياز ظفر به الصدر الأعظم كان في الواقع الحق الذي خوله له سلاطين الدولة في حمل الخاتم السلطاني رمزاً لتقسيم العميقة فيه ، إذ كان الصدر الأعظم يوقع بهذا الخاتم على القوامات السلطانية ، كما كانت تختم به المخازن الهامة وهي : مخزن السجلات المالية (مالية دفترخانة سي) ، والمخزنة الخارجية للسرراي (ديش خزينة) ، والمخزن العام للمحفوظات (دفترخانة) ، والحقيقية اليومية (روزنامه كيدمه سي) (٤) . وكان المؤرخون العثمانيون في تعليقاتهم

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم . مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٩٤ ، حاشية رقم ١٦

(٢) Lavis et Rambaud : Histoire Générale. t. IV. L'Empire Ottoman.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٩٤ - ٩٥ .

(٤) Gibb Hamilton and Bowen, Harold op. cit., Vol. 1, Part

1, p. 112, fn. no.3.

على تسلم الصدر الأعظم الخاتم السلطاني يقولون إنه حصل على شعار عاهل العالم « نائل مهر شهر يارى جهان أولشبرى » (١) . وكان الصدر الأعظم في العهد الأول يضع خاتم التوقيع السلطاني في أصبعه ، أما في العهد اللاحق فكان يضعه في جيبه في حافظة من القماش المذهب . وكان السلطان في العهد الأول يعث بخاتمه إلى الصدر الأعظم في مسكنه يحمله إليه أحد موظفي البلاط ، ثم تغير هذا التقليد منذ عهد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) ، إذ كان السلطان يتولى شخصياً تقديم خاتمه إلى الصدر الأعظم . وكان سبب الخاتم من الصدر الأعظم بمثابة أمر سلطاني بإقالته من منصبه . وكان السلطان يوفد أحد موظفي البلاط لسحب الخاتم منه . وكان يتعين على الصدر الأعظم في هذه الحالة مغادرة العاصمة فوراً .

سلطات أخرى للصدر الأعظم :

امتدت سلطات الصدر الأعظم إلى الإدارة المركزية في الدولة وإلى إدارة الولايات . كان الصدر الأعظم هو رئيس الديوان ، وستنكم في الفصل التالي عن هذا الديوان من حيث تشكيله واختصاصاته ودوره البارز في حكم الإمبراطورية - وكان الصدر الأعظم يميناً أيضاً على شؤون الجيش ، وكان يقود المعارك الحربية حين تدعو الضرورة . وفي هذه الحالة كان له الحق في حمل البعق النبوي - راية النبي صلوات الله وسلامه عليه - إلى ساحة القتال . وهو حق كان ينفرد به السلطان دون سواه (٢) . وكان يرأس المحكمة العليا ويشترك معه قضاة الشريعة الإسلامية . وكان الصدر الأعظم يقوم بمجولات في العاصمة ويتفقد أسواقها ويرافقه في هذه الجولات قاضي القضاة ، والمشرف على الأسواق ، وكان يسمى « احتساب آغاسى » بمعنى الرقيب ويقابل هذا المصطلح العماني المصطلح العربي « المحتسب » ، ورئيس القضاة الإنكشارية ، ورئيس شرطة المدينة (٣) .

Loc. cit., fn ; no. 2.

(١)

Loc. cit., p. 112.

(٢)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 166.

(٣)

وكان بعض البلاطين يزوجون الصبور العظام - لتفهم العميقة فيهم وتقديرهم الكبير لهم - من بناتهم أو شقيقاتهم أو أخواتهم . وفي هذه الحالة يلحق باسم الصبور الأعظم لقب داماد ، وهي كلمة تركية بمعنى صهر . ويذكر هذا اللقب قبل اسم الصبور الأعظم مباشرة ، فكان يقال : داماد صوقاو محمد باشا .

فيض من مظاهر العظمة على الصبور الأعظم :

وقد أضفت الدولة على الصبور الأعظم الكثير من مظاهر العظمة والأبهة . كان يتقبل الصبور الأعظم في أيام محددة بعضها كل أسبوع والبعض الآخر كل شهر ولاء موظفي البلاط والدولة على غرار ما كان يفعل السلطان . فكان على كل من رئيس الإنكشارية والقضاة والبكوات الصناعق وقادة الجيش ومن إليهم من شاغلي المناصب القيادية زيارة الصبور الأعظم زيارة رسمية (١) . وكانت تتكرر هذه الزيارات في عيد الفطر وعيد الأضحى . وكان على جميع الموظفين المدنيين وأعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة - عدا شيخ الإسلام أن يقبلوا طرف رداء الصبور الأعظم حين يدخلون مجلسه . وكان يذهب إلى صلاة الجمعة في موكب رسمي تشارك فيه فرقة من حرس السلطان وفرقة المتفرقة بملايس التشريفية - الملابس العسكرية الرسمية - وكان الجلاوش يأتى (٢) وقوة من رجاله يصحبون الصبور الأعظم كل يوم في ذهابه من مسكنه إلى مقر الديوان وفي عودته إلى إلى داره . وكان فريق من رجال الخدعة في القصور السلطانية يقومون على خدمة الصبور الأعظم مرة كل أسبوع . وكان سماح السلطان بهذه الخدعة يعد تشريفاً كبيراً للصبور الأعظم .

رجال الخدعة الداخلية للصبور الأعظم :

وكان يقوم على حراسة حريم الصبور الأعظم جماعة من الخصيان يتراوح عددهم بين أربعة وخمسة ، وكان له خدعة داخلية وخدعة خارجية . ويرأس الخدعة الداخلية أربعة وعشرون غلاماً ، كان أكبرهم ساحدار آغا - حامل

(١) ذكر المؤرخ ليبيير أيام الأصبوح التي كانت تم فيها هذه الزيارات الرسمية :

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 166.

انظر :

(٢) شرحنا اختصاصات هذا الموظف في الفصل الثالث عشر في هذه الدراسة .

السيف وحارمه - وكان من بينهم القوة جى باشى ، وكانت مهمته أن يمد القهوة ويقدمها للصدر الأعظم ولضيوفه ، وأبر يقدر باشى ، وكانت مهمته أن يحمل إبريق الماء ويصب الماء منه على يدي الصدر الأعظم حين يرغب في غسلها ، وبشكير آغا وهو حامل البشكير « المنشفة » يمسح الصدر الأعظم به يديه بعد غسلها ، وصاريق جى باشى ، وهو الذى يلف العمامة ويضعها على رأس الصدر الأعظم ، وبررباشى وهو الذى يقص شعر الصدر الأعظم ، وجوقه دار آغا أى رئيس الخدم الخصوصيين ، وهم جميعاً يطابقون رجال الخدمة الداخلية في القصر السلطاني - الخاص أوطه ليه - ممن يحملون نفس الألقاب . كما كان للصدر الأعظم مفتاح آغا ، يطابق الانتخاب آغا الخاص بالسلطان (١) . وكان للصدر الأعظم أيضاً ذهبية خاصة يقوم عليها طاقم من البحارة ، ويقود الأوطه باشى هذه الذهبية ، فيملك بالبنة بيتاً يجلف الآخرون .

متاعب وأخطار الصدر الأعظم :

وعلى الرغم من هذه المظهرية البراقة وذلك النفوذ الواسع المرض ، فقد كان الصدر الأعظم تحت رحمة مؤامرات ودسائس الحريم السلطاني والحصيان في القصور السلطانية ، وستعرض فيما عند كلامنا على مراكز القوى في الدولة ، وحيننا أن نذكر هنا إبراهيم باشا الذى وقع عليه اختيار السلطان سليمان المشرع ليشغل منصب الصدر الأعظم سنة ١٥٢٤ . وكان والده يونانياً من بترغنه . وقد ظفر بتقدير السلطان سليمان إلى حد بعيد حتى أنه تزوج من أخته . ولم تكن مصاهرته للسلطان بماصمة له من اللسانس التي تعرض لها . فقد نشطت دوائر الحريم السلطاني للإيقاع به ، وروجت شائعات تتمه بأنه طامع في عرش الحجر . ولما أخفقت هذه الدسيسة ، وجهت إليه تهمة أخرى أشد خطراً ، هي أنه يرنو ببصره لاحتلاء عرش الدولة اعتماداً على المصاهرة

(١) الانتخاب لفظة تركية معناها مفتاح . والانتخاب أفاضل ضابط يقوم بأعمال الشرطة ثم أدخلت تعديلات على اختصاصاته .

انظر :

التي تربطه بالأمرة العثمانية الحاكمة . وعلى الرغم من أن التهمتين لم يضم عليهما أى دليل مادى ، فقد اغتيل بأمر السلطان فى مساء ٥ مارس - آذار - سنة ١٥٣٦ وطويت صفحته بعد أن لبث زهاء اثنتى عشرة سنة كان خلالها المرجع فى كافة شئون الدولة . ونضيف إلى ذلك أنه لم يكن للصدر الأعظم أية سلطة مباشرة على الهيئة الإسلامية ولا على خدم القصور . وكان الصدر الأعظم يتداوى فى هذا الصدد مع الوزراء سواء بسواء . وكتيراً ما كانت والدة السلطان وزوجاته الأربع تصدرن الأوامر إلى الصدر الأعظم ينقلها إليه شفويةً كبير الخصيان فيصلىح بما يؤمر به .

وكان هناك خطر آخر داهم يهدد حياة الصدر الأعظم بحكم أنه كان ينتمى إلى طبقة القولاى - عبيد السلطان - فكانت حياته مرتبطة برضاء السلطان عنه . فإذا غضب عليه لم يكن السلطان ليقنع بعزله من منصبه ، بل كان فى غالب الأحوال يقرون عزله بإنهاء حياته . ويذكر ليبير المؤرخ الأمريكى أن حوالى المائتين تولوا منصب الصدارة العظمى فى خمسة قرون أعدم السلاطين عشرين صدرأ أعظم منهم (١) . والحق أن المفارقات كانت عجيبة بين هذه النهاية المفجعة وبين السلطات الواسعة والحياة الرغيدة والمظهرية المتألقة التى عاشها كل منهم . لقد كانت الدولة تحرص على ألا يظهر الصدر الأعظم أمام الجماهير إلا فى مواكب رسمية تضم حاشية تجمع صفوة العسكريين ونخبة المدنيين يحيطون به من يمين ويسار ، ومن أمام وخلف ، وتتقدمه سارية تحمل خمسة أطواخ .

الوزراء وعدد الأطواخ :

كان لكل وزير ثلاثة أطواخ - جمع طواخ وتكتب فى بعض المراجع العربية بحرف الفين على هذا النحو : طوِخْ وأطواخ ، وتكتب فى بعض المراجع غير العربية أحياناً Tugh وأحياناً أخرى Tug - والطواخ هو ذيل حصان معلق فى سارية وفى أعلاها كرة من النحاس المطل بالذهب .

وكان كبار موظفى الدولة يتميزون بعدد الأطواخ التى ترفع أمامهم فى

المواكب والحفلات الرسمية ، حيث كانت تتقدمهم سارية تحمل الطوخ أو الأطاوخ المقررة بحكم القانون لكل منهم . وعدد الأطاوخ هو الذى يحدد مراكز كبار رجال الدولة (١) . فالسلطان له تسعة أطاوخ ، وللصدر الأعظم خمسة أطاوخ . أما الوزير فترفع أمامه ثلاثة أطاوخ وكذلك الذين يحملون رتبة الباشوية . وكان البك يحمل طوخاً واحداً أو طوخين تبعاً للمركز الذى يشغله ، فإذا كان يحكم وحدة إدارية هى الصنجدقية فإنه يحمل طوخاً واحداً ، وإذا كان حاكماً لولاية صغيرة أو متوسطة فإنه يحمل طوخين . وإذا صدر فرمان سلطاني بمنح أحد البكرات رتبة الباشوية فإنه يحمل بقوة القانون ثلاثة أطاوخ بصرف النظر عن المنصب الذى يشغله . وكان يحدث أن تستند ولاية دمشق أو حلب أو بغداد أو مصر إلى ولاية سبق لهم تقلد منصب الصدر الأعظم أو كانوا وزراء ، ففى مثل هذه الحالات كان يسمح لهؤلاء الولاة بالاحتفاظ بحقهم المقرر لهم من قبل فى عدد الأطاوخ على الرغم من أن منصب الوالى كان يقل عن منصب الصدر الأعظم (٢).

ويدل استخدام الأطاوخ على أن العثمانيين كانوا متمسكين بالحفاظ على التقاليد التى تتمثل فى بعض الرموز أو الشعارات الممتدة من أصول قبلية تركية قديمة . ويرى بعض المؤرخين أنه من المحتمل أن يكون هذا التقليد مستمداً من أصل طوطمى (٣) Totemic origin وكانت الأطاوخ تؤخذ أول الأمر من ذبول الياكات Yaks . ثم رأيت اللولة أن تستبدل ذبول الخيل بلذبول الياكات .

مجموعتان من الصدور العظام :

يلاحظ أولاً أن المدنيين والعسكريين تعاقبوا على منصب الصدارة العظمى .

Hourani Albert H., The Ottoman Background etc., op. (١)

cit., p. 7.

(٢) دكتور عبد الكريم غرايبة ، سوريا فى القرن التاسع عشر ، مرجع سبق ذكره ،

ص ٤١ ، ص ٤٣ .

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op., cit., Vol. I, Part (٣)

I, p 139.

فلم يكن هذا المنصب وفقاً على فريق دون فريق . ولكن كانت الحاجة ماسة في عهد سلاطين الفترة الثانية إلى شغل هذا المنصب بالسكريين ، لأن الصدر الأعظم كان يقود المعارك الحربية بدلاً من السلطان الذي كان يؤثر الدلالة والعزلة عن الجماهير وتلمس أسباب المتعة بشرب الخمر أو الإقامة في أجنحة الحرم (١) .

وقد حفل تاريخ الدولة بعدد من الصدور العظام كانوا على حظ موفور من الكفاية والإخلاص والزهادة . نهض بعضهم بالنولة ينياً أنقذها البعض الآخر من الانهيار في أواخر القرن السابع عشر مثل كويرلي . وقد تولى خمسة من أفراد هذه الأسرة - وهي أسرة ألبانية - منصب الصدارة العظمى (٢) ، وأسدى أربعة منهم على الأقل خدمات جليلة للدولة وسنلتقى ببعض أفراد أسرة كويرلي في هذه الدراسة .

(١) من بين السكريين الذين تولوا منصب الصدارة العظمى ، نذكر منهم :

- ١- هازي حسن باشا (١٠٢٣-١٠٢٤/٨-١٦١٤-١٦١٥ م) .
 - ٢- سلحدار محمد باشا (١١٤١-١١٤٣/٨-١٧٢٨-١٧٣٠ م) .
 - ٣- سلحدار سيد محمد باشا (١١٤٨-١١٥٠/٨-١٧٣٥-١٧٣٧ م) .
 - ٤- سلحدار ماهر حمزه باشا (١١٨٢-١١٨٢/٨-١٧٦٨-١٧٦٩ م) .
 - ٥- سلحدار محمد باشا (١١٨٤-١١٨٥/٨-١٧٧٠-١٧٧١ م) .
 - ٦- حلمي إبراهيم باشا أغا الإنكشارية (١٢٢١-١٢٢٢/٨-١٨٠٦-١٨٠٧ م) .
 - ٧- سلحدار مصطفى باشا (١٢٢٣-١٢٢٣/٨-١٨٠٨ م) .
 - ٨- سلحدار علي باشا (١٢٣٩-١٢٤٠/٨-١٨٢٣-١٨٢٤ م) .
- ويلاحظ أن هؤلاء الصدور العظام قد تولوا هذا المنصب إبان عهد سلاطين الفترة الأولى . انظر
- محمد جبل بيجم ، فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ، ص ٣٤-٣٥ .
- (٢) محمد كويرلي باشا تولى الصدارة العظمى من سنة ١٦٥٦ إلى وفاته سنة ١٦٦١ .
- (ب) أبه فاضل أحمد باشا وقد عين صدراً أعظم بعد وفاة والده مباشرة في سنة ١٦٦١ وظل في منصبه حتى جاز إلى رده سنة ١٦٧٦ .
- (ج) فاضل مصطفى باشا ابن محمد باشا عين صدراً أعظم سنة ١٦٨٩ إلى أن قتل في حربه سنة ١٦٩١ .
- (د) حسين باشا ابن أبح محمد باشا عين صدراً أعظم سنة ١٦٩٧ إلى أن اعتزل الخدمة سنة ١٧٠٢ .

ولئن حفل تاريخ الدولة بهذا الطراز الطيب من الصدور العظام فقد اتشح تاريخها أيضاً بعدد آخر يصدق عليهم وصف المستلقين . فقد كانوا إما جهلة وإما وصلوا إلى منصب الصدارة العظمى بطرق غير شريفة أو غير كريمة . وقد وضع أحد الباحثين ثبثاً بأسماء ثلاثة وعشرين شخصاً بدأوا حياتهم خلعاً في النصور السلطانية ، ثم دارت الأيام دورتها ؛ فإذا هم يتولون منصب الصدارة العظمى الذى كان المنصب الثانى فى الدولة بعد السلطان . وفى هذا الثبوت ذكر الباحث نوع الحرفة أو العمل الذى مارسه كل منهم قبل أن يشغل ذلك المنصب الخطير ، كما ذكر الهيئة التى تولى فيها منصب الصدر الأعظم وسنة وفاته أو عزله أو إعدامه . ومن هذا الثبوت نقف على حقائق مذهلة : كان من بينهم من كان مريباً للسلطان ، أو خادماً ، أو بيتانياً ، أو خطاباً فى التصور السلطانية (١) . وحارت الشبهات حول عدد منهم من حيث عدم النزاهة ، استغلوا نفوذ المنصب الكبير الذى سما إليه كل منهم وتفننوا فى ابتداع وسائل الكسب غير المشروع لإتغاء إغناء ثرواتهم . ومن الأمثلة التى تساق فى هذا الصدد الصدر الأعظم صوقلو محمد باشا . وكان صقليياً من مواليد قرية صوقل فى إقليم البوسنة . وكان اسم صوقلو الذى اشتهر به هو تترك اسم الأصل صوقوليشيتش (٢) Sokolevich وقد تزوج إسماة الأميرة ابنة السلطان سليم الثانى فاكتسب لقب داداد ، وغدا اسمه داماد صوقلو محمد باشا . وظل مرتباً فى منصب الصدر الأعظم مدة تراوحت بين خمسة عشر عاماً وثلاث عشرة سنة (٣) .

(١) نمان باشا وهو ابن مصطفى باشا . وقد شغل منصب الصدر الأعظم من سنة ١٧٠٢ إلى سنة ١٧١٥ وقد تزوج من عائشة سلطان أخت السلطان مصطفى الثانى فأصبح اسمه داداد نمان باشا .
أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold op. cit., vol. I. Part I, p. 110, fn. 3

(٢) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٣٤-٣٥

(٣) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I.

p. 110, fn. No. 3.

(٣) يقول البعض إنه تولى منصب الصدر الأعظم فى سنة ١٥٦٥ فى أراغر بحكم السلطان سليمان المشرع ، وإنه خدم هذا السلطان فى منصبه كصدر أعظم خمسة عشر شهراً ، بينما يقرر البعض الآخر أنه شغل منصبه سنة ١٥٦٨ بعد سنتين من وفاة السلطان سليمان وفى أثناء حكمه

زين له جسعه وخلقه السوء أن يفرض على حكام الولايات العثمانية أن يعيدوا شراء مناصبهم كل سنة ، بعد أن كانت عملية الشراء تتم مرة واحدة عند التعيين لأول مرة في المنصب . وكانت عمليات تجديد الشراء السنوية تقترن بأن يقدم كبار الموظفين إلى صوقلو باشا هدايا نقدية وعينية تتناسب مع المركز القيادي الذي يشغله كل منهم والموارد المالية التي يدرها هذا المركز القيادي . وما يذكر في هذا الصدد أن الباشا العثماني في مصر كان يدفع ما يزيد على مائة ألف بندقى (١) كل سنة إلى محمد صوقلو باشا لقاء تجديد شراء منصبه أو بعبارة أخرى تجديد تعيينه وإبقائه والياً على مصر لمدة سنة أخرى (٢) . أما إذا توفي أحد شاغلي المناصب فكان صوقلو باشا يعين خلفاً له من يدفع أعلى ثمن للوظيفة التي كان يشغلها المتوفى . وامتدت أطماعه إلى العلاقات الخارجية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية . وحسبنا أن نذكر مثالا واحدا لهذا النوع من التصرفات ، فقد نجحت جمهورية البندقية في أن تشتري من صوقلو باشا صلحا في سنة ١٥٧٣ لقاء خمس عشرة ألف دوكة (٣) . ولقى هذا الصلح الأَعْظَم مصره في سنة ١٥٧٩ جزاء وفاقاً لما فعله من شروق في حق دولة آوته ورفعته مكاناً علياً في حياته الوظيفية . كان صوقلو محمد باشا قدوة سيئة أمام موظفي الدولة في شتى فروع الإدارة سواء الإدارة المركزية أو حكومات الولايات وبخاصة أنه استمر سنوات طويلاً في موقعه ، ويذكر الرجل الثاني في

أبيه سليم الثاني ، ويتفق الجميع على أنه ظل يشغل منصبه حتى قتل سنة ١٥٧٩ على عهد السلطان مراد الثالث . وعلى ذلك فإن داماد صوقلو محمد باشا عاصر وهو يشغل هذا المنصب ثلاثة سلاطين (سليمان المشرق ، وسليم الثاني ، ومراد الثالث) في رواية ، وعاصر سلاطين اثنين (سليم ومراد) في رواية أخرى .

(١) محمد جميل بيسم : فلسفة التاريخ العثماني ج ٢ مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤-٣٥

(٢) البندق عمله ذهبية تنسب إلى جمهورية البندقية .

(٣) كارل بروكلمان ، الكتاب الثالث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ ويضرب هذا المستشرق الألماني أمثلة أخرى على الوسائل غير المشروعة التي كان يلجأ إليها صوقلو باشا في استغلال منصبه وإتمام ثروته .

(٤) الدوكة وجمعها دوكلات وهي عملة ذهبية ، وهي حل أنواع منها الدوكلات النمسارية ، وقد أطلق العثمانيون عليها اسم حجر آلتين أي الذهب المهرى ، ومنها اللوكلات البندقية ، وقد أطلق العثمانيون عليها اسم فلورى أو يالديز آلتين

الإمبراطورية يستغل نفوذه لمصلحته الشخصية أسوأ استغلال معتمداً على مصاهرته للأسرة السلطانية .

منصب الصدارة العظمى بين الأحرار والعبيد :

وحتى فتح القسطنطينية كان منصب الوزير الأول يشغله مسلمون أحرار (١). فقد عين السلطان أورخان بن عثمان الأول (١٣٢٦ - ١٣٦٠) أخاه الأمير علاء الدين في هذا المنصب ، واكتسب علاء الدين شهرة واسعة . كما اشتهرت في تاريخ الدولة العثمانية أسرة إسلامية هي أسرة چاندارلى (٢) Gandarli تولى أفراد منها من وقت لآخر لمدة أربعة أجيال ذلك المنصب (٣). وكان رابع أفراد هذه الأسرة ، ويسمى خليل باشا- يشغل ذلك المنصب وقت فتح القسطنطينية . وكان تعيين مسلم حر في منصب رئيسي في نظام الحكم أمراً شاذاً . ويقال إن السلطان محمد الفاتح قد ساوره المخاوف من النفوذ الواسع الذى بلغته أسرة چاندارلى ، وشك في قسام تباطؤ بين خليل باشا والبلاط البيزنطى ، واهتمه بالخيانة العظمى وأعدمه في ذات السنة التى تم فيها فتح القسطنطينية . واتجه تفكيره إلى إلغاء منصب الوزير الأول كلية والاستغناء نهائياً عن خدماته اتقاء للشبهات التى تحوم حول شاغل المنصب . وظل على رأيه ثمانية أشهر ، ثم رأى أن يجعل التعيين في هذا

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part 1, p 109.

(٢) يرد اسم هذه الأسرة في المراجع الإنجليزية والفرنسية في صيغ مختلفة منها :

Gendereli, Genderli, Gandarli.

(٣) كان الوزراء الأربعة هم :

- أ - قره خليل ، وقد عين حل عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٨) .
- ب - ابنه حل ، وقد عين حل عهد السلطان أبديزيد الأول (١٣٨٨ - ١٤٠٣) .
- ج - ابنه إبراهيم ، وقد عين حل عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ - ١٤٢١) .
- د - ابنه خليل ، وقد عين حل عهد السلطان مراد الثاني والسلطان محمد الثالث (١٤٥١ - ١٤٨١) .

المنصب مقصوراً على القولاى أى طبقة العبيد . وفلا عين فى منصب الوزير الأول رجلا من هذه الطبقة . هو محمود باشا عدنى (١) . ومنذ مطلع سنة ١٤٥٤ أصبح الصلور العظام والوزراء يعينون من الموظفين العبيد(٢) .

وزراء القبة :

استحدث السلطان محمد الثانى نظام وزراء القبة ، وهم وزراء يخضعون للصدر الأعظم ، ويجلسون إلى جانبه تحت سقف واحد أو قبة واحدة . ولذلك أطلق عليهم «قبة وزيرلى» ، أى وزراء القبة . وكان كل منهم يحمل لقب وزير وثلاثة أطواخ ، ورتبة الباشوية . وكان عددهم أول الأمر أربعة ثم ارتفع إلى ستة ثم زاد عددهم تبعاً فى القرن السادس عشر . وكانت أقدميتهم هى التى تحدد وضعهم فى الپروتوكول العئنى ، فىسمى أحدهم الوزير الثانى ، والآخر الوزير الثالث ، وهكذا .

وكان الاختيار يقع على أحد وزراء القبة - هو الوزير الثانى عادة - ليحل محل الصدر الأعظم فى أثناء تغيبه فى ميدان الحرب . وكان وزير القبة يسمى فى هذه الحال «قائمقام» ، ويتمتع بسلطات الصدر الأعظم . ويكون تعيينه قائمقاماً بمثابة ترشيحه للترقية إلى منصب الصدارة العظمى فى قابل الأيام . كما كان يعهد إلى وزراء القبة بقيادة الحملات العسكرية الصغيرة نسبياً . وكان يسمى فى هذه الحال «السردار» . ويسير إلى الحرب ومعه قوات من سلاح المشاة من الإنكشارية وقوات من سلاح الفرسان من الخيالة الثابتة ، وينضم إليه فى الطريق الحكام المحليون مع قواتهم الإقطاعية وقوات خدمتهم الخاصة .

وكان الهدف من إنشاء نظام وزراء القبة ، كما خطط له السلطان محمد

(١) D'Ohsson, Ignatius Mouradgea, ; op. cit., t. vii, p. 152 .

(٢) خروجاً على هذه القاعدة العامة للدولة العثمانية وجدت حالة استثنائية واحدة حين أصدر السلطان أبو يزيد الثانى (١٤٨١-١٥١٢) ابن السلطان محمد الفاتح فرماناً يسمين أحد أفراد أسرة چاندارلى ، وهو إبراهيم بن خليل ، فى منصب وزير أول ، وظل متقلداً هذا المنصب زهاء ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) .

الناجح ، هو الحد من سلطات الصدر الأعظم . ولكن لم يتحقق شيء مما كان يهدف إليه هذا السلطان . فقد أصبح وزراء القبة بمضى الزمن عنصراً قوياً من عناصر المؤامرات . وقد حاولوا أول الأمر أن يزيدوا من سلطاتهم ، ولكن كانت صلاحياتهم تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق مضاميمهم ، ومن ثم اتجهوا إلى المؤامرات والندساتس التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدر الأعظم وتهديد الدولة بأعظم الأخطار . وقد ألفى نظام وزراء القبة كلية في أوائل القرن الثامن عشر .

الباب العالى :

كانت المسائل الكبرى للدولة تبحث في القصر السلطاني . وفي ذات الوقت كان الصدر الأعظم يسكن منزلاً صغيراً أو متوسطاً خارج القصر . ورأى السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) أن يخصص مبنى شامعاً فخداً يتيم الصدر الأعظم وأسرته وخدمته وحرسه في أحد أجنحته ، وتخصص باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة يقومون فيها بتصريف مهامهم . وتم إنشاء هذا المبنى في سنة ١٦٥٤ فكان مسكناً رسمياً للصدر الأعظم ومقرآ لدبوان عام تبحث فيه مسائل الدولة باستثناء المسائل المالية التي كان لها مبنى خاص يسمى «دفتر دار قايسى» أى «بوابة الدفتر دار» وكانت تضم جميع أقسام الإدارة المالية كما سترى في موطن قادم . وكان درويش محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الرابع أول من سكن مبنى الباب العالى من الصلور العظام . وغدا اسم هذا المبنى «باشى قايسى» ، أى بوابة الباشا ، «وبابى على» ، أى بوابة عليا ، ثم اكتسب اسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالى (٢)

(١) يقرر بعض الباحثين أن السلطان سليمان المشرع هو الذى أمر بتشييد المبنى ، وأنه أطلق على مجلس الوزراء الباب العالى ، وأنه شاعف مراتب أعضائه ، وأنه أطلق على رئيسه لقب الصدر الأعظم .
أنظر ،

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٢) يرى هارم أنه من المحتمل أن مصطلح «بابى على» كان يطلق من قبل على قصر السلطان ، ثم أصبح يستخدم للإشارة إلى المسكن الرسمي للصدر الأعظم ومقر السلطة الفعلية .

La Porte Sublime، ويرى بعض المؤرخين أن إنشاء الباب العالى كان دليلاً على أنه أصبح مركز الثقل السيامى فى الدولة (١) ، لأنه قبل إنشاء هذا الصرح كانت تبحث كل الشؤون العامة للدولة فى القصر السلطانى ، فعندما الباب العالى هو مناط السلطة والمرجع الأعلى فى جميع شؤون الدولة ، الداخلىة والخارجية ، المدنية والعسكرية .

المابين :

ظل الباب العالى على وضعه القيادى السيامى المتفوق حتى السبعينات من القرن التاسع عشر . ولما أصدر السلطان عبد الحميد الثانى فى اليوم الرابع عشر من شهر فبراير - شباط - ١٨٧٨ قراره المشهور بتعطيل الدستور وقضى مجلسى المبعوثان والأعيان وتأجيل اجتماعاتها إلى أجل غير مسمى ، انفرد هذا السلطان بحكم الدولة حكماً مطلقاً . وأصبح ديوانه الخاص فى قصر يلديز المؤلف من مستشاريه هو المرجع الأول فى شؤون الحكم دون الباب العالى . وقد عرف هذا الديوان باسم « المابين » وهى لفظة مأخوذة من اللغة العربية ، لأن هذا الديوان كان أداة الاتصال بين السلطان والباب العالى ، فهو ما بين الفريقين (٢) .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (١)
1, p. 113.

(٢) يبدو أن هذا المصطلح « المابين » قد اقتبس من مصطلح يحمل نفس الاسم لنظام الخدمة الداخلىة فى القصور السلطانية . فقد أطلق مصطلح « المابين » على مجموعة الغرف التى كانت تقع بين جناح الحرم والبلاط الداخلى . وكان لايسح لأحد بدخول جناح الحرم إلا السلطان والخصيان والنسوة . وفى هذه الغرف الواقعة بين الجناحين كان الرجال من أفراد الحاشية يقومون على خدمة السلطان لتقص شعره وتقليم أظفاره وإلباسه ولف العمامة ووضعها على رأسه . وكان لكل مهمة من هذه المهام موظف خاص يحمل اسماً خاصاً ويرأسهم جيماً الباشى جوقة دار ، أى رئيس الخدم الخصوصيين . وكان يطلق عليهم المابينجية . وعلى ذلك فالفارق بين « مابين » قصر يلديز وماين سائر القصور أن الأول كان خاصاً بالمستشارين السياسيين والقانونيين وعلماء الدين ومن إليهم الذين استعان بهم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كان « مابين » القصور السلطانية الأخرى يزدهم بانخدم الخصوصيين للسلطين .

الفصل الثالث عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٢)

الديوان الإمبراطوري (الهيايوني) .

كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع . كان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته . وكان يطلق عليه الديوان الهيايوني (١) Le Divan Houmaïoun واستمر هذا التقليد متبعاً حتى عهد السلطان سليمان المشرع الذي تخلف عن حضور جلساته وتخلّى عن رئاسة الديوان للصاهر الأعظم . فأصبح الديوان في وضعه الجديد يتكون - فضلاً عن رئيسه الصاهر الأعظم - من الوزراء وعدد من كبار موظفي الدولة كان يطلق عليهم باللغة التركية « أركان دولت » أي أركان الدولة يمارسون عضوية الديوان بحكم وظائفهم *ex officio* .

ولكى نقف على تشكيل الديوان واختصاصاته وأسلوبه في تسيير دفة أمور الدولة نلم أولاً إلاماً سريعاً بشاغلي المناصب الكبرى في الإدارة المركزية في الدولة والمصطلح التاريخي الذي كان يطلق على كل منهم . وهم : الرئيس أفندي ، النشائجي باشي ، الجاوش باشي ، كاخيا بك ، الباش دفتردار ، دفتر أمينى .

الرئيس أفندي :

يلاحظ أولاً أن كلمة أفندي في تاريخ الدولة العثمانية تطلق على أرباب القلم ، بينما تطلق لفظة أغا على أصحاب السيف . وكان «الرئيس أفندي» في العصر

(١) هيايرن كلمة فارسية معناها الحرق مبارك ، مقنس ، حسن الحظ. وتستخدم بمعنى ملكي أو سلاطاني أو إمبراطوري . وتاسها على ذلك فإن عبارة الديوان الهيايوني معناها الديوان السلاطاني أو الديوان الإمبراطوري .

الأول ذا مركز متواضع نسبياً بالنسبة للشناجى باشى أو الكاخيا بك أو الجاوش باشى أو الدفتردار ، أو غيرهم من كبار موظفى الإدارة المركزية . وبوصفه أكبر الكتاب مركزاً فى سكرتارية الصدر الأعظم كان يطلق عليه رئيس الكتاب . وما نظن فى تاريخ الدولة منصباً كهذا المنصب بدأ بداية متواضعة ثم مر بتطورات متعاقبة قفزاً إلى أعلى حتى أصبح منصب الرئيس أفندى مرادفاً لمنصب وزير الخارجية العثمانية .

وتتلخص اختصاصاته وتطوراتها فى المجالات التالية :

أولاً : كان يشرف على السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، فكان يعتبر نائباً عن الصدر الأعظم فى شئون السكرتارية . وامتدت اختصاصاته إلى خارج السكرتارية ، فكان يشرف على كبار الكتاب فى الخزانة العامة و خزينة عامرة .

ثانياً : كان يتولى حفظ القوانين عدا القوانين الخاصة بالشئون المالية وحيازة الإقطاعات ، كما كان يقوم بإعداد جميع الأوامر غير الخاصة بالشئون المالية .

ثالثاً : كان يقوم بإصدار براءات السلطة التى كانت تعطى لحكام الولايات وأصحاب الإقطاعات العسكرية وشاغلى الوظائف من أهل العلم والقابجى باشية والسكرتيرين الذين يعملون فى الإدارة والذين يتلقون إعانات من الأوقاف الدينية .

ويلاحظ أن هذا الاختصاص الأخير المتعدد الصور والأشكال كان ذا طابع وثائقى . ولذلك كان يعمل تحت إمرته ومتعاوناً معه موظف يسمى بيليكجى Beylikçi برأس قسماً يختص بحفظ القوانين وإعداد الأوامر السلطانية يسمى بيليك قلمى Beylik Kalemi أى قلم الوثائق ، لأن كلمة بيليك تحريف لكلمة « بتك » Bitik بمعنى وثيقة .

واستحدثت الدولة قسمين آخرين - غير بيليك قلمى - لإصدار البراءات . كان أحدهما يسمى « تحويل » وهو يطلق على البراءات التى تصدر إلى موظفى

الطبقتين الأوليين من أهل العلم . وكان الآخر يسمى «رعوس» وهو تعبير يطلق على البراءات التي تصدر إلى أهل العلم ممن هم دون الطبقة الثانية وسكرتيرى الإدارة . وكان اصطلاح « براءات » يطلق على تلك التي تعطى للحكام الولايات . أما أصحاب الإقطاعات الحربية فكان يطلق على البراءات الصادرة إليهم لاسم « ضبط فرمانى » . وكانت تصدر من مكتب التحويل أيضاً . وأخيراً فإن اصطلاح « براءات » كان يطلق كذلك على التصاريح بصرف معاشات من خزانة الأوقاف الدينية ، ولكنها كانت تصدر عن قسم الرعوس . وكان يعمل فى السكرتارية حشد من الموظفين بلغ عددهم فى القرن الثامن عشر قرابة مائة وستين كاتباً من ثلاث فئات (سكرتيرون ، وشاكرادات ، وشرهلوات) . وكان يشرف عليهم ستة من رؤساء الموظفين هم :

١ - القانونجى وكانت مهمته البحث فى مجموعة قوانين الدولة عن نص قانونى ينطبق على مشكلة ما قد تثار أو تطرأ .

٢ - الإعلامجى ويختص بوضع مذكرة عن مثل هذه المشكلات التى قد تطرأ والنص القانونى الذى عاجلها . والكلمة مقتبسة من اللفظة العربية : أعلم بمعنى أخبر أو أبلغ .

٣ - المميز ومعناها فى هذا المجال المحقق . وكان يقوم بفحص وتصحيح الوثائق التى يعدها الكتبة . والكلمة مأخوذة من اللغة العربية : ميز .

٤-٦ ثلاثة موظفين يطلق على كل منهم لقب « كيسة دار » أى حامل الكيس . وكلمة الكيسة مأخوذة من اللغة العربية بمعنى كيس النقود . وكان للرئيس أفندى « كيسة دار » مستقل وخاص به^(١) وهؤلاء الرؤساء الستة كانوا يتبعون البيليكجى .

وابعاً : كان الرئيس أفندى مسئولاً عن الصياغة اللفظية وعن محتوى التقارير والملكرات التى يضعها الصدر الأعظم ويرفعها للسلاطان . وكانت

هذه المهررات تسمى « تلخيص » . وكان يساعد الرئيس أفندى في هذه المهمة موظف آخر يسمى « آمدجى » ، وهى كلمة فارسية مشتقة من آمد بمعنى حضر أو أتى . وكان الأمدجى بمثابة مساعد للرئيس أفندى .

خامساً : تطور اختصاص الرئيس أفندى فأصبح الموظف المختص بشئون السياسة الخارجية للدولة ، وبعبارة أخرى غدا وزير الخارجية العثمانية . وظهر هذا الاختصاص في عصر متأخر ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية كانت في أول الأمر في نطاق ضيق للغاية . كان السلطان أول الأمر يولى رغباته ، فلذا لم تلق استجابة من الدول الأجنبية كان يعلن الحرب . ثم بدأت الدولة العثمانية تعقد معاهدات ثنائية أو جماعية مع تلك الدول ، ووافقت على إنشاء تمثيل دبلوماسى وقنصلى بينها وبين الدول غير الإسلامية بعمامة والدول الأوروبية بخاصة . وشهدت دار السعادة - إستانبول - قيام سفارات وقنصليات عامة لهذه الدول . وكان الصدر الأعظم أول الأمر هو الذى يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية . ولم يكن الرئيس أفندى وقتذاك يفعل أكثر من تسجيل المعاهدات . كما كان يفعل عند تسجيل أى أمر سلطانى أو قرار وزارى .

ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وكان أزواء سلاطين الفترة الثانية عن الحياة العامة من بين أسباب تزايد هذه الأعباء ، ولما ازدادت العلاقات الخارجية للدولة بالدول الأجنبية عمقاً واتساعاً ، أحييت مسائل السياسة الخارجية تبعاً إلى الرئيس أفندى ، واستعان الأخير بجهاز من الخبراء والمترجمين . كان الخبراء يقومون بتزويده بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية . وكان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التى تبعث بها السفارات الأجنبية فى إستانبول إلى اللغة التركية وبالعكس . وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرون السابع عشر الميلادى من أصل أوروبى اعتنقوا الإسلام . ومنذ أوائل القرن الثامن عشر استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية تسكن حى الفنار فى إستانبول ويعرفون باسم « الفناريون » Les Phanariotes وكانوا على حظ موفور من العلم والثقافة وسعة الأفق العقل

والثراء وتمتعوا بعراقه الأصل وكرم المحتد . وقد سبق أن التقينا بهم في هذه الدراسة (١) . وكانت الدولة تؤثرهم بالتميين في المناصب الكبرى التي تمتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالى وتمتار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكان ولايتى الدانوب تحت السيادة العثمانية (٢) . وكان هؤلاء المترجمون ينقسمون إلى مجموعات مختص كل مجموعة بدولة أجنبية أو ببعض دول . فكان مترجمو كل مجموعة يعدون المذكرات السياسية التي تتناول النقاط الرئيسية عن الموضوعات التي يتناولها الرئيس أفندى سواء في مقابلاته مع سفراء الدول أو في مفاوضاته مع البعثات الأجنبية . وكان رئيس المترجمين - ويطلق عليه ديوان ترجمانى أى مترجم الديوان - يحضر مقابلات السلطان أو الصدر الأعظم أو الرئيس أفندى للسفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات الأجنبية التي كانت تمر بإستانبول . والباحث المتمتع في تاريخ العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن التاسع عشر تلفت نظره هذه الظاهرة : وهى سعى السفير في إستانبول أو الشخصية الأجنبية الوافدة إلى العاصمة لمقابلة ترجمان الرئيس أفندى ليبحث معه المشكلات العاجلة والمعلقة بين الدولة العثمانية والدولة التي يمثلها السفير مما جعل لهذا الترجمان مركزاً مرموقاً في نظر أعضاء البعثات الدبلوماسية في العاصمة . وقد استمد هذا المركز من اتصاله الوثيق بالرئيس أفندى . ويلاحظ أن المؤرخين الأوروبيين يشيرون في مؤلفاتهم إلى وزير الخارجية العثمانية بأنه الرئيس أفندى el Reis effendi وكان هذا الرئيس أفندى في نظر الدبلوماسيين الأوروبيين في ذلك الوقت هو الشخص الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم . أما الغالبية الساحقة من الأتراك العثمانيين فلم يدركوا أهميته أو أهمية منصبه .

النشائجى باشى :

اشتقت هذه الكلمة من اللفظة الفارسية « نشان » بمعنى شارة . وكان النشائجى يضع ختم الطغراء على الوثائق والمراسيم وسائر الأوراق الرسمية .

(١) انظر ص ٦٨ في هذه الدراسة

Miller W. ; op. cit., p. 16, pp 25-27.

(٢)

والطغراء هي شارة السلطان العثماني ، وهي نقش متداخل معتد يحمل اسم السلطان . وكان كل سلطان يتولى العرش يأمر بعمل طغراء خاصة به ، كما كانت تنقش هذه الطغراء على أحد وجهي العملات الذهبية أو الفضية التي تسك على عهده في الضربخانه ، أي دار سك العملة . وقد أخذ الأتراك العثمانيون استخدام الطغراء عن السلاجقة منذ حكم السلطان أورهان بن عثمان ، ولكن لم يتم إنشاء منصب النشائي إلا على عهد السلطان محمد الفاتح وبعد فتح القسطنطينية .

وكان يذكر اسم النشائي مقربوناً بكلمة الباشي فيقال النشائي باشي ، واكن غلبت عليه التسمية بدون ذكر كلمة باشي (١). وكان للنشائي مقعد في الديوان منذ البداية مما يدل على أهمية المنصب الذي يشغله وبدليل أن شاغلي بعض المناصب القيادية في الإدارة المركزية مثل الريس أفندي ، وكاخيا بك لم يحصل أي منها على مقعد في الديوان (٢) .

وعلى الرغم من أن الاختصاص الأساسي للنشائي كان ختم الوثائق والمراسيم بالطغراء ، فقد كانت له عدة اختصاصات علمية وفنية على درجة كبيرة من الأهمية بل والخطورة . كان له حق اختيار الوثائق التي يختارها بالطغراء وتصحيحها والتأكد من مسيرتها للقوانين المعمول بها ، وتفرض عن الاختصاص الأخير حق هام هو إجراء تعديلات على الوثائق منعاً لقيام تعارض مع القوانين واللوائح حديثة الصدور (٣) . وفي ضوء هذا الحق أصبح النشائي يشبه إلى حد ما « المفتي » الذي كان من اختصاصاته أن يقرر أن الإجراء المزمع اتخاذه يتماشى مع قواعد الشريعة الإسلامية . ومن هنا كان النشائي يعتبر « مفتياً للقوانين » . ومع ذلك كان النشائي لا يستطيع تعديل النصوص إلا إذا تعلق أمراً بهذا المعنى يسمى « تصحيح فرماني » ويختمه الصدر الأعظم بنفسه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 182.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1,

(٢)

Part 1., p. 118.

Loc. cit., p. 125.

(٣)

بالطغراء منعاً لإساءة استخدام الحق المخول للنشأجي في هذا الصدد. وبعد إدخال التعديل المطلوب وحفظ التوازن المعدل في « الدفترخانة » أي دار السجلات كان النشأجي يحتفظ بالأمر الصادر له ، وهو « تصحيح فرماني » كاستناد لديه يدافع به عن نفسه إذا أثير موضوع التعديل في قابل الأيام . واستمر شاغلو هذا المنصب - النشأجية - يمارسون حق مراجعة وتصحيح الوثائق التي تقدم لهم لكي يتحموها بالطغراء حتى ألغى هذا الحق رسمياً على عهد السلطان أحمد الثالث (١) (١٧٠٣ - ١٧٣٠) . وكان من اختصاص النشأجي أيضاً ترتيب مجموعات القوانين المعروفة باسم « القانون نامات » وإعدادها للنشر .

هذه الاختصاصات الدقيقة والهامة التي أعطيت للنشأجي تطلبت أن يكون هذا الموظف على حظ موفور من العلم . وكان يتم اختياره على عهد السلطان محمد الفاتح من هيئة العلماء ، ثم عدلت الحكومة عن اختياره من هذه الهيئة واعتمدت على طبقة التولار - العبيد - في شغل منصب النشأجي . ويقول ليبير الأمريكي تعليقاً على هذا الاتجاه إن الأسباب العامة التي جعلت السلاطين يؤثرون العبيد بوظائف الهامة - الحاكمة هي التي جعلتهم يختارون منهم من يصلح لشغل منصب النشأجي (٢) .

وكان النشأجي يتمتع أول الأمر ببعض السلطة على الربس أذنتى . وتمتد هذه السلطة بالتبعية إلى السكرتارية الخاصة بالصدر الأعظم ، كما كان له نفوذ على دار السجلات وعلى رئيدها « الدفتر أميني » ، أي أمين السجل . وكانت تحفظ في تلك الدار جميع الوثائق الخاصة بالسجلات .

وكان النشأجي يعتبر في السلم الوظيفي نادياً لمدير الإدارة المسالية - الدفتردار - ويظل في هذه الوظيفة إلى أن يرقى النشأجي إلى الوزارة أو إلى الرتبة التي تليها مباشرة وهي رتبة حاكم بلاد الروم - البلقان - بكربكي الرومي . وقد أخذ مركز النشأجي في الأول في الوقت الذي ارتفع فيه مركز

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., vol. I, Part I, (١)
p. 126.

Lybyer A.H. ; op. citr, p. 186.

(٢)

الرئيس أفندى . ومرد هذا الأفول إلى سبين : أولها ازواء السلطان في أجنحة الحرم. فأضعف احتجاجه الصلة التي كانت تربط السلطان بالنشأجي. وثانيها التوسع في إنشاء علاقات دبلوماسية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية مما جعل الحاجة ماسة إلى شخصية تتفرغ للعلاقات الخارجية السياسية . وكان الصدر الأعظم يضطلع بمسائل السياسة الخارجية أول الأمر ، ثم نحل عنها للرئيس أفندى الذي قام باختصاصات تماثل الاختصاصات التي يمارسها وزراء الخارجية في الدول الأوروبية وغير الأوروبية في الوقت الحاضر . وتعددت مقابلات أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي له، وارتفع شأنه وسلطت عليه الأضواء ، وقفز إلى القمة بينما هبط مركز النشأجي هبوطاً شديداً .

الجاوش باشي :

الجاوش معناها في اللغة التركية رسول . وكان الجاوش باشي يتولى قيادة فرقة الجاوشية . وكانت تنقسم هذه الفرقة إلى خمس عشرة فصيلة يقود كلا منها ضابط . وكان قوام كل فصيلة ٤٢ رجلاً وكان أفراد هذه الفرقة يشهدون الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع كبار الموظفين ، كما كانوا يشهدون مقابلاته مع السفراء ومن إليهم من كبار الشخصيات، ويحضرون الجلسات التي تعقدها محكمة السلطان أو الصدر الأعظم وكانوا يشتركون في مواكب السلطان العامة بصفتهم جزءاً من الحرس السلطاني ، ويصحبونه حين يخرج إلى ساحات الحرب .

ولما تزايدت اختصاصات الصدر الأعظم نتيجة قيامه بمعظم مهام السلطان ، أُلحق الجاوش باشي وأفراد فرقته بخدمة الصدر الأعظم . ولذلك غلبت على الجاوش باشي صفة أحد كبار موظفي الإدارة المركزية أكثر من صفته كضابط في البلاط السلطاني . وقد ذهب دوسون المؤرخ الفرنسي إلى أنه رقى إلى رتبة وزير رسمياً على يد إبراهيم باشا الصدر الأعظم في أثناء حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) . وسواء كانت هذه الترقية قد

حدثت فعلاً أو لم تحدث على الإطلاق ، كما يقول هارولد بوون (١) ، فإن الجاوش باشى كان أعلى مرتبة من الرئيس أفندى ، كما كان يعتبر أحد نواب الصدر الأعظم والموظف الثانى فى محكمة الصدر الأعظم ويتولى تقديم السفراء له (٢) .

وفى ظل الوضع الجديد للهيكمل العام للإدارة المركزية فى الدولة تحولت رئاسة محكمة السلطان إلى الصدر الأعظم ، فأصبح الجاوش باشى تابعاً له ، بمعنى أن اتصالاته بالصدر الأعظم كانت أكثر من اتصالاته بالسلطان . وكان له دور كبير فى إجراءات المحكمة حتى وصل به الأمر إلى أنه غدا فى القرن الثامن عشر نائباً لرئيسها . وبهذه الصفة الجديدة التى أضيفت إليه كان الجاوش باشى يرأس الجلسات التحضيرية فى المحكمة توفيراً لوقت الصدر الأعظم ، فبعد ملخصاً للقضايا التى على الصدر الأعظم أن يفصل فيها ، كما كان الجاوش باشى يحيل باقى القضايا إلى المحاكم التى هى أقل درجة من محكمة الصدر الأعظم .

وكان من المهام الرئيسية للجاوش باشى تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمكيناً له من أداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، وضعت الإدارة المركزية تحت تصرفه عدداً من ضباط الإنكشارية كان يطلق عليهم محضر آغا ، عسس باشى ، صوباشى . وكانوا يتلقون الأوامر من الجاوش باشى مباشرة . وكان هؤلاء الضباط يعهد إليهم ، بالإضافة إلى هذه المهمة ، بأعمال الشرطة بوجه عام . وعلى ذلك فلم يكن الجاوش باشى مختصاً بمنع الجرائم أو المراقبة على الأمن فى العاصمة والمناطق المحيطة بها . وكانت مهمة الجاوشية الخاضعين لقيادته هى إدخال المتهمين والمدعين وأصحاب الشكاوى إلى محكمة الصدر الأعظم ، وتنفيذ الأحكام ، ونقل ملفات القضايا التى كان الصدر الأعظم يرسلها إلى المحاكم الأقل درجة للفصل فيها ، والتحفظ على الأشخاص ذوى

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I. p. 118, fn. no.2.

(٢) Lybyer A.H. ; op. cit, p. 183.

المراكز الكبيرة وبخاصة أهل العلم وحجزهم في مكاتبهم حتى ينظر في المهمة الموجهة إليهم . وكان يقوم بمهمة التحفظ عليهم أحد أفراد فرقة الجاوشية يسمى جاوشلر كاتبي .

وكان الجاوش باشي ، في النعلاق التضائى الذى كان يمارسه ، يشرف على أعمال اثنين من الموظفين يسميان التذكوجية . ويقصد بالتذكورة هنا عرائض الدعاوى المقدمة . وكان يطلق على أحد هذين الموظفين «بيوك تذكوجى» أى التذكوجى الكبير ، بينما كان يطلق على الآخر «كچوك تذكوجى» أى التذكوجى الصغير . وكانا يتناوبان مهمة قراءة الشكاوى المقدمة للصدر الأعظم ثم كتابة القرار الذى يتخذه الأخير في كل منها . وكان على هذين الموظفين أيضاً وضع الصياغة اللفظية للأوامر التى كان يصدرها الصدر الأعظم إلى الإدارات الحكومية المختلفة . وبالنسبة للمركز الوظيفى لهذين الموظفين ، جاء في القانون نامة الذى صدر على عهد السلطان محمد الفاتح أنها يتمتبان بالأسبقية على كتيبة الرئيس أفندى .

وهكذا نرى أن الجاوش باشي قد تنوعت اختصاصاته تنوعاً مذهلاً . فجمعت هذه الاختصاصات بين الطابع العسكرى والطابع القضائى . وأشرف على فئات شتى من الموظفين العسكرىين والمدنيين ، ومارس نفوذاً واسعاً في شتى مجالات الإدارة المركزية .

كاخيا بك :

كان يعتبر نائباً عاماً عن الصدر الأعظم في المسائل الداخلية والحربية ، ويعمل تحت إمرته عدد من الموظفين كانوا بمثابة حلقة اتصال بين الصدر الأعظم والموظفين القولار - أى عبيد السلطان - سواء في خدمة القصور أو في الجيش (١) . وكان كاخيا بك الصدر الأعظم في الأصل أحد الخدم الخصوصيين للصدر الأعظم ، ولم تكن له اتصالات بالإدارة المركزية . ولكن لما تزايدت أهمية الصدر الأعظم اكتسب كاخيا بك أهمية ونفوذاً ووجاهة . وأصبح

لا يشغل هذا المنصب إلا كبار موظفي الدولة . وكان يطلق عليه عدة أسماء ، منها : « وزير كاخيا بكى » تمييزاً له عن ضابط إنكشارى يحمل لقب كاخيا . وكان يطلق عليه أيضاً « أغا أندنم » أى أفندينا الأغا ، فكان يجمع بين لقبى رجال التعلم ورجال السيف . ونظراً للأهمية البالغة التى كانت لاختصاصاته فى المسائل الساخية والحربية كان لا يسمع له بأجازه فى أيام الأعياد ، بينما كان موظفو الباب العالى ينومون بالأجازه ، حتى يستطيع اتخاذ قرارات إدارية بالنيابة عن الصدر الأعظم إذا وقعت أحداث هامة أو ظهرت أزمات حائية . وكان الكاخيا بك يشرف على المكتوبى وهو المكتوبى الخاص بالناصر الأعظم (١) ، كما كان يشرف على التشرىفاتى وهو مدير المراسم . وكان لهذا الأخير عدد وفقر من المساعدين يحتفظون بسجلات مراسم البلاط السلطانى وتدون فيها الأمتيازات التى يتمتع بها كبار موظفى الدولة . وأخيراً كان للكاخيا بك سكرتيران يسمى أحدهما « كاخيا كاتى » ، أى كاتب الكاخيا ، ويشرف على المراسلات العامة وتجميع حصيلة الرسوم الخاصة به . وبالصدر الأعظم . ويسمى الآخر « قره قولاق » أى الأذن السوداء . وانحصرت مهمة هذا السكرتير فى القيام على المراسلات المتبادلة بين الصدر الأعظم وكاخيا بك .

ويتخذ أحد المؤرخين من نظام تناول الكاخيا بك الطعام دليلاً على خصوصه لصدر الأعظم ، فيقول إنه - أى الكاخيا بك - والمكتوبى والتشرىفاتى كانوا يتناولون الطعام يوماً معاً وبمفردهم ، وأن هذا النظام ظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر فى حين كان الجاوش باشى والريس أفندى يأكلان على مائدة الصدر الأعظم . ومع ذلك فقد كان هؤلاء الموظفون الخمسة من كبار الموظفين (٢) .

(١) يصفه ليزر بأنه سكرتير الخاص لصدر الأعظم . المرجع السابق ص ١٨٤ ، بينما يقول عنه بوروب أنه سكرتير انعام لصدر الأعظم .

نصر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part I, p. 120.

Loc. cit., p. 121.

(٢)

وكان الكاخيا بك والمكتوبجي والتشريفنا نمجي يعتمدون في دخلهم على النصيب الذى يتقاضاه كل منهم من الهدايا التى يقدمها إلى الصدر الأعظم أصحاب المناصب الحكومية عند تعيينهم فيها (١). كما أن هؤلاء الموظفين الثلاثة كانوا يتناولون وجبات الطعام يومياً من مطابخ الصدر الأعظم. وكان الكاخيا بك يعتبر من أصحاب الدخول الكبيرة. وحاول كثيرون من شغلوا هذا المنصب في الأوقات المتأخرة تجميع ثروات ضخمة في أثناء توليهم هذا المنصب.

الباش دفتردار :

سبق أن تكلمنا عن الدفتردار واختصاصاته التى كان يمارسها في النطاق المحلى كرئيس للإدارة المالية في مصر إبان الحكم العثماني عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢). وقلنا إنه كان رئيس الديوان الدفتري في مصر. وقد أنشأت الدولة أول الأمر وظيفتين شغل إحداهما دفتردار اختص بالشئون المسالية للأناضول ويسمى « دفتردار أناضولى » ، وشغل الأخرى دفتردار شمل اختصاصه بلاد البلقان وبقية الأقاليم الأوروبية التى خضعت للسيادة العثمانية ويسمى « دفتردار الروملى » . وكان أعلى مركزاً من سابقه. وأطلق عليه الباش دفتردار . وعلى عهد الفتوح العثمانية الكبرى في القرن السادس عشر أنشئت على عهد السلطان سليم الأول وظيفة ثالثة يشغلها دفتردار امتدت اختصاصاته فشملت سوريا ومصر وديار بكر . ثم أنشئت على عهد السلطان سليمان المشرع وظيفة رابعة لدفتردار شملت اختصاصاته ولاية الحجز ومنطقة الدانوب (٣). ولما فقدت الدولة إقليم الحجز في أواخر القرن السابع عشر ألغيت الدفتردار لئى الخاصة بالحجز ، ومع ذلك أصبح دفتردار الروملى . وهو الباش دفتردار - يتولى المسئولية عن السياسة المالية للدولة كلها .

Loc. cit.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٨ ، ساحة رقم ٢ في هذه الدراسة .

D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit.; t. VII, p. 261.

(٣)

Lybyer A. H. ; op. cit., p. 168.

وكان الدفتردار يحتفظ بالدفاتر أو السجلات التي تبين الموارد المالية للدولة سواء كانت هذه الموارد أموالاً سائلة أو عينية ، ومقدار الأموال المتحصلة والمنتظر إنفاقها ، والفائض والاحتياطي ، وكيفية الحصول على موارد مالية أخرى حين يطرأ عجز على موازنة الحكومة . وكان للدفتردار سكرتارية فنية خاصة به تسمى « مالية قلمي » . كما كان يعمل تحت إدارته عدد كبير من الموظفين المتخصصين في الشؤون المالية . وكانت تتبعه محكمة تفصل في المنازعات التي تقوم بين الحكومة والأفراد فيما يتعلق بالمسائل المالية .

وكانت رتبة الدفتردار باشا تعادل رتبة النشائي باشا . وكان يلي الصلر الأعظم باستثناء وزراء القبة وكبار رجال الهيئة الإسلامية . وكان الدفتردار هو الموظف الوحيد في الإدارة الذي يتمتع بحق تقديم العرائض بنفسه إلى السلطان . وكان لا يشاركه في هذه الميزة سوى « قضاة العسكر » أي روساء القضاة ورئيس الخصبان .

وقد جاء في مقدمة قانون نامه الذي أصدره السلطان محمد الفاتح أن الدفتردار هو القسيم على أملاك السلطان . وكان له الحق في حمل الطغراء واستخدامها في فرمانات - أي المراسم - المتعلقة بالشؤون المالية . وكان هذا الحق أساساً للنشائي ، ثم منح هذا الحق بصورة جزئية للدفتردار في الشؤون المالية ، ومنح أيضاً لروساء القضاة في القرارات المبنية على قواعد الشريعة الإسلامية .

وهناك تشبيه للدولة العثمانية مستمد من البيئة الروحية - الإستبس - التي كانت المهاد الأولى للأتراك العثمانيين . فيقال إن الدولة العثمانية كانت بمثابة خيمة نصبت على الأرض ، وشدت بحبال مربوطة بأربعة أوتاد مثبتة في الأرض . وكانت هذه الأوتاد الأربعة في حالة الدولة العثمانية هي الدعائم التي استندت إليها : الصلر الأعظم والوزراء ، قضاة العسكر ، مجموعة الدفتردارين ، (م ٢٥ - الدولة العثمانية)

والنشايجى (١) .

الدفتـر أمينى :

كان يشرف على الدفتـر خانة ، وهى دار السجلات . وكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام . ويطلق على القسم الأول « إجمال » وتحفظ فيه الوثائق التى توضح توضيحاً دقيقاً حدود كل ولاية من ولايات الدولة وأقسامها ، وكذلك حدود كل الإقطاعات . ويسمى القسم الثانى « مفصل » أى السجل المفصل وتحفظ فيه وثائق ومستندات مشابهة ، ولكن تتعلق بالملكيات الخاصة Private Property، وهى تقابل فى الوقت الحاضر فى مصر سجلات مصلحة الشهر العقارى . أما القسم الثالث فيسمى « روزنامة » . وقد سبق أن شرحنا مدلول هذه الكلمة عندما تعرضنا لنظام الالتزام (٢) . وكانت الـروزنامة فى هذا المقام العام تخصص بتسجيل التغييرات التى تطرأ على عمليات نقل الإقطاعات من شخص إلى آخر .

وكانت الفرص مهياة أمام الدفتـر أمينى للترقية إلى منصب الدفتـر دار الذى كان الطريق أمامه مهيداً للترقية إلى مرتبة وزير .

تشكيل الديوان :

كان يتكون الديوان من :

١ - الصدر الأعظم رئيساً .

٢ - الوزراء وكان يختلف عددهم بالزيادة من عصر إلى آخر .

٣ - قاضى عسكر الأناضول . وقاضى عسكر معناها كبير القضاة أو قاضى القضاة .

٤ - قاضى عسكر الروم إلى أى بلاد البلقان وأوروبا .

Lavisse et Rambaud; op cit., t. IV, p. 753.

(١)

(٢) انظر ص ١٤٧ حاشية رقم ٣ فى هذه الدراسة .

- ٥ - قاضى عسكر عن إفريقية . وقد ظفر هذا القاضى بعضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية فى إفريقية فى القرن السادس عشر .
- ٦ - دفتردار الروم إيلى وهو الهاش دفتردار .
- ٧ - دفتردار الأناضول .
- ٨ - دفتردار ثالث أضيف إلى عضوية الديوان بعد الفتوح العثمانية فى العالم الإسلامى .
- ٩ - قائد فيالق الإنكشارية بصفته ممثلاً للجيش .
- ١٠ - قبودان باشا - قائد الأسطول البحرى - بصفته ممثلاً للسلاح البحرى بالتعبير العسكرى الحديث .
- ١١ - النشاجى باشا .

وكان يحضر جلسات الديوان عدد من المساعدين من ذوى الخبرة فى شتى المسائل . كان بعضهم يجلس على الأرض فى قاعة الاجتماع ، والبعض الثانى يظل واقفاً ، والبعض الثالث يجلس فى غرف مجاورة لقاعة الاجتماع للدخول إلى قاعة الاجتماع إذا استدعاهم رئيس الديوان للاستماع إلى رأيهم الفنى فى مسألة مطروحة على الديوان .

ويتضح من هذا التشكيل أن عضوية الديوان لم تكن مقصورة على كبار موظفى الهيئة العامة من طبقة القولار - عبيد السلطان - بل كانت الهيئة الإسلامية ممثلة فى الديوان عن طريق رؤساء القضاة الذين كان يطلق عليهم قضاة العسكر . ويتضح أيضاً من هذا التشكيل الخطأ الذى يقع فيه بعض الباحثين حين يقررون أن الديوان فى الدولة العثمانية كان هو مجلس الوزراء بمعناه المتعارف عليه فى التاريخ المعاصر ، وهو خطأ مادى لا يتحمل اختلافاً فى وجهات النظر .

جلسات الديوان زمن السلم :

وكان الديوان زمن السلم يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع .

هى السبت والأحد والإثنين والثلاثاء . وفى خلال شهر رمضان كان يتوقف عقد الجلسات . وكان الديوان يعقد جلساته مند الضحوة حتى وقت الأصيل ، فكان الاجتماع يستغرق وقتاً يتراوح بين سبع ساعات وثمانى ساعات . ويتخلل الاجتماع فترة وتعبها فترة أخرى عند نهاية الاجتماع . وتخصص الفترتان لتناول الطعام الذى كانت تقدمه الدولة لأعضاء الديوان وغيرهم من الموظفين الذين تقتضى طبيعة عملهم أن يظلوا على مقربة من الأعضاء لتقديم البيانات أو الإيضاحات وما إلى ذلك . وكانت الدولة تستقطع نسبة معينة من مرتبات جميع أعضاء الديوان وموظفيه والحرس ومن إلبهم قيمة جزء من تكاليف الطعام الذى تقدمه لهم على مدار السنة ، وكان يتكون من اللحم والخبز والأرز والفاكهة (١) .

اجتماعات الديوان أيام الحرب :

وفى زمن الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته فى خيمة الصدر الأعظم التى تقام على مقربة من حريم السلطان . ولما كان كبار الموظفين فى الدولة يصبحون السلطان إلى ساحات القتال ، فإن إجراءات عقد الديوان تكون مماثلة تقريباً للنظام المتبع فى إستانبول . أما إذا كان السلطان متغيباً عن العاصمة فى رحلة ومعه الصدر الأعظم ، فإن الديوان يعقد اجتماعاته يومى السبت والأحد فقط . ويحضر هذه الاجتماعات العدد القليل من كبار الموظفين أو أركان الدولة الذين يظلمون فى العاصمة . وفى حالة الضرورة فى زمن الحرب أو فى حالة طوارئ خطيرة كان أعضاء الديوان يجتمعون وهم على ظهور الخيل ، وهى عادة قديمة درجت عليها الدولة العثمانية حيناً من الدهر وهى لا تزال فى مرحلة الإمارة ، وكانت تعتمد فى تصريف شئونها على النظم القبيلية . فكان يعقد وقتذاك مجلس عام يضم جميع رؤساء الدوائر فى الإمارة أو الدولة الوليدة ، ويجتمعون وهم على ظهور الخيل ، ويبحثون الموضوعات الهامة مثل خوض الحرب أو تقرير السلم . ويرى بعض المؤرخين أن هذا

Lybyer A.H., op. cit., p. 190.

المجلس كان نواة نظام الديوان ، أى أن الديوان هو نظام متطور بتطور الدولة نتيجة نموها السريع واتساعها الإقليمي وتشعب مصالحها .

لماذا تخلى السلاطين عن رياسة الديوان ؟

قلنا إن السلاطين كانوا يحرصون أول الأمر على حضور جلسات الديوان ثم أوقف السلطان سليمان المشرع هذا التقليد (١) . وأتاب عنه الصدر الأعظم واكتفى بالاستماع إلى المناقشات التى تنور فى الاجتماع ، وذلك من وراء ستار أو من نافذة تطل على قاعة الاجتماع . وقد حمل بعض المؤرخين ، وكان من بينهم كوشى بك Kochi الفيلسوف التركى ، على السلطان سليمان تخلفه عن حضور اجتماعات الديوان . وبخاصة بعد أن اتخذ خلفاؤه سلاطين الفترة الثانية هذا التغيب عن جلسات الديوان تقليداً التزموا به بعد أن اعتزل معظمهم الحياة العامة واحتججوا فى أجنحة الحرم بالقصور السلطانية واستناموا إلى حياة الدعة أو لإشباع شهواتهم مع النساء أو تعاطى الخمر حتى أطلق على بعضهم اسم السكر وما إلى ذلك من صور المتعة التى انغمسوا فيها ، فلم يرتفعوا إلى مستوى سلاطين الفترة الأولى . ويعزو هذا الفريق من المؤرخين اضمحلال الدولة إلى ذلك التقليد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين مثل ليبير الأمريكى أنه كان لامناص أمام السلطان سليمان المشرع من التخلف عن حضور جلسات الديوان الذى كان يعقد أربع جلسات أسبوعية تستغرق كل جلسة اليوم بطوله مما كان يصرفه عن التفرغ للمهام أخرى كانت تراكم أمامه . وكان حكمه حافلاً بمجالات الأعمال الحربية والإنجازات التشريعية والإدارية وغيرها . ويقول ذلك المؤرخ الأمريكى دفاعاً عن السلطان سليمان أو تبريراً لتصرفه إن أعضاء الديوان كانوا يتناقشون ويتصرون وكان السلطان سليمان مائل أمامهم . وقد حدث فى إحدى المرات أن أمر هذا السلطان

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 188.

(١)

ويقرر برون أن السلطان الذى استن هذا التقليد هو السلطان محمد الفاتح حين تقدم له أحد الرعايا بشكوى وكان نازلاً ، ولم يظهر الاحترام نحو السلطان

انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vo. 1, Part 1, p. 116.

بإعدام حشمت باشا الصدر الأعظم بعد أن استمع بطريقته الخاصة إلى مناقشاته في الديوان . واستعاض السلطان سليمان عن حضور جلسات الديوان باستقبال أعضائه عند انتهاء الاجتماع ويعرض عليه الصدر الأعظم القرارات التي اتخذها الديوان في ذلك اليوم فيوافق عليها أو يطلب إدخال تعديلات عليها . وكان في أحيان أخرى يميل بنفسه رداً على رسالة بعث بها أحد السفراء الأجانب .

نظام الحضور والدخول والجلوس في الديوان :

وكان حضور أعضاء الديوان إلى مقر الاجتماع ودخولهم إليه وجلوسهم وانصرافهم كل أولئك يخضع لنظام دقيق . كانوا يصلون مبكرين إلى مقر الديوان ليكثروا في استقبال الصدر الأعظم الذي يصل محاطاً بحاشيته . ويقفون في صفين متقابلين لاستقباله . ويمر الصدر الأعظم بين الصفين ، ثم يسير خلفه الأعضاء وفقاً لترتيب ونظام موضوعين . وكان الصدر الأعظم يجلس - طبقاً للطريقة التركية العثمانية - وسط أريكة طويلة تمتد حول ثلاثة جوانب من قاعة الاجتماع . وتأخذ الأريكة شكل حرف U فإذا استوى على الأريكة جالس إلى يمينه الوزراء ثم كل من باشا الأناضول وباشا البلقان ثم ويس الإنكشارية ثم قيودان باشا ، وفي نهاية طرف الأريكة يجلس النشائي باشا ويجلس إلى يسار الصدر الأعظم وقضاة العسكر الثلاثة ثم الدفردارون الثلاثة وكبير المترجمين . ويجلس على الأرض الرئيس أفندي ، كما يحضر اجتماع الديوان كل من التدكرجي ويتولى قراءة الشكاوى المقدمة إلى الديوان ، وقاچيچيلر كخياسى Kapujilar kiayasi ويتعته المؤرخ بوبون بأنه مفتش حراس البوابات (١) بينما يقول عته لبيبر إنه كبير الياوران (٢) . أما الموظفون الذين

(١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part I, p. 83.

(٢) Lybyer A.H; op. cit., p. 190.

وبلاحظ أن الياوران جمع باور . وفي الله التركية إذا أضيف حرفا الألف والون إلى نهاية الاسم اكتسب هذا الاسم صيغة الجمع ، مثل المستحفظان أى رجال الحفظ ، والمبتدئان أى المبتدئين .

قد يحتاج إليهم أعضاء الديوان فينتظرون في غرف مجاورة ، بينما يقف الحرس وأفراد الحاشية على مسافات متقاربة خارج ودخل الردهة. وقد يحتاج الديوان في أثناء الجلسة إلى الاستئارة بأراء بعض المختصين . فكان يستدعى بعض قادة الجيش أو كبار موظفي الدولة المدنيين للاستماع إلى آرائهم . ولهذا الغرض كانت توجد في غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع مجموعة من العسكريين على أهبة الاستعداد للتحرك السريع لاستدعاء من يرى الديوان حاجة إلى حضورهم . وعند ما يبدأ الديوان النظر في المسائل القضائية كان يبوك تذكري ، أى التذكري الكبير ، يقف أمام الصدر الأعظم ويتولى قراءة الشكاوى والعرائض المقدمة للديوان للمصل فيها ، ثم يكتب القرار الذي يتخذه الديوان في شأن كل عريضة أو شكوى .

وكان في مقلود أى فرد من رعايا الدولة أن يتقدم بشخصه إلى الديوان عارضاً مظلته فينظرها الصدر الأعظم مستعيناً بقضاة العسكر وبعض الموظفين المختصين . وكان في بعض الأحيان يحيلها إلى الجهة المختصة لدراستها ولكن أدى طول الوقت الذى كانت تستغرقه الاجتماعات الأربعة التى كان يعقدها الديوان أسبوعياً ، وازدحام جدول أعماله بالعديد من المسائل المتنوعة إلى استبعاد المسائل الفردية وتخصيص وقته لبحث المسائل العامة (١) .

اختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة :

انتقلت إلى الديوان اختصاصات المحكمة العليا التى كان يرأسها السلطان من قبل ، لأن الصدر الأعظم كان قد حصل على تفويض عام من السلطان بحكم بقلد الأخير وظيفة الإمامة . وتأسيساً على هذا التفويض كان الصدر الأعظم يتولى القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة قضاة الشريعة بعد أن تم تطعيم الديوان بأكبر العناصر القضائية التى تمثل الشريعة الإسلامية . وكانت الكلمة العليا في هذا المجال لولاة القضاة الكبار بحكم ثقافتهم وتعمقهم في مسائل الشريعة ، أو وفقاً للمصطلح الحديث لأنهم كانوا من أهل الخبرة . ولكن لما

(١) انظر تفصيلات وافية عن الديوان في :

كان الصدر الأعظم أعلى من القضاة في السلم الوظيفي بحكم منصبه ، كانت الأحكام والتصرف في القضايا تصدر عنه من الناحية الشكلية . وهكذا أصبح من اختصاصات الديوان النظر في المسائل القضائية ، أى تطبيق القانون من ناحية ، والنظر في المسائل الإدارية من ناحية أخرى . ووبرر المؤرخ الأمريكي ليبير اختصاصات الديوان فيقول إنه طالما كان القانون في الدولة العثمانية موضوعاً ومحددأ ، وطالما كان أى تشريع يصدر عن الدولة يركز حول شخص واحد هو السلطان ، فإن مجال المناقشات وتبادل الآراء يكون مقصوراً على المسائل الإدارية والقضائية (١) . وهذا التبرير لا يصور الحقيقة كلها فيما يتصل باختصاصات الديوان ودوره في حكم الدولة . وسرى أنه عاد بعد ذلك فأعطى للديوان أبعاده الحقيقية سواء من ناحية اختصاصاته أو دوره الفعال في إيجاد رقابة دقيقة ومحكمة على أعمال الحكومة سواء في الإدارة المركزية أو في الولايات العثمانية .

لم يكن الديوان هيئة تشريعية تضع التشريعات للدولة ، ولكنه كان هيئة تجمع بين سمات الوزارة Cabinet ومحكمة عليا Court Suprême ويقول أحد رجال القانون - وهو هايدبورن - في تعليقه لذلك الديوان إنه كان نوعاً من مجلس الدولة نوقشت فيه المسائل السياسية الهامة ، وفي ذات الوقت كان بمثابة محكمة عليا خولت الحق في أن تنقل أمامها كل قضية وأن تنظر في القضايا بين العثمانيين والأجانب والتي تزيد قيمة المبالغ المتنازع عليها على ثلاثة الآف أسبر .

Le divan était à la fois une sorte de Conseil d'Etat, où se discutaient les affaires politiques importantes, et une Cour suprême autocrisée à évoquer tout litige devant elle et à connaître notamment des procès entre Ottomans et étrangers qui dépassaient la valeur de 3000 aspres. (٢)

أما المؤرخ الأمريكي ليبير فيعلق على اختصاصات الديوان وعلى الدور

Lybber A.H.; op. cit., p. 187.

(١)

Heidborh A. ; Manuel de Droit Public et Administratif de l'Empire Ottoman. Vienne, 1909, p. 141.

(٢)

الذى قام به في إدارة شؤون الإمبراطورية العثمانية تعليقاً قال فيه إنه على الرغم من أن هذا الديوان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا إلا إنه لم تكن هناك أوجه للشبه بين الديوان وهاتين الهيئتين . كان رئيس الديوان هو الصدر الأعظم ، وهو معين بفرمان سلطاني . وكانت موافقة السلطان على قرارات الديوان أمراً ضرورياً حتى تكتسب القرارات الصيغة القانونية وتأخذ طريقها إلى التنفيذ . ولا يحضر السلطان جلسات الديوان . وكل عضو فيه مسئول أمام السلطان . ولم تكن هذه المسئولية محصورة في تصرفات العضو فحسب ، بل في حسن سلوكه وإلا كان جزاؤه الإعدام (١) . وفي ذات الوقت كان الديوان أعلى محكمة في الإمبراطورية كلها ، وهي محكمة من طراز فريد . فليست لها اختصاصات محكمة الاستئناف أو حتى محكمة أول درجة ، أى المحاكم الابتدائية . وكان لا يدخل في اختصاصات محكمة الديوان مناقشة شرعية القوانين ، ومع ذلك فإن الديوان كمحكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التي ترفع إليه من أى جزء من أجزاء الإمبراطورية ، ونجم عن ذلك أن سلطته القضائية لم تكن مقيدة . ولكن من ناحية أخرى لا تصبح أحكامه القضائية نهائية إلا بعد موافقة السلطان عليها . ويمضي ذلك المؤرخ الأمريكي في تعليقه فيقول إنه على الرغم من أوجه القصور التي تؤخذ على نظامه واختصاصاته ، فقد كان الديوان ذا فائدة كبرى للحكومة العثمانية . كان الديوان أدنى درجة من السلطان ، ولكنه كان يعلو جميع الهيئات في الدولة . سواء الهيئة الحاكمة من طبقة العبيد - الفولار - أو الهيئة الإسلامية . وكان يربط بينها بحكم وجود أعضاء فيه يمثلون هاتين الهيئتين . ويلتقى بها في شخص السلطان الذي هو رأس الهيئتين . وكان الديوان بمثابة المحور الذي تدور حوله كل الوحدات المتنوعة في الحكومة العثمانية ، وهي حكومة ذات حكم مطلق . وفي رحاب الديوان كان يجتمع أكثر رجال الدولة كفاية ومقدرة وخبرة .

(١) كان هذا الجزء لايسرى على قضاة السكر الأصحاء في الديوان بحكم أنهم كانوا أحراراً ولم يكونوا من طبقة الفولار - عبيد السلطان - وكان الأخير يملك إعدامهم بدون مسائلة .

ويقع الاختيار على كل عضو فيه بعد عملية دقيقة تمر في عدة مراحل . وأعطت الدولة كلا منهم مستوليات ضخمة ومنحتهم سلطات واسعة كى ينفذوا بدون إبطاء ، في النطاق المحدد لكل منهم ، القرارات التي تصدر عن الديوان ويوافق عليها السلطان . فالديوان كان يسار ويدعم بطريقة بارعة وممتازة النظام العثماني العام للإدارة المركزية في الدولة . وبفضل الديوان كان في استطاعة الحاكم بأقل جهد ممكن أن تكون رفايته على كل جزء في الإمبراطورية رقابة دقيقة ومحكمة عن طريق حكام على قدر كبير من اللكاء والمقدرة ، وكانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة هي مزيج من المشاعر التي تمثل في العرفان بالجميل والمصلحة الذاتية والتطلع إلى مزيد من الترقيات والحرف من بطشه . وفضلا عن ذلك كان الديوان بمثابة مدرسة تدريب فيها القضاة ورجال الإدارة ورجال الحكم ، كما كان مجالا لتنمية معلوماتهم وزيادة تجاربهم . وكلما كانت حصيلتهم من هسله وتلك كبيرة أتاحت لهم عديد الفرص للترقية إلى وظائف أعلى . فالصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان يتصل بهم اتصالا مباشراً ومستمرأ أربع مرات في الأسبوع . والسلطان على مقرية منهم يتابع نواحي نشاطهم . وفي يد الإثنين : السلطان والصدر الأعظم سلطة ترقيتهم . وفوق هذا كله ، لم يكن الديوان مجرداً من أى نفوذ على التشريع . فالقوانين كانت تصدر بإسم السلطان وبعد موافقة النهائية عليها . ولكن المادة القانونية التي تضمنتها هذه القوانين قد اشترك في إعدادها أعضاء الديوان ، وهم الذين قاموا بمعاونة مساعديهم بوضع الصياغة القانونية لهذه القوانين . ولكل هذه الاختصاصات والأسباب وغيرها كان الديوان ، برياسة الصدر الأعظم ، وهو يراقب الإدارة ويفصل في القضايا الهامة ويترك بصانته في مجال التشريع ، يحكم الدولة العثمانية نيابة عن السلطان ومن أجله ولمصلحته (١) .

نخلص من هذه الآراء السياسية والقانونية التي بسطناها لباحثين أحدهما نساوى والآخر أمريكي إلى أنه إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية

والإدارية في الدولة قد تركزت في يد السلطان ، فإن لإنشاء الديوان الهياويل أو الإمبراطورى لايغنى أن هذا الجهاز قد سلب اختصاصات السلطان أو جزءاً منها ، إذ لم يكن للديوان سلطة قطعية في المسائل التى تعرض عليه أو فى القرارات التى تصدر عنه ، لأن موافقة السلطان عليها كانت شرطاً أساسياً *Sine quanon* لتنفيذها . ولم يكن أعضاء الديوان سوى موظفين اقتصرت مهمتهم على بحث المسائل أولاً ، ثم تحضير القرارات ثانياً ، ثم تنفيذها ثالثاً إذا أقرها السلطان . وكان إنشاء الديوان ضرورة أملاها اتساع الدولة ، وتزاحم المشكلات بشئ أنواعها، والتوسع فى إلتناء مناصب جديدة وعدد من أجهزة الحكم، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم التى فتحت، وما استتبع ذلك من زيادة عدد الهيئات الحكومية وأردياد عدد الموظفين .



الفصل الرابع عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٣)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

الهيئة الإسلامية والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

كانت الدولة العثمانية تضم بين رعاياها فريقين من المسلمين . ويطلق على الفريق الأول القولار . كانوا في نشأتهم الأولى مسيحيين انتزعتهم الدولة وهم في سن غضة من آباؤهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الإسلام، وهيأت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً، وجعلت منهم أدوات للحرب والحكم ، ولكنهم كانوا عبيداً للسلطان ، ومن ثم أصبح وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي : من حيث لأمر الواقع مسلمين عبيداً. ويطلق على الفريق الثاني ، وهو خارج عن نطاق الفريق الأول ، الهيئة الإسلامية . وكانت هذه الهيئة تضم جميع رعايا الدولة المسلمين الأحرار بما انضم إليهم من مسيحيين اعتنقوا الإسلام طوعاً فأصبحوا بدورهم مسلمين أحرارا . وكان هؤلاء الأخيرون قلة عديدة نسبياً، ولكنهم كانوا مع أقرانهم أفراد الطائفة الأولى الذين جاءوا من عائلات إسلامية يشكلون نسبة عديدة كبيرة جداً بالنسبة لفريق القولار . وبذلك كان رعايا الدولة المسلمون طائفتين :

١ - المسلمين العبيد ويطلق عليهم القولار .

٢ - المسلمين الأحرار ويطلق عليهم الهيئة الإسلامية .

وأفراد الهيئة الإسلامية متساوون جميعاً ، وهيأت لهم الدولة مبدأ تكافؤ الفرص ، بمعنى أن الذين حصلوا منهم على قسط وافر من التعليم في علوم الشريعة وأصول الدين وما يتصل بها من دراسات كانوا يشغلون شتى المناصب في سلك القضاء والإفتاء والتدريس وما إلى ذلك . وكانوا يتدرجون

في هذه المناصب حتى يصلوا إلى أعلاها ، وكان من بينها منصب المفتي الذي أطلق على شاغله فيما بعد شيخ الإسلام . وكانت أمنية كل والد ينتمى إلى الهيئة الإسلامية أن يرى ابنه يتدرج في سلك تلك المناصب حتى يصل إلى أعلى درجاتها . أما أفراد الهيئة الإسلامية الذين لم يصلوا في تعليمهم إلى نهاية الشوط ، فكانوا يشغلون المناصب الصغرى في القطاع الديني وفي وظائفه الإدارية التي تتفق مع حجم التعليم الذي حصلوا عليه . فكان الباب مفتوحاً أمام الجميع ولا يشترط سوى معيار الكفاية والذي يتمثل في حجم حصيلته من العلم . فالفكرة قامت على أساس ديمقراطي : المساواة وتكافؤ القصر . وقد أطلق على أفراد الهيئة الإسلامية الذين تلقوا تعليماً دينياً أياً كان حجمه وشغلوا مناصب القطاع الديني : الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أو The Religious Islamic Ruling Institution كما اصطلاح على تسميتهم المؤرخون والباحثون . وهذه الهيئة هي موضوع دراستنا في هذا الفصل .

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمنظمات المسيحية :

وتختلف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في الدولة العثمانية في طبيعتها وتكوينها عن جميع المنظمات الدينية المسيحية في أوروبا . فالدين الإسلامي لا يعترف بوجود طبقة دينية. كما يطلق عليها في الغرب الكهنوت وما إلى ذلك من مسميات . والإسلام يتميز بالبساطة وابتعد عن التعقيدات ، ولا يقيم وسيطاً بين العبد وخالقه . ويقول سبحانه وتعالى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » (١) . وقد اختلط الأمر على البعض فأصبحوا يتكلمون عن وجود طبقة في الإسلام أطلقوا عليها اسم طبقة رجال الدين. والحق أنه لا توجد مثل هذه الطبقة في الإسلام ، بل يوجد أفراد تفقهوا في الدين أى تفقهوا بثقافة دينية عميقة واسعة سواء في علوم أصول الدين أو علوم الشريعة وما يتصل بها . والاسم الصحيح لهم هو علماء الدين ، ولكنهم لا يشكلون طبقة خاصة بهم . والإسلام لا يعترف بالأرستقراطية الدينية ، أو الرهبانية ، أو الطبقة الدينية

(١) سورة البقرة ، آية رقم ١٨٦ .

مثل الكرادلة ، والأساقفة ، والقسيسين ومن إليهم . وفي ظل هذه النظرة الإسلامية السمحة يستطيع أى مسلم بالغ ملم بأصول الدين أن يؤذن للصلاة ، أو يلقي خطب الجمعة والعيد ، أو يؤم المصلين ، أو يصلي على ميت أو غير ذلك من الأعمال التى تتصل بإقامة الشعائر الدينية . ولا يشترط الإسلام مكاناً معيناً لأداء مثل هذه الشعائر ، ولا يشترط شخصاً معيناً يقوم بها بحيث يكون أداؤها باطلاً إذا قام بها شخص عادى .

تشكيل الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة :

إذا كان السلطان هو رئيس الهيئة الإسلامية بمدلولها العام والخاص ، فإن شيخ الإسلام كان الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والمهيمن عليها . وكانت هذه الهيئة تضم أربعة عناصر :

١ - شيخ الإسلام .

٢ - القضاة بمختلف فئاتهم ودرجاتهم .

٣ - المفتون .

٤ - أساتذة الشريعة وأصول الدين .

٥ - هيئات التدريس فى المدارس الإسلامية .

٦ - ويلحق بالهيئة الدينية الإسلامية الإدارية فى القطاع الدينى . وكان مستواهم العلمى لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً .

شيخ الإسلام

كان يطلق على شيخ الإسلام أول الأمر مفتى العاصمة ، وأحياناً المفتى الأكبر . وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية . كان الصدر الأعظم والوزراء ، وفى بعض الأحيان السلطان نفسه ، يلتمسون رأيه فى بعض المسائل الهامة ، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل إقرارها بصفة نهائية . ويطلبون منه الرأى فى مدى مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . وكان مجال

إلى شيخ الإسلام القضايا الجنائية التي يرى القاضي الحكم فيها بإعدام المتهم أو المتهمين فيها قبل إصدار الحكم بإعدامهم . وهو إجراء كان يستهدف الإطمئنان إلى سلامة إجراءات التحقيق والمحاكمة وتوفير الأدلة على ثبوت التهمة . وكان هناك نوع ثالث من الاختصاصات على درجة قصوى من الأهمية بل والخطورة يباشرها شيخ الإسلام بإصدار فتاوى ذات طابع سيماسي ، وتتناول موضوعات تتصل بالسياسة العليا للدولة . كان السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الإسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين ، بل إن هذه الحرب لها أسبابها القوية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية . وكان شيخ الإسلام يوفد الوعاظ إلى سائر أنحاء الدولة يعلنون أن الحرب المقدمة عليها الدولة هي حرب دينية ، وأن الجاهير يجب أن تقف صفاً واحداً تؤيد قلباً وقلباً الجيش وهو يخوض الحرب ، ومنها أيضاً الفتاوى التي تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها ، وكذلك الفتاوى التي تجيز عزل السلطان الحاكم لسبب أو لآخر . وكانت الحالة الأخيرة هي قمة الاختصاصات التي كان يباشرها شيخ الإسلام . وقد ذكرنا من قبل أمثلة لبعض أنواع هذه الفتاوى وسنشير إلى أمثلة لاختصاصاته الأخيرة سواء في مجال السياسة العليا أو في عزل السلاطين بعد أن نشرح الملابس التي أحاطت بتغيير لقبه من المفتي إلى شيخ الإسلام ، ثم مركزه في البروتوكول العثماني .

إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتي العاصمة :

وتقدراً للمسئوليات الجسام التي كان يضطلع بها مفتي العاصمة أو المفتي الأكبر، رأت الدولة أن تميزه عن سائر زملائه رجال الإفتاء الذين كانوا يعملون في معظم الأقاليم والمدن الكبرى في أنحاء الإمبراطورية ، وكان عددهم يصل إلى قرابة مائتي مفتياً ، فأطلقت على مفتي العاصمة لقب « شيخ الإسلام » فأصبح هو الرئيس الفعلي للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة *de facto* وإن ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية *de jure*

وقد وقع خلاف كبير بين المؤرخين والباحثين حول تحديد الوقت الذي

أطلق فيه على مفتى العاصمة هذا اللقب . فبرى أحدهم وهو قانونى تمساوى
يسمى هايدبورن (١) Heidborn أن السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١) هو
أول من أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى أدرنة التى كانت عاصمة الدولة
وقتهاك، وأن خلفه السلطان محمد الثانى أمر بنقل مقر شيخ الإسلام إلى القسطنطينية
بعده فتحها وبعد أن اتخذها عاصمة جديدة للدولة ، وأنه أطلق عليه لقباً
جديداً هو رئيس العلماء (٢) . ويرى فريق من المؤرخين على رأسهم دوسون
D'Oshson الفرنسى (٣) وليبير Lybber الأمريكى (٤) أن السلطان محمد الثانى
(١٤٥١-١٤٨١) هو الذى أطلق لقب شيخ الإسلام على مفتى القسطنطينية
بعد أن فتحها . ويرى فريق ثالث منهم جب وبون Gibb and Bowen
الإنجليزيان (٥) أن السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) هو صاحب
التسمية ، وأخيراً ذهب أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد جميل بيهم ، إلى
أن إطلاق لقب شيخ الإسلام على مفتى إستانبول قد حدث فى عصر متأخر
يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . ويضيف إلى ذلك قوله إن السلطان
محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) هو الذى أطلق لقب شيخ الإسلام على
مفتى إستانبول . وكان ذلك فى سنة ١٧٤١ م الموافقة لسنة ١١٥٤ هـ (٦) .

Heidborn, A. ; op. cit., p. 215.

(١)

(٢) فى قانون نامه الذى صدر على عهد السلطان محمد الثانى أخير إلى شيخ الإسلام بأنه

رئيس العلماء .

(٣) D'Oshson Ignatius Mouradgea ; op. cit., t. IV, p. 500.

(٤) Lybber A.H. ; op. cit., p. 208.

(٥)

(٥) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I,

part II, p. 84.

(٦) أنظر كتابه :

— فلسفة التاريخ العثمانى . كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية وإلى أى حد بلغت عظمتها .

—

بيروت ، فراير (شباط) ١٩٢٥ ، ص ٢٩٨ .

وهو رأى ضعيف لا تؤيده الشواهد التاريخية ، وكذلك الرأى القائل بأن السلطان مراد الثانى هو أول من أطلق ذلك اللقب على مفتى العاصمة . بقى بعد ذلك الرأىان الآخران المنسوبان إلى السلطان محمد الثانى ، وإلى السلطان سليمان المشرع . والرأى الأذى إلى الحقيقة منهما هو أن السلطان محمد الثانى هو الذى استحدث لقب شيخ الإسلام فى تاريخ الدولة العثمانية ، فإنه بعد أن فتح هذا السلطان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وبعد أن نقل عاصمة دولته إليها ، وبعد أن حول كاتدرائية القديسة صوفيا فى القسطنطينية إلى مسجد ، وبعد أن أطلق على العاصمة الجديدة اسماً إسلامياً عثمانيًا هو إستانبول أى دار الإسلام ، نقول إنه بعد أن أتم هذه الإنجازات أطلق لقب شيخ الإسلام على المفتى فى دار الإسلام متمشياً مع الجوى الدينى والسياسى العابق للدولة وهى تعيش أجل أيامها وفى قمة أفرانها يفتح القسطنطينية وسقوط الدولة البيزنطية . أما القول بأن هذا السلطان قد أطلق لقب « رئيس العلماء » على المفتى فهو من قبيل التزيد ، لأن شيخ الإسلام بحكم منصبه هو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة العثمانية ، فلذا أضيف إلى منصبه ذى الاختصاصات العديدة المتشعبة -والى يتصل بعضها بالسياسة العليا للدولة - هذا اللقب الجديد الذى حصل عليه وهو شيخ الإسلام فإنه يعتبر رئيساً للعلماء ، ويشملون القضاة ورجال الإفتاء وأساتذة الشريعة وأصول الدين ومن إليهم من أصحاب المناصب الرفيعة وغيرها فى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فهو يجتهد على بكرة أبيهم جيداً . أما السلطان سليمان المشرع فقد ازداد على عهده مركز شيخ الإسلام تألقاً (١) ، وارتفع مكاناً علياً حتى غدا من الناحية الافتراضية أو التقديرية نداً للصدر الأعظم (٢) . وكان الجانب

ب - العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم ١ .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة شيخ الإسلام .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., vol. I, Part (٢)

II, p, 86.

الحضارى المتعدد الألوان والصور من أبرز الجوانب فى شخصية السلطان سليمان إلى جانب الإنجازات الحربية التى تمت إبان حكمه الطويل والذى استطال زهاء ستة وأربعين عاما . وستظل التشريعات التى تم وضعها من مفاخر حكمه ومن مفاخر الدولة فى تاريخها الحضارى . ومن هنا كان دور شيخ الإسلام على عهد سليمان دوراً ببناء أخلاقاً . ويلاحظ أن الفترة التى حكم فيها كل من السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان المشرع بنوع خاص قد شهدت نشاطاً ملحوظاً وغير عادى فى وضع التشريعات العثمانية . وكان يطلق على هذه التشريعات التى تصدر فى حكم كل سلطان قانون نامه . وكان لشيخ الإسلام دور رئيسى فى وضع وصياغة هذه التشريعات ، يدل على ذلك أن جزءاً كبيراً منها كان عبارة عن مجموعات فتاوى فى صورة أسئلة وجهتها السلطات الحاكمة فى الدولة وإجابات شيخ الإسلام عليها . ومن المحتمل أن يكون اللبس الذى حدث فى تحديد اسم السلطان الذى أمر بتغيير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام إنما مرده إلى الأضواء التى سلطت على شيخ الإسلام إبان حكم السلطان سليمان المشرع وكثرة ما كتب عن إنجازاته التشريعية مما جعل البعض يعتقدون أن سليماناً هو الذى أطلق اللقب على مفتى العاصمة ، مع أن جميع القرائن تدل على أن السلطان محمد الثانى هو الذى أحدث هذا التغيير بعد أن فتح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول أى دار الإسلام .

ويلاحظ أن فريقاً من الباحثين ، وبعضهم من الأوربيين والأمريكيين لا يلتزمون بالفاصل التاريخي الخاص بهذا اللقب بين المفتى وشيخ الإسلام ، ويخلطون بين اللقبين ، فيذكرون فى بحوثهم كلمة المفتى فى الوقت الذى غدا لقبه الرسمى شيخ الإسلام . وكان يحدث هذا الخلط عادة عند كلامهم عن الفتاوى التى كان يستصدرها السلاطين من شيخ الإسلام ، فكانوا يربطون بين كلمتى المفتى والفتوى لتشابه كل منهما لفظياً .

= وقد تأكدت المساراة فى المرتبة بين شيخ الإسلام والصدر الأعظم فى المادة ٢٧ من الدستور الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٨٧٦ .

سببان لإطلاق لقب شيخ الإسلام على الملقى :

تبقى مسألة لها أهميتها لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً ومباشراً بموضوع لقب شيخ الإسلام ، وهي خاصة بمعرفة الأسباب التي حملت الدولة العثمانية على إحداث هذا التغيير . لقد قيلت في هذا الصدد عدة أسباب . كان أولاً رغبة الدولة في إضفاء مزيد من الأهمية والتبجيل على مفتي العاصمة في مواجهة رؤساء الطوائف الدينية غير الإسلامية ، نذكر منهم على سبيل المثال البطريرك اليوناني والبطريرك الأرمني وساخام اليهود . كان شيخ الإسلام وهؤلاء الرؤساء يباشرون اختصاصاتهم الدينية من مدينة واحدة هي إستانبول . وكان السلاطين بوجه عام حريصين على احترام مشاعر رعايا الدولة غير المسلمين . ولم تكد تمر ثلاثة أيام على فتح القسطنطينية حتى أمر السلطان محمد الفاتح باتخاذ الإجراءات القورية لانتخاب بطريرك للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية يعنى كرسي البطريركية الشاغر . وأمر أيضاً بأن تتبع في إجراءات تنصيبه نفس المراسم التي كانت تنفذ أيام أباطرة الدولة البيزنطية في هلهه المناسبة مع تعديل طفيف هو استبعاد الإجراءات التي تعارض مع العقيدة الإسلامية . وأقام له السلطان مأدبة فخمة والتي كلمة أكد فيها أن البطريرك سيتمتع بكافة الحقوق والامتيازات التي كان يمارسها أسلافه . وسار البطريرك في موكب رائع ممتطياً صهوة أحد خيول السلطان المطهمة يحيط به كبار الموظفين العثمانيين حتى بلغ دار البطريركية .

ومضى السلطان محمد الثاني في سياسة التسامح الديني ، فاستلحق إلى إستانبول أسقف يروسة الأرمني . وأقامه بطريركاً للأرمن ، ومنحه نفس الحقوق والاختصاصات التي خولها للبطريرك اليوناني ، كما أذن هذا السلطان لليهود في الإقامة في إستانبول وعين سخاماً لهم أطلق عليه «ساخام باشي» ومنحه سلطات على رعايا الدولة اليهود مماثلة للسلطات الممنوحة لكل من البطريرك اليوناني والبطريرك الأرمني .

فإذا كان السلطان محمد الثاني قد أبقى بعد فتح القسطنطينية على النفوذ

الديني لروساء الطوائف غير الإسلامية وعلى المظاهر التي كانت تحيط بهم من يمين وشمال داخل النطاق المذهبي ، فكان من الطبيعي أن يحرص هذا السلطان في ذات الوقت على ألا تكون شخصية الممتق في العاصمة ، وهو مكبر موظف ديني مسلم في الدولة ، بأقل في مظهرها ونخبها ، وفي ظاهرها وباطنها ، من شخصية أولئك الرؤساء جميعاً وبخاصة شخصية بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية . وكانت هذه الكنيسة برياستها وأتباعها الكثيفي العدد مركز قوة في الدولة ، ولكنها كانت تحت أعين رجال الحكومة ما بقيت الدولة العثمانية قوية ، وفي استطاعتها حتى أية ثورة أو حركة ثمود قد يفكر أتباع هذه الكنيسة في القيام بها . ولاتنسى أن الدولة العثمانية كانت دولة تيوقراطية un état théocratique أى دينية ، فجاءت سياستها وتشريعاتها ومعظم تصرفاتها تتم بالطبع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائص هذه الدولة . وقد سبق أن تعرضنا في شيء من التفصيل لهذه الخصيصية في هذه الدراسة (١) . فإضفاء لقب شيخ الإسلام على مفتي العاصمة كان في لحمته وسداه متمشياً مع السياسة العليا للدولة وتطبيقاً عملياً لتلك الخصيصية الدينية القوية من خصائص الدولة .

أما السبب الثاني الذي حمل الدولة على تغيير لقب المفتي إلى شيخ الإسلام ف يرجع إلى رغبتها في إيجاد نوع من التوازن بين الوظائف القيادية في تلكما الهيئتين الحاكمتين الرئيسيتين في الدولة وهما طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فإذا كان الصدر الأعظم باختصاصاته العديدة وسلطاته الواسعة يعد أكبر موظف في طبقة القولاار الحاكمة ، فقد رأت الدولة أن تطلق على شخصية دينية إسلامية لقباً دينياً وأديبياً يجعل هذه الشخصوية نداً للصدر الأعظم ، وأضفت عليه الكثير من الامتيازات سواء في حياته الخاصة أو في حياته العامة ، وسواء في كثرة اختصاصاته وتعددتها ، أو في عدد الإدارات الفنية التابعة لمكتبه ، وفي حشد كثيف العدد من القضاة ومن إليهم من كبار العلماء الذين كانوا يعملون في شتى الأجهزة التابعة له .

وبلاحظ أنه لم يكن عضواً في الديوان الإمبراطورى الذى يرأسه الصدر الأعظم . والحكمة فى عدم تقرير عضويته فى هذا الديوان ترجع إلى حرص الدولة على ألا يكون شيخ الإسلام ، وهو أكبر شخصية دينية إسلامية فى الدولة كما ذكرنا ، مرموساً للصدر الأعظم الذى ينتمى إلى طبقة القولار الحاكمة . واكتفت الدولة بأن تكون الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ممثلة فى الديوان بعناصر أخرى من هذه الهيئة أقل درجة من شيخ الإسلام .

ويرى البعض أن السلطان محمد الثانى كان متأثراً بوجود الخلفاء العباسيين فى القاهرة بجوار سلاطين دولتى المماليك البحرية والشرابية منذ أن نجح الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية وجعل مقرها القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وكان هؤلاء السلاطين يستندون إلى الخلفاء فى تأييد سلطتهم . فحذا السلطان محمد الثانى حذواً مماثلاً إلى حد ما ، ومن ثم عمل على أن تكون بجانبه شخصية دينية إسلامية تحمل لقباً دينياً برازماً له وزنه وتقديره فى نظر الجماهير . ويستطيع أن يستند إلى شيخ الإسلام فى دعم مركزه وتثبيت عرشه وتأييد تصرفاته السياسية والحربية والعائلية وغيرها . ومن المتعذر - إن لم يكن فى حكم الاستحالة - الأخذ بهذا التفسير لعدة أسباب ، نذكر منها :

أولاً : إن العرش فى دولة المماليك الشراكسة لم يكن وراثياً فى معظم الأحوال . وإنما كان يترى عليه الأمير الأعز نفراً والأكثر أنصاراً والأوفر ثراءً ، ومنه ما كان يتصف به من صفات المكر والخديعة والغدر والتفاق والمقدرة على تدبير المؤامرات إلى جانب الكفاية الحربية والمهارة الدبلوماسية . فظل عرش تلك الدولة مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك (١) ، بينما كان عرش الدولة العثمانية وراثياً ، كان يتقلده أفراد أسرة واحدة عبر الأعصار

(١) كان مبدأ وراثة العرش محترماً فى حالات كثيرة أيام دولة المماليك البحرية ولا سيما فى أسرة قلاوون .

انظر :

دكتور إبراهيم حل طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ، مرجع سبق

ذكره ، ص ١٠-١١ .

والأدهار . ولم يكن يشترط فيمن يتولاه سوى شرط واحد هو أن يكون من أصلاّب الأسرة ، أى من أولاد الذكور ولا يكون من أولاد البنات . فالدولة العثمانية كانت تتميز - فيما كانت تتميز به - بالاستقرار ، لا ينجى غريب أو طارئ أو من كان فى مرتع شبابه عبداً مملوكاً ثم يتولى العرش .

ثانياً : كان السلطان محمد الثانى يعلم علماً يقينياً الحقائق المتصلة بالخلافة العباسية فى القاهرة ، ومن بينها أنها كانت خلافة صورية تتمثل فى أن يصدر الخليفة تقريباً يسمى « التقليد » لكل سلطان مملوكى يتربع على عرش دولة المالك حتى يكون لهذا السلطان حق شرعى فى الحكم شعوراً من سلاطين دولتى المالك - البحرية والشراسة - بخرج مركزهم لأصلهم غير الحر ، ولأنهم اغتصبوا السلطة فى مصر اغتصاباً مزرياً من حكامها السابقين ، فأرادوا أن يصفقوا على حكمهم شرعية وعلى أنفسهم مهابة وعلى مركزهم دعامة يستنون بها عرشهم . وإذا كان اسم الخليفة يذكر قبل اسم السلطان فى خطب صلاة الجمعة والعيدى ، فقد كان هذا السبق أيضاً مسألة شكلية ، لأن الخليفة كان محجوراً عليه . ولم يكن يغادر داره فى أوقات السلم إلا مرة واحدة فى أول كل شهر هجرى وفى أول يوم من أيام العيدى إلى القلعة لتبتهة السلطان . فكان عدد المرات التى يخرج فيها من دائرة ثلاث عشرة مرة فى السنة (١) ، ولم يكن فى مكتبة أى شخص أن يتصل بالخليفة إلا بإذن من السلطان (٢) . أما فى زمن الحرب فكان الخليفة يصحب الجيش من قبيل التبرك . وبذلك تلاشت شخصية الخليفة أمام السلطان المملوكى موثلاً السلطة الفعلية فى الدولة (٣) . وعلى حد قول المقرئى كانت الخلافة العباسية

(١) من المعروف أن غرة شهر شوال هو أول أيام عيد الفطر فكان يؤذن للخليفة فى ألتخرج فى هذا اليوم الذى تجتمع فيه هاتان المناسبتان لتبتهة السلطان ، وبذلك يصبح حد المرات ثلاث عشرة مرة .

(٢) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر الممالكى الخ ، مرجع سبق ذكره ،

ص ص ٣٤٢-٣٤٧

(٣) حدث استثناء لهذا المبدأ العام الذى التزم به السلاطين الممالكى تجاه الخلفاء العباسيين . قبل عهد دولة الممالكى الشراكية تنافس على العرش أميران هما : نوروز ، وشيخ . ورأى الأمير-

في القاهرة « ليس لها أمر ولا نهى ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (١) . فلم يكن من المعقول أن يستهوى السلطان محمد الثاني مثل هذا المركز الهابط الذي كان يشغله الخليفة العباسي في القاهرة ، فيعمل على إنشاء منصب ديني مقارب له في إستانبول . وقد ذكرنا من قبل أن السلاطين العثمانيين قد اهتموا بإضافة لقب « حامي الحرمين الشريفين » إلى ألقابهم العديدة عقب دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . ولكنهم لم يتخذوا وقتذاك لقب خليفة ، لأنهم كانوا يدركون أن هذا اللقب قد هوى بصاحبه في القاهرة إلى الخضوض . ولكنهم بحثوا لقب خليفة في القرن الثامن عشر لأسباب سياسية . أما ما ذكره بعض المؤرخين من أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يتمسكون تفويضاً من الخليفة العباسي في القاهرة عند اعتلائهم العرش (٢) ، فأمر مشكوك فيه ، لأن الاستملاء الذي كان من أبرز صفات السلاطين العثمانيين كان يمنهم من أن يستمدوا سلطتهم من قوة خارجية يعلمون جيداً مبلغ هوانها في نظر السلاطين المالك والشعوب الإسلامية في مصر والشام وغيرها . فالتماس التفويض كان أمراً يتنافى مع طابع السلاطين العثمانيين ومع أخلاقهم .

باب مشيخت ، شيخ الإسلام قاييمى :

كان يطلق أحياناً على منصب شيخ الإسلام والمكاتب والأجهزة المحقة به « باب مشيخت » أى باب المشيخة ، كما كان يطلق أحياناً أخرى مصطلح

— شيخ في عظمه للقضاء على مناهه أن يقع مؤقتاً الخليفة العباسي ، المسمين ، على العرش (سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م) . ولما انجل الموقف استطاع الأير شيخ عزل الخليفة من العرش بعد أقل من ستة شهور بنفس السهولة التي وضعه عليه ، ثم عزله من الخلافة أيضاً وسجته في القلعة .

انظر :

دكتور إبراهيم على طريخان : مصر في عصر دولة المماليك المشتركة . مرجع سبق ذكره ، ص ٦٣-٦٥ .

(١) المقريزي : المواعظ والاختيار بذكر الخلط والآثار . الطبعة الأهلية . أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٩٠٧ ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

(٢) السيوطي جلال الدين : حسن القاهرة في أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

آخر هو «شيخ الإسلام قابيسى» أى باب شيخ الإسلام (١)، تأسيساً على أن لفظة «باب» جرى العرف على إطلاقها على قصر أو مقر أى حاكم أو بلاطه أو حكومته .

ولما قضى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) على نظام الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) خصص الدار التى كان يشغلها قائد فيالق الإنكشارية فى إستانبول لشيخ الإسلام، فأصبحت مقراً له يمارس فيها اختصاصاته . وكانت هذه الدار تقع على مقربة من مسجد السليمانية .

باب فتوى ، فتوى خانة :

أنشا السلطان سليمان المشرع مكتباً فنياً ألحقه بشيخ الإسلام وأطلق عليه المصطلح التاريخى «باب فتوى» أو «فتوى خانة» بمعنى دار الإفتاء . وكان يعمل بها جماعة من كبار العلماء يبحثون بصفة تمهيدية المسائل الشرعية التى يطلب إلى شيخ الإسلام إصدار فتاوى بشأنها . وكان يرأس دار الإفتاء أحد كبار العلماء المرموقين ويطلق عليه «فتوى أمينى» أى أمين الإفتاء أو أمين الفتاوى (٢) .

وإذا أرادت الحكومة المركزية الوقوف على رأى شيخ الإسلام فى مسألة معينة، وطلبت منه إصدار فتوى بشأنها ، كان عليها أن تتقدم بطلب رسمى إليه . ولكن كان يسبق تقديم هذا الطلب اتصالات غير رسمية بين الوزراء المختصين من ناحية ، وبين أمين الإفتاء من ناحية أخرى ، فيسحبها بصفة تمهيدية أو يحيلها إلى أحد معاونيه فى «الفتوى خانة» .

التلخيصى :

وقد استعدت كثرة عدد الفتاوى التى كانت تطلب من شيخ الإسلام تعيين موظف كان يسمى «تلخيصى» - وهذا المصطلح مأخوذ من

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : باب مشيخت .

(٢) Gibb Hamilton and Bowen Harold op. cit, vol.I, Part II, p. 86.

اللفظة العربية لخص والاسم منها - تلخيص - فيقوم بإعداد موجز للعناصر التي تتألف منها المسألة المراد استصدار فتوى بشأنها (١). وكان من بين موظفي مكتب شيخ الإسلام موظف يختص بإدارة المؤسسات الخيرية التي كان يهدهد إليه بالإشراف عليها ، وكان هذا الموظف يسمى « كخيا » . ومن اختصاصه أيضاً بالإشراف على الشؤون الخاصة بشيخ الإسلام ، فكان يساعده في هذا الصدد ، شأنه شأن باشوات الدولة . وكان هؤلاء الموظفون الملحقون بمكتب شيخ الإسلام والذين يعتبرون مساعدين له يؤخون من رجال القضاء من فته « مولا » أو من رجال الإفتاء .

مقارنة بين مركز كل من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام :

كان الصدر الأعظم وشيخ الإسلام هما الموظفان الوحيدان في للدولة اللذين يتسلمان فرمان تعيين كل منهما في منصبه من يد السلطان . وكان من التقاليد المتبعة في الاحتفالات الرسمية ألا يتقدم أحدهما على الآخر ، بل كانا يسيران جنباً إلى جنب ، وإن قام أحدهما بزيارة رسمية للآخر ، تتبع في استقباله وتوديعه مراسم التكريم والتشريف التي تتبع في استقبال وتوديع الآخر . فكان كل منهما يعتبر نداً للآخر ، كما سبق أن ذكرنا .

وإذا كان الصدر الأعظم يتمتع بسلطات أكثر ، فإن شيخ الإسلام كان يظفر بتقدير أكبر . وكان من أسباب هذا التقدير العميق أن شيخ الإسلام كان يمارس سلطاته في مجالات دينية لها وزنها وتقديرها في نظر الجميع ، فضلاً عن اختصاصات لا تسمو إليها اختصاصات الصدر الأعظم وتتصل اتصالاً مباشراً بالدياسة العليا للدولة ، فله وحده ودون سواه ، الحق في إصدار فتاوى تميز الحرب التي تخوضها الدولة ، أو فتاوى

(١) يلاحظ أنه كان بين حاشية الصدر الأعظم شاطيان يحمل كل منهما نفس اللقب وهو تلخيصي ، يقومان بتسلم وليس الخصيان السود هو أبا البنات المسى فيزر ألامى - المذكرات التي كان الصدر الأعظم يرسلها إلى السلطان . وكان رئيس الخصيان السود ، في معظم الأوقات . هو الوحيد الذي يمكنه أن يرفع هذه المذكرات إلى السلطان .

بتقرير الصلح ، أو إبرام المعاهدات ، أو عزل السلطان الحاكم . كما لم يكن لشيخ الإسلام شأن مباشر بالخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية للسلطان . واعتاد السلطان أبو يزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) أن يقف لاستقبال شيخ الإسلام ويمنحه مقعداً أعلى من مقعده (١) .

وكان على الصدر الأعظم أن يكون على اتصال مستمر بشيخ الإسلام لبحث المسائل الخاصة بشئون الدولة والتي تتطلب أخذ رأيه فيها من حيث مطابقتها لمبادئ الشريعة الإسلامية . ولذلك كان الصدر الأعظم هو الذى يقوم بزيارات عديدة لشيخ الإسلام فى مقر منصبه على فترات متقاربة . وكانت هذه الزيارات لكثرتها تم فى بعض الأحيان بطريقة غير رسمية لتجنب إقامة المراسم التى تتبع عند زيارته لشيخ الإسلام .

مركز شيخ الإسلام فى البروتوكول العثمانى :

حدد السلطان سليمان المشرع تحديداً نهائياً وقاطعاً المركز الوظيفى والقانونى لشيخ الإسلام ، فجعله رئيس هيئة العلماء وأكبر شخصية عاملة فى الهيئة الإسلامية . كما أضفى على شاغل هذا المنصب الكثير من مظاهر التكريم والنفوذ . كان شيخ الإسلام يتقدم على جميع موظفى الدولة . ثم غدا يتمتع فى البروتوكول العثمانى بمركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم أى رئيس الوزراء وعن الوزراء . فعند ذهاب شيخ الإسلام لمقابلة السلطان كان يخف هذا لاستقباله متقدماً سبع خطوات ، بينما لم يكن السلطان يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات . وكان يسمح لشيخ الإسلام بتقبيل كتف السلطان ، بينما كان لايسمح للصدر الأعظم إلا بلثم ذيل ثوبه (٢) .

وقد قيل فى مستهل حكم السلطان سليمان المشرع إن الشعب كان يظهر لشيخ الإسلام احتراماً لم يظهره قط لرجل آخر فى الدولة . وقد بنى الشعب تقديره العميق له تأسيساً على أنه يمثل الإسلام والشريعة الإسلامية ، وأنه

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 209.

(١)

(٢) محمد جميل بينم : العرب والتكليف ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٢٤-١٢٥ .

المفسر لها . وكان السلطان لا يستطيع المساس بها من قريب أو من بعيد ، وإلا تعرض للعزل والقتل ، فالشريعة فوق السلطان نفسه . وكان السلطان هو الذى يتولى اختيار شيخ الإسلام ، ويصدر فرماناً أى مرسوماً سلطانياً بتعيينه فى هذا المنصب . وكان السلطان يختاره أول الأمر من بين المقتين الذين يعملون فى أنحاء الدولة . ولما تغير لقب مفتى إستانبول إلى شيخ الإسلام كان السلطان يختاره من بين كبار رجال القضاء .

وكانت الدولة تخصص أحد كبار ضباط القصر السلطانى لمساعدة شيخ الإسلام فى ارتداء ملابس التشرىفة . ويطلق على هذا الضابط اسم « الخاص أوطه باشى » وكان فى أول الأمر وعلى عهد سلاطين الفترة الأولى رجلاً كامل الرجولة ، ثم رأت الدولة - بعد انتهاء حكم السلطان سليمان المشرع - أن يكون هذا الضابط خصياً ومن طائفة الخصيان البيض (١) .

فتاوى نجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية :

ومن الأمثلة على الفتاوى التى كان يصدرها شيخ الإسلام نجيز فيها للدولة أن تنازل عن بعض أقاليم خاضعة لها ، نذكر الفتوى التى صدرت عنه فى سنة ١٨٢٩ . كانت الدولة قد اضطرت إلى قبول الصلح عقب الحرب الخاسرة التى خاضتها ضد روسيا فى أبريل - نيسان - سنة ١٨٢٨ ، وعقدت معاهدة أدرنة فى سبتمبر - أيلول - سنة ١٨٢٩ ، واعترفت الدولة فى هذه المعاهدة باستقلال اليونان استقلالاً داخلياً ، وباستقلال ولايتى الأفلاق والبغدان (رومانيا حالياً) فى إدارتها تحت حماية روسيا . ورأى السلطان محمود الثانى أن يتجه إلى شيخ الإسلام ، وحصل منه على فتوى نجيز هذا التصرف . وبناء على هذه الفتوى أصدر السلطان تصديقاً La Ratification على معاهدة أدرنة .

فتوى توجب محاربة محمد على وفتوى نجيز العفو عنه :

وعند ما اندلعت حرب الشام الأولى سنة ١٨٣١ بين السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر استصدر السلطان من شيخ الإسلام فتوى نجيز

Gibb Hamilton and Bowea Harold ; op. cit., vol. I. Part I, (١)
pp.332-333.

له محاربة محمد على . ولما توقفت العمليات الحربية وأبرمت اتفاقية كورتاهية في اليوم السادس من شهر مايو - آيار - سنة ١٨٣٣ استصدر ذلك السلطان من شيخ الإسلام فتوى أخرى تميز العدول عن محاربة محمد على . ونذكر النص الحرفي للسطر الأول من الفتوى ، وهو في صورة سؤال موجه إلى شيخ الإسلام ، وإذا كانت طائفة من المسلمين جمعت العساكر وهجمت على طائفة أخرى أيضاً من المسلمين . ولكنها - بعد ذلك - عرضت الطاعة إلى إمام المسلمين وخليفة الأرضين ، خاد الله ملكه إلى يوم الدين ، ورجعت عن تعدياتها ، هل يكون من المشروع أن تقبل طاعتها ، وترك قتالها ؟ (١) .

وصدرت الفتوى بقرار أن قبول طاعتهم والكف عن قتالهم أمر مشروع .

فتاوى عزل السلاطين :

كان أقوى مظهر يوضح مدى سلطة ونفوذ شيخ الإسلام أنه كان له وحده ودون سواه الحق في إصدار فتوى بعزل السلطان القائم بالحكم تأسيساً على أنه انحرف عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً سليماً ، أو استناداً إلى أنه مصاب بمرض عقلي لا يرجى شفاؤه ، أو غير ذلك من ذرائع أو أسباب . وكانت فتاوى العزل تختلف اختلافاً جليئاً عن الفتاوى التي تتناول مسائل السياسة أو الحرب ، فبينما الفتاوى الأخيرة يتصلبها السلطان القائم بالحكم لأنه صاحب المصلحة الأولى في صدورها ، كانت فتاوى العزل تستصلبها إحدى جهتين : أحد المنافدين للسلطان على العرش من أخصاء الأمرة السلطانية ، أو من العسكريين أو من أحد مراكز القوى السياسية في الدولة . كما كان هناك فارق جوهري آخر هو أن فتاوى العزل لا تنهى بعزل السلطان الحاكم ، ولكن كان لها نتائج أخرى ترتب عليها ، هي قتل السلطان المعزول أو اعتقاله في أحد القصور مع حرمة وقطع كل صلة بينه وبين العالم الخارجي بحيث يصبح السلطان مع أسرته من أموات الأحياء حتى يدرك الموت السلطان المعزول ويفرق ذروه .

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤ .

وسنمر مروراً سريعاً على أربع فتاوى صدرت في أوقات مختلفة، ونشرح الملاحظات التي أحاطت بصدور كل فتوى. كانت الفتوى الأولى قد صدرت بعزل السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) لأنه أعاد تنظيم الجيش وفق الأساليب الأوروبية ، فصدرت الفتوى تقول « إن كل سلطان يدخل أنظمة الفرنجة وعوائدهم ويحجر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك ». وتم عزله وقتله (١) على يد الإنكشارية الذين وقفوا بدافع المصلحة الشخصية في وجه كل محاولة لإصلاح الجيش وتطوير نظامه وأساحته . وصدرت الفتوى الثانية في ٢٩ من مايو - آيار - ١٨٧٦ بوجوب عزل السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) تأسيساً على إسرافه والتجائه إلى عقد قروض أجنبية من البيوت المالية في باريس ولندن ، وعجزه عن تصريف شئون الدولة . وأيد العسكريون هذه الفتوى وطالبوا بتنفيذها . وكان أن عزل السلطان عبد العزيز رسمياً في اليوم التالي لصدورها (٢)، وعين مكانه ابن أخيه مراد باسم السلطان مراد الخامس . ولم يكن هذا السلطان أوفر حظاً من سابقه . فقد صحت عزيمة مدحت باشا وزملائه على عزله ، واستصعدوا فتوى من شيخ الإسلام توجب إعفاءه من الحكم . ولم يعدوا سبباً يستندون إليه في استصدار الفتوى . وكان هذا السبب هو اختلال قواه العقلية. وتدل الملاحظات السياسية التي أحاطت برجال الحكم في ذلك الوقت على أن هذا السبب كان مختلفاً . وتم عزل السلطان التمس بعد حكم قصير لم يتجاوز ثلاثة أشهر وثلاثة أيام (٣). وعين أخوه الأصغر عبد الحميد في ٣١ من أغسطس -

(١) محمد جميل بهم : العرب والترك في الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٧
(٢) ولم تفسر أيام ذات حدد على عزل السلطان عبد العزيز حتى قضى بحبه . واختلفت الآراء حول وفاته، فمن قائل إنه مات متحرراً، ومن قائل إنه قتل خيلة . ويقول ميلر Miller المؤرخ الإنجليزي إنه تحدث مع الطبيب ديكسون Dickson وهو الذي فحص جثمان السلطان، وعلم منه أن السلطان عبد العزيز مات متحرراً بعد أن قطع شرايينه بمقص . ومع ذلك فيد حسن سنرات من وفاته وجهت التهمة إلى مدحت باشا وبعض رفقاءه بقتل هذا السلطان، وقدموا لهامة صورية وأدينوا وأعدموا .
انظر :

Miller W. ; op. cit., p. 368

(٣) حددت إقامة السلطان مراد الخامس في أحد القصور المطلة على البوسفور وظل محتلاً فيه زهاء تسعة وعشرين عاماً حتى جاز إلى ربه في سنة ١٩٠٤ وظلت زوجاته محتلات في هذا القصر حتى قام انقلاب سنة ١٩٠٨ فأذن ورجال الحكم الجديد لحريمه بمغادرة القصر بعد إقامة جبرية فيه استطلات أكثر من ثلاثين عاماً .

آب - سنة ١٨٧٦، واتخذ لنفسه اسم عبد الحميد الثاني . ويقال إن نامق كمال - وهو من أبرز زعماء رجال تركيا الفتاة - توسل إلى مدحت باشا والدنوع تترقرق في عينيه كي يؤجل عزل مراد . ولكن أصر مدحت باشا على رأيه . وسارع السلطان الجديد عبد الحميد الثاني بتعيين مدحت باشا صديراً أعظم . وقد قدر للسلطان عبد الحميد أن يستوى على عرش الدولة العثمانية فترة قاربت أربعة وثلاثين عاماً تراحت خلالها الأحداث الجسام على الدولة ، ثم يعزل عن العرش في سنة ١٩٠٩ بناء على فتوى أصدرها شيخ الإسلام نزولاً على رغبة العسكريين ، وجاء في الفتوى أن السلطان عبد الحميد يكيده للنظام الدستوري في الدولة .

طرازان من شيوخ الإسلام :

وقد يبدو من هذه الفتاوى على اختلاف أنواعها والتي صدرت عن شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية أنهم كانوا أداة طيعة لينة في يد السلطان الحاكم أو في أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة يطلبون من شيخ الإسلام إصدار فتوى لتبرير أو لتفسير إجراء معين . وكان شيخ الإسلام يصدع بما يؤمر به . ونحن لا ننكر أن بعضهم كان من هذا الطراز من الرجال ، ولكن من ناحية أخرى كان بعض شيوخ الإسلام ذوى شخصية قوية ، جاهرُوا السلاطين برأيهم في تصرفاتهم . ولم تصدر عنهم فتاوى إلا ما كان منها متمشياً مع مبادئ الشريعة الإسلامية . ونعرض في هذه الدراسة مثالا لهذا الطراز من شيوخ الإسلام .

شيخ الإسلام يتحدى السلطان :

كان عدد من رعايا الدولة في الأناضول بوجه خاص قد اعتنقوا في أوائل القرن السادس عشر المذهب الشيعي الذي تشمل إلى أراضي الدولة العثمانية من الدولة الصفوية في فارس . وكان هذا المذهب خليطاً من مبادئ الشيعة ومبادئ أخرى فوضوية يقول عنها أصحابها إنها تحريرية . وأطلق على هذا المذهب قزل باش أي الرأس الأحمر . ونجح السلطان سليم الأول في أن يحصل

من شيخ الإسلام على فتوى توجب قتل معتنقى هذا المذهب. وتمت مذابح عامة قتل فيها معظمهم، وبذلك تخلص سليم منهم. والتفت إلى الدولة الصفوية في فارس واستصدر من شيخ الإسلام فتوى توجب قتال هذه الدولة، ومن ثم زحف عليها بقوات جرارة وخاض حرباً خاطفة وأحرز انتصارات كبيرة، ودخل تبريز عاصمة الدولة الصفوية. ولكنه لم ينجح في سحق الشيعة سحقاً كلياً، وعاد إلى إستانبول. وفي أثناء هذه العمليات صدرت عن الرعايا المسيحيين في الدولة تصرفات مريبة جعلت السلطان يتوجس منهم خيفة. ورأى أنهم يشكلون تجمعات بشرية كثيفة العدد داخل الدولة، وقد ينهزون فرصة انشغال الحكومة في حرب ويكون الجيش العثماني منصرفاً إلى العمليات الحربية فيقومون بحركة تهدد الدولة تهديداً خطيراً في مثل هذا الوقت العصيب. وانتهى تفكيره إلى ضرورة تسوية هذه المشكلة، فيعرض على رعاياه المسيحيين أحد أمرين لا ثالث لهما، وهما: إما اعتناق الإسلام وإما القتل. ويقول أحد المؤرخين الأجانب إن السلطان سليم في اتخاذ هذا القرار كان متأثراً بالمذابح الدينية التي أقدمت عليها السلطات الإسبانية حين رفض مسلمو الأندلس اعتناق الدين المسيحي^(١). فلم يكن هذا القرار هو الأول من نوعه، بل كان له نظير في الطرف الغربي من أوروبا وفي ذات الوقت تقريباً.

عرض السلطان سليم الأول هذه المسألة بصورة مختلفة على الشيخ جمالي شيخ الإسلام، وطلب منه إصدار فتوى توجب إكراه رعايا الدولة المسيحيين على اعتناق الإسلام وقتل من يرفض منهم هذا الأمر. وصدرت الفتوى على النحو الذي كان السلطان يبتغيه، ثم استبان لشيخ الإسلام أن السلطان سليم قد عرض عليه الموضوع عرضاً غير سليم؛ وأنه أخفى بعض عناصر الموضوع عنه؛ وبعبارة أخرى أدرك شيخ الإسلام أن السلطان قد خدعه. فما كان منه إلا أن أصدر فتوى لاحقة صحب فيها الفتوى السابق إصدارها بخصوص هذا الموضوع. وقرر في الفتوى الجديدة أن الشريعة الإسلامية تسمح للمسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب الذين يخضعون للحكم الإسلامي

بالبقاء على دينهم طالما كانوا يدفعون جزية الرأس كبدل نقدي يعفيهم من التجنيد وبأن يمارسوا بملء حريتهم شعائرهم الدينية ، وأن تتكفل الدولة بالمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم وطالما كان سلوكهم العام لا تشوبه شائبة ، ولولاؤهم للدولة ملحوظاً وتصرفاتهم سليمة . وقد أبلغت هدد الفتوى إلى البطريرك اليوناني في إستانبول بصفته رئيس أكبر ملة غير إسلامية في الدولة . واعتبر البطريرك هذه الفتوى ميثاقاً أو مستنداً يدرأ عن رعايا الدولة غير المسلمين أى اضطهاد ديني قد يتعرضون له . وقد أذعن السلطان سليم لرأى شيخ الإسلام الذي سجلته تلك الفتوى .

ويقول المؤرخ الأمريكي ليبير ، تعليقاً على موقف كل من السلطان وشيخ الإسلام ، لو أن السلطان سليم قد نفذ قراره بأكراه جميع رعايا الدولة غير المسلمين على اعتناق الإسلام لتجم عن ذلك مزايا كبرى بالنسبة للدولة العثمانية . وكان من بينها زوال الكنائس المسيحية التي كانت قائمة في أرجاء الدولة . وكانت تشكل مجموعة من الهيئات الدينية القوية والمنافسة للهيئات الإسلامية . وكانت آمال الرعايا المسيحيين متعلقة بهذه المنشآت الدينية التي تتميز بالحياة . ومنها أيضاً أن الدولة كانت تنعم بوحدة العقيدة الدينية بين رعاياها ، إذ يحدث في المدى البعيد اختلاط وانصهار بين الرعايا المسلمين والرعايا المسيحيين الذين يتحولون إلى الإسلام . ولكن ما حدث كان مخالفاً تماماً لهذه التوقعات ، لأن الإبقاء على رعايا الدولة المسيحيين محافظين على ديانتهم كان معناه في المجال السياسي الإبقاء على الروح القومية والروح الانفصالية تتأججان في صلور الرعايا المسيحيين . كما كانت هناك نتيجة أخرى لو أن السلطان سليم الأول قد نفذ قراره بأكراه جميع المسيحيين على اعتناق الإسلام ، فيقول إن وجه التاريخ في منطقة الشرق الأدنى كان يتغير تغيراً جذرياً . ويطرى هذا المؤرخ الأمريكي موقف شيخ الإسلام ، ويصف قراره بأنه قرار سليم يتمشى مع قواعد الشريعة الإسلامية ، وكانت لدى شيخ الإسلام الشجاعة الأدبية حين أصلر هذه الفتوى بصفته حارساً للشريعة الإسلامية . ويختتم ذلك المؤرخ تعليقه على هذه الفتوى قائلاً إن الإسلام

الذى جاء به قبل أن يأتي السلطان سليم الأول إلى الحياة بتسعة قرون قد جعل قيام وحدة دينية من رعايا الدولة العثمانية أمراً مستحيلاً (١). ونرى أنه استند إلى أن الإسلام بسماحته كان يميز لأهل الكتاب الإبقاء على ديانتهم بشرط أداء جزية الرأس. وقد قال الله تعالى « لا إكراه في الدين ».

أما رأينا في هذه المسألة فقد سبق أن ذكرناه من قبل وفي أكثر من مؤلف لنا ، وهو أن التاريخ لا يتحدث عن المستقبل ، والتاريخ ليس رجباً بالغيب ، وهو لا يبنى أحكامه على احتمالات قد تحدث في قابل الأيام وقد لا تحدث. والتاريخ الموضوعي المحايد لا يفترض أحداثاً، ويتابع المؤرخ تنفيذها في عالم الخيال. ويرتب على هذه الأحداث الخيالية والتنفيذ الخيالي نتائج تمشي مع عقيدته الدينية أو اتجاهه السياسي ، فيقف منها مكتئباً حزيناً أو مبتهجاً مهللاً حسب وجدانه الديني ونزعه القومية وتحرره من التعصب. فهذه أهور نخرج بالمؤرخ عن اختصاصه ونطاق دراسته كباحث يتميز بالموضوعية والحيدة ، والحق أن رأى شيخ الإسلام الذى صبر عنه في الفتوى يعتبر تحدياً للسلطان ، ورجوعاً إلى الحق ، وتمسكاً بمبادئ الشريعة الإسلامية ، ودليلاً على شجاعته الأدبية .

نظرة أوروبا إلى شيخ الإسلام في إستانبول :

وقد طاب للمراقبين السياسيين في دول غربي أوروبا في القرن السادس عشر أن يقولوا عن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية إنه يشبه « كاردينالا عظيماً جداً ». وقالوا عنه بعد ذلك إن مركزه يفوق مركز البابا في روما (٢). والحق أن هؤلاء المراقبين والمعلقين الأوروبيين قد ربطوا في أذهانهم بين مركز شيخ الإسلام في إستانبول وبين المركز الدولي للإمبراطورية العثمانية وهي تقف في ذلك الوقت في الصف الأول بين أكبر دول العالم مهيبة

Lybyer A. H., op. cit., pp. 210—212.

(١)

Lybyer A. H. op., cit., p. 209.

(٢)

الجانب مرفوعة الرأس ذات قوات مسلحة ضاربة رهيبة . وبعبارة أخرى رأى أولئك المراقبون والمعلقون السياسيون المسيحيون في تحليلهم السياسي للمركز المرموق الذى سما إليه شيخ الإسلام في إستانبول أنه لا يستمد هذا المركز السامى من الشريعة الإسلامية التى كان يمثلها فحسب ، بل من مركز الدولة الرياى والقيادى سواء في العالم الإسلامى أو في الأسرة الدولية . ونظروا إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأنها تضم الأراضى المقدسة في الحجاز ، وكذلك المسجد الأقصى في القدس ، وأن تمتلكها الإقليمية امتدت في ثلاث قارات . ومن ثم كانت نظرهم إلى شيخ الإسلام في إستانبول على أنه أكبر شخصية دينية إسلامية في العالم . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة إلى شيخ الإسلام أن لقب خليفة لم يكن قد التصق بعد باسم سلطان الدولة العثمانية . وسيحدث هذا الالتصاق فيما بعد في خلال القرن الثامن عشر وما تلاه .

ومن خلال هذه النظرة ، ومن حيث الواقع التاريخى أيضاً ، وفي أثناء القرن السادس عشر بالذات ، كانت دولة المماليك الشراكسة في مصر قد ذهبت إلى مغيب ، وفقدت مصر استقلالها وخسرت زعامتها للعالم الإسلامى ، وهبطت من دولة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية ، واحتجبت إلى حين مكانة الأزهر ومكانة علمائه ، وغدا الميدان أمام شيخ الإسلام العثمانى فسيحاً رحباً خالياً من المنافسين الأقوياء .

وزرجع هنا إلى باحث إنجليزى أقام في إستانبول في القرن السابع عشر ، وامتدت إقامته سنين عددا ، وأصدر كتاباً تناول فيه بالشرح الأوضاع السائدة في الإمبراطورية العثمانية (١). وقد ذكر فيه أنه استقى مادته العلمية من السجلات العثمانية المحفوظة لدى كبار الموظفين ، ومن أعضاء هيئة العلماء المسلمين ، ومن رجل من أصل بولندى أتت به ضريبة الغلمان إلى إستانبول وعاش في البلاط العثمانى تسع عشرة سنة . ونال كتاب هذا الباحث الإنجليزى شهرة علمية عريضة ، إذ كان مرجعاً للذين كتبوا في تاريخ الدولة العثمانية منذ

Ricaut, Sir Paul; The History of the Present State of the (١)
Ottoman Empire. 6 th edition London, 1686.

القرن السابع عشر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات . وإلى سنة ١٦٨٦ كان الكتاب قد طبع ست طبعات باللغة الإنجليزية . وقد منحه الحكومة الإنجليزية لقب سير Sir . أفرد هذا الباحث حيناً كبيراً من كتابه للحديث عن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وعلو شأنه واتساع اختصاصاته واهتمام السلطان العثماني باسترضائه وتنفيذ ما يشير به شيخ الإسلام على السلطان . فقال إن شيخ الإسلام كان هو الرئيس الفعلي للهيئة الإسلامية ، وهو المرجع الذي ترفع إليه كافة المسائل المختلف عليها من ناحية مدى مطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية ، وهو يتمتع باحترام وتقدير عميقين من لدن جميع العثمانيين . والسلطان دون سواه هو الذي يقوم بتعيينه ، ويختاره رجلاً ضليعاً في علوم الشريعة وأصول الدين ، معروفاً بفضائله ، مشهوراً باستقامة سلوكه . وإذا أصدر شيخ الإسلام رأياً أو بياناً فلا يستطيع السلطان بأية حال أن يعترض على ما جاء في ثنايا هذا الرأي أو ما تضمنه هذا البيان . والسلطان يطلب دائماً رأى شيخ الإسلام سواء عند إعلان الحرب أو عقد الصلح أو عند مواجهة كافة المسائل الأخرى ذات الخطر على الإمبراطورية . والسلطان يتحنى دائماً بشيخ الإسلام إذا كان في صدد عزل أحد الباشوات من منصبه . أو لإعدام وزير ، أو كان على وشك اتخاذ إجراءات جديدة وهامة تتناول تغييراً في سياسة الدولة ، ففي كل هذه الحالات وأمثالها كان السلطان يسلم نفسه باستصدار فتوى من شيخ الإسلام تجيز له اتخاذ الإجراءات التي يقدم عليها السلطان ويقرر شيخ الإسلام أنها متمشية مع مبادئ الشريعة (١) .

إلغاء منصب شيخ الإسلام :

وعندما آلت السلطة في الدولة إلى جماعة الاتحاد والترقي عقب إنقلاب سنة ١٩٠٩ ، وكان النفوذ الأول في دوائر هذا الحزب لضباط الجيش ، حرص النظام الجديد على الانتقاص من سلطة شيخ الإسلام وسائر علماء الدين وتجهيدهم تبعاً من اختصاصاتهم وامتيازاتهم . وكان قد انتزع منهم الإشراف على التعليم والقضاء .

والفتية وظيفة شيخ الإسلام مع إلغاء نظام السلطنة سنة ١٩٢٢ . ولما ألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ أنشأت الجمهورية بدلا من وظيفة شيخ الإسلام إدارة جديدة للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزراء في أنقرة . وكان رئيس هذه الإدارة يطلق عليه « ديانت إيشلرى رئيسى » ويعتد رئيس الموظفين الدينيين في جمهورية تركيا ، ويعين بقرار من رئيس الوزراء . وكان من اختصاصاته الإشراف على المساجد والتكايا وتعيين الأئمة والوعاظ والمؤذنين وسائر موظفى المساجد ، وله أيضاً الإشراف على أعمال المفتين ، كما أنشأت حكومة الجمهورية إدارة عامة للمؤسسات الخيرية برأسها مدير عام يطلق عليه « أوقاف عموم مدير ليشى » يختص بالإشراف على الأوقاف التى استولت عليها الحكومة والعمل على صيانة المباني الموقوفة (١) .



Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., p. 413.

(١)

أفصل الحاس عشر

الهيئات الحاكمة في الدولة (٤)

الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة

القضاة :

ينتمي القضاء إلى الهيئة الإسلامية . وكانوا يبرون بطريق دراسى طويل قبل أن يتبوأوا مناصب القضاء . ونظرت الدولة إلى مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه . ووضعت نظاماً دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع أنحاء الدولة في القارات الثلاث : آسيا وأوروبا وإفريقية ، والأمر الجدير بالذكر أن الولاية القضائية ظلت تمتد إلى الأقاليم التي ضعف فيها النفوذ العثماني سياسياً أو عسكرياً أو إدارياً مثل بلاد القرم وشمال إفريقيا . وعلى ذلك فالقضاء العثماني كان أكثر نفاذاً وبقاء واستقراراً في الولايات العثمانية من النفوذ العسكري أو السياسي أو الإداري للدولة في تلك الأقاليم وأمثالها .

كانت المحاكم الإسلامية تنظر جميع أنواع القضايا سواء كانت قضايا مدنية أو جنائية . وسواء كانت من اختصاص الشريعة أو القوانين الوضعية أو العرف أو غير ذلك . وكان القضاء على بكرة أبيهم مسلمين ، ويفصلون في القضايا في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهب الرسمي للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب منهجاً رسمياً في الأقاليم الإسلامية التي فتحتها القوات العثمانية . وكان هذا التغيير المذهبي هو أحد التغييرات الرئيسية والقليلة التي أدخلتها الدولة في أقاليم العالم الإسلامي التي فتحتها . وعلى سبيل المثال كان مذهب الإمام الشافعي هو المذهب الرسمي في مصر قبل الفتح العثماني ،

فلما تم الفتح استبدلت الدولة العثمانية المذهب الحنفي بالمذهب الشافعي . وكان لا بد أن يكون حنيفياً كبير القضاة الذى توفده الحكومة العثمانية إلى مصر ليشغل هذا المنصب القضائى الكبير . وكان يطلق على شاعله أيضاً قاضى القضاة أو قاضى عسكر أفندى . ولكن لم تكن الولاية القضائية لتلك المحاكم تمتد إلى جميع الأشخاص فى الدولة ، إذ كانت فى النوبة هيئات معترف بها وكانت لها محاكمها الخاصة تنظر فى قضايا أفرادها مثل القولار ، وهم العبيد أعضاء الهيئة الحاكمة ، ومثل الأشراف الذين هم من سلالة أسرة النبي صلوات الله وسلامه عليه . أما رعايا النوبة المسيحيون فكانت قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بهم خارجة عن اختصاص المحاكم العادية ، وكانت تنظرها محاكم كنسية خاصة بهؤلاء المسيحيين برأسها رئيس « الملة » ، ولهُ أن يستعين ببعض رجال الدين المسيحي . وكانت هناك قضايا خاصة بإدارة أراض معينة من أراضي الأوقاف فكانت تنظر أمام محاكم خاصة برأسها عضو من الهيئة القضائية الإسلامية العادية . وعلى العموم فإن قضاة الهيئة الإسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التى تتعلق بالشريعة الإسلامية فى جميع أنحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والمسيحيين ، إلا إذا كان المسلم ينتهى إلى طائفة لها نظام قضائى يختص بها مثل القولار والأشراف كما سبق أن ذكرنا . وكان يشمل اختصاص القضاة نسبة كبيرة من القضايا التى تمس موضوعات خارجة عن نطاق الشريعة الإسلامية .

وكان القضاة بوجه عام يحصلون على جزء كبير من دخلهم من مصدري : الرسوم القضائية ، والغرامات التى يحكون بها ، وكلا المصدرين يدر لإيراداً وفيراً . كانوا يتقاضون جزءاً من الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها والمبايعات وعلى الأوراق الرسمية التى تصدر عن المحاكم ويطلق عليها الحجج الشرعية . وتسجل فى كل حجة التصرفات العقارية ، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب . وكان رسم زواج الأتمة ٣٢ أسيراً Asper أو أفجة وهى عملة فضية ، بينما كان رسم زواج الثيب ١٥ أسيراً (١) .

(١) انظر الرسوم التى حددها السلطان محمد الثانى لثمن المناسبات والتصرفات القانونية فى :

فئات القضاة :

كان القضاة يتدرجون تحت درجات أو فئات حتى :

قاضي القضاة أو رئيس القضاة أو قاضي عسكر .

هيئات التدريس في المعاهد والمدارس التي تعد العلماء والباحثين والمتخصصين في الثقافة الإسلامية العليا واللغة التركية والأدب التركي وحتى التخصصات في نواحي المعرفة .

المولا (١) الكبير ويطلق عليه المصطلح التركي « مولا بيوك » .

المولا الصغير ويطلق عليه المصطلح التركي « مولا كوجوك » .

المفتش .

القاضي .

النائب .

وكان الاسم العام للقاضي بصرف النظر عن درجته هو القاضي . ولكن كان التعبير الشعبي الذي يطلق على كل منهم من قبيل الاحترام والتقدير هو المولا .

قاضي عسكر :

أنشأت الدولة على رأس النظام القضائي منصب قاضي القضاة أو رئيس

(١) المولا Molla تحريف للكلمة العربية مولى-يفتح الميم أوضمها وسكون الواو وفتح اللام- بمعنى سيد أو رئيس أو زعيم أو قيم - وقد حرفت هذه اللفظة بدورها في أقاليم شمال إفريقيا فأصبحت مولاي . ومن بين الطرق الصوفية المشهورة توجد الطريقة المولوية التي أسسها جلال الدين الرومي . وقد اشتقت اسمها من كلمة « مولانا » بمعنى سيدنا .
ويطلق الأكراد إلى الوقت الحاضر (١٩٧٨) لفظة المولا على السيد الوقور كبير السن في المركز المرموق سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية . وهي تقابل في المجتمعات القبلية كلمة شيخ . وأكثر الأكراد استخداماً لهذه الكلمة هم أكراد العراق ، فيذكرون اسم الشخص مسبقاً بكلمة مولا . وهل سيل المثال ، المولا مصطفى البرزاني زعيم الأكراد المعاصر . وتكتب الكلمة أحياناً الملا بعد إسقاط حرف الواو منها . وتنطق في اللغة التركية وفي اللغة العربية بضم حرف الميم . وفي اللغة الكردية يفتح الميم . كما أنها تنطق في هذه اللغات الثلاث بلون شدة .

القضاة . وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضى عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة في سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلهم وترقياتهم ، وتعرض عليه التقارير والمدكرات التى يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضى عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له ، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال المطلبجى ، والتطبيقجى والمكوبجى . وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقق من صحة الأختام على المدكرات والتقارير التى ترفع إلى قاضى عسكر .

وكان قاضى القضاة بجانب اختصاصاته القضائية يتمتع بنفوذ أدبى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد إسلامى . وقد خشى أحد الصلور العظيم ، ويسمى قرمان محمد باشا ، أن يتضاءل نفوذه بجانب نفوذ قاضى القضاة ، فاقترح على السلطان محمد الثانى أن ينشئ منصباً ثانياً لوظيفة قاضى عسكر - ويسمى قاضى عسكر ليك - وأن يطلق على شاغله قاضى عسكر الأناضول ، وأن يطلق على شاغل الوظيفة الأولى قاضى عسكر الروملى ، وأن يتقاسم الاثنان الاختصاصات التى كان يمارسها قاضى عسكر ، فيختص أحدهما بقضاء الأناضول بينما يختص الآخر بقضاء بلاد البلقان وبقية الأقاليم العثمانية فى أوروبا . وكان الدافع الحقيقى للصلور الأعظم - محمد قرمان باشا - على هذا الاقتراح هو كسر النفوذ الواسع العريض الذى كان يتمتع به قاضى عسكر حين كان هو الرئيس المباشر لقضاة الدولة . وقد أخذ السلطان محمد الثانى بهذا الاقتراح ، وتم إنشاء المنصب الجديد فى سنة ١٤٨٠ قبل وفاة السلطان بسنة واحدة (١) . وعلى هذا النحو وجد فى الدولة منصبان يحمل شاغل كل منهما لقب قاضى عسكر مع إضافة الإسم الجغرافى الذى

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة قاضى عسكر .

يحدد مناطق ولايته القضائية إلى اسمه . ولكن كان قاضي عسكر الرومل أعلى مركزاً من زميله قاضي عسكر الأناضول . وكان الأول يصحب الجيش العثماني حين كان يتوغل في أوروبا ويخوض المارك . وكان من اختصاصاته تعيين جميع القضاة الذين يعملون في أوروبا ، وكذلك العاملين في المساجد التي أقيمت في الولايات العثمانية الأوروبية ، وكان قاضي عسكر الأناضول يمارس مثل هذه الاختصاصات فيما يختص بالأقاليم العثمانية في آسيا . وكان هذان القاضيان الكبيران بليان شيخ الإسلام في المرتبة . ولكي تواجه الدولة زيادة الأعباء التي نجمت عن التوسع الإقليمي العثماني في العالم الإسلامي منذ حكم السلطان سليم الأول ومن بعده ابنه السلطان سليمان المشرع أنشأت منصباً ثالثاً لقاضي عسكر شملت ولايته القضائية معظم الأقاليم الإفريقية التي دانت لحكم العثمانيين .

كان قضاة العسكر أعضاء في الديوان الإمبراطوري . وكانوا يشتركون اشتراكاً فعلياً مع رئيسه الصلبر الأعظم في نظر القضايا التي تعرض على محكمة الديوان ، كما كان يشارك في هذا العمل في بعض الأحيان بعض القضاة من فئة مولا الكبير ، وسنعرض لم في موطن قادم في هذا الفصل ، ونقف هنا لترد على رأى أبدها أحد كبار المستشرقين الإنجليز حين قرر أن عضوية الديوان الإمبراطوري كانت ميزة لقضاة العسكر لم يشاركهم فيها شيخ الإسلام (١) والواقع كان عكس ذلك تماماً ، لأن علم تقرير عضوية شيخ الإسلام في الديوان الإمبراطوري كان نوعاً من التكريم لشيخ الإسلام تفادياً لوجوده في موقع يكون فيه تحت رياسة الصلبر الأعظم الذي كان يرأس بحكم منصبه الديوان الإمبراطوري . وكانت الدولة منحصر على تجنب شيخ الإسلام مثل هذه المواقف التي قد تنال من هيبته شاغل أكبر منصب ديني إسلامي في الدولة .

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1 Part (1)

امتيازات قاضي العسكر :

من بين الامتيازات التي تقررت لقاضي عسكر الدولة أن يقام حفل رسمي لكل منهما عند تعيينه في منصبه . وكان على الصدر الأعظم أن يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم ، وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحداً عنه في حضور الحفل . وكان الصدر الأعظم يقدم لقاضي عسكر رداء التشريفة ، وهو فرو سموز ، ويساعده على ارتدائه في أثناء الحفل (١) . وكانت تخصص لكل قاضي عسكر عربية يستقلها في تنقلاته . وإذا قامت الحرب في آسيا محبب قاضي عسكر الأناضول الجيش العثماني إلى ساحة الحرب . أما إذا كانت الحرب في أوروبا فإن قاضي عسكر الرومل هو الذي يرافق الجيش . وفي كلتا الحالتين كانت تقدم لكل منهما أطواخ (٢) تنصب أمام خيمته التي تكون مجاورة لخيمة السلطان وخيمة الصدر الأعظم .

قضاة التخت :

كان يلي قضاة العسكر في الدرجة والمركز قاضي إستانبول ويطلق عليه إستانبول أفنديسي (٣) والقضاة الثلاثة لضواحيها الثلاث : وكانت هذه الضواحي

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., Vol., IV p. 552.

(٢) انظر ص ص ٣٦٤ - ٣٦٥ في هذه الدراسة .

(٣) أفندي لفظه حماليه شاع استخدامها في جميع البلاد التي خضعت للنولة العثمانية . وهي لقب يمنح للأشخاص المدنيين الملقين ثقافة واسعة . وقد اشتقت من كلمة أفندي عنده مصطلحات تاريخية ، نذكر منها :

أفنديز ومنعاه مولانا . وكان السلطان العثماني ينادي أحياناً بهذا اللقب .

أفندينا ومنعاه مولانا . وكان ولاية مصر من أسرة محمد علي يطلق عليهم هذا اللقب سواء من كان يحمل منهم لقب غلبو اعتباراً من سنة ١٨٦٧ أو من لم يكن يحمل قبل هذا التاريخ .

أفنديم لقب منعاه السيد أو السيدة .

أفنديسي : إستانبول أفنديسي أي قاضي إستانبول .

ديوان أفنديسي أي سكرتير ديوان القاهرة الكبير ديوان بيوك .

الريس أفندي لقب يطلق على وزير الخارجية العثمانية .

Barbier de Meynard; op. cit., Vol. I, pp. 42-43.

هي : سكوتاري Scutari وهو اسم يرجع إلى العهد البيزنطي ، ولذلك يطلق على هذه الضاحية أيضاً الاسم التركي أسكودار (١) Uskudar ، ثم ضاحية جالاطه Galata ، ثم ضاحية أيوب ، وكان يطلق على هذه الضواحي الثلاث اسم « بلاد ثلاثة » أي البلاد الثلاثة . وهذا المصطلح له مدلول قضائي ومدلول إداري . فقضاة هذه الضواحي يتمتعون باستقلال قضائي عن قاضي إستانبول . كما كان لهذه الضواحي بعض الاستقلال في شئون الشرطة . (٢) وكان هؤلاء القضاة الأربعة يجلسون جلسة الديوان الإمبراطوري يوماً واحداً في الأُسبوع ، ويحلون على قاضي العسكر ،

(١) استخدم اسم سكوتاري في أواخر عهد الدولة البيزنطية . ويحتمل أن يكون هذا الاسم قد اشتق من اسم كنيية حامل الدروع التي رابطت في تلك البقعة حل عهد الإمبراطور فالنس Valens . ويوجد احتمال أقوى من الاحتمال السابق ، هو أن هذه المنطقة قد اكتسبت اسمها من قصر كان مشيداً فيها يسمى سكوتاريون Scutarion منذ عهد الأباطرة الكومننوي Comnenoi .

أما كلمة أسكودار ، أو ، أسكودار ، أو إسكودار ، فهي كلمة تركية معناها محطة البريد ، إذ كانت بحكم موقعها الجغرافي القاعدة الهامة لمحطات الكبيرة والصغيرة التي تخرج من العاصمة إلى أطراف الإمبراطورية العثمانية في آسيا وإفريقية . إذ تقع هذه الضاحية - وهي أقدم حى في إستانبول - في منطقتها الواقعة على الجانب الآسيوي من البوسفور عند سفح تل بو لغوردى حيث يمتد الشاطئ الآسيوي أقصى امتداد نحو الغرب مقابل برج لياندر Leander أو قيز أقوله .

وفي العهد العثماني ازدادت كثافة السكان في أسكودار ، وبخاصة منذ عهد السلطان سليمان المشرع . وكان من أسباب زيادة تعدادها أنها أصبحت موطناً لتجمعات الدراويش ومقراً للفكاهة ومركزاً هاماً لحياة التصوف في العاصمة . وأشهر التكايا القائمة بها تكية الطريقة الحلوية . كما شيد فيها عدد كبير من المساجد أنشأت أكبرها سيدات في البلاط العثماني . ومن أشهرها :
مهراه جامعي أو إسكله جامعي شيد سنة ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م أمام الحرم الكبير
إسكي والده جامعي ، ويقع في الجنوب ، وتم بناؤه سنة ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م .
جامع چنبل ، في الجنوب الشرقى ، وكل بناؤه سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠ م .
يكي والده جامعي تم بناؤه سنة ١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م .
جامع السليمية وقد شيدته سليم الثالث يوحى به الجديده الذي سمى « نظام جديد » .

(٢) لم تكن هذه الضواحي الثلاث تخضع في شئون الشرطة لسلطة رئيس الإنكشارية ، شأن إستانبول نفسها ، وإنما كانت تخضع لضباط آخرين .

ويساعدون الصدر الأعظم رئيس الديوان في نظر القضايا . وكان يطلق على هؤلاء القضاة الأربعة - قاضى إستانبول وقضاة الضواحي . اسم معبر هو « تحت قاضيسى » ، أى قضاة التخت ، لأنهم يقيمون بصفة دائمة في العاصمة وعلى مقربة من العرش السلطاني الذى كان يطلق عليه التخت . وكان الصدر الأعظم عقب انتهاء جلسة المحكمة يذهب في صحبة قاضى إستانبول في جولته التفتيشية الميدانية في العاصمة . وبما هو جدير بالذكر أن قضاة التخت الأربعة كانوا ينتمون إلى طائفة القضاة من فئة المولا الكبير .

القضاة من فئة مولا الكبير :

كان عدد القضاة من فئة مولا الكبير يختلف من عصر إلى عصر (١) وفي القرن الثامن عشر بلغ عددهم سبعة عشر قاضياً (٢) تضمهم عدة مجموعات .

قاضى عسكر الروملى ، وقاضى عسكر الأناضول .
قضاة التخت .

قاضيًا مكة المكرمة والمدينة المنورة .

قضاة بروسه ، وأدرنة ، ودمشق ، والقاهرة . ويلاحظ أن بروسه وأدرنة كانت كل منهما في وقت ما عاصمة للدولة العثمانية .

قضاة بيت المقدس ، وأزمير ، وحلب ، ولاريسا (٣) ، وسالونيك .

وكان شيخ الإسلام هو الذى يعين هؤلاء القضاة السبعة عشر ، ويوافق الصدر الأعظم على تعيينهم ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيينهم في مناصبهم . وكانوا يشغلون المناصب القضائية مدى الحياة . ولكن كانت تصدر من وقت إلى آخر حركة ترقيات أو تنقلات تشمل أولئك القضاة الكبار . وكان لكل

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, (١)
Part II, p. 89.

Lybyer A.H.; op. cit., p. 217. (٢)

(٣) لاريس Larisse مدينة في بلاد اليونان وتقع في إقليم تساليا .

منهم جهاز إدارى يتكون من مراقبي الحسابات وأمناء الخزانة والكتابة ومن
إلهم من المساعدين . وكان القضاة من فئة الملا الكبير يعقدون الجلسات أحيانا
في بيوتهم ، بينما كان سائر القضاة ينظرون القضايا في المحاكم .

وإلى جانب أولئك القضاة من فئة مولا الكبير كان يوجد ستة علماء
يتتمون إلى هذه الفئة ، وهم : خوجة السلطان ، الإمامان ، حكيم باشى ،
وجراح باشى ، ومنجم باشى .

المفتشون :

كان المفتشون من رجال القضاة ، وإن كان اسمهم لايم عن مهمتهم
القضائية . وكان عددهم قليلا يصل إلى خمسة مفتشين ، وكانوا جميعا قضاة من
درجة « مولا بيوك » ، أى مولا الكبير ، ويختصون بالإشراف على الأوقاف
السلطانية ، فينفقون من إيراداتها على المؤسسات الدينية والخيرية . وكان
بعضها تحت إشراف شيخ الإسلام ، والبعض الآخر تحت إشراف الصدر
الأعظم ، والبعض الثالث والأخير تحت إشراف رئيس الخصيان البيض
الذى يقوم على الخلعة الداخلية في أجنحة الحرم السلطانى . وكان يطلق
عليه أحيانا « باب السعادات أغاسى » أى أغا باب السعادة ، وأحيانا أخرى
« قابى أغاسى » . أى أغا البوابة . وكان مقر ثلاثة من أولئك المفتشين في
إستانبول ، يختص كل منهم بقسم من الأقسام الثلاثة لهذه الأوقاف . كان
أحدهم يعمل مع شيخ الإسلام ويسمى « شيخ الإسلام مفتشى » ، وكان
الثانى يعمل مع الصدر الأعظم ويسمى « وزيرى أعظم مفتشى » ، وكان
الثالث يسمى « حرمين مفتشى (١) » لأنه كان يشرف على الأوقاف المرصودة
على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويلاحظ أن الأخير
كان حتى قرب نهاية القرن السادس عشر رئيس الخصيان البيض . وفى
القرن السابع عشر تقاسم مع زميله رئيس الخصيان السود ، والذى كان

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1 Part II, (١)
p. 92, fn. No. 2.

يطلق عليه « قزيرلر أغاسى » أى أغا البنات ، الإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين ، ثم انفرد رئيس الخصيان السود بالإشراف على هذه الأوقاف فى القرن الثامن عشر . أما المفتشان الآخران فكان أحدهما يباشر عمله فى مدينة أدرنة ، والآخر فى مدينة بروسة ، وكانا يتبعان رئيس الخصيان (١) . وكان لكل من هؤلاء المفتشين الخمسة جههاز يضم عدداً كبيراً من الموظفين المساعدين يتجولون فى مناطق الأوقاف (٢) .

امتيازات رجال القضاة من فئة مولا الكبير :

كان القضاة من فئة مولا الكبير يتمتعون بعدة امتيازات . كان لكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من الفرو السمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العبايات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن إليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية أن يقام حفل رسمى كبير - سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات - لتقديم هذا الرداء للشخص أو للأفراد الذين يتم به عليهم . ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين . ويتولى رئيس الحفل مساعدة القاضى فى ارتداء الفرو السمور .

وكان من امتيازات القضاة من فئة المولا الكبير أن يتبعهم فى غداواتهم وروحانهم عدد من الرجال يسمى كل منهم المحضر . وتكتب فى اللغة التركية الحذر . وكان يرأس هؤلاء الرجال ويتولى توزيعهم على القضاة رئيس يسمى محضر باشى . وكان يؤخذ من حراس بوابات القصر - القابجية . وكانت توجه الدعوة إلى أولئك القضاة وإلى كبار أساتذة مدرسة الشريعة والقانون بإستانبول لحضور الاحتفالات التى تقام عند اعتلاء سلطان جديد العرش العثمانى ، ويقدم فيها كبار الموظفين الولاء له . وكانت هذه الدعوة تتكرر بعد ذلك مرتين على مدار السنة . كانت المرة الأولى عند حلول « كوجوك برامى »

D'Ohsson Mouradega Ignatius, op. cit., t. IV, p.568. (١)

Lybyer A.H.,; op.ict., p.201. (٢)

الصغير ، ويسمى أيضاً « سكر ييراي » أى عيد الحلوى وهو عيد الفطر ،
والمرّة الثانية عند حلول « بيوك ييراي » أى العيد الكبير ، ويسمى أيضاً
« قربان ييراي » أى عيد الأضحى . فكان يقام فى كل عيد من هذين
العيدين حفل استقبال رسمى « ركاب همايون » فى القصر السلطانى . وكان
القضاة من فئة الملا الكبير يشهدون هذين الحفلين كما يشهدهما شيخ الإسلام
وقاضيا المسكر .

القضاة من فئة مولا الصغير :

كان القضاة من فئة مولا الصغير يعملون فى عشر مدن من مدن الصف
الثانى، وهى : مرعش ، بغداد ، بوسنا سراى (١) ، صوفيا (٢) ، بلغراد ،
عتتاب (٣) ، كوتاهية ، قوتيه ، فيلوبو بوليس (٤) ، ديار بكر .

القضاة العاديون :

كان القضاة العاديون يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة المهنة
الإسلامية . وكان عددهم فى أواخر القرن الثامن عشر قد بلغ زهاء أربعائة
وخمسين قاضياً يباشرون القضاء فى المدن الصغيرة فى أوروبا وآسيا وإفريقية .
وكان عددهم فى أوروبا يبلغ مائتين . وكان القضاة الذين يعملون فى بلاد
القرم وفى شمالي إفريقيا يتبعون قضائياً كبير القضاة فى الروملى . وكان
قضاة مصر يتبعون فى بعض الفترات كبير القضاة فى الأناضول والذى يسمى
قاضى عسكز الأناضول ، كما كانوا يتبعون فى بعض الفترات قاضى القضاة
فى إستانبول .

(١) بوسنا سراى Bosna Sersاى هى عاصمة ولاية البوسنة ، وتقع حالياً فى
يوغوسلافيا .

(٢) صوفيا وتكتب أحياناً Sophia وأحياناً أخرى Sofia ، عاصم بلغاريا .

(٣) عتتاب مدينة فى سوريا .

(٤) تكس بالفرنسية والإنجليزية Philippopolis مدينة فى بلغاريا ، وتقع على نهر
مارتيزا La Martiza الذى يصب فى بحر إيجه . وكانت إبان الحكم النجاشى عاصمة لإقليم
الروملى . ولهذه المدينة شهرة واسعة فى صناعة الروائع العطرية ، وبخاصة روح الورد .

التواب :

وكانت وظائف التواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفي القضائي . وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية في المدن الصغيرة أو في القرى الكبيرة ، كما كانوا يحلون محل القضاة في أثناء تغييبهم عن عملهم عند قيامهم بالأجازة أو في أثناء مرضهم . وكان النائب يشترى منصبه ولا يتقاضى مرتباً من الحكومة ، ولكنه كان يحصل على إيرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التي كان يحكم بها على المخالفين والذين يرتكبون أعمالاً تخلة بالأداب العامة وما إلى ذلك .

المفتون :

كان المفتون يشكلون قطاعاً هاماً للغاية في الهيئة الإسلامية إلى جانب القضاة . وكان المفتون يعينون في المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة ، ولكن كان مركزهم يأتي بعد مركز القضاة ، ويظلون في مناصب الإفتاء مدى الحياة ، أي دون التقييد ببلوغهم سنًا معينة يحلون عندها إلى التقاعد . وكانت مهمتهم إصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منهم بحثها ، فيعكف الواحد منهم على دراستها في ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة ، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل ، وتشبه الاسفارة . وكان الرأي الذي ينتهي إليه المفتي يسمى فتوى .

وكان عدد المفتين في أنحاء الإمبراطورية يصل إلى ما يقرب من المائتين . كانت غالبيتهم تعمل في المدن الهامة بجانب القضاة كما ذكرنا ، بينما عمل البعض الآخر بجانب كبار رجال الحكم في الولايات يمدونهم بالرأي الصحيح في المسائل العامة من حيث عدم تعارضها مع مبادئ الشريعة الإسلامية . فكان كل منهم يشغل ما يمكن أن نطلق عليه المصطلح الحديث منصب المستشار الديني . فكان هناك مفتيان : أحدهما يعمل مستشاراً دينياً للحاكم العام لمقاطعات الأناضول أو إيل إناضولى ، وثانيها للحاكم العام لمقاطعات الروملى التي يطلق عليها إيل روملى ، كما عينت الحكومة مفتين لحكام المديرات الذين يطلق عليهم الصناجق البكوات . وكان إذا طلب حاكم الولاية أو الصنجنق البك من المفتي

أن يوضح له رأى الشريعة فى مسألة عامة أو فى قضية قانونية معلقة ، فإن مثل هذه الفتوى التى تصدر عن المفتى يؤخذ بها جملة وتفصيلاً ، وتحسم الموقف سواء فى المسألة العامة أو فى القضية المطروحة .

وكانت مجالات العمل أمام المفتين محدودة وبالتالي ضيقة ، فقلما لحأ إليهم القضاة أو رجال الحكم المحلى لإصدار فتاوى لهم ، ولذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم الوظيفى كان يشوبه الخمول أو الركود ، ثم اتسعت أمامهم آفاق العمل حين سمح للأفراد بالالتجاء إلى المفتين لإصدار الرأى القانونى فى القضايا المطروحة أمام المحاكم . فكان المفتى يصدر رأيه كتابة ومسجلاً على ورقة رسمية على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية . ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كسند يدعم موقفه فى القضية . وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحه . ويلاحظ أنه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، ولذلك كان المفتون عنصرأ ضرورياً وهاماً ونافعاً فى النظام القضائى . وقد رحب المفتون بالفتاوى التى تصدر عنهم للأفراد ، لأنها جاءت بمورد مالى جديد تمثل فى الرسوم التى يدفعها طالب الفتوى . وكان للمفتين نصيب من هذه الرسوم . فكان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان .

أما المفتون الذين كانوا يعملون فى سائر المدن فلم يشغلوا المركز الكبير الذى تمتع به مفتى العاصمة . كان المفتون فى الأقاليم أقل درجة ومرتباً من القضاة ومن إليهم من موظفى الحكومة . وكانت وظائف المفتين لا تحاط بأى نوع من أنواع المظهيرية التى كانت تحاط بها المناصب الأخرى فى نفس المدينة أو الإقليم أو الولاية .

وقد أسدى المفتون للدولة أجل الخدمات ، فقدموا لها بصفتهم حراس الشريعة قوة الإسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الإسلامية دون أن تتعرض هذه (م ٢٨ - الدولة العثمانية)

القوة الروحية لمزات أو تغييرات ، بل مضت في طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الإسلامي العميق .

وقام نفوذ المفتين على عدة عوامل ، منها : أن جميع الرعايا المسلمين يعتقدون اعتقاداً راسخاً في التفوق المطلق للشريعة الإسلامية الفراء ، لأنها جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية . والعثمانيون معروفون باحترامهم مبادئ الدين وبتعصبهم الشديد للإسلام . ولا يمكن أن يداني قانون من القوانين الوضعية الشريعة الإسلامية . كما أن الرعايا المسلمين كانوا يعرفون أن أولئك المفتين قد درسوا الشريعة الإسلامية سنوات طوالاً وتحملوا في تعلمها وتحصيتها مجهوداً عقلياً مضنياً ، ولكنهم لم يهجروا العلم بمجرد انتهاء دراستهم ، بل مضوا يمارسون مذاكرة العلم والاستزادة منه ، ثم تطبيقه عملياً في المجالات التي يعملون فيها وفي المواقف التي يطلب منهم الإدلاء برأى الشريعة فيها . يضاف إلى تلك العوامل التي كانت دعامة نفوذ المفتين أن العثمانيين كانوا يدركون أن الفضل في بقاء الدولة العثمانية وتفوقها إنما يرجع إلى المفتين لأنهم أسهموا إلى حد كبير في بقاء الدولة العثمانية سليمة متماسكة ، واستطاعت أن تقف في وجه الهزات العنيفة والنكسات الأليمة والخسائر الفادحة التي تعرضت لها ، وأن يستمر بقاؤها أحقاباً وأعصرأ وأدهاراً استطلت أكثر بكثير مما كان يتوقعه العالم كله لسقوطها . وكان دور المفتين بارزاً وقوياً في بقاء بنية الدولة شامخاً قوياً ضد أعداء كانوا يترصبون بها الدوائر في الداخل والخارج .



كان عدد من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، ويعملون على مقربة من السلطان ، وكانوا يمثلون الهيئة الإسلامية داخل القصور السلطانية . كان في مقدمتهم :

خوجة السلطان :

والمعنى الخرفي لهذا المصطلح معلم السلطان . كان بمثابة مستشار السلطان في المسائل الدينية وغيرها . ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين أفراد

حاشية السلطان وفي دوائر الحكومة . وكان خوجة السلطان في درجة المولا الكبير أى قاض من الدرجة الأولى . ولذلك كان رقى من هذا المنصب المرموق إلى الوظائف العليا في الدولة ، وإذا امتد به الأجل يصل إلى أعلاها .

الإمامان :

وكان هناك إمامان للسلطان ، يؤم كل منهما السلطان بالتناوب في صلواته سواء في داخل القصر أو في المساجد السلطانية التي يقع اختيار السلطان عليها لأداء صلاة الجمعة فيها . ويلحق بالإمامين عدد من المؤذنين يؤذنون للصلاة سواء في مساجد القصور أو في المساجد التي يؤدي فيها السلطان صلاة الجمعة . وكان للمؤذنين رئيس خاص بهم يسمى « المؤذن باشى » أى كبير المؤذنين . وكان المؤذنون يؤخذون من الجاوشية الذين يتميزون برخامة الصوت ، وكانوا من جاوشية الأقسام الدنيا . وكان يختارهم موظف إلى المؤذن باشى في الرتبة ، ويطلق عليه الناس مؤذن أو « سرى مخفل » أى رئيس المقصورة الخاصة التي كان السلطان يؤدي فيها الصلاة من وراء ستار في المساجد السلطانية . وكان « سرى مخفل » يدرّب الجاوشية ، فإذا أظهروا كفاية أدرجت أمماؤهم في كشوف لتعيينهم حين تخلو وظائف لهم .

وكان خوجة السلطان والإمامان من الهيئة الإسلامية ، وتمتعوا بنفوذ كبير جداً في الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التي أولاهها إياهم السلطان ما جعل الأصواء تسلط عليهم . وكان السلطان يقدر آراءهم على أساس أنها منزهة عن الأغراض والأهواء الشخصية ، ولذلك أطلق على هؤلاء الثلاثة : أذن السلطان *L'oreille du Sultan* .

تخصصات علمية أخرى ينتمى أصحابها هيئة العلماء :

لم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون إلى هيئة العلماء ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل الأطباء والجراحين والمنجمين^(١) ومن إليهم من أصحاب التخصصات

العلمية . ولعل مرد هذا الشمول إلى أن فريقاً من الأطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب والفقه وأصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم في معظم هذه المجالات قدم راسخة . ونذكر منهم على سبيل المثال بهجت مصطفي أفندي (١١٨٨-١٢٤٩ هـ / ١٧٧٤-١٨٣٤ م) ، تقلد المناصب الطبية حتى وصل سنة ١٨٠٣ إلى منصب كبير أطباء السلطان ، ثم انتقل إلى المناصب الدنيوية والقانونية المرموقة ، كان من بينها منصب قاضي أزمير من طبقة مولا ثم قاضي مصر سنة ١٨٢٠ ثم توج حياته الوظيفية بشغله وطيفه قاضي عسكر الأناضول سنة ١٨٢٢ ، ثم قاضي عسكر الروملي (البلقان وبقية الولايات العثمانية في أوروبا) سنة ١٨٣٢ . وكانت هذه الشخصية تعتبر أحد رواد الطب الحديث على النمط الأوروبي . أنشئت تحت إشرافه مدرسة طب جديدة استقدمت الدولة لها مدرسين أوروبيين ، كما أنشئ تحت إشرافه أيضاً مستشفى جديد . وعكف على دراسة لغات أوروبية على يد كبير الترجمة في الباب العالي . وقام بترجمة عدد لا يستهان به من الكتب العلمية والطبية ، منها : كتاب ينر Jenner عن التطعيم ، وكتاب بوفون Buffon عن التاريخ الطبيعي ، ومصنفات أخرى عن الكوليرا والزهرى وقوباء الغنم (١) . وتولى ترجمة كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتي « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » إلى اللغة التركية . وقصر ترجمته على الجزء الخاص بالحملة الفرنسية على مصر ، وأطلق عليه « تاريخ مصر » وقد طبعه في إستانبول سنة ١٢٨٢ هـ (٦٥-١٨٦٦ م) .

وتوجد شخصيات عثمانية أخرى من هذا الطراز كانت أسبق من بهجت مصطفي أفندي ، نذكر منها على سبيل المثال آيدينلي (٢) حاجي باشا وهو ، خضر

(١) انظر ترجمة حياته في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة « بهجت مصطفي أفندي » .

(٢) آيدينلي نسبة إلى آيدين وهي مدينة في آسيا الصغرى . وقد احتلها السلاجقة الروم في العصور الوسطى ، ثم أصبحت بعد ذلك حاضرة إمارة أسما الأمير آيدين وغلط عليها اسمه . وقد ضم حفيده الأمير عيسى هذه الإمارة إلى السلطان العثماني أبي يزيد الأول ، واستولى السلطان مراد الثاني عليها نهائياً سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) عند وفاة أميرها جنيد . ولكن ظل حكم هذه الإمارة وراثياً في أسرة قره عثمان أوغل عدة قرون حتى نجح السلطان محمود الثاني في إنهاء حكمهم لها سنة ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣ م) .

ابن علي بن خطاب ، وكان معاصراً للسلطان أبي يزيد الأول - يلدريم - (١٣٨٨-١٤٠٣) ، جمع بين دراسة الفقه الإسلامي وعلوم البلاغة وبين دراسة الطب ، فقد ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة على أشياخ عصره ، وانصرف بعد ذلك إلى دراسة الطب . وألف في تلك التخصصات عدة رسائل وكتب ومراجع . ويلاحظ أن مؤلفاته الطبية فاقت ، من حيث عددها وأهميتها ، رسائله في الفقه والتفسير والمنطق . وقيل إن كتابيه « الشفاء » و « تسهيل الطب » قد نقلتا إلى اللغة اللاتينية (١) .

علماء التنجيم :

أما علم التنجيم ، فعلى الرغم من أن جبهة العلماء والفلاسفة المسلمين يجمعون على إنكار التنجيم ، إلا أنه يوجد عدد قليل من علماء المسلمين مثل الكندي وإخوان الصفا وفخر الدين الرازي يخالفون هذه الجبهة ، ويعتبرون التنجيم فرعاً من علم النجوم ، وأطلقوا عليه علم أحكام النجوم (٢) . وفي

(١) من رسائله في الفقه والتفسير والمنطق :

- « تفسير في جميع الأنوار في جميع الأسرار » . ويقع في مجلدين .
- « طوابع الأنوار في الكلام » وهو شرح على تفسير البيضاوي للقرآن الكريم .
- « حرائر على شرح فخر الدين الرازي لكتاب « مطالع الأنوار في المنطق » .

ومن مؤلفاته الطبية :

« الشفاء » وضعه باللغة التركيبية وبيحث في أنواع العلاج . وقسمه ثلاثة أقسام ، تناول في القسم الأول علم وغايات الأعضاء وعلم التغذية ، وفي الثاني الألعمة والأدوية ، وفي الثالث أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها .

« تسهيل الطب » وهو عبارة عن رسالة يسط فيها كتابه السابق .

« شفاء الأسمقام ودواء الآلام » .

« الفريدة في ذكر الأهلية المغيبة » .

« الصعالي » .

« الكيسى الجلال » .

(٢) يقوم التنجيم على أساس أن جميع ما يقع من أحداث جسم وغير جسم في العالم إنما يتصل اتصالاً وثيقاً بتحركات الأجرام السماوية ، وأن الإنسان خاضع لتأثيرات النجوم . ويختصر عمل المنجم في معرفة هذه التأثيرات . وكانت المسائل التنجيمية تعالج من حيث أنها مسائل فلكية ورياضية من هندسة وحساب وحساب مثلثات . وقد ظهر هذا الاتجاه في المصنفات الخاصة بالفلك وفي الجداول التي وضعت للأغراض الخاصة بالتنجيم . وكان اليونانيون والمنفرد =

رأيهم أن علم الفلك وعلم أحكام النجوم يؤديان إلى علم التنجيم . وأطلقوا على المشتغل به « الأحكامى » أو « المنجم » ، وإن كان لفظ المنجم يطلق على الفلكى أيضاً . ولم يفرق بدقة بين المنجم والفلكى إلا فى القرن التاسع عشر . وكانت مهمة المنجم تعيين « الطالع » سواء بالنسبة للفرد أو الشعب أو المدينة أو الدولة وما يتبع ذلك من وقوع حوادث سعيدة أو أحداث دامية مثل نشوب حرب ، أو انتشار أوبئة ، أو حدوث فيضانات خطيرة تهدد البلاد بالغرق ، أو وقوع كوارث أخرى مثل الزلازل والبراكين . وعلى الرغم من إنكار جمهرة علماء المسلمين لعلم التنجيم إلا أنه استموى أفتدة الجماهير ، وكان له شأن كبير فى قصور السلاطين العثمانيين (١) .

حكيم باشى ، جراح باشى ، منجم باشى :

وكان للسلاطين ثلاثة من كبار الموظفين ينتمون إلى هيئة العلماء ، هم طبيبه

= هم أساتذة المنجمين الإسلاميين . ولكن فوق الأخيرين على من سبهم من المنجمين الذين كانوا يقومون بحسابات مبسطة . وجددير بالذكر أن دور الطباعة فى أوروبا تولدت طبع الكتب والمداولات ومنها المسلمون فى علم التنجيم . وعلى سبيل المثال طبع فى البندقية الكتاب الجامع الذى وضعه أبو الحسن بن أبى الرجال ، وهو فى ثمانية مجلدات فى السنوات ١٤٨٥ ، ١٥٠٣ ، ١٥٢٣ ، كما طبع فى مدينة باك فى سويسرا سنة ١٥٥١ ثم فى سنة ١٥٧١ . انظر دائرة المعارف الإسلامية : مادة التنجيم .

(١) كدليل على فاصل علم التنجيم فى بعض النوازل الإسلامية قبل قيام الثورة العثمانية بقرون طويلة مارواه المقرئى من أن جوهر الصقل لما أراد تأسيس مدينة القاهرة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فقبلوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل حلقوا فيه أجراماً ، وقالوا لهمال : إذا تحركت الأجرام فالتقوا ما فى أيديكم من طين وحجارة . وبينما كان الهمال يتربصون ، وقف غراب على أحد تلك الهمال ، فتحركت الأجرام جميعاً ، فظن الهمال أن المنجمين قد حركوها ، فالتقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وترسوا فوراً فى لبناء . فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع . لفسى ذلك وفاتهم ما تصدوه ، ويقال إن الربيع كان فى الطالع فى تلك اللحظات عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسوها القاهرة .

وعلى الرغم من أن منظم المؤرخين رفضوا الأخذ بهذه الرواية فإن ذبوعها بين الجماهير دليل على أن الكثيرين كانوا يعتقدون فى علم التنجيم المؤسس على الفلك والحسابات الفلكية . ويذكر ابن التلائس أبو حل حمزة (٨٥٥ هـ / ١١٦٠ م) فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » (طبعة =

الخاص ، ويطلق عليه « حكيم باشى » أى كبير الأطباء ، ويعمل تحت رياسته عدد من المساعدين ، ثم « جراح باشى » أى كبير الجراحين (١) ، ويعمل معه عشرة من الجراحين بمناياة مساعدين له . (٢) ثم منجم يطلو عليه « منجم باشى » (٣) أى كبير المنجمين . وكان لعلم التنجيم مكانة فى البلاط السلطانى تنعكس على المنجم باشى . وكان يعد تقويمياً يتنبأ فيه بالأوقات السعيدة التى على السلطان أن ينقلد فيها ما يعززه من مشروعات . وكان السلطان يسترشد بما جاء فى التقويم عند تعيين الوزراء ومن لإيم من كبار موظفى الدولة (٤) . ولذلك كان السلطان يؤجل البدء فى تنفيذ مشروع هام حتى يحين الوقت المناسب فى ضوء ما جاء فى تقويم المنجم باشى (٥) .

الأشراف :

وكانت الهيئة الإسلامية فى الدولة تضم أيضاً الأشراف ، وهم الذين ينحدرون من أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثيين وحيدين فى الدولة . والنظام الوراثى الآخر هو وراثة العرش السلطانى . وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان .

وكان يطلق على الأشراف اسماً آخر هو الأسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبقاً بكلمة سيد . ولكنهم كانوا لا يعلنون أعضاء فى هيئة العلماء إلا إذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . وكان بعض الأشراف يقنعون بانتسابهم إلى أسرة النبى صلوات الله عليه ولا يجهدون أنفسهم فى تثقيف أنفسهم . وكان عدد الأشراف بوجه

= بيروت سنة ١٩٠٨) أن الخليفة الفاطمى المزلدين الله كان يمتد فى علم النجوم ، ويستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وبالشئون العامة للدولة الفاطمية . (ص ١٤) .

(١) ترد كلمة الجراح فى الكتب العربية القديمة ، وعلى قلة ، فى صور أخرى ، مثل : الجراسى بكسر الجيم ، والجرايحى بفتح الجيم ، والآسى بمعنى الجراح وهى تدل أيضاً على الطبيب .

D'Ohsson Mouradgca Ignatius ; op. cit., t. iv, p. 548. (٢)

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 129. (٣)

Gibb Hamilton & Bowen Harold; op. cit., vol.I Part II,p.90. (٤)

D'Ohsson Mouradgca Ignatius ; op. cit., t.iv pp 551—555. (٥)

عام كبيراً ، وتسلل إلى صفوفهم عدد من المدعين ، وللك لم تكن تصرفات هؤلاء المدعين فوق مستوى الشهادت .

وكان الأشراف يتميزون بلباس خاص ، فكان لهم دون سواهم الحق في ارتداء العمامة الخضراء ، كما كانت لهم امتيازات شخصية ، فلم تكن توقع عليهم عقوبة الضرب ، وكانت لهم محاكم خاصة بهم ، وقضائهم من الأشراف .

وفي نطاق الأشراف كانت تسلط الأضواء على شريقتين : أحدهما يحمل علم السلطان ويسير به في المواقب الرسمية والعسكرية ، وكان يتقدم على جميع ضباط الجيش ويطلق عليه أمير العلم . أما الشريف الآخر فكان رئيس الأشراف ويطلق عليه نقيب الأشراف ، وكان يحتل المكانة الثانية في الهيئة الإسلامية . وفي الاحتفالات التي تقام خلال شهر رمضان كان نقيب الأشراف يتقدم على مفتي الإسلام ، وكان يعين في منصبه مدى الحياة ، وكان السلطان هو الذي يصدر فرماناً بتعيينه في منصبه . وكان مقره في العاصمة ، وهو يرأس الهيئة القضائية الخاصة بالأشراف ، وله سلطة مطلقة عليهم ويتولى تنفيذ العقوبات عليهم . وكان له جهاز فني وإداري يعمل تحت إدارته . ويوفد بعضاً منهم إلى الولايات العثمانية الإسلامية لتقصي الحقائق عن الأشراف وأوضاعهم وما إلى ذلك . وتجرتنا هذه المهمة - وهي تقصي الحقائق عن وضع الأشراف في ولايات الدولة إلى الإشارة إلى مركز الأشراف في مصر كثال يمكن تصوره لوضعهم في سائر ولايات الدولة .

كان للأشراف في مصر نقيب يصدر بتعيينه فرمان من السلطان في إستانبول . وكان النقيب يشغل هذا المنصب مدى الحياة ، ولو أن هذا المبدأ لم يحترم تماماً وبخاصة عند ما ضعفت قبضة الدولة على مصر التي اجتازت فترة سياسية دامية أطلق عليها عهد الانقلابات السياسية أو عهد الاضطراب السياسي (١٨٠١-١٨٠٥) ، فقد استطاع أفاق تركي أن يستصدر من السلطان فرماناً في نوفمبر- تشرين ثان- ١٨٠١ بتعيينه نقيباً للأشراف في مصر بدلاً من السيد عمر مكرم . ولم يستطع الباشا العثماني في ذلك الوقت ، وهو محمد

خسرو باشا ، أن يتجاهل فرمان السلطان ، فقلد هذا الباشا نقابة الأشراف في ٢ من فبراير - شباط - ١٨٠٢ للأفاق التركي واسمه يوسف أفندي ، ولكن أعيدت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم في ١٨ من أبريل ١٨٠٢ بعد مساع بدلت لدى السلطان في إستانبول (١) . وكان للمركز المرموق الذي تبوأه نقيب الأشراف في إستانبول أصداً على مركز نقيب الأشراف في مصر ، إذ كان الأخير أيضاً يشغل مكاناً علياً . فهو بحكم منصبه عضو في ديوان القاهرة ، وكان الباشا العثماني يرجع إليه في كثير من المسائل . وكان يقدم للنقيب فراوى سمور في شتى المناسبات وفي فترات متتالية على مدار السنة . وكان أشراف مصر يدينون لنقيبهم بالطاعة ، وكان يقدم لهم كل ثلاثة شهور مرتبات يطلق عليها جمكية . وكانت هذه المرتبات محددة قيمتها وملونة في سجلات النقابة . ومما هو جدير بالذكر أن السلطان سليم الأول لما فتح مصر سنة ١٥١٧ أبقى على الموارد المالية التي كان يعتمد عليها نقيب الأشراف في صرف المستحقات والمرتبات ، وللمذكور بلاد أعطاها له السلطان ، ومكنه فيها لأجل معاشه وإعانتته على ذلك (٢) .

الدرائش :

وتلحق بالهيئة الإسلامية أيضاً طوائف الدرائش ، وكانوا كثرة عديدة كبيرة ، ولكنهم لم يكونوا أعضاء في هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة . وكان الدرائش ينتمون إلى طرق كثيرة . وقد قرر المراقبون في القرن السادس عشر أن عدد هذه الطرق كان يتراوح بين ثمان وعشر طرق ، وإن كان أهمها أربعاً فقط . وقد ازداد عدد هذه الطوائف زيادة مطردة وضحمة فبلغت ستاً وثلاثين في أواخر القرن الثامن عشر . وإن كان البعض الآخر يرى أن عددها تجاوز ضعف هذا العدد ، بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن عددها قفز إلى أربعة أمثال هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : عمر مكرم . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٩٢-٩٧ .
(٢) حسين أفندي ، مرجع سبق ذكره .

العدد(١). وانتشرت هذه الطوائف في أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية(٢). وما هو جدير بالذكر أن عددها يبلغ في مصر إبان الحكم العثماني زهاء ثمانين طريقة(٣). والمعروف عن العثمانيين أنهم يحبون التصوف والدروشة . وقد سبج الجبرتي عليهم ميلهم إلى الدراويش وهو يعرض لحوادث حملة حسن باشا الجزائرلي على مصر (٤) . ويشبه بعض الباحثين (٥) الدراويش بطوائف الإيخوان الفرنسييسكان والدومينيكان الذين كان يطلق عليهم الشحاذون (٦) . وعن طريق الدراويش انتشرت الخبزعبلات بين الرعايا المسلمين في الدولة ودبرت الفتن . وكانوا يشكلون بجمعهم وتأثيرهم في الجماهير الإسلامية خطورة على سلطة الحكومة . وكانوا يتنادون إلى إثارة الحروب الدينية . وقد مر بنا أن الدراويش قاموا في ٣١ من مارس - آذار - ١٩٠٩ بنور فصال في تحريك ثورة ضد الحكومة القائمة في إستانبول عقب إعادة الدستور وتنادوا إلى إلغاء النظم النيابية وإعلان الشريعة المحمدية . واستطاع الدراويش التأثير في جنود حامية العاصمة وسار الجنود في مظاهرات صاخبة في شوارع إستانبول يتقدمهم الدراويش حاملين أعلامهم المختلفة الألوان ، وهمثفون هاتفا منغماً « باشا سون شريعة محمدية » أي لتحيا الشريعة المحمدية : وأريققت في هسة الحركة دماء بريئة بين كبار وصغار ضباط الجيش على السواء(٧). وتقتضى الدراسة الموضوعية أن نذكر أنه كان يوجد بين طوائف الدراويش عدد من العناصر الصالحة ضربوا المثل الأعلى في الأمانة وخشية

Gibb Hamilton and Bowen Harold; vol. I, Part II, (١)
p. 196.

Loc. cit. (٢)

(٣) دكتور توفيق الطويل : التصوف في مصر إبان الحكم العثماني . القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ٧٥ .

(٤) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

Lybyer A.H.; op. cit., p. 207 (٥)

(٦) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الصور الحديثة . الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ الناشر مكتبة الأبحلو المصرية ، ص ٥٤٧-٥٥٢ ، حاشية رقم ٥ .

(٧) انظر ص ١١٦-١١٧ في هذه الدراسة .

الله ، بينما كان عدد منهم لخصوصاً متجولين بارعين يتميزون بشهفة الحركة والمقدرة على اختيار الشخص الذى يرى المصلحة مع تظاهرهم بالقوى والصلاح .

الهيئة الإسلامية ونظارة الأوقاف :

كان يشرف على معظم الأوقاف الخيرية مجموعة من الموظفين ينتمون إلى الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وكان اختيار السلاطين يقع على شيخ الإسلام وعلى غيره من كبار رجال هذه الهيئة نظراً على الأوقاف المرصودة على مساجدهم وغيرها من الأوقاف الخيرية ، بينما كان البعض الآخر من السلاطين يختارون الصلبر الأعظم للتنظر على هذه الأوقاف . أما أوقاف الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة فقد تبادل التنظر عليها بمعاونة أو بإشراف رجال الهيئة الدينية كل من رئيس الخصبان البيض - باب السعادات أغامى - ورئيس الخصبان السود - قيزلر أغامى - وفى القرن الثامن عشر كان الأخير يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يساعده عدد من رجال القضاء يطلق عليهم « حرمين مقتضى » أى مقتضى الحرمين وإثنان من القضاة من فئة نائب يقيم أحدهما فى بروسة والآخر فى أدرنة .

ومن الخصيلة الضخمة التى كانت تغلها الأوقاف الخيرية تنوعت أوجه الإنفاق تنوعاً مذهلاً . فالأراضى الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كانت تشكل إيراداتها المنبع المالى الذى تؤخذ منه الاعتمادات المالية للإنفاق على جميع أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، كما شملت أوجه الإنفاق المنشآت الدينية والتعليمية والاجتماعية ، ووضح فى أوجه الإنفاق التكافل الاجتماعى الإسلامى فى أروع صورته ، وتمثل فيها أيضاً حرص الواقفين على تأمين الدفاع عن أراضى الدولة بصفحتها دار الإسلام تقف فى مواجهة دار الحرب ، وما تطلبه هذا التأمين من الإسهام المالى فى تحصين البلاد وإقامة التحصينات العسكرية والنهوض بالأسطول البحرى الحربى العثمانى . وكان الواقفون يذكرون فى صلب الوقفية أوجه الإنفاق التى يريدون توجيه إيرادات الأوقاف إليها .

وكان المشرفون على هذه الأوقاف يلتزمون التزاماً دقيقاً بتوجيه الإنفاق إلى المصارف التي يحددها الواقفون .

كان يصرف من إيرادات الأوقاف الخيرية على المساجد والزوايا والتكايا والأسبلة والخانقاوات والمستشفيات والملاجئ وبيوت النساء الأرامل والمطابخ والمغاسل والحمامات العامة ، فضلاً عن المؤسسات التعليمية مثل المدارس والمكاتب والمكتبات ، وتنظيم رحلات لتلاميذ وطلاب المدارس يقومون بها في فصل الربيع ، وكذلك كانت توجه من حصيلة إيرادات الأوقاف اعتمادات مالية لتقديم المال إلى المعوزين ومساعدة البنات اليتامى عند زواجهن ، ودفع الديون عن المدينين المسجونين ، وتقديم مساعدات مالية لسكان بعض القرى وأحياء بعض المدن لدفع الضرائب العرفية (١) ، وتقديم المال لتجهيز ودفن الفقراء . وكانت إيرادات الأوقاف الخيرية يوجه شطرها منها لتقديم مساعدات عينية في شكل ملابس لتلاميذ وطلبة المدارس والفقراء الطاعنين في السن ، وشراء كميات من الأرز أو الحبوب لإلقائها للطيور في موسم الحليد نظراً لشدة البرد ، وشراء طعام للحيوانات . وكان بعض إيرادات الأوقاف يوجه للإتفاق على القوات المسلحة في الدولة وتمويل عمليات إنشاء الحصون وصيانتها وإقامة تحصينات عسكرية والإنفاق على السفن الحربية . وكانت بعض الإيرادات توجه أيضاً إلى الأشغال العامة Public works التي تستهدف الخير العام ويعود نفعها على المجتمع كله ، مثل إنشاء الطرق ، وإقامة الكبارى ، وحفر القنوات الصغيرة التي تمد القرى بالمياه العذبة ، وبناء المنائر لتحقيق الأمن للسفن عند اقترابها ليلاً من الثغور .

الدولاب وأوجه استغلاله :

كانت إيرادات الأعيان الموقوفة تزيد أحياناً على المصروفات المخصصة

(١) أطلق على نوع من الضرائب في الدولة العثمانية اسم الضرائب العرفية تمييزاً لها عن الضرائب الشرعية التي تمتنع أصولها وجنورها من مبادئ الشريعة الإسلامية . أما الضرائب العرفية فتستمد سندها القانوني من السلطات المخولة للسلطان العثماني بصفته الرئيس الأعلى للدولة يفرضها لمواجهة النفقات غير المنظورة .

للإتفاق على المؤسسات الدينية أو الخيرية المحددة في نصوص الوقفية . وكانت تحدث هذه الزيادة في الأوقاف السلطانية بوجه خاص . وكانت هذه الزيادة أو الفائض تشكل مالا احتياطياً يطلق عليه « الدولاب » ، وهى كلمة فارسية معناها أسطوانة تدور حول نفسها توضع في فتحة في حائط مؤسسة خيرية مثل دار اليتامى أو دار النساء الأرامل ، ويضع فيها الخيرون التبرعات أو الصدقات زلفى إلى الله . ومن هذا الدولاب أو الفائض كانت إدارة الوقف تشتري أعياناً جديدة سواء كانت أراض زراعية بموافقة السلطان أو عقارات مبنية مثل الحوانيت والحواصل والطواحين وما إلى ذلك مما يمتلكه الأهالى ، ثم تمس هذه وتملك على المؤسسات الدينية . أو الخيرية أو غيرها . وكانت تتم عمليات الشراء وإجراءات تسجيل الوقفية في المحكمة وفي المكاتب المتخصصة بسرعة ومرونة ملحوظتين بحيث لا تتعثر أمام التعقيدات المكتبية ، أو ما يسمى « الروتين » وحتى يعم الخير المرتجى قطاعات دينية وخيرية واجتماعية جديدة . فهذا وجه من وجوه استغلال الدولاب أو الفائض . وهو استغلال يحمل الطابع الدينى الخيرى .

وكان هناك وجه آخر من وجوه استغلال الدولاب حين كانت الحكومة المركزية تلجأ إلى الاقتراض من « الحرمين دولابى » أى الفائض من إيرادات أوقاف الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان الهدف من الاقتراض هو مواجهة أزمة مالية ، أو عند شروع الحكومة في تنفيذ مشروعات عامة عاجلة ، أو خوض حرب . وهذا الوجه الثانى من أوجه استغلال الدولاب يحمل الطابع القومى ويستهدف المصلحة العامة . وبصفتهم منتظرين على الأوقاف الخيرية أتيح لرجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عديد الفروض للتغلغل في القطاعات الحكومية وفي شتى نواحي الحياة ، وجعلتهم على اتصال وثيق ومستمر بالقاعدة الجماهيرية الشعبية وارتفعت مكانتهم في هذه الأوساط .

(١) يسه الدولاب إلى حد ما في الوقت الحاضر صناديق النور التي توضع في عدد من المساجد بجمهورية مصر ، مع فارق هام هو أن حصيلة صناديق النور لا توجه إلى شراء عقارات وحسبها على مؤسسات دينية أو تعليمية ، بل يوزع جزء منها في حدود نسبة معينة على موظف المسجد وخمسة ، ويرسل الباقى إلى وزارة الأوقاف .

الهيئة الإسلامية والمساجد :

ولم تكن وظيفة المساجد الكبرى في مفهوم الدولة مقصورة على إقامة الصلاة فحسب ، بل كانت تلحق بهذه المساجد منشآت خيرية تضم مدرسة ومكتبة تحفل بكتوز من التراث الفكري الإسلامي سواء باللغة العربية أو التركية أو الفارسية ، وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد يتسع لسكنى الأساتذة والطلاب ، كما كانت تضم هذه المباني حماماً ومطبخاً وداراً للعجزة وللشيخوخة ومستشفى وفندقاً صغيراً ينزل فيه الغرباء ويطلق عليه الخان ، وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة . ومن المساجد التي طبق فيها هذا النظام مساجد محمد الفاتح وسليمان المشرع وأحمد الأول في إستانبول وييلديرم بايزيد وجلبى محمد في بروسه ، وجامع أدرنه (١) . وكان السلاطين ووزراؤهم يتنافسون في إقامة هذه المنشآت الخيرية . وإلى دمشق امتد هذا النظام على عهد السلطان سليمان المشرع ، فقد أقام مكان قصر الأبلق الذي كان قد شيده السلطان بيبرس البندقدارى مدرسة وتكية إلى جانب المسجد (٢) . وكان يتفق على المسجد وتوابه والموظفين الذين يعملون في هذه المنشآت من إيراد الأراضي الزراعية الموقوفة على الهيئة الإسلامية كما سبق أن ذكرنا .

الهيئة الإسلامية ومدارسها :

كان للهيئة الإسلامية نظام تعليمي دقيق . كان لا بد أن يمر في جميع مراحل المتعلمون إلى الوظائف الكبرى في هذه الهيئة . كانت المدارس تلحق بالمساجد وتنقسم إلى ثلاث مراحل :

١ - المدارس الابتدائية ويطلق عليها المكاتب ، وعرفت في القرن

(١) بروكلمان كارل : الأتراك البنايون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ،

ج ٣ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ص

السادس عشر باسم « أوكونماك پرلیری » ومعناها أماكن القراءة . وكانت تعلم القراءة والكتابة باللغة التركية واللغة العربية وبعض سور من القرآن الكريم .

٢- المدارس المتوسطة وكان يدرس فيها عدة مقررات في النحو والبلاغة والمنطق والهندسة وعلم الفلك وفقه اللغة . وكان المتخرجون في هذه المدارس يعينون مدرسين في المدارس الابتدائية أو يعملون وعاظا وأئمة في المساجد .

٣- المدارس العالية وتدرس فيها الشريعة والقانون . ويتعمق الطلبة في دراسة العلوم القرآنية والشريعة الإسلامية كالحديث والفقه وأصول الدين ، كما كانوا يدرسون القوانين الوضعية . وكان يتعين على المتعلمين لوظائف القضاء والإفتاء أن يواصلوا دراساتهم العليا . ويشترك شيخ الإسلام اشتراكاً فعلياً في امتحاناتهم . وكان الطالب الناجح يمنح لقب ملازم . ولم تكن هناك سنوات محددة لمراحل الدراسة . وكان المعيار في تحديد سنوات الدراسة هو الاستعداد العقلي للطلاب وقابليته للدراسة . ولكن كانت الدراسات العليا تنتهي في سن يتراوح عادة بين الثلاثين والأربعين .

ولم يكن التعليم إجبارياً ، كما أن المدارس التي تشرف عليها الهيئة لم تكن تتسع لجميع الأطفال المسلمين على الرغم من وفرة عددها ، وكان عدد المدارس الملحقة بمسجد السلطان محمد الفاتح ثمانية ، وعدد المدارس الملحقة بمسجد سليمان خمس مدارس .

وكان من المفروض أن الأب المسلم الذي يسكن مدينة ويريد أن يلحق ابنه في مدرسة كان لا يحال بينه وبين إلحاق ابنه بمدرسة المدينة . وكان التعليم باهجان في المدارس الابتدائية . وفضلاً عن ذلك كانت تقدم لبعض تلاميذها الطعام وتأوى بعضهم في مبانيها . أما المدارس المتوسطة فكانت تقدم مثل هذه الخدمات لبعض تلاميذها . وفي المدارس العالية كان الطلاب يتقاضون مرتبات شهرية . ويقرر المؤرخ الأمريكي ليبير أن النظام التعليمي في مدارس الهيئة الإسلامية كان يفوق أى نظام تعليمي آخر في دول أوروبا في ذلك الوقت .

وكان العثمانيون يؤمنون بفائدة التعليم وضرورته . ولكن ما أفسد التعليم روح المحافظة على القديم . وهى روح متأصلة فى نفوسهم جعلت هذا النظام التعليمى العثمانى ينقلب من نعمة إلى نقمة ، إذ ظلت نظم التعليم وبرامجه جامدة لم تتطور . وتعاقبت القرون دون إدخال أى تطوير عليها . ونجم عن هذا النظام التعليمى فى مدارس الهيئة الإسلامية والذى كان فى بدايته مزدهراً وأخرج نخبة من العلماء أن تجمد فى ذات الوقت الذى كانت فيه الدول الأوروبية تمشى قدماً فى تطوير نظمها التعليمية

الهيئة الإسلامية وموظفو الجوامع والمساجد :

كان يتبع الهيئة الإسلامية موظفو الجوامع والمساجد ، وهم : الإمام ، وخطيب الجامع ، والواعظ ، والمؤذن ، والقسم . وكان المستوى العلمى لهؤلاء الموظفين لا يرقى إلى مستوى أفراد هيئة العلماء ، كما أن نفوذهم لم يكن كبيراً فى دوائر الحكومة ، وإن كانوا موضع التقدير والإجلال من الجاهل .

كان الإمام يؤم المصلين يومياً . وكان خطيب الجامع يلقى خطب صلاة الجمعة وعيد الفطر وعيد الأضحى ، ويوم المصلين فى صلاة الجمعة والعيد . وكان الخطيب أعلى مركزاً من إمام المسجد ، لأن طبيعة عمله تتطلب أن يكون ذا مستوى علمى يفوق المستوى العلمى للإمام ، فهو يتناول فى خطبه المسائل الدينية وقضايا الساعة وموقف الشريعة الإسلامية منها ، وكان يدعو فى خطبه للسلطان العثمانى الحاكم بالتوفيق فى حكم الدولة وبالتنصر على أعدائها . وكان الدعاء للسلطان فى خطب الجمعة والعيد مظهراً من مظاهر السيادة السياسية للسلطان ، ويتعد الدعاء قريناً لسك العملة باسم هذا السلطان . أما الواعظ فكان يلقى دروساً دينية فى رحاب المسجد ويصبر المسلمين بشئون دينهم وديناهم عقب صلاة الجمعة أو بعد صلاة العصر أو فى الفترة التى تتخلل صلاة المغرب وصلاة العشاء . أما المؤذن فكان يختار لرخامة صوته . وقد اهتم العثمانيون اهتماماً كبيراً بالأذان . وفى المساجد الجامعة والكبرى كان يشترك عدد من المؤذنين فى أداء الأذان فى وقت واحد وصوت واحد

عذب يخلق جواً روحانياً يشد المسلمين إلى الصلاة . وكان يسبق تعيين المؤذنين فترة تدريب يقضيها كل منهم على أداء شتى أنواع الآذان . وكان عليهم - بجانب الآذان - أن يرتلوا بعض الابتهالات . ويتخصص بعضهم في ترتيل آيات القرآن الكريم . أما التقييم فكان يشرف على موظفي الجامع أو المسجد ويراقب حضورهم في الوقت المناسب ، أى قبل حلول موعد الصلاة بوقت كاف ، ويراقب أداء أعمالهم على الوجه الأكمل .

ولم تكن المساجد الجامعة تحصل على عدد متساو من الموظفين ، بل كان عددهم يزيد وينقص تبعاً لأهمية الجامع أو المسجد ، وبخاصة المساجد الجامعة السلطانية ، وتبعاً للموارد المالية الموقوفة على الجامع . ففي بعض المساجد الجامعة كان يوجد في كل منها اثنا عشر مؤذناً . أما مسجد السلطان أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) والذي شيد في مطلع القرن السابع عشر فكان يضم ستة وثلاثين مؤذناً. وقد غدا هذا المسجد في فترة من الفترات أعظم المساجد السلطانية في الدولة . أما في المساجد الصغيرة فكان لا يوجد سوى إمام يقوم أيضاً بوظائف الخطيب والمؤذن والتقييم .

وكان التعيين في تلك الوظائف يتم بمعرفة المشرفين على المؤسسات الخيرية التي تدفع مرتبات موظفي المساجد . وكان وعاظ الجوامع السلطانية في إستانبول هم الذين لا يخضعون لهذا النظام في التعيين ، إذ كان شيخ الإسلام هو الذى يتولى تعيينهم . فكانوا يشكلون فئة قائمة بذاتها . وكانوا يبدأون حياتهم الوظيفية في المساجد المشيدة حديثاً ، فلذا رفقوا وانتقلوا إلى المساجد الأقدم . وإذا امتد بهم الأجل وصلوا في ترقياتهم إلى مسجد السلطان محمد الثانى الذى كان من قبل كاتدرائية القديسة صوفيا وأصبح قمة المساجد السلطانية . ومن أجل هذا السبب كان وعاظ هذه المساجد في مرتبة أعلى من مرتبة خطبائها ، بينما كان الخطباء في المساجد أعلى مركزاً من الوعاظ . وكان تعيين موظفي سائر المساجد القائمة في إستانبول يتطلب صلور تصديق أو موافقة شيخ الإسلام . أما موظفو المساجد القائمة خارج العاصمة والمنتشرة (م ٢٩ - الدولة العثمانية)

في أنحاء البلاد ، فكان الأمر يتطلب صدور قرار باعتماد تعيينهم من أحد قاضي العسكر تبعاً لموقع المسجد إذا كان في أوروبا أو في آسيا .

الهيئة الإسلامية والحكومة العثمانية :

كانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وهي تباشر اختصاصاتها في شتى مجالات عملها محرص حرصاً بالغاً على أن تكون مبادئ الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ الدقيق والاحترام العميق من جانب الحكام والحكومين على السواء . والدولة العثمانية دولة دينية ، واتسمت سياستها العليا ومعظم تصرفاتها بالطابع الديني الإسلامي الذي كان من أبرز خصائصها . والأتراك العثمانيون شعب مطوع لحكومته ، غيور على دينه ، محافظ على تقاليده ، يعتقد أن التمسك بأهداب الشريعة الإسلامية أسلوباً ومنهجاً وسلوكاً في الحياة يكفل للإنسان السعادة والنجاح في الحياة الدنيا والنعيم في الحياة الآخرة . فكانت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، تؤدي رسالتها الإسلامية نشراً وتعليماً وقضاء وإفتاء . ويتبوأ أفرادها مكاناً علياً وهم يشغلون تلك المناصب المرموقة . فكانت الهيئة الدينية هي صمام الأمان للشعب والحكومة معاً . وكان نفوذ الهيئة يغطي جميع أرجاء الدولة ويمتد إلى خارج حدودها السياسية .

وكانت الوشيجة الدينية والولاء للدولة يربطان المسلمين رعايا الدولة والذين جاؤوا من عائلات إسلامية بعروة وثقى . حقيقة لم يكن هذا النمط من التفكير الديني والسياسي يغلب على جميع الرعايا المسلمين ، كما لم يكونوا جميعاً من أتباع المذهب الحنفي وهو المذهب الرسمي للدولة ، ولكنهم كانوا جميعاً مسلمين فخورين بدينهم ، يحتوهم إخلاص غامر للإسلام ، ورغبة دافقة للعمل من أجل تحقيق تفوق الإسلام في أرجاء العالم . وإذا كان بعض المسلمين نظروا إلى نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة على أنه نظام غير مثالي ، لأن الدولة أوجدت بجانبها طبقة العبيد - القولا - واصطنعتهم أدوات للحكم والحرب وأغدقت عليهم الامتيازات إغداقاً ، فإن نظام الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان على كل حال ، وفي رأيهم أيضاً ، نظام يلود

به المسلمون ، ويعين على صمود الإسلام كلين عالمي أمام البابوية في روما وأمام الدول الأوروبية المسيحية . وكانت هاتان القوتان المسيحيتان قد أظهرتا لحداً في العداء للدولة العثمانية .

وباستثناء طائفة الأشراف الذين كانوا ينحدرون من نسل النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وباستثناء طوائف الدراويش الذين كانوا يمارسون ألواناً من النشاط الديني ، فإن جميع وظائف الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانت متاحة لكل أفراد الهيئة الإسلامية أي المسلمين الأحرار طالما كانوا مؤهلين علمياً لتولي مناصبها ذات النفوذ الواسع والأهمية البالغة . كانت هيئة العلماء وهي تضم ثلاث فئات ، هم : الأساتذة والقضاة والمفتين قد تلقى أفرادها العلم وفقاً لنظام تعليمي واحد ، واستقوا المادة العلمية من نفس المصادر والمراجع ، والتحقوا بمدارس وكليات مفتوحة للجميع من أفراد الهيئة الإسلامية يمضى الطالب في رحابها سنوات طوالاً يتلقى الدراسات إلى نهاية الشوط إذا كانت استعداداته العقلية تؤهله لاستكمال دراساته العليا ، ولا يتكبد ذووه نفقات تعليمه ، لأن الموارد المالية التي تدرها الأوقاف الدينية الإسلامية كان يوجه جزء منها للإنفاق عليه . وانتشرت المدارس في أرجاء الدولة في القارات الثلاث تقدم العلم للراغبين فيه على يد العلماء . ولم يكن مستوى التعليم يقل في مستواه عن مثيله الذي سبق أن تلقاه هؤلاء العلماء حين كانوا يطلبون العلم . كانوا يتولون التدريس لنوعيات مختلفة من الدارسين : الطلاب شباباً وشيبة ، أفراد طبقة القولا الحاكمة ، الأمراء ، والسلطان الحاكم نفسه ، إذ كان يعمل على مقربة منه خوجة السلطان ، أي معلم السلطان ، وكان بمثابة مستشاره . وكان السلطان يكن له احتراماً عميقاً وتقديراً بالغا . وكلما مضت الحياة بهؤلاء العلماء تشعبت أمامهم المسالك إلى وظائف القضاء والإفتاء بل إلى منصب شيخ الإسلام . وبذلك لم يظل أثر العلماء مقصوراً على الأفراد في مجالات التعليم ، بل امتد إلى مستقبل الدولة نفسها . كان فريق منهم يعملون في المحاكم قضاءً ومفتين ، وفريق آخر يعملون في المساجد والمؤسسات الدينية في شئون الدعوة

والإرشاد والتوجيه . وفوق هذا كله كان بجانب كل موظف كبير في الإدارة المركزية وفي حكومة كل ولاية قاض أو مفت يسدى إليه الرأى فى المسائل التى يستغلق فهمها على ذلك الموظف الكبير ، فىنبؤلى شرحها له فى ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية .

امتيازات علماء الدين :

وأضفت الدولة على العلماء بعض الامتيازات المسامة مثل الإعفاء الضريبى . وكانت ممتلكاتهم لا تخضع للمصادرة ، ولا تؤؤل ملكيتها على الإطلاق للسطان . فكانت ممتلكاتهم تورث لأولادهم وذرائعهم حسب قواعد الشريعة الإسلامية . وقد زادت هذه الامتيازات من مكانة العلماء فى نظر الجاهلير^(١) . ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان أصحاب المناصب الدينية الكبرى ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام وقضاة العسكر وخوجة السلطان والقضاة من فئة المولا الكبير والمفتون ومن لهم من العلماء ، يتقاضون مرتباً إضافياً أطلق عليه « أربة لق » أى مال الشعير^(٢) . وكان هذا المرتب فى أصله عبارة عن علاوة تمنح لأولئك الذين يحتفظون بقوات من الفرسان المعروفين باسم السباهى أو يناط بهم العناية بالتحليل سواء فى الجيش أو فى الإسطبلات السلطانية ، ثم توسعت الدولة فى تطبيق هذا المرتب على رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة بعد أقصى لأصحاب المناصب الدينية الإسلامية سبعة آلاف أسر^(٣) . ومنذ القرن الثامن عشر أصبح منح هذا المرتب الإضافى مقصوراً على شاغلى المناصب الدينية الكبرى .

ويلخص الأستاذ ألبرت حورافى الخطوط الرئيسية الدالة على اهتمام الدولة العميق بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وذلك فى شتى المجالات التى امتد إليها نشاط هذه الهيئة فىقول . . « كانت السلطنة دولة تحكم فى نطاق

Lybyer A. H.; op. cit., p. 203.

(١)

(٢) أربة فى اللغة التركية معناها الشعير .

(٣) دج الكتاب الأوروبيون على استخدام كلمة أسر أو أسرة Asper أو Aepe على العملة التركية آتمة « يتضمين الحمزة ونفسها » . وهى كلمة تركية معناها مائل إلى البياض . وهى تستعمل للدلالة على السكرات الفضية وبخاصة الصغيرة منها .

الشريعة الإسلامية وتمكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى . وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التي كانت شيعية . وبفضل ما كان للعثمانيين من قريحة وحب للترتيب والوضوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم هيئة العلماء على شكل سلسلة من الرتب المحددة والتعيينات الرسمية والمرتبات التي تجرى عليهم بصفة رتيبة ومنظمة . وكان رؤساء هذه الهيئة الدينية وهم شيخ الإسلام ، وكبار رجال القضاء والإفتاء يستشارون في الشئون العليا للدولة . وكان القضاة في الأقاليم هم السبيل الرئيسي الذي يتم عن طريقه الاتصال بين الحكومة المركزية والرأى العام الإسلامى في المدن الكبرى . وبسطة الحكومة رعايتها وحمايتها على المدارس الإسلامية في المدن العربية ، وقامت هي من ناحيتها بإنشاء مدارس جديدة في إستانبول لتعليم أولئك الذين سيشغلون أعلى المناصب في الهيئة الإسلامية في قابل الأيام » (١) .

وقد عمد المؤرخ الأمريكى ليبر Lybyer إلى تشبيه الهيئة الإسلامية بيد الإنسان ، وتشبيه الحكومة العثمانية بالقفاز الذى يضعه الإنسان في يده . ومهد لهذا التشبيه بقوله إن الهيئة الإسلامية كانت تشمل جميع الرعايا المسلمين الأحرار الذين جاؤوا من عائلات إسلامية ، وهؤلاء يشكلون القاعدة الجاهريية العريضة . والقفاز لابد أن يكون مناسباً لليد ملائماً لها ، كذلك كانت الحكومة العثمانية مناسبة وملائمة للهيئة الإسلامية ، واستطرد ذلك المؤرخ فقال إن التشبيه يذهب إلى أبعد من هذا الحد . فاليد تؤدى وظيفتها بنفس الكفاية سواء بالقفاز أو بدون قفاز ، بينما يكون القفاز عديم الفائدة بلون يد الإنسان . وفضلا عن ذلك فإن اليد تعيش مع الإنسان وتلازمه في شتى مراحل حياته . واليد ترتدى عدداً كبيراً من القفازات ، وكلما بلى قفاز استخدمت اليد قفازاً جديداً ، وتستمر اليد تؤدى وظيفتها ما بقيت تنبض بالحياة (٢) .

Hourani Albert ; The Ottoman Background etc, op. cit., (١)

p. 8.

Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 225—226.

(٢)

الفصل السادس عشر

دراسة مقارنة بين الهيئتين الحاكميتين

المنابع الأولى لنظام الهيئتين :

حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصي المنابع الأولى التي استقى منها الأتراك العثمانيون الفكرة الأساسية التي قام عليها نظام كل من طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . وقد أرجع فريق منهم المنابع أو الأصول التي قام عليها نظام طبقة القولار إلى الصين وفارس القديمة بحكم مجاورة هاتين الدولتين للمهاد الأولى التي نشأ فيها الأتراك العثمانيون في مناطق الإستبس في أواسط آسيا . وقرر فريق آخر أن أسلاف سلاجقة الروم هم الذين تولوا نقل الآراء التي قام عليها نظام طبقة القولار إلى الأتراك العثمانيين الذين تأثروا بدورهم بعد ذلك بالموثرات البيزنطية ، كما أنهم تأثروا بموثرات الصليبيين الذين وفدوا من أوروبا وعروا بمنطقة آسيا الصغرى وهم في طريقهم إلى الشرق الآسيوي الإسلامي حيث استقروا حيناً من الدهر وتركوا بصماتهم في هذه البقاع . ويضيف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين إلى ذلك أنه نجم عن هذه المؤثرات في مجموعها أن الأتراك العثمانيين لم يكتفوا بالأخذ بنظام طبقة القولار كما نقل لاهم فحسب ، بل عملوا إلى تطعيمه بآراء جديدة فرضتها عليهم الملابس التي أحاطت بهم منذ إنشاء دولتهم ، وأهم مضموا في تحوير هذا النظام سواء في آسيا الصغرى أو في الأقاليم التي دانت لحكمهم في الجنوب الشرق من أوروبا إلى عصر السلطان سليمان المشرع . أما فيما يختص بالهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فقد ذهب فريق من المؤرخين والباحثين إلى أن الأتراك العثمانيين قد استمدوا الهيكل العام لهذه الهيئة من النظم التي كانت سائدة في الدولة الساسانية .

ومن الصعب تقبيل هذه الآراء التي تبدو أنها آراء اجتهادية أو افتراضية تتطلب منا أن نحوض في دراسة النظم التي كانت قائمة في تلك الدول القديمة لتبين وجه الحقيقة . وهذا الأمر يخرجنا بعيداً وبعيداً جداً عن نطاق الدراسة التي نقوم بها ، ومثل هذه الدراسة لا تسمح لنا بالتعرض لتاريخ نظم قامت في دول موعلة في القدم . ولهذا نرى أن نكتفي بذكر أوجه الشبه وأوجه الاختلاف وأوجه التداخل بين هاتين الهيئتين اللتين كانتا من المعالم البارزة في تاريخ الدولة العثمانية ، وقام على أكتاف أفرادها كل الإنجازات الحربية والإدارية والتشريعية والدينية والاجتماعية .

أوجه الشبه بين الهيئتين :

كان من أوجه الشبه بين طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أنها اتخذتا من التعلم وسيلة للبقاء والاستمرار والأخذ بأسباب القوة والنماء . فكان لكل منهما نظام تعليمي خاص بأفرادها يتمشى مع رسالتها ويحقق أهدافها . كانت طبقة القولار الحاكمة تقدم إلى أبنائها تعليماً تناول التربية العسكرية وتناول أيضاً النواحي الثقافية العلمية الخصة ، بينما كان اهتمام الهيئة الإسلامية مقصوراً على الدراسات العقلية ، وفي مقدمتها علوم الشريعة وأصول الدين ، وأهملت إهمالاً تاماً التربية الرياضية .

وحرصت كلتا الهيئتين على تزويد القاعدة العريضة بتلاميذ جدد تقدم لهم التعليم وفقاً للمناهج الموضوعية لكل هيئة . وكان الصف الأول في كل من هاتين الهيئتين يجد دوماً رصيماً لا ينفد من رجال الصف الثاني ليشفغوا منه المناصب العليا أو القيادية التي تخلو بمضى الأيام . وبالمثل كان الصف الثاني يجد معيناً لا ينضب من رجال الصف الثالث يملأ منه الوظائف الشاغرة . وهكذا مضت عملية ملء الصفوف في كل هيئة وفق خطة مرسومة ونظام رتيب .

وانتشر أفراد الهيئتين في شتى القطاعات المدنية والعسكرية . عمل أفراد طبقة القولار في الجيش وفي الإدارة المركزية وفي حكومة الولايات وفي البلاط السلطاني . وكان أعلى منصب وصلوا إليه هو منصب الصدارة العظمى .

وعلى هذا النحو عملوا أدوات للحرب والحكم والخدمة الداخلية والخدمة الخارجية للسلطان في قصوره . أما أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فقد شغلوا مناصب القضاء والإفتاء وتدرّس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الشعائر الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها . وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحّبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استئصال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس ، وشمالاً إلى بلاد الشام ، واتجهوا إلى مصر ثم شمالاً إفريقية ، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس . ويتكبرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تنور حول الجهاد الديني والنور يلهي الحسينين : النصر أو الاستشهاد . ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية العربية وقتلوا أن تلك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية . كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمّون الجنود في صلاة الخوف (١) وهم في ساحات القتال . وكان أعلى منصب يصل إليه أفراد هذه الهيئة هو منصب شيخ

(١) من المعروف أن المهارين لا يستطيعون أداء الصلاة في طمأنينة وأمان وهم في ساحات القتال بينما المومّن مترسب بهم ، يود منهم الاسترخاء أو الانشغال عن القتال ولو لفترة قصيرة فيأخذهم على غرة . وتقديراً من الله سبحانه وتعالى للظروف الخطيرة والشاقة التي يجارب فيها المسلمون ، وتمكّناً لهم من إقامة الصلاة ، وتيسيراً عليهم في أدائها ، فقد وردت في القرآن الكريم صلاة الخوف في قوله تعالى . « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأمنوا بأسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأمنوا حلدهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فيميلون عليكم ميلاً واحدة . » سورة النساء ، صدر الآية الكريمة رقم ١٠٢ . وفي صلاة الخوف تنقسم المجموعة أي الوحدة - سرية كانت أو فصيلة - بشرط أن تكون متجمعة ، إلى مجموعتين : مجموعة الاستعداد للدرج القصى في مواجهة العدو . والمجموعة الثانية مع الإمام ، فيصل بهم ركعتين في الصلاة الرباعية ، م يسلمون من الصلاة وينصرفون =

الإسلام . وكان أكبر منصبين في الدولة - الصدر الأعظم وشيخ الإسلام - يتم التعيين فيها بفرمان يصدره السلطان شخصياً ومباشرة لكل منها ، ويستقران في منصبيهما في العاصمة على مقربة من العرش السلطاني . وكذلك كان شأن معظم كبار أفراد الهيئتين .

أولاً : اختلاف الأساس الذي قامت عليه الهيئتان :

كان من أهم أوجه الاختلاف بين طبقة القولار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة أن الأساس الذي قامت عليه كل منهما كان يختلف عن الآخر اختلافًا جلياً . قامت طبقة القولار على أساس مصطنع غير طبيعي ، ولذلك لم يقدر له الاستقرار أمداً طويلاً . كان أفراد عبيداً للسلطان ، ولكنهم لم يولدوا عبيداً . لقد جاءوا إلى الحياة أطفالاً مسيحيين أحراراً ، ثم تغير وضعهم الديني والقانوني والاجتماعي ، فغلبوا مسلمين عبيداً للسلطان . ولم يكن في الامتطاعة أن تمضي هذه العملية المصطنعة أعصرراً وأدهاراً وأحقاباً دون أن يعترها وهن ثم اضمحلال يؤدي بها إلى التوقف والزوال . وقد ذكرنا من قبل أنه كانت هناك أربعة منابع حصلت منها الدولة على أفراد طبقة القولار الحاكمة : أسرى الحرب ، الشراء ، الهدايا ، ضريبة الغلمان . وبمضي

= لاستلام مهام المجموعة الأولى التي تأتي بدورها لتدخل في الصلاة فتصل مع الإمام ركعتين تسلم بعدها . أما في حالة الاحتياك القتل أو القتال المتلاحم فإن المحاربين يصلون بالإيماء ومعهم أسلحتهم . ولا يشترط حينئذ استقبال القبلة ، لأنه شرط مع القدرة عليه .

وقد صلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه صلاة الخوف على أنواع مختلفة تنازلتها بالتفصيل كتب الفقه . والهدف من هذه الصلاة هو التفرقة بين ضرورات القتال وما يجب له من تهيؤ وحذر ، لإحباط مكائده العدو وهجماته البافضة وبين اتخاذ عدة النصر كاملة ، وفي أولها الصلوة بالقة في الصلاة إذ هي السلاح الأول من أسلحة النصر في المعركة لا يجوز تركها أو تأجيلها ، فبدأت تلك الآية الكريمة في صلاة الخوف مع رسول الله ومع خلفائه وأئمة المسلمين المترين بسنته .

انظر :

أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري : الروضة الدينية . شرح الدرر البهية . ج ٢٤٠٠ . نشر وتصحيح وتعليق إدارة الطباعة المتبرعة لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا المنقش ، شارع الكحكيين رقم ١ ، القاهرة ، ج ١ ، ص ص ١٤٧ - ١٤٩ ،

الزمن انحضرت هذه المنابع الأربعة في مصدرين : الأسرى وضريبة الغلمان . وقد نضب معين المصدر الأول وهو أسرى الحروب بعد أن بلغت الفتوحات العثمانية في أوروبا حد التشبع ، وبعد أن وصلت الجيوش العثمانية في زحفها على قلب أوروبا إلى مشارف فيينا ، وتعلم على هذه الجيوش أن تمضي قدماً في زحفها الخاطف والظافر . فالدولة كان قد بدأ عليها الهزال ، بينما كانت الدول الأوروبية التي وقفت في وجهها بعد ذلك تملك الكثير من أسباب القوة والمنعة والصمود . أما المورد الآخر وهو ضريبة الغلمان فلم يكن في مقبول الدولة أن تستمر في جمعها قروناً متعاقبة ، وانتهى بها الأمر إلى إلغائها . وكان هؤلاء الصبيان يفصلون عن آباءهم وأمهاتهم وسائر ذويهم فصلاً مصطنعاً وحاداً وعتيفاً . ولما اشتد ساعد هؤلاء الصبية واكتملت رجولتهم لم تشجعهم الدولة على تكوين روابط عائلية . وإذا زوج فريق منهم - لأن الزواج ظل محرماً على الذين انخرطوا منهم في السلك العسكري ثم أذن لهم في الزواج - لم يكن الآباء مطمئنين إلى أن الثروات التي كونوها سواء كانت عقاراً أو أموالاً سائلة سوف توؤل إلى أبنائهم وذريتهم ، بل كان ينتابهم خوف مرير ملمر من أن يسلبهم السلطان أموالهم وممتلكاتهم بل وحياتهم . ولذلك كانت طبقة القولار الحاكمة في أساسها وفي نظمها تسير في خطوط تتعارض مع فكرة الأسرة وروابط الأسرة وجو الأسرة . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت تأخذ أفرادها من أبناء المسلمين الأحرار ، وكان يتزايد عددهم باطراد . وكان عليهم إذا أرادوا أن يتبوأوا مكانة مرموقة في وظائف الهيئة أن يواصلوا دراساتهم العليا . وكانوا أحراراً لا يعوقهم عائق في علاقاتهم العائلية أو في حياتهم الخاصة . يتضح مما سبق أن أهم سبب لاختلاف الأساس الذي قامت عليه كل هيئة من هاتين الهيئتين أن أفراد طبقة القولار جاءوا - أو جمعوا بعبارة أكثر دقة - من عائلات مسيحية ، بينما جاء أفراد الهيئة الإسلامية من عائلات إسلامية . ومعظم أوجه الاختلاف ، إن لم يكن جميع أوجه الاختلاف بين هاتين الهيئتين ، إنما تنبثق من هذا السبب .

ثانياً : نظرة كل هيئة إلى السلطان : عبودية أو طاعة :

ينبتق عن الاختلاف السابق اختلاف آخر وثيق الصلة به ، هو نظرة أفراد كل من الهيئتين إلى الرئيس الأعلى للدولة . فعلى الرغم من أن السلطان كان رئيس الهيئتين ، إلا أن نظرة أفراد كل هيئة إلى السلطان كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة أفراد الهيئة الأخرى إليه . ومرد هذا الاختلاف إلى أن رياسة السلطان لطبقة القولاار الحاكمة ورياسته للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كانتا تستندان إلى اعتبارات قانونية . فالهيئة الأولى مجموعة من المسلمين العبيد ، والهيئة الثانية مجموعة من المسلمين الأحرار .

كان السلطان بالنسبة لطبقة القولاار الحاكمة هو كل شيء : هو السيد المطاع ، وهم العبيد الأرقاء يملك بالنسبة لهم أسباب الموت ، ويتخذ ضدهم ما يشاء من إجراءات بحكم تملكه لهم وما ملكت أيديهم ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لرغبته . وهم كعبيد يدينون له بالعبودية التامة بكل ما تحمله هذه العبارة من معاني الصرامة والسيطرة التي لا يحدها قيد أو حد . أما بالنسبة للهيئة الدينية الإسلامية ، فكانت رياسة السلطان لها تقوم على أساس أنه يعتبر إماماً للمسلمين الأحرار الذين هم أفراد الهيئة الإسلامية . وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولى الأمر كما يأمرهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وبأهلها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً (١) .

ونقف هنا وقفة قصيرة لزيد جلاء هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين أفراد طبقة القولاار الحاكمة وأفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . توجد نقطتان هامتان تفرضان نفسيهما فرضاً في هذا الحال . النقطة الأولى هي أن الفارق كبير بين العبودية التي تدين بها للسلطان العثماني طبقة القولاار أى عبيد السلطان ، وبين الطاعة التي يدين بها للسلطان المسلمون الأحرار ، وهم أفراد الهيئة

(١) سورة النساء ، آية رقم ٥٩ .

الإسلامية . والنقطة الثانية هي أن طاعة المسلمين الأحرار مشروطة بأن تكون في نطاق الشريعة الإسلامية . وطبقاً للنص القرآني في الآية الكريمة السابقة يجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله ابتداء ، وأن يطيعوا الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما له من صفة الرسالة . فطاعته هي من طاعة الله الذي أرسله بالشريعة . أما أولو الأمر أياً كان لقبهم أميراً أو ملكاً أو سلطاناً ، فيجعل الله طاعتهم تبعية ، ولا يجعل طاعتهم أصلية . ولذلك اقتضت حكمة الله أي برد النص القرآني في الآية الكريمة المشار إليها مجرداً من لفظ الطاعة عند ذكر أولى لأمر ليدل على أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله ورسوله ، ومن القيام على شريعة الله ورسوله . فليس لأولى الأمر طاعة فيما وراء الشريعة ، لأن الطاعة لهم تبعية ، وليست طاعة أصلية ، إنها طاعة مستمدة من أصل ، وليست هي بلداتها أصلاً . وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين (١) في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها مناجاة في الحكم . وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله « أيها الناس إني وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » (٢) وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالماً كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله . لا طاعة لحاكم في معصية الخالق . وقد مر بنا في هذه النواصة أن شيخ الإسلام كان يلوذ بالشريعة الإسلامية ويعتمد عليها إذا احتدم الخلاف بينه وبين السلطان أو الصدر الأعظم إذا حاد أحدهما أو كلاهما عن مبادئ الشريعة . ويحفل تاريخ مصر لإبان الحكم العثماني بمواقف رائعة تمسك فيها علماء الأزهر بهذا المبدأ الإسلامي تمسكاً جعلهم يرفضون تنفيذ أوامر السلطان العثماني إذا رأوا فيها خروجا على مبادئ الشريعة . كان السلطان قد أرسل إلى مصر عدة

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن مالك . فهو يلتقي مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مرة .

(٢) القلشنتي أبو العباس أحمد : صحيح الأعمش في صناعة الإنشاء ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

فرمانات (١) كان بعضها يختص بتغيير نظام صرف الأموال المرصودة على المساجد والأسبلة والتكايا وغيرها من الجهات الخيرية . وطلب قاضي القضاة العماني في مصر إلى علماء الأزهر تنفيذ هذه فرمانات ، كل فيما يخصه . ولكنهم رأوا أنها تتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، فرفضوا تنفيذها . فقال لهم قاضي القضاة « إن أمر السلطان لا يخالف ، ويجب طاعته » . فتصدى له الشيخ سليمان المنصوري ، ويصفه الجبرتي بأنه « أحد الصدور المشار إليهم » وتحدى السلطان وأعلن في مواجهة قاضي القضاة أنه لن ينفذ أمراً أصدره السلطان ، لأنه يخالف لأحكام الشريعة ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يفعل ذلك » . ويحل الجبرتي موقفاً مماثلاً لعلماء الأزهر حين وقفوا في وجه حسن باشا الجزائري قائد الحملة العسكرية العثمانية التي جاءت إلى مصر سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة الأمراء الماليك ودعم نفوذ الدولة العثمانية في مصر . كان هذا القائد وهو في أوج نفوذه قد فكر في استباحة أموال الأمراء الماليك والقبض على نساءهم وأولادهم وعرضهم في سوق الرقيق بالقاهرة لبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال . ولما أقدم حسن باشا على تنفيذ فكرته ، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر مستنكرين هذه التصرفات . واحتدمت المناقشة بينه وبينهم ، وقال له الشيخ محمد أبو الأنوار السادات « هل أرسلك السلطان إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ » فقال « هؤلاء أرقاء بيت المال » . فأجابه الشيخ السادات « هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد » . فتارت نائرة القوائد العماني ، وأمر سكرتيره بكتابة أسماء العلماء الحاضرين ليبلغ السلطان بمعارضتهم لأوامره . فانبرى له أحد الحاضرين قائلاً « اكتب ما تريد ، بل نحن نكتب أسماءنا نحننا » (٢) .

(١) سجل هذه فرمانات أغان من إستابول . وكان ذلك في أثناء ولايه بإكير باشا الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩ هـ / ١٧٣٤ - ١٧٣٧ م) . المر : الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٤٨ .
(٢) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، وقد جاء هذا النص في سياق ترجمة الشيخ محمد السادات في وفيات سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ - ١٨٧٢ م .

ونخلص من هذا العرض إلى أن المسلمين الأحرار أفراد الهيئة الإسلامية نظروا إلى الشريعة الإسلامية على أنها فوق السلطان العثماني . أما العبيد أعضاء طبقة القولاار الحاكمة فلم يعرفوا بسلطة أعلى من سلطة السلطان .

ويمكن تفسير هذا الوجه من أوجه الاختلاف بين طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الإسلامية بأن نشأة أفراد كل من هاتين الهيئتين قد انعكست على تصرفاتهم ومسلكهم بل وعلى روحهم العامة في الحياة . كان أفراد طبقة القولاار الحاكمة أطفالاً مسيحيين في مهدهم - كما سبق أن ذكرنا - ثم انتزعتهم الدولة من آباءهم وأمهاتهم وحولتهم إلى الدين الإسلامي . فكانوا حديثي عهد بالإسلام . ونجم عن ذلك أن عقيدتهم الدينية الجديدة لم تكن بنفس الأصالة والقوة والصلابة التي كان يشعر بها ويدين بها أفراد الهيئة الإسلامية الذين ولدوا مسلمين ، وشبوا وترعرعوا وعاشوا في جو إسلامي غير مصطنع ، فتشبعوا بالإسلام ديناً بعد أن تمكن من أفنتسهم وتغلغل في أعماق نفوسهم .

ثالثاً : نوعية أفراد الهيئتين :

ومن أوجه الاختلاف بين الهيئتين نوعية الأفراد الذين تستق منهم كل هيئة قاعدتها العريضة . فالدين الإسلامي دين عام بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد بعث به رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه للبشرية جمعاء ، فهو ليس ديناً خاصاً بقوم ، أو بجنس من أجناس البشرية ، أو بجيل من الأجيال ، أو بلقلم من الأقلام . والله يقول في كتابه العزيز « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي ، الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . (١) والإسلام يمثل عبر التاريخ الإخاء الإنساني في أروع صورته ، وقد عبر عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وأباكم واحد . لا فضل لعربي على عجمي ،

(١) سورة الأعراف ، آية رقم ١٥٨ .

ولا لعجمي على عربي ، ولا أسود على أحمر ، ولا أحمر على أسود ، إلا بالتقوى » (١) . والإسلام لا يعرف الطبقة ولا التمييز العنصري . والرسول عليه الصلاة والسلام ليس رسولا عنصرياً أو إقليمياً أو طبقياً ، وهو يقول « بعثت إلى الناس كافة ، الأحمر ، والأسود » (٢) . وتأسيساً على هذه المبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، فإن الهيئة الإسلامية ، وهي تضم الأفراد الذين ولدوا مسلمين أحراراً ، كانت لا تقيم وزناً لأجناسهم .

أما طبقة القولاير الحاكمة فكان أفرادها يوثخون من الأسرى المسيحيين واعتنقوا الإسلام . ويوثخون أيضاً من الحصيلة البشرية لضريبة الغلمان ، وهي أغنى منابع الرقيق . وطبقت الدولة هذه الضريبة على طوائف معينة من رعاياها ، وأعفت طوائف أخرى . فقد أعفت رعاياها اليهود كلية ، كما أعفت رعاياها المسيحيين الكاثوليك . وطبقت الضريبة على المسيحيين الأرثوذكس وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ويطلق عليهم في بعض المراجع الروم الأرثوذكس ، ونجم عن هذا الإعفاء فروق صارخة . ونسوق في هذا المجال مثالا لهذه التفرقة . كان من بين رعايا الدولة أرمن كاثوليك وأرمن أرثوذكس . وطبقاً للقانون كانت الدولة تعني أبناء الأرمن الكاثوليك من ضريبة الغلمان وتطبقها على أبناء الأرمن الأرثوذكس ، مع أن الجميع رعايا الدولة ، والطائفتان من الأرمن . ثم أوغلت الدولة في الإعفاء بين أفراد المذهب الديني الواحد ، فأعفت من الضريبة أبناء المسيحيين الأرثوذكس أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية المقيمين في المدن الكبرى مثل إستانبول وأنينا وبعض الجزر مثل رودس . وترتبت على هذا الإعفاء المكاني فروق صارخة أيضاً على غرار ما سبق .

ومن ثم كان الاختلاف بين الهيئتين ملحوظاً . فالهيئة الإسلامية تفتح أبوابها على مصارعها للمسلمين الأحرار ، ويتقلد مناصبها ويتدرج إلى أعلاها

(١) الهييى ، مجمع الزوائد . ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢) مستد أحد بن حنبل . طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٦١ عن رواية

ابن عباس .

كل فرد يمضى في دراساته إلى نهاية الشوط ، وإلا فإنه يتولى الوظيفة التي يؤهله لها مستوى ما حصل عليه من علم ، سواء كانت هذه الوظيفة في القطاع الدينى أو في القطاع الإدارى . أما طبقة القبول الحاكمة ، وهى فى صدد تكوين قاعدتها العريضة ، فكانت تأخذ فريقاً من أبناء رعايا الدولة المسيحيين دون أبناء فريق آخر . ومعيار التطبيق العملى هو انتهاء الغلمان للمذهب دىنى مسيحي معين كان يعتنقه آباؤهم ، أو لأنهم يقيمون فى إقليم معين من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية .

رابعاً : امتيازات الهيئتين :

أضفت الدولة العديد من الامتيازات على أفراد طبقة القبول الحاكمة . وكان من بين هذه الامتيازات الإعفاء الضريبى والإعفاء من الخضوع للقضاء العادى ، وأنشأت لهم نظاماً قضائياً خاصاً بهم ، وأصبح التعيين مقصوراً عليهم فى بعض فرق الجيش وفى المناصب المدنية خارج نطاق القطاع الدينى فى شتى مجالاته ، فشغلوا عديد الوظائف سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومة الولايات أو فى البلاط السلطانى . وتمتعوا بمرکز مادى واجتماعى وأدى مرموق . وكانت هذه الامتيازات على اختلاف أنواعها وطبيعتها ومسمياتها تشكل تعميقاً للفروق الصارخة بينهم وبين أفراد الهيئة الإسلامية ، إذ انفصل أفراد طبقة القبول الحاكمة مالياً وقضائياً وضريبياً عن سائر رعايا الدولة ، الأمر الذى أوجد حقداً طبقياً على القبول من جانب سائر المجتمعات العثمانية . حقيقة اختصت الدولة أفراد الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وبخاصة الذين شغلوا منهم المناصب الكبرى ، بامتيازات . ولكن لم تكن هذه الامتيازات بمثل ذلك الحجم أو التنوع الذى ظفر به أفراد طبقة القبول الحاكمة .

خامساً : القبول طبقة قائمة بذاتها :

والحق أن إطلاق كلمة «طبقة» على أفراد القبول أدنى إلى الحقيقة من لفظة «هيئة» ، لأن القبول - وهم عبيد السلطان - كانوا يشكلون طبقة

خاصة قائمة بذاتها في أجهزة الحكم في الدولة العثمانية . وكانوا في ذات الوقت شريحة هامة من شرائح المجتمع العثماني ، ينتمى إليها أفراد معينون وضعت الدولة لهم مواصفات محددة تحديداً دقيقاً بحيث غدوا يشكلون طبقة مغلقة ، لا يدخلها ولا ينتمى إليها سوى الأفراد الذين جاعوا إلى الحياة مسيحيين ، ويعتقون مذهباً دينياً مسيحياً معيناً ، هو مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ثم انتزعتهم الدولة من آباءهم وأمهاتهم ، وحولتهم إلى الإسلام ، وجعلتهم عبيداً للسلطان ، وقدمت لهم تعليماً عسكرياً ومدنياً مقروناً بدراسات دينية إسلامية ، ووسعت لهم مجالات واسعة يعملون فيها ، وربت لهم امتيازات طبقية . أما الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فكانت هيئة مفتوحة تتسع للمسلمين الأحرار المؤهلين علمياً لتولي مناصبها .

سادساً : الأخطار التي كانت تواجهها طبقة القولاار :

اختلفت حياة أفراد طبقة القولاار عن حياة أفراد الهيئة الإسلامية . كانت حياة القولاار مهددة باستمرار . فإذا غضب السلطان على أحد منهم ، كان له الحق في أن يصادر أمواله أو أن يأمر بقتله أو بإعدامه . وتم إجراءات المصادرة أو القتل أو الإعدام دون محاكمة . ولم يكن في مقدور أحد في الدولة أن يراجع السلطان في مثل هذه الرغبات أو الأوامر التي تسلب أحداً من القولاار أمواله أو حياته حتى ولو كان يشغل منصب الصدارة العظمى . أما أفراد الهيئة الإسلامية فكانوا بمنجاة ، في الأعم الأغلب ، من أمثال هذه الإجراءات ، إذ كانوا يخضعون لإجراءات قضائية مقررة طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وكانت المحاكم تنظر فيما يشجر بينهم من خلاف أو بينهم وبين إدارات الحكومة أو ما يقع منهم من مخالفات . وللك عاشوا في طمأنينة نسبية على أموالهم وعلى حياتهم .

سابعاً : مدى نفوذ كل من الهيئتين :

كانت طبقة القولاار الحاكمة تملك أسباب القوة المادية التي تمثلت في الجيش والمناصب القيادية في الإدارة المركزية وفي حكومات الولايات وفي (م - ٣٠ الدولة العثمانية)

البلاط السلطاني ، بينما كانت الهيئة الإسلامية تملك أسباب القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة رجال الهيئة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية ، والتنظر على الأوقاف ثم نشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قننها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم الشريعة الإسلامية وأصول الدين . ولذلك كان رجال الهيئة الإسلامية الذين مارسون هذه الاختصاصات أكثر التصاقاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً ومجاوباً مع الأهلين .

كان نفوذ إحدى هاتين الهيئتين ينمو ويزكو على حساب الهيئة الأخرى تبعاً لشخصية السلطان المتربع على العرش . ومع ذلك - كما سنرى في سياق هذه الدراسة المقارنة - كانت كفة الهيئة الإسلامية هي الراجحة في معظم العهود ، إن لم يكن في جميعها . وقد شهدت الدولة نماذج متنوعة من السلاطين . كانت تظني على بعضهم النزعة الحربية تفكيراً ومنهجاً في الحكم وأسلوباً في الحياة . فكان حكم كل منهم سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الخارجية لا هوادة فيها ، تستهدف توسيع رقعة الدولة سواء في أوروبا أو في آسيا أو في إفريقيا ، أو في هذه القارات الثلاث معاً ، أو في الاستيلاء على جزر في البحر المتوسط كانت بمثابة قواعد عسكرية يتخذها أعداء الدولة جيوباً صليبية لهم . وينطبق هذا النوع على عدد كبير من سلاطين الفترة الأولى ، وقد حفل حكمهم بانتصارات عسكرية رائعة ، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان محمد الفاتح . وعلى عهد هذا النوع من السلاطين كان نفوذ طبقة القولاار الحاكمة يزداد بل يشتد ، وبخاصة في القطاع العسكري . ومع ذلك يظل نفوذ الهيئة الإسلامية قوياً ملحوظاً وبخاصة في ساحات القتال قبيل المعارك وبعد المعارك على حد سواء . وقد تكلمنا عن دورهم الخطير قبيل بداية المعارك التي كان يخوضها الجيش العثماني . وكان لهم أيضاً دور هام بعد أن تضع الحرب أوزارها، إذ كانوا يعكفون على تنظيم الحياة الدينية الإسلامية في ضوء مبادئ الشريعة الإسلامية في البلاد المفتوحة .

وكان هناك فريق آخر من السلاطين جمعت الدولة على عهدهم بين

الأبحاد العسكرية البراقة والإنجازات الدينية الرائعة . ونذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الأول . أنجه في فتوحاته وجهة شرقية إسلامية كانت جديدة بالنسبة للدولة ، فقد حارب الدولة الصفوية في بلاد فارس ودخل عاصمتها تبريز وهبط بهذه الدولة من دولة من الدرجة الأولى إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، ثم فتح بلاد الشام ومصر وقضى على دولة المماليك الشراكسة ، وهي انتصارات عسكرية رائعة خلدت اسم السلطان سليم الأول في تاريخ الدولة العثمانية . وساعدت هذه الانتصارات على نمو نفوذ طبقة القولاار الحاكمة . ومن ناحية أخرى دخل إقليم الحجاز دحولا سلمياً تحت السيادة العثمانية . وهو من أهم الأحداث السياسية في تاريخ العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي ، وأهم حدث ديني في تاريخ الدولة العثمانية ، إذ أكد زعامتها للعالم الإسلامي . فهذا الإقليم يضم مكة المكرمة والمدنية المنورة ، وهما أهم الأماكن المقدسة الإسلامية على وجه الأرض . وأضاف السلطان سليم الأول وخلفاؤه إلى ألقابهم لقباً دينياً جديداً استهوى أفتئتهم ، كما ذكرنا من قبل ، وهو « حامي الحرمين الشريفين » . وضمت الدولة العثمانية أيضاً المسجد الأقصى في بيت المقدس وهو ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبليتين ، إلى جانب مراكز الحضارة الإسلامية في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها . وكان من نتائج هذه الانتصارات العسكرية والدينية التي تمت على يد سليم الأول أن ازداد عدد رعايا الدولة المسلمين زيادة جارقة ، وبرز في الدولة الطابع الإسلامي بروزاً واضحاً قوياً . وكانت لكل هذه الإنجازات نتائجها الهامة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد سبقت طبقة القولاار الحاكمة بمراحل من حيث علو شأنها واتساع نفوذها وازدياد هيبتها . وما حدث لها على عهد السلطان سليم الأول تكرر على عهد ابنه السلطان سليمان المشرع الذي فتح عدة جهات حربية وانساح الجيش العثماني في بلاد المجر وجاب الأسطول العثماني حوض البحر المتوسط يقضى على بعض الجيوب الصليبية ، وييسط السيادة العثمانية على شمالي إفريقية ما عدا مراكش ، ويفتح جبهة ثالثة في الشرق الإسلامي ضد فارس وفي العراق . وقد تميز هذا السلطان بمجوانب حضارية متعددة تمثلت في التشريعات التي وضعها على هدى من مبادئ

الشريعة الإسلامية؛ وظل معمولاً بها في معظم ولايات الدولة حتى أواخر القرن التاسع عشر، كما تمثلت في المنشآت الدينية المعمارية التي أقامها . وكان أهمها مسجد السلطانية والعديد من المساجد الكبرى والصغرى بالإضافة إلى معاهد تحفيظ القرآن والمدارس وتجديد بناء الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وتجديد أسوار بيت المقدس . وكان اهتمامه بالنواحي الدينية بارزاً، وانعكس على وضع الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، فازدادت مصادرها المالية نماء وتعاظم نفوذها .

وكان هناك النوع الثالث والأخير الذي يتمثل في سلاطين ذوى ميول سلمية وتميزت عهودهم بهدوء نسبي . وينطبق هذا الحكم على الغالبية الساحقة من سلاطين الفترة الثانية . وإذا كانت الدولة على عهودهم قد خاضت حروباً خارجية ، وهم لم يتولوا قيادتها في معظم الأحوال لأنهم آثروا السلامة والعزلة ، فإن هذه الحروب كان معظمها حروباً دفاعية استهدفت الحفاظ على تماسك الدولة وسلامتها بممتلكاتها . وقد استمر مركز الهيئة الدينية الإسلامية على عهودهم قوياً منيعاً لم يهتز ولم يمسه وهن من قريب أو من بعيد .

ويمكن القول بوجه عام إن نفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة كان يتصاعد باطراد في كل العهود . وكان الفارق بين عهد وعهد يكمن فقط في مدى السرعة التي يتزايد بها هذا النفوذ . أما طبقة القولاار الحاكمة فكانت تزايد سلطتها وقيمتها في نظر العالم الخارجي المعاصر ما بقيت عجلة الفتوح الحربية تسير بسرعة مذهلة . فلما توقفت الفتوح، ذهب البريق الذي كان يحيط بها .

أما النمو السريع لنفوذ الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة فيمكن إرجاعه إلى عدة عوامل تجتمع على مر السنين . كانت لها موارد مالية ضخمة تمثلت في الأراضي الزراعية والعقارات وغيرها من الأوقاف الخيرية. وقد تكبدت هذه المصادر في أيدي الهيئة ولم تفقد منها شيئاً . وكان السلاطين أنفسهم شديدي الاهتمام برصد الأموال العامة والخاصة على الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة سواء كان الدافع لهم هو التقوى والرغبة في التقرب إلى الله ، أو نيل مزيد

من مظاهر العظمة والتباهى ابتغاء اكتساب محبة الجماهير وتقديرها . وفي ذات الوقت تنافس الأثرياء من أهل البذل على إنشاء المساجد والكتليات والمدارس والحمامات العامة والأسبلة والتكايا وغيرها ، ويوقفون عليها الأوقاف الخيرية للإنفاق من إيراداتها على هذه المرافق الدينية . ومن هذه العوامل أيضاً احتكار الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة التعليم العقلي بعيداً عن ميدان التعليم العسكرى . فكان في يدها سلاح أدنى رهيب تغزو به عقول الناشئة . وكانت كل مدرسة جديدة وكل كلية شرعية تنشأ حديثاً مما يقوى أثر الهيئة الدينية الإسلامية ونفوذها في مجال تربية العقول . وكان كبار « الخوجات » يقومون بالتدريس لطوائف الغلمان في القصور السلطانية ويسلون النصائح إلى والدة السلطان ، وإلى زوجاته ، ويتولون تعليم أبنائه .

تأثير كل من الهيئتين في الأخرى :

كانت الهيئتان : طبقة القولاار الحاكمة والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة تؤديان رسالتهما وتحققان أهدافهما المرسومة لهما ، وتعتمد عليهما الدولة في مسيرتها سواء في مرحلة التوسع الإقليمي هجوماً على أعدائها أو في مرحلة الجمود الحربى دفاعاً عن أقاليمها . وكان لا مناص من أن تؤثر كل هيئة في الأخرى ، لأنها الهيئتان الرئيسيتان في نظم الدولة ، وكانتا تشكلان معا العمود الفقري فيها .

جاء تأثير طبقة القولاار الحاكمة في الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة عن طريقين : الحرب ، وارتقاء أفرادها مناصب الحكم والإدارة من أذناها إلى أعلاها . فساندت وجود الهيئة الإسلامية ودافعت عن بقائها وقيامها ووجودها *raison d'être* وكانت هي الوسيلة أو الأداة في تنفيذ قرارات هذه الهيئة وأحكامها القضائية ، والحفاظ على الشريعة الإسلامية عملياً وعدم المساس بالمصادر المالية للهيئة الإسلامية مما كفل السيولة النقدية تصل في نظام رتيب إلى العلماء والقضاة ورجال الإنشاء ومن إليهم ، واستطاعوا المحافظة على مستوى معيشة محترم . وانصرفوا يكرسون جهودهم وأوقاتهم إلى أداء المهام المنوطة بهم في شتى مجالات الشريعة الإسلامية وأصول الدين نظرياً وتطبيقياً .

وأثرت الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في طبقة العبيد - القولار -
إذ طبعت الهيئة الأخيرة بطابع المحافظة على القديم الذى وصل فى بعض
الأحايين إلى الجمود . ومن المعروف أن المحافظة على القديم ومقاومة كل
جديد كانتا من خصائص الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة . فقد قام العلماء
والمفتون ومن إليهم من أفراد هذه الهيئة الدينية الإسلامية بالتدريس للأمرء
وغلمان القصور وغيرهم من ناحية ، أو بإصدار الفتاوى لرجال الحكم
سواء فى الإدارة المركزية أو فى حكومات الولايات من ناحية أخرى . وبذلك
تناولوا الجانب التعليمى والتثقيفى فى تنشئة فريق من أفراد الهيئة الحاكمة
وفى التوجيه السياسى والدينى لرجال الحكم المركزى والحكم المحلى فى المسائل
التي يطلب من رجال الهيئة الدينية الإسلامية لإصدار الرأى فيها أو ما يسمى
الفتاوى . ولذلك ينسب المؤرخون الجمود الذى أصاب نظم الدولة وأجهزتها
إلى تأثير رجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة، وهو حكم لا يصور الحقيقة
من جميع جوانبها . فالأتراك العثمانيون كمشعب اشتهروا بالمحافظة على القديم
والاستمسك بالتقاليد والعرف والعادات لا يبيغون عن كل أولئك بديلا .
فهم يتحملون نصيبهم غير منقوص من مسئولية الجمود الذى ران على
أنظمة الدولة وأجهزتها فى وقت كان العالم فى أوروبا الغربية بوجه خاص
يطور حياته ويمحور نظمه فى الحكم والإدارة والعسكرية وغير ذلك محوراً
يواكب سنة التطور ويتمشى مع إدخال العلوم الحديثة فى شتى مجالات الحياة .
ومن المعروف أن الموقف الثابت المتجمد الذى تلتزم به دولة ما، هو الخطوة
الأولى التى تؤدى بهذه الدولة إلى طريق الاضمحلال .



أفصل السابع عشر

مراكز القوى في الدولة (١)

فيالق الإنكشارية

بجانب الهيئتين الحاكمتين - طبقة القولاار والهيئة الدينية الإسلامية - وجدت في الدولة مراكز قوى كان لها نفوذ واسع وخطير في دوائر الحكومة ، ووجهت شئون الدولة ، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، الواجهة التي كانت تبثها . وكان من بين هذه المراكز : الفياالق الإنكشارية في الجيش ، الحرم السلطاني ، العبيد الخصبان ورؤساؤهم .

الفياالق الإنكشارية :

نشأت الدولة العثمانية في أول أمرها إمارة غزاة . فكان الغزو العسكري هو شغلها الشاغل ابتغاء التوسع الإقليمي المرحلي . وقد سبق أن ذكرنا أن الطابع العسكري الصارم كان الخصيصة الأولى من خصائص الدولة العثمانية (١) . ولم تظفر هيئة في الدولة بمثل الاهتمام العميق الذي ظفر به الجيش العثماني بوجه خاص . فقد كانت الدولة تنظر إلى الجيش على أنه أداؤها في الفتوحات الحربية ، ووسيلتها في حكم الأقاليم التي استولت عليها ، ودرعها في الدفاع عن ممتلكاتها .

ولن نحوض في هذه الدراسة في ذكر الفرق العسكرية التي كان يتألف منها الجيش العثماني في نشأته ، أو الفرق المستحدثة التي أدخلت عليه تباعاً . ولن نتعرض لتنظيمات الجيش وقياداته والمدارس العسكرية وما إلى ذلك من موضوعات تتصل بالجيش عامة . وسيكون بحثنا في هذه الدراسة مقصوراً

(١) انظر في هذه الدراسة ص ٤٩ - ٥٣ .

على الفياق الإنكشارية مع إشارة سريعة في الحواشي يقتضها مناج البحث إلى بعض الفرق العسكرية التي كان لها اتصال مباشر بالفياق الإنكشارية مثل فرقة البلطجة ، وفرقة البوستانجية ، وفرقة الجبهه جيه .

كان الإنكشارية - وهم طائفة عسكرية من البيادة (١) - أى المشاة - يشكلون تنظيمًا خاصاً بهم ، لم تكناتهم وشاراتهم ودراساتهم وامتيازاتهم . وكانوا أعز فرق الجيش نفراً ، وأقواها جنلاً ، وأكثرها نفوذاً . وأفسحت الدولة لهم الطريق كي يقفزوا إلى أعلى الرتب العسكرية ويتقلدوا أخطر المناصب القيادية ، العسكرية والمدنية على حد سواء ، وإذا كانت الدولة قد استفادت منهم في ساحات القتال في عصرها الذهبي ، فقد أضيرت منهم في العصور التالية ، إذ نزعوا إلى حركات العصيان العسكري لتحقيق مطالب لم حيناً ، وللتدخل في السياسة العليا للدولة أحياناً متجاوزين اختصاصاتهم كحاربين محترفين . واستراحوا لسلح القرد يشهرونه في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، فيعزلون ويقتلون هؤلاء وأولئك . والأمر العجيب أنه لما دب الوهن إلى صفوفهم ، وقعدوا الكثير من كفايتهم القتالية ازدادوا شعوراً بقوتهم وأمعنوا في طغيانهم بحيث غدوا مركز قوة خطير في الدولة وشجعهم على ذلك ضعف السلاطين والصدور العظام .

ضريبة الغلمان :

أشرنا من قبل في هذه الدراسة إلى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على أبناء رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في إستانبول ، وتحولم إلى الإسلام ، وتجري لهم جراحة الختان La Circoucision ، وتنظم لهم دراسات دينية وعامية - مدنية وعسكرية - لتتخذ منهم في نهاية المطاف أدوات إسلامية للحرب والحكم في خدمة الدولة (٢) . ويطلق على هذه الضريبة الآدمية المصطلح التاريخي

(١) البيادة كلمة فارسية معناها « حل الأتنام » وتقابلها في اللغة التركية « البايا » بنس المضى .

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ص ١٢٠ - ١٢٣ .

ديو شيرمة Deuchermé ويترجمها المؤرخون والباحثون في أوروبا وأمريكا The Tribute Children أو The Tribute Boys أي ضريبة العلمان ، وقلنا إن الدولة كانت تقسمهم إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى وتعد أفرادها لشغل وظائف العلمان في القصور السلطانية ، والمجموعة الثانية تعد أفرادها لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة ، والمجموعة الثالثة لتشكّل من أفرادها فرق مشاة في الجيش العثماني . ويطلق على أفراد هذه المجموعة الثالثة الإنكشارية (١) ومعناها الجنود الجدد وكان عددهم ساحقاً جداً بالنسبة لعدد المجموعتين الأوليين .

نشأة ضريبة العلمان :

كان صاحب الفكرة في فرض ضريبة العلمان المسيحيين الأرثوذكس

(١) كان المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطلح زيادة رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة يرى أن الباحثين العرب يقعون في خطأ لغوي واضح حين يطلقون حل هؤلاء الجنود المشاة إسم الإنكشارية، ويرى أن الدقة في الصياغة اللفظية تتطلب استخدام اللفظ التركي وهو أئبي شرية ، وترد في بعض المراجع بين تشرى . واستند في رأيه إلى أن الفرنسيين استخدموا في لقبهم اللفظة التركية ، فأصبح مدلولها الفرنسي Les Janissaires .

والواقع أن شكل كتابة هذه الكلمة قد ساعد على تحريفها . فهي تكتب « يكتجري » وتتلق « بين تشرى » لأن حرف الكاف في اللغة التركية القديمة كان يتلقى فوقاً و تحرف الجيم يتلقى تاء وشيناً . وهذا المصطلح التاريخي مكون من مقطعين : الأول يكتي - ومعناه جديد أو حديث . والثاني - جري - ومعناه جندي ، فيكون المعنى : الجنود الجدد أو السكر الجديد . ونحن - مع احترامنا لرأي أستاذنا الدكتور زيادة ومع تقديرنا العميق لأستاذيته الشاحنة - نرى أن اللفظة التركية الأصلية وهي بين تشرى Yéni Tchéri ، واللفظة المعربة أو اللفظة التي تستخدم في الكتب العربية وهي الإنكشارية قريبتان مضمهما من بعض بحيث لا يتسحق الأمر مثل هذا التفسير الشكل الذي قد يؤدي إلى بلادة الأفكار حول مدلول بين تشرى ، أو أئبي شرية .

انظر :

الحاشية التي كتبها الأستاذ الدكتور محمد مصطلح زيادة مقرونة برقم ١ ص ٤٤٥ في ترجمته إلى اللغة العربية لكتاب فيشر Fisher H. A. القسم الثاني : تاريخ أوروبا في المصور الوسطى . الناشر : دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤ .

هو هايل الأسود (١) Black Habil وزير السلطان أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٦٠) (٢)، فهو الذي حبّب إلى هذا السلطان الفكرة وزينها له في قلبه ، فأخذ بها أورخان . وكانت هذه الضريبة الآدمية عوناً كبيراً للدولة الناشئة على إيجاد مورد آدى لا يضبب معينه لتجنيد فرق عسكرية كاملة من المشاة يضعون حقولهم وأجسامهم وخبراتهم في خدمة السلطان في ميادين القتال ابتغاء احراز انتصارات عسكرية تحقق بها الدولة مزيداً من التوسع الإقليمي سواء في أوروبا أو في آسيا في ذلك الوقت ، ثم في إفريقية منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد وضع السلطان أورخان قانوناً خاصاً بالإنكشارية جاء في أربع عشرة مادة تضمنت النظام الداخلى لهم ، وتنظيم علاقات أفرادهم بعضهم ببعض ، كما نصت على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان (٣) .

وكانت الحكومة المركزية تقوم بترحيل الغلمان الذين لا يتحدثون اللغة التركية إلى الأناضول حيث يوضعون في خدمة السباهية - الخيالة الإقطاعيين - فترة قد تطول وقد تقصر ، ثم يتقلون إلى إستانبول حيث يعاد اختبارهم وفرزهم ، ويلحقون بفرقة البلطة جيه (٤) أو فرقة

(١) Fisher H.A.L., A History of Europe, op. cit., p. 402.

(٢) يقرر بعض المؤرخين أن حكم أورخان امتد فقط إلى سنة ١٣٥٩ .

(٣) دكتور عبد العزيز محمد عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣ .

(٤) البلطة جيه جمع بلطجي ، وهي مشتقة من كلمة بلطة ، وهي كلمة عربية وتركية بمعنى الناس التي يستخدم في قطع سيقان الأشجار وفروعها والأغصان بصفة عامة . أما معناها كصطلح تاريخي فهو فرقة عسكرية في الجيش العثماني تسمى « بلطجي أوجاق » أي فرقة البلطجية أو فرقة قاطني الأغصان . وقد أنشئت قبل فتح التتطنطينية واستخدم أفرادها في قطع الأشجار وتجفيف المستنقعات وتعميد الطريق أمام الجيش الزاحف ، ثم تحولوا بعد فتح القسطنطينية إلى حرس للحريم السلطاني . وكانت تضاف إلى عملهم الجديد أعمالهم الأولى حين ذهب السلطان إلى الحرب . وقسمت هذه الفرقة إلى تسعين كان مقر أحدهما القصر القديم ، ومقر الآخر القصر الجديد . وكان أغا الخصيان يقود القسم الأول . أما القسم الثاني فكان يقوده السلطان أغا ، أي الضابط حامل السيوف . وكان يطلق على رجاله هذه العبارة : « زولوفلو بلطه جيلر » ومعناها قاطعو الأغصان ذوو السوالمف ، لأنهم كانوا يضمون ذؤابة من الشعر على جانبي وجوههم . (زولوفلو كلمة فارسية من زولف Zolf ومعناها حصلة من الشعر تتدل إلى أسفل) .

البوستانجية ، أو فرقة الجبهه جيه (١) ، أو السلاح البحرى فى إستانبول

- أنظر

Gibb Hamilton & Bowen Harold ; op. cit, Vol., 1. Part I, p. 86.

وكلمة بلطجى شائعة الاستعمال فى الوقت الحاضر فى مصر وفى معظم الدول العربية وتسمى الشخص المنحرف ذا القوة المضلية الذى لا يكتوّر بالخروج على القانون فى سبيل تحقيق أغراضه . وينادىها فى المنى لفظة أخرى شائعة هى الزلنطى . ويضاف إلى الماعى السابقة معنى آخر هو أن الزلنطى يلجأ إلى استخدام عضلاته فى شرب الآخرين فى سبيل حل مشكلاته .

(١) البوستانجية كلمة تركية متقبسة من اللفظة العربية بستان . وأطلقت على أفراد فرقة عسكرية وتسمى بوستانجية أوجاق، أى فرقة البستانيين . وكان يقودها ضابط يطلق عليه «بوستانجى بانى» . وكان أحد أغوات الركاب ، أى ضباط الركاب السلطانى . وقد تكوّنت هذه الفرقة أول الأمر بهدف تنسيق حركات القصر السلطانى وتحويل الأرض الخلاء المجاورة للقصر إلى حدائق ذات هجسة ولدى مزارع خضراء مع استمرار العناية بها . ولم يتم هذا العمل إلا بعد قليل من أفراد هذا الأوجاق واشتغل معظمهم حراساً على المباني الملحقة بالقصر والبحيرة بجوار أراضيها ، وعلى بعض بوابات أسوار القصر ، وعلى المراقب الصغيرة الواقعة حول القرن الذهبى والبوسفور وجزء من بحر مرمره . كما كان لهم الإشراف على السفن التى كانت ترسو فى تلك المرافئ ، وكانوا يعملون أيضاً بمثابة شرطة محلية . وهكذا كانت اختصاصات الغالبية العظمى من أفراد أوجاق البوستانجية بعيدة كل البعد من العناية بالبساتين .

وكانت اختصاصاتهم الرئيسية تتركز فى إجراءات أمن تختص بشخص السلطان وحراسة بعض المنشآت التابعة للقصر والمجاورة له ، ومراقبة السفن التى ترسو فى مرافئ قريبة من منطقة القصر ويكون فى استطاعة هذه السفن إلحاق الضرر بمبنى القصر . وقد بلغ عدد أفراد هذا الأوجاق ألفين وخمسة مائة ، كان كل فرد منهم يضع فوق رأسه قلنسوة حراء تميزه عن أفراد الفرق العسكرية الأخرى . وكان يتألف أوجاق البوستانجية من عدة وحدات تكاد تكون كل وحدة منفصلة من غيرها داخل الأوجاق . فكانت هناك وحدة الخاصكية ، عدد أفرادها ثلاثمائة من ضباط الصف «Sous officiers» يقودهم «خاصكى بانى» أو خاصكى أغا . وكان هذا الضابط يلى فى الرتبة رئيس أوجاق البوستانجية . وكان يساعده بعض كبار ضباط الأوجاق . ويشترك ستون من قوة الخاصكية فى حراسة السلطان الخاصة ، كما يرافق اثنا عشر من الخاصكية السلطان فى جميع تنقلاته وتحركاته بصفتهم محبّرين ، ويطلق عليهم «تبديل خاصكية» ويرأسهم ضابط يسمى «بانى تبديل» أى رئيس المحبّرين . وكانت وحدة الخاصكية تختلف من حيث طبيعتها عن الوحدات الأخرى فى أوجاق البوستانجية وتفوقها . ومن الوحدات الهامة فى هذا الأوجاق أيضاً : الصندلية - أى المراكبية (الصندلية جمع صندبلى ، وهو الرجل الذى يعمل على صندل ، والصندل سفينة تجديف من الطراز الأوروبى) ، وكان الصندلية يقومون بالتجديف فى «دهية» السلطان ، فى حين يمسك رئيس أوجاق البوستانجية بالذفة . ولم يكن الصندبلى =

وغالبية (١) . ولكن كان مصير معظمهم الانخراط في سلك الفياق الإنكشارية .

وجدير بالذكر أن هذه الفياق لم يكن جميع أفرادها من حصيلة ضريبة الغلمان فقط كما يتبادر إلى أذهان الكثيرين ، بل كانت تضم بين صفوفها مجموعات صغيرة العدد من أولاد أسروا في الحرب أو اشتروا بالمال (٢) .

« يقومون بالتجديف في سفن السلطان فحسب ، بل كانوا يجلبون أيضاً في مراكب كبار ضباط القصر السلطاني . وكانت هناك وحدة تسمى « البامية جيه » لسبة إلى غضار البامية لأنهم كانوا يقومون بتدريباتهم العسكرية قرب أماسية في منطقة كانت تزرع فيها البامية بكثرة . وكانت هذه الوحدة تقوم بحراسة قصر ستان باشا الملحق بالقصر السلطاني . وكانت هناك وحدة أخرى تسمى « الطرب قابي » أي بوابة المنع ويهد إليها بمنع الأشخاص غير المرغوب فيهم من دخول فناء القصر بالرسم من ناحية البحر . هذا إلى عدد كبير جداً من الوحدات العسكرية تابعة لهذا الأوجاق . وكان البوستالجى باتى يتمتع في القصر بنفوذ واسع لم يظفر به أحد من زملائه ضباط الركاب السلطاني . وكان مرد هذا النفوذ إلى سببين: أولها أنه كان يرأس أكثر من ألفي رجل يقومون بأعمال قتي ومثعبة وحساسة تحت إشرافه ، وثانيها أن التحقيقات مع الموظفين المنبئين كانت تتم تحت إشرافه ، وكان ينرف على إجراءات تنفيذ أحكام الإعدام التي كانت تصدر على من تبين إدانته منهم .
انظر كلا من :

D' Ohsson Ignatius Mouradega ; op. cit., V. VII, pp 27.—30L byber
A.H., op. cit., p. 131, fn. 2.

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol 1. Part 1. pp.
350-352.

أما الجيه جيه فهم صانعو الأسلحة (جه معناها درع) ، وكان من اختصاص هذا الأوجاق إنتاج وإصلاح الأسلحة ولذخائر الجنود المشاة . وكان من واجبات هذا الأوجاق حراسة وسائل نقل الجيش والمخازن في أثناء الحرب . وكان السلطان عميد الثاني هو أول من أنشأ هذا الأوجاق . وكان تمداده أول الأمر سيّئة جننى تحت إمرة ضابط يطلق عليه «جه جيه باغي» .

(١) كانت غالبيول قاعدة البحرية العثمانية ، ثم اتخذت الحكومة في سنة ١٥١٦ من إستانبول مقراً للبحرية الرئيسية ، وأنشأت مصانع بحرية جديدة في بقعة تسمى قاسم باشا من ضاحية جلاله على القرن الذهبي ، وتعرف منذ ذلك الوقت باسم «ترسانة بوغازى» أي بوغاز دار الصناعات البحرية ، أو بوغاز البحرية .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, (٢)
Part 1, pp. 59-60.

مواعيد جمع الغلمان :

اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً حول تحديد مواعيد جمع الغلمان ، فيقرر بعضهم أنهم كانوا يجمعون مرة واحدة كل أربع سنوات . ويقول البعض الآخر إن هذه الفترة لم تكن ثابتة . ففي بعض الأحيان كانت عملية جمع الأبناء المسيحيين تحدث مرة كل خمس سنوات (١) ، وفي أحيان أخرى كانت هذه العملية تتم مرة كل سبعة أعوام (٢) . بينما يذكر المستشرق الألماني بروكلمان أن هذه الضريبة الآدمية كانت تجميع أول الأمر كل خمس سنوات ثم أصبحت تجميع سنوياً (٣) . والشئ الأخير من هذا الرأى أدنى إلى الحقيقة ، إذ كانت الدولة في معظم الأوقات في صراع حربى عنيف ضد بعض الدول الأوروبية . وقد اتخذ هذا الصراع طابع التكتلات المسيحية والحروب الصليبية . وكانت الحرب تهدأ في جبهة لتشتعل أعنف ما تكون في جهات أخرى مما جعل الدولة العثمانية في حاجة مستمرة إلى تعزيز الجيش نحوص به المعارك في أوروبا فضلاً عن الجهات التي فتحها في آسيا لمحاربة الدولة الصفوية ، تم فتح بلاد الشام والعراق واليمن وغيرها ، أو في إفريقية : في مصر وشمال إفريقيا اثباتاً من سياستها العليا في التوسع الإقليمي المرحلى .

وعايا الدولة الذين طبقت عليهم ضريبة الغلمان :

كان فرض ضريبة الغلمان مقصوراً - كما سبق أن ذكرنا - على رعايا الدولة المسيحيين الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ولذلك أعفى منها اليهود وكذلك الأرمن الكاثوليك بحكم القانون . أما الأرمن الأرثوذكس وهم الذين يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، فقد طبقت عليهم ضريبة الغلمان . كما أعفى من هذه الضريبة الآدمية سكان بعض المدن الكبرى مثل : إستانبول وأثينا وجزيرة رودس وبعض جزر أخرى . وفيما عدا ذلك طبقها

Lavisse et Rambaud ; op. cit., Vol IV, ip. 857. (١)

سير أرنولد توماس (سير) : الدعوة إلى الإسلام . تعريب دكتور حسن إبراهيم وزميله . ص ١٧٥ حاشية رقم ٣ .

Lybyer A.H. ; op. cit., pp. 51-53. (٢) النظر كلاً من :

D'Ohsson Ignatius Mouradgea ; op. cit., Vol VII. p. 310 ff.

(٣) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، ج ٣ ، مرجع سبق ذكره ،

الدولة تطبيقاً صارماً في شبه جزيرة البلقان والمجر والساحل الغربي لآسيا الصغرى والسواحل الشرقية والجنوبية للبحر الأسود . ولكن كان أقوى المجندين وأقدرهم على الخدمة يجلبون من المناطق الجبلية التي تقطنها الطوائف المسيحية في ألبانيا والجبل الأسود والشعوب السلافية أى الصقالية في جنوبي أوروبا (١) . وبعبارة أخرى شملت ضريبة الغلمان اليونانيين والصرب والبلغار وسكان كرواتيا وأهل المجر والألبانيين والأرمن الأرثوذكس وغيرهم .

معيشة الإنكشارية :

كانت الدولة تحرص حرصاً بالغاً على منع اتصال الإنكشارية بأقربائهم . وتفرض عليهم في وقت السلم أن يعيشوا كلية في الثكنات (٢) . وخصصت الدولة للإنكشارية الذين يرايون في إستانبول ثكنتين ، كانت تسمى الثكنة الأولى «أسكى أوطه لره» أى الفرقة القديمة . وتسمى الثكنة الثانية «ينى أوطه لره» أى الفرقة الجديدة أو الحديثة . ولم تكن هاتان الثكنتان تحتويان فقط على أماكن النوم لضباط وجنود الإنكشارية ، بل كانتا تضمّان مطابخ ومخازن (٣) للأسلحة والدخائر وكافة الحاجيات المدنية لهم .

وخصصت الدولة لكل أورطة (٤) من الإنكشارية شارة توضع على أبواب ثكنتها وعلى أعلامها وعلى خيامها التي كانت تقام في ساحة القتال . وكانت خياماً مستديرة واسعة . وكانت هذه الشارات إما مسمكة ، وإما مفتاحاً ، وإما خطافاً «هلباً» ، وإما هراة ذات طرف مدبب . وجرت عادة الإنكشارية على نقش الشارة المميزة لهم على أذرعهم وسيقانهم مستخدمين طريقة الوشم (٥) . وكانت ترقيات الإنكشارية ثم طبقات لقواعد الأقدمية . وكانت الدولة تسرح

(١) Lybyer A.H. ; op. cit., p. 34, pp. 51—52.

(٢) كانت الثكنة تسمى أوطه أى فرقة . وتسمى في اللغة التركية القديمة أرتاغ .

(٣) Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I Part. I, p. 62.

(٤) الأورطة وحدة حربية يتفاوت عدد أفرادها تبعاً للظروف ، فكان يتراوح عددهم

بين مائة جندي وخمسةائة جندي وثلاثة آلاف جندي .

(٥) كان الإنكشارية يفرزون رسم الشارة على أجسامهم بإبرة ، ثم يصبون على هذا الرسم

مادة معينة تسمى التليج . فيأخذ رسم الشارة لوناً أخضر ثابتاً لا يمحوه كز الزمان .

الذين يتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم عن العمل . وفي كلتا الحالتين كانت الدولة تقرر لهم معاشاً ، ويعرفون باسم «أونوراق» . وقد خصت الدولة الطوائف الإنكشارية بعدة امتيازات (١) ، منها : منحهم حصانة تمنع القبض عليهم أو قيام السلطات المدنية بتوقيع العقوبات عليهم . وكان ضباط الإنكشارية دون سواهم يقومون بتنفيذ العقوبات التي يحكم بها عليهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والإعدام . وكانت عقوبة الخصاء توقع على الإنكشارى إذا اعتاد الإجرام أو تعددت حوادث خروجه على قواعد الانضباط العسكرية . فيأمر « بنى شرية أغامى » ، أى رئيس الإنكشارية ، بإجراء عملية الخصاء الجزئى أو عملية الخصاء الكلى له . ويفقد الإنكشارى رجولته ويأحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى . وسنعرض لهذا الموضوع فى الفصل الثانى والعشرين . أما الإعدام فكان ينفذ سراً فى ظلمة الليل فى روملى حصار . وكانت تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية - أى المدفعية - بإطلاق طلقة واحدة من مدفع إيداناً بتنفيذ الحكم . فلذا تم التنفيذ رميت جثة الإنكشارى بعد أن تشد إلى القلمين جلة من الحديد . وكان الإنكشارية يتقاضون مرتبات من خزانة السلطان . ولهذا السبب الأخير كان يطلق عليهم «قبوقولرى» (٢) ، وهو اسم عام كان تندرج تحته القوات العسكرية التى تتقاضى مرتبات تمييزاً لها عن القوات الإقطاعية Feudal Forces التى كانت الدولة تعطى أفرادها أراض زراعية يقومون باستغلالها فى مقابل اشتراكهم فى حروب الدولة دون أن تدفع لهم مرتبات .

تحريم الزواج على الإنكشارية ونتائجها :

وكان يحرم على الإنكشارية الزواج . فكان الفرد منهم يعيش دون أمل فى أن تكون له زوجة أو بنون أو بنات أو حفدة . فالإسلام عقيدته ، والقرآن الكريم كتابه المقدس ، والسلطان العثمانى والده ، والثكنة العسكرية مأواه ،

(١) Lavisso et Rambaud ; op. cit., Tome IV, pp. 759-760.

(٢) قبو أو قابى لفظة تركية معناها باب أو بوابة . قول بمعنى عبء . وهذا المصطلح له عدة مدلولات ، منها : كل شخص فى وضع العميد يقوم على خدمة السلطان .

والحرب مهتته ، والفوز بإحدى الحسينين مأربه . وكان الإنكشارى ينظر إلى أعداء الدولة على أنهم أعداء الله ، وليس أمامه إلا أن يمضى فى قتالهم ، فإما أن ينتصر عليهم انتصاراً ساحقاً ، وإما أن يفوز بالجنة إذا استشهد فى الحرب . ولذلك كان يخوض المارك بروح دينية إسلامية عالية ، ملوفاً حماس متأجج وتعصب ركيز (١) . وكما حرم السلاطين على الإنكشارية الزواج حرموا عليهم أيضاً تحريماً تاماً الاشتغال فى التجارة أو الصناعة خشية أن تحبب عسكريتهم الصرامة وأن يتحولوا إلى أهل حرف (٢) . ويقول أحد المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا أول جيش ثابت نظامى عرفته أوروبا منذ العصور الرومانية (٣) .

العلاقات الوطيدة بين الإنكشارية والطريقة البكتاشية :

يردد فريق من المؤرخين والباحثين رواية تقول إن السلطان أورخان قد حصل على موافقة حاجى بكتاشى - الحاج بكتاشى - شيخ الطريقة الصوفية البكتاشية على مشروعه ، وهو جمع الغلمان المسيحيين ثم تحويلهم إلى الإسلام وإعداد دراسات عقلية وتدريبات عسكرية تجعل منهم فى نهاية المطاف رجال حرب أو حكم يتولون المناصب القيادية فى الجيش أو فى القصور السلطانية أو فى سائر أجهزة الحكم والإدارة . وقال هذا الفريق من المؤرخين والباحثين للتدليل على صحة تلك الرواية أن الحاج بكتاشى قد بارك الرواد الأوائل من الإنكشارية بوضع كم رداثة فوق رعوسهم . وبسبب هذه المباركة وقع اختيارهم على غطاء غريب الشكل لرعوسهم ، كان عبارة عن قلنسوة من الصوف الأبيض تتدل من خلفها قطعة طويلة من القماش أسطوانية الشكل هى رمز للبركة التى منحها الحاج بكتاشى لهم . وفى الصور التى رسمت لغطاء رعوس الإنكشارية يظهر هذا الغطاء واضحاً .

Fisher H.A.L. ; op. cit., p. 402. (١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part. (٢)
I., p. 64.

Grant A. J.; A History of Europe 1494—1610., being Vol. (٣)
V. of "Methuen's History of Medieval and Modern Europe". Eleventh
edition, 1967., p. 212.

وهناك فريق آخر من المؤرخين والباحثين يتشككون في صحة تلك الرواية بل ينسوها نفيًا باتًا تأسيساً على أن الحاج بكتاشي كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أوجاق الإنكشارية بقرن من الزمان (١). ولن نخوض في دراسة مقارنة بين هذين الرأيين المتعارضين أشد المتعارض ، لأنها خارجة عن نطاق البحث . ولكن الثابت تاريخياً - وهو ما سنبينه في الأقسام الأولى في هذه الدراسة - أن الإنكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية ، ويظهرون نحو شيوخها طاعة تامة وصلت إلى حد الولاية العميق ، ولذلك كان يطلق على الإنكشارية أحياناً « عسكري بكتاشية » ، أي الجنود البكتاشية ، وأحياناً ثانياً « بكتاشية أوجاقى » ، أي أوجاق البكتاشية . وأحياناً ثالثة « حاجي بكتاش أوجللرى » ، أي أبناء الحاج بكتاش (٢) . والواقع أن الأهمية السياسية التي اكتسبتها الطريقة البكتاشية إنما ترجع إلى ارتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة آئمة لهم (٣) .

وبعض الأيام ازدادت العلاقات توثيقاً بين فيالق الإنكشارية وشيوخ وأتباع الطريقة البكتاشية . ومن العوامل التي ساعدت على هذا الارتباط الوثيق بين الطائفتين كثرة عدد تلاميذ البكتاشية وانتشارها في طول البلاد وعرضها . وكانت تطلق على شيخ كل تكية بكتاشية كلمة « بابا » ، وعلى الدرويش لفظة « مريد » ، وعلى الملتحق بالتكية لقب « منتسب » . وفي أواخر القرن السادس عشر ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩١ مبعث ثمانية من البكتاشية أن يقيموا في أحد عنابر فرقة إنكشارية كانت تسكن في الشكبات الجليدية في إستانبول وهي الفرقة التاسعة والتسعون . وكان رئيسي هؤلاء

(١) Koprühzade (Koprulo) Mehemed Fuad : Les Origines du Bektachisme. Paris. 1926, p. 21.

(٢) Tschardj ; Encyc. of Islam. Art. Bektash.

(٣) من علاقات الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية انظر :

Hasluck F.W.; Christianity and Islam under the Sultans. 2 vols. Oxford, 1929, pp. 483-493.

الدرابوش يعتبر وكيلا لشيخ الطريقة البكتاشية. وكان هؤلاء البكتاشية يتناولون طعامهم في هذا العنبر ، ويمكفون على الصلاة ، وتلاوة القرآن الكريم ، ويدعون الله أن ينصر القوات العثمانية المسلحة ، وأن يجعل الدولة العثمانية مهية منية من كل غزو تتعرض له (١). وكان هؤلاء الدرابوش البكتاشية يسبون في المواكب الرسمية أمام أغا الإنكشارية مرتدين الملابس الخضراء ، وينادى رئيسهم بأعلى صوته : «كريم الله» أي «الله كريم» ، فيرد عليه بقية البكتاشية في صوت واحد جهر « هو » أي أن الله سبحانه وتعالى موجود . ولهذا أطلق على هؤلاء الدرابوش « هوكشان » Hu-kechan — ومعناها الصامحون بلفظة « هو » (٢) .

ومن دلائل التصاق الإنكشارية بالطريقة البكتاشية أن أتباع هذه الطريقة كانوا يتفون إلى جانب الإنكشارية في أثناء حركات العصيان العسكرى التي كانت تقوم بها الفياق الإنكشارية ضد السلطان والحكومة المركزية ، بل كانوا يشتركون فيها ، كما أن السلطان محمود الثانى حين عصفت بالفياق الإنكشارية أطاح أيضاً بالطريقة البكتاشية فأمر بإلغائها وإغلاق تكاياها ، كما سنوضح في الفصل التاسع عشر .

مركز رئيس الإنكشارية :

كان رئيس الإنكشارية — ويطلق عليه أغا الإنكشارية أو المصطلح التركى بنى شرية أغماسى — من أبرز الشخصيات فى الدوة العثمانية ، إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية رهيبة فى سلاح المشاة كمت تصرف السلطان . كما أنه بحكم منصبه كان يشغل وظيفتين أخريين ، فهو رئيس قوات الشرطة فى إستانبول ، وهو فى ذات الوقت عضو فى مجلس الدوة ، وإن كانت مثل هذه العضوية لا تعد وظيفة بالمعنى العام الذى

Gibb Hamilton (Sir) and Bowen Harold ; op. cit. Vol. 1 (١)

Part 1, p. 65.

Part 2 p. 193.

D'Ohsson Ignatius Mouradgea, op. cit., t. IV, p. 673, (٢)

et t. VII, P. 325.

يتبادر إلى الذهن . وكان رئيس الإنكشارية - بحكم منصبه كقائد لقوات الشرطة (١) - يعتبر مسؤولاً عن حفظ النظام وتوفير أسباب الأمن وحماية الأملاك في معظم جهات العاصمة ، ولم يكن يخرج عن اختصاصه سوى القصر السلطاني والمنطقة المحيطة به . والضواحي الثلاث للعاصمة وهي : أيوب ، غلطة ، إشقودرة .

وطباً للبروتوكول العثماني كان رئيس الإنكشارية في درجة وزير ، فكان يتقدم على كل من تمل مرتبته عن مرتبة وزير ، وكان يتقدم أيضاً على جميع الزادة العسكريين أيأ كانوا فيما عدا أيام الأعياد ، فكانت الأسبوعية عليه لقادة فرق السباهية وبولوكات السلحدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية .

وكان لرئيس الإنكشارية مقر خاص في عاصمة الدولة ومكاتب في الجهات التي تعمل الفرقة فيها . وكان يتبعه على الدوام ضابط أركان حرب يحمل الزادة . ويتقدم هذا القائد في ميدان القتال علم أبيض يعلوه ثلاثة أطواخ (٢) ، ثم يتبعه الإنكشارية . وقد رفعوا أذيان ملابسهم وربطوها بأحزمتهم .

وكان السلطان يختار رئيس الإنكشارية من بين ضباط هذا السلاح . وظل هذا التقليد متبعاً حتى حكم السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠-١٥٦٦) فأراد أن يحد من جبروت أفراد هذا السلاح وطمعناهم وعصبانهم ، فأدخل تعديلاً جوهرياً على نظام الاختيار تقرر بتمتصاه أن يتم اختيار رئيس الإنكشارية من بين كبار ضباط القصر السلطاني .

(١) يلاحظ أنه لم تكن توجد قوات شرطة مستقلة سواء في العاصمة أو في الولايات . وعلى ذلك فإن المهام التي يجب أن تكون من اختصاص قوات الشرطة كانت تقوم بها وقت السلم فرق من الإنكشارية . أما المنطقة التي تقع تحت إشراف الأغا فكانت تقوم فرق موضوعة في العاصمة بهذه المهام . وفي وقت الحرب كانت هذه الفرق تتجه إلى ساحات القتال وتحمل معها قوات من الجيش أورغلان .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part I, p. 66

(٢) سبق أن درشنا مدلول هذا المصطلح . انظر ص ص ٣٦٤-٣٦٥ في هذه الدراسة .

موقف العائلات المسيحية من ضريبة الغلمان :

لم ترحب معنات العائلات المسيحية بضريبة الغلمان ، بل عارضتها من حيث المبدأ ، ولجأ عدد من هذه الأسر إلى بعض الوسائل للترب من أداء هذه الضريبة البشرية . فعملت إلى تزويج الأولاد الذين باعوا الحلم كحي تحول دون انزاعهم من ذويهم . وكان القانون يمنع أخذ الأولاد المتزوجين . وإذا كانت الأسرة على حظ موفور من الثراء ، فلإنها كانت تقام رشوة مندوب الحكومة المركزية المتوط به جمع الغلمان . وقد وجد هؤلاء المندوبون في هذه الرشا وسيلة لجمع الثروات بطريق غير مشروع . ولكنه كان عمته مصالح متباداة بين المناوب الحكومي والأسرة المسيحية .

ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يقررون أن غالبية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم ، ونظروا إلى العملية كلها بجمع جزئياتها ومراحلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبثاً نفسياً ثقيلاً . ويؤكدون هذا الرأي بقرئهم إن العائلات المسلمة كانت تطالب إلى الأمر المسيحية أن تتلم أولادها المسلمين إلى مندوب الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية . وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصية ضريبة الغلمان على أنهم مسيحيون (١) . وبذلك تسرى ، في غفلة من الحكومة ، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التي كانت تنافق إغداقاً على أبناء الأسر المسيحية (٢) . ويذكر بروكلمان المستشرق الألماني في هذا الصدد : « كان في المستقبل اللامع الذي ينتظر الإنكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع أنه استثار حسد الأتراك (٣) أنفسهم ، فكانوا يسعون ، في أحوال

(١) Christian parents had sometimes bought off their sons from conscription; Moslem, Jewish, and Gypsy youths had been substituted for Christian.

See

Gibb Hamilton and Bowen Harold, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180

Lybyer A.H.; op. cit., p. 54.

(٢)

(٣) كان هذا المستشرق يعصد بلقطة الأتراك الممانين المسلمين الذين جاؤوا إلى الحياة

من آباء مسلمين أسرار .

كثيرة ، إلى دس أبنائهم في صفوف الغلمان من النصارى « (١) . ولكن كانت الحكومة المركزية توقع عقوبات قاسية على مرتكبي حوادث الغش والزيور والرشا حين تكتشفها ، كما أن هذه المساوىء - إذا مضت دون كشف أمرها - لم تنمض على الكفاية القنالية للقيالغ الإنكشارية (٢) .

والحقبة التي لا مرأ فيها أن المأرضة الحقيمية لضريبة الغلمان كانت تكن في الأوائل المسيحية التي كانت الأاطة الدينية تسيطر عليها سيطرة حياة . فندكرهت أمثال هذه الأوائل أن يرئد أولادها عن المسيحية وأن يتحولوا إلى الإسلام مهما كان المستقبل أمام هؤلاء الغلمان زاهراً ومبشراً بمجد ورفعة وثناء . فالعاطفة الدينية عند هذه الأوائل كانت من القوة بحيث تبخرت أمامها مغريات الحياة المادية . وجدير بالذكر أن المؤرخين والباحثين الأوروبيين وغير المسلمين عموماً والذين لا يزالون إلى اليوم يهاجمون ضريبة الغلمان في الدولة العثمانية إنما تنبثق حملاتهم عنها من الدفاع الديني . كما أن الكراهية الشديدة التي كان ولا يزال يشعر بها الأوروبيون نحو الأراك العثمانيين كان من بين بواعثها ضريبة الغلمان .

آراء المؤرخين في ضريبة الغلمان :

اختلفت آراء المؤرخين والباحثين حول ضريبة الغلمان ، فبعضهم هاجمها هجوماً عنيفاً ، والبعض الآخر دافع عنها من حيث المبدأ . وقد أقام الفريق الأول من أولئك المؤرخين والباحثين معارضتهم على ركيزتين . كانت الركيزة الأولى العواطف الإنسانية ، فصوروا الآلام النفسية المبرحة التي كان يئن منها الوالدان وبخاصة الأم الكلى عند انتراع وإدائها منها ، وكيف كانت تدرغ الدموع غزيرة ، وصوروا هذه اللحظات بأنها أنسى اللحظات التي تمر بها أم في حياتها . ووصفوا ضريبة الغلمان بأنها تمثل أشجع أنواع

(١) بروكلان كارل . الأراك العثمانيون وحضارتهم ، مرصع سبق ذكره ، ج ٣ ،

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. 1, Part (٢)

الظلم والقسوة وافتقار الرحمة من قلوب البشر ، وأنها اعتداء سافر على حرية الفرد وعلى حق الآباء على أبنائهم الصغار ، وقرروا أن هذه الضريبة تنتزع من الإنسان أعز ما يملك في حياته ، إنها ضريبة اللحم الإنساني يفرضها متمصر على قوم شاء سوء حظهم أن تلقى الحكومة المسيحية التي كانت تحكمهم هزيمة عسكرية على يد الأتراك العثمانيين ، ويدفع الشعب ثمن هذه الهزيمة في صورة تناق مع الأخلاق والمبادئ الإنمائية . ويخلص أولئك الباحثون إلى أن الأتراك العثمانيين قد سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التي دانت لحكمهم . أما الركيزة الثانية التي أقام عليها خصوم ضريبة الغلمان اعتراضهم فكانت إكراه الغلمان على الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام . وقالوا إن هذا الإكراه يتناق مع حرية الفرد في اختيار عقيدته .

أما الفريق الآخر من المؤرخين والباحثين الذين دافعوا عن ضريبة الغلمان من حيث المبدأ فقد استندوا إلى أن الحروب التي خاضها الأتراك العثمانيون في الأقاليم التي فتحوها قد نشرت الخراب والدمار فيها . واستهدف عدد كبير من العائلات المسيحية إلى خطر الملاك جوعاً . وكان معظم الأطفال المسيحيين الذين أخذتهم الدولة العثمانية قد فقدوا آباءهم . ولولا أخذ الحكومة لهم لتعرضوا لهلاك أو الانحراف . كما أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت معروفة ومنتشرة . فلم تكن ضريبة الغلمان بالشئ الجديد على المجتمعات المسيحية الأوروبية في تلك القرون . بل إن بعض الباحثين يذهبون في هذا الصدد إلى القول بأن هذه العادة لم تكن إلا استمراراً لحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الدولة البيزنطية التي سقطت على يد الأتراك العثمانيين بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

أستاذ أمريكي يدافع عن ضريبة الغلمان :

يقول الأستاذ الأمريكي ليبيير Lybyer تعليماً على ضريبة الغلمان . بمجموعاتها الثلاث إنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جرأة وأوسع نطاقاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون ، فليس لهذه التجربة نظير سوى في جمهورية أفلاطون من الواجهة النظرية وفي دولتي المايك

البحرية والشراسة في مصر من الناحية العملية ، ولكن لا يلبث هذا الأستاذ الأمريكي أن يقيد أوجه الشبه ، فيقول إن نظام جمهورية أفلاطون يشترط أن تكون الفئة الحاكمة مقصورة على الأرستقراطية الهيلينية ، كما أن التجربة العيازة عثرت أكثر مما عثرت تجربة المالك بعد أن أزال العثمانيون دولة المالك الشراكية . ويمضى الأستاذ ليبر في تعليقه على ضريبة الغلمان فيقول إن نظامها كان لا يترفض بالفروق الاجتماعية . فالدواة تجمع أبناء رعاياها المسيحيين من الريف ، والغالية الساحقة منهم يحلون في فلاحه الأرض ورعى الأغنام ، وفيهم الفقراء الذين لم قدم راحة في محالفة الفقر ومزاملته حتى الصق بهم الفقر والتصقرا به ، وأصبحوا هم جزءاً لا يتجزأ من حياة البؤس والفاقة والحرمان ، وإذا بأولاد هؤلاء الملعدين في الأرض قد بلغوا بمضى الأيام أرقى المناصب : صبوراً عظماً ، ووزراء ، وقادة عسكريين ، وحكاماً ، في دولة إسلامية مترامية الأطراف في القارات الثلاث التي كانت تشكل العالم القديم وقتذاك .

ويدلل الأستاذ الأمريكي على ديمقراطية النظام العثماني في ضريبة الغلمان بقوله إن شعب الولايات المتحدة الأمريكية قد يفخر بأن رجالاً وصلوا إلى كرسي رئاسة الجمهورية وكانوا في مستقبل حياتهم يؤدون أعمالاً متواضعة ومضنية في الغابات المهجورة البعيدة عن العمران . ولكن أمثال هؤلاء الرجال قد بلغوا منصب رئيس الجمهورية بفضل مجيهم ، وليس بفضل الترقى وفق نظام وضع بناية ليدفع بهم إلى مدارج الرقى ، ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فيقول إن الكنيسة الكاثوليكية قد تفخر بأن بعض البابوات كانوا في مطلع حياتهم فلاحين ، ولكن من الثابت أن اختيار الكنيسة لم يقع على أحد ينحدر من أسرة كانت تعتق ديناً مخالفاً للمسيحية أو تدين بمذهب مخالف للمذهب الكاثوليكي . أما الدولة العثمانية فعلى التقرض من ذلك كله ، أخذت غلماناً كانوا ينتمون انباء مباشراً إلى عائلات مسيحية . وقد حملت هذه العائلات أسماء مسيحية أجيالاً وأعصراً وأدهاراً . وأخذت الدواة بأيدى أطفال هذه العائلات وفحصت أمامهم الأبواب على مصاريحها وجعلت من بعضهم جنوداً في الجيش يصلون إلى أعلى المناصب العسكرية ، وجعلت من البعض

الآخر رجالاً يشتغلون في البلاط المماني ووزراء . ولم يحدث أن وجهت الدعوة سراً إلى أحد من هؤلاء الأطفال لتستفسر منه عن اسم والده أو الحرارة التي كان يزاولها أبوه ، بل كانت الدعوة تقبل له إن اختارها فد وقع عليه ليكون جندياً باسلاً في جيش السلطان ، وإذا أثبت كفاية عسكرية فإنه سينتقل إلى الرتب العسكرية وأرقى المناصب المتبادلة في القوات المسلحة . ويقتول الدعوة لطفل آخر وهو ينشئ تدريبه المادي والعسكري إنه سيمثل في البلاط السلطاني . وإذا أظهر متانة فإنه سيكون والياً في إحدى الولايات أو وزيراً أو صديقاً أعظم . ويمثل هذا النظام - في نظر الأستاذ الأمريكي - الديمقراطية بأجلى معانيها ، كما أنه ينطوي على إفساح الطريق أمام الكفايات فتنبؤ مكاناً علياً بعد أن كان يملأها أن تعيش مغفورة وتمضى حياة يحف بها المؤمن من يمين وشمال (١) ،

تقديم ضريبة الغلمان !

إن تلك الآراء التي بسطها الفريتمان المتهاوضان من البروتستين والباحثين ليست إلا آراء اجتهادية لا تعلق أن تكون تبريراً لموقفهم من ضريبة آدمية فرضتها الدولة على غلمان مسيحيين ، ولكن هناك رأى واحد يمكن أن نسوقه هنا تفسراً لهذه الضريبة يجب جمع الآراء التي سبق عرضها تأييداً أو اعتراضاً على ضريبة الغلمان . إن هذه الضريبة ليست إلا صورة من صور التجنيد العسكري الذي تباشره الحكومات في كافة الدول النامية والمتنامية على حد سواء لسد حاجة القوات المسلحة من الرجال مع وجود عدة فروع هامة ، نذكر من بينها :

أولاً : إن الشاب الخند يتخضع فترة التجنيد لمدة زمنية محددة ، وقد تطول وقد تقصر تبعاً للظروف السياسية والعسكرية التي يجتازها الدعوة ،

Lybyer A.H.; op. cit., pp. 45-47.

(١)

ولمعلومات أرق انظر في هذا المرجع الفصل الثاني بعنوان :

The Ottoman Ruling Institution : as a Slave-Family, General Description, pp. 45-61.

بل إن بعض الدول كانت تستنق الجندى فى سلك الجيش حتى يتخفى نحوه سواء حتف أنه أو فى ساحات الوخى . أما الدولة العثمانية فبدلاً من أن تنتظر الغلام حتى يبلغ أتمده ويصبح فى عنفوان شبابه لتجنده ، نجد أنها تأخذوه وهو فى سن مبكرة لتدريبه التدريب الذى يشقى مع استعداداته القتالية والجسمانية تمهيداً لتعيينه فى وظائف السلك العسكرى أو السلك المدنى ، ويظل فى خدمة الدولة طوال حياته .

ثانياً : إن الجندى فى الدول الأخرى لا يبلغ عند وفاته أو عند تسريحه من الجيش رتبة من الرتب العسكرية الكبيرة . بينما كان الغلام الذى تأخذه الدولة العثمانية يصل إلى أعلى الرتب العسكرية والمناصب القتالية فى الجيش ، أو البلاط السلطانى أو الصدارة العظمى - رئاسة الوزارة - أو كرسى الوزارة . أو الوظائف الإدارية المدنية ذات المستوى العالى . وعلى ذلك فإذا كانت الدولة العثمانية تأخذ الأطفال المسيحيين وهم فى سن غضة ، فإن مسبقاً زاهراً كان ينتظرهم فى قابل الأيام ويظلون يتعمون به مدى الحياة .

ثالثاً : إن الجند فى الدول الأخرى كان لا يطلب منه فى الأعم الأغلب تغيير عقيدته الدينية أو مذهبه الدينى . أما فى الدولة العثمانية فكان يتم تحويل الغلمان إلى الدين الإسلامى ، لأن هذه الدولة كانت تلتزم فى معظم الأوقات التزاماً صارماً بتطبيق مبدأ عام هو عدم إشراك غير المسلمين فى الجيش الذى يظل مصوراً على المسلمين دون سواهم .

ويلاحظ أن فريقاً من المؤرخين والباحثين يتناسون المسافة الزمنية التى تفصل بين الغلمان الذين عاشوا فى أوروبا فى القرن الرابع عشر وما تلاه وبين غلمان أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وتجاهلوا الحروب الدينية العديدة والعنيفة التى ختصت أرض أوروبا بالدماء منذ حركة مارتن لوثر ، ونحن نقتصر حديثنا فى نطاق التاريخ الحديث ، ولا نوغل بعيداً فى أغوار تاريخ العصور الوسطى أو تاريخ العصور القديمة . وكانت كل طائفة دينية تريد لإكراه طوائف أخرى على اعتناق مذهبها ، وما تخلل هذه الحروب من الاغتيالات ومذابح عامة تنوعت صورها وأشكالها ووحشتها ، سواء فى شبه

جزيرة إيطاليا ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الاتحادية (الغربية) ، أو ما يسمى الآن ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) ، أو فرنسا ، أو سويسرا ، وغيرها بين الكاثوليك والبروتستانت ، أو في أسبانيا بين الكاثوليك والمسلمين بوجه خاص . ونحن إذا أشرنا إلى هذه الأمثلة فلأننا لا ندافع عن سياسة الدولة العثمانية في هذا الصدد استناداً إلى أن أحداثاً على شاكلتها قد وقعت من قبل في أوروبا . ومن المبادئ المستقرة في مناهج البحث العلمي التاريخي أن تقييم الحادث ووزنه لا يمان إلا في ضوء تقاليد المجتمع وقتذاك وحضارته والعصر الذي وقع فيه هذا الحادث .

أهمية الإنكشارية :

ترجع أهمية الإنكشارية إلى عدة عوامل ، من بينها كفايتهم القتالية وشجاعتهم المفرطة ووفرتهم العديدة (١) وضراوتهم في المعارك الحربية . فكانوا يشكلون ثقلًا حربيًا رهيباً لمصلحة الدولة في الحروب التي كانت تخوضها الجيوش العثمانية دفاعاً أو هجومًا سواء في آسيا ، أو في أوروبا ، أو في إفريقيا .

وقد أرجع أحد المؤرخين ضراوة الإنكشارية في القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التي اتسمت بها تربيتهم ، وإلى نحو ما ضيقتهم محو كاد يكون تاماً ، وإلى التركيز على الاستبسال في الحرب واسترخاض الموت . فكانت حصيلة هذه التربية البعيدة عن جو الأمانة والذي تركو فيه شتى المشاعر من الحب والعطف والحنان ، أن نشأوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التي تهذب الطباع ، ومحرورين من جميع الصفات المكتسبة التي تفتح الأذهان ، وبعيدون عن كل المثل التي تحرك الإرادة . فغداً تفكيرهم وسلوكهم ومستقبلهم مرتبطاً بالحرب (٢) .

(١) كان عدد الإنكشارية أول الأمر ١٢,٠٠٠ ثم ارتفع عددهم باطراد إلى ١٣,٠٠٠ ثم

٤٦,١١٣ ثم قفز إلى ١٤٠,٠٠٠ .

Fisher H.A.L.; A History of Europe, op. cit., p. 402. (٢)

وكان الإنكشارية يأخذون سنى المواقع في ميدان المعركة ، بل وقبل بدايتها . كان فريق منهم يرافقتون طليعة الجيش بقبعهم عدد من رؤسائهم . فإذا بلغ الجيش مكان المعركة وقف الإنكشارية في القلب واتخذ السلطان مكانه خلفهم ، وإلى جانبه يبرق الحرب ، وهو العلم الإمبراطورى (١) . وكان الصدر الأعظم يقف إلى جانب السلطان ، وكذلك كبار القادة . وجميعهم من نزاج ضريبة الغنائم ، أى القرلار عبيد السلطان .

وكان الإنكشارية أيضاً يتبعون السلطان في تنقلاته . ويعزو بعض المؤرخين والباحثين مصاحبة الإنكشارية للسلطان في تحركاته إلى أنهم كانوا يؤلفون الحرس السلطاني . ويقولون إن هذه المرافقة للسلطان كانت وظيفتهم الرئيسية . ومن الخطأ الأخذ بهذا الرأي الذى يجعل البعض يعتقد أن عمل الإنكشارية الرئيسي كان مقصوراً على الخدمة في الحرس السلطاني في حين أنه كانت هناك أربع فرق عسكرية ذات مركز عال تعمل إلى جانب فرق أخرى في الحرس السلطاني . وهذه الفرق الأربع هى : الصولاك ، والبيكات ، واجلوشية ، والمتفرقة . وكان أفراد بعض هذه الفرق يخطبون بالسلطان في الموكب الرسمية ، بينما كان البعض الآخر لا يتركون السلطان إطلاقاً حين كان يذهب إلى الحرب ، وكان البعض الثالث يتناوبون الحراسة في القصر : وكان البعض الرابع يلازمون السلطان باستمرار . وكانت الغالبية العظمى من أفراد هذه الفرق لا يقومون بأى خدمة حربية إلا في تلك المناسبات (٢) . وما يلخصه رأى الذى ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين والباحثين ،

(١) استبدلت الدولة واية الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمسماة البيروقراطية بالعلم الإمبراطورى . وقد تم هذا التغيير منذ حكم السلطان سليم الأول . ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية عام ١٥١٧ وكان الصانعون يعتبرون هذا البرق من أهم الأمانات المنسمة ، وأطلقوا عليه « صنقج شريف » أى البرق الشريف . وكان هذا البرق الشريف من من الهدايا التي أرسلها بركات شريف مكة إلى السلطان سليم الأول في أثناء إقامته في القاهرة سنواتاً على ولايته للدولة ودخول الحجاز تحت السيادة العثمانية . وكان السلاطين منذ ذلك الوقت يحرمون على أخذ هذا البرق الشريف معهم حين يخرجون إلى الحرب تركاً به .

Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit., Vol. I, Part (٢)

1, pp. 86-88.

وهو أن الإنكشارية كانوا يؤلفون الحرس السلطاني ، أن الفياق الإنكشارية كانت من أهم التترات الضاربة الرئيسية التي اعتمدت عليها الدوابة في فتوحاتها لأقاليم مترامية الأطراف ، وفي صمودها أمام تكتلات صليبية أوروبية رهيبة واجهتها الدوابة عبر تاريخها الطويل (١) .

ويؤيد هذا الرأي جمهرة من أعلام المستشرقين والمؤرخين الأجانب . وحسبنا أن نذكر أربعة منهم . يقرل بروكلمان المستشرق الألماني إن الإنكشارية كانوا قوام الجيش العثماني وعماده (٢) . ويقرر المستشرق كليان ليردات أن الإنكشارية كانوا أكبر قوة في فرق المشاة استطاع بها السلاطين تتميق الفتوح الواسعة التي قاموا بها في القرن الرابع عشر وفي القرون التالية (٣) . وهناك مؤرخ إنجليزي - هو الأستاذ جرانت - يذهب إلى أبعد من هذا الرأي ، فيقول إن المشاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان مصير أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد إلى حد كبير جداً على الإنكشارية (٤) ، ثم يقول في موطن آخر إن الدولة العثمانية أحرزت أعظم انتصاراتها في ساحات القتال بفضل الإنكشارية ، بسبب مقدرتهم القتالية وشجاعتهم الحربية . ولما اقتتلوا هذه المزايا والحاصلات ولت الأيام الذهبية التي عاشتها الدولة عبر تاريخها الطويل (٥) . أما المؤرخ الإنجليزي فيشر فكان أكثر تفصيلاً لهذا

(١) عن التوسع الإقليمي وعن التكتلات أنظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . ج ١ ،
الطبعة الأولى ، ص ص ٥٦٤ - ٥٨٢ ، ص ص ٥٩٣ - ٦٢٠ ، ص ص ٦٢٥ - ٦٥٠ ،
ص ص ٦٥٠ - ٦٥٥ ، ص ص ٦٦٨ - ٦٦٥ ، ص ص ٦٧٧ - ٦٨٩ ، ص ص ٧٠٦ -
ص ص ٧١٠ - ٧٢٤ ، ص ص ٧٤٨ - ٧٥٠ ، ص ص ٧٧٧ - ٧٧٧ ، ص ص ٧٨٤ -
٧٨٨ ، ص ص ٧٩٣ - ٧٩٥ ، ص ص ٧٩٩ - ٨١٠ .

(٢) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣

ص ٨٣ .

Huart Cl., Encyc. of Islam. Art. Janissaries. (٣)

Grant A.J., A History etc., op. cit., p. 211. (٤)

op. cit., p. 212. (٥)

الرأى من سابقه ، فهو يقول إن وجود فرقة واحدة من الإنكشارية في أى جيش عثماني كان كفيلاً باستماتة هذا الجيش كله في ميدان القتال ، ثم يقول في موطن آخر إن الإمبراطورية العثمانية قامت ، وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا أكثر في الجيوش العثمانية ، بل كذلك بفضل رجال مذهبهم صفة الأصل ، ولأنهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جرى بهم إلى مدارس الإنكشارية حيث طلبوا بطابع الخضوع العسكري والعتيدة الإسلامية (١) .

ويسجل أحد الباحثين العرب المحدثين رأيه في أهمية الفيالق الإنكشارية في الثورات المسلحة العثمانية ويشيد بصنات أفراد هذه الفيالق ودورهم في الفتوحات العثمانية التي تمت غرباً وشرقاً ، فيقول إن الفيالق الإنكشارية كانت محور قوة الدولة ، وبهذه الفيالق المنظمة والمدرّبة والمتفانية استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة . فلأنها من ناحية فتحت بلاداً في أوروبا كانت حتى ذلك الوقت خارج حوزة الإسلام ، ومن ناحية أخرى استولت على الإمارات الإسلامية الصغيرة التي قامت في الأناضول على أنقاض دولة الروم السلاجقة (٢) . ولا شك أن هذا الباحث العربي كان يتكلم عن الثورات الإنكشارية في عصرها الذهبي قبل أن يتطرق إليها الفساد وتندو معار أخطار على الدولة .

ونضيف إلى ما قرره هؤلاء الأربعة ، عن الدور الرئيسي الذي قام به الإنكشارية في حروب الدولة هجوماً ودفاعاً ، أن الإنكشارية كانوا يشكلون

(١) ".....it is clear that without such a tribute (the tribute of Christian children) a regular recruitment could not have been maintained. It followed, as a consequence, that the Ottoman Empire was made and maintained, not only or even mainly, by men of the Ottoman race but by the slave children of Christian parents, who had issued through the seminaries of the janissaries, with the appointed stamp of military subservience and the Moslem faith".

Fisher H. A. L.; op. cit., p. 402.

(٢) سابع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧-١٨

الحمايات التي ترابط على حدود الدولة . وكانوا يتلقون مرتباتهم من الحكومة المركزية في إستانبول .

وجرت العادة على أن ترسل هذه الحكومة عدداً من ضباط الإنكشارية أول الأمر إلى المواقع المقترحة لإنشاء الحمايات فيها . ويقوم هؤلاء الضباط بدراستها على الطبيعة وتقديم مقترحاتهم إلى إستانبول . وكانت الدولة أيضاً تعزز جيوش الاحتلال في الأقاليم التي فتحتها بقوات من الإنكشارية . وكانت لهذه القوات الصدارة على سائر فرق جيوش الاحتلال في الولايات العثمانية في أوروبا ، و فرق الحمايات العثمانية في الولايات العربية . ونذكر على سبيل المثال بلاد الشام بتقسيمها الإدارية ، ومصر ، والعراق . وكان الإنكشارية في الممتلكات العثمانية يخضعون لإمرة الولاة المحليين ، ويتقاضون مرتباتهم من الحكومة المحلية في الولاية .

جبروت الإنكشارية وطغيانهم :

كان الإنكشارية سلاحاً رهيباً حاداً بآراً استطاعت به الدولة أن تمنحى قديماً في سياسة التوسع الإقليمي المرحلي . وكان الجيش العثماني يضارع أقوى الجيوش الأوروبية . ثم غدوا مركز قوة خطر في حياة الدولة تعرضت بسببه لأخطار جسيمة . استشرى نفوذهم وازدادوا إدراكاً لأهميتهم ومقدرتهم القتالية فداخلهم النور ، أو بعبارة أكثر دقة ، ازدادوا غروراً على غرور ، و صلفاً على صلف .

كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بقوله أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد . ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش - أي البقشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوتي من قوة أو عزيمته أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم . ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١٧٧٤ حين تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش الدولة في اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام

١٧٧٣ (١) وكانت حجته في إلغاء هذا التقليد حجة قوية ، هي أن الدولة كانت تجتاز وقتذاك أزمة مالية عصبية بسبب ضخامة الإنفاق العسكري على القوات العثمانية المسلحة إبان الحرب التي اشتملت بين الدولة وبين روسيا . وهي الحرب التي استطالت ست سنوات كوامل ومحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان ، وانتهت بعقد معاهدة جائرة هي معاهدة كوتشك كينارجي في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ . وقد أُلحِقَ بهِلمه المعاهدة بندان سريان : نص أولها على أن تدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامة حربية قدرها خمسة عشر ألف كيس ، تسدد على ثلاثة أقساط متساوية في اليوم الأول من شهر يناير - كانون ثان - في عام ١٧٧٥ ، وعام ١٧٧٦ وعام ١٧٧٧ .

وتد بدأت ظاهرة تلخل الإنكشارية في المسائل السياسية العليا منذ عهد السلطان «أبي زيد الثاني» (١٤٨١-١٥١٢) ، ثم اشتدت هذه الظاهرة على عهود معظم خلفائه السلاطين . حدث أن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) - وهو معروف بصرامته وإسرافه في سفك الدماء - كان قد توغل في أراضي الدولة الصفوية في فارس على رأس قوات زاحفة جرارة . وفجأة طلب الإنكشارية من هذا السلطان وقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات واستيلاءات على أراضي العدو . وخشى السلطان أن يعمدوا إلى التمرد والعصيان وهو بعيد عن قاعدة دولته مما قد يرضخ الجيش العثماني إلى التزق . وكان تقدير السلطان للموقف الحربي أن الانسحاب هو أخف الضررين . فرضخ لطلب الإنكشارية . وعاد أدراجه إلى إستانبول . وتكرر مثل هذا الحادث على عهد سلطان لاحق هو السلطان عثمان الثاني . وستوضح هذين الحادثين في الفصل القادم .

وإزداد نفوذ الإنكشارية بعد أن انتقلت قوات كثيفة العدد منهم إلى حاصمة الدولة مما أتاح عديد الفرص لروؤسائهم ليتمادوا في طلباتهم كلما آتسوا

(١) يرى بعض المؤرخين والباحثين التناقض عن الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر - كانون

أول - ١٧٧٢ ، ومعملون عام ١٧٧٤ بداية حكم السلطان عبد الحميد الأول .

من السلطان الحاكم ضعفاً . كانوا يزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، ويتلون بهمهم ، ويتدخلون في تعيين غيرهم في المناصب التي تخلو بقتل أو عزل شاغلها . وأصبح كبار موظفي الدولة يخشون الإنكشارية ويتماقرون رؤسدهم ، ويتلون أوامرهم خوفاً من بطشهم . وبلغ من عتو الإنكشارية أنهم كانوا لا يحفلون بتنفيذ الأوامر العسكرية التي تصدر لهم من قيادة الجيش . ونذكر على سبيل المثال أنه إذا استول الجيش على مدينة وعثت المدينة أو اتفاقية مؤقتة تتضمن شروط التسليم ، وكان من بينها المحافظة على أرواح سكان المدينة وأموالهم وأعراضهم ، كانت الفياق الإنكشارية لا تعبساً بشروط التسليم ، وتتعلق في نشاط مغموم تمارس أعمال النهب والسلب والتل وهتك الأعراض وإحراق المباني .

وكان الإنكشارية في أوقات السلم يشنون عصا الطاعة ، ويلجأون إلى سلاحهم التليلدى ، وهو التيام بحركات عصيان تحمل معنى التحدى للسلطان والحكومة المركزية في العاصمة . وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا بمثابة عصابات عسكرية تهفو نفوسهم إلى أعمال التمرد وخلق السلطان الحاكم والمادة بتنصيب سلطان جديد يقع عليه اختيارهم طمعاً في تجدد العطايا . وكانوا يلجأون إلى وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكرية . كانوا يترضون الموكب السلطاني ويمنعون السلطان من الوصول إلى القصر ويهتفون في وجهه هتافات غير كريمة معالين إما بمزيد من العطايا والإميازات ، وإما بالغاء قوانين كانت قد صدرت باغلاق محلات بيع الخمر وحظر تناول هذه المشروبات . فكانوا يحملون في أيديهم كؤوس الشراب ويرفعونها في وجه السلطان مما يعد تحدياً صريحاً للرئيس الأعلى للدولة وحكومته .

الإنكشارية يتدخلون من التزانات رمزاً لتمردهم :

كان الإنكشارية يتدخلون من التزانات - وهي الدور التي يطهى فيها العظام - رمزاً إعلامياً يعبرون به عن مسلكتهم . فكانوا لا يجتمعون حول

القزانات لتناول الطعام فحسب ، بل وللشاور في أمورهم الخطيرة أو الهامة . فإذا استقروا رأياً على القيام بحركة عصيان عسكرية جماعية قبلوا القزانات بعد التهام الأطعمة الموجودة بها ، ووضعوها صفوفاً مترابطة أمامهم في ساحة آت ميداني - أى ميدان الخيل - وكانت تقع في هذا الميدان ثكناتهم . ويمكنون أمام القزانات بعض الوقت ، وهم في هرج ومرج شديدين . فإذا أقبل رؤسائهم ساد الحاضرين صمت مطبق ، ويعلن أحد الرؤساء تفاصيل التمرد العسكري وأهدافه سواء قتل شخصية كبيرة ، أو عدة شخصيات ، أو تنظيم مظاهرات عسكرية تعرض لموكب السلطان في أثناء مروره ، أو الهجوم على القصر السلطاني والمناداة بخلع السلطان وتنصيب غيره . وبعدئذ ينطلق الإنكشارية وحوشاً كاسرة لتنفيذ مخطط العصيان . وهم في وضع استعداد تام لمواجهة أية قوات ترسلها الدولة للتصدى لهم . وكانوا إذا قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رموس القتلى معهم ووضعوا كل رأس أمام قران مقلوب . وعند نجاح تنفيذ مخططهم تصدر لهم الأوامر من قيادتهم بإعادة القزانات إلى ثكناتهم تعبيراً عن انتهاء التمرد العسكري .

تفاهم خطورة الإنكشارية :

وإزدادت مشكلة الإنكشارية تفاهماً عندما قررت الحكومة المركزية ، أو بعض عناصر هامة مستنيرة فيها ، تطوير الجيش بإدخال النظم العسكرية الحديثة التي أخذت بها الدول الأوروبية في جيوشها . وقد أطلق العثمانيون على مشروع تطوير الجيش « النظام الجديد » (١) . وجاء قرار الحكومة في هذا الصدد نتيجة لتعرض جيوش الدولة لهزائم أليمة متعاقبة من الدول

(١) كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) هو الذي أطلق هذه التسمية على الفرق العسكرية التي بدأ في إنشائها ، وجعل مقرها ساحة لوند چفتك على مرتفعات أورته كوى ، وأرنالاد كوى على الساحل الأوروي لبوسفور .

انظر

Huart Cl.; Encyc. of Islam. Art. Janissaries.

(٣ - ٣٢ الدولة العثمانية)

الأوروبية . وبات واضحاً عجز الدولة عسكرياً عن الدفاع عن ممتلكاتها الأوروبية بوجه خاص . ونبتت الفكرة القائلة إن ضعف الدولة هو ضعف عسكري قبل كل شيء ، وأنه لا يرجى أى إصلاح إلا إذا بدأت الدول بإدخال النظم الحربية الحديثة في قواتها العسكرية بحيث يسير الجيش العثماني جيوش الدول الأوروبية تسليحاً وتنظيماً وتدريباً . ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية عاشت أزهى عصورها على الأجداد العسكرية التي حققتها الجيش العثماني . وكان هذا الجيش أداة للحرب أولاً ، وأداة للحكم ثانياً . وقد ذكرنا من قبل أن بعض المؤرخين شبهوا الجيش العثماني بعملة ضربت على أحد وجهيها لفظة «الحرب» ، ونقشت على الوجه الآخر كلمة «الحكم» . فكان الحكم العثماني في لحمته وسداه حكماً عسكرياً .

عارض الإنكشارية معارضة شديدة لإدخال النظام الجديد في فيالقهم ، لأنهم أدركوا أن تطبيقه في محيطهم العسكري سيؤدي إلى إدماجهم أو ذوبانهم في الفرق العسكرية الجديدة التي أنشأتها الدولة وفقاً للنظام الجديد . وكانوا حريصين الحرص كله على الاحتفاظ بكيانهم الخاص ووضعهم الخاص وامتيازاتهم الخاصة في الجيش . ولذلك رفضوا رفضاً باتاً وقاطعاً العروض التي قدمها لهم بعض السلاطين ، مثل السماح لهم بالانضمام إلى الفرق العسكرية الحديثة ، ورفضوا أيضاً قبول معاش تفرده الدولة لمن يرفض منهم النظام الجديد . واستهجنوا هذا النظام ، بل أنكروه قائلين « إن ولي الله الحاج بكتاشي كان قد بارك جماعة الإنكشارية عند تكوينها ، ودعا لها بالنصر الدائم » (١) . وزعموا ، تأسيساً على دعاء هذا الولي وبركاته ، أنهم في غنى عن كل تعليم .

وقد ذهب الإنكشارية في معارضتهم لتطبيق النظام الجديد عليهم إلى أنهم لجأوا إلى سلاحهم الرهيب وهو تنظيم حركات التمرد أو العصيان في وجوه السلاطين والصدور العظام ومن إليهم معتمدين على قوتهم العسكرية ووفرة أعدادهم بحيث أصبحوا مركز قوة خطير عرض أمن الدولة الداخلي والخارجي

(١) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٦-٧٧ .

لأخطار بالغة . ونجحوا في إكراه عدد من السلاطين على إلغاء النظام الجديد . وهكذا أصبح الإنكشارية بمضى الزمن عنصر فساد في جسم الدولة ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وتعددت حركات العصيان وارتاحوا إليها ، إذ وجدوا فيها وسيلة عملية لتحقيق رغباتهم من ناحية ، ولكي يثبتوا من ناحية ثانية لسائر أسلحة الجيش ولكبار موظفي الدولة وللقطاعات الجماهيرية أنهم لا يزالون أولى بأس شديد ، وفي استطاعتهم عزل السلاطين وقتلهم وتعيين غيرهم ، فضلا عن قدرتهم على البطش برجال الدولة من ناحية ثالثة .

شروع الإنكشارية تمتد إلى المدنيين :

وامتدت شرور الإنكشارية في أوقات السلم إلى المدنيين الودعين ، سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فارتاحوا نشاطاً إجرامياً في السلب والنهب . كانوا يعملون إلى إحراق أحد أحياء مدينة بيغون منها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عنان السماء انطلق الإنكشارية يهبون الأحياء الأخرى في المدينة . فكانوا يقتحمون البيوت ، ويمتهكون الأعراض ، ويهاجمون المحلات التجارية ، ويركزون هجومهم على محلات اليهود ويخطفون بضائعها (١) . وبلغ بهم الجبروت والعصيان أنهم اعتقدوا أن جميع الأفعال مباحة لهم حتى ولو كانت قوانين الدولة تمنعهم من ارتكابها أو الإتيان بها (٢) . ووصل بهم الأمر إلى مهاجمة الدار المخصصة لسكنى الصدر الأعظم إذا تباطأ في تنفيذ طلباتهم (٣) . وبذلك أصبح الإنكشارية كأن قلوبهم خلف (٤) لامتى شيئاً ولا تقبل نصيحاً أو أمراً عسكرياً ، لأنها مغلفة ، ولكن طبع الله عليها بسبب جبروتهم وطمعائهم .

Lybyer A.H.; op. cit., p. 92.

(١)

Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV, p. 759.

(٢)

D'Ohsson Ignatius Mouradzea; op. cit., tome VII, pp.

(٣)

359 - 360.

(٤) خلف مفردتها أغلف . ويقال قلب أغلف لا يمس لعدم فهمه ، كأنه حجب عن الفهم كما يحجب السكين ونحوه بالنلاف .

إجراءات الدولة للحد من طغيان الإنكشارية :

استبان للسلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) نزعة الإنكشارية نحو التمرد العسكري ثم تدخلهم في السياسة العليا للدولة . وقد وضحت هذه المثالب منذ الأيام الأولى لحكمه وفي أثناء الحرب التي نشبت بين الدولة والصفويين على النحو الذي سنشرحه في الفصل التالي ، ورأى هذا السلطان ، مع الإبقاء على الإنكشارية كتنظيم عسكري في الجيش ، أن يكسر حدة طغيانهم وجبروتهم من ناحية ، وأن يفيد منهم كقوة من المشاة لها وزنها وثقلها في الحرب من ناحية ثانية . ولما فتح بلاد الشام سنة ١٥١٦ ثم مصر سنة ١٥١٧ عزز القوات العثمانية المسلحة التي تركها في هذين الإقليمين بغياق من الإنكشارية لدعم الحكم العثماني فيهما وتشجيت جموع الإنكشارية بحيث لا يتجمعون أو يتكثرون في عاصمة الدولة . ولما عاد إلى إستانبول تلقى نداء من خير الدين بربروسه ، أي خير الدين ذى الحية الحمراء ، كى يعاونه في جهاده ضد الإسبانيين ، فأرسل له السلطان سليم في عام ١٥١٨ ألفين من الإنكشارية (١) كإجراء سريع ، وسمح له بتجنيد الأهالي من الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار الاستعمارية الصليبية . وقد أقبل أهالي الأناضول على الالتحاق بخير الدين طمعاً في الغنائم (٢) من ناحية ، وإسهاماً منهم في حركة الجهاد الديني في شمالي إفريقية من ناحية أخرى . وكان هذا التصرف من جانب السلطان سليم الأول متمشياً مع السياسة التي أرسى قواعدها تجاه الإنكشارية . ومضت الدولة على عهد السلاطين اللاحقين تتابع هذه السياسة في النيابات العثمانية الثلاث في شمالي إفريقية والتي دخلت تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر . ولما استفحلت شرور الإنكشارية عهد السلاطين إلى وسائل أخرى

(١) كان خير الدين بربروسه يقود الحامية العثمانية في الجزائر . وتمرر مركزه بعد مقتل أخيه عروج في أثناء محاولته تخليص مدينة تلمسان من الإسبانيين .
انظر :

Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome IV, pp. 806-807.

Loc. Cit.

(٢)

ابتغاء الحد من طغيانهم . كان من بينها توزيع الفيالق الإنكشارية على حايات الحدود كما سبق أن ذكرنا في موطن سابق في هذا الفصل . وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية . كان يدرك تماماً أنهم تجاوزوا المدى وأصبحوا مركز قوة خطير في الدولة ، أو كما يقول المستشرق هارولد برون ، إنهم غدوا أصحاب الدولة الأقوياء (١) . وانتهز هذا السلطان فرصة وقوع حوادث مؤسفة في إستانبول في أثناء الاحتفالات التي أقامها بمناسبة ختان ابنه سنة ١٥٨٢ . ازدحمت العاصمة بالآف من سكان الأقاليم قنعوا إليها لمشاهدة المهرجانات . ومات من شدة الزحام كثير من الوافدين ومن سكان العاصمة . وبرز في هذه الأحداث شبان أظهروا شجاعة وحسن تصرف في إنقاذ الأهلين من الازدحام والموت . وأراد السلطان أن يكافأهم فألحقهم بفيالق الإنكشارية (٢) ، كما أمر هذا السلطان بإلحاق عدد كبير من المحدثين غير المديرين بفيالق الإنكشارية مباشرة . ولقى هذا الإجراء معارضة شديدة من رئيس الإنكشارية . ولكن لم يأبه السلطان بهذه المعارضة ومضى ينفذ هذا الإجراء الذي قابله رجال الحاشية بترحيب حار . وانتهز السلطان مراد الثالث فرصة تجديد الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، فوجه ضربة شديدة إلى الإنكشارية كتنظيم عسكري ، إذ سمح بإدخال أعداد وفيرة من المحدثين المسلمين الأحرار ، أي الذين ولدوا من آباء مسلمين ، في الفيالق الإنكشارية بعد أن كانت هذه الفيالق مغلقة تماماً في وجه هؤلاء المحدثين . وترتبت على إدخالهم نتيجة هامة هي مطالبة هؤلاء المحدثين بإلغاء الحظر المفروض على أفراد الفيالق الإنكشارية بعدم الزواج . واستجاب السلطان لهذا المطلب ، وبعبارة أكثر دقة ارتاحت الدولة لهذا المطلب ، ورفعت الحظر عن جميع أفراد

The Potential Masters of the State.

(١)

إنظر

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 180.

(٢) انظر تفصيلات عن هذا الموضوع في :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة . مرجع سبق ذكره .

الطبعة الأولى ، ص ٧٥٥-٧٥٦ .

هذه الفياق . فشغل الإنكشارية بمشكلات الحياة الزوجية والإنسال عن الحياة العسكرية التي كانوا منصرفين إليها كلية . وضعف استعدادهم الحربي وأصبح الالتئام إلى الفياق الإنكشارية وراثياً بغض النظر عن كفايتهم القتالية مما أدى إلى تدهور نظام الإنكشارية . ثم خطت الدولة خطوة أخرى في سبيل كسر شوكة الإنكشارية واسترضائهم معاً . فأذنت لهم في ممارسة بعض الحرف أو الاشتغال بالتجارة في أوقات السلم بعد أن كان محرماً عليهم العمل في أمثال هذه الأنشطة الحرفية والتجارية (١) فازدادوا ابتعاداً عن الحياة العسكرية البحتة ، وازداد مستراهم القتالي هبوطاً . وأصبح بعضهم لا يذهبون إلى ثكناتهم إلا لتسلم مرتباتهم . وكانت الدولة لا تسمح لهم بحمل الأسلحة النارية في أوقات السلم تحجباً لاستخدامها في حركات العصيان العسكري أو في القتلك بالمدينين . وعلى الرغم من كل هذه القيود التي أحيط بها الإنكشارية من يمين وشمال فقد ظلوا يتقلون كاهل الحكومة بمرتباتهم وسائر النفقات العسكرية . وظلوا في مركز القوة لأن ثكناتهم التي كانوا لا يذهبون إليها إلا لماماً كانت مكاناً لتجمعاتهم إذا أرادوا القيام بحركة تمرد . وكانت لهم صيحة تجمعهم في الثكنات ، وهي « يولداس يوقى » (٢) ومعناها أليس لنا زملاء ؟ وكان لهم ضباط يقومون بتسليحهم وتوجيههم قبل تنفيذ حركات التمرد .

ونعرض في الفصل التالي صوراً من طغيان الإنكشارية وجبروتهم كمرکز قوة خطير في تاريخ الدولة .



Marriot J.A.R. (Sir); op. cit., pp. 102-103.

(١)

(٢) يولداس معناها زميل طريق . كلمة يوك معناها طريق وتستخدم في الوقت الحاضر عبارة زميل في السلاح . وتكتب هذه الصيحة في اللغة التركية بالحروف اللاتينية : Yoldas Yokmu .

الفصل الثامن عشر

مراكز القوى في الدولة (٢)

صور من

طغيان الانكشارية وجبروتهم

الانكشارية يركبون عمليات القتل والسلب عند تعيين أبي يزيد الثاني سلطاناً :

توفي السلطان محمد الثاني أو السلطان أبو الفتح أو السلطان الفاتح عن ولدين، أكبرهما «أبو يزيد» (١)، وكان حاكماً على آماسيا، والآخر، «جم»، وكان يحكم القرماني. وقد أخبر قرماني محمد باشا الصدر الأعظم نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنة الأكبر كمي يسرع في العودة إلى إستانبول ويتبوأ العرش. ولكن عاد الصدر الأعظم فأرسل إلى الابن الثاني الأمير جم يخبره سراً بوفاته والده. وحدث تسابق بين الأخين على السفر إلى العاصمة، وكان كل منهما يبغى الوصول إليها قبل الآخر مما يتيح له الفرصة لارتقاء العرش. وعلم

(١) يرد اسم هذا السلطان في الغالبية العظمى من الكتب العربية مكتوباً على هذا النحو : بايزيد. والواقع أن كلمة بايزيد هي النطق التركي للإسم العربي «أبو يزيد». وما هو جدير بالذكر أنه توجد مدينة تحمل هذا الإسم في آسيا الصغرى، وكانت حاضرة صنقق في ولاية أرضروم وتبعد ستة كيلومترات عن الحدود العثمانية الفارسية. وتشرق على الطريق المؤدى إلى أذربيجان. وقد أنشأ هذه المدينة السلطان أبويزيد الأول واتخذ منها مركزاً لمراقبة تيمور، وفيها قلعة قديمة. وفي داخل البلدة مسجد رائع شيده بهلول باشا أوالى العثماني على تلك الولاية. وظل في هذا المنصب حتى عام ١٨٢١، ولم يسيطر عليها العثمانيون سيطرة تامة إلا بعد الحملات التي وجهها السلطان سليمان المشرع على النبوة الصفوية في سنوات ١٥٣٣، ١٥٤٨، ١٥٥٢. واستولى عليها الروس عدة مرات في القرن التاسع عشر في سنوات ١٨٢٨، ١٨٥٤، ١٨٧٧ ثم في سنة ١٩١٤. وهي تتسع حالياً جمهورية تركيا. ومعظم سكانها من الأتراك والأكراد. ويتركز نشاطهم في تربية الأغنام وإنتاج الصوف والجلود الخام والجلود المدبوغة وصنع السجاجيد.

الإنكشارية بتصرف الصدر الأعظم فثاروا عليه وقتلوه ، ثم عاثوا في
إستانبول نهباً وسلباً . وأقاموا ابن الأمير أبي يزيد ، واسمه قرقد ، قائماً
عاماً للدولة ، أى سلطاناً بالنيابة حين حضور والده إلى العاصمة وبيادر مهام
منصبه سلطاناً للدولة . ووصل أبو يزيد إلى إستانبول حيث كان في استقباله
كبار رجال الدولة عند بوزاز البوسفور . وفي أثناء اجتيازه البوسفور أحاطت
به سفن وقوارب عديدة ملئت بالإنكشارية الذين رحبوا به . وكان الهدف
من هذه المظاهرة البحرية هو إشعار السلطان الجديد بأن لهم اليد الطولى في
ارتقائه العرش بعد أن كسب الجولة الأولى من أخيه الأمير جم . ولما وصل
السلطان الجديد إلى القصر السلطاني وجد فيالتي من الإنكشارية مرابطة أمام
القصر ومدخله ، وهم في مظاهرة عسكرية ، وقدموا له عدة مطالب
وظلبوا تنفيذها فوراً ، وكان من بين هذه المطالب عزل أحد الوزراء واسمه
مصطفى باشا وتعيين وزير آخر يسمى اسمحق باشا كان متعاطفاً معهم ، وأن
يقدم لهم عطايا ابتهاجاً بتعيينه سلطاناً ، وأن يصدر عفواً عاماً عنهم بسبب
ما ارتكبوه من أعمال السلب والنهب في العاصمة . وقد استجاب السلطان
أبو يزيد الثاني لجميع مطالب الإنكشارية . وكانت مبادرة هذا السلطان
بتقديم عطايا مالية للإنكشارية بمناسبة ارتقائه العرش تقليداً يلتزم به إلزاماً
صارماً بعد ذلك كل سلطان يتربع على عرش الدولة (١) . واستمر هذا
التقليد سارياً زهاء ثلاثة قرون - أو مائتين وأربعة وتسعين عاماً على وجه
التحديد - حتى نجح السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) في إلغاء
هذا التقليد . ولم تكف تنقضى ثلاثة أشهر على ارتقاء السلطان العرش حتى
طلب منه الإنكشارية أن يسمح لهم بنهب مدينة بروسة عقاباً لسكانها على أنهم
أووإ لإيهم أخاه الأمير جم الذي كان ينازعه على العرش . ورفض السلطان
طلبهم ، وخوفاً من حدوث شغب منهم دفع لإيهم عطايا مجزية للمرة الثانية
في مستهل حكمه . وقد مررت في الفصل السابق أنهم أجبروا السلطان أبا يزيد على
إعادة فتح محلات بيع الخمور كي يمارسوا عادتهم في تناول المسكرات .

(١) كان يطلق على عرش الدولة « التخت السلطاني » .

الإنكشارية يشتركون في عزل السلطان أبي يزيد الثاني :

كان السلطان أبو يزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) قد أنجب ثمانية أولاد ، توفي خمسة منهم وهو لا يزال على قيد الحياة (١) . وبقي له ثلاثة أولاد هم : الأمير أحمد ، والأمير قرقند Korkoud ، والأمير سليم ، وعين والدهم كلاً منهم حاكماً على إقليم من أقاليم الدولة . فعين أحمد حاكماً على أماسيا ، وعين قرقند حاكماً على صاروخان (مانيسه) ، وعين سليم حاكماً على طرابزون . وكان الأمير أحمد أكبر الأبناء الثلاثة وأجهم إلى قلب السلطان فاختره ولياً للعهد . فتحركت عوامل الغيرة في الأميرين الأخيرين . وكان بروم كل منها أن يكون ولياً للعهد . واشتهر الأمير سليم بشغفه بالحرب وجراته وصرامته وميله لسفك الدماء . ويطلق عليه المؤرخون الأوروبيون لقباً يجمع هذه الصفات ، فيقولون إنه الوحش أو المفترس Le Féroce ويصفه أحد البنادقة في هذه العبارة « إنه أكثر السلاطين قسوة ، ولم يكن يحلم إلا بالفتور والحرب » (٢) . أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه « ياوز » (٣) أي السلطان الخاد الباتر العنيد . وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية

(١) كان هؤلاء الأولاد الخمسة هم :

- الأمير عبد الله وقد توفي عام ١٤٨٢ .
- والأمير محمد وقد توفي عام ١٥٠٤ .
- والأمير محمود وقد توفي عام ١٥٠٧ .
- والأمير شاهنشاه وقد توفي عام ١٥١١ .
- والأمير عرشاه وقد توفي عام ١٥١٢ .

النظر :

دكتور أحمد فؤاد متولى : الفتح العثماني للشم ومصر . ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والتربية المعاصرة له . الناشر : دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٨٨ .
(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع المصور الحديثة . مرجع سبق ذكره ، الطبعة الأولى ، الناشر دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٦٧٩-٦٨٠ .
(٣) إن لفظة ياوز في اللغة التركية تعادل في اللغة الفرنسية كلمتين : [سحاما] Tranchant ومعناها الباتر ، أو الخاد ، أو القاطع ، أو الحاسم . وأخرها Inflexible ومعناها الشخص المتيد الصلب الذي لا يلين . وترجم البعض كلمة ياوز بلفظة مهول .

العثمانية (١) . وقد أكسبته هذه الصفات شعبية واسعة بين أفراد الفيالق الإنكشارية . وكانت نفوسهم تنهوا إلى استئناف سياسة الفتوح الحربية طمعاً في غنائمها . وكانت معظم الحروب التي خاضتها الدولة على عهد السلطان « أبي يزيد الثاني » حروباً دفاعية أكثر منها حروباً هجيرية نظراً لميوله السلمية حتى اشتهر باسم « أبو يزيد الصوفي » أو « أبو يزيد المتصوف » أو « أبو يزيد الولي » . وعقد معاهدة صلح مع جمهورية البندقية سنة ١٥٠٣ ، تلها هدنة في ذات السنة مع المجر مدتها سبع سنوات . واكتفى بتعزيز المجهود الحربي الذي كان يبذله قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦) سلطان دولة المماليك الشراكسة في صراعه ضد البرتغاليين في البحار الشرقية . فأرسل إليه أبو يزيد مقادير وفيرة من المدافع والدخائر والأسلحة بالإضافة إلى شحنات كبيرة من الأخشاب لبناء سفن حربية . وقد وصلت هذه الشحنات إلى مصر في شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥١١ ورفض أبو يزيد أن يتقاضى ثمنها واعتبرها هدية من الدولة للغوري ، ثم أرسل ألفين من البحارة العثمانيين إلى مصر ليشاركوا في بناء وإعداد السفن الحربية في ميناء السويس . وكان هؤلاء البحارة تحت قيادة قائد بحري عثماني هو سلمان الرومي (٢) . وكانت معظم سنوات حكم السلطان « أبي يزيد » قد ران عليها هدوء حربي . وظل الجيش العثماني خلالها بمختلف فرقته في حالة استرخاء . وتعلقت آمال الإنكشارية بوجه خاص بالأمير سليم - إذا ظفر بالعرش - في أن يدفع عجلة الحروب في حركة دائبة مطردة نشيطة .

طلب الأمير سليم أن ينقل من طرابزون . وأقام طلبه تأسيساً على أنه ظل

(١) ومسا هو جدير بالذكر أن رجال تركيا الفتاة أطلقوا اسم « يازو سلطان سليم » على الطراد الألماني « جون » الذي استطاع أن يتخلص من مطاردة الأسطول البريطاني له في البحر المتوسط في سهل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانتهى هذا الطراد إلى حوزة تركيا .

انظر :

- بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، صص ٦٤-٦٥ .
(٢) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية وموقف الدول الإسلامية للثلاث الكبرى منه . من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية التي عقدت في النوسنة في المدة من ٢١ مارس - آذار - إلى ٣١ منه عام ١٩٧٧ .

في هذه الصنچقية مدة طويلة ناهزت الثلاثين عاماً (١) ، وأن طرايزون تقع في جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ، وطلب أن ينقل إلى إحدى الصنچقيات في أوروبا . ورفض أبو يزيد طلب ابنه علي الرغم من الشكايات العديدة التي بعث بها سليم إلى والده وإلى الصدر الأعظم وإلى أعضاء الديوان المهابيوني في إستانبول (٢) . وفي حديث دار بين سليم وأحد كبار العلماء ، قال الأخير إن عصيان الابن لوالده يؤدي إلى مواجهة عسكرية بينهما . فرد عليه سليم بقوله « ليحدث ما يحدث » (٣) . جمع سليم قوات من رجاله ومن جنود خان القرم واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذي كان يقيم وقتذاك في هذه المدينة . وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها عائداً إلى إستانبول حزيناً على وفاة ابنه الأمير شاهنشاہ . واشتد عليه المرض . فأرسل في طلب ابنه الأكبر الأمير أحمد ، بصفته ولياً للعهد ، ليكون قريباً منه إذا وافته الأجل المحتوم . وفوجيء الأمير أحمد عند وصوله إلى إستانبول بتدخل الإنكشارية ضده وأكرهوه على العودة من حيث أتى . وفي هذا الوقت الحرج تدخل الإنكشارية مرة أخرى لصالح الأمير سليم . وضغطوا على السلطان « أبي يزيد » ضغطاً شديداً حتى أجبروه على إصدار « خطي شريف » (٤) Hatt-i-Sherif بالعضوعن الأمير سليم وإعادته إلى ولاية

(١) جاء في رسالة أرسلها الأمير سليم إلى الصدر الأعظم أنه أقام في صنچقيه طرايزون ثلاثين عاماً ، ثم ذكر في رسالة بعث بها إلى أعضاء الديوان المهابيوني في إستانبول أنه أقام في طرايزون خمساً وعشرين سنة .

(٢) انظر الرسائل التي وجهها سليم إلى شقي النواثر العليا في إستانبول مترجمة من اللغة التركية إلى اللغة العربية في : دكتور أحمد فؤاد متولي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩-٩٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٣ ، وقد جاء في التقرير الذي رفقه هذا العام - واسمه تور الدين صاري كورز إلى السلطان - أن الأمير سليماً مصر على موقفه ، وأنه عنيد إلى أبعد حدود العناد .

(٤) خطي شريف مصطلح تاريخي مأخوذ من اللغة العربية ترجمته خط شريف . ومعناه بتصرف قرار يحمل اسم السلطان . وقد يذكر هذا المصطلح في بعض الأحيان مضافاً إليه لفظ هابويوني على هذا النحو : خطي هابويوني شريف ، وترجمته الحرفية قرار إمبراطوري شريف . ومعناه بتصرف : قرار سلطاني شريف يحمل اسم السلطان . وقد مر بنا صدور خطي شريف جيلخان عام ١٨٣٩ ، وخطي هابويوني عام ١٨٥٦ انظر في هذه الدراسة : ص ٩٦ ، ص ٩٧ .

مستنبرية^(١) Semendris في أوروبا والتي كان قد عينه حاكماً عليها . وفي أثناء سفر سليم إليها قابله الإنكشارية وعادوا به إلى إستانبول . فدخلها سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية . وشعر السلطان أن الأرض تמיד تحت قدميه ، واهتز مركزه اهتزازاً عنيفاً . وكحل لهذه الأزمة عرض السلطان على ابنه سليم أموالاً طائلة لإغراء له على العودة إلى مقر منصبه . فرفض الابن . وعاد السلطان يعرض على ابنه أن يعينه ولياً للعهد بشرط أن يحتفظ الوالد بالعرش ويمارس مهام منصبه حتى يقضى نحبه . ورفض سليم والإنكشارية هذا العرض . وأصرروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده . وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٥١٢ نظمت مظاهرة عسكرية كبرى ضمت الإنكشارية والسباهية - الفرسان الإقطاعيين - وبلغ عدد المشتركين في هذه المسيرة العسكرية اثني عشر ألف جندي . واتجهت هذه المسيرة إلى القصر السلطاني في إستانبول . وطلب كبار الضباط مقابلة السلطان « أبي يزيد الثاني » فأذن لهم . ولم يكن في مقدوره أن يرفض طلبهم . وقالوا له « إن الهادشاه^(٢) رجل طاعن في السن تنتابه الأمراض ، ونريد أن يتبوأ ابنكم الأمير سليم العرش بدلاً منك » . وطبقاً للترتيب الموضوع لهذه المقابلة ارتفع إلى عتبان السماء صحب الجنود حتى يدرك السلطان أن الأمر جرد وليس بالهزل ، فتهاور حالته النفسية . وقد نجح هذا الترتيب فأدعن السلطان وتنازل عن العرش لابنه سليم . وبعد عشرين يوماً طلب الوالد من ابنه السلطان سليم الأول أن يأذن له في مغادرة إستانبول والتوجه إلى مسقط رأسه في ديموتيه Demotica ليقضى فيها ما تبقى له في الحياة من خطوات . وفي اليوم الثالث للرحلة لتوفى في الطريق^(٣) .

(١) مستنبرية هي العاصمة القديمة لبلاد العرب ، وهي تقع عند التقاء نهر الدانوب بنهر مورافيا ، وإليها نسبت ولاية مستنبرية .

(٢) الهادشاه - وتكتب في بعض المراجع الهادشاه - عبارة عن كلمتين فارسيتين : هاد ، وشاه ، ومعناها ملك الملوك Rols des Rols . ويقصد بها في هذه الدراسة السلطان . ولذلك ترد هذه اللفظة في بعض الكتب بادشاه آل عثمان ، وفي كتب أخرى بادشاه الإسلام .

(٣) يرى بعض المعاصرين أنه مات حزناً وكأماً . ويرى البعض الآخر أنه مات بعد -

وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسي في خلع السلطان «أبي يزيد الثاني» لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التي اتبعها هذا السلطان في معظم سنوات حكمه . وانهزوا فرصه الصراع الذي نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش فزجوا بأنفسهم في هذا الصراع ابتغاء لتحقيق منافع لهم ، لأنهم توسعوا في الأمير سليم الرغبة والمقدرة معاً على دفع عجلة الحروب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمي للدولة العثمانية .

موقف الإنكشارية من السلطان سليم الأول :

كانت أول مشكلة واجهها السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) هي موقف الإنكشارية منه ، اعتقلوا أنه مدين بعرشه لهم . فأرادوا أن يتقاضوا منه اثني أضعافاً مضاعفة . كان سليم قد خرج إلى أسوار العاصمة مودعاً والده ، وعاد إلى القصر السلطاني ليباشر سلطات الحكم . ولكن ترامت إليه الأنباء بأن الإنكشارية محتشدون في مظاهرة عسكرية في الطريق المؤدى إلى القصر ليطلبوا السلطان بمكافآت ضخمة لقاء مساعدتهم له في ارتقاء العرش . وقد استاء السلطان من هذا التصرف ، فأفسد تدبيرهم وسلك طريقاً آخر وصل منه إلى القصر . ولكن لحق به الإنكشارية واضطر أن يدفع لكل جندي اشترك في الحركة خمسين دوكة^(٢) . وتشجع أحد الرؤساء وطلب من السلطان زيادة مرتبات العسكريين ، فاستل سليم سيفه ، وبضربة واحدة سريعة أطاح برأس هذا القائد .

== أن درس أحد المراقبين له في الرحلة السم في الطعام . وهو رأى صائب تزيده ملايبات الموقف . ويذكر أحد المؤرخين أن سليماً الأول هو الذي قتل أباه أبا يزيد الثاني بمساعدة الإنكشارية .

Grant A. J.; A History etc.; op. cit., p. 213.

(٢) الدوكة Le Ducat هي عملة ذهبية كانت متداولة في أقاليم الشرق الأدنى . وأقبل التجار والأهالي حل التعامل بها نظراً لأنها ذات حبار حال يقرب من أربعة وعشرين قيراطاً . وكانت هذه العملة تضرب في البندقية . ويطلق عليها البندق تمييزاً لها عن «الدوكات النمساوية» .
انظر :

دكتور عبد الرحمن فهمي : النقود المتداولة أيام الجبرق . بحيث منشور في مجلة بعنوان : عبد الرحمن الجبرق . دراسات وبحوث . نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦

الإنكشارية يجبرون السلطان سليم الأول على إنهاء الحرب :

غير أن خطر الإنكشارية ظل قائماً على الدولة العثمانية وعلى السلطان سليم الأول بالذات ، على الرغم من أن هذا السلطان كان قد استجاب استجابة فورية لطلبهم توزيع عطايا مالية عليهم بمناسبة توليه العرش ، وكان وقتئذ في السابعة والأربعين من عمره ، إذ سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم في شئون الدولة أخطر ما يكون لهذا التدخل وذلك النفوذ . فلم يمض عام وبعض عام حتى استكمل سليم استعداداته لحرب شاملة يشنها على الشاه إسماعيل الصفوي . واندلعت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس . واستطاع سليم أن يوقع هزيمة بالصفويين في موقعة تشالدران (١) في اليوم الثاني والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥١٤ وأن يدخل في العام التالي تبرز عاصمة الدولة الصفوية في ذلك الوقت ، وأن يستولى على عرش الشاه وكنوزه وتحفه ونسائه ، ومضى سلم يتقبل من نصر إلى نصر متوغلاً في أراضي الدولة الصفوية ؛ وانسحب الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خشية وقوعه في الأسر . وبينما كان سليم في قمة انتصاره إذ حدث تطور في الموقف الحربي . فقد أوقف سليم العمليات الحربية فجأة . وعاد إلى استانبول قائماً بما استولى عليه من كثير من بلاد أرمينية وما بين النهرين . وكان سبب هذا التطور المفاجئ هو أن الإنكشارية طلبوا من السلطان سليم إنهاء الحرب (٢) وخشى سليم أن يعملوا إلى التمرد وهو بعيد عن بلاده . ويتنزه الشاه إسماعيل هذه الفرصة الذهبية ويعيد الكرة على الجيش العثماني . وقد ينال منه مثالا عظيماً ويتعرض الجيش للتمزق .

(١) تشالدران سهل يقع بين العاصمة تبريز وبحيرة أرمية .

(٢) تختلف المراجع التاريخية في ذكر السبب الذي تدرج به الإنكشارية لمطالبهم السلطان سليم إنهاء العمليات الحربية . فتذكر بعض المراجع أنهم تملقوا بسوء الأحوال الحربية في فارس ، بينما تذكر مراجع أخرى أنهم تدرعوا بحجة أخرى هي الاكتفاء بالانتصارات التي حققوها للسلطان في هذه الحرب نظراً لخطورة تعقب الشاه إسماعيل بسبب هجرة المسالك وكثرة المستنقعات ووجود الهضاب .

الإنكشارية يدبرون حركة تمرد على عهد السلطان سليمان المشرع :

دبر الإنكشارية حركة عصيان في شهر مارس - آذار - عام ١٥٢٥ في إستانبول عقب عودة السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) إليها من أدرنة حيث كان يقضى فصل الشتاء . وقاموا بنهب قصر الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان وقتذاك في مصر ، كما هاجموا النبوان جمركى - ديوان الجمارك - وعددًا من مساكن الأعيان ، ثم اتجهت جموعهم إلى حارة اليهود . حيث قاموا بعمليات النهب والسلب ، ويلاحظ أن الخدب من عصيانهم كان اغتصاب الأموال سواء من أماكن حكومية أو أهلية ، وسواء من المسلمين أو اليهود ، وقد تدارك السلطان سليمان الأمر بنفسه بمنهى السرعة ، فوزع عليهم ألف دوكة Ducats كدفعة أولى تلاوها أقساط أخرى إذا أخذوا إلى النظام . وأسبى الإنكشارية حركة التمرد طمعاً في الحصول على مزيد من العطايا . وقد فاجأهم السلطان بتشتيت شملهم بتوزيعهم على عدة أماكن يربطون فيها ، ثم ألقى القبض على رؤسائهم الذين زعموا حركة العصيان فقتل بعضهم وعزل البعض الآخر (١) . وكان من بين المكاسب التي عادت على الدولة من الحروب التي خاضها تبعاً للسلطان سليمان المشرع وبخاصة في أوروبا وفي آسيا امتصاص زعة التمرد من الإنكشارية (٢) . إذ لم يكن لديهم من الوقت متسع لتدبير حركات تمرد يقلقون بها الدولة . ويضاف سبب آخر هو قوة شخصية السلطان سليمان المشرع وشدة بطشه .

الإنكشارية يعترضون موكب سليم الثاني ويطالبونه بأعطيات :

تعرض السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) في مسهب حكاه للمهانة على

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٦-٦٧ .

(٢) يذكر للمؤرخون للسلطان سليمان أنه جهز ست عشرة حملة .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع الصور الحديثة ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الغيبة الأولى . الناشر دار المعارف . القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٦٨٤ ، ص ٦٩٣ -

أيدى الإنكشارية حين دخل إستانبول لأول مرة عقب ارتقائه العرش مباشرة وسط مظاهرات صاخبة قاموا بها وأظهروا في أثناءها ازدرأهم الشديد له ، إذ اعترضوا طريق موكبه بعربة ملئت تبناً . وتوقف الموكب السلطاني وطلبوا السلطان بدفع مبالغ ضخمة بمثابة إعطيات لهم حتى يسمحوا لموكبه بمواصلة التقدم إلى القصر . وقد رضخ السلطان لطلبهم .

تحدى الإنكشارية للسلطان مراد الثالث :

وعلى عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) طالب الإنكشارية بتسليمهم كل من الباشا دفتردار (١) وكان يتولى المسئولية عن أموال الإمبراطورية كلها ، ومحمد باشا بكلكر بك الروملي (٢) ، وهو رئيس البكوات الصناعق ويشمل نفوذه الولايات العثمانية في أوروبا . وكانت مدينة صوفيا مقر قيادته . وكان يحمل ثلاثة أطواخ (٣) ولقب باشا (٤) ، ويمثل السلطان كقائد أعلى في الولايات الأوروبية ، ويتعين على الأمراء أنفسهم أن يطيعوه ويخضعوا له (٥) . وكانت حجة الإنكشارية في طلبهم القبض على هذين الموظفين الكبيرين أنهما أرادا أن يصرفا لهم نفوداً فضية ناقصة المعيار . وكانت الحكومة المركزية في إستانبول قد لجأت فعلاً إلى هذا الإجراء

(١) كان الباشا دفتردار هو دفتردار الروملي أول الأمر ، وكان يتولى الشؤون المالية في ولاية الجبر ومتعلقة الدانوب . وكان السلطان سليمان المشرف هو الذي أنشأ منصب دفتردار الروملي . فلما ضاعت الجبر في أواخر القرن السابع عشر ألغت الدولة هذا المنصب ، وأصبح دفتردار الروملي بلقب بإسم الباشا دفتردار . وهذا مقره إستانبول .
انظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. 1, Part, 1, p. 129, Frn. No. 5.

(٢) يرد ذكره في بعض المراجع بكلكر بك روم لفظ .
(٣) سبق أن شرحنا مدلول لفظة أطواخ في ص ٣٦٤ - ٣٦٥ في هذه الدراسة .
(٤) كان بكلكر بك الروملي أعلى مرتبة من زميله بكلكريك أناغول ، أي باشا الأناضول ، وكانت أقره مقر قيادته حتى عام ١٤٥١ ثم أصبحت كوتاهية مقر قيادته .
(٥) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

لمواجهة زيادة حجم الإنفاق العسكري نتيجة تضخم عدد أفراد الإنكشارية بعد أن سمح السلطان مراد الثالث للمجندين المسلمين الأحرار بالالتحاق بالفيالق الإنكشارية كما رأينا في الفصل السابق . ولما لم تستجب الدوائر العليا في الدولة لطلب الإنكشارية جمعوا جموعهم واتجهوا إلى سكن كل منهما وضربوا حصاراً حول داريهما . ومنعوا دخول أو خروج أحد ، ثم اقتحموا الدارين وقتلوا شر قتلة . وعجز السلطان وحكومته عن منع الإنكشارية من ارتكاب جرمي القتل . وذهبت هاتان الشخصيتان ضحية طغيان الإنكشارية . وكان قتلها تحدياً صارخاً لأكبر شخصية في الدولة ، وهو السلطان مراد الثالث ، ومشجعاً في ذات الوقت لبعض الفرق الأخرى في الجيش على القيام بثورات أو حركات عصيان مثل فرقة الخيالة التي قامت بثورة بعد ذلك بسنوات قليلة على عهد السلطان مراد الثالث ، وثورة أخرى في سنة ١٦٠٣ إبان حكم ابنه السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) ، ولكن كانت هذه الحركات قليلة إن لم تكن نادرة ، وكانت تحدث على فترات متباعدة ، وأهم من ذلك كله لم تبلغ درجة الخطورة التي كانت تبلغها حركات الإنكشارية .

الإنكشارية يعزلون ثم يعدمون السلطان عثمان الثاني :

اشتهر السلطان عثمان الثاني (١٦١٨-١٦٢٢) في تاريخ الدولة العثمانية بلقب «كنج» بمعنى الحدث أي صغير السن الذي لم يبلغ الحلم . فكان يطلق عليه كنج عثمان ، لأنه تولى العرش في سن مبكرة غير مسبوقة بمثل . وطبقاً لما يذكره أحد الباحثين كان عثمان من مواليد سنة ١٦٠٤ (١) . وهناك سبب آخر لإطلاق هذا اللقب عليه هو تمييزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . وقد استخف به الإنكشارية وثاروا عليه وطلبوا منه إنهاء الحرب التي كان يخوضها ضد بولندا . وكان موقفهم يتعارض مع تقاليدهم بصفتهم

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٧ .

جنوداً محترفين ، ووظيفتهم الوحيدة هي القتال يستهوى أفئدتهم . واضطر
السلطان إلى النزول على رغبتهم ، وعقد الصلح مع البولنديين في أكتوبر -
نشرين أول - سنة ١٦٢٠ . وحقن السلطان على الإنكشارية لموقفهم الخزي ،
فقد أوقف العمليات الحربية وعقد الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه من
هذه الحرب . فاعترز السلطان عثمان الثاني تصفية قوات الإنكشارية . وأمر
بمخشد قوات عسكرية كثيفة العدد من ولايات آسيا حتى إذا اكملت هذه القوات
عدداً وعدة استعان بها على إبادة هذه الفئة من الإنكشارية . وشرع فعلا في
تنفيذ خطته . وأحس الإنكشارية بهذه الحركة وثاروا وأثرتهم . ووطدوا
العزم على عزل السلطان عثمان الثاني . ونجحوا فعلا في عزله في اليوم الثلاثين
من شهر مايو - آيار - عام ١٦٢٢ ، وهجموا عليه في القصر السلطاني
وأخذوه إلى ثكناتهم ، وأوسعوه سباً وشتياً وضرباً ، ثم ساقوه إلى يدي
قوله - قلعة الأبراج السبعة - التي أصبحت السجن الرسمي للدولة (١) حيث
تم إعدامه (٢) . وقد كان لإعدام السلطان أصداء بعيدة ، إذ انتشرت الرهبة
في دوائر الحكومة وفي شتى القطاعات الجاهلية . وعلا شأن الإنكشارية
علواً كبيراً ، وأخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم .

الإنكشارية يقتلون الصدر الأعظم إبان حكم السلطان مراد الرابع :

لم يمض وقت طويل على قتل السلطان عثمان الثاني حتى أقدم الإنكشارية
على قتل حسن باشا الصدر الأعظم على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ -
١٦٤٤) (٣) . وقد بدأت أحداث هذه الجريمة حين أصدر السلطان مراد

(١) كان السلطان محمد الثاني - عقب فتحه القسطنطينية عام ١٤٥٣ - قد أعاد إنشاء الأسوار
المحيطة بها ، وشيد عند طرفها الجنوبي الغربي ، إلى جانب بحر مرمرية ، هذه القلعة .

(٢) محمد فريد بك : مرجع سبق ذكره ، ص ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) تولى عرش الدولة بعد السلطان المعتزل عثمان الثاني سلطان آخر ، أو بهيابة أكثر دقة
أعيد لعرش السلطان مصطفى الأول (١٦٢٢ - ١٦٢٣) لأنه كان قد سبق أن ارتق العرش
(١٦١٧ - ١٦١٨) ، ثم خلع ، ثم أعيد عام ١٦٢٢ وظل متربطاً على العرش إلى أواسر شهر
أغسطس - آب - عام ١٦٢٣ حيث خلع بإشارة المدعو كما نكش على باشا الصدر الأعظم لصفحه

فرماناً بعزل خسرو باشا الصدر الأعظم وإعادة حافظ باشا إلى منصب
الصدارة العظمى . فأراد الباشا المعزول أن يؤكد كيداً للسلطان ، فاقبل
برؤساء الإنكشارية وأبلغهم أن السلطان لم يعزله من منصبه إلا لأنه كان
متعاطفاً مع الإنكشارية ويسارع إلى تنفيذ رغباتهم . فثار الإنكشارية وطالبوا
بإعادة خسرو باشا إلى منصبه . وأصر السلطان مراد الرابع على موقفه ،
فأشعل الإنكشارية فتنة كبيرة في العاصمة ، وقتلوا حافظ باشا الصدر الأعظم
في اليوم التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٦٣٢ ، وكان السلطان قد
أخفق في بسط حمايته عليه . ولكنه عمد إلى الرد عليهم رداً عملياً ، فأمر بقتل
خسرو باشا على أساس أنه محرك الفتنة العسكرية التي قام بها الإنكشارية ،
وأصدر فرماناً بتعيين بيرام محمد باشا صدرراً أعظم . وأجرى السلطان على
المضي في خطته وهي إبادة الإنكشارية ، وأمر بقتل رؤسائهم الذين شاركوا
في الفتنة كخطوة أولى ، فلما فرغ منها أمر بتوسيع عمليات القتل لتشمل
كل من يثبت عليه أنه شارك ولو مشاركة جانبية في الفتنة التي أشعلوها .
فلجأ الإنكشارية إلى خداع السلطان ، وتظاهروا بأنهم يلتزمون بقواعد
الإنضباط العسكري ، وأنهم يكونون للسلطان مراد الرابع كل تقدير
وينفذون أوامره تنفيذاً صارماً ويطيعونه طاعة عمياء . واستهدفوا من
هذا التظاهر التويه على السلطان كي يوقف المذابح التي أمر بها . ولكنهم
كانوا يبيتون أمراً آخر .

فلم يكذبوا شهران وبعض شهر حتى قاموا بحركة عصيان بقيادة
رجب باشا في شهر مايو - آيار - في ذات السنة (١٦٣٢) ، فأمر

- هزيمته ورحن قواه العقلية . والحق أن هذا السلطان كان من أتسى سلاطين الدولة ، لأنه قضى
حياته قبل توليه العرش مزولاً عن العالم في القفص (أنظر ما سبق ص ٣٥٠-٣٥١) . فلما
تولى العرش أول مرة كان حديم التجارب . ولم يكن يدرى شيئاً عن أحوال الدولة . ولم يكن
قد مارس أعمالاً عامة . وقد أطلق عليه في تاريخ الدولة لقب المعتز أو الأبلة . ويرد ذكره في
المراجع الفرنسية مرفوئاً بوصف L'Idiot بنفس المعنى السابق . وتقول العرش بعد عزله للمرة
الثانية السلطان مراد الرابع . وظل السلطان التسمى مصطلح الأول مبعداً عن العرش وعن المجتمعات
إلى أن قضى نحبه في سنة ١٦٣٩ .

السلطان بقتله وإلقاء جثته من شبايك القصر حتى يراها الإنكشارية (١) .
ومضت السنوات الأخيرة من حكم هذا السلطان في جو هادئ نسبياً إذ أدرك
الإنكشارية أنهم أمام سلطان قوى مقتدر .

الإنكشارية يعزلون ثم يخنقون السلطان إبراهيم الأول :

من الجرائم البشعة التي ارتكبتها الإنكشارية أنهم قتلوا خنقاً السلطان إبراهيم
الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) . وكانت الحجة التي استندوا إليها أن السلطان
يقف موقفاً عدائياً منهم ، وأخذوا يتناولونه بالتقدي والتجريح ، واستقر رأيهم
على عزله ، واتهموا فرصة زواج إحدى بنات السلطان من ابن الصدر
الأعظم . وفي ليلة الزفاف اجتمعوا في أورطة جامع - مسجد الفرقة -
وانضم إليهم بعض علماء الدين وشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي . وقرروا عزل
السلطان إبراهيم وتولية ابنه محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) واتخذوا إجراءات
عسكرية واسعة النطاق لتنفيذ قرارهم . وعت هذه الثورة في اليوم الثامن من
شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٧ . وبدا أن زمام الموقف في أيديهم .
ولم تكدر تمر عشرة أيام حتى أظهر رؤساء فرق الجيش الأخرى عدم ارتياحهم
لتولية سلطان صغير السن عرش الدولة وطالبوا بإعادة السلطان إبراهيم إلى
العرش . ورأى الإنكشارية إزاء هذه المعارضة أن يضعوا الجميع أمام الأمر
الواقع . وقرروا قتل السلطان إبراهيم . وسرعان ما قاموا بحركة تمرد واتجهت
جموعهم ومعهم الجلاذ - قره على - إلى حيث يقم السلطان وقتلوه خنقاً (٢) .
كما قتلوا السلطان عثمان الثاني من قبله . وارتاحت نفوس الإنكشارية لهذا
الانتصار الرخيص وانفسح المجال رحباً أمامهم كي يعيشوا في الأرض فساداً
منتهزين فرصة تولي سلطان صغير السن هو محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧)
عرش الدولة ، وعت الاضطرابات أرجاء البلاد وتعرضت الدولة لهزائم أمام
الروسيا والنمسا والمجر وغيرها . وتدهور موقف الدولة إلى أسوأ مما كان قد
وصل إليه قبل أن يلى الحكم السلطان مراد الرابع . ومع ذلك فلان السلطان

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

الجديد - محمد الرابع - على الرغم من حكمه الطويل لقي نفس المصير الذي لقيه معظم أسلافه . فقد عزله الإنكشارية في اليوم الثامن من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٦٨٧ ، وولوا أخاه السلطان سليمان الثاني وهو ابن السلطان إبراهيم الأول الذي سبق أن قتلوه ختقاً . أما السلطان المعزول - محمد الرابع - فلم يتعرض له الإنكشارية بالقتل ، وظل معزولاً قرابة خمس سنوات حتى قضى نحبه في اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٩٢ .

الإنكشارية يعمدون إلى قتل الصدر الأعظم وسبى زوجاته أيام السلطان سليمان الثاني :

أعدق السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧-١٦٩١) العطايا على الإنكشارية وصفح عن عصيانهم الذي كانت نتيجته عزل السلطان محمد الرابع . ولكن لم تثمر الثمرة المرجوة سياسة المال والصفح التي انتهجها هذا السلطان مع الإنكشارية ، إذ انخلوا إلى حركات العصيان سييلاً . فحاصروا قصر سياوس باشا الصدر الأعظم ، ثم اقتحموه ، وقتلوا الصدر الأعظم وعرف باسم قتيل الإنكشارية ، وألقوا القبض على زوجاته وانخلوهن سبايا . وأصبحت إستانبول تروج بالفتن والاضطرابات مما شجع أعداء الدولة على مهاجمة الممتلكات العثمانية الأوروبية : في النمسا ، والمجر ، وبلاد اليونان ، والصر ب .

الإنكشارية يطالبون بقتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا :

نشبت الحرب بين الدولة العثمانية على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) وبين الدولة الصفوية على عهد الشاه طهاسب الثاني (١٧٢٢-١٧٣٢) . وكان السلطان العثماني عزوفاً عن الحرب ، رغب في تسوية النزاع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية . ولكن ثار الإنكشارية في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ على سياسته السلمية ، إذ تحول بينهم وبين الحصول على غنائم الحرب وما تتيحه فتوح المدن من ممارسة

عمليات السلب والنهب . وترزعم ثورة الإنكشارية بترونا خليل (١) . وطلب من السلطان قتل شيخ الإسلام والصدر الأعظم وقبودان باشا - قائد السلاح البحرى العثماني - بحجة أنهم يؤيدون السلطان في انتهاج سياسة سلمية تجاه الدولة الصفوية . ورفض السلطان الاستجابة لطلبهم أول الأمر . ولكنه تراجع عن موقفه حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ، وخشى أن تمتد شرور الإنكشارية إليه ، فسمح لهم بقتل الصدر الأعظم وقبودان باشا والإبقاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأى العام عليه . وقبل الإنكشارية هذا الحل على مضض . وقتلوا الصدر الأعظم وقبودان باشا ، وألقوا بجثثهما في البحر في أول أكتوبر - تشرين أول - ١٧٣٠ . وعلى الرغم من ذلك ، فلم يمنع رضوخ السلطان لطلبات الإنكشارية من تطاولهم عليه . وشجعهم على هذا التطاول تساهله المستمر معهم . فأعلنوا في مساء ذات اليوم عزل السلطان ونادوا بتنصيب ابن أخيه السلطان محمود الأول . وأذن السلطان أحمد الثالث لطلب الإنكشارية بدون معارضة . وظل معزولاً إلى أن جاز إلى ربه في اليوم الخامس من شهر أبريل - نيسان - عام ١٧٥٨ (٢) .

الإنكشارية يقتلون رئيسهم :

لم تكن شرور الإنكشارية مقصورة على السلاطين والصدور العظام وكبار رجال الدولة فحسب ، بل امتدت إلى زعمائهم . لم يكن للسلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) من السلطة إلا اسمها . واستأثر بالنفوذ بترونا خليل رئيس الإنكشارية الذى قاد حركة الانقلاب وعزل السلطان أحمد الثالث بعد أن قتل الصدر الأعظم وقبودان باشا . فكان يعزل من يشاء ويولى من يشاء من كبار الموظفين تبعاً لأهوائه ، وأصبح كبار رجال الدولة يملقون هذا الزعيم الإنكشارى . وقد أوغل في استبداده حتى عيل صبر السلطان محمود الأول .

(١) ورد ذكر اسمه في بعض المراجع على هذا النحو : بطرونا خليل .

(٢) مما يذكر لهذا السلطان أنه أدخل المطبخة في إستانبول وأسس دار طباطبا فيها بعد أن استصدر فتوى من شيخ الإسلام تبيح هذا الإجراء واشترط الأعيان عدم طبع القرآن الكريم خشية وقوع أخطاء مطبعية أو تحريف فيه .

وفي ذات الوقت تحركت الإطامع في نفوس أفراد الفيالق الإنكشارية. وطالبوا زعيمهم بترونا خليل بتحسين أوضاعهم المالية . ولكنهم وجدوا على عكس ما كانوا يتوقعون أنه يستولى على بعض مخصصاتهم، فانفقوا على التخلص منه معتمدين على كثرتهم العددية وتم لهم قتله دون أن يتحرك أحد للدفاع عنه . وهكذا انطبق على الإنكشارية القول إن الثورات تأكل بذاتها . وبقتل هذا الزعيم عادت السكينة إلى إستانبول وأمن سكانها على أموالهم وأرواحهم . وبأمر السلطان محمود الأول سياسة حربية نشيطة ضد الدولة الصفوية في فارس ثم ضد النمسا والروسيا .

السلطان مصطفى الثالث يتجنب الاحتكاك بالإنكشارية :

ولما تولى العرش السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) أراد أن يعضي في حكمه أمناً مطمئناً من الإنكشارية حتى لا يصيبه منهم ما أصاب أسلافه . واتجه إلى تطوير السلاح البحري وسلاح الطوبجية - المدفعية - واستقدم عدداً من الخبراء العسكريين الأوربيين . وكان من بينهم البارون دي توت De Tott وهو مجرى الأصل ، التحق والده بخدمة الحكومة الفرنسية وحصل على الجنسية الفرنسية . وأوفدت حكومة باريس ابنه البارون دي توت إلى إستانبول حيث عكف على إصلاح سلاح المدفعية وسلاح البحرية (١) . وكانت الحرب الروسية العثمانية على أشدها ، وهي الحرب التي انتهت بمعاهدة كتشك كينارجي Kiiçik Kaynarca في اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٧٧٤ (٢) . ولم تثمر إصلاحات السلطان مصطفى الثالث ، لأنها لم تمتد إلى القوات الضاربة الرئيسية في الجيش وهي

(١) دكتور محمد فزاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهر محمد علي . الناشر مطبعة المعارف ومكتبها بمصر . لم تذكر سنة الطبع ، ص من ٧٦ - ٨٠ .
(٢) عقدت معاهدة كتشك كينارجي بعد أن جاز لك وبه السلطان مصطفى الثالث في اليوم التاسع من شهر غوال عام ١١٨٧ - الموافق اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - ١٧٧٣ وأبرمت المعاهدة في مسهل حكم أعياه السلطان عبه الحبيد الأول .

البيادة - المشاة - ومن بينها الفيالق الإنكشارية (١) .

تمرد الإنكشارية على الدولة في الصرب :

من الصور التي يتشعح بها تاريخ الإنكشارية أنهم قاموا بحركة عضيان ضد الدولة في الصرب في السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) . كانت الحرب قد اندلعت بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا في التاسع من شهر فبراير - شباط - عام ١٧٨٨ إبان حكم السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٤-١٧٨٩) . واستطاعت هاتان الدولتان إزلال هزائم بالقوات العثمانية في اليوم الواحد والثلاثين من شهر يوليو - تموز - واليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - من عام ١٧٨٩ . وفي أثناء اشتعال هذه الحرب هزعت جموع كثيفة العدد من أهل الصرب إلى البحر حيث انضم أفرادها جنوداً يواصل إلى الجيش النمساوي أملاً في أن تنتهي الحرب بهزيمة ساحقة للدولة العثمانية ، ويستطيع الصربون التخلص من الحكم العثماني لبلادهم . ولكن لم تؤد الحرب إلى نتيجة حاسمة بسبب نشوب الثورة الفرنسية في منتصف عام ١٧٨٩ وانصراف حكام أوروبا إلى مراقبة تطوراتها ونتائجها على بلادهم . وتدخلت بين الدول الثلاث المتحاربة بعض الدول المعادية لفرنسا مثل إنجلترا وروسيا فتوقفت العمليات الحربية بعقد هدنة مع النمسا عام ١٧٩٠ تلتها معاهدة صلح معها في ٤ من أغسطس - آب - ١٧٩١ ردت النمسا بمقتضاها معظم الأراضي التي احتلتها إلى الدولة العثمانية ، تم دارت مفاوضات طويلة مضمينة مع روسيا تدخلت فيها بعض دول أوروبا لإنجاحها ، وأسفرت عن إبرام معاهدة صلح في اليوم التاسع من شهر يناير - كانون ثان - ١٧٩٢ احتفظت فيها روسيا لنفسها ببعض الأقاليم التي كانت قد استولت عليها في أثناء الحرب .

ولما عاد الصربون إلى بلادهم عقب انتهاء الحرب تعرضوا لعمليات

(١) دكتور السيد رجب حراز . الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب . (١٨٤٠ - ١٩٠٩) ، القاهرة ، ١٩٧٠ . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية ، ص ١٥ - ١٦ .

السلب والتهب والقتل بصورة وحشية لم يسبق لها من قبل مثيل على أيدي الإنكشارية . وكانت الذريعة التي استندوا إليها هي أن الصريين انضموا إلى أعداء الدولة فلا مناص من التكيل بهم . وكان هذا القول تبريراً يتسرون به على غرضهم الحقيقي والأوحد ، وهو تحقيق منافع شخصية وعاجلة لم بطريق غير مشروع . وكان تصرفهم مدعاة لإحراج الباب العالي أمام النمسا . إذ نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من معاهدة الصلح على أن « يمنع كل من الطرفين حصول التعدي والإهانة على الآخر ، ويعفو عن كل من اشترك في الحرب من رعايا أحد الطرفين ضد الآخر ، وعلى الأخص جميع صنوف أهالي الجبل الأسود والبوسنة والصرب والأفلاق والبغدان ، بحيث يكون لهم الحق بمقتضى هذا العفو العمومي في الرجوع إلى أوطانهم والتمتع بجميع أملاكهم وحقوقهم أيأ كانت بدون أن يسألوا أو يحاكموا أو يعاقبوا على عصيانهم جلالة السلطان صاحب السيادة عليهم والخليفة الأعظم ، أو لإظهار ولائهم لجلالة إمبراطور النمسا » (١) .

أرسل الباب العالي تعليقات عاجلة إلى السلطات العثمانية الحاكمة في بلغراد استنكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد الصريين ، وقال إنه أصدر عفواً عاماً لجميع أهل الصرب . وطلب أن تصدر السلطات العثمانية في بلغراد أوامر مشددة إلى الفيالق الإنكشارية بعدم الاعتداء على الصريين . غير أن الإنكشارية لم يحفلوا بهذه الأوامر واستمروا في غيهم . وتوالت شكايات الصريين على الحكومة المركزية في إستانبول . فأصدرت أمراً إلى والي بلغراد بالتصدي للإنكشارية وطردهم من الأراضي الصربية كلية . وسارع الوالي إلى تنفيذ هذا الأمر وخاض ضدهم قتالاً معتمداً على بقية القوات التي لديه ، وكان على رأسها السباهية — الفرسان الإقطاعيون — وتغلب عليهم ، ولقي رئيسهم وولي أحمد مصرعه .

الإنكشارية ينضمون إلى أحد الثائرين العتاة :

لجأ الإنكشارية إلى أحد المغامرين الثائرين العتاة ، وهو بازوند

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ - ١٩٢ .

أوغلي (١) ، ويعرف أيضاً باسم عثمان باشا . شق عصا الطاعة على الدولة ، واتخذ من ولاية ودين (٢) في بلغاريا مقراً له ، وجمع فيها حوله قطاع الطرق والإنكشارية المتلمذين الذين أخرجوا من الصرب . ووجدت الدولة عليه قوات جراحة ، ولكنه انتصر عليها ، فأرسلت إليه كوجك حسين باشا (٣) وظلت الحرب بينهما مبعثاً . ونحتق حسين باشا أن يخلو حكام الولايات العثمانية في البلقان حلو هذا التأثير ويقومون بثورات ضد الدولة . وأخذ السلطان سليم الثالث باقتراح حسين باشا وهو منح التأثير عثمان حكم ولاية ودين طوال حياته . وكان هذا التأثير من أكبر المعارضين لمشروع تطوير الجيش ومن أشد خصوم السلطان سليم الثالث عنفاً (٤) . وكان من الطبيعي أن ينضوى

(١) يرد ذكر اسمه في بعض المراجع : ياسبان أوغلي ، بازواند أوغلي ، بازوانت أوغلي ، بازواند زاده عثمان .

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع العربية فيدين استناداً إلى اسمها بالفارسية Viddin وهي مدينة حصينة في بلغاريا ، وتقع على نهر الدانوب وهي ذات موقع إستراتيجي هام وتبعد ٢٢٥ كيلو متراً عن بلغراد . واكتسبت شهرة خاصة في تاريخ الثورة العثمانية ، إذ كانت مقراً للتأثر بازواند زاده عثمان . .

(٣) يد كوجك حسين باشا من أحلام السكرين العثمانيين . وكان الذراع الأيمن للسلطان سليم الثالث في تنفيذ مشروع تطوير القوات المسلحة العثمانية . وتطابقت وجهتا نظرهما في ضرورة التخلص من الإنكشارية بما أن أصبحوا عنصر فساد في جسم الدولة ومن أسباب تأخرها . وقد ظفر بتقدير حقيق من سليم الثالث وزوجه إحدى أخواته . وعينه فيوداناً عاماً أي رئيساً للسلاح البحري العثماني . وبذل جهوداً كبيرة في إصلاح النفور وإقامة القلاع الحصينة لحمايتها ، وأنشأ عدة سفن حربية على فرار أحدث السفن الإنجليزية والفرنسية . واستقدم عدداً كبيراً من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع ، وأدخل تطويراً حاداً في المدرسة البحرية ومدونة القوانين - المنفعية - متمشياً مع أحدث النظم في المدارس العسكرية الأوروبية . ودخل الرض من أنه كان قائداً للسلاح البحري ، فإنه أنشأ في سنة ١٧٩٦ فرقة مشاة وفقاً للنظام الجديد ، وجعل عددها ١٦٠٠ جندي ، وعهد بتدريبهم إلى ضابط إنجليزي احتق الإسلام واشتهر بإسم « إنجليز مصطفى » .

(٤) كان عثمان باشا الملقب بازواند أوغلي (١٧٥٨ - ١٨٠٧) من أسرة تسموية اعتنقت الإسلام . وكانت تنتمي في مدينة توزله من أعمال البوسنة في النمسا . وأقطعت الدولة في عام ١٧٣٩ حل عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) جنه المسى ياسبان أفا قريتين بالقرب من ودين في بلغاريا مكافأة له على حسن بلائه في الحرب التي خاضتها الدولة ضد الروسية والنمسا عام ١٧٣٦ ، وكانت الجيوش النمساوية قد أغارت على =

= البوسنة والصرب وغيرها . ولم يقتصر ميراث ابنه - هو أفا ياسبان أوغل - على هاتين الفريدين اللتين آلتا إليه ، بل كان يصفه بـ « بوقدارا - حامل العلم - رجلاً شجاعاً مرموقاً . وقد قتله والى الجبهة لأنه شق عليه عصا الطاعة . وكاد يلقى ابنه عثمان نفس مصير والده لولا أنه فر إلى ألبانيا . ولكنه عاد إلى أنصا بعد أن اشترك في الحرب التي اشتعلت مرة أخرى بين الدولة وبين روسيا والنصا عام ١٧٨٨ م نزح إلى ولاية ودين عام ١٧٩١ ، وفيها انشغل هو ورجاله في إعداد الحملات التي كان يبيت لها إلى الأناضول والصرب ضد الثورة العثمانية . ولما أراد السلطان سليم الثالث معاقبته أعلن عثمان عصيانه عام ١٧٩٣ واحتصم بالجبل ، وغزا إقليم ودين في أواخر ١٧٩٤ مستعيناً بعصابات قطاع الطرق والإنتكشارية ، ثم هاجم في سنة ١٧٩٥ الحاج مصطفى باشا والى بلغراد . وكان الأخير من أنصار تطور الجيش العثماني وهددت إليه الدولة بالتخلص من عثمان ، إلا أنه أخفق في تأديبه أو قتله . فأرسل الباب العالي عدة فرق لمحاربته ، ولكنها فشلت في التغلب عليه . ورأت الدولة اتباع الطريق السلمي ابتغاه إعادته إلى حظيرتها رجلاً من رجالها . ودارت اتصالات بينها وبينه في أواخر عام ١٧٩٥ ، وأخفق الحل السلمي وظل عثمان مستتلاً بالقطاع الشمالي من بلغاريا . ولم تتعرف الدولة رسمياً به ، فمد هذا إلى طرد الولاى العثماني في ودين . وقام عثمان بغزو الولايات المجاورة عام ١٧٩٧ واحتل وهد في الشرق بلداناً كثيرة في بلغاريا ثم اتجه إلى بلغراد وفتحها ولكن استعصت عليه قلعة هذه المدينة ، إذ نجح في الاحتفاظ بها العثمانيون والصربيون الذين سلحهم الحاج مصطفى باشا والى بلغراد .

وزاد من خطورة عثمان أن اتصالات دارت في الخفاء بين فرنسا وبينه لتضييق المليشيات الحربية ضد الدولة . ووقف الباب العالي على أمر هذه المحادثات ، فأرسل قوات كثيفة العدد بقيادة كوزچك حسين باشا وحاصرت ودين حتى أكتوبر ١٧٩٨ ثم وقعت الحصار بسبب وصول الحملة الفرنسية إلى مصر في مطلع شهر يوليو - تموز - عام ١٧٩٨ ونجاحها في دخول القاهرة وانصراف الدولة إلى مواجهة هذا الموقف العسكري والسياسي الجدي . كما أنها خشيت اتساع حركة العثمانيين في البلقان فأعلنت بصيحة كوزچك حسين باشا وعقدت على كرهها صلحاً مع عثمان ومنحته لقب باشا عام ١٧٩٩ .

وكان عثمان باشا يصرح بمعارضته لتطور الجيش ، وباحتقاره للحكومة المركزية في إستانبول ، وبعد ولاته للسلطان سليم الثالث ، مما يدل على أنه لم يكن صادقاً التية في قبول الصلح . وقد أرسل عدة حملات لنهب ولاية الأقالق في عامي ١٨٠٠ ، ١٨٠١ . وبمساعده نجح الإنتكشارية في احتلال قلعة بلغراد في صيف ١٨٠١ وفي قتل الحاج مصطفى باشا في أواخر العام نفسه .

ولم يقنع عثمان باشا بما حققه من نجاح ، فسمى جاهلاً لدى قيصر روسيا كي يجتبره من رعاياه الخلقين . وحرض خدمته على فرنسا . واستبان الباب العالي أن عثمان يتأرجح في ولائه للدولة ، فقرر معاربه عام ١٨٠٣ ولم يكد يبدأ القتال حتى توقف بسبب ثورة الصرب عام ١٨٠٤ . ثم وجد عثمان باشا في ظهور الروس على الضفة اليسرى لنهر الدانوب عام ١٨٠٦ فرصة لمصالحة =

الإنكشارية تحت لواء هذا الثائر، واستطاعوا بمساعدته حصار بلغراد، ثم دخلوها وقتلوا واليها وانتشروا في أطراف البلاد يهبون ويسرقون . ولما ضاق الصربون ذرعاً بالإنكشارية اجتمعوا لمناقشة وسائل الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . واستقروا رأياً على ضرورة ردع الإنكشارية باستخدام القوة ضدهم . وانتخبوا رئيساً لهم هو قره جورج Kara George أى جورج الأسود وهو سليل أسرة كارچيفيتش Kargegevic وطاردوا الإنكشارية وأبعدوهم عن القرى وضيّقوا عليهم الخناق حتى حصروا إقامتهم في المدن . وكان ساكنوهمسا متحفزين للانقضاض عليهم إذا حدثتهم أنفسهم بالسلب والنهب أو أية صورة من صور العدوان . وأدرك الباب العالي خطورة الموقف في الصرب نتيجة تصرفات الإنكشارية، وأدرك أن هذا الموقف مليء بالمفاجآت . وخشى أن يتقلب قتال الصربين للإنكشارية إلى حركة قومية لا تستهدف القضاء على هذه الفئة الباغية ، بل طرد العثمانيين كلية من الصرب .

= الدولة العثمانية فرضت خساته عليها، ولكنها عرضت له وهبت بالقيادة العامة إلى قائد روسيotti مما أثار حفيظة عثمان باشا وصمم على أن يدافع عن ودين وحدها ضد هجمات الروس والصربين . ولكن عاجلته المنية في ٢٧ يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٧ .

والحق أن التقييم المحايد لشخصية عثمان باشا يكشف عن عدة حقائق عنه ، منها : أن الطابع الإسلامي العثماني كان ضميئاً بالحق في تصرفاته المتناقضة . وكان رمزاً للثيانية ، تأريخ في ولائه بين أربع دول هي العثمانية والنمساوية والروسية والفرنسية . وكان رائده في هذا التذبذب لتحقيق منافع شخصية وأجناد في مجالات السياسة والحكم والحرب والسال . وكانت الدولة العثمانية هي أكثر الدول الأربع معاناة من تصرفاته . انقلب عليها ، وساعد الإنكشارية في حركة التمرد التي قلموا بها في الصرب ، وانضم إلى صفوف الجيش النمساوي وحارب القوات العثمانية . وصبرت عليه الدولة وصارته مصابرة متألبة ، وأصلدت طوقاً شاملاً عن جميع جرائمه التي وصلت إلى حد الخيانة العظمى ، وصالحت وعينته والياً على ودين طوال حياته ، وأخذ يجمع منها في حزم واستبداد المكوس والضرائب . ثم عاود أسلوبه غير الأخلاق واتصل بأعداء الدولة لسانتهم عليها . ولما وجد إضراماً منهم ، عاد يمرض خدمته عليها ، ولكنها نبذته ، إذ وجدت أنه وصول متقلب ، فكان يحق رمزاً للسياسة المكيفالية بين باشوات الدولة يتقلب بين عشية وضحاها على أولاده نعمة .

انظر :

فأرسل الباب العالي إلى بكير باشا والى اليوسه يأمره بالزحف على بلغراد وطرده الإنكشارية منها . وقد استطاع بكير باشا بقواته ومساعدة الصربيين دخول بلغراد التي كان الإنكشارية معتصمين بها . ونجح في طردهم منها ثم تعقبهم حتى شنت شملهم . وعاد بكير باشا إلى مقر منصبه في اليوسه .

وبعد فترة قصيرة عاود الإنكشارية سيرتهم الأولى . جمعوا فلوطم ومارسوا بحماس مسعور عمليات النهب والسلب ولزهاق الأرواح . فقام الصربيون عام ١٨٠٤ زعامة قره جورج وقاتلوا العثمانيين قتالاً عنيفاً ، لأن الصربيين اعتبروهم مسئولين مسئولية كاملة ومباشرة عن الأعمال الإجرامية التي قام بها الإنكشارية وعن إرتعادهم عن قواعد الانضباط العسكري . وحظت هذه الحرب بملاحم بطولية ، واثنشت أيضاً عبدايح دموية بين الطرفين . واستطاع الصربيون مقاومة العثمانيين ثماني سنوات متعاقبة . ونجح قره جورج في تدعيم مركز الصربيين فحصل في المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٨١٢ على وعد بالاستقلال الذاتي لبلاد ، غير أنه لم يلبث أن دب الشقاق بين الصربيين واضطر إلى الفرار إلى الأراضي النمساوية ، ثم أشعل منافسه وقاتله ميلوش أورينسو فيتش Milos Obrenovic ثورة أخرى عام ١٨١٥ ونجح في دعم استقلال الصرب استقلالاً واقعياً *de facto* أي يستند إلى الأمر الواقع (١) ، واستطاع بعد الكثير من التسويات المضنية الحصول على دستور لبلاده والاعتراف به أميراً للصرب (٢) .

نخرج من هذا العرض السريع لحركات تمرد الفياائق الإنكشارية في الصرب بحقائق هامة ، منها : أن شرور أفراد هذه القبائل لم تكن مقصورة على إستانبول وضواحيها وعواصم الولايات العربية فحسب ، بل امتدت شرورهم إلى البلقان ، وهي منطقة حساسة ، إذ كانت موطن الثورات قامت بها الشعوب المسيحية البلقانية على الحكم العثماني مدفوعة بعامل القومية من ناحية ، وعامل

(١) سبق أن شرحنا مدلول هذا المصطلح القانوني . انظر ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥

في هذه الدراسة .

Grant A.J. and Temperley,; op. cit., p. 203.

(٢)

الدين من ناحية ثانية ، وتشجيع روسيا من ناحية ثالثة . وكان قيام الصربين بقتال الإنكشارية للحد من شرورهم مقدمة لتطور هذا القتال إلى محاربة الدولة العثمانية لإجبارها على دفع عادية الإنكشارية عنهم ، ثم تطور القتال إلى محاربة الوجود العثماني في الصرب . وكان الصربيون ، وليس اليونانيون ، هم أول شعوب البلقان سعيًا وتحركًا في سبيل حرية البلقان ، فهم الذين أشعلوا الشرارة الأولى عام ١٨٠٤ بزعامته قره جورج ، على الرغم من أن الصرب كانت أكثر خضوعاً لإستانبول من إقليمى مولدافيا ، وولاشيا (١) . وكان ضعف الدولة العثمانية وتردها أو تلوكتها في الضرب على أيدي الإنكشارية في الوقت المناسب مما شجع شعوب البلقان على القيام بحركات استهدفت الانفصال عن الدولة واستقلال هذه الشعوب .

سليم الثالث يعين قائد الإنكشارية صديقاً أعظم :

أبدى السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) منذ أن ارتقى العرش اهتماماً عميقاً بإدخال « النظام الجديد » في الجيش وذلك بإعادة تنظيم الفرق العسكرية وتطوير أسلحتها وتدريبها على غرار الجيوش الأوروبية الحديثة . واتخذ الزى الأوروبي للجيش ، وشيد ثكنة خاصة به ، واستقدم من أجل تعليمه وتدريبه خبراء عسكريين من بعض الدول الأوروبية ، ولكن اعترض الإنكشارية على هذه السياسة الإصلاحية في الجيش جملة وتفصيلاً اعتقاداً منهم أن هذه السياسة وإن لم تمسهم مساً مباشراً وفورياً في أول الأمر ، فلننها ستؤدي في النهاية إلى القضاء على الفياقق الإنكشارية .

واحقق أن الشغل الشاغل للسلطان سليم الثالث كان - بجانب الحروب التي خاضها ضد روسيا والنمسا وفرنسا والثورات الداخلية التي واجهها - هو إدخال « النظام الجديد » وتعميمه في جميع فرق الجيش . وقد تحبب في سياسته إزاء المعارضة التي حمل لواءها الإنكشارية ، فكان يتجنب الاحتكاك

(١) يطلق على هذين الإقليمين أيضاً البندان والأناطق ، وهما يكونان الجزء الأكبر من رومانيا حالياً .

بهم حيناً ، ويدخل معهم في مواجهة عسكرية حيناً ثانياً ، ويرضخ لطلباتهم حيناً ثالثاً .

كان مركز الخطر هو الفياقق الإنكشارية المرابطة في الولايات العثمانية في أوروبا . وقد اتخذ أفرادها من مدينة أدرنة وكرراً للمؤامرات . ورأى السلطان استخدام سياسة الضغط العسكري عليهم ، واستقدم من الأناضول قوات عسكرية بقيادة عبد الرحمن باشا ، وكان من أشد المتحمسين لتطوير الجيش . وبعد أن أقامت هذه القوات بعض الوقت في إستانبول حيث استعرضها السلطان ، واصلت سيرها إلى أدرنة في منتصف شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ ، ولكنها فشلت في اقتحام المدينة بعد عدة محاولات وعادت أدرابها إلى إستانبول . وأذن السلطان لمطالب الإنكشارية وهم في قمة الانتصار . وكان من بينها إعادة الفرق العسكرية الجديدة التي هاجمهم في أدرنة إلى الأناضول ، وإلغاء النظام الجديد أو على الأقل وقف تطبيقه على الفياقق الإنكشارية ، وعزل الصدر الأعظم ، وتعيين أغا الإنكشارية صديراً أعظم ، وتعيين بعض ضباط الإنكشارية في مناصب قيادية في أجهزة الحكومة . وهكذا استشرى نفوذ الإنكشارية وطغيانهم ، فأصبحوا وكأنهم دولة معادية انتصرت على السلطان وأملت عليه شروطها ، فقبلها كرئيس دولة منزهة .

الإنكشارية يضمون المتصوفة وبعض علماء الدين إليهم :

لم يقنع الإنكشارية برضوخ السلطان لمطالبهم . بل كان هذا الرضوخ مشجعاً لهم على مواصلة سياستهم العدائية نحو السلطان . وأخذوا يتناولون هذا العاهل بالنقد والتجريح . واستقر رأيهم على خوض بجولة جديدة لعزلة من الحكم . واصطنعوا وسائل جديدة ، منها : تأليب بعض عناصر الشعب عليه ، وضم فريق من علماء الدين ورجال الطرق الصوفية إليهم . وكانت هذه الطرق قد انتشرت انتشاراً واسعاً في آسيا الصغرى أولاً ثم في الروم إلى بعد ذلك . وكان الإنكشارية يستمدون نفوذهم وسطوتهم من البكاشية ،

وهم من أكبر الطرق الصوفية في الدولة . ويقول أحد المستشرقين الألمان « إن الإنكشارية قد انضوا تحت لواء الطريقة البكاشية » (١). واستند علماء الدين والمتصوفة في معارضتهم للنظام العسكري الجديد إلى أن التعليم العسكري من الأمور التي لم يعرفها الإسلام ، وأن الفتوحات الإسلامية كلها تمت دون أن تحتاج إلى أمثال هذا التعليم (٢). وخلصوا من هذا القول إلى أن النظام الجديد إنما هو بدعة . وأخذوا يرددون الحديث النبوي الشريف « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . وذهبوا في معارضتهم إلى الزعم بأن من مبادئ الإسلام أن من تشبه بقوم فهو منهم (٣) . وكان لصدور هذه الآراء وغيرها عن بعض علماء الدين والمتصوفة أصداء بعيدة في الرأي العام . وهكذا تكونت جبهة عريضة لمعارضة « النظام الجديد » . وكان قوام هذه المعارضة القياقي الإنكشارية وعلماء الدين ورجال الطرق الصوفية وعدة قطاعات جماهيرية أخرى كثيفة العدد من الجهلاء ، وانضم إليهم فريق من النفعيين والوصوليين من رجالات الدولة. وانفسح المجال أمام الدسائس والمؤامرات. ووقع اختيار هذا الخليط من المعارضين لتطوير أنظمة الجيش على رئيس لم يدعى قباقيجى أوغلى . وضع خطة محكمة لاغتيال كبار رجال الدولة المؤيدين للنظام الجديد ، ثم إلغاء هذا النظام ، ثم عزل السلطان سليم الثالث أو اغتياله إذا تطلب الأمر إقصاءه عن العرش .

الإنكشارية يعزلون السلطان سليم الثالث :

ولما اطمأن رؤساء الإنكشارية إلى هذا التخطيط واستكمال خيوطه وعناصره ، قررو القيام بحركة تمرد تعبيراً عن استنكارهم للنظام العسكري الجديد . وحشدوا في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ مجموعاً غفيراً العدد من الجنود الإنكشارية في آت ميداني ، أى ميدان الخيل .

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ،

ص ٢٢ .

(٢) ساطع المصري ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٩ .

(٣) دكتور السبدي وجب سراز : الدولة العثمانية ألغ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

وطبقاً لتعاليمهم جاءوا بالقرانات ، وهى قدور الطعام ، فارغة ، ووضعوها مقلوبة فى صفوف مراعصة ومنتظمة ، علامة على عصيانهم . وتليت عليهم أسماء جميع المؤيدين للنظام العسكرى الجديد من الوزراء وكبار موظفى الدولة ، ثم انطلقوا الى مساكنهم وقتلهم ، وأتوا برءوسهم ووضعوا كل رأس أمام قران من القرانات ، ثم فرضوا حصاراً محكمًا حول قصر السلطان . وأرغوه على إصدار فرمان بإلغاء النظام الجديد وتسريح الجنود الذين التحقوا بالجيش وفقاً لهذا النظام . ولكن لم يقنع الإنكشارية برأجع السلطان سليم الثالث عن مشروع إصلاح الجيش ، ونخشوا أن يعود فى يوم ما إلى تنفيذ هذا المشروع ، فقرروا عزله بعد أن استصلدوا فتوى من شيخ الإسلام جاء فيها « إن كل سلطان يدخل نظم الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك » (١) . وعهد الإنكشارية إلى شيخ الإسلام ، وكان ضالماً معهم ، بتبايغ هذه الفتوى إلى السلطان . فذهب إليه وأبلغه بها « مظهرأسفه من هذه الحادثة الجبرية » (٢) . وأذعن السلطان وغادر القصر السلطانى . ولم تستمر حركة عصيان الإنكشارية سوى يومين . ونودى فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ بعزل السلطان سليم الثالث وتنصيب السلطان مصطفى الرابع - وهو ابن السلطان عبد الحميد الأول - خلفاً له . وتفرق الجنود النظاميون شذر مذر ، وألغى مشروع تطوير الجيش العمائى لاعتراض الإنكشارية عليه . وقتل بعض الوزراء المجهدين لهذا المشروع ، بينما اختفى البعض الباقى منهم عن الأنظار . ولم يكن خضوع السلطان سليم الثالث لقرار الإنكشارية بعزله عاصماً له من القتل فى العام التالى ، أى فى سنة ١٨٠٨ ، حين أمر خلفه السلطان مصطفى

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

رائنظر أيضاً :

سالى الكيالى : الأدب والقوية فى سورية . من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية .

القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٨٣ .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٢ .

الرابع بقتله عندما طالب أنصار النظام الجديد بإعادته إلى العرش حتى يستمر في تنفيذ مشروع إنشاء الجيش الجديد .

الصراع بين أنصار النظام الجديد وخصومه :

كان السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨) يدرك أنه مدين بارتقائه العرش للإنكشارية ولشيخ الإسلام . فالأولون قاموا بحركة عصيان ونادوا بتنصيبه سلطاناً بعد أن خلعوا سلفه السلطان سليم الثالث ، بينما كان شيخ الإسلام ضالماً معهم في هذه الحركة . وقد وعى السلطان الجديد هذا الدرس تماماً . فغدا أداة طيعة لينة في أيدي الإنكشارية وشيخ الإسلام . وأمسى النفوذ في إستانبول مركزاً في هاتين القوتين . استجاب السلطان لرغبة الإنكشارية ، فعين قباچي أوغلي قائداً لجميع قلاع البوسفور . وأعاد الإنكشارية القزانات - قدور الطعام - إلى ثكناتهم كتعبير عملي عن رضاهم على السلطان مصطفى الرابع ، وأخلدوا إلى السكينة .

ولكن حين ترامت إلى الجيش العثماني الذي كان يخوض حرباً أوروبية ضد الروميا في ولاية البغدان - أنباء الفتنة التي قام بها الإنكشارية المرابطون في إستانبول اغتبطت فيالق الإنكشارية المشتركة في هذه الحرب ، لأنه كان من نتائج هذه الفتنة وقف تنفيذ مشروع « النظام الجديد » . ولكن القائد العام للجيش ، وهو حلمي إبراهيم باشا ، الصدر الأعظم ، اعترض على حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية في إستانبول وعزلوا فيها السلطان سليم الثالث . فنار الإنكشارية على الصدر الأعظم وقتلوه ، وأقاموا مكانه مصطفى شلبي باشا وأصبح لقبه القائمقام مصطفى باشا إلى أن يصدر السلطان فرماناً بتثبيتته في منصبه الجديد . ووقع الاضطراب في صفوف الجيش وفي وقت عصيب كانت تمر به الدولة وقتذاك . . ولكن كان من حسن حظ

(١) أنظر دور الإنكشارية في الاضطرابات العسكرية والسياسية التي واجهتها الدولة في تلك الفترة في كل من :

محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢١١ - ٢١٧ .

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., pp. 74—76.

الدولة أن انتصر في ذلك الوقت نابليون الأول على روسيا وبروسيا في موقعة فريدلاندر Friedland في اليوم الرابع عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٠٧م وتمهقرت الجيوش الروسية من ولاية البغدان . من غير قتال ونجا الجيش العثماني من التزق أو التحطيم . ويلاحظ أنه تعاقب على منصب الصدارة العظمى في إستانبول عدد من الصدور العظام في الفترة من سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧م حتى شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨م ، وكان عدم الاستقرار السياسي في أجهزة الحكم من أبرز خصائص هذه الفترة . وانقسمت البلاد بين أنصار النظام الجديد وخصومه . وكان للإنكشارية دور بارز في تصعيد الفوضى السياسية والعسكرية التي حاقت بالبلاد .

مصطفى باشا اليرقدار وخلان روستجق :

كان مشروع إصلاح الجيش قد اكتسب أنصاراً أقوياء في بعض الولايات العثمانية . واستنكروا الأحداث التي تتابعت في إستانبول من عصيان الإنكشارية وإلغاء النظام الجديد وعزل السلطان سليم الثالث . وكان فريق من هؤلاء الأنصار يقيمون في روستجق (١) Ruschuk وعرفوا فيما بعد باسم « خلان روستجق » وكان على رأسهم مصطفى باشا اليرقدار (٢) حاكم

- (١) يرد اسم المدينة في بعض المراجع على هذا النحو : روسجوق ، روسجق ، روسجك
(٢) يرد اسمه في بعض المراجع : اللمدار. والكلمتان بمعنى واحد هو حامل العلم . وكلمة يرقدار تتكون من يرق بمعنى علم وكلمة دار ومنها اليرق النبوي أي العلم النبوي . وترجم بعض المراجع الإنجليزية كلمة اليرقدار Standard - bearer بينما تذكر بعض المراجع الإنجليزية اللفظة التركية بحروف لاتينية على هذا النحو :

يرقدار Bayrakdar

لمدار Alemdar

والأصل في شغل هذه الوظيفة أنه كان أكبر ضباط الخدمة الخارجية في قصر السلطان . وكان مستولاً على العلم السلطاني والشعار الخاص بالسلطان وهو تسمية أطواخ . ولم يكن يطلق على هذا الضابط « يرقدار » بل « ميرعلم » . ومنعاً ما أمير العلم وكان اليرقدار يقدم إلى حكام الولايات عند تعيينهم شعارات تتناسب مع درجة وظيفته كل منهم . وكان مستولاً أيضاً على فرقة القصر الموسيقية العسكرية ، ثم أضيف إليه اختصاص آخر هو الإشراف على مجموعة من المبعوثين المخصوصيين الذين سوا لأسباب تاريخية تباينهم باشي =

المنطقة . وكان هو الآخر يفيض حماساً لإدخال النظم الأوروبية الحديثة في الجيش ، بعد أن كان في مطلع حياته من أشد المعارضين عنفاً لتطويع الجيش . وكان تحت إمرته قوة تتكون من ستة عشر ألف جندي ، وقرر الزحف على إستانبول لردع الإنكشارية وإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش لتمكينه من مواصلة تنفيذ مشروع إصلاح الجيش . وكان هذا السلطان لا يزال على قيد الحياة .

أُسِّرَ مصطفى باشا البرقدار إلى مصطفى باشا شلبي الصدر الأعظم وبعض الوزراء برأيه وهو إعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش ، وأقنعهم بضرورة مساواة كل من شيخ الإسلام وقباچجي أوغلي باعتبارهما مسئولين عن حركة التمرد التي حمل لواءها الإنكشارية وعزلوا فيها السلطان سليماً الثالث واستأثروا بالنفوذ . واستصدر الصدر الأعظم أمراً من السلطان بإعدام قباچجي أوغلي تأسيساً على أنه كان السبب المباشر في قتل الكثيرين من كبار موظفي الدولة بصفته رئيساً لحركة التمرد التي تمت في أواخر شهر مايو - آيار - عام ١٨٠٧ . وقد عهد الصدر الأعظم إلى أحد رجاله - حاجي علي - بتنفيذ هذا الأمر على أي صورة من صور القتل . فسار الأخير على رأس مائة فارس إلى إستانبول لقتله ، بينما كان مصطفى باشا البرقدار متجهاً إلى العاصمة في ستة عشر ألف جندي عن طريق أدرنة . ولما وصل حاجي علي إلى مشارف إستانبول علم أن قباچجي أوغلي مقيم في قصر خارج العاصمة فاقتحم القصر وقتله . وفي ذات الوقت وصل مصطفى باشا البرقدار مع قواته وعسكر خارج إستانبول ، وانضم فرسان حاجي علي إلى قوات البرقدار .

عزل ثم قتل السلطان مصطفى الرابع :

حين علم السلطان مصطفى الرابع بهذه التطورات ازدادت هواجسه

= (جمع قايجي باس) أي كبار الحراس . وكان حكام الولايات المتأينة يهدون إلى غيباط من ذوي الرتب العالية بالعناية بأعلامهم الخاصة وبشعاراتهم . وكان يطلق على كل من هؤلاء الضباط برقدار أو لقب آخر له نفس المعنى هو الصنوج دار . وكان لكل أوطه من الإنكشارية شامل عليها ويسمى برقدار . وكان هذا اللقب يطلق أيضاً على بعض زعماء ألبانيا الوراثنين .

ونخشى على نفسه أن يصيبه سوء ، فانقلب على الإنكشارية وأنصارهم ، أو لعله تظاهر بهذا الموقف المعادى لهم ، فأمر بعزل شيخ الإسلام الذى كان ضالماً مع خصوم « النظام الجديد » والذى حارب بقلبه ولسانه وقلمه إدخال الأنظمة الحديثة فى الجيش ، وأمر السلطان أيضاً بتسريح الفياقق الإنكشارية التى كانت تحت قيادة قباچقى أوغلى ، وهى الفياقق التى كانت لها اليد الطولى فى عزل السلطان سليم الثالث وإيقاف العمل فى تطوير الجيش . وتظاهر البيروقراط بأنه راض تماماً عن الوضع الجديد ، وأشاع أنه عازم على العودة إلى مقر منصبه فى روستحق . وفى صبيحة اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٠٨ اتجه بقواته إلى القصر السلطانى ، وطالب بإعادة السلطان سليم الثالث إلى العرش . وازداد السلطان مصطفى الرابع اضطراباً ، وتأرجح فى موقفه حيال أنصار « النظام الجديد » وخصوم هذا النظام . وتغلبت عليه زعة البقاء على العرش ، فأمر بقتل السلطان سليم وإلقاء جثته إلى التآثرين . وكان فى تقديره للموقف الصعب الذى يحيط به من يمين ويسار أن التآثرين يعودون أدراجهم بعد أن يروا بأعينهم ويتأكدوا أن السلطان الذى يطالبون بإعادته إلى الحكم قد غدا جثة هامدة . ولكن أدى هذا القتل إلى نتيجة عكسية تماماً، فازداد التآثرين هياجاً ، ونادوا على الفور بعزل السلطان مصطفى الرابع وتعيين أخيه محمود سلطاناً للدولة باسم محمود الثانى . وأمروا باعتقال السلطان المعزول فى نفس القصر الذى كان محجوزاً فيه السلطان سليم الثالث . وقد قتل فى ذات السنة التى عزل فيها (١٨٠٨) وهى ذات السنة أيضاً التى شهدت قتل سلفه .



الفصل التاسع عشر

مراكز القوى في الدولة (٣)

الخطوة الحاسمة

الفاء الفيالق الإنكشارية

السلطان محمود الثاني يحاول تطويع الإنكشارية بالحسنى :

كان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ذا عزيمة قدت من حديد . صمم على تعميم تطوير القوات المسلحة بجميع أسلحتها وفرقها بما فيها الفيالق الإنكشارية ، ولكنه آثر أول الأمر أن يسلك مسلكاً سلبياً تجاه الإنكشارية . وحاول بالحسنى إقناعهم بقبول إدخال النظم الحديثة في الفيالق الإنكشارية حتى تكون متمشية في تنظيمها وتسلحها وتدريبها مع سائر الفرق العسكرية في الجيش . وعرض في ذات الوقت معاشاً على كل من يرفض منهم مشروع الإصلاح الجديد في الفيالق الإنكشارية . ولكنهم رفضوا هذا العرض بشقيه ووضعوا أصابعهم في آذانهم وأصرروا واستكبروا واستكباراً .

وعلى الرغم من موقف الرفض الذي اتخذته الإنكشارية ، وعلى الرغم من أن السلطان محمود كان موقناً أنهم لن يرضخوا لطلبه ، إلا أنه أراد أن يمد لهم في مجال الصبر ويمتحنهم فرصة أخرى لحسم موقفهم قبل أن يخوض مواجهة عسكرية صافرة ضدهم . فعهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار بتنفيذ خطته . وكان قد عينه في منصب الصدارة العظمى منذ أن ارتقى العرش ، لأنه كان من أنصار تطوير الجيش من ناحية ، ولأنه كان قائد حركة الانقلاب العسكري التي نادى به سلطاناً من ناحية أخرى . دعا البيرقدار إلى اجتماع يعقد في القصر السلطاني في إستانبول في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، ووجه البيرقدار الدعوة إلى عدد من

أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة ، وعلى رأسها شيخ الإسلام ، وبكلر بك الروم ليلى ، وبكلر بك أناضولى ، وحكام الولايات القريبة من العاصمة ، وقادة أسلحة الجيش ، ومن إليهم من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين ، وكذلك الأعيان (١) ، وروساء العائلات الإقطاعية القوية فى الأناضول والذين يطلق عليهم «دره بكوات» (٢) Derebeys أى أمراء الوديان (٣) Valley Lords . وشرح لهم الصدر الأعظم التدهور الذى أصاب الإنكشارية بعد أن كانوا أداة بطش يرهبون أعداء الدولة وينزلون بهم أمدح الخسائر . وما يجب أن يكونوا عليه من الالتزام الصارم بالانضباط العسكرى ، وضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، التى كان استخدامها فى الجيش الروسى فى مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة . ثم اختتم الصدر الأعظم حديثه إلى المجتمعين بعرض اقتراحات هامة ، كان من بينها : إلزام الإنكشارية فى أوقات السلم بملازمة تكتاتهم ، وخصوصاً غير المتزوجين منهم ، وإيقاف صرف مرتبات وبدلات الساكنين خارجها ، وضرورة مواظبتهم على حضور التدريبات العسكرى ، وتسليحهم بالأسلحة النارية الحديثة . وأكد الصدر الأعظم اعتقاده الراسخ أنه لو استجاب الإنكشارية لهذه المقترحات وغيرها فلنهم يستعملون مجدهم الحربى القديم ويصبح الجيش العثمانى من أقوى جيوش العالم كما كان فى أول الأمر ، وقبل أن تنسرب الفوضى إلى صفوفهم وقبل أن يتجاوزوا اختصاصاتهم بتدخلهم فى الشؤون السياسية الخارجية والداخلية للدولة مثل عزل السلاطين والصدور العظام والوزراء ومن إليهم مما عرض الأجهزة الحكومية هزات عنيفة أمام أعداء الدولة . . وقد أقر

(١) الأعيان طبقة بنا ظهورها فى القرن السابع عشر تتكون من الشخصيات البارزة فى كل ولاية . وكان الأهالى هم الذين ينتخبون أولئك الأعيان لتمثيلهم لدى السلطات المحلية . وكان السلطان يصدر فرماناً بتعيينهم . وكانوا يخاطبون بهذا المصطلح : « أعيان ولاية وإيش أرارى » أى أعيان الولاية ورجال الشؤون . وكانوا يستمدون نفوذهم من كونهم ملاك الأرض . وفى القرن الثامن عشر تطورت اختصاصاتهم فأصبحوا يشرفون على الإدارات المدنية والمالية فى المدن .

(٢) انظر نشأة واختصاصات هذه العائلات فى

الحاضرون مقترحات الصدر الأعظم الذى لم يكتف بهذه الموافقة الإجماعية ، بل استصدر فتوى من شيخ الإسلام الجديد بضرورة تنفيذ نظام الإنكشارية بكل حزم وصرامة . فأصدر الصدر الأعظم أوامره بتنفيذ مقترحاته متحصناً بموافقة المجلس الذى دعا إليه وبالفتوى التى حصل عليها من شيخ الإسلام (١).

تحدى الإنكشارية للسلطان والصدر الأعظم :

لم يأبه الإنكشارية برغبة السلطان ولا بأوامر الصدر الأعظم . وصحت عزيمتهم على مقاومته . وطبقاً لتقاليدهم وضعوا القزانات ، قدور الطمام ، مقلوبة دلالة على قيامهم بحركة عصيان . ولم يكن لدى الصدر الأعظم قوات تحت تصرفه سوى ستة عشر ألف مقاتل جاء بها من روستحق ، وهى المنطقة التى كان يحكمها قبل تعيينه صاعداً أعظم ، وثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا رئيس الجنود النظاميين السابقين ، وبعض سفن حربية تحت إمرة رازم باشا أمير البحر .

هزيمة الصدر الأعظم أمام الإنكشارية ومصرعه :

حشد الإنكشارية جموعهم فى مدينة فيلية (٢) وأعلنوا العصيان . فوجه الصدر الأعظم اثني عشر ألف جندى لمحاربتهم . ولم يبق لديه سوى أربعة آلاف مقاتل والثلاثة آلاف جندى تحت قيادة عبد الرحمن باشا . وأدرك الإنكشارية ضآلة حجم القوات التى لدى الصدر الأعظم . وانتهزوا هذه الفرصة الذهبية كى يكيدوا كيداً للسلطان الجديد محمود الثانى وللصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار. واتجهوا فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ إلى قصر السلطان المزعول مصطفى الرابع لإعادته إلى العرش . وتصدى لهم الصدر الأعظم وقاومهم مقاومة عنيفة . ولكن استبان له أن القتال يدور فى صالح الإنكشارية. وخشى العواقب الوخيمة التى تنجم عن انتصارهم ، ومن أهمها أن الإنكشارية يعلنون عزل السلطان محمود

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) مدينة تقع فى مقلونيا .

الثاني وإعادة السلطان مصطفى الرابع إلى العرش . فأمر الصدر الأعظم بقتل السلطان المزعول . وكان رائده من هذا القتل هو إفساد خطة الإنكشارية ، فإن السلطان مصطفى الرابع كان الورقة الراجعة في أيديهم . وقد أمر الصدر الأعظم بإلقاء جثة السلطان مصطفى للإنكشارية ، وما أن وقعت أعينهم على جثة السلطان حتى ازدادوا هياجاً ، وأضرموا النار في القصر كي يضطر الصدر الأعظم إلى الفرار ويقع أسيراً في أيديهم ويمثلون بجثته بعد قتله . ولكن الصدر الأعظم أثار الموت على التسليم للإنكشارية ، فأقدم على عملية انتحارية وظل يدافع هو ومن معه حتى مات حرقاً . ويقال إنه تحصن في أحد الأبراج ثم أشعل النار في البارود المكسد في هذا البرج ومات هو ومن معه تحت الأقباض في شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٠٨ .

وفي أثناء دفاع الصدر الأعظم كان رامز باشا أمير البحر قد رسا بسفنه الثلاث في مضيق البوسفور وسلط مدافعها على ثكنات الإنكشارية ، ثم نزل إلى البر مع فريقين من البحارة ورجال المدفعية وسار بهم لتدعيم قوات الصدر الأعظم . ولم يكن يلدرى أنه قضى نجه ، وفي ذات الوقت كان عبد الرحمن باشا ومعه ثلاثة آلاف جندي يسرعون في زحفهم لمساعدة الصدر الأعظم ، وفوجئوا بنبأ وفاته . ولم يتطرق اليأس إلى رامز باشا وعبد الرحمن باشا وقررا مواصلة قتال الإنكشارية ، ولكنهما عجزا عن إحراز أى نصر عليهم . واستمر إطلاق المدافع والبنادق في الآستانة طوال اليوم . ولما صبا الليل رأى رامز باشا أمير البحر أن يعفو عن جميع الإنكشارية بشرط أن يلقوا سلاحهم ويسلموا أنفسهم لرحمة السلطان محمود الثاني . أما عبد الرحمن باشا فلم يشاطره هذا الرأي ، ورأى مواصلة القتال وانخاذ حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية وسيلة لإعدامهم وإلغاء طائفهم بتشكيلاتها الحربية . وكان السلطان محمود من أنصار هذا الرأي . وتمشيحاً مع هذا الاتجاه تحركت جيوش السلطان في صبيحة اليوم التالى تتقدمها المدافع تطلق قذائفها على الإنكشارية من كل حذب وصوب . ولما رأى الإنكشارية أن الموت يحيط بهم من يمين وشمال أضرموا النار في جميع أرجاء المدينة حتى

كادت النيران تلتهم جميع مبانيها . وفي هذا الموقف العصيب تذرع السلطان بسياسة الحلم والأناة على ما فيها من غضاضة ، لأن حركة العصيان التي قام بها الإنكشارية في هذه المرة كانت أوسع مدى وأشد خطراً من سابقاتها . واضطر إلى الإذعان كي ينفذ المدينة من دمار محقق ، وأن يرجيء حسابها مع الإنكشارية إلى فرصة أخرى في قابل الأيام . ومن ثم انصرف إلى لإخضاع الحرائق التي كادت تلتهم المباني لو لم يتداركها السلطان . واستمر الإنكشارية في مضجهم وضجيجهم مصرين الإصرار كله على معارضة إدخال النظم الحربية الحديثة في الصيقل الإنكشارية . ولم يلبث أن تفرغ السلطان لمواجهة الحرب التقليدية التي اشتعلت بين الدولة والروسيا وانتهت بعقد معاهدة بخارست في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ .

الدرس الذي خرج به السلطان من الثورة اليونانية :

استطاع السلطان فيما بين عامي ١٨١٤ - ١٨١٦ أن يتخلص سراً من جماعات صغيرة العدد من الإنكشارية (١) . وأجل القيام بحركة تصفية شاملة لجموع الإنكشارية حتى تخمين له فرصة مواتية فيوجه لإهم ضربة قاضية ويتخلص منهم جميعاً . ولم تمض سنوات ذات عدد حتى اندلعت الثورة اليونانية في شبه جزيرة المورة في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٢١ وظفر الثوار بانتصارات سريعة وباهرة على القوات العثمانية التي بعث بها السلطان بقيادة خورشيد باشا (٢) . وكانت هذه

Hasluck F.W.: op. cit., Vol. 2, p. 619.

(١)

(٢) هو أحمد خورشيد باشا وكان حاكماً للإسكندرية ثم رقي والياً على مصر . ودخل القاهرة في ٢٦ من مارس - آذار - عام ١٨٠٤ . وفي أثناء ولايته قام أهل القاهرة بانتفاضة شعبية احتجاجاً على مظالمه . وترجم الانتفاضة الشيخ عبد الله سحازي الشهر باسم الشراقي شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم الأموي نقيب الأشراف ، وانتهت هذه الانتفاضة بالمناذاة في ١٣ من مايو - آيار - عام ١٨٠٥ بطلب خورشيد وتمين محمد علي مكانه . واستجابت الدولة على كره منها لهذه الرغبة الشعبية . فصدر فرمان بتثبيت محمد علي في ولاية مصر - ونقل - خورشيد إلى سالونيك . وظل خورشيد يتقلب في عديد من المناصب القيادية إلى أن عهدت إليه الدولة بإخماد ثورة قام بها علي باشا في ألبانيا وتمصن في أيرروس واتخذ يانينا Janina مقراً له . ودارت اتصالات =

القوات تضم عدداً من الفيالق الإنكشارية . وانتقل الثوار اليونانيون من نصر إلى نصر . ومدوا عملياتهم الحربية إلى مقدونيا و تساليا ، واستولوا على المدن والمراكز الحصينة ، وكان من بينها : تريبوليتزا (١) مقر السلطة العثمانية في هذه المنطقة ، وأوقعوا بالقوات العثمانية والسكان المسلمين مذابح رهيبية (٢) . ولم يمض عام ١٨٢٢ حتى كان النفوذ العثماني قد تقلص من المورة مما جعل الإنكشارية موضع التهمك والسخرية من الجماهير العثمانية

= بين هذا الناصر وقادة الثورة اليونانية لتسليق التناون العسكري بين الثورتين. واستطاع خورشيد باشا إخماد الثورة بعد أن ضرب حصاراً محكماً على مقر الناصر في يانينا . وكان الأخير قد يلس من وصول فبحدات عسكرية إليه من قادة الثورة اليونانية . واستسلم في الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٨٢٢ لخورشيد باشا الذي أمر بأن يساق إلى الحمام حيث كان بعض الجنود في انتظاره ، فقاموا بجز رأسه ، وأرسلت إلى إستانبول . وعندهئذ عهد السلطان محمود الثاني إليه بالتحرك مع قواته إلى المورة للقضاء على الثورة اليونانية ، فأحرز انتصاراً في المرحلة الأولى ثم ظهر عليه الثوار اليونانيون الذين أنزلوا به حسانر جسيمة . وازداد الثوار جرأة بما حققوه من انتصارات في بحر الأرخييل حيث أحرقوا كثيراً من السفن العثمانية ، وعاثوا في البحر فساداً . وتمرسوا لسفينة أطلعت من إستانبول وهي في طريقها إلى الإسكندرية . وكان من بين ركبها قاضي قضاة مصر العثماني وزوجاته وبناته وحواياه وعدد من الحجاج فقتلهم الثوار ذبحاً عن آخرهم ثم أغرقوا السفينة. انظر كلا من :

(١) الجبوتي . عجائب الآثار الفخ ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، صص ٣١٩-٣٢٠ (حوادث ذي القعدة عام ١٢٣٦ / أغسطس - آب - عام - ١٨٢١)

(ب) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، صص ٢٢٧-٢٢٨

(ج) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، الناشر : مكتبة

النهضة المصرية ، صص ١٦٣-١٦٤

(د) دكتور محمد فؤاد شكوي : أوروبا في القرن التاسع عشر . الصراع بين البرجوازية والإقطاع ١٧٨٩-١٨٤٨ ثلاثة مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الناشر دار الفكر العربي . المجلد

الثاني ، صص ٤٥٨-٤٦٢

(١) تقع هذه المدينة في قلب شبه جزيرة المورة . وكانت عاصمة المورة .

(٢) يقول ميلر إن عدد المسلمين الذين ذبحهم الثوار اليونانيون بلغ عدة آلاف . وثأر السلطان محمود الثاني للمسلمين فأمر بإجراء مذابح عامة بين اليونانيين. وبدأ يترجمان الباب العالي والشخصيات التي كانت تقطن سبي الفناز في إستانبول، وكان موطن الأرستقراطية اليونانية ثم أمر بذبج جورجى الخامس بطريك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وهو من المورة موطن الثورة . وظلت جسده معلقة ثلاثة أيام حل باب الكنيسة ، ثم أنزلها اليهود وسحبوها في الشوارع وألقوا بها -

التي كانت تعلق آمالاً كبيراً على الإنكشارية بسبب ما اشتهروا به من شجاعة وكفاية قتالية . وفي هذا الوقت العصيب استعان السلطان بمحمد علي باشا والى مصر لإخضاع اليونانيين (١) ، فأرسل الأخير ابنه إبراهيم باشا على رأس حملة كبيرة من الجيش المصرى الحديث تخرسها وحدات من الأسطول المصرى . وأقلعت الحملة من الإسكندرية في شهر يوليو - تموز - عام ١٨٢٤ واستطاعت القوات المصرية أن تنزل في مودن Moden في أقصى الطرف الجنوبي الغربى للمورة ، وأن تخضعها في فبراير - شباط - عام ١٨٢٥ وتوجه إلى الثوار ضربات عنيفة ، وتتقدم عبر المورة وتستولى على معظم المواقع اليونانية الحصينة مثل مسولنجي Mesolonghi في اليوم الثانى والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، وتريبوليترا ، وأثينا في اليوم الخامس من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٧ ، وبسقوط أثينا أصبحت المورة بأكملها تقريباً في أيدي القوات المصرية . وبلغت الانتصارات الرائعة التي أحرزها الجيش المصرى حداً جعل روسيا تعلن أنه لا بد من التدخل لإنقاذ اليونانيين من القناه (٢) . وأخذت الجماهير

سفن البحر واستلح بعض اليونانيين استرحاح الخنة من البحر ودفنوها في أوديسا ، ثم نقلت بعد خمسين عاماً إلى كاتدرائية أثينا . وامتنعت المذابح إلى اليونانيين في سالونيك ، وأزهر ورودى ، وقبرص ، وغيوس Chios . انظر .

Miller W.; op. cit., pp. 74—75, 79—80.

(١) كان السلطان محمود الثانى قد عهد إلى محمد علي عام ١٨٢١ - أى قبل حملة المورة - بأن يرسل أسطوله لضرب سفن الثوار . وقد أبحر الأسطول من الإسكندرية في اليوم الثامن من شهر يوليو - تموز - عام ١٨٢١ ، واتجه إلى مياه رودس لمطاردة السفن البيزنانية . والتقى بالأسطول العثمانى في مياه الدردنيل . ثم عاد إلى الإسكندرية في مارس - آذار - ١٨٢٢ ليلتأهب لنقل الحملة المصرية إلى جزيرة كريت . وكان السلطان قد عهد إلى محمد علي بإيجاد الثورة فيها . فأعد محمد علي حملة من خمسة آلاف جندي نزلوا في جزيرة كريت في يونيو - حزيران - ١٨٢٢ وظفروا بالنوار وشتوا شملهم ، وفر كثير منهم إلى الجزر اليونانية الأخرى . أما اللورد في المورة فقد شعر السلطان أنه عاجز عن القضاء عليها ، فعهد إلى محمد علي بإيجادها وتحويله حكم ولاية المورة مكاناً له .

Grant A.J. and Temperley, H; op. cit., p. 204.

(٢)

العثمانية تقارن بين إخفاق الإنكشارية في إخماد الثورة اليونانية ونجاح الجيش المصري الحديث في القضاء عليها . وانتهز السلطان محمود الثاني هذه الفرصة لوجهه إلى الإنكشارية ضربة قاضية إذا أصروا على الرفض .

والواقع أن السلطان محمود الثاني ازداد اقتناعاً بالكفاية القتالية في الجيوش الأوروبية التي أخذت بالانتظمة العسكرية الحديثة تسليحاً وتدريباً وقتالاً . وأرجع إلى هذا السبب الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الأوروبية على الجيش العثماني . وكان أمامه مثل حى في دولته في منطقة الشرق الأدنى كما كانت تسمى في ذلك الوقت (١) ، تمثل في الجيش المصري الذى شرع في إنشائه منذ سنة ١٨٢٠ محمد على باشا والى مصر من الفلاحين المصريين وفقاً للأساليب الأوروبية الحديثة ، واستقدم الخبراء العسكريين من بعض دول أوروبا لتدريب أفرادهم على أحدث النظم الحربية . وكان السلطان يعتمد اعتقاداً راسخاً أن إبراهيم باشا ابن محمد على مدين بانتصاراته التي حققها في بلاد المورة إبان الثورة اليونانية منذ عام ١٨٢٥ للجيش المصري الذى أخذ بالنظم والنظريات الحربية الحديثة في التسليح والتدريب والقتال . وكانت هذه الحرب اليونانية أول حرب أوروبية خاض هذا الجيش المصري الصميم غمارها

(١) كان رجال السياسة في أوروبا وأمريكا يميلون إلى تقسيم الشرق إلى ثلاث مناطق : الشرق الأدنى The Near East وكانوا يعبرون عن هذه المنطقة أحياناً بعبارة The Nearer East . وتشمل مصر وبلاد الشام وتركيا واليونان . والشرق الأوسط The Middle East ويشمل شبه القارة الهندية وأفغانستان وفارس والعراق وشبه الجزيرة العربية . والشرق الأقصى The Far East ويشمل جوب سرق آسا بأسماءه السياسية والصين واليابان . وظلت هذه التسميات قائمة إلى الحرب العالمية الثانية ، (١٩٣٩-١٩٤٥) ثم أدمج الساسة الأمر بكون التسمين الأولين بضمهما في بعض ، وأطلقوا عليها الشرق الأوسط الذى أصبح يشمل في مداول السياسة الدولية : مصر ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، وتركيا ، والعراق والسعودية ، وإيمن بتسميها ، والدول العربية في الخليج ، وإيران ، والهند ، وباكستان ، وبنجلاديش ، وسرى لانكا ، وأفغانستان .

ويلاحظ أيضاً أن المؤرخين والباحثين الغربيين أطلقوا مصطلح اللغات Levant على الدول المطلة على الحوض الشرق للبحر المتوسط والمناطق الساحلية فيها بصفه خاصه ، وهى سواحل مصر ، وبلاد الشام ، وتركيا ، واليونان .

وكد برهن فيها على مقدرة قتالية ممتازة ، وأنه يضارع أرق الجيوش الأوروبية في ميادين القتال .

أربعة عوامل خارجية شددت السلطان إلى تطوير الفياق الإنكشارية أو إلغائها :

ومما جعل السلطان محمود الثاني يزداد تشبهاً برأيه وهو ضرورة تطوير فرق الجيش ، ومن بينها الفياق الإنكشارية ، أنه كان يشعر بأنه محوط بالوهابيين أو السلفيين (١) في شبه الجزيرة العربية ، وبالوثار اليونانيين في المورة ومياه بحر الأرخبيل ، وكانت لا تغيب عن ذهنه العداوة التقليدية والمزمنة بين الدولة العثمانية والروسيا . وقد شهد مطلع حكمه استئناف الحرب ضد روسيا التي أوقعت هزائم بالجيش العثماني بقيادة يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم (٢) . واستولى الروس على عدد من الأقاليم العثمانية في أوروبا . وانتهت الحرب بمعاهدة محارست في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨١٢ ، وبمقتضاها اختصت روسيا لنفسها بلقلم بسارابيا . يضاف إلى هذه العوامل الخارجية أن السلطان كان يتوجس خيفة من محمد علي

(١) كان الوهابيون يطلقون على أنفسهم أول الأمر « الموسدين » أو « المسلمين » ثم أطلقوا على أنفسهم « السلفيين » .

انظر في هذه النراسة ص ٧٩ ، الحاشية رقم ١

(٢) كان يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم هو الذي جاء إلى مصر عن طريق بلاد الشام حل رأس جيش عثماني لتسلم مقاليد الحكم في أثناء مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والإنجليز والتمانيين . واستولى ضياء باشا على العريش في اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٧٩٩ ولما تقدمت معاهدة العريش في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٨٠٠ تقدم ضياء باشا بجنوده لتنفيذ المعاهدة فدخل بدون قتال قطية ، والصالحة ، وبلبيس ، والسويس والمنصورة ، وعزبة البرج ، ودمياط ، واستقر في بلبيس . فلما نقضت معاهدة العريش اشعلت الحرب بين الفرنسيين والتمانيين . ودارت معركة حين شمس في اليوم العشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٨٠٠ ولحق على يد الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية وقتذاك هزيمة منكرة انسحب الصدر الأعظم بعدها إلى بلبيس ثم تهاجر إلى الصالحة ، ثم ارتد إلى حدود فلسطين . ثم عاد إلى مصر في شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٠١ حل رأس جيش يتكون من عشرين ألف مقاتل للإسهام مع القوات البريطانية في إخراج الفرنسيين من مصر .

باشا والى مصر ، إذ كان يعتقد أن هذا الباشا لن يقنع بمركزه كوال من الولاة العاديين في الدولة ، بل يبغى الاستقلال بحكم مصر . ويلاحظ أن محمد علي كان قد تسرع فأعرب في وقت مبكر جداً يرجع إلى شهر سبتمبر أيلول - عام ١٨٠٧ - أى بعد تعيينه والياً على مصر بعامين وبعض عام - عن رغبته في أن يحكم مصر وراثياً في أسرته متمتعاً بالاستقلال الذاتي في نطاق الدولة العثمانية ، على غرار الأمرة الحسينية التي حكمت تونس وراثياً منذ عام ١٧٠١ ، وعلى غرار أسرة القرماني التي حكمت طرابلس الغرب وراثياً منذ عام ١٧١١ (١) . ومن المحتمل جداً - إن لم يكن من المؤكد - أن

(١) كشف محمد علي عن مشروعه في أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين المتوابعين الإنجليز بجلاء الحملة البريطانية التي جاءت بقيادة الجنرال فريزر Mackenzie Fraser إلى مصر واحتلت نهر الإسكندرية في النصف الثاني من شهر مارس - آذار - عام ١٨٠٧ . وعلى أثر الهزيمة التي لحقت لقيمتها الحملة في رشيد وفي الحماة ، ولأسباب أخرى، رأت الحكومة البريطانية الجلاء عن الإسكندرية . ودارت المفاوضات لتنظيم عمليات الجلاء وتوقيتها وتبادل الأجرى وما إلى ذلك من مسائل . وكانت المفاوضات ذات طابعين : طابع عسكري خاص بالجلاء ، وطابع سياسي يتعلق بمشروع محمد علي في تحقيق الاستقلال الذاتي ، أى حكم مصر وراثياً في أسرته ، ويستقل عن الدولة العثمانية في شئون الحكم الداخلية ، ولا يربطه بالدولة سوى السيادة الاسمية التي يرمز إليها بجزية سنوية يدفعها محمد علي للسلطان في مواعيد منتظمة وبصفة رتيبة على أن تحدد قيمة هذه الجزية ، وبعض مسائل أخرى يتفق عليها فيما بعد . وطلب محمد علي أن تترك الحكومة البريطانية مساجها المحمدية لدى حوائر الباب الملك لتحقيق هذا المشروع في مقابل عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا ومصر تنص على تمهيد محمد علي برعاية المصالح التجارية البريطانية في مصر ، وتسهيل المواصلات البريطانية عبر الأراضي المصرية إلى الهند ، وتزويد القوات البريطانية في مالطة وسائر القواعد العسكرية التي كانت تحت سيطرة بريطانيا في ذلك الوقت بالمواد التموينية وماء الشرب ، وأن تبادر الحكومة البريطانية إلى وقف أى محاولة قد يقوم بها الباب العالي لنقل محمد علي من مصر إلى ولاية أخرى ، كما حدث عند ما أصدر السلطان فرماناً بنقله والياً على سالونيك وتعيين موسى باشا والياً على مصر ، وقرن السلطان هذا فرمان بإرسال أسطول بقيادة صالح باشا قيودان وصل إلى الإسكندرية في أول يوليو - تموز - عام ١٨٠٦ . وطلب محمد علي أيضاً أن تستخدم بريطانيا قواتها البحرية في الدفاع عن الإسكندرية إذا حاول العثمانيون أو الفرنسيون أو جيش أى دولة أخرى مهاجمة الإسكندرية أو غيرها من ثغور سواحل مصر . ومن المعروف أن محمد علي لم يكن قد ولد بعد علاقاته مع فرنسا . وبعبارة أخرى أراد محمد علي من معاهدة التحالف مع بريطانيا أن يؤمن مركزه في مصر ضد العثمانيين والفرنسيين والماليك . وكان الأخيرون حلفاء الإنجليز . ولم يجد مشروع محمد علي هذا ذاتاً صاغية من الإنجليز . وعقدت معاهدة الجلاء عن الإسكندرية في الرابع =

الإنجييز نقلوا تفاصيل هذا المشروع إلى دوائر الباب العالي وعلم به السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش بعد شهر معدودة من تلك المفاوضات ، واستطال حكمه اثنان وثلاثين عاماً . ومن هنا كانت توجد أزمة عدم ثقة بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي في معظم سنوات حكم هذا السلطان . وكانت سياسته تقوم على اتخاذ الأخطار والمتاعب التي واجهها وسيلة لتحقيق هدفين : أولهما الاستعانة بمحمد علي للقضاء على الحركة الوهابية والإخماد الثورة اليونانية . ثم طلب منه الاشتراك مع جيوش الدولة في حربها ضد روسيا عام ١٨٢٨ ، ولكنه رفض معتذراً ببعيد المسافة بطريق البر وبعيد وجود سفن تنقل الجنود بطريق البحر ، وبتفشي وباء الكوليرا في مصر والشام وبانتشاره بين جنود الجيش المصري (١) . وكان ثاني الهدفين لإضعاف محمد علي عسكرياً ومالياً واقتصادياً بسبب إسهامه في حروب الدولة . وقد تكبدت مصر فيها خسائر فادحة في الأنفس والأموال والسفن والأسلحة وما إليها (٢) . وقد صدقت نبوءة السلطان ، فلم تكدر سنوات ذات عدد

- عثر من تهر سبتمبر - أيلول - عام ١٨٠٧ . وكانت مقصورة على المسائل العسكرية المتصلة بجلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية . ولم يتعرض من قريب أو من بعيد للمشروع السياسي الذي عرضه محمد علي .

للاستزادة من المعلومات عن الجانب السياسي للمفاوضات انظر :

Douin George; Mohamed Aly, Pacha du Caire. (1805-1807). Le Caire, 1926.

الوثيقة رقم ١٥٩

ومن الجانب العسكري للمفاوضات انظر :

Douin George et Fawtier-Jones E. C. ; L'Angleterre et L'Egypte etc., op. cit.,

الوثيقة رقم ١٢٠ وما بعدها

- (١) أودى وباء الكوليرا بحياة خمسة آلاف جندي . ومات به من المدبئين نحو ١٥٠ ألف نسمة . واستطال فكه أربعة وثلاثين يوماً في عام ١٨٣١ .
 - (٢) كانت الحرب الوهابية أشد الحروب التي شاخت مصر نحواها ، وأطولها مدي ، ومن أكثرها ضحايا ومتاعب . جردت مصر خلالها حملات عديدة متعاقبة على امتداد سنوات متوالية . ولقى فيها الجنود التذائد من وهرة الطرق وشدة القَيْظ وقلة المؤونة وندرت المياه وفي محاربة العدو مستعمل بلذ النفس والتفيس دفاعاً عن وطنه وملعبه .
- أما القوات التي يمت بها مصر لإخماد الثورة اليونانية فقد بلغ تعداد أفرادها اثنين وأربعين ألف جندي عسرت منهم ثلاثين ألفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥,٠٠٠ جنيه ، وفقدت أسطولها في معركة ناقرين البحرية

على اشتراك مصر في إخماد الثورة اليونانية حتى نشبت بين السلطان ومحمد علي حرب الشام الأولى عام ١٨٣١ وتلها حرب الشام الثانية سنة ١٨٣٩ .

اجتماع موسع لمناقشة مشكلة الإنكشارية :

بعد أن استردت القوات المصرية - باسم السلطان العثماني - مدينة مسولنجي من الثوار اليونانيين في اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٨٢٦ ، كما سبق أن ذكرنا ، رأى السلطان محمود أن يمضي قدماً في إصلاح الجيش . وهو المشروع الذي كان يعلق عليه أعذب الآمال منذ الأسابيع الأولى التي تولى فيها العرش عام ١٨٠٨ . وقد صبر على الإنكشارية وصابراً ممدداً طويلاً لعلهم يغيرون موقفهم المعارض لتطوير الفيلاني الإنكشارية . وقد استطال عداؤهم لهذا التطوير زهاء ثمانية عشر عاماً منذ أن تولى العرش . وتمشياً مع خطته تجاه الإنكشارية بالذات قرر أن يمنحهم فرصة سلمية أخيرة ، فيحاول تطويعهم بالحسنى على غرار ما فعل في مسهل حكمه في مطلع شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٨٠٨ ، فإذا رفضوا ، لجأ إلى مواجهة عسكرية بخوضها ضدهم بعد أن يعد عدته من النواحي العسكرية والدينية والشعبية لمثل هذه المواجهة حتى يستأصل هذه الطائفة الباغية ، ويبقى الجيش والمجتمع شروها .

طلب السلطان من محمد مظهر باشا الصدر الأعظم أن يدعو إلى اجتماع موسع يعقد في دار شيخ الإسلام في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ ويحضره قادة أسلحة الجيش بما فيهم كبار ضباط الفيلاني الإنكشارية ورجال الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، وكبار الموظفين والأعيان . وتحدث في هذا الاجتماع الصدر الأعظم موضعاً ما وصل إليه الإنكشارية من تدهور وعدم انقياد للرؤساء وتعدد حوادث تمردهم وعصيانهم وتدخلهم في المسائل السياسية متجاوزين حدود اختصاصاتهم

= أنظر :

عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ ، و ص ١٨٦

(م - ٣٥ الدولة العثمانية)

وزوعهم إلى سلب ونهب المدنيين . ومضى محمد مظهر باشا يعدد في استفاضة آثامهم التي ذأبوا على ارتكابها في وضع النهار وظلمة الليل حتى أصبح الإنكشارية من أكبر أسباب اضمحلال الدولة وضعف مركزها العسكري أمام تقدم الدول الأوروبية المطرد في المحاللات الحربية . وخلص الصدر الأعظم من حديثه الضامى إلى ضرورة الأخذ بالنظم العسكرية الحديثة في الفياق الإنكشارية ، إذ لا يمكنها محالها في ذلك الوقت الوقوف أمام الجيوش الأوروبية الحديثة التنظيم والتسليح والتدريب . وقد لقيت هذه الآراء والتوجهات التي جاءت على لسان الصدر الأعظم موافقة فورية وجماعية من الحاضرين . وعندئذ قرأ المکتوبىجى - وكان يقوم بعمل كاتم السرى في هذا الاجتماع - مشروعاً بإعادة تنظيم القوات الإنكشارية . وكان هذا المشروع يتكون من ست وأربعين مادة تناولت جميع التعديلات المراد إدخالها على نظام الفياق الإنكشارية . وتحررت مضبطة لهذا الاجتماع وقع عليها جميع الحاضرين بما فهم ضباط الإنكشارية . وكانت هذه المضبطة تشمل أيضاً التعديلات التي اقترحها الصدر الأعظم فيما يختص بالنظام المطور للفياق الإنكشارية . ثم قرئ المشروع مرة ثانية على ضباط الإنكشارية فأقروه . وأصدر شيخ الإسلام فتوى بوجوب تنفيذ التعديلات الجديدة ومعاقبة كل شخص تسول له نفسه الاعتراض عليها (١) . ويلاحظ أن اختيار السلطان محمود الثانى دار شيخ الإسلام مكاناً لعقد هذا المجلس الموسع كان اختياراً هادفاً انبثق عن رغبته في إضفاء الشرعية الدينية الإسلامية على القرارات التي يتخذها المجلس في دار شيخ الإسلام وفي حضوره وبموافقته مما يجعل الجماهير تقبل قرارات المجتمعين دون مناقشة وأن تؤيدها قلباً وقالباً .

مؤلف الإنكشارية من الخط الشريف كان البداية السريعة لنهايتهم :
وفي اليوم التالى لهذا الاجتماع الموسع - أى في الثامن والعشرين من

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ (١) أصدر السلطان محمود الثاني في ضوء القرارات التي صدرت عن ذلك الاجتماع الموسع - ما عرف باسم خطى شريف - ويقضى بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوروبية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب . واشتمل هذا الخط الشريف على الست وأربعين مادة التي أقرها الاجتماع الموسع . ولنا عدة ملاحظات على هذا الخط الشريف فيما يتصل بالإنكشارية كمركز قوة خطير في الدولة :

أولاً : لم يعمد السلطان محمود إلى إلغاء الفيلق الإنكشارية ، بل أبقى عليها وقرر أن تقدم كل كتيبة مرابطة في إستانبول مائة وخمسين جندياً لإلحاقهم بالفرق الجديدة . ولعله استهدف من إدراج هذا النص في « الخط الشريف » استمالة الإنكشارية حين يدركون أن السلطان قد أبقى على طائفتهم كعسكريين . وأنهم لن يصبحوا مبدئياً بعيدين عن هذه القوات بل سيزودونها بوحدها الأولى .

ثانياً : أنه قرر في ذات الخط الشريف أن الدولة لن تستخدم ضباطاً أو خبراء مسيحيين في تنظيم وتدريب الفرق الجديدة . وقد أراد السلطان أن يقطع الطريق عليهم فلا يعمدون إلى الإثارة الدينية سواء في محيطهم أو محيط علماء الدين أو الجماهير المسلمة .

ثالثاً : تجنب السلطان ذكر « النظام الجديد » في « الخط الشريف » ، لأن هذا النظام يقترن في الأذهان باسم السلطان سليم الثالث ، وعلى التقيض صور الفرق الجديدة على أنها بعث للنظام العسكري الصارم الذي أرسى قواعده السلطان سليمان المشرع . وهو النظام الذي نظر إليه دعاة الإصلاح في الدولة منذ أن قدم كوتشى بك (٢) Khodji-Bey رسالته الشهيرة على أنه

(١) تذكر بعض المراجع أن السلطان أصدر الخط الشريف في ذات اليوم الذي عقد فيه الاجتماع الموسع برئاسة محمد منظر باشا الصدر الأعظم ، أي في اليوم السابع والعشرين من شهر مايو آيار - عام ١٨٢٦ . وهذه نقطة شكلية لا تقدم ولا تؤخر في جوهر المسألة .

(٢) كان كوتشى بك من سوايلد ألبانيا أو مقدونيا . وجاء إلى إستانبول ضمن الحصيلة الأكاديمية لخدمة الثعلبان . وأظهر منذ حداثة سته مواهب عقلية ، فاعتارت له الدولة الدراسات العلمية ، مبادئاً لتحصينه اللغوي بعمداً من التعليم العسكري . ووقع عليه الاختيار ليعمل في القصر السلطاني وظفر بتقدير حميق من السلطان مراد الرابع وجعله مستشاره الخاص . وقد عهد إليه =

النظام الأمثل والدواء الشافي من جميع العلل التي تضافرت على إضعاف الدولة ،
والوسيلة العملية لاستعادة عصرها الذهبي . فلما أصدر السلطان محمود الثاني
« الخط الشريف » لقي تأييداً واسعاً على المستوى الرسمي والديني والشعبي .

آخر تمرد عسكري في تاريخ الدولة الخامسة لبلاتق إنكشارية في إستانبول :
وعلى الرغم من أن ضباط الإنكشارية قد أقرروا المشروع الذي عرضه
عليهم الصدر الأعظم محمد مظفر باشا في اجتماع اليوم السابع والعشرين من
شهر مايو - آيار - عام ١٨٢٦ ، اتضح أنهم يقولون بأنسنتهم ما ليس في
قلوبهم ، وأنهم قوم مردوا على العصيان والعناد والسلب . ففي اليوم الخامس
عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ - بعد مضي عشرة أيام على
الحفل الرسمي الذي أقيم بمناسبة بلده تكوين الفرق الجديدة في الجيش - تعرض

بوضع مذكرة يستعرض فيها أسباب اضمحلال الدولة في ذلك الوقت والوسائل التي يرى أنها كفيلة
بإلحائها . وقد أتم كوتشي بك وضع المذكرة وقدمها للسلطان عام ١٦٣٠ ، ويطلق عليها في
تاريخ الدولة العثمانية « رسالة » . ويقصد بها رسالة كوتشي بك . والمراد لفظه مأخوذة من اللغة
الغربية بنفس المعنى . وهي عبارة عن بحث أو تقرير ضاف يتكون من سبعة عشر فصلاً . ومن
الملاحظات التي تشد انتباه الباحث أن كوتشي بك أمهل كل فصل من فصول الرسالة ببارات
موجزة واختتمها ببارات موجزة امتنع فيها السلطان مراد الرابع وأضيق عليه الكثير من صفات
الذكاء والعظمة والمقدرة .

وكانت هذه الرسالة موضع التقدير العميق من رجالات الدولة وفي الأوساط الأوروبية .
كما أصبحت مصدرأ تاريخياً استقى منه مؤرخو الدولة العثمانية مادتهم العلمية في الكتابة عن أسباب
اضمحلال الدولة . كما جعلت هامر يطلق على مؤلفها العثماني اسم أحد أعلام الفكر الفرنسي قبل
الثورة الفرنسية وهو مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) صاحب كتاب
« روح القوانين L'Esprit des Lois » فقال إن كوتشي بك هو « مونتسكيو العثماني »
Le Montesquieu Ottoman . وقد ذكر الأستاذ برنارد لويس هذا التشبيه
« مونتسكيو التركي » The Turkish Montesquieu وهي تسمية تنطوي على خطأ ،
لأن كلمات تركي ، وأترك ، وتركي ، لها مدلولات أخرى قبل القرن العشرين ، كما سبق
أن ذكرنا في الفصل الأول .

انظر كلام من :

Lavisse et Rambaud; op. cit., Tome v, p. 880—881.

Lewis B., The Emergence etc., op. cit., p. 22 N. 3 and pp. 78 — 79.

ويلاحظ أن اسم كوتشي بك يرد في المراجع الأوروبية مكتوباً في صيغ شتى مثل :

khoudj, khodjia, Koçu—Bey,

الإنكشارية للجنود وقت التدريب ، وأوسعهم ضرباً . واستقر رأيهم على القيام بحركة تمرد . وكانت لآزال عالقة في أذهانهم حركات التمرد التي قاموا بها من قبل احتجاجاً على مشروع تطوير الجيش ونجاحهم في تحقيق مآربهم . وجرياً على عادتهم اجتمعت خمسة فيالق إنكشارية في ميدان الخليل ووضع أفرادها الفزانات أمامهم وهي مقلوبة ، وانطلقوا في شوارع إستانبول يشعلون النار في مبانيها ، ويهاجمون المنازل ، ويحطمون المحلات التجارية ، ويسلبون البضائع . وكانت حركة العصيان هذه هي آخر حركة تمرد يقوم بها الإنكشارية في تاريخ الدولة في إستانبول . وكان السلطان أكثر استعداداً لمواجهةها . وكانت الجماهير أكثر ميلاً للإسهام في مقاومة الإنكشارية بعد أن لاقوا من جبروتهم وطغيانهم ما لم يكونوا يطيقون .

الطوبجية والدمجية في مواجهة عسكرية ضد الفيالق الإنكشارية :

كان السلطان محمود الثاني يقيم يومئذ في قصره القائم في بشيكطاش (١) ، فأسرع بالانتقال في قارب إلى القصر السلطاني في إستانبول . وأمر بادئ ذي بدء بقتل كل إنكشاري يتعرض بسوء إلى الجنود أو يعيث بالنظام العام . واستدعى السلطان إليه شيخ الإسلام والمفتين ومن إليهم من أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة والذين كانوا وقتذاك في العاصمة . وشرح لهم موقف الإنكشارية فاستهجنوا تصرفاتهم وأشاروا عليه بمقاومتهم ، فاستصبر من

(١) بشيكطاش ضاحية إستانبول على بعد ميلين ونصف الميل من جسر جلاطة على الساحل الأوروبي لبوسفور . وكان البيزنطيون يطلقون على هذه الضاحية اسم ديوكليونون *Diplokionion* نسبة إلى هودين أقامها هناك رومانوس الأكبر . ومن هذا الموضع استطاع السلطان محمد الثاني عند شروعه في فتح القسطنطينية أن ينقل سفنه فوق تلال *Pera* إلى القرن الذي الذي سد منخله من ناحية البوسفور بسلسلة حديدية . وكانت هذه الضاحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر تزخر بمد من القصور البديعة التي كان يصطاف فيها السلاطين . وفي الوقت الحاضر تحيط به سلسلة الضاحية مجموعة من القصور الرائعة مثل شوله بانجبة ، وقصر *بادز* . ومن الأماكن السياحية ذات الأهمية التاريخية في هذه الضاحية قبر غير الدين *يريروسة* أمير البحر العثماني المتوفى عام ١٥٤٦ . وكانت بشيكطاش عبارة عن الدائرة السادسة لبلدية إستانبول .
انظر :

شيخ الإسلام فتوى بوجوب إبادة هذه الفئة الطاغية والضالّة ، وأمر السلطان باستدعاء عدة فرق عسكرية كان من بينها : آلاى طوبجية وهى فرقة من سلاح المدفعية كان قد أعاد تنظيمها وتدريبها عقب اعتلائه العرش . وكون أفراد هذه الفرقة مع أوجاق اللغمجية - أى الذين يثون الألغام (١) - فيلقاً ، وكون حملة البنادق ورجال البحرية فيلقاً آخر . ودعا السلطان أفراد الشعب إلى قتال الإنكشارية . وقد صحت حزيمة السلطان فى هذه المرة على إبادة الإنكشارية ووضع نهاية لشرورهم واسترسالهم فى حركات التردد والطفليان .

الواقعة الخيرية :

وفى صباح اليوم السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ أخرج السلطان اليرق النبوى - العلم النبوى الشريف - واتجه مع القوات العسكرية ومع المدنيين المسلمين إلى آت ميدانى - ميدان الخليل - وكانت تطل عليه ثكنات الإنكشارية . وكانت قد احتشدت فى هذا الميدان خمسة فيالق من الإنكشارية ، وكانت القرائنات - قلوب الطعام - أمامهم وهى مقلوبة رمزاً لاستمرار حركة العصيان العسكرى . وكانوا فى هرج ومرج شديدين وأقاموا المتاريس أمام البوابة الكبرى لثكناتهم . ولم يمض قليل من الوقت حتى أحاط رجال المدفعية بالميدان ، واحتلوا جميع المرتفعات المشرفة عليه . وسلطوا مدافعهم على الإنكشارية من جميع الجهات . وهجم الإنكشارية على مواقع المدافع ينفون الاستيلاء عليها ، فحصدتهم المدفعية ونالت منهم منالاً كبيراً . وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على مقاومة المدفعية ، والتجأوا إلى ثكناتهم طلباً للنجاة . وقُتل تخطيطهم . إذ سلطت المدافع قذائفها على الثكنات وهدمتها واشتعلت فيها النيران حتى دمرتها على رعوس البقية الباقية

(١) لعم كلمة تركية بمعنى نفق تحت الأرض . وكان شأن أوجاق القنسية شأن أوجاق القمبرجية - أى قاذف القنابل - من حيث أن أفراد هاتين الأوجاقين لم يكونوا يتسلمون مرتبات من خزنة الحكومة ، بل يتحرون إقامات عسكرية من الأراضى .

انظر :

منهم وتولى الجنود النظاميون إلقاء جثث الإنكشارية في البحر . ويقدر عدد قتلاهم في ذلك اليوم بستة آلاف إنكشارى ، ولو أن البعض يقفز بعدد القتل إلى أضعاف هذا العدد(١) . وعلى هذا النحو انتهت في السادس عشر من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨٢٦ حركة العصيان والتمرد التي قام بها الإنكشارية بإبادة معظمهم . ويسمى العثمانيون قتل الإنكشارية في هذا اليوم « وقعة خيرية » أى الواقعة الخيرية لأنهم تقاءوا بها خيراً (٢) .

إلغاء نظام الإنكشارية :

واستجيب لإبادة الإنكشارية في الواقعة الخيرية اتخاذ عدة قرارات لاحقة وعاجلة لتأمين المجتمع . فأصدر السلطان في اليوم التالي - السابع عشر من شهر يونيو - حزيران - فرماناً بإلغاء الفيلق الإنكشارية إلغاء كلياً بحيث يشمل الإلغاء تنظيماتهم العسكرية وأسماء الفيلق الإنكشارية وشاراتها وأعلامها ومصطلحاتها العسكرية في جميع أنحاء الدولة . ونودى بهذا القرار في شوارع إسطنبول . وفي ذات الوقت صدرت الأوامر إلى حكام جميع ولايات الدولة بتعقب كل من بقى من الإنكشارية على قيد الحياة وإعدامه أو نفيه خارج البلاد حتى لا تبقى منهم بقية في نطاق الدولة ، ولا تقوم لهم قائمة

وفي ذات اليوم أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بإنشاء جيش جديد وفق النظم الأوروبية الحديثة ، وأطلق عليه « عساكرى منصورى محمدى » أى العساكر المنصورة المحمدية . وهو تعبير ذو طابع دينى إسلامى لا يفوتنا أن نسجله في هذه الدراسة استهداف منه السلطان قطع الطريق أمام أى هيئة أو طائفة تحاول الإثارة الدينية بين الجماهير نتيجة إبادة الفيلق الإنكشارية ، وقد أراد السلطان أيضاً من هذه التسمية تسجيل الآمال التي تعلقها الدولة

(١) دكتور جلال يحيى : المخلل إلى تاريخ العالم الشيخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ .

(٢) Lewis B. ; The Emergence etc. ; op. cit., p. 79.

وانظر أيضاً :

ساطع الحصرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨١ ، ويقول هذا المؤلف إن التعبير العثماني « وقعة خيرية » ينك بالمسبب الأجنبي عل تاريخ الواقعة بالسنة المحمدية .

والجواهر على المقدرة القتالية للجيش الجديد في تحقيق انتصارات عسكرية باهرة لا تقبل في روعها عن انتصارات الإنكشارية في عهدهم الأول .

وبإلغاء الفياقق الإنكشارية ألغى السلطان محمود الثاني منصب يبي شرية أغاسي - أي رئيس الإنكشارية - واستبدل منصباً جديداً بالمنصب القديم وأطلق على شاغله سر عسكر ، وهو مصطلح تاريخي عثماني استخدم في العهود السابقة وكان يمنح لقادة الجيش ، ومعناه رئيس العسكر أو القائد العام (١) . ولكن أدخل السلطان محمود تعديلات شتى على اختصاصات شاغل هذا المنصب ، فأصبح يجمع في يديه اختصاصات وزير الحربية واختصاصات القائد العام للجيش ، وأضاف إليه اختصاصاً ثالثاً هو مسئولية المحافظة على الأمن العام وواجبات الشرطة في العاصمة (٢) . وقد عين في منصب سر عسكر حسين باشا أغا وهو أحد كبار ضباط الفياقق الإنكشارية ، وكان قد انقلب عليهم من قبل احتجاجاً على تصرفاتهم وانضم إلى السلطان . وكانت له اليد الطولى في واقعة ١٦ من يونيو - حزيران - ولم يمضِ عام ١٨٢٦ حتى تم تدريب وتسليح عشرين ألف جندي كمرحلة أولى ، على أن تكون حصيلة المرحلة الثانية في نهاية العام التالي ١٨٢٧ عشرين ألف جندي نظامي (٣) .

حل الطريقة البكتاشية دعامة الإنكشارية :

لم يكفد يمر شهر واحد على إلغاء الفياقق الإنكشارية حتى أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بحل الطريقة الصوفية البكتاشية وهدم تكاياها التي كانت قائمة في إستانبول وما جاورها ، وإغلاق بقية تكاياها التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في أنحاء البلاد ، وهدم دفع أي إعانات لها (٤) . واستند السلطان

(١) يرد كثيراً ذكر هذا المصطلح في كتاب الجبرقي ابتداء من الجزء الثالث عند كلامه عن المنشورات التي كانت تصدر عن قيادة الجيش الفرنسي إبان الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-

١٨٠١ .

(٢) Lewis B.; The Emergence etc., op. cit.; p. 80.

(٣) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٤) Lamouche (Colonel); Histoire de la Turquie. Paris, 1953, pp. 250-252.

في قراره إلى أن أتباع هذه الطريقة أخذوا يشرون القلاقل ويحرضون الجماهير على القيام في وجه الحكومة احتجاجاً على قتل الإنكشارية في واقعة ١٦ من شهر يونيو - حزيران - عام ١٨١٦ . وقد سبق أن تكلمنا في الفصل السابق عن العلاقات الوثيقة التي كانت تربط الإنكشارية بأتباع الطريقة البكتاشية .

ولكي يرضى السلطان محمود الثاني الشرعية الدينية على قراره بحل الطريقة البكتاشية استصدر فتوى من شيخ الإسلام بأن البكتاشية خارجون على القانون ، وأنه لا تريب على ولي الأمر إذا اتخذ لإجراءات أمن كمي يمنع شروهم عن المسلمين . واستناداً إلى هذه الفتوى بشقيها أمر السلطان بأن يعدم علناً ثلاثة من كبار البكتاشية ، وأن ينفي الباقون ، وأن يشتت شمل أتباع الطريقة بترحيلهم إلى أطراف الدولة متفرقين متعاً لأي تجمعات يقومون بها في إسطنبول (١) . وكان تصرف السلطان في هذا الصدد نابغاً من حرصه الشديد على تفادي أي نتائج ضارة قد تحدث بعد إلغاء الفيالق الإنكشارية .

ويبدو من ملاحظات هذه الفترة العصبية - شهري يونيو ويوليو - حزيران وتموز - عام ١٨٢٦ أن حل الطريقة البكتاشية كان إجراءً مكلاً لإلغاء الفيالق الإنكشارية ، وأن هذا الإجراء كان أمراً لا مندوحة عنه *Sine qua non* في خلال هذه الأزمة ، لأن الطريقة البكتاشية لم تلبث أن عادت بعد ذلك إلى الازدهار وريداً وريداً ، ولو أنها لم تستعد قط ما كان لها من مركز مرموق في تاريخ المجتمع العثماني (٢) .

(١) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٦ .

Lewis B.; The Emergence etc, op. cit., p. 79.

(٢) وجدت في شمال الأناضول تكية هيان جيك ، فضلاً عن التكية الأصلية المبنية في هذه المنطقة . ووجدت في غرب الأناضول تكية أخرى في مدينة إسكي شهر . وهما من التكايا البكتاشية الهامة . وهناك تكية تالفة أقيمت على سفح جبل المقطم بالقاهرة ، وتوجد أعداد كبيرة نسبياً من البكتاشية إلى الوقت الحاضر في المجتمعات الإسلامية في شبه جزيرة البلقان ، وبخاصة في ألبانيا حيث توجد تكية البكتاشية الكبرى في تيرانا عاصمة الإقليم . وجاء في بعض الوثائق أنه كان لا يزال في جمهورية تركيا إلى عام ١٩٥٢ ثلاثون ألف بكتاشي .
انظر :

Tschudi; Encycl. of Islam. Art. Bektash.

ويلاحظ أن الأوضاع للدينة سواء بالنسبة للإسلام أو المسيحية لم تغيرت كثيراً جدياً في البانيا منذ أن تولد الحكم الشيوعي فيها منذ الستينات في القرن العشرين .

ولكن يؤخذ على السلطان محمود الثاني أنه أسرف في الاقتصاد من البكتاشية . كان يدخل في زمرتهم كل شخص كان متصلاً بهم أو متعاطفاً معهم على أي نحو من الأنحاء . ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد عطاالله محمد ويشهر باسم ساني زاد (١٧٦٩-١٨٢٦) . كان أحد أعلام الفكر العثماني في القرن التاسع عشر . كان ذا عقلية موسوعية وتعلم عدة لغات أوروبية . ودرس الطب ، وعينه السلطان سنة ١٨١٩ مدوناً للتاريخ العثماني . وعكف على ترجمة بعض المراجع الطبية إلى اللغة التركية ووضع بحثاً في علوم وظائف الأعضاء ، والتشريح ، والتطعيم . وأدخل في اللغة التركية لأول مرة مصطلحات لغوية في علوم الطب . وقد أخذ عليه السلطان أنه على صلوات بأتباع الطريقة البكتاشية ، فأمر بعزله ونفيه . ولم يشفع له الإجراء العلمي الطبي الذي حفلت به حياة هذا العالم مع أنه لم يكن رجعيًا . وقد جاز إلى ربه في ذات السنة التي شهدت نفيه من إستانبول إلى أحد الأطراف النائية على حدود الدولة (١) .

ويعد أن نجاح السلطان محمود الثاني في استئصال شأفة الإنكشارية مضى يستكمل إصلاح الجيش وأصدر تباعاً عدة قوانين عسكرية تخرج عن نطاق هذه الدراسة . وحسبنا أن نذكر أن هذا السلطان تطلع إلى محمد علي باشا وإلى مصر ليساعده في تدريب الجيش الجديد . فطلب منه في ذات السنة (١٨٢٦) أن يمدّه بانئى عشر خبيراً من الخبراء العسكريين لتدريب الجيش العثماني . واعتذر محمد علي عن عدم إرسال الخبراء بأعداد مخادعة (٢) . وولى السلطان وجهه شطر أوروبا كما فعل محمد علي من قبل . وترددت فرنسا وبريطانيا ، بينما لقي استجابة من روسيا والنمسا . فجاءه من روسيا في أواخر عام ١٨٣٥ في زيارة خاصة الضابط البروسى ذو الشهرة العالمية فون مولتكه (٣)

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., pp. 85-86. (١)

Lewis B.; The Emergence etc., op. cit., p. 81. (٢)

(٣) كان مولتكه أحد أربعة حاملة قامة على أكتافهم الإمبراطورية الألمانية الحديثة في مطلع عام ١٨٧١ (غليوم الأول ، ويسارك ، وفون رون Von Roon وزير الحرب وفون مولتكه) . وقد ولد عام ١٨٠٠ وعين ضابطاً بالجيش البروسى ، ثم سافر إلى إستانبول وظفر بتقدير عميق من السلطان محمود الثاني ، وخدم في الجيش العثماني . وحضر موقعة نصيبين =

Helmuth von Moltke وقد عينه السلطان مستشاراً لشئون تدريب الجيش ، ثم جاء في أثره خمسة ضباط بروسين آخرين . وكان استخدام الضباط الألمان في الجيش العثماني خطوة هامة على أول الطريق الذي أدى فيما بعد إلى نمو النفوذ البروسي (الألماني) في الجيش العثماني نمواً عظيماً (١) ، وباكورة أولى معالم سياسة التقارب التي انتهجتها ألمانيا فيما بعد نحو الدولة العثمانية . وهي السياسة المعروفة باسم Drang Nach Osten أى الاتجاه نحو الشرق .

تقدير عام محمود الثاني لإلغاءه الفياقق الإنكشارية :

هناك شبه إجماع من المؤرخين والباحثين على الإشادة بالسلطان محمود الثاني لتناحجه في إلغاء الفياقق الإنكشارية وتخليص الحكومة المركزية والمجتمع العثماني من شرورهم . ويصفه البعض بالخزم والشجاعة ورجاحة الفكر والحصافة . وقالوا إنه اكتسب معظم هذه الخصال من احتكاكه بالأوروبيين (٢) . ويعلق أحدهم على نجاح السلطان في القضاء على الإنكشارية بقوله إنه لو لم

-
- ويسمى المؤرخون الفريون نزيب (Nezib) (٢٤ من يونيو - حزيران - ١٨٣٩) . وقد مَنّى فيها الجيش العثماني هزيمة ساحقة على يد الجيش المصري . وكان مولتكه في هيئة أركان الحرب بالجيش العثماني . ويقال إنه ولي الأديار مع سائر الضباط العثمانيين دون أن يتسكن من أخذ ملايمه وأوراقه الخاصة . وعاد إلى بروسيا وتخرج في الوظائف العسكرية إلى أن عين رئيساً لأركان الحرب بالجيش البروسي ، وحصل على رتبة مشير Field Marshal وبفضل جهوده غداً الجيش أقوى جيش في أوروبا . وكانت له اليد الطولى في انتصار بروسيا على النمسا في معركة سادوا وهي التي يسميها المؤرخون الألمان كونيجراتز (Koniggratz) (٣ من يوليو - تموز - ١٨٦٦) ، وحل فرنسا في موقعة سيدان (Sedan) (٢ من سبتمبر - أيلول - ١٨٧٠) . وأقيم له تمثالان في حياته . وأمتهرك الخليفة في سنة ١٨٨٨ ، وتوفى عام ١٨٩١ .

(١) أرسلت الحكومة الألمانية في عام ١٨٨٣ بقعة عسكرية إلى الأستانة لتتولى تنظيم الجيش العثماني وفق الأساليب الحديثة . وكانت هذه البعثة برئاسة الكولونيل فون درجولتس .

(٢) قيل إن والدة السلطان محمود الثاني كانت فرنسية . وهذه رواية ضعيفة ، يدحضها أنه لم يكن يعرف اللغة الفرنسية على الإطلاق . كما أنه لم يكن يتكلم أي لغة أوروبية . وكان تعليمه عادياً بالنسبة لأحد من أمراء الأسرة الحاكمة . وكانت دراسته مقصورة على الشريعة الإسلامية واللغة التركية وبعض اللغات الشرقية والتاريخ والشعر . ولم تكن له معرفة مباشرة بالدول الغربية على الرغم من أنه كان يقوم بجولات في الولايات الألمانية والأوروبية مستظلاً بأحوالها .

يكن للسلطان « من الأيادى البيضاء على الممالك المحروسة (١) إلا إلغاء طائفة الإنكشارية لكنى ذلك لتخليد اسمه في بطون التاريخ مشكوراً ممدوحاً إلى أبد الأبدن » (٢). ويعلق آخر تعليقاً مترناً فيقول إن نجاح محمود الثاني في القضاء على الإنكشارية « كان كافياً وحده لاعتباره من أعلام الإصلاح في الدولة العثمانية » (٣). وذهب أحد المؤرخين في تمجيد السلطان إلى القول بأنه يشبه بطرس الأكبر قيصر روسيا من حيث الدور الذي قام به كل منهما في دولته ، ومن حيث الإصلاحات التي أدخلها كل منهما في بلاده (٤) .

والحق أن الباحث الحامد لا يستطيع أن يقلل من أهمية وحجم النجاح الذي أصابه السلطان محمود الثاني في إلغاء الفيلق الإنكشارية بعد أن تفاقم طغيانها وجبروتها وغدت مركز قوة خطير في حياة الدولة ، وتوضح قيمة انتصاره على هذه الفئة الباغية إذا وضعنا في اعتبارنا المعوقات العديدة التي فرضت نفسها فرضاً على السلطان . ونشير هنا إلى أهم هذه المعوقات حتى عام ١٨٢٦ وهو تاريخ إلغاء الفيلق الإنكشارية . كان على رأسها الحركة الوهابية أو السلفية في شبه الجزيرة العربية ، واستئناف الحرب الروسية التي انتهت بمعاملة بخارست عام ١٨١٢ ، والثورة التي حمل لواءها على باشا والى يائينا ، والثورة اليونانية وما صحبها من تدخل دولي - حربي وسياسي - لصالح الثوار اليونانيين . وقد استغرقت هذه المعوقات ثمانية عشر عاماً من حكم السلطان . فلما فرغ منها ، أو كاد يفرغ منها ، التفت إلى مشكلة الإنكشارية وهي مشكلة حساسة سبق أن تعرض معظم السلاطين السابقين لحلها على نحو من الأخطاء . ولكن باء جميعهم بالفشل . كانت نهاية بعضهم العزل ، بينما كان مصير البعض الآخر القتل ، واعتصم البعض الثالث بالسلبية حرصاً على أرواحهم ومراكزهم . أما محمود الثاني فقد اتسمت تصرفاته بالخصافة والأناة في المرحلة الأولى ، فلم يتجه إلى إلغاء الفيلق الإنكشارية ،

(١) الممالك المحروسة يقصد بها الممتلكات العثمانية .

(٢) محمد فريد بك ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٢ .

(٣) دكتور السيد رجب حرار ، الدولة العثمانية الخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

(٤) Phillips W.A.; Modern Europe (1815-1899), p. 210. (٤)

بل عمد إلى الإبقاء عليها والعودة بها إلى وضعها الأول في عصرها الذهبي مثلاً أعلى للنظام والطاعة والاستبسال في ساحات القتال . وقد بذل السلطان محمود الثاني في هذا الصدد محاولة سلمية في خلال الشهور الأولى لتولية العرش . ولما لم يجد استجابة من الإنكشارية أعرض ونأى بجانبه عنهم ، ثم بذل محاولة سلمية أخرى بعد ثماني عشرة عاماً لتعديل نظام الفيالق الإنكشارية مع الإبقاء عليها . ولكن أصر الإنكشارية على موقف العناد . وحينئذ عول السلطان على أن يدخل في مواجهة عسكرية استهدف منها إلغاء الفيالق الإنكشارية لإلغاء كلياً بدلاً من تعديل نظامها والإبقاء عليها . وكانت هذه المواجهة تمثل المرحلة الثانية . واتسمت تصرفات السلطان فيها بالتخطيط الدقيق والشجاعة والمقدرة الحربية . وسار على رأس بعض القوات العسكرية وحماتها الشعب واستخدم أسلحة أشد خطراً من تلك التي كانت في أيدي الإنكشارية ففتكت بهم فتكاً ذريعاً وانهارت ثكناتهم فوق رؤوسهم مما كفل له الانتصار الساحق عليهم وألغى بجيشهم في البحر . وقرن إلغاء الفيالق الإنكشارية بحل الطريقة البكتاشية بصفتها دعامة قوية كانت تشد أزر الإنكشارية في الأوساط الجماهيرية وعمل في غير هواده على سد الفراغ الذي تركته الفيالق الإنكشارية ، فأنشأ في ذات السنة (١٨٢٦) فرقة عسكرية جديدة وفق النظام الحديث . وأرسل بعثات عسكرية إلى الكليات الحربية في روسيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا . واستقدم الخبراء العسكريين الأوروبيين لتدريب الفرق العسكرية . وأصبحت هذه الخطوة سياسة عليا التزم بها الدولة حتى القرن العشرين .

على هذا النحو توارى إلى الأبد الوجود الإنكشاري العسكري في الدولة منذ صيف ١٨٢٦ ، ونجح السلطان محمود الثاني في القضاء على مركز خطير من مراكز القوى في الدولة كان يهدد أمنها الداخلي والخارجي بأشد الأخطار . يقول أحد كبار المؤرخين الإنجليز إن الإنكشارية كانوا مصدر هلع وذعر لأوروبا حيناً من الدهر ، ثم غدوا مصدر رعب وإرهاب للسلاطين ولرعاياهم المدنيين الخاضعين عن طيب خاطر للقانون يلتزمون به في حياتهم سلوكاً ومنهاجاً (١) .

كانت حركات العصيان التي قام بها الإنكشارية من وقت لآخر تتم في العلن . وإمعاناً في تحدى السلطان كانوا يتخلون من القزانات وسيلة إعلامية لحركات التمرد . ولا يتورعون عن عزل وقتل السلاطين والصدور العظام والوزراء وغيرهم . واعتمدوا على القوة العسكرية في تنفيذ مخططاتهم . ومن هنا كانت تكمن خطورتهم ، على النقيض من المركزين الآخرين من مراكز القوى في الدولة ، وهما : الحريم السلطاني والحصيان وأغواتهم . فلأن مؤامرات وخطط هذين المركزين كانت تحاك في السر ، وتنفذ في السر ، ولا يعلم بها أو بنتائجها أحد سوى فئة قليلة العدد من موظفي الخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية في القصر السلطاني وعدد ضئيل من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . وهذا ما سنتناوله في الفصول الثلاثة التالية ، مع فصل رابع لتقييم مراكز القوى الرئيسية مع مراكز جانبية أخرى أطلت برأسها ، وأرادت أن يكون لها نصيب من الجاه والنفوذ والتسلط .



الفصل العشرون

مراكز القوى في الدولة (٤)

الحريم السلطاني

نظام الحريم السلطاني :

أخذ سلاطين الدولة العثمانية بنظام الحريم في قصورهم . وأطلق على هذا النظام « الحريم السلطاني » . وكانت أسرة السلطان هي مركز الدائرة بالنسبة إلى جميع الهيئات والطوائف التي تعمل في منطقة الحريم . كانت تخصص عدة أجنحة في القصر لسكنى والده السلطان الحاكم ، إذا كانت لا تزال على قيد الحياة ، وزوجات السلطان . ونطلق عليها وعليهن في هذه الدراسة سيدات الفئة الأولى ، ثم بنات السلطان وأولاده الصغار ، ثم فئات من الجوارى الحسنان كن يعشن في القصر ، ويشغل بعضهن شتى الوظائف الكبرى والصغرى فيه . كما كانت توجد طائفتان كثيفتا العدد من الخصيان البيض والخصيان السود . وعليهم رؤساء على شاكلتهم يطلق عليهم رؤساء أو أغوات الخصيان يقومون بحراسة منطقة الحريم وحلما ساكناته . وكانت أجنحة الحريم عبارة عن مبان مستقلة أو وحدات سكنية مستقلة بلغت الروعة من حيث فخامة المبنى وزخرفته وأثاثه وتعدد حجراته وقاعاته . وكان يطلق على كل مبنى « دائرة » . وخصصت دائرة لكل سيدة من سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني وكذلك لأولاد السلطان وبناته .

وما هو جدير بالذكر أن موضوع الحريم السلطاني من الموضوعات الصعبة للغاية في تاريخ الدولة العثمانية نظراً لقللة المادة العلمية عنه . إذ كان الحريم السلطاني بكل فئاته وهيئاته يمتد وراء الأسوار العالية بعيداً عن العالم الخارجي . ويذكر المؤرخ دوسو D'Ohsson أنه لقي مصاعب جمة في

الوقوف على مادة علمية موثوق بها عن هذا الموضوع ، وأنه اتصل بحد من زوجات المهلاطين واللاق غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات اللائي سبقن لمن الإقامة في القصر ثم حررن وتزوجن ، وأنه قدم لهؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويده بالمعلومات . وقال إن التحقيقات التي قام بها بخصوص هذا الموضوع قد كلفته متاعب أكثر مما تطلبته الأجزاء الأخرى من كتابه الذي يقع في سبعة مجلدات (١) وقد سبق أن ذكرنا أنه أقام في إستانبول سنوات طويلا وعكف خلال ثلاثين عاما (١٧٨٨ - ١٨١٨) على وضع كتابه فاجاء أشبه بموسوعة علمية عن تاريخ الدولة العثمانية (٢) . وقد أشار مؤرخ أمريكي إلى الصعوبات التي صادفها هو الآخر في جمع المادة العلمية عن موضوع الحرم السلطاني (٣) .

أجنحة الحرم :

كانت تحاط منطقة الحرم بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، وكان الطريق المؤدى إلى منطقة الحرم عبارة عن ممر طويل ، له أربعة أبواب ، بابان منها مصنوعان من الحديد ، وبابان من البرونز . وكان رئيس الحصيان السود وعدد من هؤلاء الحصيان التابعين له من رتبة «نوبت قلفه سيه» (٤) وهم من الصف ضباط يتناوبون الاحتفاظ بمفاتيح هذه الأبواب ليلا ونهاراً. وكانت أجنحة الحرم تملئ منطقة مغلقة a closed zone ومنطقة محرمة out of boundr

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., Vol. VII, p. 58.

(٢) انظر في هذه الدراسة ص ١١٩ حاشية رقم ١

(٣) Lybyer A.H; op. cit., p. 126.

(٤) نوبت كلمة تركية متجسمة من اللفظة العربية نوبة . أما قلفة معناها ريس . والعبارة

معناها «رئيس نوبة الحراسة». انظر رتبة هذه الطائفة من الحصيان في ص ٦٥٨ حاشية رقم ٢ ، وانظر سائر اختصاصاتها في ص ٦٦٥ حاشية رقم ٤

لا يسمح لأحد بدخولها أو الاقتراب منها أو النظر إلى ساكناتها إلا لرجل واحد وعدد كبير نسبياً من أشباه الرجال . أما الرجل الواحد فهو السلطان . أما أشباه الرجال فهم الخصييان - وهم عبيد بيض وسود - استوصلت من أجسامهم أعضاء التناسل . وبذلك يتفق منهم كل خطر أو شبهة خطر أو مظنة خطر على ساكنات أجنحة الحرير وبما يدل على صرامة النظام الموضوع لأجنحة الحرير السلطاني أنه حدث على عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) أن تجرأ أحد التجار من رعايا جمهورية البندقية وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحرير السلطاني واستخدم نظارة تقرب المسافات *une lunette d'approche* وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته ، فأمر السلطان بشنقه فوراً (١) . وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يعمل ترجماناً مترجماً - للسفير الفرنسي في إستانبول ، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه وأسرعت بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسي ، مارشيل Marecheville ، التماساً للعفو عنه .

ويلاحظ أن عزلة النساء كانت من التقاليد القديمة في العالم الإسلامي . وكانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات دينية إسلامية . وكان احتجاب النساء من أبرز سمات هذه المجتمعات . فلم يأت السنيون بجديد في هذا الصدد ، بل إنهم احترموا تقليداً إسلامياً موروثاً وراسخاً . ولذلك لم يكن يسمح لأية سيدة - ابتداء من زوجات السلطان حتى الخاديات بالخروج من القصر إلا في حالات نادرة ، حين كان السلطان يصحب بعضهن في زيارة لأحد القصور الصيفية . وكانت القاعدة العامة هي ضرورة التواجد الدائم داخل أجنحة الحرير السلطاني . وإذا أرادت إحدى سيدات الفتى الأولى وكذلك بنات السلطان التنزه في حدائق القصر ، كان عليها أن تحصل أولاً على إذن من السلطان شخصياً ، فإذا استجاب السلطان اتخذت سلطات القصر احتياطات

شديدة لمنع أى شخص من النظر إليها . وقد أخذت كلمة حريم Harem فى ذلك الوقت مدلولين ، هما : « المستوع forbidden والمقدس (١) sacred وتطبيقاً لهذا المعنى المزدوج ، فإن عبارة الحريم السلطانى تعنى الشئ المقدس والمحرم على الغير الاقتراب منه أو النظر إليه سوى السلطان والخصيان وروسائهم أى أغوات الخصيان .

معيشة السلطان وسط الحريم :

وكانت توجد فى منطقة أجنحة الحريم مساحات واسعة من الحدائق المنسقة أجمل تنسيق ، وإلى جانبها عدد من الساحات المكشوفة . وكان السلطان مقصورة خاصة وسط أجنحة الحريم ، وتحوى غرفة نومه وحماماً وقاعة استقبال كبيرة كان يؤدى فيها الصلاة ، ويستقبل فيها قريباته المتروجات . وعند زيارته لأجنحة الحريم كانت تصحبه الكايا ، وهى من كبرى موظفات الحريم السلطانى ، ومن بين اختصاصاتها تنظيم الأوقات التى يقضيها السلطان مع ساكنات دوائر الحريم سواء فى الليل أو فى النهار ، وعلى نزهاته مع البعض منهن فى حدائق أجنحة الحريم . وكان يطلق على هذه الزيارات « خلوت هايون » (٢) أى الخلوة السلطانية . ولكى يتم الإعلام بوصوله إلى منطقة الحريم كان السلطان يلبس صندلاً من فضة كى يحدث صوتاً على الأرض المكسوة بالرخام (٣) . أما إذا فاجأهن السلطان بوجوده فى منطقة الحريم فإنه كان من قواعد البروتوكول ألا تنتظر السيدات والفتيات إلى وجه السلطان ، بل يفضضن من أبصارهن وينظرن إلى الأرض حياءً وخنفاءً (٤) وكان السلطان يتمتع باحترام يفوق ما يتمتع به مائر البشر (٥) . ويرى أحد المؤرخين الإنجليز أن الحريم السلطانى بهذه القيود الثقيلة المفروضة على ساكناته

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. I, Part I, p. 72. (١)

D' Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit., Vol. VII 82. أنظر كلان: (٢)

Gibb Hamilton and Bowen Harold., op. Cit., Vol. 1 Part. p. 329 N.8.

D' Ohsson Ignatius Mouradega; op. cit. Vol. VII, p. 62. (٣)

Loc. cit. (٤)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol I, Part I, p. 76. (٥)

كان مبعثاً للعبيد a prison of slaves ثم عمم هذا الرأي على حاشية السلطان (١). ويذهب مؤرخ أمريكي إلى القول بأن الحرّيم السلطاني ينتمي إلى نظام القولار أى عبيد السلطان. ويستثنى من هذا التصيم أولاد السلطان وبناته. أما سائر السيدات والفتيات اللاتي كن يقمن في منطقة الحرّيم فكان عبيدات السلطان (٢).

نساء السلاطين :

ليست الحياة الخاصة لرئيس الدولة أياً كان لقبه : إمبراطوراً ، أو سلطاناً ، أو ملكاً ، أو أميراً - ملكاً خالصاً له ، لأن هذه الحياة الخاصة والشخصية ، في استقامتها أو في حوجها ، ترك بصمات قوية على مصائر الدولة . وقد كان لسلاطين الدولة العثمانية مواقف معينة من تعدد الزوجات ، والإنسال من الجوارى . والزواج من الكتائب الأجنبية . ولذلك نرى لزماماً علينا في هذه الدراسة أن نمر مروراً سريعاً على المبادئ العامة للشريعة الإسلامية فيما يختص بهذه الموضوعات الثلاثة التي تعد مدخلا ضرورياً توضح مدى استفادة السلاطين أحياناً من الرخص المقيدة التي جاء بها الإسلام ، أو مدى استغلالهم لها أحياناً أخرى . فقد كان لمسلك السلاطين تجاه هذه المسائل الثلاث آثار خطيرة ، إذ أصبح عدد كبير من نساء الحرّيم السلطاني مراكز قوى خطيرة سواء في السياسة الداخلية أو في السياسة الخارجية للدولة .

الإسلام وتعدد الزوجات :

أباح الإسلام للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . ولكنه وضع لهذا التعدد قيوداً وشروطاً منها : ألا يحتفظ الرجل بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد ، واشترط أن يلتزم الزوج بإقامة العدل بينهن . وإن ختم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فلأن ختم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيماكم . ذلك أدنى ألا تعدلوا (٣) ، (٤) .

Ricault Paul (Sir) ; op. cit., p. 16.

(١)

Lybyer A.H.; op. cit., p. 56.

(٢)

(٣) أى تجوزوا ، يقال مال الحاكم إذا جار .

(٤) سورة النساء ، آية رقم ٣ .

وقصدت الشريعة الإسلامية بالعدل أن يقيم الرجل العدل بين زوجاته في المعاملة وفي الحقوق الظاهرة مثل توزيع ميثه عندهن والإنفاق عليهن وما إلى ذلك ، فلا يكون الأساس في معاملة الزوج لزوجاته الزوجة الحديثة والزوجة القديمة ، أو الجميلة والقيحة ، أو الزوجة التي تنتمى إلى أسرة غنية والأخرى التي تنسب إلى أسرة فقيرة . وفي الحديث الشريف « من لم يعدل بين نسائه جاء يوم القيامة وشقه ساقط » . أما العدل في توزيع عواطف الرجل نحو زوجاته ، وهو ما يعبر عنه بالميل القلبي ، فلا قبل به لإنسان ولا تكليف به لإنسان ما اتقى إظهاره في المعاملة وتأثيره على حقوق الزوجات الأخريات . « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء (١) ولو حرصتم ، فلا تميئوا كل الميل (٢) فتلدوها (٣) كالمعلقة (٤) ، وإن تصلحوا وتمتعوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » (٥) .

وهذا التقيد الذي وضعه الإسلام لتعبد الزوجات ، وهو أن يلتزم الزوج نحو زوجاته بالعدالة المطلقة الشاملة فيما ظهر منها وما بطن ، إنما هو شرط بعيد المنال . فإذا عرف الزوج أن في نفسه ضعفاً أو عدم مقدرة على تحقيق هذا العدل المطلق الشامل بين زوجاته ، فالحلال زوجة واحدة فقط ، وما سواها محظور . « وإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة » . والنص القرآني الشرطي يؤكد هذا المعنى هنا . ويفسره بأن التحديد بزوجة واحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور « ذلك أدنى ألا تعولوا » . والظلم حرام ، فالوسيلة إليه حرام . واجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة إليه - أي إلى اجتناب الظلم - واجبة . والوسيلة إلى الظلم هنا هي التعدد ، والوسيلة إلى اجتنابه هي التوحيد (٦) .

(١) في الهبة

(٢) إلى الزوجة التي تكون لها حياً يفوق حاكم للزوجات الأخريات ، فتؤثرون الزوجة المفضلة بكثرة الإنفاق عليها وقضاء الوقت عندها ، وما إلى ذلك .

(٣) تزكروا الزوجة المال منها . وهذا الفعل لا يستعمل إلا في المضارح والأمر .

(٤) أي تزكروا مثل هذه الزوجة كالمعلقة لا هي ذات بمل ولا هي أم ، أي لا هي متزوجة ولا هي مطلقة .

(٥) سورة النساء ، آية رقم ١٢٩ .

(٦) سيد قطب : في ظلال القرآن . الجزء الرابع ، الطبعة الثانية ، طبع دار إحياء الكتب

المرية . عيس البابي الحلبي وتركاها ، القاهرة ، د . ص ٨٤ .

ولكن تواجه الجماعات البشرية في مسيرتها عبر العصور والدهور والحقب ظروفاً سياسية ، أو أزمات سكانية ، أو حالات اجتماعية تجعل تعدد الزوجات علاجاً لهذه الحالات الطارئة . والإسلام جاء لجميع الأجناس وكل الأجيال ، ولكل زمان ومكان . فهو يتسم بالمرونة ولا يقف جامداً لزاء هذه المشكلات التي تفرض نفسها على البشرية سواء كانت شعوباً أو أفراداً .

والظروف السياسية ، وهي التي تهتمنا بالدرجة الأولى في هذه الدراسة ، تتمثل في أن يرى الحاكم ، أياً كان لقبه ، لدواعي الحكمة السياسية وإجراءات الأمن القومي ، أن يصبر إلى عدد من العائلات أو القبائل الكبرى ذات البأس والثراء والمعصية والنفوذ والكثرة العددية في أفرادها وبطونها ، فترتبط مصالح هذه العائلات أو القبائل بمصالح الحاكم ، ومن ثم تشد أزره في واجهة خصوم نظام الحكم الجديد ، وبذلك يتوحد مركز الحاكم وتستقر دعائم الحكم . ومما هو جدير بالذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، وكان وقتذاك في شرح الصبا وربعمان الفتوة واكتمال الرجولة . وظلت السيدة خديجة وحدها زوجه ثمانية وعشرين عاماً حتى تخطف الخمسين لم يشرك معها زوجة أخرى على امتداد هذه السنوات الطوال على الرغم من أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب في ذلك العهد ، وعلى الرغم من أنه كان لمحمد عليه الصلاة والسلام مندوحة في التزوج على خديجة لأنه لم يعش له منها ذكر في وقت كان وأد البنات أمراً درج عليه المجتمع الحجازي بعامة والمجتمع المكي بخاصة ، وكان للذكور وحدهم هم الذين يعتبرون خلفاً . وقد ظل عليه الصلاة والسلام مع السيدة خديجة سبع عشر سنة قبل بعثه وإحدى عشرة سنة بعده ولم يفكر قط في أن يتزوج عليها ، ثم هو بعد أن يتخطف الخمسين يجمع في خمس سنوات أكثر من سبع زوجات ، وفي سبع سنوات تسع زوجات على القول الرابع (١) . وكان الهدف من تعدد الزوجات هو توثيق أواصر الجاهة

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد . الطبعة الثالثة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،

الإسلامية الناشئة . فهو لم يتزوج بهد العدد من النساء بدافع من شهوة او غرام . ومع ذلك فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يتيبب من عجزه عن إقامة العدل بينهن ، ونقصد بالعدل هنا توزيع ميله القلبي نحوهن توزيعاً متساوياً، ولذلك كان يقول عند قسمه (١) بين أزواجه « اللهم إن هذا قسمي فيما أملك . فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » (٢) .

وقد أخذ عدد كبير من رؤساء الدول الإسلامية في العصور الوسطى مبدأ تعدد الزوجات لهذا السبب السياسي ، كما أخذ به الملوك الأوائل لبعض الدول الإسلامية الكبرى في التاريخ المعاصر لهذا السبب أيضاً .

أما الأزمت السكانية فقد تندلع حروب أو تنشب ثورات ، ومحصد هذه وتلك من الرجال أضعاف ما تحصده من النساء ، بحيث يصبح عدد النسوة ثلاثة أضعاف عدد الرجال ، فيقل عدد الرجال الصالحين للإنسال ، ويكون التعمد علاجاً لاختلال التوازن بين عدد الذكور. وعدد الإناث ، وصوناً للمرأة من الدنس ، وتعويضاً للأمة عما فقدت .

أما الحالات الاجتماعية فن ينهنا مرض الزوجة أو عقمها ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه . وهناك بواعث أخرى تساق في هذا الصدد مثل القول إن في بعض الرجال طاقات حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة، ومن ثم يصبح تعدد الزوجات أمراً لا غناء عنه لأمثال هؤلاء الرجال . والواقع أن هذه مبررات يلوذ بها بعض المخلوقات ممن تسيطر على تفكيرهم وسلوكهم في الحياة رغبات جنسية جارفة يدعهم أهم أوتوا نصيباً من المال الموروث . وتصبح الممارسة الجنسية هي شغلهم الشاغل ، بل هي وظيفتهم الوحيدة في الحياة لا ينفون عنها نحولاً . وما لا جدال فيه أن أمثال هذه الخلائق هم ضحايا تربية فاسدة وتنتاج بيئات يعيش الجهل والحفاقة على عقول أصحابها . وإن الحياة المنتظمة والعلم الحديث

(١) القسم بفتح القاف وسكون السين هو توزيع الميث بين الزوجات

(٢) محمد أبو زهرة : الأحوال الشخصية . الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٥٧م

كفيلان بالتخفيف من حدة هذه الحيوانية المهبونية عن طريق إعلاء الغريزة والتسامى بها Sublimation أولاً ثم إبدالها Substitution ثانياً .

نخلص من هذا العرض السريع لأهم مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يختص بتعدد الزوجات إلى عدة حقائق ، نذكر منها :

أولاً : ينصح الإسلام بالاكْتفاء بالزوجة الواحدة في الحياة العادية ، ويشيد بفضيل الزوجة الواحدة لمجرد الخوف من عدم إقامة العدالة في شتى صورها وأشكالها بين الزوجات مع التأكيد بأن هذا العدل غير مستطاع . وبنى أحد كبار رجال الفقه الحديثين أن الزواج الأمثل في الإسلام هو الزواج بواحدة ، لأن فيه بعداً عن نطاق الظلم ، ولكن لا يرضى بهذا الزواج الأفضل والأمثل إلا أمثل الرجال ، ثم يتساءل عما إذا كان الرجال جميعاً من هذا الطراز ؟ (١) .

ثانياً : أما التعدد فهو في أصله رخصة ، وهو ضرورة تواجه ضرورة ، هو إجراء أمن قومي في الظروف السياسية غير العادية ، وهو صمام أمن في حالة كثافة عدد السكان الإناث بالنسبة لعدد الذكور ، وهو وقاية خلقية في الحالات الاجتماعية الصارخة .

ثالثاً : لم تجد البشرية حتى اليوم حلاً أفضل من نظام التعدد كعلاج لتلك الظروف الاستثنائية . فقد جربت الإنسانية حلولاً أخرى أدت إلى حواقب وخيمة خلقياً واجتماعياً . وأباح الإسلام نظام التعدد ، ووضع في تطبيقه قيوداً كانت أقصى ما يمكن من الاحتياط (٢) .

(١) محمد أبو زهرة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن . مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٨١-٨٥ .

وانظر له أيضاً

السلام العالمي والإسلام . الطبعة الأولى . مكتبة وهبه شارع الجمهورية (ابراهيم باشا سابقاً) بماديني . القاهرة . وقد عالج في إسهاب موضوع تمدد الزوجات في فصل عنوانه « سلام البيت » .

زوجات السلطان :

ارتاحت الغالبية العظمى من سلاطين الدولة العثمانية إلى مبدأ تعدد الزوجات والذي جاء به الإسلام ، والزموا بالشرط العددي الذي ورد في القرآن الكريم ، وهو ألا يحتفظ الزوج بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد . وليس معنى ذلك أن جميع السلاطين تزوجوا أربع زوجات ، بل لأنهم تزوجوا أكثر من زوجة واحدة ، تزوجوا منى ، أو ثلاث ، أو رباع ، . ولكن المهم أنهم لم يتخطوا بأى حال الحد الأقصى لعدد الزوجات المقرر في الشريعة الإسلامية . وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ومسيحيات ، ولندن حرائر ، وعشن حرائر ، ومتن حرائر ، بمعنى أنهن لم يقمن في حياتهن في الأسر ، ولم يخطفهن أحد من تجار الرقيق ، ولم يحصل عليهن السلاطين عن طريق الشراء بالمال أو الهدايا . وقد تزوجهن السلاطين بمقود زواج شرعية . وقد نهج هذا النهج السلاطين السبعة الأوائل ابتداء من عثمان الأول وانتهاه بالسلطان محمد الفاتح (١) . وقد حكم هؤلاء السلاطين السبعة حقاً بلغت زهاء مائة واثنين وثمانين عاماً (١٢٩٩ - ١٤٨١) (٢) . ولكن حدث بعد ذلك

(١) كان هؤلاء السلاطين السبعة هم :

عثمان الأول (١٢٩٩-١٣٢٦)

أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩)

مراد الأول ابن أورخان (١٣٥٩-١٣٨٩)

أبي يزيد الأول المشهور باسم يلديريم أي البرق ، (١٣٨٩-١٤٠٢) وهو ابن مراد الأول

محمد الأول ابن أبي يزيد الأول (١٤٠٣-١٤٢١)

مراد الثاني ابن محمد الأول (١٤٢١-١٤٥١)

محمد الفاتح ابن مراد الثاني (١٤٥١-١٤٨١)

(٢) يستجد بعض الباحثين من هذه الحقب الفترة التي أحقبت حريمه السلطان أبي يزيد الأول

على يد المنول بقيادة تيمور الأهرج في معركة أنقرة في اليوم العشرين من شهر يوليو-سبتمبر -

عام ١٤٠٢ ووقوع السلطان في الأسر . وقد ظل يرسف في أغلاله حتى وافته الأجل في السنة التالية ،

ثم نشوب الحرب الأهلية بين أبناء السلطان أبي يزيد الأول وهم عيسى ، ومحمد ، وسليمان ،

وموسى ، بسبب تنافسهم على العرش . واستطالت هذه الحرب الأهلية زهاء إحدى عشرة سنة

(١٤٠٣-١٤١٣) وانتهت باحتلال محمد عرفس اللولة ، وقد عرف باسم السلطان محمد الأول -

أن جميع السلاطين الذين حكموا الدولة بعد محمد الفاتح قد نبذوا نبذاً تاماً الزواج من الحرائر بفقود زواج شرعية وانصرفوا إلى الجوارى الحسان اللاتي كان يزوج بهن القصر السلطاني (١) . وسنعرض لموضوع الجوارى في هذا الفصل .

وإذا كان أولئك السلاطين السبعة الأوائل قد التزموا بالشرط العددي لتعدد الزوجات ، إلا أنهم أغفلوا الشرط الآخر ، وهو إقامة العدل بين الزوجات . كان لكل سلطنة وضع محدد ومقرر في البروتوكول العثماني . وهذا المركز يختلف حلواً وهبوطاً عن مركز زميلاتها . فالسلطنة التي تنجب ولداً تميز عن زميلتها التي تنجب بنتاً . ويتبع هذا التميز تميزاً آخر في المخصصات المالية التي ترصد لكل سلطنة . وفي العادة تظفر السلطنة والدة الإبن برعاية وتقدير يفوقان الرعاية والتقدير اللذين تحظى بهما زميلاتها على أساس أن ابنها هو ولي العهد . ولكن فيما عدا ذلك تقريباً كانت كل سلطنة تقيم في جناح خاص بها في الحرم السلطاني . كما كانت لكل سلطنة حاشية خاصة بها تضم سيدات وفتيات تقمن على خدمتها . وكانت هذه الحاشية تضم عدداً معيناً من الخصيان ورئيساً لهم يسمى أغا الطواشية أو أغا الخصيان ، يقوم فريق منهم بخدمة الزوجة بينما يقوم فريق آخر منهم بحراسة الجناح وبواباته والمسالك المؤدية إليه . وكان يبلغ عدد هؤلاء الحراس أربعين خصياً . أما الأغا فيتلقى رغبات السلطنة أو أوامرها ، فينقلها إلى السلطان في الحالة الأولى ، وإلى الصدر الأعظم في الحالة الثانية .

وسمى أيضاً السلطان محمد ثلثي . ويخلص هذا الفريق من الباحثين رأياً إلى وجوب استبعاد فترة تلك الحرب الأهلية من هذه الحقب .

أنظر : دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع أبع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٦٢١ - ٦٢٤ .

(١) يستثنى من هذا الحكم العام سلطتان توليا الحكم في النصف الأول من القرن السابع عشر تزوجا بفقود زواج شرعية نسوة من عامة المسلمين ، وكانت واحدة منهن جارية فأقتضت .

الإسلام والزواج من الكتابيات :

يجوز الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، سواء كانت يهودية أو مسيحية .
وقد جاء في القرآن الكريم « اليوم أحل لكم الطيبات (١) ، وطعام الذين أوتوا
الكتاب حل (٢) لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات (٣) من المؤمنات ،
والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن (٤)
محصنين (٥) غير مسافحين (٦) ولا متخذى أخدان (٧) ، ومن يكفر بالإيمان (٨)
فقد حبط عمله (٩) ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (١٠) . وهذه الآية
القرآنية الكريمة تذكر العقوبات الحارث من الكتابيات جنباً إلى جنب مع
العقوبات الحارث من المسلمات . وهي سماحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين
سائر الأديان (١١) . كما أن هذه الآية الكريمة تشترط لزواج المسلم من الكتابية
أن يدفع لها المهر . وأن تكون النية لدى الزوج هي الإعفاف والإحصان الذي
يحصن به الرجل زوجته ويقها زلات الحياة ، فلا يكون المهر وسية إلى
اتخاذ الزوجة صديقاً سراً يمارس معها السفاح .

(١) الطيبات جمع طيب ، وهو ضد الخبيث .

(٢) حل لكم أى حلال لكم .

(٣) المحصنات هن الحرائر العفيفات من الزنا .

(٤) أ. وروهن بمعنى يهودهن .

(٥) محصنين أى عفيفين . مشتقة من أحصن أى عف .

(٦) مسافحين أى زانين ومجاهرين بالزنا .

(٧) أخدان جمع خدن (يكرس الخاء وسكون الدال) أى الصديق في السر على وزن حمل

وأحوال . وتستخدم تلك اللفظة للدلالة على الذكر أو الأنثى . والمعنى : ولا متخذى صديقات
سراً .

(٨) يقصد بالإيمان في هذه الآية الكريمة : شرائع الإسلام .

(٩) حبط عمله أى بطل ثواب عمله .

(١٠) سورة المائدة : آية رقم ٥

(١١) إن المسيحي الكاثوليكي يصرح من أزواج بأرثوذكسية أو بروتستانتية أو بأية

فئة تعتق مذهباً مسيحياً آخر . ولا يقدم على ذلك إلا المتصلون عنهم من العقيدة .

انظر :

سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٦ ، ص ٣٢

وقد وضع علماء الشريعة عدة مبادئ فيما يختص بالزواج من الكتابيات نذكر من بينها :

- ١- أن يكون جميع الأولاد مسلمين بدون فرق بين الذكور والإناث .
- ٢- علم التوارث بين الزوجين إذا مات أحدهما ، لأن شرط إرث المسلم اتحاد الدين . أما الأولاد فيرثون والدم ولا يرثون والدم .
- ٣- يكون للزوجة الكتابية كل حقوق الزوجة المسلمة ، وعليها كل واجباتها نحو زوجها وأولادها فيما عدا التوارث (١) .

وإذا كان الإسلام قد حرم زواج المسلم من الوثنية وأجاز زواجه من الكتابية ، فلأن الكتابية تلتقى مع المسلم في لب الفضائل الخلقية والاجتماعية ، لأن الأديان السماوية في أصلها واحد . ومن الممكن أن تستمر العشرة الزوجية بينها معتدلة من غير استهواء . وكان الرجل الأول من الصحابة لا يتحسس للزواج من الكتابيات ، وإن كانت قلة عديدة منهم قد أقدمت على الزواج منهن . ونذكر على سبيل المثال طلحة بن عبيد الله . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن الزواج من الكتابيات إلا إذا كان الزواج يستهدف غرضاً سامياً كارتباط سياسي يجمع القلوب ويؤلف بينها أو نحو ذلك (٢) . ويرى بعض الفقهاء أن الأفضل ألا يتزوج المسلم إلا مسلمة لقيام الألفة من كل وجه (٣) .

وعلى الرغم من أن الإسلام يجعل الرجل قوماً على زوجته في كل ما يحقق صالح الأسرة والصالح العام ، إلا أنه لا يميز للمسلم المتزوج كتابية أن يرغبها على ترك دينها ، كما لا يميز له أن يمنحها من أداء عباداتها وشعائر دينها ، بل إن بعض أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية يرون أنه ينبغي عليه أن يصحبها إلى حيث تؤدي هذه العبادات في كنيسها أو يبعثها إذا رغبته في ذلك (٤) .

(١) محمد أبو زهرة ، المرجع سبق ذكره ، ص ١١١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤

(٣) المرجع السابق ، ذات الصفحة .

(٤) دكتور عل عبد الواحد واى : الحرية في الإسلام . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨

البواعث السياسية والعسكرية وراء زواج السلاطين من الكنائيات الأجنبية :

عند عدد كبير من سلاطين الدولة إلى الزواج من الكنائيات الأجنبية. ونقصد بهن في هذه الدراسة المسيحيات اللاتي لم يكن من رعايا الدولة العثمانية. فكان الحریم السلطانی فی أعلى مراتبه يضم غالباً زوجة كنانیة أجنبية إلى جانب الزوجات العثمانيات المسلمات . وقد بدأت ظاهرة الزواج من الكنائيات الأجنبية منذ نشوء الدولة العثمانية على عهد عثمان الأول (١٢٩٩ - ١٣٢٦) الذى تنسب الدولة والأمة إليه . فقد رأى عثمان أن إمارته أو دولته تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ومسيحية معادية تربص بالعثمانيين الدوائر . وأراد تجنب إمارته مواجهة حرية ضد تكتلات إقليمية عسكرية . وأدرك أنه لا يستطيع - بالإمكانات المحدودة التى لديه - ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحل للدولة التى يتطلع إلى تكوينها ، فلإمارته ذات تعداد سكانى قليل . فلجأ إلى وسائل متعددة سبق أن عرضنا طرفاً منها (١) . وكان من بينها مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المناخنة . فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا (٢) ، وشرح سيده يونانية مسيحية رائعة الجمال زوجة لابنه أورخان (٣) وكان يطلق عليها نيلوفير Nenuphar أو Nilufer ومعناها زهرة اللوتس (٤) . وقد وضع هذان الماهلان تقليداً للبنين والحفدة من أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة وهو الزواج من الكنائيات الأجنبية (٥) . وقد أعجب السلطان أورخان من تلك السيدة اليونانية ابناً تولى العرش من

(١) انظر ص ٤٠ فى هذه الدراسة .

(٢) تسمى أرمينيا الصغرى ، وهى دولة مسيحية .

(٣) يقال إنه عثمان أسر هذه السيدة فى إحدى حروبهِ ، وبقيت على المسيحية .

(٤) Lybyer A.H.; op. cit., p. 17 .

(٥) من دلائل ميل السلطان أورخان إلى التوسع فى تطبيق سياسة الزواج من الكنائيات الأجنبية بين أعضاء الأسرة العثمانية الحاكمة أنه فى معاهدة سكوتارى Scutari (١٣٥٩) التى عقدت بينه وبين حنا باليولوج إمبراطور الدولة البيزنطية تقرر أن يتزوج خليل ابن السلطان أورخان من ابنة الإمبراطور حنا باليولوج . وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات . ويذون هذا الزواج قد أُدْرِجَ فى صلب المعاهدة ضماناً لتنفيذها ، لأنها أبرمت أصلاً على أساس اعتراف الدولة البيزنطية بمفوحات الدولة العثمانية فى إقليم تراقيا فى البلقان .

بعده باسم السلطان مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩) . وقد حلنا هذا السلطان
حلوا أبيه وجده ، فتزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى سيشان Sischman
بعد أن طوَّقه العثمانيون في نيقوبوليس على نهر الدانوب . وارتضى هذا
الملك أن يدفع الجزية للعثمانيين وأن يزوج ابنته للسلطان مراد الأول (١) .
ولما تولى العرش السلطان أبو يزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢) أراد أن يتخذ
من دولة الصرب ، أو بعبارة أدق ما تبقى منها ، دولة حليفة له كي يجعل
منها دولة حاجزة un état tampon بينه وبين دولة المجر ، إذ كان
يخشى أن تنتهز هذه الدولة فرصة انشغاله في الجبهة الأناضولية فتخبر دلي
الأقاليم العثمانية في البلقان . فتزوج من أوليفيرا Olívera ابنة ملك
الصرب لازار Lazare الذي كان العثمانيون قد ذبحوه عقب معركة
قوصوه الأولى Kossovo عام ١٣٨٩ رداً على قيام صربي يدعى كوبيلتش
ميلوش K. Miloch بقتل السلطان مراد الأول (٢) . وتمشياً مع
السياسة الودية التي انتهجها أبو يزيد الأول ابن السلطان القليل وافق أبو يزيد
على أن يحكم بلاد الصرب ابنا الملك لازار ، حسب قوانين الصرب وعاداتهم
وتقاليدهم ، ويدينان له بالولاء ويقدمان له جزية سنوية وهدايا من الجنود
يشتركون في فرق خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني . واتخذ خطوات
أخرى لاسترضاءهما (٣) بجانب زواجه من أختها أوليفيرا . وسار على هذا

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع أئح ، مرجع سبق ذكره ،
ج ١ ، الطبعة الأولى ، صص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٢) بينما كان السلطان مراد الأول يتفقد ميدان القتال بعد المعركة إذا به يفر صريماً
وموت لساعته في الخامس عشر من شهر يوليو - سزيران-سنام ١٣٨٩ إذ تقدمت هذه الصربي ،
وكان قد أصيب بجراح في أثناء المعركة وأراد أن ينتقم لمزيمه بلاده . وظن السلطان مراد أن
لديه شكوى فسمح له بالتقدم نحوه فطعنه بخنجره . وقد بذل العثمانيون جهوداً جبارة حتى استطاعوا
أسر لازار ملك الصرب وعدد كبير من النبلاء . وصدرت الأوامر بلدهم جميعاً أمام بجان
السلطان مراد الأول المسجي في ساحة القتال .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع أئح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،
الطبعة الأولى ، صص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٠

النجم - الزواج من الكنايات الأجنبية - السلطان مراد الثاني (١٤٢١-
١٤٥١) فقد تزوج من مارا Mara ابنة أمير الصرب جورج
برانكوفيتش G. Brankovitch . وكانت هذه الزيجة من
الزيجات السياسية الناجحة القليلة التي أثمرت ثماراً طيبة في مجال العلاقات
الدولية . فقد كانت سبباً في توثيق عرى التحالف بين الدولة العثمانية
ودولة الصرب التي امتنعت عن تقديم أية مساعدة للقائد حنا هنيادي (١)
J. Hanyade حين زحف في أواخر سبتمبر - أيلول - عام ١٤٤٨
على رأس جيش يتكون من ٢٥,٠٠٠ رجل من الألمان وسكان والاشيا
وبوهيميا والمجر وترانسلفانيا . وأدخل في تقديره تأييداً عسكرياً يظفر
به من الصرب . ولكن خابت تقديرته . وزحف مراد الثاني وهو يقود
جيشاً بلغ عدده خمسين ألف جندي وتقابل مع القوات المتحالفة في سهول
قوصوه في ١٧ من أكتوبر - تشرين أول - عام ١٤٤٨ واستمرت المعركة
ثلاثة أيام حصوما . وانتهت في ١٩ من ذات الشهر بفوز ساحق للعثمانيين
الذين اقتحموا معسكر هنيادي فهرب ، وحاول أن يشق طريقه عبر البنادوب
فوقع في أيدي أعدائه الصرب . ولما توفي السلطان مراد الثاني بالسكتة القلبية
في اليوم الخامس من شهر فبراير - شباط - عام ١٤٥١ خلفه ابنه السلطان
محمد الثاني أو الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) ، وكإجراء أمن داخلي أمر بترحيل

(١) حنا هنيادي ابن غير شرعي لملك المجر سيجموند ، أنجبه من سيدة مجرية . وعين
حاكماً لإقليم ترانسلفانيا المجرية . وأظهر صفات حربية ممتازة في صد العثمانيين حين كانوا يتغلون
في ترانسلفانيا . وأصبح حديث الأوساط الرسمية والشعبية في أوروبا ، وازداد اعتداداً بنفسه
وتحوراً واستنلاباً، وأخذ على عاتقه صبه الكفاح عن المسيحية والتصدي للعثمانيين ، وباركت البابوية
حركة الجهاد الذي التمسدها . وقد أوقع بالعثمانيين عدة هزائم متلاحقة ، ثم انتصر العثمانيون
عليه في معركة فارنا Varna في اليوم التاسع من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٤٤٤
وقتلوا فيها فلاديسلاف ملك المجر . وقد حكم هنيادي بلاد المجر بعد مصرع ملكها باسم ابنه القاصر .
انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع أئح . مرجع سبق ذكره ج ' ١ ،
الطبعة الأولى ، صص ٦٣١-٦٣٥

زوجة أبيه - مارا - إلى موطنها الأصلي في الصرب كي يأمن شر الدساسين التي قد تحمكها ضده في أوساط الحريم السلطاني وكانت والدة السلطان محمد الثالث (١٥٩٦ - ١٦٠٣) قد جرى بها من البنلقدية . وهناك مثال آخر صارخ ، فإن سيده يونانية تزوجت السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) وأنجبت منه ولدين تربعاً على حرش الدولة الواحد بعد الآخر ، وهما .راد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) وإبراهيم الأول (١٦٤٠ - ١٦٤٨) . وبطول بنا الحديث إذا مضينا في ذكر الزوجات الكتانيات الأجنبية اللاتي تزوجن سلاطين الدولة . ونكتفي هنا بذكر الحقائق التالية وبعض النتائج التي ترتبت عليها :

أولاً : إن الغالبية العظمى من السلاطين أقدموا على مثل هذه الزيجات بحيث ندر من السلاطين من لم يتدخل في حريمه زوجة كتانية أجنبية وقد أصبحت هذه الزيجات تقليداً درج عليه سلاطين الفترة الأولى وسلاطين الفترة الثانية .

ثانياً : إن سلاطين الفترة الأولى كان لهم من قوة الشخصية ومضاء العزيمة والانكباب على تصريف شئون الدولة ما جعل زوجة كل منهم تأخذ حجمها الطبيعي فقط كزوجة للسلطان ، فلا تتدخل في شئون الدولة ولا تمارس نفوذاً على الصدر الأعظم والوزراء وعلى غيرهم من كبار رجال الدولة . أما سلاطين الفترة الثانية فإن غالبيتهم قد خضعوا خضوعاً كاد يكون تاماً لأولئك الزوجات . حتى أصبحن مركز قوة خطير . وكان بعض هؤلاء الزوجات يتدخلن في السياسة العليا للدولة ويوجهنها الوجهة التي تردها . وهكذا استفحل خطر أولئك الزوجات وتركن بصمتهن بارزة قوية في تاريخ الدولة .

ثالثاً : إن زواج سلاطين الفترة الأولى بالكتانيات الأجنبية كان يتم في ظروف متباينة وللوانع مختلفة بحيث كان لكل زواج ملاساته ودوافعه . كان بعض السلاطين يطلبون أو يسعون لمصاهرة أسرة حاكمة في دولة مجاورة توثيقاً لعلاقات حسن الجوار . وكان البعض الآخر يتزوجون الكتانية الأجنبية

تنفيذاً لبند في المعاهدة التي فرضوها على دولة أوروبية مهزومة كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة . وكان البعض الثالث يتزوج الكناينة الأجنبية كظهور على التحالف العسكري الذي تعقده الدولة العثمانية مع دولة أخرى تنتمي إليها الزوجة الكناينة أو على الأقل لتلتزم بحكومتها بموقف الحيطة في حرب تعزز الدولة خوضها ضد أحلاف صليبية أوروبية تكونت للقضاء على الدولة العثمانية . ولذلك كانت تغلب البواعث السياسية أو العسكرية على معظم هذه الزيجات .

وابعاً : إن عدداً من الزوجات الكناينات الأجنبية اعتنقن الإسلام بمجرد التحاقهن بالحريم السلطاني . وظل عند آخر منهن على المسيحية بموافقة أزواجهن السلاطين ابقاء على مشاعر الأصهار الجدد وضماناً لتحقيق الأهداف السياسية أو الحربية التي كانت وراء زواج السلاطين بهن . ومع ذلك فإن أولئك الزوجات كن يمتحنن في الإسلام بعد فترة قد تطول حيناً وقد تقصر أحياناً أخرى تبعاً للعلاقات السياسية وتطورها بين الدولة العثمانية والدولة الأجنبية التي تنتمي إليها الزوجة الكناينة الأجنبية .

خامساً : إن بعض الزوجات الكناينات كن يتظاهرن باقتناع الإسلام ، ويتظاهرن بحب أزواجهن السلاطين ، ويتظاهرن بولائهن للدولة العثمانية . ولكن كانت كل منهن تخفي بين ضلوعها حباً وولاء لوطنها الأول ، وتعمل على تنفيذ برنامج من وحى حكومة بلادها لتحقيق مصالح وطنها الأول ، حتى ولو كان هذا البرنامج ينطوي على الإضرار بمصالح الدولة العثمانية . التي جعلت منها سلطنة لأكبر دولة إسلامية ومن كبرى دول العالم .

الإسلام والجواري :

الجارية ، في الشريعة الإسلامية ، هي كل امرأة أخلت أسيرة في الحرب ، أو نقلت قسراً من بلاد العدو بشرط أن تكون غير مسلمة ، لأنه لا يجوز ، لأي سبب من الأسباب ، أن تسبي المسلمة وتسرق ، أو هي التي تنجبها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبداً ، أو غير مالك لها ، مسلمة كانت أو كناينة . أو هي التي تؤخذ شراء من أسواق الرقيق حيث يبيعها النخاسون .

وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكاتبات اللاتي تعود أصولهن إلى ديار الإسلام . وإنما يأتون بالرقائق من البلاد غير الإسلامية ، ويتاجرون به ، لأن الإسلام حرم السبي منذ قضاؤه على عادة الغزو المتأصلة في نفوس البدو .

ومن الثابت أن العرب قبل الإسلام عرفوا نظام الجوارى . وكان لأثرياء قریش وزعمائها حدد من الجوارى انصرفن إلى الغناء أو الأعمال التي قامت بها الجوارى بعد ذلك في قصور المسلمين . ولما جاء الإسلام أغلق جميع أبواب الرق بالنسبة للرجال والسيدات ما عدا رقيق الحرب ، فقد أبقى عليه للضرورة ، كما سنوضح ذلك في الفصل الثاني والعشرين الخاص بالعبيد-الخصيان . وكانت الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام فرصة مواتية لحصول المقاتلين العرب على أعداد وفيرة جداً من الجوارى ، لأن العرب إذا دخلوا مدينة عنوة ، ولم تكن قد وضعت شروط للفتح ، كانوا يعتبرون المدينة المفتوحة عنوة ملكاً لهم بما فيها من أرض ومن عليها من محاربيين وشيوخ ونساء وأطفال . وكانوا يتصرفون بهم تصرف المالك . وتصبح كل من تقع في أيديهم من نساء المحاربين وبناتهم إماء لهم يتقلونهن معهم إلى بلادهم مع الأسلاب الأخرى . ويوزعون بينهم بعد أن يقدموا النسبة المقررة إلى الخليفة أو بيت المال وهي الخمس ، ويحولون ما يتبقى منهن إلى منازلهم . وقد برزت هذه الظاهرة بصورة واضحة وساحقة على عهد الدولة الأموية . وكان العرب قد انساحوا غرباً في شاطئ إفريقيا والأندلس وجنوب فرنسا ، وشرقاً نحو الهند وما وراءها . ويقال إن موسى ابن نصير فاتح المغرب والأندلس لما عاد إلى دمشق كانت معه جموع كثيرة العدد بلغت عدة آلاف من عذارى العائلات القوطية الثرية (١) . ثم اشتدت ظاهرة الجوارى بروزاً على عهد الدولة العباسية . ولما هدأت حركة الفتوح الإسلامية اتجه حكام المسلمين وأثريائهم إلى الحصول على

(١) دكتور جبريل عبد التور : الجوارى . الناشر دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة

الثانية ، ص ٢٣-٢٧ .

الجوارى عن طريق الشراء من تجار النخاسة بأثمان باهظة . وكانت قصور دمشق وبنغاز والفسطاط وعواصم مصر الإسلامية الأخرى التي تعاقب إنشاؤها وكذلك قصور قرطبة وإشبيلية وغيرها مليئة بالجوارى الفاتنات . وقد حفلت حياتهن بالترف : كن يرتدين الشفيف من الملابس ، ويتفنن في الزينة ، وفي تعطير أجسامهن ، وإبراز محاسنها ، ويتناولن أشهى الأطعمة ، ويظفرن بقدر كبير من الإعزاز والإكرام . ومن أجلهن أهدرت الأموال . وقيل عنهن تعبير لأذع يصور جانباً كبيراً من الحقيقة ، فأطلق عليهن « سلع الجمال والمتعة » .

وكان عددهن يفوق عدد السيدات الحرائر في هذه القصور . وهكذا تسربت الجوارى الحسان إلى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والقادة العسكريين ومنازل الأثرياء . وكانت غالبية الجوارى يمارسن ألواناً من فنون النشاط وبث المرح في قلوب أسيادهن بما يتقنه من الرقص والغناء (١) ، وسيطرن على عقول مواليهن حتى انقادوا لهن وأصبحوا أداة طيعة في أيديهن . وحاول بعض الخلفاء الأمويين ولا سيما معاوية إقصاء الجوارى عن النفوذ وحصرهن في الخدور حتى لا يتناولن إلى السلطة . وذهب التحفظ بالأشياخ المترمين إلى الحط من أبناء الجوارى ونصحوا بالابتعاد عنهن لأنهن يفسدن العرق العربي . ونظر كثير من هؤلاء إلى المهجاء (٢) نظرة استهانة أول الأمر . وكان من بينهم أبناء خلفاء وأشراف . وقد نجت هذه الكراهية على تعاقب السنين . وأقبل العرب إقبالا شديداً على الزواج من الجوارى الحسان . وكانت هناك عدة عوامل وراء هذا الإقبال المتزايد ، منها : اعتقاد العرب أن زواجهم من الجوارى يؤدي إلى إنجاب أولاد أشداء أقوىاء وإلى ظهور أجيال صاعدة تبرز فيها النماء العربية بالنماء الأجنبية ، إذ كانت الجوارى من بلاد شتى من أوروبا وآسيا . وفي الحديث الشريف « اغتربوا لا تضربوا » (٣) . وفتن

(١) كانت تطلق لفظة قينة - بفتح القاف وسكون الهاء - على الأمة البيضاء التي تمجده الفناء .

(٢) المهجاء جمع هجين ، وهو الشخص الذي أبوه عربي وأمه أمة .

(٣) ضوى الولد إذا نسر جسمه وهزل ، نهر ضارى (مقل) . والضوى - بفتح الصاد -

العرب بلون الجوارى المشرق ، وسرهم أن يجيء أبناءهم على شيء من بياض
البشرة على عكس أبنائهم السمر الوجوه أو المائلين إلى السواد . ومن هذه
العوامل أيضا انتقال المخارين العرب من بلد إلى بلد وابتعادهم عن العريبات
الخالصات ، ثم كان فوق ذلك كله الميل الجنسي العنيف نحو جوار فانات
حسنات الوجوه ، زرق العيون ، ناعمات البشرة ، تمثلت فيهن روعة
الجمال الأوروبي أو التركي أو الشركسي .

أخذ نفوذ الجوارى يشتد في بلاط الخلفاء ، وكن أقرب النساء إلى
قلوبهم ، وتدخلن في شئون الدولة ، وأصبحن المرجع الرئيسي في كثير من
المسائل الهامة . وكان الخلفاء يستجيبون لرغباتهن أو توجيهاتهن أو أوامرهن .
وقن بأدوار حاسمة في تاريخ العباسيين بحيث غلبن مركز قوة خطير . وكان
هارون الرشيد أول من أسرف من العباسيين في تقريب الجوارى إليه ، بل وفي
تفضيلهن على الحرائر . وكان معظم أولاده من الإمام (١) . وأسهمت الجوارى

سوتديلبها وفتح الواو - هو الحزال . وكان العرب يعتقدون أن ولد الرجل من قريبته يجيء
شاكواً نحيماً .

(١) كان منهم :

أ- عداة المأمون ، كانت أمه جارية فارسية ، يقال لها مارجل ، وأصبحت أم ولد .
ب- القاسم الموعظ ، كانت أمه جارية ، يقال لها قصف ، وأصبحت أم ولد .
ج- محمد أبو إسحاق المصم ، كانت أمه جارية تركية ، يقال لها ماردة ، وأصبحت
أم ولد . وكانت أكثر الإمام خطرا . أثرت تأثيراً كبيراً على ابنها لما تولت الخلافة وزيلت له
استخدام الأتراك ، وشغلوا المناصب القيادية في أجهزة الدولة على حساب العرب والفرس . وانزوا
من الخلفاء كل نفوذ .

د- صالح ، أمه جارية ، يقال لها رثم ، وأصبحت أم ولد .

هـ- محمد أبو هبسي ، أمه جارية يقال لها هراية ، وأصبحت أم ولد .

و- محمد أبو يعقوب ، أمه جارية ، يقال لها شذرة ، وأصبحت أم ولد .

ز- محمد أبو النعمان ، أمه جارية ، يقال لها محبت ، وأصبحت أم ولد .

ح- محمد أبو سليمان ، أمه جارية ، يقال لها رباح ، وأصبحت أم ولد .

ط- محمد أبو عل ، أمه جارية ، يقال لها دواج ، وأصبحت أم ولد .

ي- محمد أبو أحمد ، أمه جارية ، يقال لها كنان ، وأصبحت أم ولد .

أنظر :

الطبري أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك . ج ٦ ، ص ٥٤٠

في تنفيذ المؤامرات التي كانت تحاك في بلاط الخلفاء تلحق خليفة ولعيبين
آخر •

وكما كانت الجوارى متعددت المصادر والأجناس والألوان ، متفاوتات في الجمال ، كن أيضاً مختلفات في الدين . إذ كن ينتمين عادة إلى الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو الوثنية . أما المحرميات والوثنيات لكن يدخلن في الإسلام . ونحولت غالبية المسيحيات واليهوديات أيضاً إلى الإسلام أو تظاهرن باللتحول في الإسلام حرصاً على مصالحهن أو تعلقاً لأسيادهن الذين كانوا يجرون بعضهم للتزوج منهن زواجاً شرعياً ، لأن اختلاف الزوجين في الدين كان - كما ذكرنا - يمنع أن يرث أحدهما الآخر . أما الجوارى اللاتي بقين في الرق فكن يحافظن في أغلب الأحيان على ديانتهم الأولى . وكان أسيادهن يقبلون هذا الوضع ولا يكرهونهن على اعتناق الإسلام ، وأكثر من هذا كانوا يسمحون لهن بالقيام بالطقوس الدينية في الأعياد والمناسبات الدينية . وكان المقربون إلى الخليفة المأمون يدخلون مجلسه فيجلدون حدداً من الجوارى الروميات وقد تمتنطقن بالزنانير (٢) وحلقن على صدورهن صلباناً من الذهب ، وأمسكن في أيديهن الخوص بمناسبة عيد

(١) من الأكلة التي تساق في هذا الصدد ما حدث على عهد الخليفة المقتدر . فقد لول الخلافة بمساعدة الأتراك ، وكان لا يزال صبياً في الثالثة عشرة من عمره . واحتفظوا أن في مقنومهم السيطرة عليه وممارسة شؤون الدولة باسمه لسفر سنه وضمف شخصيته . ولكنهم فوجئوا برأيه وكانت جارية رومية أصبحت أم ولد ، تستأثر بالنفوذ وتصرف في شؤون الدولة بحزم وكتابة مدة ربع قرن ، وفي أطول مدة تولي فيها أسد الهاميين الحكم وقتذاك . وتعرض الخليفة للول مرتين . ووقفت أمه إلى جانبه تبلل مسامها وتضع الحبلط لإعادته إلى كرسي الخلافة إن أن نجح الخصوم في الفتك به .

وكانت هناك جارية أخرى من شيراز عاشت مركز قوة في الدولة أيام الخليفين المتق والمستكن . وسعت في إقصاء الأول من الخلافة وحرصت غلامها السنلي على سمل عليه بقطعة حديد حياة بهد أن اضطر القواد من عدم فقاً عينه . وأرادت أن تسير على الخليفة الثاني ، ولكنه رفض أن يتبع لما أية فرصة للتدخل في شؤون الدولة ، فاصطنت له المديف من المشكلات إلى أن نجحت في القضاء عليه .

(٢) الزنانير جمع زنار وهو للتصاري . يقال تزائر التصرافي أي شد الزنار على وسطه . وزرره بالتشديد ألبسه الزنار .

الشعانيين ، ومن في غاية البهجة والمرح . والخليفة المأمون ينظر إليهم دون أن يعترض عليهم (١) . فمن الخطأ القول إن المسلمين أكرهوا جواريهم على اعتناق الإسلام . وقد ذهب بعض حكام المسلمين إلى أبعد من هذا الحد في التسامح الديني . فبنى أحدهم ، وهو الأمير خالد بن عبد الله القسري عامل العراق للأمويين كنيسة خاصة لوالدته المسيحية ، إذ لم تكن في زمانها كنيسة للروم الملكيين في الكوفة ، وبنى حولها حوانيت بالأجر والجص (٢) .

وكان يحدث أن بعض الحرائر كن يقدمن لأزواجهن عدداً من الجوارى الفاتنات من ماكن الخاص . فعند ما هام هارون الرشيد بحب « دنانير » جارية جعفر اليرمكي . وازداد رده عليها اشترت زوجته زبيدة عشر جوارى جميلات وأهدتهن إليه لينصرف عن الماضي في حب « دنانير » . وكان من بين هؤلاء الجوارى أم المعتصم وأم المأمون وأم صالح . وروى الجبرقي وهو يتحدث عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت لصلاحها وكاملها وبرها بزوجها تشتري له الجوارى الحسنان من مالها وتعمل على تزيينهن بالذهب وارتداء الملابس الفاخرة وتقدمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب !

الدولة العثمانية لم تستحدث نظام الجوارى :

مخلص من هذا العرض إلى حقيقة تاريخية هامة هي أن سلاطين الدولة العثمانية لم يستحدثوا نظام الجوارى في قصورهم ، بل كان هذا النظام قائماً وشائعاً في دول إسلامية كبرى سبقت قيام الدولة العثمانية مثل الدولة الأموية والدولة العباسية والدولة الفاطمية وما تفرع عن هذه الدول الثلاث الكبرى من دول ودويلات وكيانات سياسية مختلفة الأسماء والأنواع سواء في الشرق أو في الغرب .

نكاح الجوارى :

وقد أجاز الإسلام نكاح الجوارى إذا لم يكن في مقدور الرجل نكاح

(١) دكتور جبور عبد النور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ : ٨٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٠ : ٩١

الحرائر لضيق ذات يده وخنثى المشقة في مغالبة دوافع الفطرة . والنصوص القرآنية الكريمة الواردة في سورة النساء تفضل الزواج من الحرائر أولاً ، ثم تبيح لأسباب قهرية نكاح الجارية . ولكنها تنصح بعدم الالتجاء إلى ذلك ، لأنه من الخير للرجل عند ربه إذا استطاع أن يصبر عن نكاح الجارية ، وإذا استطاع أن يقالب الشهوة البهيمية .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا (١) أن ينكح المحصنات (٢) المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم (٣) من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات (٤) ولا متخذات أهدان (٥) . فإذا أحصن فلن أتين بفاحشة (٦) فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشي العنت (٧) منكم ، وأن تصبروا خير لكم (٨) ، والله غفور رحيم . يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن (٩) الدين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » (١٠) .

والمعاني المستفادة من هاتين الآيتين الكريمتين أن الزواج من الجارية أو

(١) سعة في المال . وأصله الزيادة والفضل . يقال طال حل فلان يطول فهو طال إذا أتم عليه وقته مكاناً طلياً .

(٢) المحصنات المراد هنا الحرائر المؤمنات .

(٣) أي ما ملكت أيمنكم من النساء المسيبات في الحروب وهن أزواج غير مسلمين ، وهن حلال لسايين .

(٤) مسافحات أي زانيات .

(٥) سبق أن شرحنا مدلول هذه اللفظة في هذا الفصل .

(٦) معناها هنا الزنا .

(٧) العنت انكسار العظم في جسم الإنسان بهدجهه ، ثم استعيرت هذه اللفظة لكل مشقة وضرر . يقال عنت بهنت عتاً أي وقع في العنت .

(٨) أي وإن تصبروا عن الزواج بالأرقاء حتى تصيبوا ثراه فتزوجوا بالحرائر فهو خير لكم .

(٩) جمع سنة وهي الطريقة .

(١٠) سورة النساء : الآيتان رقم ٢٥ ، رقم ٢٦ .

الأمة ليس هو الزواج الأمثل . وليس ذلك كراهية لنكاح الجارية أو الأمة في ذاته ، ولكن لأن الكثيرين - كما سبق أن ذكرنا - كانوا ينتفرون إلى أبناء الجوارى والإماء نظرة أدنى من نظرهم إلى أبناء الحرّاء ، وهي نظرة منبثقة من نظرهم إلى الجوارى والإماء أنفسهم . فإن آدميتهن في نظر هذا الفريق من الناس آدمية مهذرة ، أو أنهن من الناحية الإنسانية البحتة هابطات (١) . وقد ذهب بعض علماء الدين إلى القول بأن الشريعة رخصت نكاح الجوارى والإماء للضرورة (٢) .

أوضاع الجوارى في الفقه الإسلامى :

وقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية قواعد تنظم أوضاع الجوارى من رفق وحقق ، ووطء وزواج ، وإنجاب وطلاق ، وغير ذلك من مسائل تتصل بأحوالهن الشخصية . واستهدفت هذه القواعد بوجه عام إتاحة القرص أمام الجوارى للعنق وتضييق عدد من روافد رفق الجوارى تمهيداً لنضوب معينه مع الزمن . وبهنا أن نذكر بعض القواعد العامة التى تتصل بهذه الدراسة .

أولاً : إذا وطأ السيد الجارية التى هى ملك يمينه وأنجب منها تغير وضعها القانونى إذ تصبح « أم ولد » (٢) . ولا يجوز له بعدئذ أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف معها أى تصرف ينقل ملكيتها لآخر أو يعوق حريتها . ولا تعود « أم الولد » إلى الرق ، ويصبح أولادها - الذكور والإناث - أحراراً وينسبون لأبيهم ويأخذون اسمه ويرثونه أسوة بإخوتهم وأخواتهم ممن ولعوا من أمهات حرّاء . وتصبح أم الولد حرة عقب وفاة زوجها فلا يرثها الوارثون أو يستحوذ عليها الدائنون . وفى هذا الشأن قال عليه الصلاة والسلام « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » . ولما أنجب صلوات الله وسلامه عليه ابنه إبراهيم من سريته مارية قال « أعتقها ولدها » أى أن إنجابها

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ١٠٨ .

(٢) دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح ، ثلاثون جزءاً ، ج ١ ، الطبعة

السادسة ، القاهرة ، ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م ، ص ٦ .

(٣) أم الولد مصطلح فقهي ، يجمع أمهات الأولاد .

منه هذا الإبن جعلها مستحقة للعتق بعد وفاته . واستنكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه المحاولات التى بلدنا بعض العرب لبيع أمهات أولادهم وصاح فيهم قائلاً : أبعدهم أن اختلطت دماؤكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تربون ببعهن ؟ ! .

ثانياً : إذا احتق السيد جاريته ، وعقد عليها ، وتزوجها ، تمتعت بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر .

ثالثاً : إذا كان الإسلام قد أذن للسيد فى أن يتسرى بجواريه ، إلا أنه حرص فى ذات الوقت على تذليل العقبات التى قد تقف فى سبيل عتقهن . ومن ذلك أنه لم يقيد عدد الجوارى اللاتى يجوز للسيد امتلاكهن وتسريهن . فأجاز له أن يحصل على أى عدد يريد منهن متى كانت إمكانياته تسمح له بذلك على عكس القيد العدى الذى فرضه الإسلام على تعدد الزوجات ، لأن الكثرة العددية للجوارى كانت وسيلة عملية وسريعة وفعالة تؤدى إلى عتق الجوارى وحرية أولادهن واتصال نسب الجوارى وأولادهن بالسيد . ومن المعروف أن المتعة الجنسية كانت فى مقلعة الدوافع وراء اقتناء الجوارى . ولا يجوز أن تقيد تلك الوسيلة بقيد حدى ، لأن مثل هذا التقييد يؤدى إلى تضيق منافذ الحرية أمام الجوارى كما يؤدى إلى الإبقاء على أوضاعهن كرقيق . وكذلك لم يقيد الإسلام هذا التسرى بعقد زواج ، ولم يقيده بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدى إلى حرية الجارية وحرية نسلها لا يصح أن توضع أمامها عقبات أو قيود تجعلها مشروطة بدفع صداق أو إحضار شاهدين على عقد الزواج أو على تسريها أو أخذ رأيها وموافقها .

وتطبيقاً لهذه القواعد العامة فإن معاشره السيد لجاريته وإيجابه منها كانا يؤدان فى الإسلام إلى عتقها وحرية جميع نسلها .

رابعاً : تميز الشريعة بين ثلاثة أنواع من الفرش : فراش قوى للزوجات الحرائر ، وفراش متوسط لأمهات الأولاد . أى الجوارى اللاتى أتجن من أسيادهن نسلا . وفراش ضعيف للجوارى اللاتى يتسراهن أسيادهن ولا يتجن منهم .

خامساً : تشجع الشريعة على عتق الرقيق عتقاً خالصاً لوجه الله وتقرباً إلى الله ، أى دون أن يكون هذا العتق بمثابة كفارة للذنوب ارتكبه المسلم كالعقل الخطأ وشبه الخطأ أو الحنث في اليمين وما إلى ذلك . ويسرى هذا العتق الخالص لوجه الله على الذكور والإناث من الرقيق . ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين الدولة العثمانية قد درجوا على عتق عدد من الجوارى كل عام بعد أن اختاروا لمن أزواجاً من كبار موظفي الدولة . وكان السلاطين يحرسون على ألا تظل الجارية في الرق بعد أن تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً كحد أقصى .

مصادر حصول السلاطين على الجوارى :

كان القصر السلطاني يُموج بأعداد وفيرة من الجوارى الحسنان . وكان السلاطين يحصلون عليهن من ثلاثة مصادر : بشرائهن من تجار الرقيق الذين كانوا يسارعون إلى ساحات القتال حين يسمعون أن حرباً أوروبية قد اشتعلت ، ويشترون السيدات والفتيات اللاتي يوقعهن سوء الحظ أسيرات في أيدي المتحاربين . وكان أمين جمرك العاصمة يأخذ حاجة القصر السلطاني من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين العاشرة والحادية عشرة . وفي أوقات السلم كان تجار النخاسة في أوروبا وبعض أقاليم من آسيا يعملون إلى خطف البنات لبيعهن . وكن من بلاد شتى : بلاد اليونان ، وجمهورية البندقية ، وألبانيا ، والنمسا ، وبلاد القرم ، والروسيا . وكن على حظ موفور من الجمال . وكان أهل القوقاز قد انجهموا إلى تجارة الرقيق الأبيض نظراً إلى المكاسب الكبيرة التي كانت تدرها عليهم هذه التجارة الآدمية . و منذ نهاية القرن السادس عشر كانت غالبية الجوارى تأتي من القوقاز على يد أولئك التجار . وكان الإقبال على شرائهن شديداً لأنهن كن يظفرن بـعجائب شديدة بسبب جمالهن المفرط (١) . أما المصدر الثالث والأخير فكان الهدايا يتلقاها السلطان . ولم تكن هذه الهدايا سوى جوارى كن آية في الجمال ، يقدمهن بعض كبار موظفي الدولة أو حكام بعض الدول الأوروبية بعد أن يكن قد حضرن

دراسات علمية واجتماعية واكتسب مهارات شتى بحيث لم يقل مستوى هولاء الوافدات الجديديات عن مستوى الجاريات اللاتي قضين في الحريم السلطاني سنين عدداً (١).

من هذه المصادر الثلاثة كان السلطان يأخذ حاجته من أولئك الفتيات ليكون لديه رصيد بشري نسائي كبير في الحريم السلطاني يملأ بهن المراكز والمناصب التي تخلو تباعاً . وكانت أولئك الفتيات في أصولهن الأولى مسيحيات (٢) ، وفي ذات الوقت كن حرائر ، وذات جمال باهر ، ثم وقعن في الأمر لسبب من الأسباب ، واشترهن السلطان . وبمجرد التحاقهن بالقصر السلطاني تتغير أوضاعهن . فيصبحن مسلمات ، ويصبحن جوارى ملك يمين السلطان . ويعشن عيشة رغداً ، ويتنظرهن مستقبل باسم .

مستقبل الجوارى في القصر :

وبمجرد التحاق الجوارى بالقصر السلطاني ، ودخولهن في الإسلام ، كانت تعد لمن في داخل القصر دراسات في الثقافة الدينية الإسلامية وبعض مواد الثقافة العامة والسلوك الاجتماعي واللغة التركية . وكانت جميع الجوارى ينتظمن في هذه الدراسات . وإذا كان لدى الجارية استعداد عقلي للدراسات النظرية أضيفت إلى هذه الدراسات مقررات لتعلم اللغة الفارسية أو اللغة العربية بجانب إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية ثم التاريخ الإسلامي والجغرافية . أما إذا لم يكن لديها استعداد ذهني لهذه الدراسات النظرية فلأنها تتلقى دروساً في التفريز والحياكة والموسيقى والغناء والرقص . وتم هذه الدراسات بكافة نوعياتها في نطاق التقاليد الإسلامية . وكانت الجوارى تنتظمن في مجموعات ، قوام كل مجموعة عشر جوار . وتشرف رئيسة على كل مجموعة . وتمضي الأيام وترداد الجارية جمالاً في الخلفة ، ورشاقة في الجسم ، وعمقاً في الثقافة ، وأدباً في الحديث ، ورفاهية في الحس . وكان لا بد

(١) D'Ohsson Ignatius Mouradgea; op. cit., t. VII, pp 63-64.

(٢) يخشى من هولاء الفتيات اللاتي يحصل عليهن السلطان بطريق الهدايا من كبار موظفي الدولة .

أن يحدد مستقبلها عند من معينة أقصاها الخامسة والعشرين ، فيعتقها السلطان . ويأذن لها كسيدة حرة في الزواج من أحد كبار العسكريين أو المدنيين . وكان السلطان هو الذي يختار لها الزوج وتغادر القصر كما سبق أن ذكرنا . وقد تجلبب الجارية انتباه السلطان إليها ويعتقها وتنجب منه ولداً أو بنتاً أو أكثر . وتصبح أما لأولاده ويعلو مركزها إلى مرتبة تقرب من مرتبة السلطنة . ويطلق عليها لقب قادين (١) . وعلى ذلك فإن عبارة « الحریم السلطانی » كانت تعني في أحد مدلولاتها المكانية مدرسة لإعداد قادينات السلطان أو زوجات لكبار موظفي الدولة المدنيين أو العسكريين .

قادينات السلطان :

ذكرنا أن السلاطين السبعة الأوائل تزوجوا نساء حرائر بعقود زواج شرعية . وأن السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة بعد السلطان محمد الفاتح قد أطرحوا إطرأحاً تماماً مثل هذه الزيجات ، وانجهوا إلى جوارى القصر باعتبار الجارية ملك يمين السلطان ، له أن يطأها وتنجب منه ذكوراً وإناثاً ، فتصبح أم ولد ويتمتع نسلها بالحرية . أما هي فتعتق عقب وفاة السلطان . وله أيضاً أن يعتقها ويعقد عليها ، وينجب منها . وقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جوار من جوارى القصر . واحتفظ في ذات الوقت بسائر جواريه ، لأن الشريعة الإسلامية لا ترفع قيداً على حدد الجوارى اللاتي يجوز للرجل المسلم أن يحتفظ بهن ويطأهن .

امتيازات القادينات :

حرص كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع « الجوارى » السابقات الأربع مكاناً حلياً بعد أن أحققن وتغير وضع كل منهن الاجتماعي ومركزها القانوني من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها قادين (٢) Une Cadine ، وكانت القادينات الأربع تظفرن بمعاملة تقرب

(١) أنظر مايل .

(٢) قادين كلمة تركية معناها سيدة . وفي الأمم الأتلي تطلق على السيدة ذات المركز الاجتماعي التميز . وتجمع قادينات . وورد ذكرها في المراجع الإنجليزية Kadin وتجمع Kadins أما في المراجع الفرنسية فترد في بعضها Cadine وفي صيغة الجمع Cadines . وفي بعض -

من المعاملة التي كانت تلقاها السلطانات من حيث الاحترام العميق ، وتحديد
أوضاعهن في البروتوكول العثماني ، وتخصيص جناح خاص لكل منهن في
منطقة الحرم السلطاني . فكانت كل قادين تعيش بمنزل عن زميلاتها القادينات
الثلاث الأخريات ، ولا يرى بعضهم البعض إلا في الحفلات . فكانت كل
قادين بمثابة سلطنة . كانت لكل منهن حاشية تقوم على ضامتها ، وكانت
ترصد احتياجات مالية لكل منهن ، وترتب قوة من الحرس لكل منهن ، وغير
ذلك من امتيازات بحيث كن يشكلن أعلى درجة في الحرم السلطاني باستثناء
والدة السلطان إذا كانت لا تزال على قيد الحياة .

تحديد أوضاع القادينات :

وكان هناك اعتباران في تحديد أوضاع القادينات في البروتوكول العثماني :
أحدهما أقدمية القادين بين أربابها القادينات . ولذلك كانت تطلق عليهن
ألقاب معينة ، هي : بيوك ، إيكينجي ، أورتنجه ، كجرك (١) . أي الكبرى ،
الثانية ، الوسطى ، الصغرى ، على التوالي . وثانيهما ، وهو الأهم ، نوعية الطفل
الذي تنجبه . فإذا أنجبت ولداً للسلطان أطلق على والديه لقب أكثر فخامة ،
وهو « باش قادين » أي كبيرة القادينات . ويطلق عليها أيضا . « خاصصكي
سلطنة » (٢) Hasseki Sultan تقريباً لمركزها من مركز السلطنة الحقيقية .
وتصبح السيدة الأولى في القصر بعد والدة السلطان . ويكون ابنها في العادة
ولياً للعهد ويترجع على العرش بعد وفاة والده إذا سارت الأمور سيراً عادياً
ولم يتعرض لمؤامرات تحاك ضده سواء في القصر أو في النوازل العليا في
الحكومة المركزية في إسطنبول . وكان يطلق لقب « خاصصكي سلطنة » أيضا
على بنات السلطان من باب التجاوز . أما إذا أنجبت القادين بنتاً فقط أطلق
عليها « خاصصكي قادين » Hasseki kadin أو « خاصصكي خاتون »

المراجع الفرنسية الأخرى ترد مكتوبة على هذا النحو : La Khatoune أي « خاتون »
أو « كاتون »

(١) ترد ألقاب هؤلاء القادينات في اللغة التركية مكتوبة بالحروف اللاتينية على هذا النحو :

Buyuk, ikincii, Ortanca, Kuçuk.

(٢) خاصصكي مأخوذة من الكلمة العربية خاص ، ويقال إنها مأخوذة من اللفظة الفارسية

خاصصكي بمعنى خاص أو حسن . ويصمم هذا اللقب « خاصصكي سلطنات » .

ويطلق عليها أيضا « خاصكى كاتون » Khasseki-khatoun ومعناها
والدة ابنة السلطان .

مستقبل القادين إذا انصرف السلطان عنها في حياته أو توفي عنها :

وعلى الرغم من الامتيازات التي كانت تتمتع بها القادينات ، فإن مركزهن
لم يكن مستقراً بصفة عامة . فقد يحدث أن يسأم السلطان من إحدى القادينات
لسبب من الأسباب . ولا معقب لرأيه في هذه المسائل الشخصية والحساسة ،
فينفصل عنها بسهولة وسرعة ، ويأمر بأن تغادر القادين السراى الجديد -
للقصر الجديد - إلى القصر القديم (١) . وفي هذه الحال يملأ مكانها الشاغر
في الحرم السلطاني بجارية يعتمقها السلطان ويرفعها إلى مرتبة قادين .

وإذا توفي للسلطان تنتقل قاديناته إلى القصر القديم ما عدا الياش قادين -
كبيرة القادينات - إذا تولى ابنها العرش ، فلها تبقى في القصر الجديد ،
وأكثر من ذلك ، تغدو بين عشية وضحاها ، والدة السلطان الجديد والسيدة
الأولى في القصر ، وتمارس في هذا الموقع نفوذاً كبيراً على الحرم السلطاني
بكافة هيئاته النسائية والخصيانية . ومنزى أمثلة لأمهات سلاطين بلغن من
علو النفوذ أنهن نجحن في إقصاء أبنائهن السلاطين عن ممارسة معظم

(١) السراى Serây كلمة تركية مأخوذة من اللغة الفارسية ومعناها قصر . وهناك
رأي آخر يقول إنها مأخوذة من الكلمة الإيطالية Seraglio بنفس المعنى . وكان السراى القديم
مبارة من مبنى أقيم على عهد العولة البيزنطية . ولما فتح السلطان محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١)
القسطنطينية أمر بتربيته واستخدمه به فتح هذه العاصمة فوراً (١٤٥٣) . ويقع هذا القصر
القديم في المكان الذي تشغله حالياً جامعة إستانبول .

أما السراى الجديد فقد أمر هذا السلطان بتشييده . وأمه عام ١٤٦٨ ، وهو الآخر كان
يضم بعض مباني كانت موجودة بالفعل . ويطلق على هذه المباني الآن طوب قاي سراى Top
Kapi Serây . وإلى عهد السلطان سليمان المشرع كان السلاطين يوزعون إقامتهم - حين
يكونون في إستانبول - بين القصرين . ولم يصبح القصر الجديد المقر الوحيد لإقامتهم إلا منذ
حكم السلطان سليمان المشرع .

أنظر :

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol. 1. Part 1, p. 74,
N. (1),

اختصاصاتهم بعد أن هيأن لهم الجو للانغماس في النسائيات . وأصبحت هؤلاء الأمهات القادينات في ظل هذه الأوضاع مراكز قوى خطيرة في تاريخ النولة . وعلى هذا النحو أصبح القصر القديم في فترة من الفترات بمثابة مشى للقادينات اللاتي هجرهن السلطان أو توفى عنهن هذا السلطان . ومع ذلك لم يكن الطريق أمامهن مسوداً وبخاصة اللاتي لم ينجبن ذرية من السلطان المتوفى . فقد كن على أية حال سيدات حرائر سبق أن نلن حريتين من السلطان . وكان كثير من رجال الدولة الطموحين يسعون إلى الزواج بهن ليتخلوا منهن وسيلة إلى الخلفر ببعض المناصب ذات المستوى الرفيع . إذ كانت أولئك القادينات السابقات ؛ يسمح لهن بالتردد على الحرم السلطاني وزيارة قادينات السلطان الجديد . ولتضمن منهن مساعدتهن على تعيين أزواجهن في مناصب مرموقة . وكانت القادينات الجديدات يستجبن في الأعم الأغلب لرجائهن . وكان السلطان بنوره ينفذ رغبات قاديئاته . وكانت نوعية سلاطين الفترة الثانية مما ساعد على نمو هذا النفوذ الجانبي ، لأن هؤلاء السلاطين اعتادوا الحياة بمعزل عن الناس مما جعلهم يتأثرون بتوجهات أو آراء المحيطين بهم وبخاصة النساء .

لم تكن هناك أسباب جديدة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

ومن الصعب تفسير تمسك سلاطين الدولة بنظام تعدد الزوجات بأنه كان وسيلة شرعية يضمن بها كل سلطان إنجاب ابن له يرث العرش من بعده ؛ إن هذا القول يعتبر تبريراً ولا يعد تفسيراً علمياً ، لعدة أسباب ، منها :

أولاً : ثبت تاريخياً أن ثلاثة عشر سلطاناً تعاقبوا على عرش الدولة منذ حكم عثمان الأول حتى محمد الثالث ، وهي فترة زمنية استطلت أكثر من ثلاثة قرون (١٢٩٩-١٦٠٣) ، كان كل سلطان خلالها يورث العرش من بعده لإبنه . ولم يحدث سوى استثناء واحد بعد هذه الفترة حين جاز إلى ربه السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) بدون عقب . ومع ذلك لم يتعرض العرش الثماني لأية هزة ، لأن السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان قد أبى على إخوته ، وأصبح العرش ينتقل إلى غير الأبناء ، وأوصى إلى

أخيه بالملك وأصبح توارث العرش على قاعدة الأرشد فالأرشد . وتولى العرش أخوه باسم مصطفى الأول (١٦١٧-١٦١٨) (١) ثم تعاقب على عرش الدولة ثلاثة إخوة من أبناء السلطان أحمد الأول (٢) . وتولى العرش بعد ذلك ثلاثة إخوة وكانوا من أبناء السلطان إبراهيم (٣) .

لانياً : إن أحد سلاطين الفترة الثانية وهو سليم الثاني قد توفى عن ستة أولاد (٤) وثلاث بنات . وتولى أكبر الأبناء العرش ، وهو مراد باسم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) . وكان أول عمل قام به أنه أمر بدميخ لإخوته الخمسة كى يأمن على نفسه وعرشه من دسائسهم (٥) . فلذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إنجاب ابن يكون وريثاً للعرش لما أنجب ذلك السلطان ستة أولاد .

ثالثاً : تكررت هذه المأساة بصورة أشد حنفاً وأكثر إبلاماً . فإن ذلك السلطان مراد الثالث توفى في مساء اليوم السادس من شهر يناير - كانون ثان - عام ١٥٩٦ عن خمسين سنة وبعد حكم دام لإحدى وعشرين سنة :

(١) عاد إلى العرش سنة ١٦٢٢ بعد خلع ، وعلع ثانية سنة ١٦٢٣ لأسباب لا تمت بصلة إلى نظام توارث العرش ، بل لأسباب تتصل بالإكثارية كتركز قوة خطير في الدولة يتدخلون في عزل وقتل السلاطين والصفور النظام ومن إليهم .

(٢) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

١- حيان الثاني ١٦١٨-١٦٢٢ .

ب- مراد الرابع ١٦٢٣-١٦٤٥ .

ج- إبراهيم ١٦٤٥-١٦٤٨ .

(٣) كان هؤلاء السلاطين الثلاثة الإخوة هم :

١- محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧ .

ب- سليمان الثاني ١٦٨٧-١٦٩١ .

ج- أحمد الثاني ١٦٩١-١٦٩٥ .

(٤) كان الأولاد الستة هم : مراد ، ومحمد ، وسليمان ، ومصطفى ، وجيهانكير ،

ومهداته .

أنظر :

محمد فريد بك مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٥

(٥) Grant A.J., A History of Europe (1494—1610), op. cit., p. 225.

وأُنجب عشرين ابناً غير عدد من البنات . وقد تولى العرش من بعده أكبر أولاده باسم للسلطان محمد الثالث (١٥٩٦-١٦٠٣) . وكانت والدته من جمهورية البندقية . وكان أول عمل قام به هو ذبح لإخوته التسعة عشر أبقى الوقت الذى كان يوارى فيه جثمان والده . فإذا كان الهدف من تعدد الزوجات والقادينات هو ضمان إيجاد وريث للعرش لما أنجب ذلك السلطان هذا العدد الوفير من الأبناء .

وأخيراً : إن السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) قد أنجب مالا يقل عن واحد وثلاثين ولداً . وعلى الرغم من أنه كان يجب المال جيداً جداً إلا أنه أنفق الكثير من الأموال على حفلات ختان أولاده . وكان يميل إلى حياة التهنك ، ويقضى وقته فى اللهو والمتع الجنسية مع قاديناته وجواريه (١) .

إخامساً : إن ظاهرة تعدد الزوجات والقادينات وما أحاط بها من حياة الخون كالإسفاف فى النسائيات وإدمان الخمر كانت ظاهرة بارزة على عهد سلاطين الفترة الثانية ، إذ كان عدد منهم قد استغرقوا فى شهواتهم .

سادساً : لم يكن الباحث هؤلاء السلاطين على تعدد الزوجات والقادينات هو الاستفادة من رخصة أجازها الإسلام للزوج لاستخدامها فى ظروف استثنائية سبق أن شرحناها ، ولكن كان الباحث لهم هو استغلال هذه الرخصة . وشارك كبير بين الاستفادة والاستغلال .

سابعاً : لم يقنع السلاطين بتعدد الزوجات ، إذ كانت توجد فى الحرم السلطاني أعداد وفيرة من الجوارى الحسان يحتفظ كل سلطان بهن . وتقوم سيدة صجوز من سيدات القصر بتنظيم ليالى السلطان مع الفتيات الفانات . وكان الآية القرآنية الكريمة تنطبق على فريق من سلاطين الفترة الثانية ممن أطلقوا العنان لشهواتهم ، زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير

المتنطرة (١) من الذهب والفضة والتحليل المسومة (٢) والأنعام (٣) والحراث (٤) ،
ذلك متاع (٥) الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المثاب ، (٦) .

العراق الوخيمة لتعدد زوجات وقادينات السلاطين :

نجم عن تعدد الزوجات والقادينات مشكلات خطيرة انعكست آثارها
على الدولة . فإن تعددهن أدى إلى تعدد الأمهات . وأدى تعدد الأمهات
بعبوره إلى إشاعة جو صاخب من الغيرة والحقد والتنافس بينهن . إذ كانت
كل أم أمجبت مولوداً ذكراً تسمى سعيماً حثيثاً كي يكون ابنها ولياً للعهد ،
ولو كان ترتيبه أى وضعه فى البروتوكول لا يؤهله لشغل هذا المنصب . ومن
ثم تحاك المؤامرات ويشترك فى تنفيذها الخصيان وروساؤهم ، فضلاً عن
الصدر الأعظم المتعاطف مع القادين أو المنصاع لها أو الضالع معها بدافع
مصلحة مشتركة بينها . وتعدو القادين مركز قوة خطير ، إذ نجد من السلطان
أذنأ صاغية . وتندى هذه المؤامرات عادة بقتل ولى العهد الذى كان والده
قد اختاره ليعتلى العرش من بعده . كما أدى تعدد الزوجات والقادينات إلى
وجود تنافر حنيف بين السلطان وأبنائه الذين أنجبهم من سيدة أخرى والذين
حرموا من وراثة العرش . وقد وصل هذا التنافر فى عدة حالات إلى حد
الصراع الحربي السافر بين السلطان وهؤلاء الأبناء . ثم كان هناك أيضاً التنافر
بين الإخوة وخصوصاً الإخوة غير الأشقاء . وكان كل منهم يلوذ بوالدته
فقسى عن طريق المؤامرات الماهرة للدولة لتحقيق حلم جميل يراود الإبن

(١) القناير جمع قطار . والمتنطرة مشتقة منها لتأكيد . ويراد بالبارية المال الوفير .

(٢) المسومة أى الملعنة ، من السومة وهى اللعنة ، وتبيل المرسله وعليها ركباتها ، وتبيل
القمرى من المروج والمرامى .

(٣) الأنعام جمع نسم ، وهى الإبل والبقر والنعيم .

(٤) الحراث إلقاء البذر فى الأرض وتبيلها لزرع . وقد يسمى الحروث حراثاً . والمراد
هنا المزروعات .

(٥) المتاع أى التمتع .

(٦) المثاب المريج ، من تهب يثوب ثوباً ، أى رجع .

(٧) سورة آل عمران ، آية رقم ١٤ .

ووالدته معاً . وهكذا امتلأ الحرم السلطاني بمجو خاتق موبوء بالمؤامرات
والدماسيس والتكتلات النسائية والتيارات الحفية المتنافرة أشد التنافر .

شخصيات نسائية أخرى في الحرم السلطاني :

بجانب الزوجات الحرائر المسلمات والمسيحيات للسلاطين ، وبجانب
قاديئاتهم بعد ذلك ، كانت توجد في الحرم السلطاني سيدات وفتيات أخريات
كان هن وزن ونقل وهيبان إلى حد أن بعضهن كن يفقن الزوجات والقاديئات
في المكانة والنفوذ بحيث أصبحن يشكلن مركز قوة خطير في تاريخ الدولة .
وكان على رأس هذه الشخصيات النسائية : والدة السلطان ، ومجموعات من
الجواري الفاتنات كان هن ، بطبيعة أعمالهن واختصاصاتهن ، دلال على
السلطان .

والدة السلطان :

كان أعلى مركز في الحرم السلطاني يمكن أن تسمو إليه سيدة هو مركز
والدة السلطان الحاكم ، ويطلق عليها « سلطنة والدة » La Sultane - Validé
أى والدة السلطان ، إذ كان السلاطين العثمانيون يكونون لأمهاتهم قدراً كبيراً
من التبرجيل ، ولا يرفضون هن طلباً . ولا يقف نفوذ والدة السلطان عند هذا
الحد ، بل كان نفوذها يمتد إلى جميع زوجات ابنا السلطان وجواريه .

وكانت لها سيدة بمثابة رئيسة أو مديرة لمكتبها أو وكالة عنها تسمى « كاخيا
سلطنة والدة » . ويقع عليها الاختيار عادة من بين السيدات المتقدمات في
السن ، واللاتي قضين سنين حرداً في أجنحة الحرم السلطاني حتى يمكن
الاستفادة من تجاربها وخبراتها . ويعمل تحت إمرتها عدد كبير من السيدات
والفتيات . وكانت تعد المتحدثة الرسمية باسم والدة السلطان . وفي ذات الوقت
كانت أداة الاتصال بينها وبين السلطان وزوجاته أو قاديئاته . وفي ظل هذا
المركز مارست نفوذاً واسعاً جداً سواء في القصر أو في دوائر الحكومة .
ويتساعد نفوذها ويتألق نجمها إذا كانت والدة السلطان سيدة أجنبية الأصل
ذات شخصية قوية . ويلاحظ أن قسماً من اختصاصات هذه السيدة « كاخيا

سلطانة والدة « كان يتداخل مع اختصاصات رئيس الخصيان . وكان الأخير يمثل مركز قوة خطير في الحرم السلطاني ، ويدور في الخفاء صراع بين هاتين الشخصيتين . وكانت الغلبة في معظم الحالات للسيدة « كاخيا سلطانة والدة » بصفتها أداة الإتصال بين أكبر شخصية نسائية في الدولة وبين السلطان . وكانت تستأثر بموضوعات تتصل بالسياسة العليا أو بمسائل هامة ذات الطابع العاجل وتتطلب الاتصال القوي بالمسؤولين والمسئوليات .

أولاد السلطان وبناته :

وإلى جانب السلطانة والدة وزوجات السلطان كان يعيش في القصر أولاده وبناته . أما الأولاد فكانوا يتلقون دراسات مدنية وعسكرية مع اهتمام عميق بالجوانب الدينية ومواد الثقافة العامة واللغات . وكانوا يغادرون القصر السلطاني في سن مبكرة ، ويصدر السلطان فرماناً بتعيين الإبن حاكماً على مدينة كبيرة أو مقاطعة ومنحه رتبة صنيق بك ، ويغادر القصر والعاصمة وبصحبه حاشية كبيرة العدد للعلمنة الداخلية والخلمة الخارجية وعدد من الخصيان وحرس كثيف العدد . ويعيش في موقعه الجديد وكأنه سلطان صغير . فإذا ابتسم له الحظ وترجع على عرش الدولة بعد وفاة أبيه فإن والدته لا تغادر القصر المسمى السراي الجديد إلى السراي القديم شأن الزوجات والنساء الأخريات للسلطان المتوفى ، بل تصبح سيدة القصر الأولى بصفتها والدة السلطان الحاكم ، وتغدو صاحبة النفوذ الأعلى . أما البنات فكانن يحضرن دراسات خاصة تعدن في الدين واللغة التركية وإحدى اللغات والموسيقى ومواد ذات ثقافة نسائية وثقافة عامة . ويظلمن في القصر حتى يأمر السلطان بزويج الإبنة إلى أحد كبار رجال الدولة مثل الصلوا الأعظم أو أحد الوزراء أو أحد كبار البهاية . وكان يغادرن القصر بعد إتمام الزواج ؛ وكان يتزوجن في مقتبل العمر ، وللملك لم تكن إقامتهن في القصر السلطاني تمتد سنوات طوالاً .

عناصر نسائية أخرى في الحرم السلطاني :

كانت تلى القادينات في المركز أربع جوار يطلق عليهن « الكدكليات (١)

(١) Gedikli أو Guédikli ومعناها المميزات أي اللاتي يعتمدن بميزات معينة .

أى المديرات . وكان مرشحات الترقية إلى مرتبة قادين عنانها يخلو هذا المنصب لسبب أو لآخر . وكانت الكا،كليات تتمن على خدمة السلطان شخصياً . وكان السلطان يتخذهن محظيات له *des concubines* وكانت تعمل معهن في هذا المجال وعلى اتصال أوثق بالسلطان مجموعة من أترابهن يطلق عليهم « خاصر أو طه لى » (١) أو فتيات الحجرات . وكان يطلق على الواحدة منهن أيضاً « إقبالة » أى معجدة الحظ (٢) .

وكانت توجد في الحرم السلطاني وظيفتان رئيسيتان تشغلها جارياتان ، يطلق على شاغرة الوظيفة الأولى « كاخيا قادين » (٣) وكان يطلق عليها أيضاً « المعلمة » . وكانت مسؤولة عن النظام في أجنحة الحرم . ويطلق على شاغرة الوظيفة الرئيسية الثانية « خزينة دار أوسعى » (٤) أى الخازنة . وكانت مسؤولة عن المسائل المالية الخاصة بالحريم السلطاني بجميع فئاته وطوائفه . وكان يلى هؤلاء عدد من الجوارى كن يتمن على خدمة والدة السلطان والقاديات وأولادهن وبناتهن . ثم كانت هناك طائفة أخرى تسمى « شاكر زاده » (٥) بمعنى التلميذات ، وهن الجوارى اللاتي التحقن حديثاً بالقصر ، وكان يقضين أوقانهن في دراسات نظرية وعملية وتدريبات تطبيقية . وأخيراً كانت هناك طائفة الخادجات ، وكان يشكلن أدنى الطوائف مرتبة في الحرم السلطاني . وكان لا يرتفعن عن مرتبتهن إلا نادراً (٦) ، بينما كانت سيدات وفتيات الطوائف الأخرى يشققن طريقهن مندرجات إلى المراتب العليا (٧) .

(١) *Khass-Odalik* أو *Hass-Odalik* بمعنى « تابع للقرعة » .

(٢) إقبالة *Ikbâle* كلمة تركية مقتبسة من الكلمة العربية إقبال .

(٣) كاخيا بمعنى وكيل أو وكيلة .

(٤) خزينة مأخوذة من الكلمة العربية في اللغة الفصحى خزانة . وكلمة دار فارسية بمعنى

صاحب أو مدير . وأوسطى لفظة فارسية أيضاً بمعنى أستاذ أو رئيس أو رئيس عمل . والمعنى

العام هو الأستاذة رئيسة الخزانة .

(٥) شاكر زاده كلمة فارسية معناها تلميذ وتطلق على التلمذيين .

Lybyer A.H; op. cit., p. 56 . (٦)

Gibb Hamilton and Harold Bowen, op. cit., Vol. 1, Part 1, p. 74. (٧)

على هذا النحو كان الحرير السلطاني بمثابة مدينة صغيرة، ويشمل إلى جانب الحصيان عماداً كبيراً من السيدات والجوارى وغيرهن ذوات مستويات مختلفة من حيث المركز الاجتماعى والثقافى والعمل الذى تقوم به كل منهن . وقد بلغ عماد الحرير السلطانى ما يقرب من ثلاثمائة على عهد السلطان سليمان المشرع (١) ، وقفا قفز هذا العدد فى العهد اللاحقة قفزات سريعة وكبيرة .



افضل الحادى والعشرون

مراكز القوى في الدولة (٥)

الحريم السلطاني

تغلغل نفوذ الحريم السلطاني في شئون الدولة :

قامت سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني بدور خطير في توجيه السياسة العليا للدولة حتى أصبحن يشكلن أقوى وأخطر مراكز القوى في الدولة على الإطلاق . كن يعملن على إشعال الحرب بين النواولة وأعدائها سواء في أوروبا أو في آسيا . وكن يتدخلن في شئون الجيش وبخاصة قياداته العليا ، وكن يتدخلن في تعيينات كبار الموظفين أحياناً ، وفي ترقياتهم أحياناً ثانية ، وفي عزلهم أحياناً ثالثة . فإذا كان الصدر الأعظم هو الشخص المطلوب عزله ، تدخلت السلطنة الوالدة لدى ابنا ، أو الباش قادين أو القادين لدى السلطان فيصدر الأخير فرماناً بعزله . وكان هذا النزاع يقترن عادة بقتله فوراً أو بعد أيام ذات عدد . أما إذا كان الشخص المراد إقالته يشغل منصباً ثقل مرتبته عن مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحدى سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني لدى الأخير فيصده بما يؤمر به . وكان رؤساء الأغوات الخصيان السود أو البيض هم حلقة الاتصال بين هؤلاء السيدات وبين السلطان والصدر الأعظم . يقول المستشرق بونون في تعليقه على تسلل نفوذ الحريم في أجهزة الحكومة إن كلمة واحدة تصدر عن قادين كانت تصنع الأهاجيب في معظم الأحوال . (١)

A word from a kadin often worked wonders.

أسباب نمو مراكز القوى في الحريم السلطاني :

ومرد هذه الظاهرة التي فشت فشواً كبيراً منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن التالي له إلى سببين رئيسيين هما : ضعف شخصيات السلاطين الذين حكموا الدولة إبان هذه الفترة ، ومجموعة الباشوات الذين تعاقبوا بكثرة ملحوظة على منصب الصدارة العظمى في أثناء هذه الفترة أيضاً . ويستثنى من أولئك السلاطين والصدور عدد قليل جداً كانوا على درجة كبيرة من الخلق والكفاية. وانكشف على عهد هذه القلة نفوذ الحريم السلطاني كمركز قوة . ولكن سرعان ما كانت تستعيد سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني نفوذهن بمجرد قتل أو وفاة هذه القلة من السلاطين والصدور العظام .

أولاً : ضعف شخصية سلاطين تلك الفترة :

انصرف معظم سلاطين تلك الفترة عن شؤون الدولة . وكانوا لا يقابلون كبار الموظفين إلا على فترات زمنية متباعدة ، وكانوا لا يخرجون مع الجيش إلى ساحات القتال باستثناء ثلاثة من السلاطين الثمانية الذين حكموا الدولة بعد سليمان المشرع حتى محمد الرابع . وكان هؤلاء السلاطين الثلاثة هم : محمد الثالث (١٥٩٦-١٦٠٣) في حملة كيريزتس (١) Keresztes ، وعثمان

(١) تعالت أصوات المسلمين في إستانبول بوجه خاص بضرورة خروج السلطان محمد الثالث إلى الحرب بعد أن تواتت على العاصمة أنباء الهزائم الأليمة والمتعاقبة التي نزلت بالجيش النماني في أوروبا . وخرج السلطان ومعه اليرق البوي لقتال الجيوش الإمبراطورية التي كانت تتكون من الألمان والإيطاليين والمجر . وكان يقود هذه الجيوش الأرشيدوق مكسيميليان L'Archiduc Maximilien وسيجيسموند زابوليا Sigismond Zápolya وتقابل المتحاربون في معركة ساخنة في كيريزتس استمرت ثلاثة أيام تبادل فيها المتحاربون الهزيمة والانتصار ، وانتهت في اليوم الثالث - السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٩٦م - بانتصار ساحق للممانيين الذين أزلوا حصاراً فادحاً بالقوات الأوروبية المتحالفة . وبلغت خسائرها خمسين ألف جندي . وكانت هذه المعركة تشبه بالنسبة للمجر معركة موهاكز في اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس - آب - عام ١٥٢٦ وهي المعركة التي أباد فيها الجيش النماني بقيادة السلطان سليمان المشرع الجيش المجرى وقتل فيها لويس الثالث ملك المجر . هذا وتقع كيريزتس على نهر التايس Theiss الذي ينبع من جبال الكركرات في أوروبا الوسطى . ويمر في تشيكوملوفاكيا والمجر ويوغوسلافيا ويصب في نهر الدانوب -

الثاني (١٦١٨-١٦٢٢) في حياة كوتين (١) Khotin ، ومراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) في حياة بنفاد (٢).

من شاطئه الأيسر على مقربة من بنفاد . ويطلق بعض الباحثين على هذه المعركة اسم معركة التايص .

انظر :

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : أوروبا في مطلع أئح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،
للطبعة الأولى ، ص ص ٧٨٤ - ٧٨٥ .

(١) كان يعيش على حدود الدولة العثمانية وبولندا القوزاك Les Kosaks والنتار . وكان القوزاك المقيمون في كرواتيا يعتبرون من رعايا بولندا . أما النتار فكانوا يشكلون دولة تسمى غالية القرم ، وكانت شبه مستقلة ومرتبطة بالدولة العثمانية التي أبتت عليها لانتخاؤها دولة ملجزة لأنها تقوم على حدود دول معادية . وكان خانات القرم يتصرفون بسيادة السلطان عليهم . وكانوا يتسلمون من السلاطين الأطواخ والأعلام والتفويضات الكتابية . وكثيراً ما أدى احتكاك النتار بالقوزاك إلى اشتعال الحروب بين الدولة العثمانية وبولندا . وكانت بولندا تتطلع إلى احتلال إقليم مولدافيا وانزاعه من العثمانيين . وقويت الدولة العثمانية في عام ١٦١٨ باضطرابات خطيرة تشتمل في مولدافيا بقيادة حراثاني Gratiani . وسارع البولنديون والقوزاك بالانضمام إليه ما أدى إلى اشتداد ساعد التوار . وكانت قد أبرمت معاهدة بوسا Bousa في اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦١٧ بين الدولة العثمانية وبولندا تقرر فيها ألا تتدخل بولندا في شئون مولدافيا وولاشيا وترنسلفانيا ، وأن يظل نهر دانيستر Daniester الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وبولندا ، وأن يتعهد السلطان بمنع النتار من مهاجمة الأراضي البولندية . وصحبت هزيمة السلطان عثمان الثاني على إخماد هذه الاضطرابات ، وزحف عام ١٦٢١ على رأس الجيش على كوتين . وحقت الحملة العثمانية معظم أهدافها وعقدت معاهدة في عام ١٦٢٣ تقرر فيها أن تستمر بولندا في دفع جزية سنوية حددت بأربعين ألف فلورين Florins إلى خان القرم ، وأن يتعهد الخان بعدم الإغارة على الأراضي البولندية .

(٢) كانت الحدود بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس مصدراً لاحتكاكات عديدة بينهما . وأدت إلى نشوب حروب عديدة وطويلة وضارية . كما تعددت الثورات والاضطرابات في الأقاليم العثمانية في تلك المناطق . وأراد السلطان مراد الرابع أن يحسم سريعاً المشكلات العسكرية والسياسية مع الدولة الصفوية . فقد كانت هذه المشكلات بمثابة تزييف دموي حاد ، وتكبدت الدولة الكثير من الخسائر في الأرواح والأموال والمتاه . وفي سنة ١٦٣٥ تولى السلطان قيادة حملة كبرى زحف بها على تلك الأقاليم الشرقية ، واستولى على بعض المدن والمواقع الهامة مثل إرديفان Erivan ، ثم اتجه إلى بنفاد واستمال حصارها أربعين يوماً ، ثم دخلها في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٦٣٨ وقام الجيش

ومما هو جديده، بالذكر أن محمد فريد بك أحد رؤساء الحزب الوطني في مصر ومن أعلام الفكر والسياسة فيها (١٨٦٨ - ١٩١٩) (١) قد

العثماني جناح رهبة للقوات الفارسية التي كانت تتدافع عن بغداد . وقد أبادها على بكرة أبيها . ويقال إن عدد أفرادها بلغ ثلاثين ألت جنتى . وشملت للملاح أيضاً عدداً كبيراً من السكان المدنيين في العاصمة ، وأضربت مصانع المدنيين الآخرين الذين نجوا من الملاح . وانتهت حملة مراد الرابع بعقد معاهدة صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية في اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٣٩ (ويرد في بعض المراجع ذكر تاريخ المعاهدة اليوم السابع عشر من شهر مايو - آيار - عام ١٦٣٩) ونص فيها على أن تحتفظ الدولة الصفوية بمدينة إربيلان والمناطق المتاخمة لها . وأن تستولى الدولة العثمانية على بغداد ومنطق أخرى عديدة حددت في المعاهدة . وعاد العراق مرة أخرى إلى الحكم العثماني ، كما عادت الحدود بين الدولتين إلى وضعها السابق أيام سليم الأول وسليمان المشرع . وتسمى هذه المعاهدة صلح إستانبول الثاني تمييزاً لها عن صلح إستانبول الأول الذي أبرم بين الدولتين في اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس - آذار - عام ١٥٩٠ .

(١) كان محمد فريد بك من المروفين بتعلقهم بالدولة العثمانية طبقاً للمفاهيم السياسية التي كانت سائدة في الولايات العربية .

وقد وضع فريد بك عدة كتب ، منها :

الجهة التوقيفية في تاريخ مؤسس العائلة المهدية (١٨٩١) (محمد عل)
تاريخ الدولة العلية العثمانية ١٨٩٣ .

تاريخ الرومان . وقد نشر تباعاً حتى سقوط قرطاجنة في مجلة الموسوعات ، ١٩٠٠ ، ١٩٠١ .

وله عدة بحوث منشورة في مجلة الموسوعات ، منها :

إنجلترا وفرنسا إفريقية (عند ٢٦ أبريل - نيسان - عام ١٨٩٩) .

الإنجليز في غرب إفريقية (عند ٨ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩) .

كيف ضاع استقلال جزائر الهواى (عند ٢٣ أغسطس - آب - عام ١٨٩٩) .

إنجلترا والنرسنال (عند ٢١ سبتمبر - أيلول - عام ١٨٩٩) .

إنجلترا في جنوب إفريقية (عند ١٩ نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٨٩٩) .

الروسيا في ملكة كوريا (عند ١٣ يوليو - حزيران - عام ١٩٠٠) .

مطامع أوروبا في الصين (عند ١١ أغسطس - آب - عام ١٩٠٠) .

رياسة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية وكيفية انتخاب رئيسها (عند ٥ فبراير -

شباط - عام ١٩٠١) .

وكان آخر عدد من مجلة الموسوعات هو العدد ١٩ من السنة الثالثة وقد صدر في فرة ربيع

آخر عام ١٣١٩ - ١٧ يوليو - تموز - عام ١٩٠٩ وكانت مجلة علمية تصف شهيرة أصدرها

محمد فريد بك بالاشتراك مع الأستاذ أحمد حافظ عوض بك والأستاذ محمود أبو النصر بك .

تعرض للسلطان مراد الثالث - وهه أحد سلاطين الفترة الثانية - ونهى عليه عدم خروجه مع الجيوش العثمانية إلى ساحات الحرب ، وأرجع الهزائم العسكرية التي لقيتها النولة من جيوش الهجر والنمسا إلى تلك الظاهرة . وعلق عليها تعليقاً يفيض بالأمل والحسرة . وكان مما قاله « يجب علينا وعلى كل عثمانى التأسف والتحسر على عدم خروج السلطان بنفسه (١) إلى الحرب ، وتحمجه عن أعين جيوشه وعدم قيادتهم بذاته الشريفة إلى ساحات النصر ، فلولا ذلك لكانت الغلبة دائماً لهم بلذنه تعالى . فقا، عودهم عز وجل النصر على الأعداء في زمن أجداده سليمان وسليم الأول ومن قبلهم ، لأن وجود الخليفة الأعظم في رأس جيوشه يثبت فيهم روحاً جديدة ، فيتحدون معه قلباً وقالباً ، ويسرون معه إلى النصر المبين . والفوز العظيم . وكمن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (٢) .

سلاطين لا يراهم أحد : *Des Sultans Invisibles*

لم يتخلف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايوني - الإمبراطوري - فقط ، بل تكاسلوا أيضاً عن مراقبة أعماله وسماع مناقشات أعضائه من وراء ستار ، وهو تقليد حرص عليه سلاطين العصر الذهبي .

وكان السلاطين لا يرحون القصر ، واستطابوا الإقامة في أجنحة الحرم السلطاني يوزعون ، أو بعارة أكثر دقة ، يبدون أوقاتهم بين القادينات حيناً ، وفتيات الغرف أحياناً كثيرة التماساً للمتعة ، ويسرفون في تنازل الحصور ، ويرتكبون سائر الميقات مستغلين العزلة التي أحاطوا أنفسهم بها أو التي أحاطها سيدات الفئة الأولى من الحرم السلطاني بهم . وقد أطلق عليهم « السلاطين الذين لا يراهم أحد » *Les Sultans Invisibles* إذ لم يكن يراهم

انظر :

١- عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية . الطبعة الثالثة ، ١٩٦٢ ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ص ص ٣١ - ٣٣ .

(١) يقصد السلطان مراد الثالث .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ النولة العلمية العثمانية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٠ .

رحا هم ولا الجيش ولا الوزراء . وكانوا لا يعلمون شيئاً عن تصرفات
حكام الولايات .

Des Sultans Fainéants : « تنابلة » :

كانت أجنحة الحرم هي ماوهم ، وكان الانغماس في المتع الجنسية
وغير الجنسية مع القادينات وفتيات الغرف هو شغلهم الشاغل ، وقد قيل إنه
كان لأحد سلاطين الفترة الثانية في أثناء توليه الحكم أكثر من ثلاثمائة فتاة
من الجوارى الفاتنات (١) ، كما قيل إن عدد الذكور والإناث الذين
أنجبهم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) لم يقل عن مائة وثلاثين
نتيجة لإسرافه في المسائل الجنسية (٢) ، وأخيراً فإن جهل أولئك السلاطين
بالأحداث الجسام التي تجري في الدولة نتيجة انصرافهم عن ممارسة
اختصاصاتهم كانت سمة بارزة في أخلاقهم . ولذلك أطلق عليهم أحد
المؤرخين الفرنسيين اسم « السلاطين التنابلة » (٣) Les Sultans fainéants
وقد أشاد أحد كبار المؤرخين الإنجليز بهذه التسمية واستخدمها وهو
يتناول تاريخ تلك الحقبة ، فقال إن الدولة العثمانية ، وهي أعظم الدول
العسكرية ، قد وقعت في أيدي سلاطين « تنابلة » (٤) .

وكان عدد من أولئك السلاطين يتعرضون للغزل نتيجة تمرد عسكري
تقوم به الفياق الإنكشارية أو نتيجة فتوى تصدر عن شيخ الإسلام بعدم
صلاحيتهم للاستمرار في الحكم . وكان عزمهم يقترن عادة بقتلهم أو خنقهم .
والحق أن مركز السلاطين في تلك الفترة قد اهتز اهتزازاً عنيفاً في نظر
الجيش وموظفي الدولة وسائر هيئاتها والجواهر بعد أن استفاضت الأبناء

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., Vol.1, (١)
Part 1, p. 73, f.n

Loc. Cit. (٢)

(٣) كلمة fainéant الفرنسية معناها الشخص الكسول جداً ، والغافل جداً ، والذي
ليس لديه أي استعداد للقيام بعمل جدى . وتقابل في اللغة العربية العارضة « قليل » .

Grant A.J.; op. cit., p. 225. (٤)

بتصرفات أولئك السلاطين . وانتقلت هذه الأختبار عبر الحدود إلى العالم الخارجي . وإن السيف الذي كان يمسك به السلاطين الشوامخ في العصر الذهبي للدولة من أمثال أبي يزيد(١)؛ لأول الذي اشتهر باسم يلدريم أى البرق لثقلاته الحربية السريعة بين الجبهتين الأناضولية والبلقانية ، والسلطان محمد الثانى الذى فتح القسطنطينية ، وسامى الأول وسليمان المشرع ، قد تحول من سيف باتر إلى شمشيخة(٢) un hochet (٣) .

وقد بلغ من هوان السلاطين على أنفسهم فى تلك الفترة أن اتصالات السلطان بالصدر الأعظم كانت تتم عن طريق أحد العبيد الخصبان ، وكان يطلق عليه « دار السعادت أغامى » أى أغا دار السعادة . وكان يشار إلى الأخير عادة باعتباره القزلبز أغامى أى أغا البنات (٤) . وطبقاً للبروتوكول العثماني كان هذا الأغا يعد أكبر موظف فى القصر السلطاني كله . وكان يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان فى درجة وزير ويحمل ثلاثة أطواخ . وقد أتاح الوضع المتميز جداً لهذا الخصى فرصة ذهبية للحريم السلطاني لتصعيد نفوذهن كمركز قوة ، فينتقلن إليه أوامرهن أو رغباتهن سواء للسلطان أو الصدر الأعظم . وكانت مؤامراتهن نجماً . طريقتهما معبداً وميسراً للتنفيذ الفورى .

أشهر قصة غرام فى تاريخ الدولة العثمانية :

ونلحق بسلاطين الفترة الثانية . سلطاناً آخر كان آخر سلاطين الفترة الأولى وهو سليمان المشرع . وعلى الرغم من أنه يقف فى الصف الأول من بين سلاطين الدولة فى جميع عصورها وبلغت الدولة على عهده الأوج فى القوة

(١) بازيد هى النطق التركى لكلمة « أبو يزيد » .

(٢) كلمة hochet فى اللغة الفرنسية تقابل فى اللغة العربية الدارجة لفظة شمشيخة بهم حرف البين وسكون حرف الغاء . وهى لعبة خفيفة جداً فى وزنها تعطى للطفل الذى لا يزال يبحر فى مهده . وهى عبارة عن كرة صغيرة مفلقة تماماً . وبدأخلها عدد من الكرات الصغيرة - البلى - ولها مقبض فيمسك الطفل المقبض ، ويهز الكرة فتحدث صوتاً ينبعث من هذه الكرات . وتستخدم هذه الكلمة أيضاً للدلالة على الشيء قليل النفع أو ضئيل القيمة .

Lavisse et Rambaud op. cit., t. v, p. 883.

(٣)

(٤) انظر الفصل الثالث .

والنفوذ في السياسة الدولية وفي الإتساع الإقليمي ، إلا أنه كان على شاكلة
سلطين الفترة الثانية من ناحية واحدة ، هي خضوعه في سنواته الأخيرة من
عمره الملبد لإحدى قاديئاته خضوعاً كاد يكون تاماً . وهي جارية روسية
الأصل تسمى روكسلانه Roxelane وكانت ذات وجه باسم ، وكانت على حظ
موفور من الجمال هام بجها وأنجب منها ذكوراً وإناثاً . ولما بلغ من الكبر
عتيا ووهن العظام منه سيطرت على قلبه وعقله بحيث أصبحت مستشاره الأول .
وحاول السلطان استعادة أيام الشباب وميعه الصبا ، وهي أيام كانت قد ولت
بالنسبة له . وكان في حكم الاستحالة أن يعبد عقارب الساعة إلى الورا .
ومن الحقائق التي يستخلصها الباحثون من دراسة سير عظماء التاريخ أن بعضاً
منهم يحاولون وهم يخطون خطواتهم الأخيرة في الحياة أن يعرضوا ما فاتهم
في حياتهم من متع رخيصة صرفهم عنها الأبحاث العسكرية أو السياسية أو
العلمية التي شاركوا في صنعها وتركوا بهاهم قوية في تاريخ بلادهم بسبب
هذه الأبحاث ونتيجة لها . وهكذا كان شأن سليمان المشرع مع روكسلانه
ذات الجمال والدلال والإغراء . وكان لإفراطه في الافتتان بها وخضوعه لها نتائج
أضرت بالمصالح العليا للدولة ضرراً بليغاً . وفي رأينا كان هيامه بها يشكل
أشهر قصة غرام في تاريخ الدولة العثمانية على الإطلاق . وستعرض في موطن
قادم في هذا الفصل لروكسلانه كمرکز قوة خطير ، ليدس في الحريم السلطاني
فحسب ، بل على أعلى المستويات في الدولة . فقد بلغ نفوذها اللورة من
الخطورة في توجيه التبادات العليا على النحو الذي كانت تشتميه . وكان
نفوذها الرهيب وسيطرتها - كمرکز قوة خطير في الحريم السلطاني - على
السلطان سليمان المشرع نقطة سوداء في تاريخ هذا العاهل .

أسباب ضعف أولئك السلاطين :

كان من أسباب ضعف شخصية أولئك السلاطين الأسلوب الذي اتبعوه
منذ أواخر القرن السادس عشر في تشيئة الأمراء العثمانيين . فقد حلدوا
إقامتهم في داخل القصر ، كل منهم في مقصورة أطلق عليها التفصص (١) وأحاطوا

(١) سبق أن درسنا هذا النظام في الفصل الثاني عشر تحت عنوان : « أقسام الأمراء »

كل أمير منهم بعدد من الجوارى والخصيان . وحرموا عليهم الاتصال بالعالم الخارجي ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخبار الدولة . فعاشوا في عزلة مدمرة ، وأصيبوا بانبيار الأعصاب ، وميل مبكر إلى النسائيات مع الجوارى . وقد طبق هذا النظام أيضاً على الأمراء الذين اختيروا لتولي العرش . فكان الأمير ولي العهد يخرج من القفص بعد وفاة السلطان الحاكم ليرتقى العرش وهو محطم نفسياً ، مهتز الشخصية ، ضعيف في تفكيره ، عديم التجارب ، تعوزه الشجاعة . يريد أن يعوض حياة الحرمان والعزلة بجزء آخر فيه تحرر ، وفيه انطلاق ، وفيه تمتع بمباهج الحياة . أما اختصاصاته كسلطان فكان لا يشارك يعرف شيئاً عنها . ومن هنا كان انصرافه عن ممارسة شؤون الدولة ، ومن هنا أيضاً كان التأثير عليه سهلاً وسريعاً من جانب والدته أو أخته أو القادينات وجميعهن من سيدات الفئة الأولى في الحریم السلطاني . وكان مطمع كل واحدة منهن أن تستأثر بالنفوذ الأعلى ، وأن تتبوأ القمة بين مراكز القوى في الدولة . والواقع أن هؤلاء السلاطين كانوا ضحية نظام فاسد ، هو نظام القفص ، استحدثه الآباء حرصاً منهم على المحافظة على مراكزهم من دسائس الأبناء أو أقاربهم أو كبار رجال الدولة يتخلدون من أحد الأمراء مطية للإطاحة بالسلطان الحاكم وتعيين آخر يأنسون إليه .

ويبين فساد هذا النظام إذا قارناه بالنظام الذي كان قائماً أيام سلاطين العصر الذهبي . فقد عمل الأخيرون على الإفادة من نشاط أمراء الأسرة الحاكمة في قيادة الجيوش أو في حكم بعض الأقاليم . وقد طبقوا هذا النظام حتى على الأمراء الذين لم يكونوا مرشحين لتولي العرش . فإذا توفي السلطان الحاكم سجد بولي العهد من موقعه إلى إستانبول لتولي العرش ، وهو بعيد عن العقد النفسية ، متفتح الذهن ، كثير التجارب ، قوى الشخصية ، على دراية واسعة بشؤون الحكم والحرب ، لا يهاب أحداً (١) .

= أنظر ص ٣٥٠ في هذه الدراسة .

(١) حدث استثناءان لنظام القفص على عهد سلاطين الفترة الثانية هما سلم الثاني أول سلاطين هذه الفترة . ولم يكن مقولاً أن يلجأ والده سليمان المشرع إلى هذا النظام للقائد المدرس . أما السلطان الآخر فكان محمد الثالث .

يضاف سبب هام ساعد على ضعف شخصيات بعض سلاطين الفترة الثانية ، ومن ثم أدى هذا الضعف إلى تصاعد نفوذ الحريم السلطاني كمرکز قوة في الدولة ، وهو أن عدداً من سلاطين الفترة الثانية تولوا العرش وهم في سن مبكرة جداً . تراوحت أعمارهم بين سن السابعة و سن الرابعة عشرة . فقد ارتقى العرش السلطانان أحمد الأول وعمان الثاني وكان كل منهما في الرابعة عشرة من عمرهما ، والسلطان مراد الرابع في سن الثانية عشرة ، والسلطان محمد الرابع وله من العمر سبع سنوات . وأقيمت على هؤلاء السلاطين وصاية باشرها عدد من الوزراء ومن إليهم من كبار رجال الدولة ، ولكنها كانت وصاية صورية ، لأن الوصاية الفعلية كانت في أيدي سيدات القبة الأولى في الحريم السلطاني .

ثانياً : ضعف الصدور العظام :

أما الصدور العظام فكانوا بدورهم - بسبب الملابس والتيارات السياسية الخفية التي أحاطت بهم من يمين ويسار - من العوامل التي ساعدت على انحسار مراكز القوى في الحريم السلطاني . فقد كثر تعاقبهم على منصب الصدارة العظمى خلال الفترة التي تبدأ من أواخر القرن السادس عشر . ونذكر على سبيل المثال أنه في أثناء حكم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) اغتيل عام ١٥٧٩ محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم . وتعاقب بعد اغتياله تسعة صدور عظام على هذا المنصب خلال المدة التي تبقت على حكم مراد الثالث وهي ستة عشر عاماً ، أي بمعدل صدر أعظم واحد لكل مدة تقل عن سنتين . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى بعد ذلك إلا بعد مضي قرن من الزمان بتعيين محمد كوبريلى باشا (١) . وهناك مثال صارخ وقع في أثناء الحكم الثاني للسلطان مصطفى الأول المعروف باسم

(١) هو من أسرة ألبانية تنسب إلى كوبري ، وهي مدينة صغيرة في آسيا الصغرى على أحد روافد نهر قزل إرماك على مسافة ١٢ فرساً من مدينة آماسيا . وقد نرح إلى هذه المدينة رجل من ألبانيا مع عائلته . وعرفت هذه العائلة باسم كوبريلى نسبة إلى المدينة التي اتخذها مهجراً لها .

السلطان الأبله أو المحوه L'idiot (١٦٢٢ - ١٦٢٣) ، فقد تعاقب ستمه صدور
عظام على ذلك المنصب مع أن حكمه في الفترة الثانية لم يزد عن خمسة عشر
شهرًا ، أى بمعدل شهرين ونصف شهر لكل صدر أعظم .

وكان الصدور العظام - باستثناء محمد صوقلو باشا إلى حد ما - (١)
ضعاف الشخصية ويتم تعيينهم وعزلهم وفقاً لرغبات سيدات الفئة الأولى في
الحريم السلطاني . فكن يتدخلن لدى السلطان إما لتخلوا مباشراً وإما غير
مباشرة عن طريق أغوات الخصيان . وكان السلاطين في مجدهم يستجيبون
لرغبات الحريم .

وكان هؤلاء الصدور العظام يدركون تماماً أنهم مدينون بمناصبهم للسلطنة
الوالدة ، أو الباشا قادين ، أو القادين . ويدرك كل منهم أن بقاءه في منصبه
مرتبط برضاء الحريم السلطاني عليه . ومن ثم كان الواحد منهم أداة طيعة لينة
في أيدي الحريم . وكان كل واحد منهم يدرك أيضاً أن تباطؤه في تنفيذ أمر
يصدر لإليه مهن كان كفيلاً يزيله من منصبه . ومع ذلك فإن سيدات الفئة
الأولى في الحريم السلطاني كن يعمدن إلى تغيير الصدور العظام متى حقق
الأخيرة الأغراض التي من أجلها عينوا في مناصبهم .

وكان يراعى في اختيار الصدور العظام في تلك الفترة عدة اعتبارات
تعارض مع المصالح العليا للدولة . وكان من بين هذه الاعتبارات ما عرف
عن الواحد منهم من السلبية أو ضعف الشخصية أو ضيق الأفق العقلي
أو مصاهرته للسلطان الحاكم كأن يكون متزوجاً من ابنته أو أخته ، أو يكون
ذا من متقدمة جداً . وسرى عند عرض مراكز القوى في الحريم السلطاني
أن أحد الصدور العظام تولى منصبه الخطير وقد بلغ من الكبر عتياً ، إذ كان

(١) سبق أن سجلنا عليه بعض المآخذ . انظر في هذه النواصير ص ٣٦٨ ، وهناك فريق من
الباحثين يرمون صوقلو باشا مكاناً علياً في تاريخ الدولة العثمانية . والواقع أن هذه الشخصية
كانت تجمع بين جوانب حسنة وأخرى سيئة .

عمره وقتلذاك مائة عام . وكان هناك صدر أعظم آخر بلغ من العمر تسعين عاماً وكان ذلك على عهد السلطان أحمد الأول . وقد عهد إليه السلطان إجراء مفاوضات مع شاه الدولة الصفوية ، عباس الأول الكبير ، لتحديد الحدود بين الدولتين . ولكنه لم يكبد يبدأ المفاوضات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وسقط جثة هائمة أمام مائدة المفاوضات (١) . وكان الدولة قد أجديت أو أصيبت بالعم . فلم تكن لديها كفايات سياسية أو إدارية أو حرية يكون أصحابها في صفوان الرجولة ومضاء العزيمة ورحابة الأفق العقلي وقوة الذاكرة . ولكنها كانت سياسة مرسومة من سيدات الحرير السلطاني ، إذ كن يرتحن لمثل هذه الترحية من الصلور العظام . وهكذا غدت الدولة تجمع بين المتناقضات : سلطان يتبوء العرش وهو في سن السابعة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، وفيها صبر أعظم يتقلد منصبه وهو في سن المائة ، وغدا رجلا طاعناً في السن وهن العظم منه . والاثنان - السلطان والصدر الأعظم - لا يصلحان لحكم دولة من كبرى دول العالم وتمتد أقاليمها في ثلاث قارات وتربص بها معظم الدول الأوروبية الدوائر .

ولما انصرف السلاطين عن حضور ورياسة جلسات الديوان الهمايوني وعن مراقبة مناقشات أعضائه من وراء ستار ، كما سبق أن ذكرنا ، انتهزت سيدات الفتنة الأولى من الحرير السلطاني هذه الفرصة ، فلدن نفوذهن إلى هذا الديوان الذي كان أعلى هيئة أو مجلس في الدولة . وأصبح هذا الديوان برياسة الصدر الأعظم يخضع لتوجيهاتهن . ومن أجل المحافظة على حياتهم وعلى مناصبهم ترك الصلور العظام أو تلك السيدات يتدخلن في اختصاصاتهم . وكان الصلور العظام ينتابهم الخوف بل اللحر إذا عملت الفيات الإنكشارية أو فرق عسكرية أخرى إلى التمرد كوسيلة للضغط على الحكومة لإجابة مطالبهم . وبدلاً من أن يواجه الصدر الأعظم الموقف منذ بدايته بجزم ، كان يتركة يتفاهم . وتكون نتيجة هذا التمرد من ناحية ، والتراحي

في معالجته من ناحية أخرى ، عزل الصدر الأعظم بل وحزل السلطان أيضاً وقتل الاثنين معاً .

وكان الصدر العظام - شعوراً منهم بضعف مراكزهم تجاه مراكز القوى في الحريم السلطاني - ينشدون تأييد الفياقق الإنكشارية أو فرق السباهي - الإسيابية - لهم . وكان أفراد كل من هذين السلاحين يضربون العداوة والبغضاء لأفراد السلاح الآخر . وأسرف الصدر العظام في تقديم المنح والامتيازات وإجراء الترقية السريعة لأفراد السلاح المؤيد لهم كضمان لاستمرار تأييدهم العسكري . ولكن كان العسكريون يطلبون المزيد . وفي إحدى المرات فتح مير حسين باشا الصدر الأعظم للإنكشارية المؤيدين له المخازن السلطانية يأخذون منها اللحوم والشموع وكل ما هو ضروري لهم . وقال لهم هذا الصدر الأعظم « الحمد لله ، إن الهادشاه - أي السلطان - رجل واسع الرأه » (١) . وثار أفراد سلاح السباهي وطالبوا بالمعاملة بالمثل من هذا الصدر الأعظم فيأذن لهم في أخذ بعض الأواني الفضية . وفي دجى الليل كانوا يسرون في شوارع العاصمة يهبون ويقتلون ويشعلون الحرائق . وكان إستائبول مدينة معادية فتحت حنوة . وكان مير حسين باشا لا يستطيع لهم دفماً . وفي ذات الوقت رفضت الفياقق الإنكشارية المؤيدة أن تخوض صراعاً حريياً أو صداماً دموياً رهيباً ضد فرق السباهية من أجل صدر أعظم كان الإنكشارية يعلمون أنه عما قليل مقصى عن منصبه .

وعقب الانقلاب اللدى تم في الأيام الأولى من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٤٨ والذي كان من بين نتائجه نخلع وشنق السلطان ابراهيم المعنوه وتولية ابنه السلطان محمد الرابع البالغ من العمر وقتذاك سبع سنوات - أدلى أحد الدين شاركوا في هذا الانقلاب بتصريح جاء فيه « إنه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث ، أن يشغل منصب الصدارة العظمى رجل حصيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها » . ولكن كان هذا الرأي

Lavisse et Rambaud ; op. cit., t.V, p 851.

(١)

Loc. cit .

(٢)

سراباً ، ويندل على جهل صاحبه بحقيقة الأوضاع في الدولة في ذلك الوقت ، لأن تعيين الصلور العظام كان يخضع لتوجيهات أو رغبات أو أوامر سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني ليستمر نفوذهن في تصاعد ويكون الصلور العظام أدوات طيبة في أيديهن .

بلطه جي باشا يتقاضى رشوة :

لم يكن بعض الصلور العظام في تلك الفترة فوق مستوى الشبهات . ونذكر على سبيل المثال بلطه جي محمد باشا الصلور الأعظم على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) فقد رددت الألسنة أنه تقاضى رشا (١) من بطرس الأكبر قيصر روسيا (١٦٨٢ - ١٧٢٥) حين أطبقت عليه الجيوش العثمانية عام ١٧١١ وهو يسير جنوباً بمحاذاة نهر بروث . فلم يجد بداً من طلب الصلح . واستجاب بلطه جي محمد باشا لطلب القيصر وعقد اتفاق أو سلم بروث (٢) في الثالث والعشرين من شهر يوليو - تموز - ١٧١١ وتنازل بطرس عن آزوف ، ووافق على هدم القلاع الممترض على إقامتها ، وتمهد بعدم الزج بنفسه في شئون تثار القرم أو في شئون ولنده ، وبألا يعود إلى تعيين سفير له في إستاتبول ، وأن يكف عن التآمر مع رعايا السلطان الأرثوذكس . واتضح أنه كان في استطاعة الصلور الأعظم أن يجبر القيصر على قبول جميع مطالب الدولة نظراً لخرج مركزه الحربي . ومن ثم قامت الشبهات قوية حول بلطه جي محمد باشا أنه أخذ رشا حتى ارتضى التوقيع على هذا الاتفاق البذي انطوى على تسامح ومخاء . ويذكر بعض

(١) رشا بضم الراء جمع رشوة بكسر الراء .

(٢) يرد اسم هذا الاتفاق في المراجع الإنجليزية على أحد هذين التسميتين :

Agreement of Pruth

Peace of Pruth.

Traité du Pruth

ويرد في المراجع الفرنسية معاهدة بروث

وطه المعاهدة اسم آخر تعرف به ، هو : فالكسن Falksen

انظر : Lavisse et Rambaud ; op. cit., tome VI, pp. 810—812

Reddaway W.F.; A History of Europe 1610—1715.

London, 1967, p. 437.

لمؤرخين أن كاترين الأولى (١) قد ضمت بجميع مجوهراتها وحليها وأمور أخرى ، إذ أوعزت إلى زوجها بطرس الأكبر بأن يقدم هذه الثروة الهائلة إلى بلطجي محمد باشا الذي ضعف أمام هذا الإغراء المالى وغير المالى ، ووافق على إبرام معاهدة بروث (٢) .

صانع حلوى يغدو صدراً أعظم :

كانت نوجية بعض الصلور العظام مثار سنط الجماهير عليهم . كانوا من حصيلة ضريبة الغلمان وأعدوا إعداداً طويلاً لشغل المناصب القيادية ، العسكرية أو المدنية في الدولة ، ولكن تسلسل إلى صفوفهم - نتيجة حماقة أو سداجة بعض السلاطين - رجال بدأوا حياتهم بداية متواضعة وفي مجالات لا تمت بصلة إلى اختصاصات الصدر الأعظم في دولة من كبرى دول العالم . نذكر من هذا الفريق رجلاً يسمى إبراهيم . بدأ حياته صانع حلوى في إسكى سراى - أى السراى القديم في إستانبول - وهي حرفة يطلق على شاغلها في اللغة التركية « حلوجى » ، واكتسب إعجاب السلطان أحمد الثالث ، واتخذة صديقاً له . وظل يتدرج في مناصب الخنعة الخارجية في السراى القديم وفي مناصب أخرى في إستانبول والأقاليم . ثم انتهى به الأمر إلى أن تزوجه السلطان إحدلى بنته ، وهي الأميرة فاطمة ، في عام ١٧١٧ وكانت تبلغ من العمر وقتذاك ثلاث عشرة سنة . واكتسب « العريس » لقب داماد ، فأصبح اسمه إبراهيم باشا داماد (٣) أى إبراهيم باشا صهر السلطان ، وعينه

(١) تنحدر كاترين الأولى من أسرة فقيرة . تزوجت في مطلع شبابهاً جديداً من السويد ، ثم وقعت أسيرة في يد الروس سنة ١٧٠٢ ، وكانت على حظ موفور جداً من الجمال ، فأعجب بها الأمير منشكوف واتخذها خليلية له . وفي عام ١٧١١ وقعت أبصار بطرس الأكبر عليها فهام بحبها واتخذها عشيقته له ، ورافقته في منظم حروبه . وبعد أن أنجبت منه عدداً من الأولاد تزوجها رسمياً وتزوجها إمبراطورة في عام ١٧٢٤ . ولما توفى القيصر في السنة التالية . خلفته في حكم الدولة وتوفيت سنة ١٧٢٧ .

Huart Cl. ; Encycl. of Islam. Art. Ahmed III .

(٢)

(٣) توجد في تاريخ الدولة شخصية أخرى تحمل ذات الاسم وذات اللقب ، وهي شخصية إبراهيم باشا داماد . وكان صديقاً للسلطان مراد الثالث ، وتولى منصب الصدارة العظمى ثلاث

السلطان صدرأ أعظم وظل يشغل منصبه اثنتى عشرة سنة حتى قام الشعب بفتنة خطيرة في شهر سبتمبر - أيلول - سنة ١٧٣٠ أسفرت عن سقوط ابراهيم باشا وخروج أحمد الثالث . وقد رفض السلطان تسليم صفيه حياً إلى الشعب الناثر فشقته في القصر في ٣٠ من سبتمبر - أيلول - عام ١٧٣٠ وفي اليوم التالي اضطر السلطان إلى التنازل عن العرش .

كان تضال نفوذ السلاطين والصدور العظام يسير سيراً عكسياً مع زيادة نفوذ الحريم السلطاني ، بمعنى أنه كلما انكش نفوذ السلاطين والصدور العظام ازداد نفوذ مراكز القوى في الحريم السلطاني علواً وطغياناً . وينطبق هذا الحكم العام على عهد صوقلو باشا الصدر الأعظم أيضا . وقد سبق أن التقينا به في هذه الدوامة . وتضيف هنا أنه استحال عليه ممارسة اختصاصات منصبه أمام مراكز القوى في الحريم السلطاني ، وتعدر عليه الاتصاف بالسلطان مراد الثالث أو التعاون معه على الرغم من أنه كان متزوجاً من الأميرة إسماة أخت السلطان . لم تشفع له خدماته التي أسداها للدولة ولا مصاهرته للسلطان . ورؤى التخلص منه ودخل الجاني متكرراً في زى أحد الدراويش إلى مجلسه بحجة تقديم شكوى له . وطعنه بمنجر في قلبه فأرداه قتيلاً في الحال . وقد وقع حادث اغتياله في اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٧٩ بعد مضي أربع سنوات من تولى مراد الثالث العرش . ولم تشغل شخصية قوية منصب الصدارة العظمى إلا بعد قرن من الزمان بتعيين محمد كوبريلى باشا .

ووكسلاته ذات الوجه الباهم مركز قوة خطير في الدولة :

ومن أبرز الأمثلة على استفحال نفوذ الحريم السلطاني الدور الذى قامت

= مرات على عهد خلفه السلطان محمد الثالث . وتزوج الأميرة عائشة ابنة السلطان مراد الرابع في آخر شهر مايو - آيار - ١٥٨٦ .

وفي تاريخ الدولة يوجد سمي آخر هو إبراهيم باشا كان صديقاً للسلطان سليمان المرح الذى عينه صدرأ أعظم ومنحه اختصاصات واسعة في الحكم . وحضر السلطان حفل زفافه في ٢٢ مايو - آيار - عام ١٥٢٤ وكان يوماً مشهوداً في التاريخ العثماني . وكانت نهاية هذا الصدر الأعظم مروعة ، إذ أمر السلطان بإعدامه فجأة نتيجة مؤامرة دبرتها روكسلانه قادية السلطان ، وكان ذلك في ١٥ مارس - آذار - ١٥٣٦ . وسنلتق بهذه الشخصية في مواطن قادمة في هذا الفصل .

به روكسلانه Roxelane ، وهى روسية الأصل اختطفها
تجار الرقيق من ذوبيا في بلاد القوقاز . وكانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه
دى روجالينو de Rogalino ، وياحوها للسلطان سليمان
المشرع فألحقها بالحریم السلطاني . واستهلت حياتها الجديدة في القصر كجارية .
كانت على حظ موفور جداً من جمال الخلق والرقّة وخفة الروح
ورهاقة الشعور . وكان يطلق عليها خورم ، Kourrem ، وهى لفظة تركية
معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم . كما عرفت باسم روكسلانه Roxelane
أى الروسية . هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شغاف قلبه فأعتمتها
وأوجب منها ذكوراً وإناثاً ، وارتفعت مكاتبها طبقاً لقواعد البروتوكول
من جارية إلى قادين وظل حبه لها نتيماً نضيراً يتقيماً ظلّاله عن يمين ويسار .
وسيطرت على قلب السلطان وعقله معاً ، فأصبحت مستشاره الأول في
شئون الدولة (١) . واحتجب في قصره لأنه كان لا يطيق عنها بعداً . ونحلى
عن قيادة الحملات الحربية . وكان وجوده في ساحات الحرب يثير حماس
الجنود . واعتاد الإنكشارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة .
وكانت أوروبا تدرك جيداً مدى النفوذ العريض والرهيب الذى كانت تتمتع
به روكسلانه . وأجمعت آراء المعاصرين لها على أنها كانت السيدة الأولى في
الدولة العثمانية ، وكانت تعنو لها جباه الجميع ، ويتضاءل أى نفوذ في الدولة
أمام شخصيتها الطاغية وذكائها اللامع .

أرادت روكسلانه أن يكون ابنها الأمير سليم ولياً للعهد بدلا من الأمير
مصطفى ، وهو الابن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركسية .
ودبرت روكسلانه مؤامرة محكمة لتحقيق أمنيتها . وكان أول شروط هذه
المؤامرة إفساد الجو العائلي بين السلطان وزوجته الشركسية . افتعلت مشادة
كلامية مع غريمها . وبدأت هذه المشادة بالمقارنة بين النشأة الأولى لكل
منهما . وتطورت المناقشة إلى الاشتباك بالأيدى . واصطنعت روكسلانه
الضعف وتركت غريمها تنهل عليها ضرباً ولكماً ، وشدت شعر رأسها
وزرعت بعضاً منه ، وتمادت الزوجة الشركسية فخلشت وجه روكسلانه

بأظافرها بحيث أصبحت آثار الخلدوش بادية على وجهها . ونالت منها مثالا كبيرا، وهذا ما كانت تبتغيه روكسلاته . واحتجبت عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرسل يستدعيها ، فاعتذرت عن علم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفي آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها إنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان ، لأنها « لحم يباع ويشترى » ، وهى العبارة التى أطلقتها عليها الزوجة الشركسية . وأصر السلطان على حضورها . فجاءته على استحياء وتظاهرت بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت اللامع تنهر من مقلتها ، وآثار الخلدوش والكنيمات بادية على خديها . وكان شعرها غير منظم . وقصت عليه ما حدث لها من زوجها الشركسية . واثارت ثائرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لا تستحق معه تقدير (١) . ونجحت حيلة روكسلاته فى إفساد الجو بين السلطان وزوجته الأولى .

مضت روكسلاته بعد ذلك فى تنفيذ حلقات المؤامرة . فنقلت الأمير مصطفى ولى العهد وابن غريمها حاكماً على أماسيا (٢) Amasia كى يكون بعيداً عن إستانبول مقر الحكم وعن «وامراتها» (٣) . ثم التفت إلى ابراهيم باشا الصدر الأعظم فطلبت من زوجها السلطان سليمان عزله من منصبه . وكان هذا الرجل الألبانى (٤) من شجرة الصلور العظام على عهد السلطان سليمان وموضع ثقته النامة وتقديره العميق . وقد زوجه السلطان من إحدى شقيقاته . وكان يخرج مع السلطان فى الحملات العسكرية فى

(١) نشر المزمور الفرنسى رامبو فرقات من تقرير وضعه عام ١٥٥٣ عن هذا الحادث برناردو نايجيرو Bernardo Navgero مثل جمهورية البندقية لدى السلطان السليمان فى إستانبول .

انظر المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦١ حاشية رقم ١ .

(٢) مدينة فى الأناضول ، وتقع على نهر ليكى إرماك Yechil-Irmack . وتشتهر شهرتها من أنها كانت مسقط رأس سترابون Strabon الجغرافى اليونانى المشهور .

ويكتب اسم هذه المدينة فى بعض المراجع الفرنسية Amasiah

(٣) كان الأمير مصطفى حاكماً على ماغنيسيا Magnesie وهى فى إقليم ليدنيا فى الأناضول وقريبة نسبياً من إستانبول . وكان يستغرق السفر إليها من العاصمة بقسمة أيام .

أما أماسيا فكانت تبعد عن إستانبول بمسيرة خمسة وعشرين يوماً فى ذلك الوقت .

(٤) تذكر بعض المراجع أن إبراهيم باشا كان يونانى الأصل .

أوروبا و ن آسيا . وكان له دور بارز في الانتصارات الحربية على الدولة الصفوية في فارس. وأكمل فتح إقليم آذربيجان ، وأجه إلى العراق وفتح بغداد في آخر عام ١٥٣٤ ودخلها السلطان سليمان في يناير -كانون ثان- ١٥٣٥. وكان السلطان ينييه في إجراء المفاوضات مع الدول (١). وكان على حظه موفور من العم والثقافة والتدين وراعياً للشعراء والفنانين العثمانيين . واستجاب السلطان سليمان لرغبة روكسلانه ، فعزل إبراهيم باشا الصدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تقنع بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتله . وتم اغتياله في اليوم الخامس من شهر مارس -آذار- عام ١٥٣٦ وهو يدخل القصر السلطاني ليلا ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان . وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن يوجه إليه اتهام أو يقدم لهاكمة . وكان اغتيال إبراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلانه لإطلاق يدها في استكمال حلقات المؤامرة . ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ، ويدعى رسم باشا ، اطمانت اليه ليكون عوناً لها في تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد ، وزوجته لإحدى بناتها واسمها محرمه *Mihrmah* وطلبت من زوجها تعيينه صدراً أعظم . حقق السلطان رغبة روكسلانه . وأصبح الصدر الأعظم العويبة في يدها تحركه كيف شاءت وأنى شاءت . وتحقيقاً لرغبتها واسترضاء لها أغدق السلطان الكثير من الرعاية على صهره رسم باشا . وانتهز الأخير مصابرتها للسلطان ، فلجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً في الإثراء الحرام والسريع . وغض السلطان الطرف عن انحرافات واستغلاله المشين لمنصبه الكبير ، فوضع يده على عدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه « التيارات » وهي الأرض الزراعية التي كانت تعطى لطوائف من العسكريين طبقاً للنظام الإقطاعي العسكري (٢) . ولما اشتملت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية مرة أخرى عام ١٥٤٨ منحت لها الفرصة التي طال انتظارها لها للتخلص من ولي العهد الأمير مصطفى .

(١) انظر مرصفاً للإنجازات التي قام بها إبراهيم باشا في :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. IV, p. 762.

(٢) سبق أن تعرضنا في هذه الدراسة لهذا النظام .

انظر ص ١٣١ - ١٣٣ .

ويقال إن هذه الحرب قد قامت بإيعاز منها ، ويقال في هذا الصدد أيضاً إن روكسلانه كانت تتبادل مراسلات مع زوجه طاسب الأول (Tamsap I) (١٥٢٤-١٥٧٦) شاه الملوة الصفوية . واتفقت السلطنة روكسلانه مع رسم باشا على إيفار صدر السلطان إيفاراً حنيفاً على ابنه وولى عهده الأمير مصطفى . فأدخل رسم باشا في روع السلطان أن ولى العهد يتأمر مع الفرس لتحقيق مآرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ السلطان أنه سمع الجنود الإنكشارية يقولون إن السلطان قد غدا رجلاً طاعناً في السن ووهن العظم منه بحيث لا يستطيع أن يخوض المعارك ، وقد حان الآوان للمناداة بالأمر مصطفى سلطاناً وتحمية والده رحمة به وشفقة عليه . وقد فعلت هذه الرشاية فعلها . وأصبح الأب يتوجس خيفة من ابنه وولى عهده . وانتهى رأياً إلى ضرورة التخلص منه بقتله . ولكنه أراد أن يطمئن إلى سلامة القعلة النكراه التي أزمع تنفيذها ، أو لعله أراد أن يضفي عليها صبغة شرعية إسلامية . فعرض على شيخ الإسلام أبي سعود الموضوع بعد أن غير معالمة الشكلية واستطلع رأيه في هذه المسألة . وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله إنه كان في إستانبول تاجر ثرى ذو مركز اجتماعى مرموق . وتطلبت تجارته أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عبد له كثيراً ما أحسن إليه أن يشرف على أعماله ويرعى في ذات الوقت زوجته وأولاده في أثناء غيابه. ورأى التاجر أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العبد برعايتهم في أثناء غيابه . ولم يكذ التاجر يغادر إستانبول حتى سعى البهذ لإختلاس أموال سيده وتدمير تجارتها وتآمر على حياة زوجته وأولاده . وخلص السلطان سليمان من هذه القصة الخيالية إلى سؤال طرحه على شيخ الإسلام ليجيب عليه : ما هى العقوبة العادلة التى يستحقها هذا العبد؟ فأجاب أنه يستحق الإعدام . بقول لبيير الأمريكى - الذى نقلنا عنه هذه الرواية(١) إن هذه الفتوى التى

Lybyer A.H. ; op. cit., p. 213.

(١)

وقد نقلها من كتاب وعنه باللاتينية أحد السفراء في إستانبول على عهد السلطان سليمان المشرع تناول فيه تاريخ الدولة العثمانية، وكان سفيراً للسك شارل الخامس؛ وأقام في إستانبول من عام ١٥٥٥ إلى عام ١٥٦٢ ومعه

De Busbecq Ogier Ghiselin; Life and Letters. Translated by C.T. Forster and F.H. B. Daniel, 2 vols, London, 1881. vol. I, pp. 116-117 .

صدرت عن شيخ الإسلام - سواء كانت تعبيراً حقيقياً عن رأيه في ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصله هذه الفتوى بإيعاز من رسمه باشا أو من روكسلانه - فلها - أي الفتوى - جعلت السلطان سليمان يزداد تصميماً على قتل ابنه وولي عهده الأمير مصطفى تأسيساً على أن خيانة الابن لوالده لا تقتل في بشاعتها عن خيانة العبد لسيدته التاجر في إستانبول (١) . وبعث سليمان في استدعاء ابنه إلى أماسيا حيث كان يقيم السلطان مع جيشه . وخشى أصدقاء الابن مغبة هذه المقابلة ونصحوه بعدم الذهاب إلى والده . ولكنه رفض ، وقال إن طاعة الوالدين أمر يفرضه الدين . وإنه لم يرتكب عملاً يخشى منه غضب والده ، وإنه إذا قتله فهو على كل حال والده ، وهو الذي أتى به إلى هذه الحياة . ولما دخل الابن على أبيه في خيمته أعطى الأخير إشارة معينة ، فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه . وكان ذلك في اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٥٣ ، وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن تمت هذه القمعة الشنماء ، إذ كان من بين نتائجها :

أولاً : حرمان الدولة من سلطان مرتقب هو الأمير مصطفى أجمع معاصروه على أنه كان يتمتع بكفايات ممتازة تجعله جديراً بارتقاء العرش خلفاً لسلطان عظيم هو سليمان المشرع .

ثانياً : اندلاع حرب أهلية في الدولة . فقد كان الأمير سليم أكبر أبناء السلطنة روكسلانه موضع احتقار شديد من الفياقق الإنكشارية . وكانت تصرفاته المشينة موضع حديث الجماهير . ثم وقف لجيش في وجهه بصفته ولياً للعهد . فدأبت الآمال الابن الثانى لروكسلانه ، وهو الأمير أبو يزيد ، كان حاكماً على إقليم قرمان Karamine في جنوبي آسيا الصغرى ، وأراد أن يستأثر بولاية العهد دون أخيه الأكبر . واستعان بقوات من الجيش . واندلعت حرب أهلية ، وحدث انقسام خطير في صفوف الجيش . وماتت السلطنة روكسلانه في مسهل هذه الحرب . وحزن زوجها عليها حزناً شديداً أصبح مضرب الأمثال في وفاء بعض الأزواج لزوجاتهم بعد رحيلهن عن

هذه الحياة الدنيا . وعلى الرغم من حزنه ومن شيخوخته سار السلطان على رأس قوات من جيشه لمحاربة ابنه الأمير أبي يزيد . واستطاع السلطان سليمان وابنه الأمير سليم إيقاع هزيمة ساحقة بالأمير أبي يزيد في قونيه عام ١٥٥٩ ، وفر الأمير المنهزم إلى فارس . وطلب والده من طاسب الأول شاه الدولة الصفوية تسليم الأمير اللاجي . وقبل الشاه بعد أن تقاضى أربعائة ألف قطعة ذهبية . وكانت نهاية هذا الأمير التمس مروعة . فقد ذبح هو وأولاده الخمسة عام ١٥٦١ (١) وكان انصياع السلطان سليمان المشرع تزوجته ووكالاته وتلفه على استرضائها على أي نحو من الأنحاء ، والمذابح التي قام بها في نطاق الأسرة الحاكمة ، فقطاً سوداء في تاريخ هذا السلطان الذي يعد من أعظم سلاطين الدولة العثمانية سواء في الحرب أو السياسة أو التشريع أو التصوير الذي يتمثل في بناء مسجده الكبير الرائع في إستانبول بالإضافة إلى أكثر من ثمانين مسجداً كبيراً واثنتين وخمسين مسجداً صغيراً والكتاتيب التي أنشأها لتحفيظ القرآن الكريم والمعاهد الدراسات والمستشفيات والمطاعم العامة والحمامات العامة والمتاحف والقصور وغيرها من المنشآت العامة (٢) . ويتطابق عليه المثل الفرنسي المشهور *cherchez la femme* أي ابحث عن المرأة . ولم تكن هذه السيدة سوى ووكالاته زوجته وهـبودته اتخذها مثله الأذى بين نساء العالمين .

ثالثاً : انتقال وراثة العرش ظلماً وغدراً إلى الأمير سليم الذي ارتقى العرش باسم السلطان سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) عقب وفاة والده السلطان سليمان المشرع (٣) . وكانت حياته الخاصة تتشح بأقلمر أنواع الرذائل التي

(١) Lavisse et Rambaud; op. cit., tome IV pp. 763—764.

(٢) أنظر عرضاً شاملاً لمنشآت المعمارية سواء في مكة المكرمة أو بيت المقدس أو بغداد أو قونية وغيرها في :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ص ٦٨٦ - ٦٨٨ .

(٣) جاز السلطان سليمان المشرع إلى ربه ليلة ٥ - ٦ سبتمبر - أيلول - عام ١٥٦٦ ليلة

يشعر الإنسان بالهجل عند سماعها ، إلى جانب إسرافه في تناول الخمر . وكان لا يفيق من سكره إلا لاما . وأطلقت عليه الجماهير - من باب التهكم عليه والسخرية به - سليم مست ، أى سليم السكر ، وأطلق عليه سليم نصف الروسي le demi-Russe إشارة إلى أن والدته روكسلانه كانت روسية . وكان يقضى أوقاته في داخل القصر يمارس هواياته في شرب الخمر ومطلقاً العنان لشهواته البهيمية ، ومسامراً حثالة الناس المدين كان بعضهم في حاشيته . ولم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحة قتال . ويقرر أحد كبار المؤرخين الفرنسيين أن سليمان الثاني كان أول سلطان في الدولة العثمانية لم يخرج إلى الحرب . ويوجز هذا المؤرخ بعض هذه المعالم الرئيسية في الحياة الخاصة والحياة العامة للسلطان سليم الثاني في هذه العبارات :

Sélim. II, le demi-Russe, fut sur le trône une manière de roi fainéant. Le fils de ce Soliman qui avait passé sa vie en chevauchées est le premier des sultans osmanlis qui n'ait jamais paru dans les camps. Il passait ses jours au fond du Sérail, livré à tous les vices, même les plus honteux. Il lui en est resté le surnom de Sélim Mest (Sélim l'Ivrogne). (١)

والتزاماً بالموضوعية نقول إنه تم في عهده إرسال حملة عسكرية بقيادة سنان باشا عام ١٥٦٩ إلى اليمن لإعادة السيطرة للعثمانية على هذه البلاد ، وهي

١٩٠٠ - ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ عن ثلاث وسبعين سنة قضى منها سبباً وأربعين سنة في الحكم . ويلاحظ أنه ولد في اليوم السابع والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٤٩٤ (غرة شعبان ٩٠٠) . وقد قضى نحبه وهو بعيد عن العاصمة ، إذ كان على رأس الجيش إلى مدينة أرلو وهي في بلاد المجر في الشمال الشرق من مدينة بود (بودابست) على مسافة مائة وثمانين كيلو متراً . وعلم وهو في الطريق إليها أن أمير سكودار ، وهي مدينة في بلاد المجر تشتهر بصناعة التبيل ، قد أعلن العصيان . فرأى أن يتجه إليها أولاً . واحتل مداخلها الأمامية ، فأغلج جنودها مواقعهم خفية واحصوا بقلتها . واشتد عليه المرض في أثناء العمليات الحربية ولغظ أنفاسه الأخيرة . وأغض محمد صولقر باشا بأبواقه من الجيش . وأذاع أن السلطان مريض ولا يستطيع مقابلة أحد . وأبلغ ابنه سليم الثاني ، فاسرع بالسفر إلى إستانبول حيث قضى فيها يومين ، ثم استأنف سفره إلى سكودار لمرافقة جده والده وتوليته العرش . ولما بلغ صوفيا أذاع سليم في ٦ من أكتوبر - تشرين أول - ١٥٦٦ وفاة والده وتوليته العرش . ثم قصد مدينة بلنراد ومكث فيها حتى وصل محمد صولقر باشا ومعه جهنم سليمان وعاد الجميع إلى إستانبول .

الحملة التي يطلق عليها بعض الباحثين تجاوزاً الفتح العثماني الثاني لليمن . كما تم لإبان حكم سليم الثاني فتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-١٥٧١) . ورجع هذا النجاح العسكري إلى قوة الدفع التي كانت لا تزال كامنة في الدولة بعد حكم والده السلطان سليمان المشرع . وكانت شعلة الجهاد لا تزال مشتعلة في نفوس أفراد القوات المسلحة العثمانية ووجود شخصيات عثمانية قوية وزهية تركها سليمان لابنه في المراكز القيادية في الدولة . ومع ذلك فإن فتح قبرص يرتبط بواقعة تسمى إلى سمعة سليم الثاني . كان في حاشيته صديق حميم من حثالة اليهود يسمى جوزيف نامي Joseph Nassi كان يسمى أول الأمر دون ميجيه Don Miguez وهو من البرتغال . ونجح في التسلل إلى حاشية السلطان . وفي ظل شتى أنواع الانحراف الخلقى الذي تردى فيه سليم الثاني تمتع اليهودى بنفوذ كبير لديه . وزين له غزو جزيرة ناكسوس Naxos وتم استيلاء العثمانيين عليها عام ١٥٦٧ ، وبلغ من حظوة اليهودى لدى سليم أن الأخير أعطاه جزيرة ناكسوس إقطاعاً له . ولم تمض سنوات معدودة حتى تجاسر اليهودى وأعلن نفسه دوقاً عليها « بفضل الله » . ولم تقف أطباع اليهودى عند هذا الحد ، بل زين للسلطان فتح جزيرة قبرص على أمل أن يأخذها إقطاعاً له . وكان من بين الأمانيد التي ساقها اليهودى للسلطان أن نبيل قبرص لا يضارعه نبيل آخر في العالم . وفي نشوة الخمر والملاذات قال سليم لليهودى : « ستكون ملكاً على قبرص » (١) .

وعلى عهد هذا السلطان الكبير والنصف رومى والمنحرف خلقياً ، تعرضت الدولة لكارثة حرية دينية قومية . إذ تكون حلف صليبى أوروبى ضدها . وكان قوام هذا الحلف : إسبانيا ، وجمهورية البندقية ، والبابوية في روما ، وتسكانيا ، وچنوا ، وسافوى ، وبارما Parme ، وماندو Mandoue ، وفرارا Ferrare وغيرها من الكيانات السياسية في شبه الجزيرة الإيطالية ، وكذلك فرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة . وكان من بين أسباب قيام

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع الخ ، مرجع

سبق ذكره ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٦٢ - ٧٦٣ .

هذا التحالف الصليبي ما تراه إلى مسامح ملوك وروما هذه الدول والكيانات السياسية من أبناء ضافية عن انصراف سامب الثاني عن شئون الدولة والرغبة في القضاء على وجودها في البحر المتوسط واسترجاع المكاسب الإقليمية التي حققها والده السلطان سليمان . واشتبكت القوات البحرية لدول هذا الحلف الصليبي ، وكان حلد سفنها مائتين وخمسين سفينة ، مع الأسطول العثماني وكان عدد سفنه ثلاثمائة سفينة في معركة لپانت (١) Lépante في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١ ، ولم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات. وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تكبدها أعضاء الحلف الصليبي في السفن والأرواح ، إلا أن خسائر العثمانيين كانت فادحة . فقد تحطم الأسطول العثماني . غرقت معظم سفنه ، وأسرت سفن أخرى ، ولاذت بالفرار ثلاث عشرة سفينة . وقتل في المعركة القبطان باشا وعدد من الباشوات والبيكات وحكام بعض الأقاليم العثمانية . وبلغت خسائر الدولة في الأفراد زهاء عشرين ألفاً (٢) . وكان البابا بيوس الخامس Pius V هو المخطط والحرك الأول لهذا الحلف (٣) ويطلق المؤرخون على هذه الحرب La Croisade Chrétienne أى الحرب الصليبية المسيحية (٤) . وكانت معركة لپانت إحدى معركتين بحريتين كبيرتين وقعتا في القرن السادس عشر (٥) .

وقابل العالم المسيحي بابتهاج شديد أبناء الهزيمة التي نزلت بالدولة العثمانية بصفتها دولة الإسلام الكبرى. وأقيمت في كنائس جميع أنحاء العالم المسيحي صلاة شكر to Deum لانتصار المسيحية على الإسلام . ونظمت الاحتفالات

(١) يطلق اسم لپانت على مضيق يصل خليج باتراس Patras بخليج كورنث Corinth ، ولپانت حالياً ثغر بحري يوناني .

(٢) انظر وصفاً تفصيلياً لمعركة لپانت وعسائر الجانبين في :

Lavisse et Rambaud; op. cit. t. v, pp. 859—862.

Loc. Cit. (٣)

Loc.Cit. (٤)

(٥) كانت المعركة الثانية هي معركة الأرمادا البحرية عام ١٥٨٨ ، وقد استطاع فيها الأسطول البريطاني تحطيم الأسطول الإسباني على الساحل الفرنسي قرب كاله Calais

وأقيمت الزينات في روما والبندقية وغيرها. وكانت احتفالات البابوية في روما بالغة الروعة ، فقد نظمت طهقاً لتقايد الرومانية القديمة (١) . وتعد معركة ليات من أفدح الكوارث في تاريخ البحرية العثمانية .



ذلك هو السلطان سليم الثاني غرس يد والدته الروسية روكسلانة ، فرضته فرضاً على الدولة ، بعد مؤامرة محكمة الحلقات متعددة الخطوات . نجحت في حمل زوجها السلطان سليمان المشرع على إصدار أوامر متعاقبة بقتل إبراهيم باشا الصدر الأعظم ، وتزويج ابنتها من رسم باشا ثم تعيينه صدراً أعظم ، وقتل الأمير مصطفى ولي العهد ، وتعيين ابنها سليم في هذا المنصب . وكان نجاحها في تنفيذ هذه المؤامرة يعكس الأوضاع السياسية على أعلى المستويات في الدولة ، ويجسد الدور البارز للحريم السلطاني كمرکز قوة من أخطر مراكز القوى . وكان رائدها في هذه المؤامرة تفضيل مصلحة ابنها على المصالح العليا للدولة . ويزيد في سخورة هذه السيدة - كمرکز قوة - أنها نقلت مؤامرتها على عهد زوجها السلطان سليمان المشرع الذي يقف في الصف الأول من بين ملاطين الدولة العثمانية على امتداد تاريخها . ولو كان سليم الثاني شخصية قوية وعلى خلق هان الأمر ، ولكنه كان من أسوأ السلاطين ويطلق عليه رامبو Rambaud المؤرخ الفرنسي وصفاً دقيقاً هو «التبيل» (٢) fainéant . ويجمع المؤرخون على أن حكم سليم الثاني كان البداية الحقيقية والتعلية لاضمحلال الدولة العثمانية (٣) ، وأن الدور الخطير الذي قامت به روكسلانة في هذا الأمر قد جلب الكوارث على مستقبل الدولة العثمانية (٤) .

أربع سيدات كن دعاتم الدولة :

سبق أن ذكرنا أن بعض المؤرخين شبهوا الدولة العثمانية إبان عصرها

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع أبع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٧٧٥ - ٧٧٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٦٠٣ .

Grant A.J; A History etc., op. cit., p. 225.

(٣)

Lavisse et Rambaud; op. cit., t. IV p. 761.

(٤)

الذهبي الأول بنجمة كبيرة شملت إلى أربعة أوتاد ، وأن هذه الأوتاد الأربعة كانت بالنسبة للدولة بمثابة دعائم أربعة quatre supports ، وأن هذه التسمية مقتبسة من حياة المجتمعات في المراعى التى عاش فيها أجداد العثمانيين فى سهول الإستبس فى آسيا قبل نزوحهم إلى الأناضول . وكانت هذه الدعائم تتمثل فى الوزراء ، ورؤساء القضاة ، والدفترداريين ، والنشائية . ولكن تحولت هذه الدعائم الأربع على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) إلى أربع سيدات ، هن :

أولا : والدة السلطان مراد الثالث ، ويطلق عليها المصطلح التاريخي « سلطنة والدة » ، وهى إحدى قادينات السلطان سليم الثانى . وكانت تسمى نور بانو Nour Bano ومناها سيده التور Dame de Lumière وكانت مركز قوة خطير فى الدولة ، وهى تشبه من هذه الناحية ملكة فرنسا والدة كاترين دى مدنتشى ، وكانت معاصرة لها .

ثانياً : الزوجة الأولى للسلطان ، وبعبارة أكثر دقة الباش قادين أى كبيرة القادينات واسمها صفية . وهى من جمهورية البندقية ، وتنتمى إلى أسرة نبيلة مسيحية تسمى أسرة بافو Baffo ويطلق بعض المؤرخين عليها اسم أسرتها المسيحية فيقولون السلطنة بافو بدلا من صفية . وكان والدها حاكماً على جزيرة كورفو Corfu . وبينما كانت فى سفينة مع بعض السيدات النييلات فى طريقها إلى والدها خطفها القراصنة . وكان عمرها وقتذاك أربعة عشر ربيعاً . وكانت على حظ موفور من الجمال . وقد بيعت وألحقت بالقصر السلطاني ودخلت الحريم كجارية . وسرعان ما تألق نجمها وجذبت انتبا، السلطان وهام بعشقتها ، فأعتقها وتزوجها وأنجب منها وارثتف مركزها من جارية إلى قادين ثم إلى باش قادين . ومما يذكرف أنها - بعد أن غدت مركز قوة خطير ودعامة من الدعائم الأربع للدولة - عملت على أن توجه السياسة الخارجية للدولة العثمانية على نحو يخدم مصالح وطنها الأول ، وهو جمهورية البندقية . ويلوح أنها أرادت أن تكفر عن هذا الانحراف الخلى والسياسى ، فبنت عدة مشروعات خيرية دينية إسلامية . ولا يزال يوجد فى

القاهرة مسجد يحمل اسمها خفياً ، وأوقفت عليه أوقافاً خيرية مدرة . وأقيمت فوق البابية الأوسط لفة الجامع لوحة تذكارية هدا نصها : « أنشأت هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى » صاحبت « الخيرات الآدر الشريفة (١) والدة المرحوم مولانا للسلطان محمد خان طاب ثراه على يد فخر الخواص المتقربين مولانا الناظر الشرعي حلل الوقف المذكور . وكان الفراغ من هذا البناء المذكور في السابع والعشرين من شهر محرم الحرام من سنة تسع عشر وألف من الهجرة » (٢) . كما يوجد بدار الوثائق والكتب المصرية

(١) الآدر الشريفة يتصد بها الحرم السلطان . والآدر أيضاً من أقطاب التشريف التي تشمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات النصبة من حلية النساء دون ذكر أسماءهن . وهناك أيضاً مصطلح تاريخي هو آدر الضربة أي دور سك العملة . وآدر جمع دار .
انظر :

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المالكي في مصر والشام . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٨ .

(٢) يوافق هذا التاريخ الهجري اليوم الحادي والعشرين من شهر أبريل - نيسان - عام ١٦١٥ . ويقع هذا الجامع في خط المدايق .

وقد تضمنت حجة الوقف أن تصرف من ريع الأوقاف المرصودة مرتبات موظفي الجامع والمقرئين وأمين حفظ المصاحف الشريفة ، ومعماري ترميم المسجد أو إصلاحه كلما دعت حالة المسجد إل ذلك . كما تضمنت شروط الوقفية تعيين أربعة رجال العناية بالبستان الذي ينظر الميدان الكبير المواجه للجامع . ويقوم اثنان منهم بفرض الأشجار والرياحين ، ويشترط فيما أن يكونا حل دراية بهذه الأعمال . ويقوم الاثنان الآخران بسق البستان ويشترط فيما أن يكونا شديدي البنية .

وقد بنى هذا الجامع حل غرار الجوامع الثمانية في إستانبول . وهو ثالث جامع في مصر يشيد حل الطراز المماري الثبات . أولها جامع سليمان باشا بالقلمة ، وثانيها جامع سنان باشا ببرلاق ، وثالثها جامع صفية ، تليها أربعة جوامع هي جامع محمد بك أبي القهب بجوار جامع الأزهر ، وجامع محمد حل باشا بالقلمة ، وجامع الفصح بمابدين .
انظر :

Mme Devonshire R.L. ; L'Egypt Musulmane et Les Fondateurs de ses Monuments. Paris, 1925, pp. 123-124.

حل مبارك باشا : الخطط التوثيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٥ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
حسن عبد الوهاب باشا : تاريخ المساجد الأثرية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٠٦ - ٣١١ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٥٠ .

(م ٤٥ - الدولة العثمانية)

بالمهارة مصحف شريف مجبول ومحل بالذهب مكتوب عليه أنه « وقف
المرحومة صفية أم السلطان محمد خان في سنة ١٠٣٢ هـ (١) » (٢).

ثالثاً : أخت السلطان مراد الثالث والمسيئة إسمات Esmat وكانت
متزوجة من محمد صوقلو باشا الصابر الأعظم . ولذلك لحق باسمه لقب
« داماد » ومعناه صهر . وأصبح اسمه يرد في الوثائق مذكوراً على هذا النحو :
داماد صوقلو محمد باشا .

رابعاً : سيدة حمجوز تسمى چانفيد خاتون Djonféda - Khetoun
كانت تقوم بعمل كايا Riaya وهي التيمة على الجوارى في القصور السلطانية
وكان من بين اختصاصاتها تنظيم ليالى السلطان وتوفير أسباب المتعة المشروعة
وغير المشروعة .

الصراع بين والدة السلطان مراد الثالث والقادين صفية :

دار صراع خفي حياً وسافر أحياناً بين نور بانو والدة السلطان مراد
الثالث وبين القادين صفية . وكان هذا الصراع في لحمته وسناده يدور حول
مراكز القوى ، كل منها تريد أن تستأثر بها لنفسها . ولجأت السلطانة الوالدة
إلى سلاح خطير ثبت أنه كان مدمراً لسمعة ابنها مراد وكفايته كسلطان يحكم
دولة كبرى مترامية الأطراف . فأحاطت ابنها بعدد من الجوارى الفاتنات .
وكان معروفاً عنه شغفه العميق بالنساء . وكانت هذه الهواية أضعف نقطة في
خلقه . واستهدفت السلطانة الوالدة من هذا الإجراء أن ينجبوا حب السلطان
للقادين صفية أو ينصرف عنها ، ويلتصق تكديدها كيداً . واستهدفت السلطانة
الوالدة أيضاً من هذا السلاح تحقيق مصالح شخصية لها تمثلت في إخلاء الجوارى
لها لتستأثر في غفلة من السلطان بالنفوذ في الحرم السلطاني وتسيطر على أجهزة
الحكومة ، وأهم من هذا كله ، وأخطر من هذا كله ، لتوجه السياسة الخارجية
للاولوية لخدمة مصالح وطنها الأول وهو جمهورية البندقية . (٣)

(١) يوافق هذا العام الهجري سنة ١٦٢٢ وشطرًا من سنة ١٦٢٣ م .

(٢) دار الوثائق والكتب المصرية ، القاهرة . مرس المساحف الشريفة ، ج ١ ،
ص ٢٠٠ .

— Lavisse et Rambaud; op. cit. t.v, p. 846.

(٣)

وقد تجاوز نفوذ الحريم السلطاني كل حد على عهد هذا السلطان - مراد الثالث - وإنتمت أنباء نفوذهن في الأجهزة الحكومية إلى الدول الأوروبية . وقد كتب دى جرميني de Germigny السفير الفرنسي في إستانبول ملذكرة مؤرخة في اليوم الثامن من شهر ديسمبر - كانون أول - عام ١٥٧٩ إلى وزارة الخارجية الفرنسية . وكان مما جاء فيها قوله إن سيدات الحريم السلطاني يقمن بملوك كبير في حكم الدولة ، وإن السلطانة الوالدة على قمة هذا الفريق من السيدات . فهي تسيطر على الباشوات ، وهي التي تشير بتعيينهم في المناصب الرئيسية في الدولة ، وهي التي تضن عليهم الكثير من مظاهر الرعاية (١) .

ولما توفيت السلطانة الوالدة ، نور بانو ، كان من المنتظر أن تخلف وطأة مراكز القوى في الحريم السلطاني . ولكن حدث أن السيدة العجوز المتخصصة في تنظيم ليالي السلطان ، وهي چاتفيدا خاتون ، تطلعت إلى شغل موقع السلطانة الوالدة الراحلة فتغلوا هي الأخرى مركز قوة خطير . فسارت على نهجها ، وأكثرت من شراء عدد كبير من الجوارى الفاتنات وألحقتهن بالحريم السلطاني حتى قيل إن مشتريات القصر من هؤلاء الجوارى قد زادت زيادة لم يشهد لها القصر من قبل مثيلا . وأدى الإقبال الشديد على شراءهن إلى ارتفاع جنوني في أسعار هذه السلعة الآدمية المتميزة بمجال الوجه ، ورشاقة الجسم ، وخفة الدم ، والحيوية المتلفة . ومما ساعد على إطلاق يد هذه السيدة العجوز في شراء عدد كبير للغاية من الجوارى الحسنان أنه لم يكن للدولة في ذلك الوقت ميزانية منظمة ، إذ لم يكن هناك تمييز واضح بين مصروفات الدولة ومصروفات السلطان . وقد واجهت الحكومة المركزية في إستانبول أزمة مالية خانقة على عهد السلطان مراد الثالث نتيجة إسراف الحريم السلطاني في الإنفاق . واضطرت الحكومة إلى سلك عملة ناقصة المعيار ورفض الإنكشارية

Grant A. J.; A History of Europe 1494—1610, . op. cit., p. 225. =

(١) نشر المروخ الفرنسي رامبو فرات من هذا التقرير . أنظر :

Lavisse et Rambaud; op. eit. t. v, p. 846.

تسلمها ، ولجأوا إلى سلاحهم التقليدى ، وهو إعلان التمرد العسكرى ، وقتلوا الدفتردار باشى ، ومحمد باشا بكلكر بك الرومىلى كما سبق أن ذكرنا .

ناقوس العثمانيين :

انعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة العثمانية فى أوروبا بوجه خاص . قامت مناقشات على حدود النمسا واشتملت الحرب بين الدولة والمجر . واثارت ولايات الأناضول والبلقان وتراسلثانيا ، وانضمت إلى رودلف الثانى Rodolphe II ملك النمسا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وقد جاء الأخير بناقوس كبير وأمر بأن يدق ناقوس الخطر ثلاث مرات فى اليوم تذكيراً لرعاياه بضرورة حشد الجهود لمحاربة العثمانيين . ولذلك أطلق على هذا الناقوس « ناقوس الأتراك La Cloche des Turcs » وقد لقى العثمانيون الهزائم وانسحبوا من بعض المواقع الهامة . وفى الجبهة الشرقية اشتعلت الحرب التقليدية بين الدولة العثمانية والدولة الصغوية بعد وفاة الشاه طهاسب الأول سنة ١٥٧٦ ووقوع اضطرابات داخلية . وتبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار فى حرب استمرت سنوات طوالاً أكثر خلالها تغيير للقيادات العسكرية فى الجيش العثمانى نتيجة استنفاد نفوذ الحريم السلطانى وتدخلهن فى تعيينات المناصب العسكرية الكبرى .

وفى تقدير أحد أعلام المؤرخين الفرنسيين ، وهو ألفريد رامبو Alfred Rambaud أن السلطان مراد الثالث يدخل فى زمرة السلاطين « التناقلة » Les Sultans Fainéants الذين حكموا الدولة ، وأن ترتيبه الثانى فى مجموعة هؤلاء السلاطين . أما السلطان الذى يحمل رقم ١ فى هذه المجموعة فهو والده السلطان سليم الثانى .

وفى رأى كوتشى بك الفيلسوف السياسى للعثمانيين أن الإنحلال انطلق والتدهور المالى فى الحكومة العثمانية إنما يبرؤان بصورة صارخة لىان حكم للسلطان مراد الثالث . وهو رأى صحيح إلى حد بعيد . وقد جعل هذا الرأى

في المذكورة التي وضعها وعرفت باسم « الرسالة » وقلمها سنة ١٦٣٠ إلى السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) كما سبق أن ذكرنا .

ولما توفى السلطان مراد الثالث ارتقى العرش أكبر أولاده باسم محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) وكانت والدته ، صفية ، لا تزال على قيد الحياة . وقد ذكرنا أن هذه السيدة كانت أصلاً من جمهورية البندقية . ولذلك لحق باسم ابنها السلطان محمد الثالث لقب السلطان نصف البندقى أو نصف الفينيسى *Le Sultan demi-Vénétien* وكان نفوذ السلطنة الوالدة عليه عظيماً . وهكذا مارست نفوذاً واسعاً إبان حكم زوجها وحكم ابنها محمد الثالث. وتذكر بعض المراجع الفرنسية أن هذه السيدة كانت حريصة كل الحرص على استمرار نفوذها في شتى أجهزة الحكومة بعد وفاة زوجها مراد الثالث . فلما تولى ابنها العرش أصدرت أوامرها بلجهة الاختصاص في الحریم السلطاني بتقديم الجوارى اللقاتات واحدة بعد أخرى لإبناها السلطان (١) ، لأنها كانت تعرف نقطة الضعف في إيمانها ، وهي شغفه الزائد بالخيالات اللقاتات ، وأنه جاء على شاكلة أبيه مفتوناً بالنساء الحسان ، فعملت على إيمان بل وإشغال الغريزة الجنسية في ابنها . ونجحت السلطنة الوالدة في مخطتها ، إذ انصرف الإبن للنسائيات مطلقاً العنان لشهواته ، وترك لوالدته تصريف شئون الدولة واستمرت مركز قوة وظلت تنبؤ مكاناً حليماً وتسيطر على شئون الدولة حتى . إذا توفى ابنها عام ١٦٠٣ وخلفه على العرش ابنه باسم أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) كان في مقدمة تصرفاته تجريد جدته العجوز من كل نفوذ . فأمر بحبسها في السراى القديم ومنع اتصال أحد بها كما أبعد خلعاءها . ولكن شهد حكمه انتشار الفتن والاضطرابات في شتى أنحاء الدولة وبوجه خاص في أوروبا وفي آسيا .

السلطان إبراهيم الأول المعتوه :

وجدت سيدات الحریم السلطاني في ارتقاء إبراهيم الأول (١٦٤٠-١٦٤٨) عرش الدولة فرصة ذهبية لتحقيق مزيد من النفوذ كمرکز قوة ،

فاذا لم يستطعن بلوغ هذه الغاية ، فلا أقل من الحفاظ على نفوذهن وسطوتهن وبقائهن مركز قوة . كان هذا السلطان هو آخر أبناء السلطان أحمد الأول ، وأخ كل من السلطان عثمان الثاني ، والسلطان مراد الرابع . واشتهر باسم السلطان إبراهيم الخنون . كانت تصرفاته شاذة تدعو إلى السخرية ، وتجعله أدنى إلى المصايين بأمراض عقابية منه إلى الأصحاء .

السلطان يرصع لحيته باللؤلؤ :

كان لإبراهيم غرام شديده بتزيين لحيته بطريقة غريبة وشاذة . كان يضع في شعر لحيته ، عند جلوس الشعر ، أسلاكاً رفيعة يخبئها شعر لحيته الكثيف عن الأعين . وكان بعض هذه الأسلاك من الذهب الخالص ، والبعض الآخر من الفضة الخالصة ، ثم يثبت تثبيتاً عكماً في هذه الأسلاك فصوصاً من اللؤلؤ . ويفسر الباحثون هذا التصرف تفسيرات شتى . يرى بعضهم أن السلطان كان يعتقد أنه بهذه اللؤلؤ يبيشو جيلاً مهيباً أمام ناظريه وبخاصة النساء ، فيزدن دائماً به وتقديراً له . وكان معروفاً عنه أنه يميل إلى السيدات ميلاً عظيماً ويرى البعض الثاني من الباحثين أنه كان يزين باللؤلؤ في لحيته لسبب آخر هو أنه كان يميل إلى محاكاة النساء ، إذ كان متخفياً ، ويستلثون إلى أن إبراهيم كان أكثر السلاطين تخفياً . وقد ننسى هذا البعض أن النساء لا يضعن اللؤلؤ على أذقانهن أو أصدغهن أو خنودهن ! ! . ويرى فريق ثالث أن هذا التصرف من جانب السلطان إبراهيم إنما يتم عن خجل أو اضطراب أو ضعف في قواه العقلية . والرأى الأخير هو الأرجح ، وبخاصة أنه اشتهر بلقب الخنون لهذا التصرف وتصرفات شاذة أخرى ، نشير إليها تباعاً . وأنه بسبب هذه التصرفات صدرت فتوى من شيخ الإسلام بعدم صلاحيته للحكم وتم عزله .

صور أخرى من شلوذ السلطان إبراهيم الخنون :

كان السلطان إبراهيم يوحز لبعض المقربين إليه بكسر أبواب محلات بيع الجواهرات لنهب ما فيها . ولم تكن عمليات النهب مقصورة على الخوال التي يمتلكها وعبايا الدواقة ، بل كانت تمتد إلى محلات الأوروبين الذين يشتغلون

في تجارة المجوهرات، ولم يأبه باحتياجات سفراء الدول الأجنبية على هذه العمليات الإجرامية . فالمنهم لديه أن يحصل على كميات وفيرة من اللؤلؤ رصع بها لحيته ويغير أوضاعها في كل يوم . وكان يستخدم حبات الكهرمان في نزين سمرته . وفي إحدى المرات أراد أن يغطي جدران القصر السلطاني بالفراء السمور . وبمجة تنفيذ هذه الرغبة استحدثت ضريبة تغطي حصيلها أثمان الفراء وتكاليف شحنها من روسيا ، وسميت ضريبة الفراء *taxe de fourrures* كما استحدثت ضريبة الكهرمان *taxe d'ambre* .

١- والدة السلطان تدفع ابنها في طريق الغواية :

استحوذت الجوارى الحسنات على عقله وتفكيره ووقته . وقامت والدة السلطانة كوزم (١) *Koziem* بلور، كبير في دفعه في هذا الطريق . وكانت حياته الخاصة مليئة بالقاذورات . وقد فاق هذا السلطان في التسق والفجور والاضلال الخلقى السلطان مراد الثالث . زين له الشيطان أن يعتدى على زوجات بعض رجال الدولة . وآثر الأخبرون ترك مناصبهم والمجرة من إستانبول إلى الحجاز ليقضوا بقية أعمارهم متقلبين بين الكعبة الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة وبين المسجد النبوي في المدينة المنورة . ووقعت سفينة كانت تقل بعضهم في أيدي فرسان القديس يوحنا - كان مقرهم وقتذاك في جزيرة مالطة - فقتلوا الرجال وسبوا النساء وحولوا الأطفال إلى المسيحية . دربهم ليكونوا في زعم هؤلاء الفرسان جنوداً من جنود المسيح عليه السلام يحاربون ويقتلون ويأسرون المسلمين في أعلى البحار .

تصاعد نفوذ مراكز القوى في الحرم السلطاني :

تفرغ السلطان اراهيم للنسائيات وترك والدة والقادينات يتصرفن في شئون الدولة . ويقول المؤرخ الفرنسي رامبو لأنه لم يحدث من قبل أن حكمت سيدات الحرم السلطاني الدولة العثمانية بمثل هذا الشمول والتغلغل في أجهزة الحكومة كما حكمتها سيدات الحرم على عهد اراهيم الحنون . وبلغت والدة

(١) كان اسمها كوزم ماهبيكر *Koziem Mahpeiker*

البلوة في مراكز القوى في الدولة . طلبت من ابنها قتل قره مصطفي باشا الصدر الأعظم، واستجاب السلطان لطلب والدته عام ١٦٤٣ ، ولم تشفع للصدر الأعظم بسائلته في محاربة الدولة الصفوية . وكان المأخذ الوحيد عليه أن والدته السلطان كانت تشعر نحوه بكرهية . وامثالاً لأمرها أقدم السلطان على قتل يوسف باشا قائد الحملة على جزيرة كريت بحجة أنه لم يقدم النصيب الأوفى من غنائم الحرب للسلطان ووالدته(١) . وازداد شغل السلطان فضى يقتل الصدور العظيم الواحد بعد الآخر . فأمر بقتل صالح باشا الصدر الأعظم سنة ١٦٤٧ لأنه رأى عربة نقل بضائع تقف في أحد الشوارع التي مر منها

(١) كان الإسلام قد نزع أول الأمر ملكية غنائم الحرب التي يستول عليها المقاتلون المسلمون في المارك ، ورد هذه الغنائم إلى الله والرسول ، ليجرد المسلمين من الأطماع ويسلموا أممهم كله قد يهيم والرسول صلوات الله وسلامه عليه إمامهم . وبذلك يخوض المجاهدون المارك لله وفي سبيل الله وتحت راية الإسلام والطاعة لله . إذ وقد جاء هذا الحكم الإلهي في أول سورة الأنفال « ياأيها الذين آمنوا ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » .

حتى إذا طأنت نفوس المسلمين واستقر في أذهانهم أنهم لا يملكون الغنائم ابتداء ولا يملكونها بحق اللزوم ، عاد الإسلام في ذات السورة ليورد عليهم أربعة أخماس الغنائم ويستبقى الخمس على الأصل إله والرسول ولن يعلم الرسول والجماعة الإسلامية من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . قال تعالى في الآية رقم ٤٢ « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة والرسول وللذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير » . ويلاحظ أن :

١ - الأنفال جمع نفل على وزن سبب وأسباب وهي الغنيمة . ومنها : إن تقوى الله هي خير نفل ، أي خير غنيمة .

٢ - وأصلحوا ذات بينكم أي المشكلات التي بينكم بخصوص توزيع غنائم الحرب في معركة بدر .

٣ - يوم الفرقان يوم معركة بدر . وكانت فرقاناً بين الحق والباطل ، أو فرقاناً بين مهدين في تاريخ الدعوة الإسلامية : عهد الصبر والانتصار والتجمع ، و عهد القوة والانفراج والمبادأة . ولكن السلطان إبراهيم الأول لم يقبل أن يستول على الغنائم طبقاً للنسبة التي قررتها الشريعة الإسلامية وأراد أن يحصل على غنائم تتجاوز الخمس . انظر بخصوص موقف هذا السلطان :

الموكب السلطاني . واعتزم مرتين قتل جميع المسيحيين في إستانبول لولا أن
أوقف في وجهه أسعد زاده أبو سعيد أفندي شيخ الإسلام وحلّده من مقبة
هذا الإجراء . وأدرك محمد زاده باشا الصدر الأعظم أنه يشعر باستحالة
ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات مجموعة من الجوارى الحسان الروميات
والبولنديات والمجريات والفرنسيات . وقال إنهن لا يفكرن إلا في أنفسهن ،
ولا يقدرن المسئولية ، وإن الدولة على وشك الانهيار . وقد أسر بهذا الحديث
إلى أحد أصدقائه . وانعكست هذه الأوضاع على مركز الدولة . فهاجم
القوزاق سواحل البحر الأسود . وأغارت جمهورية البندقية على البوسنة
ودلماشيا وجزر ييلوبونيز Péloponèse أما الموقف الداخلي فقد ازداد
إندهوراً ، إذ استمر السلطان في مجونه وفسقه . وغدا ألعوبة في أيدي محظياته .
وكان له من بين أصفياه أحد علماء الدين ، واسمه جنجى خوجه حسين ،
كانت بضاعته من العلم قليلة ، وكان سيء السيرة ، استغل ثوبات
الإغماء التي كانت تعثرى السلطان وحالجه بطلسيات صحرية حتى استطاع أن
يسيطر عليه سيطرة تامة . واستنفدت شهوات إبراهيم ومطالب الحرّيم وأهواء
رجال البلاط الموارد المالية للدولة . وزيدت فئات الضرائب المقررة
واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات الترف الجنوني في القصر . وأدت
هذه العوامل مجتمعة إلى قيام ثورة عاون فيها علماء الدين وعلى رأسهم شيخ
الإسلام أبو سعيد . وبلغت الفياقق الإنكشارية إلى حركة تمرد . وكان الصدر
الأعظم ، هزار پاره أحمد ، أول ضحايا الثورة التي أدت إلى عزل هذا السلطان
عام ١٦٤٨ والمناداة بابنه محمد سلطاناً باسم محمد الرابع ، وكان لا يزال صبياً ،
له من العمر سبع سنوات (١) . أما والده المعزول فقد تم نقله إلى « جيلي
كوشك » أي القصر الصيني حيث شق في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس -
آب - عام ١٦٤٨ بعد أن قضى عشرة أيام في موقعه الجديد والأخير قبل
أن يضم القبر هذا السلطان الذي باع نفسه للشيطان .

الصراع على مراكز القوة بين والدة السلطان وجدته لأبيه :

أجلس على عرش الدولة السلطان محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧) . وكان من الطبيعي أن يدور صراع سافر وعنيف في الحرم السلطاني على مركز القوة في حكم سلطان يبلغ من العمر سبع سنوات . وتنافست سيدتان تبغى كل منهما أن تستأثر بالتفوذ الأعلى . كانت إحداهما جدته لأبيه وهي سيدة يونانية الأصل عجوز اسمها كوزم ماهيبيكر Koezem Mahpeiker ، وكانت الأخرى والدته ، وهي سيدة روسية الأصل ، لا تزال في ميعة الصبا ونضارة الشباب ، عرفت باسم السلطانة والدة طرخانة Trnrkhane واشتدت حدة التنافس بين الالنتين . ولم تأخذ الجلدة العجوز بنصائح وتوجيهات العقلاء من أعلام السياسة والفكر في الدولة. واتجهت إلى زعماء الحركة التي قامت عام ١٦٤٨ وأسفرت عن عزل وقتل السلطان إبراهيم الخنون . وتآمرت مع الإنكشارية على قتل منافستها السلطانة والدة طرخانة . وفي الليلة المحددة لتنفيذ المؤامرة فتحت أبواب القصر السلطاني وأبواب جناح طرخانة ليسهل على الإنكشارية التسلل إلى مخدعها . وشعر الحرس بحركات مريبة وكان الأغوات الخصيان يكون ولاء عميقاً للسلطانة والدة . ودوت في أرجاء القصر نوبة الخطر في سكنون الليل، وفرغ الحرس إلى أسلحتهم وأغلقوا جميع الأبواب ، واتخذ الجميع أماكنهم على أهبة الاستعداد لقتل كل من تحدته نفسه بالاقتراب من القصر . وتوجهت فرقة من الحرس إلى جناح السيدة العجوز جدة السلطان واندفع أفرادها إلى مخدعها ، فوجدوها مخفية في دولاب الملابس بحجرة نومها ، ولم تكذب أعينهم تقع عليها حتى ذبحوها . وعلى الرغم من انفراد السلطانة والدة طرخانة بعد هذا الحادث الذي وقع في عام ١٦٥١ ، استمرت شئون الدولة في التدهور واستشرى نفوذ مراكز القوى فيها : حلا نفوذ الأغوات الخصيان في دوائر الحكومة ، وتصاعد نفوذ الحرم السلطاني ، وطفى العسكريون وبخاصة الإنكشارية وملأوا البلاد فساداً ونهباً . وتعاقب على منصب الصدارة العظمى حتى عام ١٦٥٦ ثمانية صلور عظام أعدم معظمهم نتيجة دسائس الحرم السلطاني وطفيان الإنكشارية .

إحدى مراكز القوى في الحريم السلطاني: يونانية تتعطر بورد الربيع:

كان السلطان محمد الرابع قد شب عن الطوق واستطال حكمه زهاء أربعين عاماً ، وأصبح له قاديئات ، وفي مقدمتهن باش قادين أو خاصكي سلطنة ، أطلق عليها ربيعة جولمش Rabia Gulmish ومعناها السيدة التي تتعطر بخلصة عطر ورد الربيع ، أو التي لا تروى عطشها إلا بماء ورد الربيع . وكانت جارية يونانية الأصل ، يميل لون بشرتها إلى السمرة الخفيفة ، ولكنها كانت ذات جمال ودلال وجاذبية . وسرعان ما اشتعل الصراع التقليدي على مراكز القوى في الحريم السلطاني بين السلطنة والدة والخاصكي سلطنة . وكان السلطان يستجيب لرغبات الأخيرة ، ويستمع لتوجيهاتها ونخبها نفوذ السلطنة الودة طرخانة التي تفرغت إلى تنشئة ولديها سليمان وأحمد . وكان سليمان أخاهما السلطان في السن . وكانت طرخانة تعدها لارتقاء العرش بعد أخيها .

ولم يشترك السلطان في أي حرب خاضتها الدولة على عهده . وفي إحدى المرات التي كان الجيش يتأهب فيها للتحرك إلى ميدان القتال أعلن محمد الرابع عن عزمه على قيادة الجيش وخرج فعلاً مع الجيش ركباً حصانه . ولما وصلت القوات العثمانية إلى أدرنه توقفت قليلاً ، ونزل السلطان من حصانه ، وسلم اليرق النبوي إلى الصدر الأعظم وعلق على عنقه خصلة من الريش رمزاً لشجاعته ، وقال له إنه سيدعو الله كي ينصر الجيش . وقفل السلطان راجعاً إلى قصره حيث استدعى إليه كبار المنجمين ليخبروه عن نتيجة الحرب التي سيخوضها الجيش ، وهل ستكون انتصاراً أو هزيمة .

هذه الشجاعة المزعومة التي تخلت عنه أو تخلى هو عنها وهو يسير مع الجيش إلى إحدى الجبهات الحربية كانت تعاوده من وقت لآخر حين شرع أكثر من مرة في قتل أخويه سليمان وأحمد ، كي يفسح الطريق أمام ولديه ليحكم بعده مباشرة . وكان على أفندي شيخ الإسلام يحول بينه وبين ما كان يشتهي . وفي إحدى المرات لما سما الليل تسلل إلى مخدع أخويه وفي يده سيف

مسلول يريد قتلها. وتصدت له والدته واستطاعت أن تنزع السيف من يده .
وقد وقع هذا الحادث في عام ١٦٦٩ (١) .

وقع اختيار مراكز القوى على رجل يسمى جوردرج Gourzj لشغل
منصب الصدر الأعظم . وكان يبلغ من العمر مائة عام وكان الدولة قد أصيبت
بالعقم في الرجال ، فلم تجد مراكز القوى خيراً منه . ولكنها كانت في الحقيقة
تهدف إلى اتخاذ العوية في يدها تتخذ عن طريقه ما تشاء من قرارات . كان
هذا الرجل ضعيف الذاكرة ، بطيء التفكير ، وهن العظم منه ، واشتملت
لحيته شيئاً . وكان في مناقشاته يشير إليها وبمسكها يمينه . وكانت السلطنة
الوالدة طرخانة تراقب من وراء ستار مناقشاته في أثناء رياسته للديوان المهابوني .
وفي إحدى المرات فقدت أعصابها وصاحت قائلة « يا أبنى إن المسألة ليست
لحية ذات شعر أبيض أو شعر أسود . إن المسألة أعمق من ذلك بكثير . إنها
تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السليمة » .

رئيس الخصيان السود يقدم للسلطنة الوالدة أحد الصلور العظام :

ولما تزايدت الأخطار وأخذت بالدولة من يمين ويسار، رأت السلطنة
الوالدة طرخانة أن تعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى رجل ذى بأس شديد
هو محمد باشا كوبريلى وهو ينتمى إلى أسرة كوبريلى الألبانية . وقد أحضره
إليها في الخفاء رئيس الخصيان السود في الحرم السلطاني . واشترط محمد
كوبريلى عدة شروط لقبول هذا المنصب ، منها : إطلاق يده في اختيار
العناصر الصالحة لشغل المناصب الحكومية ، ومنحه سلطات واسعة للضرب
على أيدي أصحاب مراكز القوى في الدولة ، وحق الموامرات التي قد يدبرها

(١) قول كلامي الحكم به أشهما . وتراوحت مدة حكم كل منهما بين أربع وخمس
سنوات . فحكم سليمان الثاني من عام ١٦٨٧ حتى توفي سنة ١٦٩١، وعُلقه أخوه أحمد الثاني
(١٦٩١-١٦٩٥) وقد أظهر الأول ضعفاً شديداً أمام التمرد السكري الذي قام به الإنكشارية
واتحصنوا دار سياوس باشا الصدر الأعظم وقتلوه واعتادوا اعتداء متكرراً على حريمه . أما السلطان
أحمد الثاني فكان غاملاً وانحصرت هوايته في الشعر والموسيقى مع ميل إلى التصوف . واحتلت
جمهورية البنتيقية جزيرة ساقر سنة ١٦٩٤ وعسرت الدولة مصطفي كوبريلى باشا الصدر الأعظم
وعُلقه في منصبه مره بهى باشا وكان غاملاً شقيقاً وحلاً نفوذ الحرم السلطاني .

البعض ، وعدم الاستماع إلى الوشايات التي قد يروجها المرجفون ابتغاء النيل من تصرفاته أو سمعته ، وغير ذلك من شروط وافقت السلطنة الوالدة عليها وعلى غيرها ، وتقلد منصبه في عام ١٦٥٦ ونستخلص من هذا التعيين حقيقة هامة هي أن أحد الصلور العظام الذين تركوا بصمات قوية في تاريخ الدولة قد وصل إلى منصبه عن طريق رئيس الخصيان السود والحريم السلطاني . وتدل هذه الحقيقة بدورها على عظم نفوذ هاتين القوتين : الخصيان وأغواتهم ، والحريم السلطاني ، كركيزين من مراكز القوى في الدولة .

ولم يكن السلطان محمد الرابع ذا مواهب ممتازة ، وكان مستوى تفكيره عادياً للغاية وشخصيته مهتزة . اهتم بتجديد الأوامر الصادرة بمحظر تناول الخمر ، أو شرب القهوة ، أو التدخين . وكان الدولة قد فرغت من مشكلاتها الداخلية والخارجية التي كانت تحيط بها . وكانت هويته الرئيسية صيد البر . وقد بدد في هذه الهواية وقته وجهده ، وشغل أجهزة الحكومة بتشديد الحراسة عليه ، إذ كان لا يحلو له الصيد إلا في الأقاليم العثمانية الأوروبية تاركاً تصرف الأمور لمركز من أقوى مراكز القوى في الدولة : الحريم السلطاني : جدته ، ثم والدته ، ثم زوجه . واستراح لحكم مجموعة من الصلور العظام كانت غالبيتهم ألعوبة في أيدي الحريم السلطاني وأغوات الخصيان . ولم يشد عنهم سوى آل كوبرلي .

وكان السلطان أحمد الثاني (١٦٩١-١٦٩٥) ، وهو ابن السلطان إبراهيم المعنوه ، على فرار من سبقوه . كان مسرفاً في الشراب ضعيف الشخصية تسيطر عليه حاشية تحركه كيف شاءت . وكان سوداوي المزاج ، أكثر من عزل الصلور العظام . ووقعت على عهده اضطرابات في الحجاز والعراق . وفقدت الدولة بعض ممتلكاتها في أوروبا . ولقيت الجيوش العثمانية المزام في معظم المعارك التي خاضتها ضد النمسا والبندقية وسيطر البنادقة على جزيرة خيوس الهامة ، وكابلا من أعمال دلماشيا . ولم تكن الجيوش العثمانية أكثر توفيقاً في بولندا منها في دلماشيا .

ومن الأمثلة التي تساق في هذا الصدد أيضاً السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-

(١٧٣٠) وهو ابن السلطان محمد الرابع . استطال حكمه زهاء ثمانية وعشرين عاماً . وفي الفترة الأولى من حكمه (١٧٠٣-١٧١٨) عين ما لا يقل عن ثلاثة عشر صندراً أعظم . ولكنه لم يكن حكيماً في اختيارهم أو بارعاً في توجيههم توجيهاً سليماً ، فلم يستعن بهم في القضاء على نفوذ مراكز القوى في الدولة مثل الحرمين السلطاني والخصيان أو الإنكشارية ، إذ لم يكن هو نفسه قلوة طيبة . فقد كان يميل إلى حياة المحون والفسق مع الجوارى الحسنان في القصر الجديد ، ولأنه أحاط نفسه بمركزين من مراكز القوى وهما السلطنة والولادة ، ورئيس الخصيان السود . واتخذ له صفيهاً زوجة ابنته وعينه صندراً أعظم سنة ١٧١٣ وعرف باسم سلحدار داماد على باشا . وكان هذا السلطان يجمع بين المتناقضات . ازدهر حكمه وانتصر على بطرس الأكبر قيصر روسيا ، وهو الانتصار الذي قتل من حجه خيانة بلطجي محمد باشا الصدر الأعظم كما سبق أن ذكرنا . ووجد تجديداً شاملاً السلاح البحري ، ونفذ لأول مرة مشروع بناء السفن الحربية من ذوات الطبقات الأربع . وشهد عهده أيضاً توسعاً موقوتاً للحكم العثماني في مناطق واسعة من غربي فارس . ولكن تضاعفت عدة عوامل أثارت سخط الشعب على السلطان أحمد الثالث . كان من بينها حياة الترف التي عاشها البلاط بكافة هيئاته ، والأخذ بالأساليب الأوروبية الحديثة في الحياة العامة وتدهور مالية الدولة ، وانتشار المحسوبية . وأخيراً قام الإنكشارية بحركة تمرد عسكري احتجاجاً على محاولة السلطان لإدخال الأنظمة الحديثة في الجيش . وطالبوا بقتل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقبودان باشا . وأظهر السلطان ضعفاً شديداً في مواجهة العصيان العسكري ، ووافق على قتل الأول والثالث فقتلها الإنكشارية وألقوا بجثثها في البحر على الرغم من أن الصدر الأعظم الذي وافق السلطان على أن يقتله الإنكشارية كان صفيهاً له وصهرأ له بسبب زواجه من ابنة السلطان - فاطمة سلطان - التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها ، كما كانت من قبل زوجة سلحدار على باشا بالإسم . وكان اسم هذا الصدر الأعظم الذي ضمى به السلطان لإرضاء للإنكشارية هو : نوشهري داماد إبراهيم باشا . ولم تمنع استجابة السلطان لطلباتهم من التعاؤل عليه ، وجرأهم تسامحه معهم على المعالبة

بعزله من العرش . ووافق السلطان واشترط تأمين حياته وحياة أبنائه . وتم عزله في أول أكتوبر - تشرين أول - عام ١٧٣٠ ، وخلفه ابن أخيه محمود الأول . أما السلطان أحمد الثالث فقد بقي في العزلة التي فرضت عليه حتى وافاه أجله المحتوم في عام ١٧٣٦ . وهما يذكر أنه على الرغم من الحروب التي خاضتها الدولة على عهد أحمد الثالث في الجبهات الأوروبية والآسيوية ، لم يذهب هذا السلطان قط إلى ساحات القتال ، وقنع أو لعله ارتاح لقضاء وقته مع سيدات الحريم السلطاني .

والحق أن هاتين القوتين - الحريم السلطاني ، والخصيان البيض والسود يكملان بعضهما البعض في مجالات مراكز القوى في الدولة بحيث يصعب الفصل بينهما . ولا يمكن دراسة موضوع الحريم السلطاني دون استكمالته بدراسة موجزة لموضوع الخصيان . فقد كانوا اليد اليمنى واليد الطولى لسيدات القبة الأولى من الحريم السلطاني ، وأسهموا إسهاماً كبيراً في تصعيد نفوذ الحريم السلطاني .



الفصل الثاني والعشرون

مراكز القوى في الدولة (٦)

الخصيان وأغواتهم

الخصاء الجزئي والخصاء الكل :

يقصد بالخصيان في هذه الدراسة طائفة من العبيد — بيض وسود — كانت الدولة تحصل عليهم من عدة روافد، وتلحقهم بخدمة الحرم السلطاني في القصور السلطانية . وقبل أن يباشروا أعمالهم كانت الدولة تعهد إلى بعض غير المسلمين بإجراء عمليات جراحية لهم . وكانت هذه الجراحات على نوعين : النوع الأول ويطلق عليه الخصاء الجزئي *La Castration Partielle* ، وفي هذه العمليات تستأصل من أجسامهم أو تستل منها الخصيتان . والنوع الثاني ويطلق عليه الخصاء الكامل *La Castration Complète* ، إذ كان يستأصل إلى جانب الخصيتين عضو التناسل . وكان يلحق بالعبد اسم الخصى (١) سواء أجريت له عملية الخصاء الجزئي أو الخصاء الكامل . وكان الهدف من هذه العمليات هو القضاء تماماً على المقدرة الجنسية لدى أولئك العبيد ، وبذلك يكون ولي الأمر — وهو السلطان في هذه الدراسة — مطمئناً الاطمئنان الكامل إلى سلوك أولئك الخصيان عندما يختلطون في أجنحة الحرم بزوجات السلطان وجواربه وأميرات الأسرة العثمانية الحاكمة . وكان هناك تميز بين العبد الذي تجرى له عملية الخصاء الكامل والعبد الذي تجرى له عملية الخصاء الجزئي . فالأول كان يؤدي شتى أعمال الخدمة الداخلية للسيدات في أدب جم وتفان بالغ ابتغاء الظفر بمرضاتهن . وكانت الخدمات الداخلية على الرغم من تنوعها وحساسيتها توزع على هذا الفريق من الخصيان . والملك كانوا على اتصال

(١) جسمها خصيان بكسر الخاء وسكون الصاد .

دائم ووثيق بهؤلاء السيدات مما أتاح لهم حديد الفرص لمزيد من النفوذ والجاه . أما الخصى الذى تجرى له عملية الخصاء الجزئى فيكون عمله مقصوراً على الخدمة الخارجية وعلى حراسة أجنحة الحرم . وتكون مرتبته أدنى من مرتبة زميله الذى أجريت له عملية الخصاء الكامل . ولكنه لم يكن يقل عن زميله أدباً وخلقاً وإخلاصاً وتفانياً فى العمل .

وكانت تظهر تغيرات جسمية ونفسية على أفراد هاتين الطائفتين من الخصبان فتعدهن قامتهن طويلة أكثر من الطول الطبيعى لأجسامهم ، وكذلك أصابع أيديهم . وتميل قامتهن إلى الإنحناء عند الكنفين ، وتبدل شفاههم السفلى ، وتتأثر قوة الإبصار لديهم .

وكان شعورهم بفقدانهم القدرة الجنسية يترك آثاراً عميقة فى نفوسهم . وينطون على أنفسهم فى أوقات الفراغ أو الراحة ويحاولون فى ذات الوقت تعويض هذا النقص بنوع من الجبروت والتحكيم والعتو يسيطر عليهم إذا تولوا منصباً ذا نفوذ . ومن هنا كان لهم ولرؤسائهم نفوذ كبير فى دوائر القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة على السواء كما سنرى بعد حين .

ألقاب الخصبان :

وكان يطلق على العبد الخصى فى تاريخ الدولة أحد لقبين : أولهما طواشى (١) وثانيها آغا (٢) . وكان يطلق على الخصبان السود فى القصور السلطانية قررة أغالر (٣) . ويطلق على زملائهم الخصبان البيض فبو آغا (٤) . ويلاحظ أن

(١) طواشى جمعها طواشية . ويصمها الجيرى « طواشون » . وهى غير كلمة طواش بفتح الطاء وتشديدها ، وهى شائعة الاستخدام فى دول الخليج العربية ، ومنها تاجر اللؤلؤ وجمعها طوايش أو طواشون . أما الطواشة فمنها بجارة اللؤلؤ . ويتردد الطواشون على البحرين والكويت وقطر والأحساء وهن لممارسة نشاطهم فى تجارة اللؤلؤ .
أنظر :

سيف مرزوق الشعلان : تاريخ النفوس على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى . الكويت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٦ .

(٢) آغا جمعها أغوات

(٣) قره فى اللغة التركية معناها أسود ، أى الأغوات السود .

(٤) فبو فى اللغة التركية تعنى ياباً أو بوابة ، أى أغوات البوابة أو أغوات الرباب .

(م ٤١ - الدولة العثمانية)

لقب أغا كان يطلق على أفراد فئات كثيرة من موظفي الدولة في شتى مراحل تاريخها. وكان هذا اللقب يالحق بوجه خاص بأسماء شاغلي المناصب العسكرية (١)

الإسلام والرق :

وقبل أن نمضى في الكلام عن العبيد الخصيان ودورهم في تاريخ الدولة كمرکز قوة ، نلم لإماماً سريعاً بموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، لأن الخصيان كانوا أولاً وقبل كل شيء وقيماً ، ثم أجريت لهم إحدى عمليتي الخصاء . فالرق بالنسبة لهم كان الأصل أو الأساس الذي وجد حياتهم ووجهة معينة . أما الخصاء فقد لحق بهم بعد أسرته أتهم .

لما جاء الإسلام وجد الرق نظاماً اجتماعياً واقتصادياً متغلغلاً في حياة المجتمعات في معظم أنحاء العالم في ذلك الوقت . وكان موقف الإسلام من الرق واضحاً كل الوضوح . فقد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحرب . وعلى عادة الإسلام أخذ المجتمعات في هواده لتبذ نهام الرق ، فعمل على الترغيب في تحرير الرقيق في صورة سلمية وهادئة ، وأتاح للمجتمعات فرصة الاندخال كى تتخلص شيئاً فشيئاً من هذا الدغلام . فعمد إلى طائفة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، مثل كفارة القتل الخطأ وما في حكمه . قال الله سبحانه وتعالى « وما كان المؤمن أن يقتل مؤمناً

(١) كان يطلق على قائد الفيالق الإنكشارية يكنى جري أغاسى أى أما الإنكشارية . وكانت له أسبقته على جميع ضباط الجيش الثماني وعلى وراء الدولة . وبعد أن أثنى السلطان محمود الثاني نظام الإنكشارية كانت تطلق كلمة أغا على الضباط الأيمن حتى رتبة قائمقام (عقيد) . أما الضباط المتمولون بحريمو المدارس العسكرية فكان يطلق عليهم « أفندي » تمييزاً لهم من الضباط الأيمن . وكانت كلمة أفندي تطلق على المدنيين المتعلمين من أرباب القلم . وكانت توجد حتى سقوط الدولة الثمانية عقب الحرب العالمية الأولى رتبة عسكرية بين البوزباشى (النقيب) والبكباشى (المقدم) تسمى قول أغاسى ، أى قائد سلاح أى صاغ (رائد)
انظر :

Bowen Harold; Encycl. of Islam. Art. Agha. Eunuchs.

ويطلق على الخصيان في اللغة الفرنسية Eunuchs وفي اللغة الإنجليزية Eunuchs
والكلمتان الأخرتان مشتقتان من اللفظة اليونانية Eunochos بمعنى حارس غرفة نوم أو حارس في منطقة داخلية تقيم فيها سيدات .

إلا خطأ . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . . . (١) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق كفارة للحنث في اليمين . قال تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحتفلوا أيمانكم ، كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . (٢) . وجعل الإسلام تحرير الرقيق أيضاً كفارة إذا أوقع الزوج على زوجته ظهاراً ثم عاد في ظهاره (٣) . قال تعالى علواً كبيراً « الذين يتأهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لغفور غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يأتوا به ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير » (٤) .

وقرر الإسلام للرقيق حتمه كاملاً في العتق والتحرير في نذر مبلغ يؤديه لسيده موجلاً ويتفق معه على مقداره . وهذا الاتفاق الذي يتم بينها يسمى في الشريعة « المكاتبه » (٥) . ومنذ أن تم المكاتبه يملك العبد حرية العمل وحرية الكسب ويعود إليه أجر عمله . وفرض الله على السيد أن يستحط جزءاً من المبلغ مساعداً للعبد على جمع المبلغ الذي كوتب عليه . قال سبحانه وتعالى

(١) سورة النساء ، آية رقم ٩٢ . (٢) سورة المائدة ، آية رقم ٨٩ .

(٣) كان من عادة العرب أنه إذا غضب الزوج من زوجته قال لها « أنت حل كظهر أمي » فصحح محرمة عليه . وهذا هو الظهار . وهو عقوت شرعاً ، وقول منكر وزور بنص الآية الكريمة ، لأن الأم هي التي أنجبت الرضيع ، والزوجة هي التي يزوجها الرجل ، ولا يصح أن يجعل الرجل الزوجة محرمة كأمه أبناً يمثل هذا القول الباطل .

(٤) سورة المجادلة ، الآيات رقم ٢ ورقم ٣ .

(٥) كانت تتم صيغة المكاتبه حل النحو التالي . يقول السيد لعيده « كاتبك حل ألف دينار في أربعة أشهر ، تدفع في كل شهر مائتين وخمسين ديناراً . فإذا أدتها فأنت حر » فيقول العبد « قبلت » .

« الذين يبتغون الكتاب (١) مما ملكت أيماكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً (٢) .
وتأوهوم من مال الله الذي آتاكم (٣) . . . » (٤) ويلاحظ أنه إذا كان الكتاب
جارية فإن حكمها يسرى على من تلده بعد مكاتبها . فيعتق معها بدون دفع
مبلغ آخر بمجرد قيامها بأداء المبلغ الذي كتبت عليه .

ويحرص الإسلام أيضاً في مواطن عديدة أخرى في القرآن الكريم على
التنويه بأهمية إعناق الرقيق وتحرير من أوقعهم سوء الطالع في الرق حتى
يستردوا آدميتهم وكرامتهم وحريتهم السائبة . قال تعالى « ليس البر أن تولوا
وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى
والمساكين (٥) وابن السبيل (٦) والسائلين (٧) وفى الرقاب (٨) وأقام الصلاة
وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء (٩) والضراء (١٠)
وحين البأس (١١) ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (١٢) .

وقد نزلت هذه الآية الترابية الكريمة فى أعقاب تحوّل المسلمين فى
صلاتهم عن قبلة المسجد الأقصى فى بيت المقدس إلى المسجد الحرام حيث
الكعبة الشريفة . وذكرت الآية أن البر ليس مقصوداً منه أن يولى الناس

(١) الكتاب هنا بمعنى المكاتب (٢) إن توسمّ فيهم صلاحاً لذلك واستعداداً طيباً للوفاء .
(٣) هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للسادة أصحاب العبيد بأن ينفقوا جزءاً من المال يستعين
به العبيد فى الرفاه بالتزاماتهم المالية نحوهم . وفى معنى الإيتاء حمل على من المال المنفق عليه .
وتحصر الآية الكريمة على أن الأموال التى لدى السادة الأتربة التى فرض عليهم أن يؤدوا جزءاً
منها لمساعدة الرقيق على التحرر إنما هى من نعم الله عليهم ومن أفضاله عليهم .

(٤) سورة النور ، جزء من الآية رقم ٣٢ .

(٥) هم الذين لا يبعون حاجتهم ولا يسألون الناس .

(٦) ابن السبيل هو المسافر المنتقطع عن ماله ولو كان غنياً فى بلده . ويسرى هذا الحكم فى
الوقت الحاضر على اللاجئين من فلسطين وغيرها من بلاد الإسلام التى دنسها الاستعمار والصهيونية .

(٧) السائلون هم الذين أحتاجهم الحاجة إلى سؤال الناس .

(٨) وفى الرقاب أى للصرف فى فك رقاب الأرقاء أى تحريرهم ، إما بإعانة من يكتاب
سيده على العنق فى نظير مبلغ يؤديه إليه ، وإما بشراء رقيق وإعتاقهم من هذا المال .

(٩) البأساء شدة الفقر (١٠) الصراء المرض

(١١) حين البأس وقت شدة القتال فى سبيل الله . (١٢) سورة البقرة ، آية رقم ١٧٧ .

وجوهم في الصلاة نحو المشرق والمغرب ، وإنما البر هو أعمال وتكاليف تنشئ آثارها الطيبة في حياة المجتمع الإسلامي . والبر الذي يحقق أهداف الإسلام هو الإيمان بالله الواحد الأحد واليوم الآخر والملائكة وبالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين ، وإنفاق المال ، على الرغم من حب الناس له واعتزازهم به ، على فئات من المجتمع حددتها الآية الكريمة ، وكان من بينها « فلك الرقاب » أى أن الإنفاق يوجه - فيما يوجه إليه - لعنق الرقيق بشرائه وتحريره ، أو بتقديم بعض المال الذي كوتب عليه الرقيق المكاتب مع سيده في نظير عتمته . ويلاحظ أيضاً أن هذه الآية القرآنية الكريمة ذكرت الزكاة بعد الحديث عن إنفاق المال على حبه على من جاء ذكرهم في الآية . والترتيب هنا مقصود . فالإنفاق في تلك الوجوه ليس بديلاً عن الزكاة ، وليست الزكاة بديلاً عنه . وإنما الزكاة هي ضريبة إجبارية لا اختيار للمسلم فيها . أما ذلك الإنفاق فهو مجاله الحر لتطهير قلبه ووصله بالمجتمع الذي يعيش فيه ووصل هذا المجتمع به . والزكاة ضريبة لا يسقطها الإنفاق . ولا تفي هي عن الإنفاق . وإذا علمنا أن الشريعة تخصص سهماً من حصيلة الزكاة لعنق العبيد ، فإن معنى هذا الازدواج أن الشريعة قد أوجدت منفذين هامين واسعين لتحرير الرقيق . إن هذه الآية تجمع بين أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال وتجعلها كلها وحدة لا تنفصم ، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو البر . وتصف الذين يتسمون بهذه الصفات بأنهم صادقون في إيمانهم وصادقون في ترجمة عقيدتهم إلى أعمال بارزة ذات أثر طيب في المجتمع الإسلامي ، كما تصفهم بأنهم متقون يخشون الله ويصلون بالله ويؤدون واجبه لله (١) . فمضى ترغيب في تحرير الرقيق أقوى أثرأ في النفس من هذا السياق القرآني البليغ ؟

ولا يدع الإسلام فرصة تمر إلا ويحث المسلمين على التوسع في حنق الرقيق . فأمر بتخصيص جزء من حصيلة أموال الصدقات لشراء العبيد

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ج ٢ ، العظمة الثانية ، ص

وتحريمهم أو تقديم المساعدات المالية لمن يحتاج منهم إليها في سبيل عتقهم كالمكاتبين ومن إليهم . قال تعالى « إنما الصدقات للفقراء (١) والمساكين (٢) والعاملين عليها (٣) والمؤلفة قلوبهم (٤) وفي الرقاب (٥) والغارمين (٦) وفي سبيل الله (٧) وابن السبيل (٨) فريضة من الله والله عليم حكيم » (٩).

ويرى بعض كبار رجال الفكر الإسلامى أن المعنى من لفظة « الصدقات » التى وردت فى هذه الآية القرآنية الكريمة إنما هو الزكاة (١٠) . وكانت الزكاة تشكل مورداً هاماً من موارد الحكومة الإسلامية تشدد فى تحصيلها . وكانت الحكومات الإسلامية على تعددها تحترم مصارف الزكاة بعامة ومصرف عتق الرقيق بخاصة . وفى بعض الأحيان كانت تنفق فيه أكثر من المبلغ المرصود لهذا الغرض (١١) . ويلاحظ أيضاً أن الله سبحانه وتعالى جعل الرقيق من بين

(١) الفقراء هم الذين يعمدون الكفاية .

(٢) المساكين سبق شرح معناها فى الآية السابقة .

(٣) العاملون عليها الذين يقومون على تحصيلها ما لم تخصص لهم مرتبات من خزينة الحكومة .

(٤) المؤلفة قلوبهم هم طوائف من الناس دخلوا حديثاً فى الإسلام ويراد تثبيتهم عليه .

ومنهم الذين ترجو اللوثة أن تتألف قلوبهم فيصلحوا ، ومنهم الذين أسلموا ونجسوا وترجو اللوثة تأليف قلوب أمطالم فى قومهم ليؤوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويؤادون .

(٥) وفى الرقاب سبق شرح معناها .

(٦) المدينون فى غير مصيبة لمساعتهم فى سداد ديونهم .

(٧) وفى سبيل الله أى إعداد المدة للجهاد وتجهيز المتطوعين وتدريبهم وبث البعث

للدهوة إلى الإسلام وبإذن أحكامه وشرائعه للناس أجمعين ، وتأسيس المدارس والمعاهد والجامعات التى تربي الناشئة تربية إسلامية سليمة ولا تتركهم يلتمحون بمدارس البعثات التنصيرية .

(٨) وابن السبيل سبق شرح معناها .

(٩) سورة التوبة ، آية رقم ٦٠

(١٠) تفسير الجلالين - جلال الدين محمد بن أحمد ، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

السجوطى . . القاهرة ، د . ت ، ص ١٦٠

سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ص ٨٠

دكتور عبد الرحمن حجازى : الحرية فى الإسلام ، ادار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨-٤١ .

دكتور محمد محمود حجازى : التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ص ٦١

(١١) يذكر يحيى بن نعد أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد عهد إليه بجمع الزكاة من بعض الأقاليم الإسلامية فى إفريقية فانتضاها . وطلب فقراء يعلمهم منها فلم يجد ، لأن عمر =

طوائف ثمان أوجب الإنفاق عليها من أموال الزكاة . وقد حدد الله هذه الطوائف تحديداً دقيقاً ، ولم يترك لرسوله عليه الصلاة والسلام ولا لأحد اختيار هذه الطوائف . وإنفاق هذه الأموال مقصور على أفراد هذه الطوائف ولا يتعداهم إلى غيرهم أبداً . وهى تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله وترد على الفقراء والرفيق ومن إليهم من حددت أوضاعهم الاجتماعية فريضة من الله « وهى ليست تطوعاً ، ولا تفضلاً ، أو منحة ممن فرضت عليهم ، فهى فريضة محتمة ، وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ . فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم (١) .

وحبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أعظم قرينة يتقرب بها الإنسان إلى ربه . فقد ذكر الله فى القرآن الكريم عدة قربات يتخذها عباده الصالحون زلفى إليه سبحانه وتعالى . ولكنه جعل تحرير العبد على قمة هذه القربات . وفى هذا قال عز من قائل « فلا اقتحم العقبة (٢) . وما أدراك

صاحب عبد العزيز ببداله وحكمته قد جعل الناس فى غنى عنها . فأمر بتحويل الأموال المرصودة للفقراء والمساكين ليشتري بها كلها سيئاً واحتقهم .

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٠ ، ص ٨٠

(٢) العقبة فى تفسير الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده ، الطريق الومرة فى الجبل يصعب سلوكها . ولكن الله سبحانه وتعالى فر المراد بالعقبة هنا حيث قال « وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة » فأراد منها الطريق التى يصعب سلوكها إلى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة . وإنما كانت صعبة السلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لمساكنها . وفى هذا كتابه عن ميل الإسلام إلى الحرية وجفوته للأسر والعبودية .

ويقول الدكتور محمد محمود حجازى عن العقبة إن للإنسان عقبات من نفسه وشيطانه ودنياه . فيجب أن يكون جواداً لله فيفك الرقبة ويمتقها أو يعمل حل ذلك بكل قواه .

ويرى الدكتور حل عبد الواحد وأن العقبة هى العقبة الكبرى التى لا بد من اتصافها للوصول إلى الجنة . وهى تتطلب أن يقترب المؤمن فى أثناء حياته إلى ربه بعمل جليل من أعمال البر لتحرير الرقيق .

أنظر كلام من :

الإمام محمد عبده ، تفسير جزء عم . الناشر مطابع الشعب . القاهرة ، الطبعة الرابعة . دت

ص ٦٩ .

دكتور محمد محمود حجازى ، التفسير الواضح ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣٠ ، ص ٥١

دكتور على عبد الواحد وأن : الحرية فى الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤١

مالعقبة . فك رقبة (١) ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة (٢) ، يتيماً ذا مقربة (٣) ، أو مسكيناً ذا مقربة (٤) ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا (٥) بالصبر (٦) وتواصوا بالرحمة . أولئك (٧) أصحاب الميمنة (٨) (٩) .

وقد بلغ من تعظيم الإسلام لقربة تحرير الرقيق أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان يضرب بها المثل في تقييم هذه القربة وعظم الثواب عليها ، فيقول «من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة» أو «يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة» (١٠) .

الإسلام ورق الحروب :

سبق أن ذكرنا أن الإسلام قد أغلق جميع أبواب الرق ما عدا رق الحروب (١١)

(١) فك رقبة أى عتقها

(٢) المسغبة هى المجاعة

(٣) المقربة هى القرابة أو الصلة العائلية

(٤) المسكين ذو المقربة هو الفقير الشديد الفقر اللاصق بالتراب . ويقال فقر مدقع

وفقر مدقع أى ملتصق بالنعماء وهى التراب .

(٥) تواصوا أى أوصى بعضهم بعضاً .

(٦) الصبر على المكروه وعن المعصية

(٧) الموصيئون بهذه الصفات .

(٨) الميمنة أى اليمن أو اليمن .

(٩) سورة البقرة آيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٨

(١٠) أنظر ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة عن ثواب عتق الرقيق وجوب إسماهم المحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامى فى مساعدة العبيد المكاتبين على أداء جزء من المبالغ التى يتعين عليهم أدائها لتحريرهم من الرق ، فى :

صحيح البخارى : لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المنيرة بن بردزبه البخارى .

جزءان . ٥ . ت ، ج ٢ فصل عنوانه « العتق وفضله » صص ٦٥-٧٢

(١١) استنلت الشريعة الإسلامية من رق الحرب الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من

المسلمين . فهؤلاء لا يفرض عليهم الرق سواء كانوا من الطائفة الباغية أو من الطائفة المحيى عليها .

أما الحروب التى تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدى فى رأى أصحاب المذاهب الفقهاء إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة ، من أهمها أن تكون أمثال هذه الحروب شرعية أى =

وقد أبى عليه للضرورة ، لأن المجتمعات المعادية للإسلام كانت تسرق أسرى المسلمين طبقاً للتقاليد السائدة . ولم يكن في مقدور الجماعة الإسلامية وقتذاك إجبار هذه المجتمعات على نيل تناليد حرية عمية الجلمور أخذت ما يعرف بالتعبير الحديث قواعد القانون الدولي العام . ولو فرض أن الإسلام قرر إبطال استرقاق الأسرى لكان مثل هذا الإجراء مقصوراً على الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين ، بينما الأماى المسلمون يلاقون مصيرهم السيء في عالم الرق هناك . وفي ذلك لإطاع للمعاين للإسلام في أهل الإسلام(١) .

وفي أول الأمر كان الإسلام يمنع فداء الأسرى المشركين الذين يقعون في أيدي المسلمين كى يستقيم في حوزتهم لإضعافاً لشوكة المشركين وتقوية للمعسكر الإسلامى . ففي غزوة بدر - وهى المعركة الأولى الكبرى بين المسلمين والمشركين - كان النصر فيها حليف المسلمين إذ قتلوا سبعين رجلاً من المشركين وأسروا منهم سبعين رجلاً ، وولى الباقون الأدبار . واستشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر في مصير الأسرى . فكان رأى أبى بكر أن يأخذ منهم الفدية تأسيساً على أن أولئك الأسرى هم بنو العم والعشيرة من

حـ يجزها الإسلام . وحسبنا أن نذكر هنا ثلاث حالات تشتعل فيها أمثال هذه الحروب :

أولاً : حالة الدفاع المنروح . وفي هذا يقول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تتعدوا ، إن الله لا يحب المتعدين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٠ .

ثانياً : بحالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامى . وفي هذا يقول الله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وعتونا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا إيمان لهم ، لعلهم يتقون » . سورة التوبة ، آية رقم ١٢

ثالثاً : قيام أسباب تعرض أمن اللولة الداخلى أو الخارجى للخطر ، مثل إثارة الفتن . وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . سورة البقرة ، آية رقم ١٩٣

ولم تصاحب حروب الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الحالات سواء في ذلك سرهيه منه الحرب أو ضد اليهود أو ضد الروم .

أ نظر

دكتور عبد الواحد وائى . الحرية في الإسلام . مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨-٢٩ .

(١) سيد قلب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢

ناحية ، وأن أخذ الفدية منهم يدعم مركز المسلمين تجاه الكفار من ناحية ثانية ، وقد يهدي الله أولئك الأسرى للإسلام ويصبحون عضداً للمسلمين من ناحية ثالثة . أما عمر فكان رأيه أن يكتبه رسول الله عليه الصلاة والسلام من قريب له فيضرب عنقه ، وأن يكتب علياً من عتيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وأن يكتب حزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله سبحانه وتعالى - علم ظهور - أن ليس في قلوب الصحابة هواة في جهادهم ضد أعداء الإسلام . فالصحابة يضربون أعناق أئمة الكفر وصناديدهم وقادتهم . وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأى أبي بكر . وارتضى أن يأخذ الفداء في مقابل إطلاق سراح الأسرى . فنزلت هذه الآيات القرآنية الكريمة « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبعثن في الأرض (١) ، تريدون عرض الدنيا (٢) ، والله يريد الآخرة (٣) ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق (٤) لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٥) . فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم » (١) .

وتشير الآية القرآنية الأولى في مطالعها إلى ضرورة الإثخان في الأرض ، أي يمضي المسلمون في خوض معارك ضارية تالية وعديدة يملأون فيها الكثيرين من الكفار المحاربين ، ويستيقنون ما يقع في أيديهم من الأسرى . والهدف من الإثخان والاستبقاء هو إضعاف قوى المشركين . وتنطوي الآية على أوم المسلمين الذين قبلوا فداء أسرى المشركين في غزوة بدر « تريدون عرض الدنيا » حين قبأوا المال وأطلقوا أسارى المشركين « والله يريد الآخرة » أي يفتنى توجيه المسلمين إليها لتكون هدفهم . ثم تقول الآية الكريمة « لولا كتاب

(١) يسخن في الأرض أى يكثر فيها القتل ويبلغ فيه ليل الكفر ويقبل حد أنصاره . مشتق من أشفته المرض أى أشفه .

(٢) مرض الدنيا أى حطامها .

(٣) والله يريد الآخرة أى يريد لكم ثوابها ونعيمها .

(٤) لولا كتاب من الله سبق ، أى لولا حكم سبق من الله ، وهو أنه لا يعاقب المخطئ منكم .

(٥) أى لناكم عذاب عظيم يجب ما أخذتم من الفداء من الأسرى .

(٦) سورة الأنفال ، الآيات من رقم ٦٧ إلى رقم ٦٩ .

من الله سبق لمسكم فيما أخذتم حذاب عنايم. أي أنه أحق المسلمين من حذاب
عظيم في قبول الفداء من أسرى بدر تقيلاً لوحد سابق بالعفو عن الخطئين .
ثم أضنى الله الكثير من آلائه عليهم فأحل لهم الغنائم ، وكانت محرمة على
المحاربين .

وإذا كان الإسلام قد منع فداء أسرى المشركين في غزوة بدر^(١) ، فقد
قرر في ذات الوقت الإبقاء على حياتهم وهم في الأسر ، لا ليستأنس لهم انتقاماً ،
ولكنه لمس قلوبهم لمسة إنسانية رقيقة تحيي الرجاء في نفوسهم وتطلق فيهم
الأمل في مستقبل مشرق خير من الماضي ، وفي مكاسب ترجع ما فقدوه
من مال الفداء ومن الديار التي تركوها . قال تعالى « يا أيها النبي قل لمن في
أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم
ويغفر لكم والله غفور رحيم » (١) . وفي ذات الوقت الذي فتح فيه للأسارى
نافذة الرجاء المشرق في قابل الأيام ، حلزهم خيانة الرسول صلوات الله
وسلامه عليه كما خانوا الله من قبل ، فلاقوا ما المصير . « وإن يريدوا
خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » (٢) ، خانوا
الله فأشركوا به . فإذا عملوا إلى خيانة الرسول وهم أسرى في يديه ، فليذكروا
حاقية الخيانة الأولى . والله عليم بسر أرومهم ، حكيم في إيقاع العقاب عليهم .
ولم يستمر قائماً هذا الحذر - عدم قبول فداء الأسرى الذين يتبعون في
أيدي المسلمين ، فلما اشتد مراد المسلمين واستقرت أوضاعهم السياسية
والعسكرية وقويت دعائم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة أجاز لهم الإسلام
حرية التصرف مع الأسرى في نطاق المبادئ العامة للشريعة مع الاستمرار
في سياسة الإيثان في الأرض . قال تعالى في كتابه العزيز « فإذا قضيت الدين
كفروا فضرب الرقاب (٣) ، حتى إذا أئتمنتمهم (٤) فشدوا الوثاق (٥) ،

(١) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧٠ . (٢) سورة الأنفال ، الآية رقم ٧١ .

(٣) أصله فاضربوا الرقاب ضرباً قتل فطفت الفعل وقدم المصدر .

(٤) أي أكثرتم قتلهم وأغلظتموه وجعلتموه تخيلاً أي ظليلاً .

(٥) قيدهم بالوثاق أي فأسروهم . والوثاق ينشق الوار أو كسرهما ما يوثق به ، أي ما

فلما متأ بعد (١) ، وإما فداء (٢) ، حتى تضع الحرب أوزارها (٣) . . . (١) ويلاحظ أن هذه الآية القرآنية الكريمة لم ترد فيها ذكر لكلمة الرق ، بل جاء فيها ذكر المن والفداء بعد وقوع الأعداء أسرى في أيدي المسلمين . ولم تعمل على الترغيب في الرق ، بل حثت على الترغيب في غيره . وفضلت المن والفداء على الرق .

نخلص من هذا العرض السريع لموضوع رق الحرب أن الإسلام لم يقر الرق في صورة مطلقة ودائمة . ولم يجعل الرق نتيجة حتمية للأسر ، بل ترك للدولة الإسلامية أن تعامل أسراها وفقاً لما تتفق عليه مع أعدائها في ضوء قواعد الشريعة الغراء : فتمن عليهم أو على فريق منهم بإطلاق سراحهم بدون مقابل ، وتفدى من تفدى من الأسارى من الجانبين ، وتتبادل الأسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين ، حتى لا يصبح الأسارى من المسلمين أرقاء ، والأسارى من الكفار طلقاء (٥) . والإسلام لم يجعل الرق الحرب سوى مسلك من المسالك التي يجوز للدولة الإسلامية أن تتخذها حيال الأسرى . وبقده ببيود تؤدي إلى نضوب موارده وتفضي عليه بالترديج . وأتاح الإسلام عديد الفرص أمام رقيق الحرب للعتق والتحرر متى انضموا إلى الجماعة الإسلامية وقطعوا صلاتهم بالكفار المحاربين .

وقد أوجز أحد الأساتذة الباحثين الخطوط الرئيسية لموقف الإسلام من الرق في هذه الفقرة « لم يقر الإسلام الرق في صورة مطلقة دائمة ، وإنما أقره في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالترديج ، بدون أن يحدث ذلك أي أثر سيء في نظام المجتمع الإنساني ، بل بدون أن يشعر أحد بتغير في مجرى الحياة . وقد ارتضى للوصول إلى هذه الغاية أبلغ الوسائل أراً ، وأصدقها

(١) فلما متأ بعد أي فلما تمنون عليهم بإطلاق سراحهم متأ أي من غير شيء .

(٢) وإما فداء أي وإما تفدوئهم فداءً بمال أو بأسرى مسلمين أو بعمل يسهون إليهم بأدائه .

(٣) أي حتى تضع الحرب ثقلها ، وهو كناية عن انتهاء العمليات الحربية .

(٤) سورة محمد عليه الصلاة والسلام ، آية رقم ٤

(٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

نتيجة ، وأقصرها أمداً . ويتلخص ما ارتضاه للوصول إلى هذه الغاية في مسلكين : أحدهما تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتغلبه وتكفل بقاءه ، بل العمل على تخفيفها تخفيفاً كاملاً ، والآخر توسيع المنافذ التي تؤدي إلى العتق والتحرير . وبذلك أصبح الرق أشبه شيءً بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التي يستمد منها الماء . وخلق بجدول هنا شأنه أن يكون مصيره إلى الجفاف (١).

بعد هذا العرض الموجز لموقف الإسلام من الرق ومن رق الحرب ، تنتقل إلى موضوع العبيد الخصبان .

الخصاء بين التحريم والإباحة :

عرف الخصاء منذ عصور موخلة في القدم في الشرق والغرب على السواء. استخدم في الصين والهند . وأدخاه مالوك دولتي آشور وبابل في بلاطهم . وشاع الخصاء في العصر اليوناني وأخذه الرومان عن اليونانيين (٢) . وكان في مقدمة الواجبات التي عهد بها إلى الخصبان القيام على خدمة وحراسة السيدات والآفات في التصور الحاكمة . ولما جاءت المسيحية وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية وتوطد مركز الديانة الجديدة انقسم رجال الكنيسة حيال نظام الخصاء فريقين : فريق عارض الخصاء على أساس أنه نظام يتنافى مع الطبيعة البشرية ويتعارض مع ما أراده الله من تعبير الأرض . وذهب هذا الفريق إلى القول بأنه يكفي أن طوائف كثيفة العدد من رجال الدين حرهوا من الزواج أو الاتصال الجنسي على أي نحو من الأنحاء ، وأنه لا داعي لمدها التحريم إلى طائفة من الرجال مها كان عددهم صغيراً من أجل أقلية ضئيلة العدد من السيدات ، وأن على أوليائهن أن يدبروا وسائل أخرى لخدمة هؤلاء السيدات وحمايتهن . وقد ظل هذا الفريق من رجال الكنيسة متمسكاً برأيه عبر العصور التاريخية الوسيطة والحديثة . وكان من أبرز البابوات الذين عارضوا الخصاء

(١) دكتور على عبد الواحد راني : الحرية في الإسلام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢-٢٤

(٢) أحمد مطية الله : القاموس الإسلامي ، المجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

في العصور الحديثة البابا ليو الثالث عشر ، وهو من أصل إيطالي تولى كرسي البابوية من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٩٠٨ (١) . أما الفريق الآخر فقد أيد نظام الخصاء . وكان في مقدمة المؤيدين له القسس . وقد اندفعوا يشجعون خصاء الصبية لاستخدامهم في فرق الترتيل الكنسي مختلفين بسبب الخصاء بأصوات رفيعة رخيصة . وكان يطلق عليهم السورانو (٢) Soprano ، كما كانوا يعرفون باسم الكاسترا (٣) Les Castrats والتعبير الأخير مقصور استخدامه على الصبية الذين أجريت لهم عملية الخصاء . وبمضي السنين نشأت طوائف دينية مسيحية شجعت عمليات الخصاء مثل طائفة « السكوبس الروسية » .

ولما جاء الإسلام كانت عادة الخصاء معروفة بل شائعة في جميع البلاد التي فتحها المسلمون . وما هو جدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية لا تقر مبدأ الخصاء إلا للضرورة القصوى إنقاذاً لحياة مريض أصيب ذلك الجزء من جسمه بمرض خبيث يتطلب استئصال الجزء المصاب من جسمه منعاً لانتشاره في باقي أجزاء الجسم . ولكن ظل مبدأ الخصاء محرماً تحريماً قاطعاً بحكم السنة . جاء في الصحيحين أن عثمان بن مثنون سأل النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يأذن له في خصاء نفسه ، إذ أنه رجل تشق عليه الغربة في المغازي ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم « لا ، ولكن عليك بالصوم » . وجاء في الحديث الشريف « لا يعتبر مسلماً من اختصى أو ختص آخر » (٤) . وعلى الرغم من هذا التحريم كان الرقيق من الخصبان يباعون في أسواق العواصم الإسلامية .

(١) اسم هذا البابا جواكيم بيتشي Joachim Pecci وقد ولد في مدينة كارينتو Carpinetto في إيطاليا .

(٢) Soprano كلمة فرنسية اشتقت من كلمة إيطالية هذا المعنى . وتجمع في اللغة العربية Soprani .

(٣) Castrat كلمة فرنسية من أصل لاتيني Castratus .

(٤) اعتبر علماء التربية الإسلامية أن الخصاء من العيوب التي تسوخ الطلاق باعتباره عبأ مستحكماً لا يمكن البره منه ، ولا تستطاع منه العشرة إلا بصبر . فإذا تزوجت امرأة ووجدت زوجها خصياً ولم تكن قد علمت بحقيقة حاله عند عقد قرانها ولم ترض بالقيام منه وطلبت طلقها ، طلقها القاضي . في الحال .

الدولة العثمانية تأخذ بنظام الخصاء :

وقد أخذت الدولة العثمانية بنظام الخصاء في قصور السلاطين على الرغم من أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً مبدأ الخصاء . وكان أخذ الدولة بهذا النظام غير الشرعي من الحالات القليلة بل النادرة التي خرجت فيها الدولة على الشريعة الإسلامية . وقد سبق أن ذكرنا أن من الخصائص البارزة أنها دولة دينية تحرص حرصاً بالغاً على تطبيق مبادئ الشريعة والإلتزام التام بها في تصرفاتها في سياستها الخارجية والداخلية . ولا يعتبر وجود عبيد خصيان في بعض مدن وعواصم العالم الإسلامي مبرراً لأن تحلوا الدولة العثمانية هذا الحلو .

أقباط الصعيد يقومون بعمليات الخصاء للعبيد الوافدين من السودان :

كانت هناك طائفتان من الخصيان : الخصيان السود ، والخصيان البيض . وكانت مصر تعد المورد الأول للعبيد السود الخصيان . وكان الولاة العثمانيون في مصر يتربون وصول قوافل العبيد من دارفور وكردفان وسنار في السودان إلى أسبوط . وكانت قوافل دارفور وكردفان تسلك في رحلتها الشاقة طريقاً أطلق عليه درب الأربعين لأن الرحلة كانت تستغرق أربعين يوماً . وكانت أسبوط هي نهاية المطاف . وكانت قافلة دارفور وكردفان تحمل منويماً عدداً من العبيد يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف عدا كميات من العاج والتمر هندي وجاود التمر والصمغ وريش النعام والكون وتراب الذهب والتفرون . أما قافلة سنار فكانت تحمل في رحلتها السنوية بضع مئات من العبيد . وكان الباشا العثماني في القاهرة يبعث مندوبين إلى أسبوط أو يعهد إلى حاكم الصعيد ولقبه بك جرجسا أو حاكم جرجسا . وكان أحد كبار الأمراء المماليك (١) ، بشراء

(١) كانت سلطته تمتد إلى معظم أقاليم الوجه القبلي وإلى الواحات وقبيلة الحوارة وسائر القبائل النازلة في تلك الأقاليم .

أنظر

عدد معين من العبيد الذين جاءت بهم التناقلة . وكان الباشا العثماني يوصي بشراء العبيد صغار السن . وفي أسيروط أو أبي تيج ، وبأمر الباشا ، كانت تجرى لهُؤلاء العبيد عمليات الخصاء الجزئي أو الخصاء الكلي . وكان أقباط أسيروط هم الذين يتولون إجراء عمليات الخصاء ، لأن الشريعة الإسلامية تحرم الخصاء كما ذكرنا . وبعد أن يتم شفاؤهم كانت سلطات أسيروط تقوم بترحيلهم إلى القاهرة بالطريق النهري في معظم الأحوال (١) . ويبعث الباشا العثماني في القاهرة بهذه التماذج البشرية بمثابة هدايا إلى السلطان في إستانبول . وقد نهج حكام بعض الولايات العثمانية الأخرى نهج حكام مصر في خصاء العبيد وتقديمهم هدايا للسلطان . وكان أولئك الحكام يحصلون على العبيد بالشراء أو بآية طريقة أخرى . وهكذا كان للسلطان العثماني مورد ثان للخصيان . وكان هناك مصدر ثالث يحصل منه السلطان على الخصيان هو الشراء . ومن هذا المصدر الثالث كان السلطان يحصل على الخصيان البيض . وكان موطنهم الأصلي بلاد القوقاز . وكان أسرى الحروب من قبائل الـملاط وأهل يوهيميا ومن الجرمان بضاعة آدمية ثمينة . كانت تجرى لهم عمليات الخصاء بمنزلة أسريهم ويباعون رقيقاً للسلطان وما يفرض عن حاجة السلطان كان يرسل إلى العواصم الإسلامية حيث يعرضون للبيع في أسواق الرقيق . وأخيراً كان هناك مصدر رابع يحصل منه السلطان على الخصيان مباشرة وذلك بإجراء عملية الخصاء لأفراد من القبائل الإنكشارية كنوع من العقوبة توقع عليهم بعد أن تكون القيادة العسكرية قد استفادت معهم كل الوسائل لردعهم . وكان هذا الفريق من أفراد الإنكشارية ينضمون إلى الخصيان البيض . ويقرر بعض الباحثين أنه كان قليلاً جداً عدد الإنكشارية — وهم الجنود البواسل — الذين

(١) انظر ما جاء بخصوص مدينة أسيروط وقافلة دارفور ومنازل في :

Description de L'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant L'Expédition de L'Armée Française. Edition de C.L.F. Panckoucke, Paris, de 1821 à 1829, 26 vols de texte in—8 et le même nombre de Planches; vol. IV, pp.125—133, vol XVII p.p. 277—305, 278—291 et 291—299.

جرتهم الدولة إلى خصيان . بينما يرى البعض الآخر من الباحثين أن عدد الإنكشارية الذين أجريت لهم عمليات الخصاء كان على العكس كبيراً جداً (١) . ونرى أن كلا الرأيين صحيح . ففي عصر سلاطين الفترة الأولى كان الإنكشارية يستبلسون في القتال ويسترحصون الموت ومثلاً أعلى في الطاعة والإنضباط العسكري ، والمالك ندر منهم من كانت الدواة تحوّلهم إلى خصيان . ولما تدهور نظام الإنكشارية في عصر سلاطين الفترة الثانية تعددت حوادث الفرود والعصيان التي كانت تصدر منهم ، فزاد عدد الإنكشارية الذين وقعت عليهم عقوبة الخصاء . ويلاحظ أيضاً أنهم كانوا يفتدون لياقتهم البدنية ركفايتهم الحربية بعد إجراء عمليات الخصاء . فإذا كانت التصور السلطانية قد كسبت الإنكشارية الخصيان ليقوموا على حراسة وخطمة الحرم السلطاني ، فإن الجيش العثماني قد خسرتهم كمحاربين أشداء .

إجراءات استقبال الخصيان الجدد :

وضعت الدولة أنظمة في التصور السلطانية لتطبق على الخصيان . وتتعاقب السنين وسمخت هذه الأنظمة حتى غدت من التقاليد المرعية . وسنرى صوراً منها في هذا الفصل . فعند وصول الخصيان إلى إسطنبول كانوا يعتنقون الإسلام وياتحققون بالسراي الجديدة . ويبدأون حياتهم الجديدة فيه بعرضهم أولاً على « التيزلر أغاسي » وهو رئيس الخصيان السود ، ثم يعرضون على ضابط كبير يطلق عليه « باش قاني غلامي » أي رئيس غلمان البوابة ، وهو في ذات الوقت كبير ضباط حرس الخصيان ، فيدرج أسماء الخصيان الوافدين الجدد في كشوف التعمينات . ثم تجيء الخطوة التالية والأخيرة فيوتحلون إلى المشرف العسكري الذي يشرف على إعدادهم علمياً وعسكرياً . وكان يطلق عليه بهذه الصفة لقب « لالا » (٢) أي المشرف . ويكون « لالا المشرف أحد

Lybyer A.H.; op. cit., p. 57 and f.n. no.5.

(١)

Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit., vol. I, Part 1, p. 331.(٢)

وكان يطلق على كبير المشرفين : « لالا باشي » . ويلاحظ أن لقب « لالا » كان يطلق أيضاً على الشخص الذي يتولى الإشراف على تربية أبناء السلاطين . وكان لهذا المصطلح مدلول آخر هو « الأب التميز » .

الصف ضباط من رتبة « حاصلية » (١) Hasillis أو « أورتانجه » (٢) Ortança وكان على الخصيان أن يقبلوا يد هذا المشرف في مستهل لقاءهم الأول معه .

تدريب الخصيان :

إرعتب الفواغ من إجراءات الاستقبال كانت تمتد للخصيان دراسات تدريبية نظرية وعملية على المهام التي يعهد بها إليهم في قابل الأيام . فيتعلمون القراءة والكتابة باللغة التركية ، وقدرأ سبرأ من الثقافة الأينية الإسلامية باللغة العربية تمكينأ لهم من أداء شعأرهم الدينية ، ثم المعلومات العامة مع دراسة في السلوك الإيجابي الممتاز . وكان يقوم بتعليمهم المواد النظرية مجموعة من المدرسين يطلق عليهم « الخوجات » (٣) . وفي ذات الوقت يتلقون تدريبأ على بعض المهارات العسكرية . ويقوم رؤسأوهم بالمهمة الأخيرة . وكان انخصيان في أثناء تلتهم دراساتهم يستعملون بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم كانوا يعينون للخيمة التي تبدأ بمحراسة أبواب دوائر الحرم . وللملك خصصت لهم عتابر يعيشون فيها على مقربة من هذه الأبواب . وكان كل خصي عندما تنتهى نوبة حراسته يتلقى في أثناء جزء من فترة راحته مزيدأ من الثقافة الدينية والمعلومات العامة .

وكان لكل مبنى مستقل في منطقة الحرم السلطاني ، وهو الذي يطلق عليه دائرة ، مثل دائرة السلطنة الوالدة ، ودائرة الباش قادين ، ودوائر القادينات ، ضابط خصي مسئول يطلق عليه باش أغا . ويعمل تحت إمرته

(١) حاصلية ومفردعا حاصل ، معناها كامل التدريب . وكان يحصل هذه الرتبة صف ضابط . وكان عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة أثنى عشر . وكانوا يسبقون في المركز الأورتانجات .

(٢) الأورتانجات ومفردعا أورتانجه ، عدد صف الضباط الذين يحملون هذه الرتبة لا يزيد عن خمس . ومعنى أورتانجه وسط أى أن صف الضباط الأورتانجه يكون في مركز وسط بين الحاصلية وبين « النوبت قلغه سيه » الذين يجيئ مركزهم بعده . انظر اختصاصات هذه الطائفة الأخيرة في ص ٦٦٠ ، حاشية رقم ٤

(٣) خوجات كلمة تركية مفردعا خوجه . ومعناها المعلم أو المدرس .

عدد كبير من الحصيان من أصحاب الرتب الصغيرة ، ويسمون « حرم أغاسية » .
أى أغوات الحرم تمييزاً لهم عن أغوات الحراسة . وكان فى القصور السلطانية
الأخرى حرس من الحصيان ، يرأس حرس كل قصر « باش قانى غلامى » ،
ولكن كانوا جميعاً يخضعون لرئيس الأغوات السود . وكان شأنهم فى ذلك
شأن الحصيان الذين يعاونون فى خدمة الأمراء والأميرات المتزوجات وغير
المتزوجات . وكان لكل أميرة « باش أغا » على غرار النظام الموضوع للسلطنة
الوالدة والقادينات . وكان لها أيضاً « باش قانى غلامى » ، و « ماينجى » (١)
يأتهم على حشرة أو اثني عشر خصياً من حصيان الحرم . وكان فى مقدور كل
قادر ، فضلاً عن الباش قادين والسلطنة الوالدة ، أن تستخدم الحصيان فى
أى مرحلة من مراحل ترقيتهم لخدمتها فى الحرم . فقد كان من حق كل منهن
أن تستخدم كثيرين من الحصيان . وكان هناك أيضاً عدد من الحصيان السود ،
يطلق على كل منهم « مصاحب » . ومهمة كل منهم مصاحبة السلطان وهو
ذاهب إلى أجنحة الحرم ، وكذلك تلتى أوامر السلطان فى بعض الأحيان
وحملها إلى القيزلر أغاسى . وكان عدد المصاحبين يتراوح بين ثمانية وعشرة ،
يعمل كل اثنين منهم معاً فى وقت واحد ، ويرأسهم جميعاً « مصاحب باشى » .

وكان القصر يهتم اهتماماً بالغاً بنظافة الحصيان وبقيامهم بواجباتهم الدينية
وبمراعاتهم للتقاليد المعمول بها فى القصور السلطانية ويتمسكهم بقواعد
الإنضباط العسكرية على أكل وجوه . وكان يقوم بمراقبتهم خصيان يطلق
عليهم « موصلنرة جية » (٢) يرأسهم « موصلنرة جى باشى » .

وكان جميع الحصيان حتى رتبة الحاصل يماقبون بالضرب . أما الحصيان
الذين تعلقو مراقبتهم عن مرتبة الحاصل ، فكان يقتصر على نصيحهم ثم زجرهم .

(١) ماينجى مشتقة من كلمتين هريتين هما : ما ، بين ، أى فى الغرف الوسطى . وكان
هذا الحصى هو وأثرانه الذين يملكون فى هذه الغرف يقومون بخدمة السلطان شخصياً . وكانت
مهمتهم فيها حسنة ، وتحتاج إلى مهارات خاصة .

(٢) موصلنرة كلمة تركية معناها النولاب أو الصنوق الذى تودع فيه الأشياء الثمينة
جداً ، مثل المناسق والمصوغات الذهبية والفضية وما إليها .

لإذا تكررت أخطاؤهم أو كانت أخطاؤهم جسيمة كان السلطان يصدر خطأ شريفاً بتنبيههم إلى مصر .

الخصيان السود :

كان يطلق على رئيس الخصيان السود « دار السعادت أغامى » أى أغا دار السعادة (١) . كما كان يعرف باسم « قيزلر أغامى » أى أغا البنات . وكان هذا الرئيس - كما ذكرنا من قبل - يشغل المركز الثالث فى الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . أما أصغر الخصيان السود مركزاً فكان يطلق عليه « إن آشاغى أغا » (٢) En Asagi Aga وهو آخر خصى يلقى بالخدمة فى الحرم السلطانى . وكان لا يحتفظ بهذا اللقب أمداً طويلاً ، لأنه إذا جاء بعده خصى آخر والتحق بالخدمة الحرم يتغير تلقائياً لقب الخصى الأول فيصبح « عجمى أغا » أى أغا ناشى (٣) ، ويترك لقبه القديم للخصى الواصل الجديد .

وكان الخصيان السود فى أثناء الفترة التى يتلقون فيها دراساتهم النظرية وتدريباتهم العملية يستخدمون أحياناً بمثابة حرس لأبواب أجنحة الحرم . وعندما يستكملون دراساتهم وتدريباتهم كانوا يعينون للخدمة التى تبدأ بحراسة أبواب الحرم . ولذلك كانوا ، كما سبق أن ذكرنا ، يعيشون فى جناح حلى مقربة من الحرم السلطانى . وكان الطريق أمامهم ممهداً للتدرج فى قيادة حرس الحرم فى أربع مراتب . وكان قوام الرقبة الأقدمية المطابقة أحياناً أو الخطوة التى يظفر بها بعضهم أحياناً أخرى من السلطان أو من إحدى سيدات الحرم (٤) . وعند رقبة الخصى كان عليه أن يذهب فى صحبة أحد

(١) دار السعادة اسم يطلق على إستانبول .

(٢) إن آشاغى أغا عبارة تركية معناها الأصغر درجة أو الأدنى مرتبة .

(٣) عجمى أغا ، وجمها عجمى أغوات . ويجب التفرقة بين هذا المصطلح الذى يطلق على صفار الخصيان وبين عجمى أوغلان ، وجمها عجمى أوغلانات ، وهو مصطلح يطلق على ناشئ الإنكشارية .

ولعل منشا الخلط الذى يقع فيه بعض الباحثين أن كلا من هذين المصطلحين يبدأ بكلمة « عجمى » لأن الإنكشارية والخصيان العبيد جاؤا إلى الحياة غير مسلمين .

(٤) كانوا يرقون إلى رتبة (نوبت قلغه سبه) ، وبعد حياض هذه الرتبة صنف ضابطه

كبار ضباط الحرم إلى « القبزلر أغامى » ويشكره ويقبل رداه ، ثم يذهب إلى مسجد الخصيان حيث يصل ركعتين شكراً لله سبحانه وتعالى ، ثم يوزع هبة من المال على المعوزين في العاصمة .

وجدر بالذكر - وهو ما يهتما إلى أقصى حد في هذه الدراسة - أن الخصيان السود الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، أى الذين استوصلت من أجسامهم الخصيتان وعضو التناسل ، كانوا لا يمشون أبداً طويلاً حرساً على أبواب أجنحة الحرم ، بل كانوا يتقلون سراعاً إلى الخدمة الداخلية في شتى دوائر الحرم . وكان يشار إليهم في هذه الخدمة الخصيان البيض من ذات النوعية ، أى الذين أجريت لهم جراحة الخصاء الكامل ، وكانوا يؤدون الخدمة الداخلية في مختلف صورها وأشكالها وأنواعها لسيدات الفئة الأولى من الحرم السلطاني مثل السلطنة الوالدة والباش قادين والقادينات وبنات السلطان بالإضافة إلى فتيات الغرف ومن إلهن من الجوارى الحسان دون أن تشعر هؤلاء السيدات بخرج ، ودون أن يشعر السلطان بقلق أو تخوف من أولئك الخصيان ، لأنه كان مطمئناً الاطمئنان كله إلى سليلتهم الجنسية . ولذلك يقرر بعض المؤرخين أن أفراد هذا النوع من الخصيان كانوا يشكلون جزءاً من الهيئة النسائية في الحرم السلطاني (١) ، وهو تعبير يفنى عن كل تعليق . ومع ذلك فقد كان السلاطين يفضلون الخصيان السود على الخصيان البيض في مجالات الخدمة الداخلية الحساسة .

وكانت الدولة تخصص خصياً أسوداً أو أكثر من خصي لكل أمير محددة لإقامته في مقصورة يطلق عليها القفص ، وعليه أمر القفص (١) . وكان هؤلاء الخصيان السود يعملون في خدمته بصفتهم المعلمين أو المشرفين عليه . وكان يطلق على كل منهم كلمة لا لا (Lala) . (٢)

= وكان لا يزيد عدد شاغل هذه الرتبة عن خمسة خصيان سود . وكان من اختصاصهم وقتذاك الإسهام في حراسة السلطان داخل منطقة الحرم السلطاني حين يخرج مع إحدى ساكنات هذه المنطقة للتزوّج في حدائقها . وكان من اختصاصهم أيضاً تناوب الحراسة على مفاتيح الأبواب الأربعة المؤدية إلى منطقة الحرم . وقد سبق أن تعرفنا بالشرح لمنى هذه الرتبة في هذه الدراسة . (١) Gibb Hamilton and Bowen Harold; op. cit. vol. 1, Part 1, p. 77.

(٢) سبق أن تعرفنا مدلولات هذا التعبير .

وقد بلغ عدد الخصيان السود في الحريم السلطاني في القصر الجديد في القرن الثامن عشر مائتين. ولا يدخل ضمن هذا العدد الخصيان السود الذين كانوا يستخدمون في القصر القديم وفي غيره من القصور السلطانية .

ولكن على قدر هذا النفوذ الواسع العريض الذي تمتع به رئيس الخصيان السود، فإنه كان يتعرض للدسائس والمؤامرات تحاك له من داخل أجنحة الحريم السلطاني . ولا يلبث أن يرى نفسه قد هوى بين عشية وضحاها من قمة النفوذ إلى حضيض الضياع ، إذ يصدر السلطان « إرادة » بعزله من منصبه وتعيينه إلى مصر ، ويغادر إستانبول التي شهدت مجده . ويسبقه إلى مصر فرمان سلطاني موجه إلى الباشا العثماني بتقرير مرتب يصرف من ديوان الروزنامة لهذا الأغنياء المزعول . فإذا وصل الأغنياء إلى مصر واطمأن إلى المآورد المائي التي تمتد عليه في وضعه الجديد ، قام بأداء فريضة الحج في ذات السنة . وكان بعضهم يفضل الإقامة ببقية حياته في مكة المكرمة أو المدينة المنورة . وكان البعض الآخر يعود إلى مصر يقضي ذهابها وعلى رأسها ما تبقى له في الحياة من خطرات . وكان هذا الفريق من رؤساء الخصيان السود يشارك في الحياة السياسية المصرية في النطاق الذي يجيده ويرتاح إليه . فكان يسهم مع الأمراء المماليك في حيلك الدسائس التي تستهدف عزل الباشا العثماني من منصبه وإزالته من قصره في قلعة الجبل وتحديد إقامته حتى تتم محاسبته على تصرفاته المالية . وكان رئيس الخصيان السود يستضيف الباشا العثماني ، أو يحدد له شيخ البلد - وهو كبير الأمراء المماليك - مكاناً آخر هو القصر العيني يقيم فيه حتى يتم ترحيله من مصر . وجدير بالذكر أن الأخوات الخصيان السود كانوا يحملون معهم من إستانبول إلى القاهرة مدخراتهم المالية ، ويعملون إلى استثمارها في مصر بشراء أرض زراعية أو عقارات مبنية دارة ، على أن تحول عقب وفاتهم إلى وقف خيري ينفق لإبراده على أوجه الخير مثل المساجد والتكايا والأسبلة وما إليها. ويذكر أحد المؤرخين السويسريين وهو الأستاذ كومب أن أحد الأخوات الخصيان السود كانت له ممتلكات كثيرة في مدينة زقني بالوجه البحري (١) .

الخصيان البيض :

كان يطلق على رئيس الخصيان البيض « باب السعادة أغاسى » أى أغا باب السعادة (١) ، كما كان يطلق عليه « قاني أغاسى » أى أغا البوابة (٢) . وكان الخصيان البيض يتقاسمون في بعض الأحيان مع زملائهم الخصيان السود العمل في حراسة وحراسة الحرم السلطاني . ونقول « في بعض الأحيان » لأنه كان هناك شد وجذب بين أفراد الطائفتين مرده إلى التنافس على الاستئثار بالنفوذ في القصور السلطانية ، وسنشير إليه في موطن قادم في هذا التعامل . وطبقاً لما ذكره أحد المؤرخين العثمانيين ، وهو عطا طيار زاده أحمد (٣) ، كان السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) أول من استخدم الخصيان البيض في هذه الخدمة . وكان يوتئ بهم من إقام القوقاز ، شأنهم في ذلك شأن الجوارى اللاتي كان القصر يحصل عليهن بطريق الشراء من تجار الرقيق بسبب جمالهن اللتان . وظلت حراسة الحرم السلطاني منوطة بالخصيان البيض حتى إذا ارتقى العرش السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) استبدل الخصيان السود بالخصيان البيض . ومعنى ذلك أنه منذ أوائل القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر كان الخصيان البيض هم الذين يستأرن بحراسة الحرم السلطاني وبالخدمة الداخلية في القصور السلطانية .

وكان يعاون رئيس الخصيان البيض خمسة مساعدون من كبار أفراد هذه الطائفة - الخصيان البيض - وكان يطلق على كل منهم لقب معين ، ولكل منهم اختصاصات محددة (٤) . وكان يلي هؤلاء المساعدين أعداد أخرى من

(١) يطلق عليه أيضاً ضابط باب السعادة .

(٢) يطلق عليه أيضاً ضابط الباب . وترد كلمة قاني مكتوبة قبر ، وكلتاها كلمة تركية

مستأجر باب

(٣) يسمى كتابه : « تاريخي عطاء وهو يقع في خمسة أجزاء . وقد طبع في إستانبول عام ١٢٩٣ هـ ويتأجل عام ١٨٧٦ م . وقد نقلنا رأيه الذي ذكره في ج ١ ، ص ٣٤ ، ص ٣٦ من Gibb Hamilton and Bowen Harold ; op. cit. Vol. 1, Part 1, p. 76.

(٤) كان هؤلاء المساعدين :

الخصيان البيض كانوا على شاكلته من سبقوهم ، غتافى الانقلاب والاختصاصات (١) ،
تليهم مجموعات كثيفة العدد من زملائهم لن نهرض المكرم اكتفاء بما
هرضناه .

وكان الخصيان البيض يشرفون على تعليم وتدريب الغلمان - وهم من
حصيلة ضريبة ديوشه (٢) - وكان يطلق على هؤلاء الغلمان المبتدئين « الإيچ
أوغلان » (٣) وكان الخصيان البيض يقومون بهذه المهمة في جلاله سراى ، (٤)

- ١ - خاص أو له بائى ، أى كبير المشرفين على الأروطة الخاصة ، وأرطه معناها جناح .
- ب - خزينة دار بائى ، أى رئيس خزنة القصر .
- ج - كلا رجبى وهو المشرف على الكلاز ، أى مستودع المواد المتوقفة في القصر .
- د - السراى أعالى أى أغا أو ضابط القصر . وكان من اختصاصاته تأمين سلامة
مبايق القصر . ولهذا السبب كان يعمل تحت قيادته أربعون شخصاً .
- هـ - السراى كاخيماى أى مفتش القصر . واستثناء من القاعدة العامة لم تكن اختصاصاته
محددة .

(١) كان من بينهم :

- ١ - خمسة يطلق عليهم « كوسة باشية » أى رؤساء الركن **Heads of the Corner**
ومهمتهم الإشراف على سلوكه مروثيم والاطئنان إلى قيامهم بواجباتهم
على الوجه الأكل .
- ب - عدد غير محدد من « الباش إسكيه » أى كبار الرؤساء . وكان يطلق على
أكبرهم رتبة « أو له كاخيماى » أى مفتش الأروطة .
- ج - إثنان من « الأوزنكى أخاصيه » أى أغوات الركاب . وكان يطلق على أحدهما
« اليمى » ، وعلى الآخر الثمالى أو اليسارى ، لأنها كانا ييران على جانبي
السلطان حين يكون مصلياً صهوة حصانه .
- د - عدد من الخصيان البيض الأكل مرتبة ، ويطلق عليهم « سفرة إسكيسية » أى
رؤساء المائدة **Seniors of the Table** وكان اختصاصهم الإشراف على
نويات طعام « الإيچ أغوات » .

(٢) ضريبة الغلمان .

(٣) كان يطلق على الغلمان الذين قصروا مدة طويلة في الخدمة « إيچ أغوات » أى أغوات
الداخل . بمعنى موظفين في الخدمة الإمبراطورية الداخلية . وفي المصور المبكرة كان من النادر
أن يتجاوز عمر كبار الغلمان خمساً وعشرين سنة . ولكن بعد إلغاء نظام ضريبة الغلمان أصبح
كبار الغلمان رجالاً تبلغ أعمارهم في العادة ستين عاماً أو أكثر ، ولذلك كانوا لا يظنون في آخر
منصب يحصلون عليه أكثر من سبع سنوات .

(٤) قصر مقام في جلاله وهو إحدى ضواحي إستانبول .

أو في القصر القديم في أدرنة ، أو في قصر إبراهيم باشا الذي أنشئ على عهد السلطان سليمان المشرع في الموضع الذي شيد فيه بعد ذلك مسجد السلطان أحمد . وكان هؤلاء الغلمان ينظمون في مجموعات ، قوام كل مجموعة عشرة ، ويرأس شخصي أبيض كل مجموعة منها .

وأضيفت إلى اختصاصات رئيس الخصيان البيض الإشراف على الأوقاف المرصودة على الأراضي المقلسة في الحجاز . وكان يعاونه في إدارة هذه الأوقاف طائفة من الموظفين من خارج القصر وبمض علماء الدين من أعضاء الهيئة الإسلامية الحاكمة ، ثم استطاع رئيس الخصيان السود انتزاع إدارة الأوقاف من رئيس الخصيان البيض وتساعد نفوذه بسبب هذا العمل الجديد (١) . وكانت تصرف لروساء الخصيان في مقابل إشرافهم على الأوقاف مرتبات إضافية تسمى ثمن الحلاء - جزمة (٢) - وقيل في تبرير صرف بدل الجزمة لرئيس الخصيان إن إشرافه على إدارة الأوقاف كان يستفد منه جهداً مضافاً ووقتاً طويلاً . وفي القرن الثامن عشر كان رئيس الخصيان السود يشرف على الأوقاف المرصودة على خمسمائة مسجد . وكان يرأس اجتماعات أسبوعية يحضرها المتولون (٣) مختصون بما يسمى « الحرميين ديواني » أي ديوان الحرميين . وكان يساعد رئيس الخصيان عدد من رجال القضاء كان يطلق على أحدهم « حرمين مفتشي » أي مفتش الحرميين وإثنان من القضاة من فئة نائب قيم أحدهما في بروسة والآخر في أدرنة . وكان من أسباب اختيار رؤساء الخصيان مشرفين على أوقاف الحرميين الشريفين في مكة المكرمة والمدنية المنورة ،

(١) ما هو جدير بالذكر أن بعض كبار سلاطين الدولة مثل محمد الثاني وسليم الأول وسليمان المشرع قد هبوا الصدور النظام نظاراً على الأوقاف المرصودة على مساجد ، بينما بين السلطانان أبو يزيد الثاني وأحمد الأول شيخ الإسلام ناظرأ على مثل هذه الأوقاف .

(٢) الجزمة كلمة تركية تعني الحلاء ذا الرقبة الطويلة أو حلاء ركوب الخيل . ومنها اشتقت البارة التركية جزمة جي باشي أي كبير صائغ الأضحية ، ويهتني هو ومساعدوه لأجواقات أرباب الحرف .

(٣) المتولون جميع متول وهو بمثابة مدير إدارة الوقف . ويطلق على منصبه في اللغة التركية « توليت » أي تولية ، و « الناظر » وهو أعلى مرتبة من المتول ، إلا كان يشرف على أعماله ، و « السكرتير » و « المحلل »

وعلى الأوقاف السلطانية أيضاً العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين السلاطين
وبينهم .

التنافس على مراكز القوى بين الخصيان السود والخصيان البيض :

قام تنافس شديداً بين الخصيان السود والخصيان البيض كان مرده إلى
رغبة كل طائفة منها في الاستئثار بالنفوذ الأعلى في دوائر القصور السلطانية
وفي شئون الدولة . وقد سبق أن ذكرنا أن رئيس الخصيان السود كان يشغل
المركز الثالث في الدولة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام . وكان هذا العبد
الخصي في درجة وزير . ونضيف هنا أن الرسائل التي توجه إليه باللغة التركية
كانت تستهل بهذه العبارة « دولتو عنایتو أفندم حضر تلمرى » أي حضرة
صاحب الدولة والتخاة والاحترام « أما الرسائل التي توجه إليه باللغة الفرنسية
فكانت تكتب مسبوقة بهذه العبارة الفرنسية . *Votre Altesse* أي « حضرة
صاحب السمو » أسوة بأمراء الأسرة العثمانية الحاكمة . وكانت له هيئة من
السكريتيريين الخصوصيين يعرضون عليه المراسلات الموجهة إليه . وكان
السلطان يطمئن إلى الخصيان السود ورئيسهم أكثر من اطمئنانه إلى الخصيان
البيض ورئيسهم عادة . ولهذا السبب كانت اتصالات الصدر الأعظم
بالسلطان تتم في معظم الأحيان عن طريق رئيس الخصيان السود .

وفي أواخر القرن السادس عشر اهتز مركز الخصيان البيض اهتزازاً
حقيقاً على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فقد أصبلر هذا
السلطان فرماناً في عام ١٥٨٢ بتعيين أحد كبار العبيد الخصيان السود في منصب
دار السعادت أغامسى . وكان هذا المنصب حتى ذلك الوقت تابعاً إما للخزينة
دار باشى وإما للسراى أغامسى . وقد استرد الأخير هذا المنصب بعد قرابة
عشر سنوات ، ثم أعيد هذا المنصب نهائياً إلى الخصيان السود حين تولى
السلطان محمد الثالث العرش (١٥٩٥-١٦٠٣) وانتقل نهائياً الإشراف على
الحريم وعلى التفتيش على بعض الأوقاف السلطانية من يد القابى أغامسى -
وهو رئيس الخصيان البيض - مما أدى إلى إضعاف نفوذ الخصيان البيض

وتضاءلت اختصاصاتهم . وعلى سبيل المثال أصبحت مهام الخالص أو طه باشى - وهو أحد كبار المساعدين الخمسة لرئيس الحصيان البيض - مقصورة على لباس ملابس التشريفة لكبار الموظفين مثل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وبعض موظفى القصر . وبذلك غدا هذا الحصى الأبيض الكبير مجرد تشرىفاتى للخدمة الداخلية . وأطاق عليه فى وضعه الوظيى الجايىد «أندرون تشرىفاتى» (١) . وانعكس هذا الوضع الوظيى المتدهور على كبار الحصيان البيض إذ صبحت منهم اختصاصاتهم الواسعة ، واقتصرت مهام الخزينة دار باشى والكلاجرى باشى على التفتيش وعلى تزويد عنابر نومهم باللعام ، ولكن ظل السراى أخاصى - أى آغا القصر - وهو من كبار الحصيان البيض يشرف على القصر فى أثناء غياب الدخان والضباط الذين كانوا يرافقونه . وكان هناك قصر فى إحدى ضواحي إستانبول يسمى «جالاطة سراى» تحت إشراف خصى أبيض ، ولكن ما بدأ القرن الثامن عشر حتى كان الحصيان البيض قد نقص عددهم نقصاناً كبيراً وفقدوا مركزهم المتناز السابق إلى الأبد . وقد ذكر المؤرخ الفرنسى دوسو D'Ohsson أن عدد الحصيان البيض قد هبط فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى ثمانين خصياً ، بينما تجاوز ١٦٠ الحصيان السود مائتى خصياً (٢) .

محاولة إلغاء نظام الحصيان :

وقد تغلغل الحصيان فى العديد من وظائف القصور السلطانية وتميزت خدمتهم فى معظم الأوقات بالأمانة والإخلاص والكفاية والطاعة العمياء ، ولكن يؤخذ عليهم أنهم أعطوا لأنفسهم ثقلاً أكثر من اللازم وسيطر عليهم الغرور . وقد أدرك بعض كبار رجال الدولة خطورة استفحال نفوذ الحصيان فى القصور السلطانية وفى أجهزة الحكومة . كانت القصور السلطانية مليئة بالزوجات والجوارى . وكان إشراف الحصيان على شئونهم والقيام على حراستهم والاتصال بهم اتصالاً مباشراً وداثماً قد أدى إلى نقل شطر كبير

(١) أندرون كلمة فارسية أدخلت فى اللغة التركية ، ومعناها داخل أو فى الداخل .

D'Ohsson; op. cit., Vol 7, p. 57.

(٢)

من السلطة العليا إلى الخصيان ، إذ كانوا يتقنون رغبات هؤلاء السيدات إلى المختصين في الباب العالي وغيره من الدوائر العليا في الحكومة ، فأصبح الخصيان مركز قوة رهيب في الدولة . وقد جرت محاولة في عام ١٧١٦ لإلغاء استخدام الخصيان البيض والسود على السواء في القصور السلطانية . وكانت هذه المحاولة على عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) . وأرسلت إستانبول تعليمات إلى الباشا العماني في القاهرة لوقف عمليات خصاء العبيد والكف عن إرسالهم إلى السلطان . وكان صاحب الفكرة في إلغاء هذا النظام أحد الصنوبر العظام - وهو جور ليل داماد علي باشا . ولكن ما لبثت أن عادت الأمور بعد وفاته إلى أوضاعها السابقة .

محاولة لحد من نفوذ الخصيان :

وجرت محاولة في أثناء حكم السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٤) للحد من نفوذ الخصيان على الأوقاف خارج القصور السلطانية ، فألقى راغب باشا الصدر الأعظم تنظروءام الخصيان على الأوقاف ، ووقف موقفاً حازماً منهم ، وجعل الإشراف على جميع إيرادات الأوقاف من اختصاص الدفتردار وهو رئيس الشؤون المالية في الدولة - وقد نجم عن حركة التطهير التي قام بها راغب باشا أن زادت حصيلة الأوقاف زيادة كبيرة . وانكمش نفوذ الخصيان وروءاسمهم . ولكن أخفقت هذه المحاولة ، لأن حركة الإصلاح لم تعم سوى مستويات قليلة العدد ، وعاد نشاط الخصيان خارج القصور إلى وضعه السابق . ونجح القبزلر أغاسي - رئيس الخصيان السود - في حمل الحكومة العثمانية على أن تعوضه هو وزملاءه الذين كانوا يعملون معه كساعدين له في نظارة الأوقاف عن الخسائر التي لحقت بهم طوال الفترة التي حرموا فيها من دخلهم من الأوقاف . ودفعت هذه التعويضات من الزيادة التي طرأت على إيرادات الأوقاف .

وإزداد الموقف تدهوراً لأن رئيس الخصيان السود سعى جاهداً لدخم وترسيخ نظام الخصيان ، وأصبح يمارس نفوذاً كبيراً على السلاطين أنفسهم

بصورة غير مسبوقه بمثال ، وغدا من أكبر مراكز القوى في الدولة .

تصاعد نفوذ الخصيان :

التحمت مصالح الحریم السلطانی مع مصالح الخصيان وروسانهم التحاماً وثيقاً . كانت نساء الحریم یصلون إلى الخصيان حيناً ، وإلى رؤسائهم أحياناً ، رغباتهن التي كانت تأخذ شكل أوامرفيقها رئيس الخصيان إلى الصدر الأعظم أو الوزراء أو غيرهم من كبار الموظفين في أجهزة الدولة . فتأخذ هذه الأوامر طريقها إلى التنفيذ الفوری . وكانت هذه الرغبات أو الأوامر ذات طابع شخصي أحياناً ، وأحياناً أخرى ذات طابع عام تتصل بالأوضاع الوظيفية لكبار رجال الحكومة أو السياسة العليا للدولة . وفضلاً عن ذلك كان الخصيان يسهون في تنفيذ المؤامرات التي كانت تحاك في داخل القصر . وكان إسهامهم فيها يتم تحميقاً لرغبة الحریم السلطانی . فكان الخصيان بطاعتهم - السود والبيض - هم اليد اليمنى لسيدات الفتنة الأولى من الحریم السلطانی . وكانت هؤلاء السيدات يخلدن من وقت لآخر المنح والعطايا في شتى صورها وأنواعها على الخصيان ، فيزداد الواحد منهم تفانياً في خدمتهن . وكلما شعر أنه مؤيد منهن أدى مهمته لدى كبار رجال الدولة في حزم وقوة بل وفي صرامة ، لأنه كان يشعر أنه يتكلم من مركز قوة ، وهو نفسه مركز قوة . ومن هنا تفاقم نفوذ الحریم السلطانی والخصيان تفاقماً خطيراً في دوائر الحكومة بحيث غدت هاتان الفئتان من أخطر مراكز القوى في الدولة .

والواقع أن ولاء الخصيان للحریم السلطانی كان أعمق من ولائهم للدولة بدافع المصاحبة الذاتية المشتركة في النطاق الضيق . وكانوا يستمدون نفوذهم كمرکز قوة في الدولة من اتصالهم الدائم والوثيق بأولئك السيدات . ولذلك كان نفوذهم يزداد زيادة طردية مع نفوذ الحریم السلطانی ، بمعنى أن نفوذ كل من الحریم والخصيان كان يتصاعد معاً بحيث أصبحت هاتان القوتان تشكلان مركزين متساندين متحالفين من أكبر مراكز القوى في الدولة ، بل لعلها كانا يكملان بعضهما بعضاً .

وإذا كان الخصيان قد عماروا لتحقيق رغبات سيدات الحرم الساطنات وتفئيد رغباتهن ، فلأنهم لم ينسوا أنفسهم . وعملوا أيضاً من أجل تأمين مصالحهم الشخصية . وحسبهم أنه حيل بينهم وبين الإنجاب ذرية تكون عوناً لهم في شيخوختهم الواهنة . ولم تكن لهم حرية رفض أو قبول لإجراء عمليات الخصاء لهم ، إذ كانوا قد فقدوا حريتهم وكرامتهم بل وأدميتهم . ووجدوا في وضعهم الجديد وهم في نهاية المطاف أنهم على قار من الأهمية ، وأن الطريق أمامهم متشعب ، وأن السبيل إلى المجد ذى البريق المزهج المرقت يسر ، فإن عدداً من الوظائف التبادلية التي كان الخصيان يتدرجوا ، في الترقية إليها كان يشغل بالأهمية المطلقة ، وكان عدد آخر من هذه الوظائف يشغل نتيجة الخبرة التي يمتاز بها الخصيان من لدن الحرم السلطاني ، فضلاً عن أن عدداً من الأخوات الخصيان كانوا يتعرضون للنزل إذا غضبت سيدات الحرم السلطاني عليهم . لذلك كانوا يتفانون في خدمة هؤلاء السيدات بوجه خاص ابتداء من القادين الرابعة فصاعداً حتى السلطانة الوالدة . وكانوا أداة طيعة لينة في أيديهن . وعلى الرغم من حذرهم وطاعتهم ، كانوا يتعرضون في بعض الأحيان لندسات الحرم السلطاني ، وما كان أكثرها في السراى الجديده حيث كان الجو موبوءاً في أجنحة الحرم . ويفاجأ كبير الأخوات الخصيان وبعض مساعديه بالعزل . ولذلك كان الخصيان بعامه وكبارهم بخاصة يعملون حساباً لمواجهته مثل هذا اليوم العصيب، وقد جردوا من المنصب والجاه والنفوذ وأغلقت في وجوههم الأبواب بعد أن كانت تعو لهم جباه الجميع ، وأصبحوا بن عشية وضحاها نسباً منسياً .

وهدى تفكير الخصيان إلى تكوين ثروات خاصة بهم جمعوها إما عن طريق المدخرات المالية الشخصية والهدايا التي يحصلون عليها من سيدات الحرم السلطاني أو من كبار الشخصيات التي كانوا يتقربون بها إليهم ، وقد عملوا على مضاعفة هذه المدخرات إما من التثمنر على الأوقاف الخيرية أو الأهلية . وإما عن طريق الكسب غير المشروع . وكانت الفرص أمامهم متاحة ومتعاقبة ، لأن شغل المناصب الكبرى في الدولة أو منح الألقاب كان يتم بطريق الوفاة

والنفوذ، وبعبارة أخرى لمن يدفع فيها أعلى ثمن . وكان الثراء يظهر عليهم بعد عزلم من مناصبهم ونفيهم إلى مصر حيث يقطنون العقارات المبنية أو الأرض الزراعية يحصلون على دخلها طوال حياتهم ، وينصون على تحويلها إلى أوقاف خيرية بعد مماتهم .

وكانت نهاية الخصيان والحريم السلطاني متقاربة إن لم تكن متشابهة . فإذا جاز السلطان إلى ربه انتقلت سائر سيدات الفتة الأولى من الحريم السلطاني من السراى الجديد إلى السراى القديم وعشن على ذكرى مجد ولى . وقضين بقية أيامهن مغمورات أو على هامش الحياة . وقد يسمى أحد الوصولين من كبار رجال الدولة ليتزوج إحدى القادينات السابقات وبخاصة اللاتي لم ينجبن من السلطان المتوفى ذكوراً أو إناثاً . ويستهدف مثل هذا الوصول أن يصيب من مثل هذه الزيجة مغنياً .

وكان يحدث نفس المصير تقريباً بالنسبة للخصيان ، لأن ارتقاء سلطان جديد العرش كان يقترن عادة بحركة تغييرات أو تنقلات بين شاغلي المناصب القيادية بين الخصيان . فقد يكون لمثل هذا السلطان الجديد نساء ، أو يسارع ليجمع له نساء ويصبحن على قمة الحريم السلطاني ، ويقع اختيارهن على خصيان آخرين يتوسمن فيهم الأمانة والإخلاص ويحبون نجم الخصيان السابقين .

والحق أن نمو نفوذ الخصيان ، وتسلسل هذا النفوذ إلى أجهزة الدولة على أعلى المستويات ، ونجاح هذه الفتة من العبيد في أن تجعل من أفرادها مركز قوة خطير ، كل أولئك يعد نقطة سوداء في تاريخ دولة إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية .



الفصل الثالث والعشرون

تقييم مراكز القوى في الدولة

عهد ملئ بالمتناقضات :

في تاريخ الدولة العثمانية وفي الشطر الأول من عصرها الثاني ظاهرتان تبدوان للبعض أنهما ظاهرتان غريبتان ومتناقضتان تناقضاً صارخاً مع المعالم الرئيسية لتاريخ الدولة في تلك الفترة ، ويقف حيالهما بعض المؤرخين والباحثين حيارى في تفسيرهما . وتتمثل الظاهرة الأولى في أن الدولة حققت انتصارات عسكرية هامة في جهات جديدة أو في جهات قديمة على عهود مراكز القوى حين كان على رأس الدولة سلاطين ينتمون إلى العصر الثاني عرف بعضهم باسم السلاطين « التنايلة » fainéants وعرف البعض الآخر باسم السلاطين الذين لا يراهم أحد Invisibles لأنهم احتجبوا عن الشعب والجيش والصور العظام والوزراء ومن إليهم من رجالات الدولة ، وآثروا حياة المتع وسط نساءهم وجواربهم . ثم كان هناك السلطان المحتوه إبراهيم الأول . وقد رزقت الدولة بهم وتعاقبوا على عرشها إما تعاقباً مباشراً ، وإما على فترات متقاربة كأن يفصل بينهم سلطان واحد قد ير قوى الشكيمة لا يلبث أن يجبو برين حكمه بوفاة ، ثم يتعاقب على العرش سلاطين ضعاف يسرفون إسرافاً بعيداً في المملكات ويبددون أوقتهم وجهدهم في حياة اللهو والمجون مما أتاح مناحاً خصياً لمراكز القوى فاستشرى نفوذها وطغيانها وجبروتها ، سواء القيايق الإنكشارية أو الحرم السلطاني أو الخصبان وروساء الخصبان . وإذا كانت الدولة على عهد مراكز القوى قد انتهت بكوارجت عسكرية حيناً وهزائم حربية أحياناً في بعض الجهات إلا أنها أحرزت انتصارات عسكرية وسياسية هامة جداً في ذات الوقت . ونذكر على سبيل المثال ما حدث على عهد السلطان سليم الثاني الذي اشتهر

في تاريخ الدولة باسم السكر ، وبارتكا به الموبقات ، وبالتصاقه بصحبة
السوء ، فقد تم إبان حكمه إرسال الحملة العسكرية بقيادة سنان باشا عام
١٥٦٩ لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وفتح جزيرة قبرص (١٥٧٠-
١٥٧١) . أما حملة اليمن فكانت دعماً للإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر
وغلقت هذا البحر في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي الاستعماري للبحار
الشرقية والأقاليم التي تطل عليها ، لأن اليمن بحكم موقعها في جنوب غربى
الجزيرة العربية وإشرافها على باب المندب تعد منطقة دفاع هامة عن حدود
الدولة العثمانية من ناحية الجنوب بحيث تستطيع بالسيطرة على اليمن أن تطعن
إلى سلامة الأراضي المقدسة الإسلامية في الحجاز من الغزو البرتغالي (١). وكان
استيلاء الدولة على قبرص نجاحاً عسكرياً رائعاً إذ انزعزت من جمهورية
البندقية هذه الجزيرة التي كانت تتمخذا قاعدة عسكرية صليبية تهدد
المواصلات العثمانية البحرية في الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وكانت

(١) أنظر كلاين :

دكتور السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥ ، من مطبوعات معهد
البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، للتعليق الخامس بعنوان : الفتح العثماني الثاني لليمن
١٥٦١-١٥٧١ ، ص ٢٣٥-٢٨٦

دكتور فاروق عثمان أبانطة : مدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨ .
النشر الحديثة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩

دكتور عبد العزيز محمد الشاوي : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة
العربية وموقف الدول الإسلامية الثلاث للكبرى منه ، مرجع سبق ذكره . ويلاحظ أن العثمانيين
أخرجوا من اليمن عام ١٦٣٥ ولم يعودوا إليها إلا في منتصف القرن التاسع عشر ليقبوا حكمهم
فيها قرابة نصف قرن تحولت فيها اليمن إلى « مقبرة لابناء الأناضول » حتى تم جلاهم عنها عقب
الحرب العالمية الأولى . وكانت طبيعة بلاد اليمن عقبه أمام القوات العثمانية ، لأن بلاد اليمن لا تصلح
لحرب نظامية ، كما أن أهل اليمن كانوا يتسككون بأن يكون حكامهم من ينتمون إلى مذهب
ذئبي معين هو الإمامية الزيدية . يضاف إلى هذين السببين بند اليمن عن إستائول ومشقة نقل
القوات إليها إذ لم تكن قد شقت بند قناة السويس . وكان أهل اليمن يطلقون على الحكام العثمانيين
« ولاة الصم » ومع ذلك فقد أسس العثمانيون خدمات جليلة لليمن .

انظر عرضاً لهذه الخدمات في :

دكتور السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤-١٩٤٨)
من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية . القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٨-٣٠

{ ٢ } - الدولة العثمانية

العمليات الحربية في اليمن وقبرص تأكيداً عملياً للتخصيصتين الرئيسيتين للدولة ، وهما الطابع العسكري والطابع الديني في مواجهة الغزو البرتغالي الصليبي والتسلط البندقى . ولم يشترك السلطان سليم الثانى في هذه العمليات الحربية ، ولكن أسهم فيها إسهاماً فعلياً رجال أفذاذ تركهم السلطان سليمان المشرع لابنه سليم الثانى (١) .

وحققت الدولة نصراً عسكرياً آخر حين انتزعت تونس في شهر أغسطس - آب - عام ١٥٧٤ من حكم إسبانيا . وكانت أوروبا ترى أن استيلاء الإسبان على تونس من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس - شارلكان - ومن مفاخر حكمه . ولكن أطاحت الدولة العثمانية بهذه المقخرة وأعادت تونس إلى حظيرة العالم الإسلامى العثمانى وحفظت لهذه النياية (٢) إسلامها وحرويتها . وقد تم هذا الانتصار بفضل سنان باشا

(١) نذكر منهم في الجهة اليمنية : سنان باشا قائد الحملة ، وعثمان باشا ، ورموف باشا ، وعنتر باشا ، وحسن باشا .
وفي الجهة القبرصية :

مصطفى باشا قائد القوات البرية ، وييال Piali باشا قائد الأسطول ، ودرعش باشا والى سلب ، وإسكنو باشا والى الأناضول ، وهرام باشا والى قرمان .
(٢) دخلت ثلاثة أقاليم في شمال إفريقيا تحت السيادة العثمانية في القرن السادس عشر ، وهى حسب ترتيب تأسيسها : الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس . وقد أطلق الأستاذ محمد شفيق غربال على هذه الأقاليم الثلاثة اسماً علمياً هو النيايات . فقال في فصل عنوانه « الأوضاع الراعية في دول المغرب العربى ما نسه » وأرى أن أسميا « نيايات » نقلا عن المصطلح المصرى السورى في أيام السلطنة المملوكية ، حينما كانوا يطلقون على دمشق أو سلب أو ما سائل اسم النياية ، وحاكمها نائب السلطة . كما أطلق الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى على هذه الأقاليم الثلاثة « الأوجايات » نسبة إلى أوجاق السلطان أو أوجاق الإنكشارية .

أما حكام أوروبا ومؤرخوها فقد أطلقوا عليها **Les Régences Barbaresques** وهى تسمية تنطوى على عبث وتلاعب بالألفاظ ، لأنها تسمى أحد مدلولين ، أولها : النيايات المتبربرة أو المحسبة ، وثالثها نيايات البربر ، وهم القبائل التى تقطن شمال إفريقيا ببدءاً من الساحل . وباستقراء التصور الفرنسى أو الإنجليزية التى يرد فيها ذكر هذه العبارة يتضح أن مدلول النيايات المتبربرة المحسبة هو المقصود . وما يؤيد رأينا أن المؤرخ الفرنسى دوا **Douin** نشر مجموعة من الوثائق الخاصة بشمال إفريقيا . وجاء في الوثيقة رقم ٣٧ هذه العبارة **Les Etats Barbaresques** أى الدول المتبربرة المحسبة .

قبل أن يقضى سليم الثاني السكير بحبه في اليوم الثاني عشر من شهر ديسمبر - كانون أول - من ذات السنة إثر نوبة قلبية أصابته نتيجة إصرافه في المسائل الجنسية وإفراطه في تناول الخمر (١).

ونجحت الدولة أيضاً مجاحاً عسكرياً باهراً على عهد السلطان محمد الرابع حين تم لها في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩ احتلال جزيرة كريت على الرغم من المساعدات التي قدمها لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥) لجمهورية البندقية. ولكن كان أحمد باشا كوبرلي الصدر الأعظم قد إنتقل إلى جزيرة كريت ليكون على رأس

وما هو جدير بالذكر أن إتهام حكومات أوروبا في القرن التاسع عشر كان منصبا على الأجزاء الساحلية من أقاليم شمال إفريقيا حيث كان سكانها المغاربة والبربر والأتراك العثمانيون يشاركون عمليات الجهاد الذي البحرى ضد السفن المسيحية التي دأبت على التمرس للسفن الإسلامية في غرض البحر المتوسط ومصادرة حمولاتها وأسر ركبها. وكانت السفن الإسلامية المسلحة ويطلق عليها «مراكب الجهاد» تخرج من موانئ شمال إفريقيا للدفاع عن السفن الإسلامية ولم تكن تخرج للقراصنة. ومع الأسف الشديد هذا بعض المؤرخين والباحثين العرب حلو للمؤرخين الأوروبيين وأطلقوا على مسلمي شمال إفريقيا صفة القراصنة. والحق أنهم قاموا بعبور واقع في الدفاع عن الإسلام والعروبة أو السيادة العثمانية، وفي الكفاح ضد استعمار أوروبا كانت تزايد أخطاره يوماً بعد يوم. وقد توفى تصحيح هذه القرية أو الخطأ المتعدد الشائع بعض الأساتذة، فذكر منهم على سبيل المثال الأستاذين الدكتورين جلال يحيى وصلاح العقاد.

انظر المراجع التالية حسب ترتيب ورودها في هذه الحاشية :

محمد شفيق خريال : منهاج مفصل للبحر، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

دكتور محمد قواد شكري : مصر في مطلع القرن التاسع عشر. ثلاثة أجزاء. مطبعة جامعة

القاهرة، ١٩٥٨، ج ٢، ص ٨٥٥-٨٥٦

Douin George; Mohamed Aly et l'Expédition d'Alger. Le Caire, 1930, p. XLIV et P. 108

دكتور جلال يحيى : المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث. الناشر : دار المعارف، القاهرة

١٩٦٦، ص ٢٦-٣٧

دكتور جلال يحيى : المغرب الكبير. ، الصور الحديثة وهجوم الاستعمار، مرجع سبق

ذكره، ج ٣، ص ٢٥-٢١

دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي، الجزائر - تونس - المغرب الأقصى. مرجع سبق

ذكره، ص ٥٥

(١) بروكلمان كارل : الأتراك العثمانيون الخ، مرجع سبق ذكره، ج ٣، ص ١٢٧

القوات العثمانية ويستكمل فتحها بعد حرب استطالت خمساً وعشرين سنة (١).
وبين هذين الانتصارين الكبيرين وهما فتح جزيرة قبرص وفتح جزيرة
كريت (١٥٧١-١٦٦٩) تعرضت الدولة لزام عسكريه أئمة وفرضت
عليها معاهدات جائرة، نذكر منها على سبيل المثال أنها فقدت أجزاءً من أملاكها
مثل البغدان وشطراً من ترسلفانيا . وواجهت الدولة قوات جرارة من الألمان
والإيطاليين والمجرين . وتصاعدت الحرب بين الدولة والنمسا التي نجحت في
فرض معاهدة توروك (٢) في الحادى عشر من شهر نوفمبر - تشرين ثان -
عام ١٦٠٦ ، وبعد زهاء نصف قرن أرسلت الدولة قوات كثيفة العدد عام
١٦٩١ إلى ترسلفانيا والمجر . ولكن استطاعت النمسا إبادتها . ولم تمر سنتان
على هذه الكارثة حتى قاد أحمد باشا كوبرلى الصدر الأعظم عام ١٦٩٣ حملة
قومها ١٢٢,٠٠٠ جندي وانتصر على النمسا لانتصاراً كان له دوى في أنحاء
أوروبا ، وأعاد إلى الأذهان انتصارات السلطان سليمان المشرع في العصر الذهبي
للدولة . واحتل العثمانيون في ٢٨ من شهر سبتمبر - أيلول - ١٦٦٣ قلعة
نوهزل Neuhaeusel وتعد من أمنع القلاع في أوروبا واستعصت على كثير
من كبار العسكريين من قبل . ونجحت الدولة في عقد معاهدة فاسقار (٣) في
العاشر من شهر أغسطس - آب - عام ١٦٦٤ مع النمسا . وكانت أحكام هذه
المعاهدة في مجموعها في صالح الدولة العثمانية أكثر منها في صالح النمسا .
وبالتالى فإن الدولة بعد معركة سان جوتار Saint Gothard (أول أغسطس

(١) دكتور ه زيلب عصمت راشد . كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٩٦٤ ،

وأنظر أيضاً :

دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع أئخ ، الطبعة الأولى صرص ٨٠١-٨١٠

(٢) يطلق حل هذه المعاهدة أيضاً اسم سيطاتوروك Sitvatorok وقد آثرنا أن نطلق عليها في

هذه الدراسة الاسم المختصر ، وهو ، توروك Torok كما أطلق عليها غيرنا من قبل هذا الاسم المختصر .

(٣) يطلق حل هذه المعاهدة أيضاً اسم إيزنبرج Eisenberg

آب - ١٦٦٤) لم تكن في مركز الدولة المنهزمة التي تحمل عليها شروط مهينة . ولا يزيد أن تمضى في عرض مزيد من الأمثلة لزامم وانتصارات الدولة العثمانية في تلك الفترة لأنها ألصق بالتاريخ الحربى للدولة . وقد سبق لنا في أحد كتبنا السابقة أن عرضنا لصور من هزائم وانتصارات الدولة (١) .

والأمر العجيب أن الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة في تلك الفترة قد كشفت عن حقيقة هامة ، هي أن الدولة كانت لا تزال تزخر بطاقات حيوية تندفق في أوصالها . ففي أثناء حكم السلطان سليم الثانى السكير أصيبت الدولة بكارثة عسكرية ودينية حين تحطم أسطولها في معركة لپانت Lepante في السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - ١٥٧١ ، وهى المعركة البحرية التي أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون اسم الحرب الصليبية المسيحية كما سبق أن ذكرنا . وتكبدت الدولة خسائر فادحة فيها . وعلى الرغم من أن الدوج لويجي مويسنجو وLuigi Mocenigo (١٥٧٠-١٥٧٧) رئيس جمهورية البندقية قد خرج هو وحلفاؤه بتصريح من هذه الصليبية الأوروبية ، فقد رأى أنه لا فائدة ترجى من استمرار حالة الحرب بين جمهورية البندقية وبين الدولة العثمانية . واستقر رأياً على أن إعادة العلاقات السياسية مع الدولة خير وأبقى (٢) . وبدلت الحكومة الفرنسية مساعيها الحميدة *ses bons offices* في هذا الصدد . وكان نائب البندقية في إستانبول ، واسمه أنطونيو باربارو Antonio Barbaro لا يزال مقيماً بالعاصمة العثمانية في أعقاب المعركة الصليبية . وطلب مقابلة محمد صوفلو باشا الصدر الأعظم ليسبر غوره ويقف منه على اتجاهات السياسة العليا للدولة تجاه البندقية بعد معركة لپانت . وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : أوروبا في مطلع أبع ، مرجع سبق ذكره ، الطبعة

الأول ص ص ٧٥٠-٨١٠

وأنظر أيضاً :

Reddaway W.F.; A History of Europe etc.; op.cit., pp. 236-245.

(٢) كانت في جمهورية البندقية عدة هيئات تشترك في الحكم ، منها : المجلس الكبير ، ومجلس الشيوخ ، والمجمع ، ومجلس النشرة وغيرها . وكانت هذه الهيئات متحد من لغوذ الدوج حتى قيل إنه كان يملك ، ولكن لم يكن يحكم .

« إنك جئت بلا شك لتمحس شجاعتنا ، وترى أن هي . ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا . إن إستيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع لنا بكسره وبتره . وبقصاصكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من خلق لحانا . وإن الهزيمة لتنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة التي نبتت بها في الوجه لأول مرة » (١) . وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد . كان بيالى باشا القبودان من بين قتلى معركة لپانت ، فعهد محمد صوقلو باشا إلى القبطان باشا الجديد ، وأسمه العليج على ، ومعناه السيف على ، ببناء أسطول جديد في الشتاء الذي أعقب هذه الهزيمة (١٥٧١-١٥٧٢) . وانصرف إلى تنفيذ هذا الأمر . ولحق العليج على كل معاونة من الصدر الأعظم في إعادة إنشاء السلاح البحري الجديد لحوض البحر المتوسط وزودته بالدولة بكافة الأسلحة والنخائر . وإنصافاً للسلطان سليم الثاني نذكر أنه على الرغم من سمته السيئة أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني . فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبنى فيه أحواض سفن للتجديد بإنشاء وحدات بحرية جديدة . وعلق كريزي Creasy على تصرف سليم الثاني في هذا الصدد بقوله إن ذلك التصرف كان الومضة الوحيدة في حياة هذا السلطان والتي من أجلها يستحق الانتساب إلى بيت آل عثمان (٢) . واستطاع الأسطول الجديد منذ شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٧٢ أن يهاجم جولانته في البحر المتوسط وأن يتحرق بالدول الأوروبية وبالكيانات السياسية المسيحية التي وقفت موقفاً عدائياً من الدولة في صليبية لپانت . وأخذت الوحدات البحرية العثمانية الجديدة تجوب المياه الإقليمية لسواحل إيطاليا دون أن تجرؤ إحدى الدول أو رؤساء الفرسان الإمبراطورية على التعرض لها . واستغلت الدولة العثمانية إعادة التوازن الدولي البحري لمصلحتها في حوض البحر المتوسط ، واستطاعت أن تملى معاهدة جائرة على جمهورية البندقية في السابع من شهر مايو - آيار -

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع ألع ، مرجع سبق ذكره ج ١ ،

الطبعة الأولى ، ص ٧٧٩

(٢) Creasy, E.S.; History of the Ottoman Turks, from the

beginning of their Empire to the present time London, 1877, p. 233.

عام ١٥٧٣ (١) . وتساءل الرأى العام الأوروبى عن الدولة التى انتصرت فى صليبية ليهانت ، وهل هى جمهورية البندقية والبابوية وحليفاتها ؟ أو الدولة العثمانية ؟ ويقول لاغاليه ، وهو من المؤرخين الفرنسيين الذين لا يكتفون بتدبراً للدولة العثمانية ، إن انتصار المسيحية فى هذه المعركة كان انتصاراً حقيقياً ، بل كان كسر اب بقية بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً (٢) .

نصت هذه المعاهدة على أن تدفع البندقية على مدى ثلاثة أعوام ثلاثمائة ألف بندقى كجزء من نفقات الحرب التى تكبدتها الدولة العثمانية من أجل استيلائها على جزيرة قبرص ، كما نصت على زيادة الجزية التى تؤدونها البندقية من خمسمائة بندقى إلى ألف وخمسمائة بندقى من أجل احتفاظها بجزيرة زنتا Zante ، وتقع على مقربة من شواطئ بلاد المورة ، وجاء فى مواد المعاهدة أيضاً أن تنازل البندقية للدولة العثمانية عن جزيرة قبرص وجزيرة سوبوتو Sopoto

كانت هناك ظاهرة أخرى واكبت ظاهرة الانتصارات العسكرية إبان الفترة التى استمرى فيها نفوذ وجبروت وطغيان مراكز القوى فى الدولة . ونعنى بههه الظاهرة استمرار حركة إقامة المساجد الكبرى التى ازدهرت فى العصر الذهبى للدولة ، وأصبحت المساجد من أبرز عناصر الحضارة العثمانية ومن أعظم ما يميز الفن المهارى العثمانى بهاء وروحة وجلالا ووفرة عديدة (٣) . فلما ولى العصر الذهبى لم يفتقر أو يتوقف بناء المساجد الكبرى . ولنا عدة ملاحظات فى هذا الصدد نذكر من بينها :

(١) دكتور عبد العزيز محمد الشاوى : أوروبا فى مطلع ، مرجع سبق ذكره ، ج ١
الطبعة الأولى ، ص ٧٨٠

Lavalié, op. cit., t. II, p. 161.

(٢)

(٣) نذكر على سبيل المثال أن سنان باشا المهندس المهارى قد شيد بأمر السلطان سليمان المشرع إبان حكمه الطويل واحداً ومائتين جامعاً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً . وكانت هذه المساجد من أهم الآثار العمرانية للسلطان سليمان . وكان فى مقدمتها جامع الكبير فى إستانبول . ومن قبل أنشأ السلطان محمد الفاتح مسجداً فى إستانبول هو الجامع الحميدى ، كما أنشأ السلطان أبوزيد الثانى مسجداً أيضاً فى الفترة من ١٤٩٧-١٥٠٣

أعتر بروكلمان كارل ، الأثر الكعثمانية ، وحضارتهم ، مرجع سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧١-٧٢

أولاً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية الذين عرفوا بالمجون وإدمان الخمر تولوا إنشاء مساجد شائعة بلغت الروعة في الجمال والزخرفة والشموخ. نذكر منهم على سبيل المثال السلطان سليم الثاني . فقد أقام في مدينة أدرنة مسجداً كان أعظم مبنى فيها . وقد قام ببنائه سنان باشا كبير المهندسين المجاريين في الفترة من ١٥٦٨ إلى ١٥٧٤ ، وأطلق عليه مسجد الشامية نسبة إلى السلطان سليم الثاني . ويقول سنان باشا إن بناء هذا الجامع يعد من أعظم أعماله ، وهو يقوم على أعلى بقعة في أدرنة ، وله قبة ضخمة ، وأربع مآذن رفيعة كالعمد ، لكل منها ثلاث طبقات وثلاث من الدرج . ولا مسجد فناء رحيب . وقد بلغ هذا المسجد من فخامة البناء والروعة والزخرفة ما جعله المسجد الرئيسي للسلاطين في أدرنة على الرغم أن في أدرنة أربعين مسجداً كبيراً وصغيراً (١) .

وأمر السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) ببناء المسجد الفخم الذي يحمل اسمه . واستغرق بناؤه الفترة من عام ١٦٠٩ إلى عام ١٦١٦ وهو يقع في آت ميداني - ميدان الخيل - في إستانبول .

أما السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) الذي كان عميل إلى حياة المجون والتهاك والعبث وسط الحرم السلطاني فقد أمر ببناء مسجد لوالده في أسكندار (٢) . وقد تم بناء هذا الجامع عام ١٧٠٨ ويسمى بكى والده جامعي .

ثانياً : إن عدداً من سلاطين الفترة الثانية أدخلوا تحسينات على المسجد الرئيسي في العاصمة .

كان السلطان محمد الفاتح قد حول كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية إلى مسجد عقب فتح هذه المدينة . وقد أضاف السلطان سليم الثاني وخلفاؤه ثلاث مآذن بجانب المآذنة الأولى التي كان السلطان محمد الفاتح قد أقامها .

(١) Mordtmann J.H.; Encycl. of Islam. Art. Adrianople.

(٢) وترد هذه الكلمة في بعض المراجع مكتوبة على هذا النحو : أسكودار وهو اسم وأكبر من في إستانبول في جزئها الواقع على الجانب الجنوبي من البوسفور . ويطلق عليه أيضاً اسم سكوتاري Scutari

وأقام سليم الثاني فوق القبة الرئيسية هلالاً من البرونز بلغ قطره ثلاثين متراً .
وأضاف السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) نقوشاً ضخمة كتب بعضها
بحروف يبلغ طولها تسعة أمتار . وكانت تنتظم اسم الله سبحانه وتعالى ، واسم
الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأسماء الخلفاء الراشدين .

ثالثاً : مساجد أنشأتها سيدات الفئمة الأولى من الحرم السلطاني .

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من سيدات الفئمة الأولى من الحرم السلطاني
اللائى كن يشكلن مركز قوة في الدولة قد تنافسن في إنشاء مساجد زلنى إلى
الله . وقد تركزت هذه المساجد في ضاحية واحدة من ضواحي إستانبول ،
هى ضاحية « أسكودار » أو « سكوتارى » . وقد بنيت قبلها مساجد أخرى
فيها لا تدخل في نطاق هذه الدراسة . ونذكر من تلك التى شيدت في عصر
مراكز القوى .

إسكى والدة جامعى . وقد سبق أن أشرنا إليه .

جامع جنيلى . وقد فرغ من إقامته عام ١٦٤٠ في نهاية حكم السلطان
مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول .

رابعاً : إعداد كسوة الكعبة الشريفة في إستانبول :

يجمع مستشرقان ، هما : إيوار ، ومانتران ، على أن السلطان أحمد الأول على
الرغم من حيويته الكثيرة مثل القسوة والتقلب وسهولة التأثر عليه والتفكير
لمن أسلوا خدمات جليلة للدواة ، كان يغمره الورع والتقوى فكان يجمع
بين المتناقضات . أقام عدة منشآت دينية وخيرية . وكان أول من أمر بأن
تعد في إستانبول كسوة للكعبة الشريفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة (١)
وأن ترسل سنوياً مع قافلة الحج الشامى (٢) . وكانت هذه القافلة تعد القافلة

Huart C.I., Encycl. of Islam. Art. Ahmed I.

(١)

Mantran R., Loc.cit.

(٢) يرد ذكرها في بعض المراجع قافلة الحج الرومى أى التركى أو الشافى ، لأنها أصبحت

تهدأ رحلتها من إستانبول .

الأولى في الدولة وتضم المحمل الشريف وحجاج بلاد الشام وحجيج الأناضول والروم إلى (١) . ويلاحظ أن إعداد الكسوة الشريفة في إستانبول وإرسالها لم يمنعا الحكومة المصرية من الاستمرار في إعداد الكسوة أيضاً وإرسالها مع قافلة الحج المصري إلى مكة المكرمة . وكان وصول القافلتين الشامية والمصرية بالمحلمين بعد حادثاً عظيماً عند أهل مكة . وكانوا يحتفلون بمقدمها . وتنصب القافلتان خيامها في أماكن معينة خارج مكة المكرمة .

وتفسير هاتين الظاهرتين لا يحتاج إلى عناء فكري كبير . ولا يمكن القول إن مراكز القوى قد أسندت إلى الدولة خنومات جليلة ، بل كان العكس هو الصحيح . ولا يمكن القول أيضاً إن مراكز القوى كانت تتميز بالحصافة السياسية أو المتندرة الإدارية أو الكفاية الحربية أو التعمق في الثقافة الدينية الإسلامية العليا . ولكن الصحيح أن الدولة العثمانية كان قد مضى على إنشائها من عهد عثمان الأول حتى عزل السلطان أحمد الثالث أكثر من أربعة قرون (١٢٩٩-١٧٣٠) فلم تكن دولة ناشئة ، وإلا كان حكم سلطان واحد من السلاطين « الثابتة » كفيلاً بالإطاحة بها . يضاف إلى ذلك سبب آخر هو أن الدولة كانت دولة عسكرية بكل ما يحمل هذا الوصف من معان . وكانت العسكرية الصارمة هي الخصيصة الأولى من خصائص الدولة . وكان لها قوات عسكرية مسلحة ضاربة رهبة كصفة العدد متعددة الأسلحة ، مثل سلاح البيادق - المشاة - سلاح الخيالة - الفرسان ، وسلاح الطوبجية - المدفعية - بكافة أفرعها . وكانت لها قوات بحرية بصفتها إحدى دول البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر . ويلاحظ أيضاً أن الصعوبة التي صادفها رجال الإصلاح في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر والقرن التالي هي تحويلها من دولة عسكرية إلى دولة مدنية . وفي ظل الدولة العسكرية كان العسكريون -

(٢) كانت قافلة الحج الشامي أو الرومي تسلك الطريق التجاري القديم من إستانبول إلى دمشق وتحتقر ما وراء الأردن ، وهي موآب القديمة مارة بجمان ، فدائن صالح ، فلدينة النورة ، ثم مكة المكرمة . وأقامت الحكومة العثمانية معازل في المحطات يجد فيها الحجاج طعاماً مهيباً وشراباً . وكانت الرحلة من إستانبول إلى مكة المكرمة تستغرق زهاء خمسة وأربعين يوماً .

وهم أهل الثقة بالتعبير المعاصر - يتقلدون المناصب المدنية فضلاً عن الوظائف العسكرية . ولم نجد الدولة رصيناً بشرياً من أصحاب الكفايات المدنية - وهم أهل الخبرة - لتتأهل بهم المناصب المدنية فيما عدا علماء الشريعة من أعضاء الهيئة الدينية الحاكمة . وأخيراً كان هناك سيان آخران لم يجعلنا المراكز القوي الأثر السريع في انهيار الدولة . فقد كانت هذه الدولة لا تزال تسير بقوة الدفع التي أودعها فيها سلاطين عصرها الذهبي في الفترة الأولى من تاريخها . وأخيراً كانت الدولة العثمانية من كبرى دول العالم بحيث لم يكن اضمحلالها أو سقوطها أمراً ميسراً يقع بين عشية وضحاها . وقد كان اضمحلالها حيلة عوامل داخلية وخارجية عديدة ومتباينة في أصولها ووسائلها وأهدافها ، وظلت تنخر في عظام الدولة أعصرراً وأدهاراً وأحقاباً . وكانت مراكز القوى من بين هذه العوامل المبكرة ، ومن بين النذر الأولى لاضمحلال الدولة . ومع ذلك فقد ظلت هذه الدولة قائمة أكثر من ثلاثة قرون ، لأنها كانت دولة شاحنة البنيان قوية الدعائم وطيدة الأركان . عاصرت الزحف الاستعماري الأوروبي في أعنف مراحلها ضراوة . نظرت إليها على أنها دولة إسلامية دخيلة على أوروبا ، ويجب طردها من هذه القارة ومن شمالي إفريقيا وسائر القواعد العسكرية التي تحتلها في حوض البحر المتوسط كقائمة للقضاء عليها وإزالتها . من خريطة العالم السياسية . وكذلك واجهت تكتلات عسكرية صليبية نظمتها الدول الأوروبية الاستعمارية ، وشنت عليها حروباً متصلة بحيث كانت الدولة تخرج من حرب لتخوض حرباً أخرى في جهة أخرى . ولا تكاد الحرب الثانية تضع أوزارها حتى تواجه الدولة ثورة عارمة في ولاية أو أكثر من ولاية مسيحية في أوروبا تروم الاستقلال بتحريض وتشجيع ومساعدة بعض الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى .

وأخيراً فإن الدولة العثمانية كانت دولة الإسلام الكبرى . وكانت فتوحاتها الحربية وسط شعوب مسيحية تم باسم الإسلام ، وكما سبق أن ذكرنا كان إذا دخل مسيحي أوروبا في الدين الإسلامي قال عنه زملاؤه إنه خدا عثمانياً ، ولم يقولوا عنه إنه أصبح مسلماً . فاللولة العثمانية كانت الرمز الحى

المجسد للإسلام . وكان للهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة مركزها المرموق بين الهيئات الحاكمة في الدولة ونفوذ متشعب في أجهزة الدولة بحيث لم يكن من السهل أن ينكش نشاطها الديني .

والمعنى الذى نستخلصه مما سبق أنه من بين الخصائص العديدة التى تميزت بها الدولة ظلت الخصيصة الأوليان الرئيسيتان ، وهما العسكرية والدينية ، بارزتين في نشاط الدولة . ولم تتأثرا من وجود مراكز قوى فيها تأثراً خطيراً أو كبيراً ، بل ظلت الدولة محتفظة بهما ، ولهما مكان الصدارة مما يعد من دلائل أصالة هذه الدولة ، وأنها كانت - ذات رصيد زاخر من مجد مؤثر عاشت عليه في أحلك الفترات التى سيطرت فيها على مصائرنا مراكز قوى لم تكن تروم غير تحقيق مغانم شخصية لها .

ولا يعد هذا التقييم دفاعاً عن مراكز القوى الثلاثة أو تقليلاً من الأضرار التى لحقت بالدولة من جراءها . فما لاجدال فيه أن القوضى ضربت أطنابها في أجهزة الحكومة وساد الاضطراب في الدلية ، كان السلاطين لا يحكمون ، وكان الصبور العظام لا يحكمون ، وانتقلت السلطة في الدولة إلى أيدي طوائف غير مستولة : جوار حسان اشترت غالبيتهم بالمال الوفير ، وعبيد خصيان بيض وسود وأغواتهم ، فضلاً عن أخلاط شتى من العسكريين خرجوا على قواعد الإنضباط العسكري . ولم يفكروا في المصالح العليا للدولة ، واقتصروا تفكيرهم ونشاطهم على تحقيق مصالح شخصية وعاجلة لهم مثل زيادة مرتباتهم وإجراء ترقية مرتبة لهم ومنحهم المزيد من البدلات والامتيازات . ولكن كان العسكريين لا يتعرون ولا يشبعون . وفكر بعضهم في الاستيلاء على النضيات الموجودة في القصر السلطاني معتمدين على كثرتهم العديدة وأساليبهم ودربتهم على اقتحام المواقع ، وكان بعض العسكريين يثرون على بعض التصرفات التى تصدر عن السلاطين ولا تروقهم . ومن الأمثلة الصارخة التى تساق في هذا الصدد أن الإنكشارية لجأوا إبان حكم السلطان مصطفى الثانى (١٦٩٥ - ١٧٠٣) إلى سلاحهم الثقيل ، وهو إعلان العصيان العسكري ، بحجة أن السلطان أطال إقامته في مدينة أدرنة بدلا

من إستانبول . وقد أسفرت حركة التمرد عن خلع السلطان مصطفى الثاني .
ومنذ ذلك الحين تجنب السلاطين زيارة مدينة أدرنة إلا لماماً ثم هجروها
تدريجياً خلال القرن الثامن عشر .

* * *

وقد صعب نشوء مراكز القوى الثلاثة ونموها واستفحال خطرها ظهور
عناصر جانبية أخرى تطلعت إلى أن تكون موقلاً للنفوذ أو بعض النفوذ ،
وأطلت برأسها على مجالات مراكز القوى ، وتزاحمت وتنافست على أن
تكون . عقائد الأمور في يدها على نحو من الأنحاء . وكان من بين هذه العناصر
الجانينية فرق السباهية أو السباهي ، وكبار أعضاء الهيئة الدينية الإسلامية
الحاكمة بعد أن زجوا بأنفسهم في هذا المعترك ، ووقفت طوائف الحرف
Trade Guilds (١) تراقب عن كثب تصارع هذه القوى لعلها تصيب منه
مغناً . وكان ولاء أعضاء طوائف الحرف للسلطان يغلب عليه الطابع الديني ،
بينما كان ولاؤهم لطوائفهم ذا طابع مادي واقتصادي واجتماعي .

وعلى تعدد مراكز القوى في الدولة وتباين نفوذها علواً و هبوطاً ،
كان لسيدات الفئة الأولى من الحرّيم السلطاني وغيرهن من الجوارى الحسنات
النفوذ الأول والأعلى بين جميع مراكز القوى في الدولة نظراً لاتصالهن
الوثيق والدائم بالسلطان من ناحية ، وتسلطنهن على الصدور العظام من ناحية
أخرى . وقد كن أساس جميع المساوئ أو معظم المساوئ التي تعرضت لها
الدولة في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر . وفي رأى المؤرخ
الإنجليزي الأستاذ جرانث أن سيدات الحرّيم السلطاني جعلن ظهور سلطان

(١) كان لأصحاب الحرف في الدولة مهمة وفي المدن الكبرى بمخاضة منظمات أو هيئات
تسمى طوائف الحرف . وكان لكل طائفة رئيسها ونقيبها ونظمتها الخاصة بها . وكانت الحكومة
تتصل بأفراد كل حرفة عن طريق رئيس الطائفة الذي يطلق عليه شيخ الطائفة . وكان يجمع
الضرائب والإتاوات المقررة عليهم ويوردها لخزينة الحكومة كما يلزمهم أوامرهم . وتمتعت
هذه الطوائف بشبه استقلال ذاتي في إدارة شئونها . وكان أعضاء كل طائفة يدينون بولاء محقق
جدا لطائفتهم إلى حد كان يفوق ولائهم للسلطان . ولما كانت طوائف الحرف تقوم في المدن فقد
كان يقابلها في الريف مجالس الثرى ، أو القبيلة في حالة البدو الرحل .

قوى الشكيمة أشبه بمعجزة (١). وهو رأى صائب يصدر عن مؤرخ عملاق .
والحق أن الأمثلة الصارخة العديدة التي سقناها في هذه الدراسة عن تساط
الحريم على السلاطين تؤكد ذلك الرأي وتصور حقيقة الأوضاع في
الدولة .

وكان التوسع في استخدام الحصيان البيض والسود في خدمة وحراسة
الحريم السلطاني دليلاً على ارتياح سلاطين الدولة لنظام الحصيان واطمئنانهم
لهؤلاء الحصيان من الناحية الخلقية على الأقل . وقد أدى هذا التوسع في
استخدامهم إلى تغلغلهم في شتى دوائر الحريم حتى أصبحوا ظاهرة اجتماعية
بارزة في حياة القصور السلطانية ، ومثالا يتداعى إلى الأذهان بكل جوانبه
وصوره ومعانيه بل ومآسيه إذا ذكر اسم دولة في الشرق أخذت بهذا النظام .
أما النفوذ الكبير الذي نجح الحصيان في استقطابه نحوهم فكان نتاج عدة
عوامل ، منها : أنهم كانوا الرجال أو أشباه الرجال الوحيدين الذين كانوا
يقبضون أو يعيشون في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية ،
ولم يجلبوا منافسين لهم في هذا الصدد ، وأنهم كانوا على اتصال دائم ووثيق
بسيئات الحريم نتيجة قيامهم بمحاسن وخدماتهن ، وأنهم كانوا موضع
الثقة التامة للحريم وأداة الاتصال الوحيد بين الحريم وكبار رجال الدولة في
خارج القصور . فلذا كانت نهاية المطاف بالحصيان أنهم أصبحوا مركزاً
من مراكز القوى فإن هذه النهاية كانت أولاً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته
الدولة لهم في داخل مناطق الحريم السلطاني في القصور السلطانية بالإقامة
الدائمة في تلك المناطق المغلقة لتجعل منهم مراكز نفوذ وقوة دون قصد منها .
وثانياً نتيجة « الوضع » الذي أنشأته لهم سيئات الحريم السلطاني يجعلهم اليد
اليمني لمن وأداة الاتصال بينهما وبين رجال الدولة على أعلى المستويات .
وكان ثالثاً نتيجة استغلال الحصيان للوضعين السابقين في أذكاء وفطنة وهدوء
وتفان في الخدمة وأدب جمع مما أضفى عليهم النفوذ والجاه . لقد كان الحريم

Grant A.J.; A History of Europe (1494—1610); op. cit., (١)

السلطاني وانحصيان مركزين هامين من مراكز القوي يكمل بعضهما بعضا .
ولذلك كان يقرن ذكر الحرم السلطاني بذكر انحصيان سواء في أذهان
المؤرخين والباحثين أو في كتاباتهم .

حكومة الحرم والانحصيان :

وقد وصف بعض المؤرخين والباحثين الحكومة العثمانية خلال تلك
الفترة بأنها « حكومة السيدات (الحرم) والانحصيان » *Gouvernement des Femmes et des Eunuques* (١) وقد يرى البعض في هذا الوصف
نوعاً من المبالغة أو الرغبة في التشهير بالدولة العثمانية . ولكن التزامنا
بمبدأ الحيطة المطلقة في هذه الدراسة وفي غيرها من الدراسات يفرض
علينا أن نذكر أن هذا الوصف يصور جانباً كبيراً من الحقيقة .
 ويفرض علينا مبدأ الحيطة أيضاً أن نشير إلى أنه - كان هناك جانبان
يتصلان بهذه الحقيقة . الجانب الأول أن ظاهرة تفاقم نفوذ الحرم
السلطاني والانحصيان ورواسئهم قد نشأت في العصر العثماني الثاني أو مايسمى
عصر سلاطين الفترة الثانية ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت على وجه
التحديد في أواخر حكم السلطان سليمان المشرع آخر سلاطين الفترة الأولى
أو مايسمى سلاطين العصر الذهبي . وكانت بداية هذه الظاهرة عند ما شرعت
روكسلانه توضع الخيوط الأولى لمؤامرتها التي استهدفت منها قتل الأمير
مصطفى ولي العهد وتعيين ابنها الأمير سليم مكانه ، أما سلاطين الفترة الثانية
فلم تكن لدى معظمهم قوة الخلق أو الشخصية التي تجعلهم يقفون في وجه
الجميلات الفاتنات من سيدات الحرم السلطاني ويمتنعون تدخلهن في شئون
الدولة ، كما أن هؤلاء السلاطين لم يتصدوا للإطاحة بنفوذ العبيد انحصيان

Lavisse et Rambaud; op. cit., vol. v, p 882.

(١)

محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١

٦٣-٥٩

دكتور عبد العزيز محمد الشناوي ، أوروبا في مطلع الخ ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ،

الطبعة الأولى ، ص ٧٥٥

وبخاصة الخصبان السود الذين أصبحوا يباشرون حتى القرن الثامن عشر نفوذاً على السلاطين لم تعرف له الدولة من قبل مثيلاً :

ويعرض المؤرخ الفرنسي رامبو في العبارات التالية الخطوط الرئيسية لنشأة مراكز القوى في الدولة وتطورها منذ الصراع الذي خاضته روكسلانه ذات الوجه الباسم من أجل ابنها وتعيينه ولياً للعهد :

«Djà, au temps de Soliman le Grand, il y avait eu conflit entre le harem et le grand-vizirat, et Roxelane avait obtenu la mort d'Ibrahim. déjà, de son temps, le harem avait commencé à se subordonner le Divan: Roustem n'était devenu grand-vizir que parce qu'il était le gendre de Roxelane et son docile instrument. D'autres catastrophes achevèrent d'assouplir les grands-vizirs de la décadence. Pour se maintenir en place, ils laissent le harem piller et ruiner l'empire. Le Sultan ne gouvernant plus, le grand-vizir étant empêché de gouverner, c'est en dernière analyse, aux mains nègres eunuques et d'esclaves achetées qu'est remis le pouvoir absolu. Le sabre de Bayézid l'Eclair et de Mohammed le Conquérant n'est plus qu'un hochet. Le gouvernement est tombé en de telles mains que l'on comprend que d'autres prétendent y avoir leur part : l'odjak des janissaires, l'odjak des spahis, le corps des oulémas, bientôt les corps de métiers. L'anarchie militaire ou clericale est-elle pire, après tout, que cette anarchie du harem ? Que de fois les soldats mutinés allèguent des griefs légitimes ! Que de fois aussi les oulémas ont eu un sens juste des nécessités de l'empire ! La domination du harem est le pire mal dont souffre celui-ci : il s'attaque au nerf même de la monarchie, aux sources de sa force, en détruisant ses finances, ses armées, l'honneur de ses tribunaux et de son Eglise^(١), la patience et la fidélité de ses sujets»^(٢).

(١) المقصود بكلمة Eglise في هذا الموضع السلطة الدينية ، أي الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة في الدولة العثمانية .

Lavisse et Rambaud; op. cit., t. v, p. 883.

(٢)

ولم يستمر طويلاً عهد مراكز القوى في الدولة . فقد انتهى نهائياً المركز الأول من هذه المراكز وهو الفيالق الإنكشارية حين نجح السلطان محمود الثاني في إبادة هذه الفئة العسكرية الباغية في « الواقعة الخيرية » سنة ١٨٢٦ . أما الحريم السلطاني فقد توارى نفوذ سيداته وريداً وريداً . وعمل السلاطين على أن تأخذ هؤلاء السيدات حجمهن الطبيعي ، وأن يجردوهن من النفوذ ويمنعوهن من التدخل في شؤون الدولة . أما الأغوات الخصيان فقد قللت الدولة من أعدادهم ، وعملت في ذات الوقت على أن تستبدل بمعظمهم سيدات يشتغلن في خدمة الحريم . وحالت بين الخصيان المتبقين وبين التسلسل إلى أجهزة الدولة . أما ظاهرة خلع السلاطين فقد استمرت حتى القرن العشرين وسقوط السلطنة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الظاهرة أشد عنفاً مما كانت عليه على عهد مراكز القوى . فمن بين السلاطين الستة الأواخر اللذين جلسوا على عرش الدولة تم عزل خمسة منهم (١) . ولم يكن عزلم نتيجة تسلط مراكز القوى التي كانت قد توارت ، وإنما كان عزلم يتم نتيجة معارضة داخلية أو ضغوط خارجية تمثلت في هيئات وجمعيات من أخطاط شتى مارست نشاطها في أقاليم بعيدة عن عاصمة الدولة أو في بعض دول أوروبية ليتسنى لأعضائها حرية التخطيط والحركة وجمع الأنصار والمسلح .



(١) كان هؤلاء السلاطين الذين عزلوا

عبدالمعز بن محمود (١٨٧٦)

مراد الخامس بن عبدالمعز (١٨٧٦)

عبدالمعز الثاني بن عبدالمعز (١٩٠٩)

محمد السادس بن عبدالمعز (١٩٢٢)

أما عبدالمعز بن عبدالمعز فقد عين سنة ١٩٢٢ بصفته خليفة ، ولم يعين بصفته سلطاناً . ومع ذلك فقد تم عزله وترحيله مع أفراد أسرته في ظروف قاسية سنة ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة .

فهارس
الاعلام والأمكن والموضوعات
توجد في نهاية الجزء الثاني

تم بعون الله طبع الجزء الأول
في مطبعة جامعة القاهرة
المراتب العام
البرنس حموده حسين

رقم الإيداع ٥١٠٨ سنة ١٩٧٨
الترقيم الدولي ٨ - ٢٧٢ - ٢٦٦

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy
Professor of Modern History,
Head of the Department of History,
Faculty of Humanities,
Azhar University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

1930

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo

CAIRO UNIVERSITY PRESS.

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د. رشيد سالم الناصوري
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

THE OTTOMAN EMPIRE

An ISLAMIC MALIGNED STATE

By

Abdel Aziz M. El-Shennawy
Professor of Modern History,
Head of the Department of History,
Faculty of Humanities,
Azhaf University, Women's Branch, Cairo.

Volume I

Publisher : Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo.

CAIRO UNIVERSITY PRESS.

1980